فتح المجيد

لشرح كتاب التوحيد

تأليف

عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب

١١٩٣ - ١٢٨٥ هـ

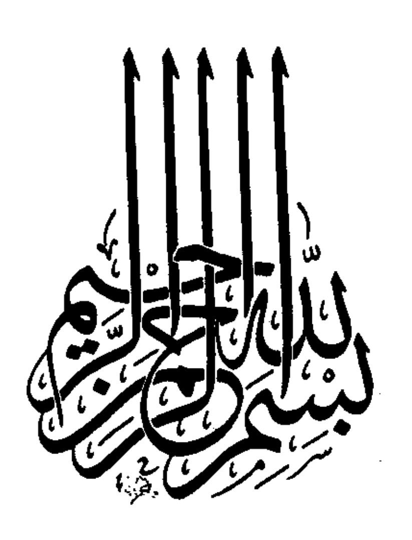
بتحقيق

الدكتور الوليد بن عبد الرحمن بن محمد آل فريان

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية الشريعة في الرياض

دار المؤيد



ح الوليد بن عبد الرحمن الفريان ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبد الوهاب، عبد الرحمن بن حسن بن محمد

فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد/تحقيق الوليد بن عبد الرحمن الفريان.- الرياض

٦٧٢ص ، ١٧×٢٤ سم .

ردمك :X-٠٦-٧٧٣-٩٩٦٠

١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ-الفريان ، الوليد بن عبد الرحمن (محقق)

ب- العنوان

ديوي ٢٤٠ ٢٠/٣٦٤٢

رقم الإيداع : ٢٠/٣٦٤٢

ردمك : X-٠٦-٧٧٣-٩٩٦٠

الطبعة الثامنة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار المؤيد

للنشر والتوزيع

الإدارة العامة - الرياض

هاتف: ٤٠٢٥١٩٧ - ٤٠٣١٣٧٧

فاكس: ٤٠٢٢٦١٥

جدة : ٦٦١٤٢٤١

أبها : ٢٢٦١٩٧٥

الطائف : ٧٣٢١٨٥١


فتح المجيد
لشرح كتاب التوحيد


بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الـمُتفرد بالبقاء والدوام على مر السنين وتعاقب الدهور والأعوام، المنزَّه عن الأمثال والأوهام.

والصلاةُ والسَّلام على نبينا محمد، النبي الخاتم المخصوص من الله بالفضل والإنعام، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الأوفياء الكُرماء الميامين، ومن اقتفى أثرهم وسار على نهجهم إلى يوم يُبعثون.

وبعـــدُ:

فهذا كتابُ (فتـح المجيـد لشـرح كـتاب التوحيـد) تأليـف العلامـة الكبير الشيـخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: أقدّمه بعد أنْ أمضيتُ في تحقيقه سنين عدداً، فقابلته على أصوله الخطية وعارضته بمصادره الكثيرة وأصلحتُ ما وقـع في طبعاتـه السابقـة مـن تحريـف ونقص. حتى خرج في هيئة أحسب أنها أقرب ما تكون إلى صورته الأولى التي تركها المؤلف.

وما هذه العنايةُ به ولا الحرص عليه، إلا لما لكلمة التوحيد الخالدة من أثر بالغ في حياة الأمة.

فهي قاعدةُ الإسلام العظمى، وحقيقتُه الكبرى: التي لا يقبل الله العمل إلا بها، ولا يرضى لعباده سواها، ولا طريق إلى محبته ورحمته إلا عن طريقها. وفي فاتحة السعادة وسبيل الهداية، وعنوان الفلاح والعاصمة من الخلاف، والأصل لكل خير ونعمة، وأول شئ ندب الله الخلقَ إليه، وبشَّر به رُسلُ الله وأنبياؤه عبادةُ الله، وحده لا شريك له: توحيداً في قصده، وخلقه وأمره وأسمائه وصفاتــه؛ قــال تعالــى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمَّة رسـولاً أنْ اعبدوا الله واجتنبــوا

الطاغوت﴾. [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نُوحي إليه أنَّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾. [الأنبياء: ٢٥].

وقال: ﴿وما أمروا إلاَّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يُشركون﴾. [التوبة: ٣١].

وقال: ﴿فاعبد الله مُخلصاً له الدين * ألا لله الدينُ الخالص﴾. [الزمر: ٢-٣].

وقال: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مُخلصين له الدين﴾. [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن تدبَّر أحوال العالم، وجد كل صلاح فى الأرض فسببهُ توحيدُ الله وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ. وكل شر فى العالم وفتنة وبلاء، وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفةُ الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله. ومن تدبر هذا حق التدبر، وجد هذا الأمر كذلك فى خاصة نفسه، وفى غيره عموماً، وخصوصاً. ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

ولَمَّا كان هذا من شأنه، وهذه آثاره الحميدة، وخصاله الجليلة. كان الشيطانُ أسرع شيءٍ إلى هدمه وتقويضه.

فلا يفتأ فى مضارَّته وتوهينه، ولا يزال يسعى إلى ذلك فى غُدوِّه ورواحه، بكل طريق يأمل عائدته ويرجو فائدتَه.

فإنْ أيس من الشرك الأكبر لم ييأس من شرك المقاصد والألفاظ، وإذا لم يُفلح توسَّل إليه بالبدع والخرافات[2]. فى استخفاءٍ ماكر خبيث، ووسوسة كذوب، كما تسرى النارُ فى الهشيم البالي.

وها هي آثاره المروِّعة، وسابلته المنكودة تفيض بالشر والفساد والانحطاط، حتى عادت بفئام من الأمة إلى دركات الجاهلية الأولى أو أشد.

وغني عن القول بعد أن كلَّ دعوةٍ للإسلام لا تقوم على التوحيد الخالص لله تعالى، ولا تأخذ طريقَها إلى مشرعِ سلف الأُمة الصالح، فهى تائهةٌ مخذولة مهزومة، وإنْ توهمت غير ذلك. لا تصبر على لقاء ولا تجسر على حق، ولا تحتملُ المواجهة.

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٥).

(٢) ينظر: ابن تيمية «الاستغاثة» (٢٩٣).

والنماذج الوافرة التي ازدحم بها التاريخ، تنطق بهذا المصير الكاسف، والنهاية البائسة.

فكم من دعوات تمادت بها السنون وتوالت عليها الأيام، وقدمت لها الأرواح وبذلت فيها الأموال، ثم انتهت إلى زوال.

وكم من حركات حثيثة غامرة، روت طريقها بالدماء، وتبارت في ضروب التضحية والفداء. فسقطت دون هدفها، ولم تحقق من أمرها شيئاً سوى الاضطهاد والتنكيل.

غير أنَّ المؤمن المُستيقن من موعود الله الحق، لا ييأس ولا يلين أبداً، ولا ينكسر أمام العواصف العاتية، ولا يقبل أنْ تتوالى عليه التجاربُ دون انتفاع[1].

وله في نبيه الكريم أعظم أسوة وأبلغ قدوة، قال تعالى: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾**. [الأحزاب: ٢١].

ومما كان على منهاج النبوة ـ في الدعوة إلى التوحيد، والبداءة به، وتقديمه على كل مهم ـ دعوةُ المجدِّد العلامة الإمام، محمد بن عبد الوهاب آل مشرف رحمه الله تعالى، التي حثَّت ركانها وسارعت خطوها وسارت على الهدي الأول. ولم تمض الأيام حتى انبلج صُبح الحق، وأسفر بوجهه. وانجاب عن نجد، ما غمرها من الظلم والجهل والعصبية المقيتة.

وعلى أثرها المبارك: نشأت في تلك البُقعة القاصية وقتئذ، دولةٌ إسلامية خالصة متوثبة. طهَّرت البلاد والعباد من رجس الشرك، وغمامات البغي والفُجور. وأتاحت لأولئك الأبرار تسنم نهضة إسلامية لا نظير لها.

وما برح الناس: أنْ أمنوا وسعِدوا، وضرب الإسلام فيها بسلطانه. وتدافع الخير إلى كل مكان.

ولا جرم: فإنَّه متى اجتمع الحقُ والصدق، والقيادة المخلصة. فلا أمل لباطل

---

(١) قال ﷺ: «لا يُلدغ المؤمنُ من جُحر واحدٍ مرتين». أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦١٣٣)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٩٩٨)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٧٩) من حديث أبي هُريرة.

في بقاء، وهو إلى ذهاب واضمحلال؛ قال تعالى: ﴿وقل جاء الحقُّ وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقا﴾[1]. [الإسراء: ٨١].

ولن يضير أهل الحق من أرعد وأزبد، وإنْ نثر الكنائن وتصيَّد الأتباع، ونصب الحبائل وطيَّر الشائعات، وروَّج الأحقاد والضغائن. فإنَّ أمره إلى سفال، وعمله في خسار.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فشراذمُ القاصرين والشذاذ عن هذا النور بمعزل، وعن الحق في صُدود، وإلى كل فتنة ينقلبون. وانْ لجُّوا بنصرته، ونعقوا بالدفاع عنه.

وسيبقى الخيرُ في ذيوع واتساع، رغم كل جاحد. والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وما كتابُ (فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد) الذي نقدم له: إلا قبسٌ من شعاع الحركة السلفية في هذه البلاد، ويُعد بحق من أوفى وأشمل كتب الدعوة، التي أسهمت في بيان منهجها وشرح طريقتها والدفاع عنها. بأسلوب علمي، وطريقة معتدلة. فاستحق أنْ يُهتم له ويحتفى به، وأنْ ينال كل عناية وتقدير.

ورغبةً في خدمة المزيد من تُراث أئمة الدعوة، وإظهار جهودهم الكريمة. قمتُ بتحقيق هذا الكتاب منذ سنوات، وبذلت له ما استطعت من جهد ووقت. ثم رأيتُ أن أخرجه رجاء أنْ يكتب الله به النفع، كما انتفع الناس من قبل بنُسخه الكثيرة وطبعاته المختلفة، وأن يُستدرك به ما كان من نقص وتحريف، وأن لا أُحرم من دعوة صالحة تسلك صاحبَها في سلك أولئك الأبرار.

والله المُوفِّق والمُعين، لكل خير وهو الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) كان هذا هو أساس نجاح الدعوة والدولة معاً، وسر نشاطها وقوتها واستتباب أمرها. فتسلَّط عليها العدو الماكر، وأجلب بالأعوان والأذناب. ولا يزال يهتبل الفُرص، ويبادر الغفلات: في وشاية كاذبة، ووسوسة خئون، واستغلال رخيص لأهواء النفوس وشهواتها.

النسخُ المعتمدة:

اجتمع لدي عند الشروع في التحقيق، خمسُ نسخ:

الأولى: خطية، تقع في ثمان وثمانين ومائة ورقة، ومسطراتها ٢٢ ـ ٢٣ سطراً تقريباً. محفوظة في مكتبة الرياض السعودية برقم ٨٦/ ٥١١، وذكر على طُرة الكتاب ما نصّه: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده، انتقلت هذه النسخة المباركة من ملك عيسى بن مفتاح الى ملك الحرة المصونة سارة بنت الإمام تركي بن عبد الله آل سعود. وقد أوقفتها لوجه الله تعالى على طلبة العلم في بلد الرياض، وقفاً صحيحاً لا يباع ولا يوهب ولا يرهن ضمن بدله... وصلّى الله على محمد. (١٢٨٤هـ.) ثمّ كتب بعد ذلك ما نصّه: بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد، تأليف الإمام العالم العلامة والحجة القدوة الفهامة، شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن ابن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب. أجزل الله لهم الأجر والثواب.

وهي نسخةٌ كاملة، مصحّحة ومقابلة على أصل المصنّف، ومكتوبة في حياته، ومقروءة على العلامة، محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف رحمه اله تعالى (ت ١٣٨٩هـ)، وقد جعلتها أصلاً.

الثانية: خطية، تقع في خمس وثمانين ومائة ورقة، ومسطرتها ٢٧ سطراً تقريباً، وعليها تملك لعبد الله بن علي آل حمّاد.

فُرغ من كتابها في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٠٨هـ بقلم عبد الرحمن بن داود بن سليمان بن تركى آل ضُحيّان، وأصلُها في إحدى مكتبات الرياض الخاصة، وصلت إليّ عن طريق الشيخ محمد بن إبراهيم المُهنّا، ورمزتُ لها بحرف (ض).

الثالثة: مطبوعة، في مطبعة الأنصاري في دهلي سنة ١٣١١هـ، طباعة حجرية قديمة وهي طبعةٌ ناقصةٌ، كثيرة الأخطاء، نادرة الوجود. سقط منها نحو كراس كامل، في أماكن متفرّقة[١]. وعنها أُخذت جميعُ الطبعات اللاحقة[٢]، ورمزت لها بحرف (هـ).

---

(١) ينظر: الباب رقم (٤،٩، ١٨، ٢٧) وغيره.

(٢) كطبعة الشيخ محمد حامد فقي عام ١٣٥٧، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٧ وطبعه مؤسسة النور بالرياض عام ١٣٨٦ هـ، وطبعه دار البيان عام ١٤٠٢هـ، وغيرها، مع بعض التصرّف وتغيير الأصل عما هو عليه.

الرابعة: مطبوعةٌ في مطابع شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة بالعمارية، عام ١٤٠٣هـ. على نفقة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، سابقاً. وهي كسابقتها، ما عدا مواضع يسيرة وأخطاء مطبعية محضة أضافها الطابعون إليها.

وقد جاء في آخرها، ما نصّه: كمل مقابلة وتصحيحاً وقراءة، على يد شيخنا العلامة المحقق الفهامة، بقية أهل الإستقامة الشيخ عبد الله بن الشيخ حسن آل الشيخ متع الله بحياته سنة ١٣٦٢هـ، ورمزت لها بحرف (ط).

الخامسة: خطية، ناقصةٌ من أوّلها ووسطها وآخرها. وعثرتُ عليها بين أوراق كثيرة، في مكتبة الشيخ المعمَّر، عبد العزيز بن صالح آل مرشد في الرياض. كُتبت بقلم نسخي جيد، ومسطرتها ٢٣ سطراً، وتتفق مع الأصل في كثير من الأحيان.

وقد قابلتُ منها مع النسخ السابقة نحو تسع وعشرين ورقة، الى منتصف باب تفسير التوحيد. ثمّ اكتفيتُ بمعارضتها مع النسخ الأخرى، فيما زاد على المطبوعتين. واستأنستُ بها فيما سوى ذلك، ورمزت لها بحرف (م).

العنوان والتوثيق:

اتفقت جميعُ النسخ الخطية التي أطلعت عليها، على هذا العنوان (فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد)، وكذلك نصّ المؤلّف في رسالته إلى العُماني[1].

إلاّ أنّي رأيتُ في إحدى المكتبات الخاصة في الرياض نسخةً ناقصة، بعنوان (التهذيب والتجريد لشرح كتاب التوحيد). وهكذا جاء في ديباجة الأصل، ثم شطب عليه وأثبت الاسم المذكور.

وفي سائر الطبعات الأخرى عنوانه (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد)، وعلى هذا نصّ أصحابُ التراجم.

غير أنّي أثبت العنوان الأول الذي اختاره المؤلّف ونصّ عليه، وهو المدون على الأصول الخطية المعتمدة.

---

(١) عبد الرحمن بن حسن، «مجموعة التوحيد» (١/ ٥٥) وانظر: ابن قاسم «الدرر السنية» (٢/ ٢٩٠).

والكتاب صحيح النسبة إلى المؤلّف، دون شكّ، فقد ذكره كما سبق، وأجمعت النسخُ على ذلك، وكذلك كُتب التراجم. كما أنّه أحال فيه إلى أحد كُتبه المشهورة، وأشار إلى أخذه عن الإمام محمد بن عبد الوهاب. ولا أعرف أن أحداً نسبه إلى غيره، في ما بين يدي من المصادر.

منهج التحقيق:

اعتمدتُ نسخة المكتبة السعودية أصلاً، لجودتها وقِدمها. وعارضتُ النسخ الأخريات بها، وأثبت ما بينها من الفروق الهامة[1]، ولا سيما ما سقط من المطبوعة. أمّا نُعوت التكريم ونحوها فاقتصرتُ على ما في الأصل، دون أنْ أُشير إلى الاختلاف لعدم الأهمية.

ولم أتصرّف في النصّ إلاّ في حدود ما تمليه الضرورة، من تعديل أو إضافة، مع الإشارة إلى ذلك في موضعه.

وقمتُ بعزو الآيات الكريمة، وتخريج الأحاديث والآثار، مع نقل كلام أهل العلم في شأن ثبوتها ما استطعت. واجتهدتُ في أن أرد النصوص إلى مصادرها، حسب الطاقة.

كما فسّرت ما حسبته غامضاً، وترجمتُ لغير المشاهير، وعلّقتُ باقتضاب على ما رأيتُ أنّه يحتاج إلى تعليق.

ووضعتُ لكل باب عنواناً مرقّماً، أخذته من عناوين كتاب التوحيد، لزيادة الإيضاح. كما أثبت أرقام الأصل في الهامش، لمن أراد الرجوع إليه.

والتزمتُ أنْ يبدأ كلامُ صاحب المتن بكلمة: قال المصنف رحمه الله تعالى: ويبدأ كلام الشارح بحرف (ش). ولم أُخلّ به قطّ، وإنْ كانت النسخُ التي بين يدي لا تلتزم به دائماً. وقمت بحذف جميع الزيادات التي لم ترد في الأصول الخطية التي بين يدي، من النصوص والمسائل وغيرها، حيث ضمها الطابعون الى الشرح وتصرفوا في الكتاب.

كما التزمتُ أيضاً بإيراد الآيات الكريمة كاملة، ما استدعى إليه المقام. وإنْ كانت

---

(١) ومن أراد معرفة الفروق بين النسخ فيمكنه الرجوع إلى الطبعة الأولى عام ١٤١٥هـ.

ترد أحياناً، مشاراً إلى بقيتها بكلمة: الآية. وتركتُ التنبيه عليه في كل موضع، اكتفاءً بذكره هنا.

وحرصتُ على سلامة نص (كتاب التوحيد)، فقابلته على نُسختين خطيتين جيدتين، صورتُهما من إحدى المكتبات الخاصة في الرياض.

أسأل الله تعالى أن ينفع به الجميع، وأنْ يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويوفقنا وكافة إخواننا المسلمين إلى ما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة، وأن يكتب لجميع من أسهم فيه الأجر والمثوبة. إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو للخير أهل. والحمدُ لله حمداً كثيراً طيّباً مُباركاً، كما يحب ربنا ويرضاه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبه
الوليد بن عبد الرحمن بن محمد آل فريّان
جامعة الإمام محمد بن سُعود الإسلامية
كلية الشريعة في الرياض

نمـــاذج النســـخ الخطيـــة

كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تأليف الإمام العالم العلامة والحجة القدوة الفهامة شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن ابن حسن ابن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب

١ - ورقة العنوان من الأصل

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وعليه التكلان

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين كالمبتدعة والمشركين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين وقيوم السموات والأرضين وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه أجمعين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً أما بعد فإن كتاب التوحيد الذي ألفه الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب وغفر له ولمن أجاب دعوته إلى يوم يقوم الحساب قد جاء بديعاً في معناه من بيان التوحيد ببراهينه وجمع جملاً من أدلته لتبيينه فصار علماً للموحدين وحجة على الملحدين فانتفع به الخلق الكثير والجم الغفير فإن هذا الإمام رحمه الله في مبدأ نشأته قد شرح الله صدره للحق المبين الذي بعث به المرسلين من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين وإنكار ما عليه الكثير من شرك المشركين فأعلى الله همته وقوى عزيمته فتصدى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد الذي هو أساس الإسلام والإيمان ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور والطواغيت والأوثان وعن الإيمان بالسحرة والمنجمين والكهان فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو إليها كل شيطان وأقام الله به علم الجهاد وأدحض به شبه المعارضين من أهل الشرك والعناد ودان بالإسلام أكثر أهل تلك البلاد الحاضر منهم والباد وانتشرت دعوته ومؤلفاته في الآفاق حتى أقر له بالفضل من كان من أهل الشقاق إلا من استحوذ عليه الشيطان وكره إليه الإيمان فأصر على العناد والطغيان وقد أصبح أكثر أهل جزيرة العرب بدعوته كما قال قتادة رحمه الله تعالى عن حال أول هذه الأمة إن المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم فأبى الله إلا أن يعضيها ويظهرها وينصرها على من ناوأها إنها كلمة من خاصم بها فلج

٢ - الورقة الأولى من الأصل

ونفى عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال ليس كمثله شيء واستمع من فتح الباب قوله وعن العباس بن
عبد المطلب ساقه المصنف مختصرا والذي في سنن ابي داود عن العباس بن عبد المطلب
قال كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت بهم سحابة فنظر
اليها فقال ما تسمون هذه قالوا السحاب قال والمزن قالوا والمزن قال والعنان قالوا
والعنان قال ابو داود لم اتقن العنان جيدا قال هل تدرون كم بعد ما بين السماء والارض
قالوا لا ندري قال ان بعد ما بينهما اما واحدة او اثنتان او ثلاث وسبعون سنة ثم
السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ثم فوق السابعة بحر اسفله واعلاه مثل ما بين
سماء الى سماء ثم فوق ذلك ثمانية اوعال بين اظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء الى سماء
ثم على ظهورهم العرش بين اسفله واعلاه كما بين سماء الى سماء ثم الله تبارك وتعالى فوق
ذلك واخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حسن غريب وقال الحافظ
الذهبي رواه ابو داود باسناد حسن وروى الترمذي نحوه من حديث ابي هريرة وفيه
بعد ما بين سماء الى سماء خمسمائة عام ولا منافاة بينهما لان تقدير ذلك بخمسمائة عام
هو على سير القافلة مثلا ونيف وسبعون سنة على سير البريد لانه يصح ان يقال بيننا
بين مصر عشرون يوما باعتبار سير العادة وثلاثة ايام باعتبار سير البريد وروى شريك
بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه هذا آخر كلامه قلت فيه التصريح بان الله فوق عرشه
كما تقدم في الآيات المحكمات والاحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين
وتابعيهم وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما ولا عبرة بقول من ضعفه
لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها وصرفها عن ظواهرها وهذا الحديث دال
على عظمة الله وجلاله وعظيم مخلوقاته وانه المتصف بصفات الكمال التي وصف
نفسه في كتابه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى كمال قدرته وانه هو المعبود
وحده لا شريك له دون كل ما سواه وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيد المرسلين وامام المتقين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين تم كتاب فتح المجيد بعون الملك الحميد

٣ - الورقة الأخيرة من الأصل

كتاب فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد
لشيخنا العالم العلامة والحبر البحر الفهامة
حفيد المصنف الشيخ عبد الرحمن بن حسن
ابن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب
ابن الشيخ سليمان
ابن علي عاملهم الله
بلطفه الخفي
آمين

العلم زين وخير الناس يطلبه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
فعش بعلم ولا تبغي به بدلا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

اعمل لنفسك قبل الموت مجتهدا ... فإنما الربح والخسران في العمل

تخالف الناس فيما قد رأوا ورووا ... وكلهم يدعون الفوز بالظفر
فخذ بقول يكون النص ينصره ... إما عن الله أو عن سيد البشر

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أما بعد فإن العلم بطي اللزام بعيد المرام لا يدرك بالسهام ولا يرى في المنام ولا يورث عن الآباء والأعمام إنما هو شجرة لا تصلح إلا بالغرس ولا تغرس إلا بالنفس ولا تسقى إلا بالدرس ولا يحصل إلا بالاستناد إلى الحجر وافتراش المدر وإدمان السهر وقلة النوم وصلة الليل باليوم ولا يحصل إلا لمن أنفق العينين وجثى على الركبتين ... نهاره بالجمع وليله بالجماع ... للمحابر ويقطع القفار ولا يفصل في طلب العلم بين الليل والنهار ...

٤ - ورقة العنوان من نسخة (ض)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا
على الظالمين كالمبتدعة والمشركين واشهد ان لا اله الا الله وحده
لا شريك له اله الاولين والاخرين وقيوم السموات والارضين واشهد
ان محمدا عبده ورسوله وخيرته من خلقه اجمعين اللهم صل على محمد
وعلى آل محمد واصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وسلم تسليما
اما بعد فان كتاب التوحيد الذي الفه الامام شيخ الاسلام
محمد بن عبد الوهاب اعظم الله له الاجر والثواب وغفر له ولمن
اجاب دعوته يوم يقوم الحساب قد جاء بديعا في معناه من بيان
التوحيد ببراهينه وجمع جمل من ادلته لتبيينه فصار علما للموحدين
وحجة على الملحدين فانتفع به الخلق الكثير والجم الغفير
فان هذا الامام رحمه الله في مبدأ نشأته قد شرح الله صدره
للحق المبين الذي بعث الله به المرسلين من اخلاص العبادة بجميع
انواعها لله رب العالمين وانكار ما كان عليه الكثير من شرك
المشركين فاعلى الله همته وقوى عزيمته فتصدى لدعوة اهل
نجد الى التوحيد الذي هو اساس الاسلام والايمان ونهاهم عن
عبادة الاشجار والاحجار والقبور والطواغيت من الاوثان
وعن الايمان بالسحرة والمنجمين والكهان فابطل الله بدعوته كل
بدعة وضلالة يدعو اليها كل شيطان واقام الله به علم الجهاد
وادحض به شبه المعارضين من اهل الشرك والعناد و
دان بالاسلام اكثر اهل تلك البلاد الحاضر منهم والباد وانتشرت
دعوته ومؤلفاته في الافاق حتى اقر له بالفضل من كان من اهل
الشقاق الا من استحوذ عليه الشيطان وكره اليه الايمان
فاصر على العناد والطغيان وقد اصبح اكثر اهل جزيرة العرب
بدعوته كما قال قتادة رحمه الله عن حال اول هذه الامة ان
المسلمين لما قالوا لا اله الا الله انكر ذلك المشركون وكبرت
عليهم فابى الله الا ان يمضيها وينصرها ويظهرها على من ناواها

٥ - الورقة الأولى من نسخة (ض)

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وحسبنا الله
ونعم الوكيل وصلى الله على سيد المرسلين
وامام المتقين نبينا محمد وعلى اله
وصحبه اجمعين وسلم
تسليما كثيرا الى
يوم الدين
امين

م

تم الكتاب المسمى فتح المجيد بعون الملك الحميد بقلم افقر
العباد واحوجهم الى رحمة ربه المنان عبد الرحمن ابن داود
ابن سليمان ابن تركي آل ضحيان غفر الله له ولوالديه ولمشايخه
ولاخوانه المسلمين الاحيا منهم والميتين فرغت منه يوم
الاربعاء لثلاثة وعشرين يوما خلت من شهر رجب سنة ١٣٠٨

٦ - الورقة الأخيرة من نسخة (ض)

الجنة قال العماد بن كثير صحيح من هذا الوجه وعن ابي بكرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انبئكم باكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول
الله قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال
الا وقول الزور الا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا
ليته سكت رواه البخاري ومسلم وعن عبد الله بن عمرو قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الرب في رضى الوالدين وسخطه في
سخط الوالدين رواه الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم وعن
ابي اسيد الساعدي قال بينا نحن جلوس عند النبي صلى الله
عليه وسلم اذ جاء رجل من بني سلمة فقال يا رسول الله هل بقي من
بر ابوي شيء ابرهما به بعد موتهما فقال نعم الصلاة عليهما
والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا تو
صل الا بهما واكرام صديقهما رواه ابو داود وابن ماجه والاحاد
يث في هذا المعنى كثيرة جدا قوله واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا
قال العماد بن كثير رحمه الله في هذه الاية يامر تعالى بعبادته وحده
لا شريك له فانه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه
في جميع الحالات فهو المستحق منهم ان يوحدوه ولا يشركوا به شيئا
من خلقه انتهى وهذه الاية هي التي تسمى اية الحقوق العشرة
وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الا
ية على اية الانعام ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الاتي لا
ية الانعام ليكون ذكرها بعدها انسب وقوله تعالى قل تعالوا
اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا الا
يات قال العماد بن كثير يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل

٧ - الورقة الأولى من النسخة (م)

الدعاء أو السلام كما يفعله كثير قال شيخ الإسلام لأن ذلك لم ينقل عن
أحد من الصحابة فكان بدعة محضة وفي المبسوط قال مالك لا أرى أن يقف
عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولكن يسلم ويمضي ونص أحمد أنه يستقبل القبلة
ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره وبالجملة قد اتفق الأئمة على أنه إذا
دعا لا يستقبل القبر فهنا نحو هذا يستقبله عند السلام عليه لا وفي
الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره صلى الله عليه وسلم وإلى قبر غيره من ا
لقبور والمشاهد لأن ذلك من اتخاذها أعيادا بل من أعظم أسباب الإشراك
بأصحابها وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام الحنبلي من سافر
لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ونقل فيه اختلاف العلماء فمن مبيح لذلك
كالغزالي وأبي محمد المقدسي ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد الجويني
والقاضي عياض وهو قول الجمهور نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة
وهو الصواب لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تشد
الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى فقد
دخل في النهي شد الرحال لزيارة القبور والمشاهد فإما أن يكون نهيا وإما أن يكون
نفيا وجاء في رواية بصيغة النهي فتعين أن يكون للنهي ولهذا فهم
منه الصحابة المنع كما في الموطأ والسنن عن بصرة بن أبي بصرة الغفاري
أنه قال لأبي هريرة وقد أقبل من الطور لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد
الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة في أخبار
المدينة بإسناد جيد عن قزعة قال أتيت ابن عمر فقلت إني أريد الطور
فقال إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد
الأقصى فدع عنك الطور ولا تأته فابن عمر وبصرة بن أبي بصرة جعلا
الطور مما نهي عن شد الرحال إليه لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن
شد الرحال عن غير الثلاثة مما يقصد به القربة فعلم أن المستثنى منه عام

٨ - الورقة الأخيرة من النسخة (م)

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعينُ وعليه التُّكلان

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين ولا عُدوان إلاَّ على الظالمين - كالمبتدعة والمُشركين - وأشهدُ أنْ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، إلهُ الأوَّلين والآخرين وقَيُّوم السماوات والأرَضين. وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسوله وخِيرتُه من خلقه أجمعين.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وأصحابه ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليماً.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ كتابَ التَّوحيد - الذى ألَّفه الإمامُ شيخُ الإسلام، محمَّد بن عبد الوهَّاب، أجزل الله له الأجر والثواب، وغفر له ومن أجاب دعوتَه يوم يقوم الحساب - قد جاء بديعاً فى معناه: من بيان التوحيد ببراهينه، وجمعِ جُملٍ من أدلته لإيضاحه وتبيينه. فصار عَلَماً للموحِّدين، وحُجَّةً على الملحدين. فانتفع به الخلقُ الكثير، والجمُّ الغفير.

فإنَّ هذا الإمام رحمه الله في مُبتدأ نشأته، قد شرح الله صدرَه للحق المُبين، الذى بَعث به المرسلين: من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، وإنكـــار ما عليه الكثيرُ من شرك المشركين.

فأعلى الله همَّته، وقوَّى عزيمته، فتصدَّى لدعوة أهلِ نجد إلى التوحيد - الذى هو أساسُ الإسلام والإيمان - ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار، والقبور والطواغيت والأوثان، وعن الإيمان بالسَّحرة والمنجِّمين والكُهَّان.

فأبطل الله بدعوته كلَّ بدعة وضلالة يدعو إليها كلُّ شيطان، وأقام الله به عَلَم الجهاد، وأدْحَض به شُبَه المعارضين من أهل الشرك والعناد، ودانَ بالإسلام أكثرُ أهل تلك البلاد، الحاضر منهم والباد، وانتشرت دعوته ومؤلفاتهُ فى الآفاق، حتى

أقرّ له بالفضل من كان من أهل الشقاق. إلاّ من استحوذ عليه الشيطان وكرّه إليه الإيمان، فأصرَّ على العناد والطغيان.

وقد أصبح أكثرُ أهل جزيرة العرب، بدعوته كما قال قتادة[(١)] رحمه الله تعالى عن حال أوَّل هذه الأمة: إنَّ المسلمين لمّا قالوا: لا إله إلاَّ الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم، وضاق بها إبليسُ وجنوده. فأبى الله إلاَّ أنْ يُمْضيها ويظهرها، وينصرها على من ناوأها. إنَّها كلمةٌ من خاصم بها فَلَج/ ، ومن قاتل بها نُصر. إنما يعرفها أهلُ هذه الجزيرة التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل، ويسير الراكبُ في فئام من الناس، لا يعرفونها ولا يُقرُّون بها. [١/أ]

وقد شرح الله صدورَ كثيرٍ من العلماء لدعوته، وسرُّوا واستبشروا بطلعته، وأثنوا عليه نثراً ونظماً.

فمن ذلك، ما قاله عالمُ صنعاء: محمد بن إسماعيل الأمير[(٢)]، في هذا الشيخ رحمه الله تعالى [شعراً][(٣)]،

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنه	يُعيد لنا الشرعَ الشريف بما يُبدي
وينشر جهراً ما طَوى كلُ جاهل	ومُبتدع منه فوافق ما عندي
ويَعمرُ أركان الشريعة هادمًا	مشاهد ضلَّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواع ومثله	يغوث وَوَدٍّ بئس ذلك من وَدِّ
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتفُ المُضطر بالصَّمد الفرد
وكم عقروا في سُوحها من عَقيرةٍ	أهلَّت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائفٍ حول القبورُ مقبِّلٍ	ومُستلم الأركان منهنّ بالأيدي[(٤)]

(١) أبو الخطاب بن دِعَامة السَّدوسي، تابعي جليل، ثقة ثبْت توفي بعد المئة. «تقريب التهذيب» (٤٥٣).

(٢) محمد بن إسماعيل الأمير، الكُحلاني، من ذريّة الحسن بن علي رضي الله عنه، حافظٌ أصولي فقيه، ولد سنة ١٠٩٩هـ، له كتاب: «سُبل السلام»، «وتوضيح الأفكار»، «وإرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد»، توفى سنة ١١٨٢هـ. «البدر الطالع» (٢/١٣٣).

(٣) إضافة من (ض).

(٤) وهي قطعة من قصيدة طويلة، في أكثر من سبعين بيتاً، كتبها سنة ١١٦٣ هـ ومطلعها:

سلام على نجد ومن حلّ في نجد	وإن كان تسليمي على البُعد لا يُجدي

«الديوان» (/١٢٨).

وقال شيخُنا[١] أبو بكر، حُسين بن غَنَّام[٢] رحمه الله تعالى، فيه:

لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدى ... بوقتٍ به يُعلَى الضلالُ ويَرفعُ
سقاه نميرَ الفهم مولاه فارتوى ... وعام بتيّار المعارف يقطعُ
فأحيا به التوحيدَ بعد اندراسه ... وأوهى به من مطلع الشرك مهيع[٣]
سما ذرْوة المجد التي ما ارتقى لها ... سواه ولا حاذَى فناها سميدع[٤]
وشمَّر في منهاج سنَّة أحمد ... يُشيد ويحيي ما تعفًّى ويرفع
يُناظر بالآيات والسُّنة التي ... أُمرنا إليها في التنازع نرجع
فأضحت به السمحاء[٥] يبسمُ ثَغرها ... وأمسى محيّاها يُضيء ويلمع
وعاد به نهجُ الغواية طامسًا ... وقد كان مسلوكاً به الناس تَربع[٦]
وجرّت به نجدٌ ذيول افتخارها ... وحُقَّ لها بالألمعيّ[٧] ترفَّع/ [١/ب]
فآثاره فيها سوامٍ سوافرٌ ... وأنواره فيها تُضيء وتلمع[٨]

وأمَّا كتابهُ المذكور، فموضوعه: في بيان ما بعث الله به رسله: من توحيد العبادة، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة، وذكر ما يُنافيه من الشرك الأكبر، أو يُنافي كماله الواجبَ من الشرك الأصغر ونحوه، وما يَقرُب من ذلك أو يوصل إليه.

---

(١) (ض) (هـ) (ط) شيخنا عالم الأحساء.

(٢) مؤرخ أديب نحوي، استقدمه الإمام محمد بن سعود من الأحساء ليعلم أبناء الدعوة النحو، فقرأ عليه غالب من كان في الدرعية من طلبة العلم توفى سنة ١٢٢٥هـ. «عنوان المجد» (١/ ٣١١).

(٣) المَهْيَع: الطريق الواسع الواضح. «مُعجم» ابن فارس (٦/ ٢٥).

(٤) (ط): سَميْذع. وهو بإعجام الدال، وإهمالها: الكريم الشريف السخي الشجاع «ترتيب القاموس» (٢/ ٦٢٢).

(٥) الأصل: السحماء

(٦) (ط): ترتع. والرِّبعة: السير الشديد «الاضداد» (/ ٣٦٦)..

(٧) الألمعيُّ: الرجل الذي يظنُّ الظنّ فلا يكادُ يكذب، «معجم ابن فارس» (٥/ ٢١٢).

(٨) مقطع من قصيدة في رثاء الإمام محمد بن عبد الوهاب، وأولها:

لقد كسفت شمسُ المعارف والهُدى ... فسالت دماءٌ في الخدود وأدمُع

«عنوان المجد» (١/ ١٩٣).

وقد تصدَّى لشرحه: حفيد المصنِّف، وهو الشيخ سليمان بن عبد الله[1] رحمه الله تعالى. فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد، وأبرز فيه من البيان ما يحب أنْ يطلب منه ويراد، وسمَّاه (تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد)[2].

وحيث أطلق شيخ الإسلام، فالمراد به: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية. والحافظ، فالمراد به: أحمد بن حجر العسقلاني.

ولَمَّا قرأتُ شرحَه: رأيتُه أطنب في مواضع، وفي بعضها تكرارٌ يستغني بالبعض منه عن الكل، ولم يكمله[3].

فأخذتُ في تهذيبه وتقريبه وتكميله، وربما أدخلت فيه بعضَ النقول المستحسنة تتميمًا للفائدة، وسمَّيتُه: فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد.

والله أسأل، أن ينفع به كلَّ طالب للعلم ومُستفيد، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وموصلاً مَنْ سَعى فيه إلى جنات النعيم، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

ش: ابتدأ كتابَهُ بالبسملة؛ اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بحديث «كلُّ أمرٍ ذي بال[4] لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقْطع»[5].

---

(١) العلاَّمة الحافظ المفسرِّ، الفقيه الداعية المجاهد، سُليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ولد سنة ١٢٠٠، وتوفي في ريعان شبابه سنة ١٢٣٣هـ له ترجمة واسعة في مقدّمة رسالة «الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك» مطبوعة سنة ١٤٠٨هـ.

(٢) مطبوع متداول، وأعمل على تحقيقه ومعارضته بنسخه الكثيرة. يسّر الله ذلك.

(٣) حيث قُتل المؤلف أثناء أحداث الدرعية الدامية سنة ١٢٣٣هـ ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره، وما تركه كان مسوَّدة، وقد حالت وفاته المبكرة دون إكماله ومراجعته.

(٤) أي: شريفٌ، يُحتفل له ويهتم به. «النهاية» (١/ ١٦٤).

(٥) أخرجه عبد القادر الرَّهاوي في «الأربعين» كما في «الدرر المنثور» (١/ ٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ابن حجر، كما في «الفتوحات» (٣/ ٢٩٠): في سنده ضعف، وسقط بعض رواته.

أخرجه ابنُ حِبَّان من طريقين. قال ابنُ الصلاح: والحديثُ حسن[1].

ولأبى داود، وابن ماجه «كلُّ أمر ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع»[2] ولأحمد «كلُّ أمرٍ ذى بال لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع»[3] وللدارقطنى، عن أبى هريرة مرفوعًا: «كلُّ أمر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع»[4].

والمصنفُ قد اقتصر فى بعض نسخه على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر، وللحديث المتقدِّم.

وكان النبىُّ ﷺ يقتصر عليها فى مُراسلاته؛ كما فى كتابه لِهِرَقْلَ عظيم الروم[5].

ووقع لى نسخةٌ بخطه رحمه الله تعالى، بدأ فيها بالبسملة، وثنىَّ بالحمد والصلاة/ على النبى ﷺ وآله[6]. [٢/أ]

وعلى هذا: فالابتداءُ بالبسملة حقيقى، وبالحمدلة نسبىٌّ إضافى، أى: بالنسبة إلى ما بعد الحمد، يكون مبدوءًا به.

والباء فى (بسم الله) متعلقة بمحذوف، اختار كثيرٌ من المتأخرين: كونه فعلاً خاصًا، متأخرًا.

أما كونه فعلاً، فلأن الأصل فى العمل للأفعال.

وأمَّا كونه خاصًا: فلأن كل مُبتدِئٍ بالبسملة فى أمر، يُضْمِرُ ما جَعل البسملة مَبدأً له.

---

(١) قال السيوطى: وسندُه حسن. «الدر المنثور» (١/ ٢٦)، وقد وهم من حسّنه بهذا اللفظ، أو عزاه لابن حبان. وإنما ذلك فى الحديث بعده، كما سيأتى.

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٨٤٠) وابن ماجه فى «السنن» رقم (١٨٩٤)، وأخرجه ابن أبى شيبة، فى «المصنف» (٩/ ١١٦)، من حديث أبى هريرة.

(٣) «المسند» (٢/ ٣٥٩) وأخرجه النسائى فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٤٩٧).

(٤) الدارقطنى فى «السنن» (١/ ٨٤). وهو حسن بشواهده، كما قال النووى، فى «الأذكار» (١٠٣).

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» الرقم (٦) ومسلم فى «الصحيح» الرقم (١٧٧٣) وأحمد فى «المسند» (١/ ٢٦٢) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

(٦) وهي النسخة التي اعتمد عليها الشارح ، كما سيأتي

وأمَّا كونه متأخراً: فلدلالته على الاختصاص، وأدخل فى التعظيم، وأوفق للوجود، ولأنَّ أهمَّ ما يُبدأ به ذِكرُ الله تعالى[1].

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، لحذف العامل فوائد:

منها: أنَّه موطنٌ لا ينبغى أنْ يتقدَّم فيه غير ذكر الله.

ومنها: أن الفعلِ إذا حُذف صحَّ الإبتداء بالبسملة، فى كل عملٍ وقول وحركة. فكان الحذفُ أعمَّ. انتهى ملخصًا[2].

وباءُ بسم الله؛ للمصاحبة. وقيل: للاستعانة، فيكون التقدير: بسم الله أؤلِّف حال كونى مستعينًا بذكره، متبركًا به.

وأمَّا ظهوره فى ﴿إقْرأ باسْمِ ربِّك﴾ [العلق: ١] وفى ﴿بسم الله مَجْراها﴾ [هود/ ٤١] فلأنَّ المقامَ يقتضى ذلك، كما لا يخفى.

والاسم: مشتقٌ من السُّمُوِّ، وهو العلو. وقيل: من الوَسْم، وهو العلامة؛ لأن كل ما سُمِّى فقد نُوِّهَ باسمه ووُسِم.

قوله: (الله). قال الكِسائى والفَرّاء: أصلُه الإِله، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام فى اللام، فصارتا لاماً واحدةً مشدَّدة مُفخَّمة.

قال ابنُ القيم رحمه الله: الصحيحُ أنَّه مشتق، وأنَّ أصله الإِله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ. وهو الجامع لمعانى الأسماء الحُسنى، والصفات العُلى.

والذين قالوا بالاشتقاق، إنما أرادوا أنّه دالٌ على صفة له تعالى، وهى الإلهية. كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم، والقدير، والسميع والبصير، ونحو ذلك. فإنَّ هذه الأسماء مشتقةٌ من مصادرها بلا ريب، وهى قديمة. ونحن لا نعنى بالاشتقاق إلا أنَّها ملاقيةٌ لمصادرها فى اللفظ والمعنى، لا أنّها متولِّدة منه تَوَلُّدَ الفرْع من أصله.

---

(١) ويرى الحافظ ابن كثير: أنه سواء قدَّرنا المتعلق بالباء اسما أو فعلاً فكلاهما صحيح، وكلٌ قد ورد به القرآن الكريم «التفسير» (١/ ٣٨).

(٢) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٥).

وتسميةُ النحاة للمصدر، والمشتق منه: أصلاً وفرعاً، ليس معناه: أنَّ أحدهما متولِّدٌ من الآخر، وإنما هو باعتبار أنَّ أحدهما يتضمَّن الآخر/ وزيادة[1]. [٢/ب]

قال أبو جعفر بن جرير: الله. أصله الإِله، أُسقطت الهمزةُ التى هى فاء الاسم، فالتقت اللام التى هى عين الاسم، واللام الزائدة وهى ساكنة. فأُدغمت فى الأخرى، فصارتا فى اللفظ لاماً واحدة مشددة[2]. انتهى.

[وقال][3]: وأمَّا تأويل الله، فإنَّه على معنى مارُوى لنا، عن عبد الله بن عباس: هو الذى يَألَهه كلُّ شيء، ويعبده كل خلْقٍ.

ـ وساق بسنده ـ عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الله ذو الألوهية والعبودية[4] على خلقه أجمعين[5].

فإن قال لنا قائل: وما دلَّ على أنَّ الألوهية هى العبادة، وأنَّ الإِله هو المعبود، وأنَّ له أصلاً فى فَعِل ويَفْعَل؟

[قيل: لا تمانع بين العرب فى الحكم][6] ـ وذكَرَ ـ بيتَ رؤبة بن العجَّاج.

لله دَرُّ الغانِيــات المُــدَّهِ سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِنَ تَألُّهِى[7].

يعنى: من تعبدى، وطلبى الله بعملى.

ولا شك أنَّ التألُّه التفعُّل، من أَله يَألَه[8]. وقد جاء منه مصدرٌ، يدلُّ على أنَّ العرب قد نطقت منه[9] بفَعِل يَفْعَل، بغير زيادة.

وذلك ما حدّثنا به سفيان بن وكيع ـ وساق السند إلى ـ ابن عباس: أنَّه قرأ

---

(١) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٢). بتصرف.

(٢) ابن جرير: «جامع البيان عن تأويل القرآن» (١/ ١٢٥).

(٣) إضافة يقتضيها السياق.

(٤) فى «تفسير الطبرى» و«السيوطى»: المَعْبودية.

(٥) وأخرجه ابن أبى حاتم كما فى «الدر المنثور» (١/ ٢٣) وفيه بشر بن عُمَارة. ضعيف.

(٦) ساقط فى جميع النسخ، والاستدراك من «الجامع». والمعنى: لا اختلاف بينهم، يدعو بعضُهم إلى دفع ما يقوله الآخر.

(٧) رُؤبة: «الديوان» (١/ ١٦٥).

(٨) فى (ط) زيادة ما نصه: وأن معنى أله إذا نطق به: عبدَ الله.

(٩) (ض) (ط): به.

﴿ويَذَرَكَ والِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] قال: عبادتك، ويقول: إنه كان يُعبَد، ولا يَعبدُ.

وساق بسند آخرَ ـ عن ابن عباس ﴿ويَذَرَكَ وإلهتك﴾ قال: إنما كان فرعونُ يُعبد، ولا يَعبُدُ[١]. وذكر مثلَه عن مُجاهد.

[ثم قال][٢]: فقد بيَّن قولُ ابن عباس، ومجاهد [هذا][٢]: أنَّ أَلَه عَبَدَ، وأنَّ الإِلاهة مصدره. ـ وساق حديثاً ـ عن أبي سعيد مرفوعاً «إنَّ عيسى أسلَمته أُمُّه إلى الكتَّاب ليُعَلِّمه. فقال له المعلم: اكتب بسم الله[٣]، فقال عيسى: أتدرى ما الله؟ الله إلهُ الآلهة[٤] [٥]».

قال العلامة ابنُ القيم رحمه الله تعالى: لهذا الاسم الشريف عشرُ خصائص لفظية ـ ثم قال ـ : وأمَّا خصائصُه المعنوية، فقد قال أعلم الخلق به صلى الله عليه وسلم «لا أُحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[٦] وكيف تُحصى خصائصُ اسمٍ: لمسمَّاه كلُّ كمال على الإطلاق، وكلُّ مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل إجلال وكل كمال، وكل عزٍّ وكل جمال. وكلُّ خيرٍ وإحسان، وجود وفضل وبرٍّ فله ومنه/ . [٣/أ]

فما ذُكر هذا الاسمُ فى قليل إلا كثَّره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرْب إلا كشفه، ولا عند همٍّ وغَمٍّ إلا فرَّجه، ولا عند ضيق إلا وَسَّعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليلٌ إلا أناله العزّ، ولا فقيرٌ إلا أصاره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوبٌ إلا أيَّده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضرُّهُ، ولا شريدٌ إلا آواه.

فهو الاسمُ الذى تُكشف به الكربات، وتُستنزل به البركات، وتُجاب به

---

(١) الأثران عن ابن عباس، فى سندهما: سفيان بن وكيع. ضعيف، ينظر: «جامع البيان» (١/ ١٢٤).

(٢) ما بينهما ساقط من الأصل و(ض) و(هـ).

(٣) «جامع البيان» و(ض): الله.

(٤) وأخرجه ابن حبان فى «المجروحين» ترجمة رقم (٤٤)، وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٧/ ٢٥١) وابن عدى فى «الكامل» (١/ ٢٩٩) بسند ضعيف جداً، كما قال السيوطى فى «الدر المنثور» (١/ ٢٣).

(٥) ابن جرير، «جامع البيان» (١/ ١٢٢ - ١٢٤).

(٦) قطعةٌ من حديث، أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها.

الدعوات، وتُقال به العثرات، وتُستدْفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات.

وهو الاسم الذى قامت به السمواتُ والأرض[1]، وبه أُنزلت الكتب، وبه أُرسلت الرسلُ، وبه شُرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شُرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقةُ إلى السعداء والأشقياء، وبه حَقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وُضعت الموازين القسْط ونُصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عُبد ربّ العالمين وحُمد، وبحقّه بُعثت الرسل، وعنه السؤال فى القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سَعِد من عرفه وقام بحقه، وبه شَقِىَ من جهله وترك حقه. فهو سرُّ الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا.

فالخلقُ به وإليه، ولأجله. فما وجد خلقٌ ولا أمر، ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتديا منه منتهياً إليه. وذلك موجبه ومقتضاه **﴿ربَّنا ما خلقْتَ هذا باطلاً سُبحانك فَقِنا عذاب النار﴾**. [آل عمران ٩١]. إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

قوله: (الرحمن الرحيم). قال ابنُ جرير: حدَّثنى السَّريُ بن يحيى، حدثنا عثمان بنُ زُفَر، سمعتُ العرزمى[2] يقول: الرحمن بجميع الخلق، والرحيم بالمؤمنين.

وساق بسنده ـ عن أبى سعيد ـ يعنى الخُدرى ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ عيسى بن مريم قال: الرحمن. رَحمنُ الآخرة والدنيا، والرحيم: رحيمُ الآخرة»[3][4].

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: واسمُه: الله تعالى. دالٌ على كونه مألوهاً معبوداً، يألهه الخلائق: محبةً وتعظيماً وخضوعاً، ومفزعاً إليه فى الحوائج والنوائب/. وذلك مستلزمٌ لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمّنتين لكمال المُلك [٣/ب]

---

(١) (هـ) (ط): الأرض والسموات.

(٢) محمد بن عبيد الله نسبة إلى عرزم. «طبقات ابن سعد» (٦/ ٣٦٨). قال أحمد فى «المسند» (١١/ ١٤٤): لا يساوى حديثه شيئاً.

(٣) طرفٌ من خبر طويل، ضعيف جداً، سبق تخريجه قريباً.

(٤) ابن جرير: «جامع البيان» (١/ ١٢٧).

والحمد. وإلهيتُه وربوبيته ورحمانيته وملكه: مستلزمٌ لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحيٍ، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا مُتكلم، ولا فعَّالٍ لما يُريد، ولا حكيمٍ في أقواله وأفعاله.

فصفاتُ الجلال والجمال: أخصُّ باسم الله، وصفاتُ الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ونفوذِ المشيئة وكمال القوة، وتدبير أمر الخليقة: أخصُ باسم الرب.

وصفاتُ الإحسان، والجود والبر والحنان، والرأفة واللطف: أخصُ باسم الرحمن[1].

[وقال رحمه الله، أيضاً][2]:

الرحمنُ: دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم: دالٌّ على تعلُّقها بالمرحوم.

وإذا أردتَ فهم هذا، فتأمّل قوله تعالى: ﴿وكان بالمؤمنينَ رحيما﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إنَّه بهم رؤوفٌ رحيم﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ قطُّ رحمنٌ بهم.

وقال: إنَّ أسماء الرب تعالى، هي أسماءٌ ونعوت. فإنَّها دالةٌ على صفات كماله، فلا تَنَافي فيها بين العلميَّة والوصفية. فالرحمنُ: اسمُه تعالى، ووصفه.

فمن حيثُ هو صفةٌ، جرى تابعاً لاسم الله. ومن حيث هو اسم، ورد في القرآن غير تابع. بل ورُودَ الاسمِ العَلَمْ، كقوله تعالى: ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾ [طه: ٥] انتهى ملخصاً[3].

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: الحمدُ لله.

ش: ومعناه: الثناءُ بالكلام عَلى الجميل، على وجه التعظيم.

فمورده: اللسان، والقلب. والشكرُ: يكون باللسان، والجَنان، والأركان. فهو أعمٌّ من الحمد مُتعلَّقاً، وأخص سبباً؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة.

---

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٢) ما بينهما ساقطٌ من الأصل و(ض).

(٣) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

والحمد: أعمُّ سبباً، وأخص مورداً؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها. فبينهما عمومٌ وخصوص وجهي، يجتمعان في مادة، وينفرد كلٌّ واحد عن الآخر في مادة.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

ش: أصحُّ ما قيل في معنى صلاة الله على عبده: ما ذكره البخاريُّ رحمه الله تعالى، عن أبي العالية، قال: صلاةُ الله، ثناؤه عليه عند الملائكة[1].

وقرَّره ابنُ القيم رحمه الله تعالى، ونصره في كتابه (جلاءُ الأفهام)[2] و(بدائعُ الفوائد)[3].

قلتُ: وقد يُراد بها الدعاء؛ كما في (المسند) عن علي، مرفوعاً «الملائكة تُصلي على أحدكم ما دام في مُصلاَّه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»[4]./ [٤/أ]

قولهُ: (وعلى آله) أي: أتباعه على دينه. نصَّ عليه الإمامُ أحمد هنا.

وعليه أكثر الأصحاب[5]. وعلى هذا: فيشمل الصحابة، وغيرهم من المؤمنين.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: كتابُ التوحيد.

ش: كتاب: مصدر: كَتَبَ يكتُب كتاباً، وكتابةً وكتْباً. ومدارُ المادة على الجمع، ومنه: تكتَّب بنو فلان، إذا اجتمعوا. والكتيبة: لجماعة الخيل. والكتابة بالقلم: لاجتماع الكلمات والحروف. وسُمِّي الكتابُ كتاباً: لجمعه ما وُضع له.

والتوحيدُ، نوعان: توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية، والأسماء والصفات.

وتوحيدٌ في الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة.

قال العلامةُ ابن القيم رحمه الله تعالى: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيدٌ في الطلب والقصد.

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٥٣٢).

(٢) ابن القيم: «جلاء الأفهام» (٢٠)

(٣) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٦).

(٤) «مسند» أحمد (١/ ١٤٤)، وأخرجه من حديث أبي هريرة. البخاري في «الصحيح» رقم (٦٥٩) ومسلم في «الصحيح» رقم (٦٤٩).

(٥) أصحاب أحمد. وينظر: ابن قدامة، «المغني» (٢/ ٢٣٢) وابن عبد الهادي، «الدر النقي» (١/ ١٦).

فالأوَّلُ: هو إثباتُ حقيقة ذاتِ الرب تعالى، وصفاته وأفعاله وأسمائه، وتكلُّمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه . وقد أفصح القرآنُ عن هذا النوع جِدَّ الإفصاح، كما فى أوّل سورة الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأوَّلِ تنزيل السجدة، وأوَّل آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثانى: ما تضمنته سورةُ قُل يا أيها الكافرون، وقوله تعالى: ﴿**قُل يا أهل الكتاب تَعَالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نُشرك به شيئا ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دَون الله فإنْ تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وأوَّلُ سورةِ تنزيل الكتابِ[١]، وآخرُها. وأوَّل سورة يونس ووسطُها، وآخرها. وأوَّل سورة الأعراف، وآخرها. وجملةُ سورة الأنعام، وغالبُ سور القرآن. بل كلُّ سورة فى القرآن، فهى متضمنةٌ لنوعىِّ التوحيد، شاهدةٌ به داعية إليه.

فإنَّ القرآن: إمَّا خبرٌ عن الله تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله. فهو التوحيدُ العِلمىُّ الخبرى.

وإمَّا: دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلْع ما يُعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادىُّ الطلبى.

[٤/ب] وإمَّا:/ أمرٌ ونهىٌ، وإلزامٌ بطاعته وأمره ونهيه. فهو حقوق التوحيد ومكمِّلاتُه.

وإمَّا: خبرٌ عن إكرام أهل التوحيد، وما فعل بهم فى الدنيا، و[ما][٢] يكرمهم به فى الآخرة. فهو جزاءُ توحيده.

وإمَّا: خبرٌ عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال، وما يَحُلّ بهم فى العُقبى من العذاب. فهو جزاءُ من خرج عن حُكم التوحيد.

فالقرآنُ كلّه: فى التوحيد وحقوقِه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم. انتهى[٣].

قال شيخُ الإسلام: التوحيدُ الذى جاءت به الرسلُ، إنما يتضمَّن إثباتَ الإلهية

(١) سورة غافر.

(٢) إضافة من: (ض) و(ط) و«المدارج».

(٣) ابن القيم: «مدارج السالكين» (٣/٤٤٩).

لله وحده، بأنْ يشهدَ أنْ لا إله إلا هو. لا يَعْبدُ إلا إياه، ولا يتوكلُ إلا عليه، ولا يوالى إلا له، ولا يُعادى إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله.

وذلك يتضمن، إثباتَ ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات؛ قال تعالى: ﴿**وإلهكُم إلهٌ واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾. [البقرة: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿**لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إلهٌ واحد فإياي فارهبون**﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى: ﴿**ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهانَ له به فإنما حسابهُ عند ربه إنه لا يفلحُ الكافرون**﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقال تعالى: ﴿**وسئل من أرسلنا من قبلك من رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون**﴾ [الزخرف: ٤٥].

وأخبر عن كل نبيٍ من الأنبياء، أنهم دعوا الناسَ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقال: ﴿**قد كانتْ لكم أسوةٌ حسنة فى إبراهيم والذين معه إذْ قالوا لقومهم إنا بُرآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تُؤمنوا بالله وحده**﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال عن المشركين ﴿**إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئِنا لتاركوا آلهتنا لِشاعرٍ مجنون**﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦]، وهذا فى القرآن كثير.

وليس المرادُ بالتوحيد: مجرَّدَ توحيد الربوبية، وهو اعتقادُ أنَّ الله وحده خلَقَ العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف!. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل، فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شَهدوا هذا وفَنوا فيه، فقد فَنوا فى غاية التوحيد/ ! [٥/أ]

فإنَّ الرجلَ لو أقرَّ بما يستحقه الربُّ تعالى من الصفات، ونزَّهه عن كل ما يتنزه عنه، وأقرَّ بأنه وحده خالقُ كل شئ: لم يكن موحِّداً، حتى يَشهدَ أنْ لا إله إلا الله. فيقرُّ بأنَّ الله وحدَه هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزمُ بعبادة الله وحده لا شريك له. والإلهُ: هو المألوهُ المعبود، الذى يستحقُّ العبادة. وليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق؛ فإذا فَسَّر المُفسِّرُ الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أنَّ هذا هو أخصُّ وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغايةَ فى التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلِّمة الصفاتية[1]،وهو الذى يقولونه عن أبى

(١) المثبتون لبعض الصفات، كالأشاعرة والكُلاَّبية.

الحسن[1] وأتباعه ـ لم يعرف[2] حقيقةَ التوحيد الذى بعث الله به رسوله ﷺ؛ فإنَّ مشركى العرب كانوا مُقِّرين بأن الله وحده خالقُ كل شئ، وكانوا مع هذا مشركين، قال تعالى: **﴿وما يُؤمنُ أكثرُهم بالله إلا وهم مشركون﴾** [يوسف: ١٠٦].

قال طائفةٌ من السلف: تسألهم، من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره[3].

قال تعالى: **﴿قُل لمن الأرضِ ومنْ فيها إنْ كُنتم تعلمون * سيقولون لله قُل أفلا تذكَّرون﴾** إلى قوله: **﴿فأنَّى تُسحرون﴾** [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] فليس كلٌّ من أقرَّ بأن الله تعالى ربُّ كلِّ شئ وخالقهُ، يكون عابداً له دون ما سواه، داعياً له دون ما سواه، راجياً له خائفاً منه دون ما سواه، يُوالى فيه ويعادى فيه، ويطيع رُسُلَه، ويأمر بما أمر به وينهى عمَّا نهى عنه.

وعامَّةُ المشركين أقرُّوا بأن الله خالقُ كل شئ، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أنداداً، قال تعالى: **﴿أم اتخذوا من دون الله شُفعاء قُل أوَ لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون * قُل لله الشفاعةُ جميعا﴾** [الزمر: ٤٣ - ٤٤]، وقال تعالى: **﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شُفعاؤنا عند الله﴾** إلى قوله: **﴿سُبحانه وتعالى عما يُشركون﴾** [يونس: ١٨]، وقال تعالى: **﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرَّة وتركتم ما خوَّلناكم وراء ظُهوركم وما نرى معكم شُفعاءكم الذين زعَمْتم أنهم فيكم شركاءُ لقد تقطَّع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعُمون﴾** [الأنعام: ٩٤]، وقال تعالى/ : **﴿ومِن الناسِ مَن يتخذ من دون الله أنداداً يحبُّونهم كحبِّ الله﴾** [البقرة: ١٦٥]. [٥/ب]

ولهذا كان مِن أتباع هؤلاء، مَن يسجدُ للشمس والقمر والكواكب ويدعوها، ويصوم وينْسك لها. ويتقرب إليها، ثم يقول: إنَّ هذا ليس بشرك! إنَّما الشركُ إذا اعتقدتُ أنَّها المدبرةُ لي!! فإذا جعلتُها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً!!.

---

(١) على بن إسماعيل البصرى الأشعرى. كان متكلماً ثم حسن معتقده وترك مذهبه القديم، له كتابا (الابانة) و(المقالات) مات سنة ٣٢٤. الذهبى: «العبر» (٢/ ٢٣).

(٢) جميع النسخ: يعرفوا. تحريف.

(٣) يُروى عن ابن عباس، وغيره. ينظر «تفسير الطبرى» (١٣/ ٥٠، ٥١).

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإِسلام، أنَّ هذا شركٌ. انتهى كلامهُ رحمه الله تعالى[1]:

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإِنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦].

ش: بالجر، عطفٌ على التوحيد. ويجوز الرفع، على الابتداء.

قال شيخُ الإِسلام: العبادةُ هي طاعةُ الله، بامتثال ما أمرالله به على ألسِنَة الرسل.

وقال أيضاً: العبادةُ اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[2].

قال ابنُ القيم: ومدارها على خمسَ عشرةَ قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية.

وبيانُ ذلك: أنَّ العبادة منقسمةٌ، على القلب واللسان والجوارح. والأحكامُ التي للعبودية خمسة: واجبٌ، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهنَّ لكل واحدٍ من القلب، واللسان، والجوارح[3].

وقال القُرطُبيُّ: أصلُ العبادة: التذللُ، والخضوع[4].

وسُمِّيت وظائفُ الشرع على المكلفين: عبادات؛ لأنهم يلتزمونها ويفعلونها، خاضعين متذللين لله تعالى. ومعنى الآية: أن الله تعالى، أخبر أنَّه ما خلق الجن والإِنس إلا لعبادته.

فهذا هو الحكمةُ في خلقهم.

قلتُ: وهي، الحكمةُ الشرعية الدينية.

قال العِمادُ بن كثير: وعبادتهُ: هي طاعتهُ بفعل المأمور، وترك المحظور. وذلك

---

(١) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٧).

(٢) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

(٣) ابن القيم: «مدارج السالكين» (١/ ١٠٩).

(٤) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٢٥، ١٧/ ٥٦).

هو حقيقة دين الإِسلام؛ لأن معنى الإِسلام: الاستسلامُ لله تعالى، المتضمِّن غاية الانقياد والذل والخضوع. انتهى.

وقال أيضاً - فى تفسير هذه الآية - ومعنى الآية: أنَّ الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتمَّ الجزاء، ومن عصاه عذَّبه أشد العذاب. وأخبر أنَّه غيرُ محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، وهو خالقهم ورازقهم(1).

[٦/أ] قال علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه - فى الآية - إلا لآمُرهم أنْ يعبدونى/ وأدعوهم إلى عبادتى(2). وقال مجاهد: إلا لآمُرَهم وأنهاهم(3). اختاره الزجَّاج(4)(5)، وشيخُ الإِسلام(6).

قال: ويدلُّ على هذا، قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسانُ أنْ يُترك سُدى﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعى: لا يُؤمر ولا يُنهى(7).

وقال فى القرآن، فى غير موضع ﴿اعبدوا ربكم﴾ [البقرة: ٢١] ﴿اتقوا ربكم﴾.

فقد أمرهم بما خُلقوا له، وأرسل الرسلَ بذلك. وهذا المعنى، هو الذى قُصد بالآية قطعاً، وهو الذى يفهمه جماهيرُ المسلمين، ويحتجُّون بالآية عليه.

قال: وهذه الآيةُ، تُشبه قولَه تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاعَ بإذن الله﴾ [النساء: ٦٤]. ثم قد يُطاع وقد يُعصى، وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته(8)، ثم قد يَعبدون وقد لا يَعبدون.

وهو سبحانه، لم يقُل: إنَّه فعلَ الأول: وهو خلْقهم؛ ليَفعلَ بهم كلِّهم الثانى:

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٠٢).

(٢) ذكره البغوى، فى «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٥).

(٣) ذكره شيخ الإسلام، فى «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٧٨).

(٤) أبو إسحاق، إبراهيم بن السرى. نحوى أديب ت (٣١١هـ) «اللباب» (٢/ ٦٢).

(٥) نقله عنه ابن الجوزى، فى «زاد المسير» (٨/ ٤٢).

(٦) ينظر: ابن تيمية، «درء تعارض العقل والنقل» (٨/ ٤٧٨).

(٧) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد، كما فى «الدر المنثور» (٨/ ٣٦٣).

وهو عبادته. ولكن ذكر الأوّل، ليفعلوا هم الثانى، فيكونوا هم الفاعلين له. فيحصل لهم بفعله سعادتُهم، ويحصل ما يحبُّه ويرضاه منهم ولهم. انتهى[(١)].

ويشهدُ لهذا المعنى: ما تواترت به الأحاديث.

فمنها: ما أخرجه مسلمٌ فى (صحيحه)، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يقولُ الله تعالى لأهْونِ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك ما هو أهونُ من هذا، وأنت فى صلب آدم: أنْ لا تُشرك بى - أحسبه قال: ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك»[(٢)].

فهذا المشركُ، قد خالف ما أراده الله تعالى: من توحيده، وأنْ لا يُشرك به شيئاً. فخالف ما أراده الله منه، فأشرك به غيره. وهذه هى الإرادةُ الشرعيةُ الدينية، كما تقدَّم.

فَبيْن الإرادة الشرعية الدينية، والإرادة الكونية القدرية عمومٌ وخصوص مُطلق. يجتمعان فى حق المُخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونيةُ القدرية فى حق العاصى! فافهم ذلك، تنجُ به من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: **﴿ولقدْ بعثنا فى كل أُمةٍ رسولاً أنْ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾**. [النحل: ٣٦].

ش: الطاغوت: مشتقٌ من الطغيان، وهو مُجاوزة الحد. قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الطاغوت: الشيطان[(٣)].

وقال جابر رضى الله عنه: الطواغيت، كُهَّانٌ كانت تنزل عليهم الشياطين[(٤)]/ [٦/ب] رواهما ابنُ أبى حاتم[(٥)].

---

(١) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٦).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٨٠٥)، وأخرجه البخارى فى الصحيح رقم (٦٥٥٧)، وأحمد فى «المسند» (٣/ ٢١٨).

(٣) أخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٥٨٣٤، ٥٨٣٥) والفريابى، وسعيد بن منصور كما فى «الدر المنثور» (٢/ ٢٢)، وعلقه البخارى فى «الصحيح» (٨/ ٢٥١) (فتح) قال الحافظ: وإسنادُه قوى.

(٤) أخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٥٨٤٥)، وعلَّقه البخارى فى «الصحيح» (٨/ ٢٥١).

(٥) ابن أبى حاتم: كما فى «الدر المنثور» (٢/ ٢٢).

وقال مالك: الطاغوت: كلُّ ما عُبد من دون الله[1].

قال العِمادُ بن كثير: الطاغوت: الشيطان، وما زيَّنه من عبادة غير الله.

قلتُ: وذلك المذكور، بعضُ أفراده. وقد حدَّه العلامةُ ابن القيم رحمه الله تعالى، حدًّا جامعاً: الطاغوتُ، ما تجاوز به العبدُ حدَّه: من معبودٍ، أو متبوع، أو مُطاع. فطاغوتُ كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتَّبعونه على غير بصيرة من الله، أو يُطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.

فهذه طواغيتُ العالم. إذا تأملتها وتأمَّلت أحوال الناس معها، رأيتَ أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة الله ورسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته[2].

وأما معنى الآية: فأخبر تعالى، أنَّه بعث فى كلّ طائفة من الناس رسولاً بهذه الكلمة **﴿أنْ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** أى: اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه؛ كما قال تعالى: **﴿فمَن يكفر بالطاغوت ويُؤمن بالله فقد استمسك بالعُروة الوثقى لا انفصام لها﴾** [البقرة: ٢٥٦]. وهذا معنى لا إله إلا الله؛ فإنها هى العروةُ الوُثقى.

قال العمادُ بن كثير - فى هذه الآية -: وكلُّهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه. فلم يزل تعالى يُرسل الرسلَ بذلك، منذ حدث الشركُ فى قوم نوحُ الذين أُرسل إليهم.

وكان أوَّلَ رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، إلى أنْ ختمهم بمحمد ﷺ. الذى طبَّقت دعوتهُ الإِنس والجن، فى المشارق والمغارب. وكلُّهم، كما قال الله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم، كما فى «المصدر» السابق.

(٢) ابن القيم: «اعلام الموقعين» (١/ ٥٣).

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أنْ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦].

فكيف يسوغُ لأحدٍ من المشركين - بعد هذا - أنْ يقول: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء؟!!.

فمشيئةُ الله تعالى الشرعية عنهم منفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسُن رُسله. وأمَّا مشيئتُه الكونية - وهي تمكينهم من ذلك قَدَراً - فلا حُجَّة لهم فيه؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلَها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر. وله في ذلك حجةٌ بالغة، وحكمة قاطعة؛ ولهذا/ قال: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقَّت عليه الضلالة﴾ [النحل: ٣٦]. انتهى[1]. [٧/أ]

قلتُ: وهذه الآيةُ تُفسِّر الآيةَ قبلها، وذلك قوله تعالى: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقَّت عليه الضلالة﴾، فتدبر!.

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الحكمة في إرسال الرسل: دعوتُهم أممهم إلى عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وأنَّ هذا هو دينُ الأنبياء والمرسلين، وإنْ اختفت شريعتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا﴾ [المائدة: ٤٨] وأنّه لابُدَّ في الإِيمان من العمل، مِن القلب والجوارح.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمَّا يبلُغن عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقُل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقُل لهما قولاً كريماً * واخفضْ لهما جَناحَ الذُّلِ مِن الرحمة وقُل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

ش: قال مُجاهد: قضى، يعني: وصَّى[2]. وكذا قرأ أُبيُّ بن كعب[3]، وابن مسعود ، وغيرهُم[4].

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٩).

(٢) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٥/ ٦١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ٤٦).

(٤) أخرجه الطبراني، وعبد الرزاق، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٢٥٨).

ولابن جرير، عن ابن عباس: ﴿وقضى ربك﴾ يعنى: أمر[1].

وقوله: ﴿ألا تعبدوا إلا إياه﴾ المعنى: أن تعبدوه وحده دون ما سواه، وهذا معنى: لا إله إلا الله.

قال العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالى: والنفيُ المحض ليس توحيداً، وكذلك الإِثبات بدون النفى. فلا يكون التوحيد إلا متضمِّناً للنفى والإِثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد.

قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أى: وقضى أنْ تُحسنوا بالوالدين إحساناً، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى فى الآية الأُخرى ﴿أنْ أشكر لي ولوالديكَ إليّ المصير﴾. [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿إما يبلغنَّ عندك الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقُل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾ أى: لا تُسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ.

﴿ولا تنهرهما﴾ أى: لا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيح، كما قال عطاءُ بن أبى رباح[2]: لا تنفض يديك على والديك[3].

ولَمَّا نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح، أمره بالفعل الحسن والقول الحسن، فقال: ﴿وقُل لهما قولاً كريما﴾ أى: ليناً طيباً، بأدب وتوقير.

وقوله: ﴿واخفض لهما جَناح الذُّل من الرحمة﴾ أى: تواضع لهما.

﴿وقل ربِّ ارحمهما﴾ أى: فى كبرهما، وعند وفاتهما؛ ﴿كما ربَّيانى صغيرا﴾[4]، وقد ورد فى بِرِّ الوالدين أحاديثُ كثيرة.

منها: الحديثُ المروى من طُرقٍ، عن أنس، وغيره، أنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا صعد المنبر، قال: «آمين آمين/ آمين» فقالوا: يارسول الله، على ما أمَّنت. فقال: «أتانى جبريلُ، فقال: يامحمد رَغِم أنفُ امرىءٍ ذُكرتَ عنده فلم يُصلِّ عليك. قُل [٧/ب]

---

(١) ابن جرير: «التفسير» (١٥/ ٤٨).

(٢) أبو محمد، القرشى مولاهم المكى. ثقة فقيهٌ من افاضل التابعين، لكنه كثير الارسال. «تقريب» (٢/ ٢٢).

(٣) أخرجه الطبرى فى «التفسير» (١٥/ ٤٨).

(٤) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٦١).

آمين. فقلتُ: آمين. ثم قال: رَغِم أنف امرئٍ دخل عليه شهرُ رمضان، ثم خرج ولم يُغفر له. قُل آمين. فقلتُ: آمين. ثم قال: رغم أنفُ امرئٍ أدرك أبويه أو أحدَهما فلم يُدخلاه الجنة. قل آمين. فقلتُ: آمين»[١].

وروى الإمامُ أحمد، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «رغم أنفُ، ثم رَغِم أنفُ، ثم رغم أنف رجلٍ أدرك والديه، أو أحدهما، لم يدخل الجنة»[٢] قال[٣] العمادُ ابن كثير: صحيحٌ من هذا الوجه[٤].

وعن أبى بكر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يارسول الله. قال: «الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين» وكان مُتكئاً فجلس، فقال: «ألا وقولُ الزور، ألَا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليتهُ سكت. رواه البخارى، ومسلم[٥].

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رِضَى الربِّ فى رضى الوالدين، وسخطُه فى سخط الوالدين» رواه الترمذى[٦]، وصححه ابنُ حبان[٧] والحاكم[٨].

وعن أبى أُسيد السَّاعدى، قال: بينا نحن جلوسٌ عند النبى ﷺ، إذْ جاء رجلٌ

---

(١) أخرجه من حديث أنسٍ الجهضميُ فى «فضل الصلاة على النبى ﷺ» رقم (١٥) والبزار كما فى «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٦٦) والفريابى وأبو بكر الشافعى كما فى «جلاء الأفهام» (/ ٢٥). وأخرجه «الحاكم فى المستدرك» (٤/ ١٥٣) وصححه ووافقه الذهبى، من حديث كعب بن عُجرة، وأخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» رقم (٦٤٤) من حديث جابر بن عبد الله، وأخرجه الجهضمى فى «فضل الصلاة على النبى ﷺ» الأرقام (١٦، ١٧، ١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) «المسند» (٢/ ٢٥٤، ٣٤٦)، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٥١).

(٣) من هنا تبدأ نسخة (م).

(٤) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٦٢).

(٥) البخارى، فى «الصحيح» رقم (٢٦٥٤)، مسلم،فى «الصحيح» رقم (٨٧)، وأخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٠٢).

(٦) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٩٠٠).

(٧) ابن حبان: «موارد الظمآن» رقم (٢٠٢٦).

(٨) الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ١٥٢) وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه بحشل فى «تاريخ واسط» (/ ٥١) والبغوى فى «شرح السنة» (١٣/ ١٢) وذكره الألبانى فى «صحيحته» رقم (٥١٦).

من بني سَلِمة، فقال: يارسول الله! هل بقي من برِّ أبَويَّ شيءٌ، أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: «نعم! الصلاةُ عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا تُوصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» رواه أبو داود، وابن ماجة(١). والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جداً.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: ﴿**واعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئا**﴾. [النساء: ٣٦].

ش: قال العِمادُ بن كثير رحمه الله تعالى: في هذه الآية: يأمرُ تعالى عبادَه بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه الخالقُ الرازق، المُنعم المتفضِّلُ على خلقه في جميع الحالات، وهو المستحق منهم أنْ يوحِّدوه ولا يُشركوا به شيئا من مخلوقاته. انتهى(٢).

وهذه الآيةُ، هي التي تُسمَّى: آيةُ الحقوق العشرة. وفي بعض النسخ المُعتمدة من نُسخ هذا الكتاب: تقديمُ هذه الآية على آية الأنعام. ولهذا قدَّمتُها؛ لمناسبة كلام ابن / مسعود الآتي لآية الأنعام، ليكون ذكرُه بعدها أنسب. [٨/أ]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿**قُل تَعَالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادَكم من إملاق نحن نرزقكم وإيَّاهم ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها وما بَطن ولا تقتلوا النفس الَّتي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصَّاكم به لعلكم تعقلُون * ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشُدَّهُ وأوفوا الكيل والمِيزانَ بالقسط لا نُكلِّف نفساً إلا وسعَها وإذا قُلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُربى وبعهد الله أوفواَ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكَّرون * وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون**﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

ش: قال العِمادُ بن كثير: يقول تعالى لنبيِّه ورسوله محمد ﷺ: ﴿**قُل**﴾ لهؤلاء المُشركين الذين عبدوا غيرَ الله، وحرَّموا ما زرقهم الله: ﴿**تعَالوا**﴾ أي: هلمُّوا وأقبلوا ﴿**أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم**﴾ أي: أقصُّ عليكم ﴿**ما حرم ربكم عليكم**﴾

(١) أبو داود، في «السنن» رقم (٥١٤٢)، ابن ماجة، في «السنن» رقم (٣٦٦٤).
(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٦٠).

حقاً، لا تخرُّصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿ألا تُشركوا به شيئاً﴾ وكأنَّ في الكلام محذوفاً، دلَّ عليه السياق. تقديرُه: وصَّاكم ألا تشركوا به شيئاً؛ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ذلكم وصاكم به﴾ انتهى[1].

قلتُ: فيكون المعنى: حرَّم عليكم ما وصَّاكم بتركه، من الإشراك به.

وفي (المُغني) لابن هشام[2]، في قوله تعالى: ﴿ألا تُشركوا به شيئاً﴾ سبعةُ أقوال. أحسنها: هذا الذي ذكره ابنُ كثير. ويليه: أُبيِّنُ[3] لكم ذلك لئلا تُشركوا[4]. فحُذِفَت الجملةُ من أحدهما - وهي (وصَّاكم) - وحرفُ الجر وما قبله من الأخرى.

ولهذا إذا سُئلوا عمَّا يقول لهم رسولُ الله ﷺ، قالوا: يقول: «اعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم» كما قال أبو سفيان، لهِرقل[5]!.

وهذا هو الذي فهم أبو سفيان وغيرُه، من قول رسول الله ﷺ لهم: «قولوا: لا إله إلا الله تُفلحوا»[6].

قوله: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ قال القُرطبي: الإِحسانُ إلى الوالدين: بِرُّهما وحفظُهما وصيانتُها، وامتثال أمرِهما، وإزالة الرِّق عنهما، وتركُ السَّلطنةِ عليهما.

و﴿إحساناً﴾ نُصِب على المصدريَّة، وناصبُهُ فعلٌ [مضمر][7] من لفظه، تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ الإِملاقُ:

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٤).

(٢) عبد الله بن يوسف الأنصارى الحنبلي، نحوى لغوى (ت ٧٦١) «الدر الكامنة» (٢/ ٣٠٨).

(٣) في جميع النسخ: بين. والمُثبت من «المغني».

(٤) ابن هشام: «مغني اللبيب عن كُتب الأعاريب» (١/ ٢٧٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢، ٤/ ٣٤١)، والطبراني في «المعجم الكبير» رقم (٤٥٨٢) من حديث ربيعة بن عباد، وأخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٤٤) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦١١) وصححه ووافقه الذهبي من حديث طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه.

(٧) إضافة من «الجامع» للتوضيح.

الفقرُ. أى: لا تئِدوا بناتكم خشية العَيلة والفقر؛ فإنى رازقُكم وإياهم. وكان منهم من يفعل ذلك بالإِناث والذكور، خشيةَ الفقر. ذكره القرطبى[1].

وفى (الصحيحين)، عن ابن مسعود، قلتُ: يا رسول الله! أىٌّ الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعل لله نِداً وهو خلقك» قلت: ثم أىٌّ؟ قال: «أنْ تقتل ولدك خشية أنْ يطعم معك» قلت: ثم أىٌّ؟ قال: «أن تُزانى بحليلة جارك» ثم/ تلا رسُول الله ﷺ ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفسَ التى حرَّم الله إلا بالحق﴾ الآية [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. [٨/ب]

وقوله: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ قال ابنُ عطية: نَهىٌ عامٌ عن جميع أنواع الفواحش، وهى المعاصى و(ظهر) و(بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء. انتهى[2].

قوله: ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق﴾ فى (الصحيحين) عن ابن مسعود[3] رضى الله عنه، مرفوعاً: «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم يشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثَّيبُ الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[4].

قوله: ﴿ذلكم وصَّاكم به لعلكم تعقلون﴾ قال ابنُ عطية: (ذلكم) إشارةٌ إلى هذه المحرمات، والوصية: الأمر المؤكدُ المقرر[5].

وقوله: ﴿لعلكم تعقلون﴾ (لعل) للتعليل: أى إنَّ الله تعالى وصَّانا بهذه الوصايا؛ لنعقلها عنه ونعمل بها.

وفى (تفسير) الطبرى الحنفى[6]: ذكر أوّلاً (لعلكم تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون)؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكَّروا خافوا واتقوا.

---

(١) القرطبى: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١٣٢).

(٢) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٧٩).

(٣) الأصل و(ض) (م): ابن عباس. تحريف.

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٨٧٨)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٧٦).

(٥) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٨٠).

(٦) أبو حامد، أحمد بن الحسين المروزى، المعروف بابن الطبرى. (ت ٣٧٧). «الطبقات السنية» (١/ ٣٤١).

قال بعضُهم: معناه: من أراد أنْ ينظر إلى الوصية التى كأنها كُتبت، وخُتم عليها فلم تُغَيَّر ولم تُبدَّل، فليقرأ ﴿قل تعالوا﴾ إلى آخر الآيات.

شبهها بالكتاب الذى كُتب، ثم خُتم فلم يُزد فيه ولم ينقص. فإنَّ النبى ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله تعالى/. [١٠/أ]

كما قال ـ فيما رواه مسلم ـ: «وإنى تاركٌ فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا؛ كتاب الله»(١).

وقد روى عُبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟» ثم تلا قوله: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم﴾ حتى فرغ من ثلاث الآيات، ثم قال: «من وفىً بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخَّره إلى الآخرة كان أمره إلى الله. إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه» رواه ابنُ أبى حاتم(٢)، والحاكم وصححه(٣)، ومحمد بن نصر فى (الاعتصام)(٤).

قلتُ: ولأنَّ النبى ﷺ لم يوص أُمَّته إلا بما وصَّاهم به الله تعالى، على لسانه وفى كتابه الذى نزَّله ﴿تبياناً لكل شئ وهُدى ورحمةً وبُشرى للمسلمين﴾. [النحل: ٨٩] وهذه الآياتُ وصيةُ الله تعالى، ووصيةُ رسوله ﷺ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن مُعاذ بن جبلٍ، قال: كنتُ رديفَ النبىِّ ﷺ على حمارٍ، فقال لى: «يامعاذ، أتدرى ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد: أنْ يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله: أنْ لا يُعذِّبَ من لا يشركَ به شيئا» قلتُ: يا رسول الله. أفلا أُبشرٌ الناسَ؟ قال: «لا تُبشِّرْهم فيتَّكلوا» أخرجاه فى (الصحيحين)(٥).

---

(١) مسلم، فى «الصحيح» رقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه فى حجة الوداع.

(٢) ابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٣٨١).

(٣) الحاكم، فى «المستدرك» (٢/٣١٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٤) وأخرجه أيضا عبد بن حُميد، وأبو الشيخ، وابن مُردويه كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٣٨١).

(٥) البخارى فى «الصحيح» الأرقام (١٢٨، ١٢٩، ٢٨٥٦، ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٣٠).

قوله: ﴿ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشُدَّه﴾ قال ابن عطية: هذا نهيٌ عام عن القرب الذى يعمّ وجوه التصرف، وفيه سدُّ الذريعة، ثم استثنى ما يحسُنُ: وهو السعى فى نمائه. قال مجاهد: التى هى أحسن: التجارة فيه[1].

وقول: ﴿حتى يبلغ أشده﴾ قال مالكُ وغيره: هو الرشد وزوال السفه، مع البلوغ. روى نحو هذا: عن زيد بن أسْلَم[2]، والشَّعْبى[3]، وربيعة[4] وغيرهم[5].

قوله: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ قال ابن كثير[6]: يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أى: من اجتهد بأداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه، وبذل جهده فلا حرج عليه[7].

قوله: ﴿وإذا قُلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُربى﴾ هذا أمرٌ بالعدل فى القول والفعل، على القريب والبعيد.

قال الحنفى: العدلُ فى القول فى حق الولى والعدوّ، ولا يتغيَّر فى الرضى والغضب. بل يكون على الحق وإنْ كان ذا قُربى، فلا يميلُ إلى الحبيب والقريب ﴿ولا يَجرمنَّكم شنَآنُ قومٍ على أنْ لا تعدلوا اعدلوا/ هو أقربُ للتقوى﴾ [المائدة: ٨]. [٩/أ]

قوله: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ قال ابنُ جرير: وبوصية الله تعالى التى وصَّاكم بها فأوفوا، وانقادوا لذلك. بأنْ تُطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وتعملوا بكتابه وسُنَّة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاءُ بعهد الله[8]. وكذا قال غيرُه.

---

(١) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٨٠).

(٢) أبو عبد الله العدوى، مولى عمر، المدنى، ثقةٌ عالم، وكان يُرسل (ت ١٣٦) «تقريب» (/ ٢٢٢).

(٣) أبو عمرو، عامر بن شراحيل. ثقةٌ مشهور فقيه فاضل. مات بعد المائة. «تقريب» (/ ٢٨٧).

(٤) أبو عثمان بن فَرّوخ المدنى، المعروف بربيعة الرأى، أو ربيعة بن أبى عبد الرحمن. ثقةٌ فقيه مشهور. (ت ١٣٦). «طبقات بن سعد» (تكملة) (/ ٣٢٤) «والتقريب» (/ ٢٠٧).

(٥) ابن عطية: «المحرر الوجيز» (٦/ ١٨١).

(٦) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٩).

(٧) «المصدر السابق» (٣/ ٣٦٠).

(٨) الطبرى: «جامع البيان» (١٢/ ٢٢٦).

قوله: ﴿ذلكم وصَّاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي: تتعظون، وتنتهون عمَّا كنتم فيه.

قوله: ﴿وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبلَ فتفرَّق بكم عن سبيله﴾ قال القُرطبي: هذه آيةٌ عظيمة، عطفها على ما تقدم؛ فإنه [لمَّا][1] نهى وأمر، حذَّر عن اتباع غيرِ سبيله، على ما بيَّنته الأحاديثُ الصحيحة، وأقاويلُ السَّلف. وأنَّ: في موضع نصب، أي: وأتلُ أنَّ هذا صراطي. عن الفرَّاء، والكسائي. [قال الفراء][2]: ويجوز أنْ يكون خفضاً: أي وصَّاكم به، وبأنَّ هذا صراطي.

- قال - والصراط: الطريقُ، الذي هو دين الإِسلام. مُسْتقيماً: نُصب على الحال، ومعناه: مستوياً قويما[3]، لا اعوجاج فيه.

فأمر باتباع طريقه الذي طَرَقه - على لسان محمد ﷺ - وشرعه، ونهايتُه الجنة. وتشعَّبت منه طرفٌ، فمَن سلك الجادَّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضتْ به إلى النار؛ قال الله تعالى: ﴿ولا تتبعوا السُّبلَ فتفرَّق بكم عن سبيله﴾ أي: تميل. انتهى[4].

وروى أحمدُ، والنسائي، والدَّارمي، وابن أبي حاتم، والحاكم - وصحَّحه - ورواه محمد بن نصر المروزي في (كتاب الاعتصام) بسند صحيح، عن ابن مسعود، قال: (خطَّ رسولُ الله ﷺ خطاً بيده. ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السُّبل ليس منها سبيلٌ إلا وعليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله﴾[5].

---

(١) ساقط من الأصل و(م) و(هـ) و(ط).

(٢) إضافة من «التفسير».

(٣) (هـ) (ط): قيماً.

(٤) القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١٣٧).

(٥) «مسند أحمد» (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، «والسنن الكبرى» للنسائي كما في «تحفة الأشراف» (٧/ ٤٩)، و«سنن الدارمي» (١/ ٦٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٨٥)، و«المستدرك للحاكم» (٢/ ٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي، و«السنة» للمروزي (/ ٥)، وله شاهدٌ من حديث جابر، أخرجه ابن ماجه رقم (١١) وابن أبي عاصم رقم (١٦) والمروزي (/ ٦).

وعن مُجاهد: ﴿ولا تتبعوا السبل﴾ قال: البدع، والشبهات[1].

قال العلامة ابنُ القيم رحمه الله تعالى: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً، فإنَّ الناس قد تنوَّعت عباراتُهم عنه بحسب صفاته ومتعلَّقاته. وحقيقتهُ شيءٌ واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً لهم إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرقُ كلُّها مسدودةٌ على/ الخلق إلا طريقهَ، الذي نصبه على ألسُن [٩/ب] رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه. وهو إفرادُه بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يُشْرِك به أحداً في عبوديته ولا يُشْرِك برسوله ﷺ أحداً في طاعته. فيجرِّدُ التوحيد، ويجرِّدُ متابعة الرسول ﷺ.

وهذا كلُّه مضمون شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله. فأي شيءٍ فُسِّر به الصراطُ المستقيم، فهو داخلٌ في هذين الأصلين. ونكتة ذلك: أنْ تُحبَّه بقلبك، وتُرضيه بجهدك كله فلا يكون في قلبك موضعٌ إلا معموراً بحبه، ولا يكون لك إرادةٌ إلا متعلقةٌ بمرضاته.

فالأوَّلُ: يحصل بتحقيق شهادة أنْ لا إله إلا الله.

والثاني: يحصل بتحقيق شهادة أنَّ محمداً رسول الله. وهذا هو الهُدى ودين الحق، وهو معرفةُ الحق والعمل به، وهو معرفةُ ما بعث الله به رسوله والقيام به. فقل ما شئتَ من العبارات، التي هذا آخِيَّتُها[2] وقطبُ رحاها[3].

ـ قال ـ : وقال سهلُ بن عبد الله[4]: عليكم بالأثر والسنة، فإني أخافُ أنَّه سيأتي عن قليلٍ زمانٌ، إذا ذَكرَ إنسانٌ النبيَّ ﷺ والإقتداءَ به في جميع أحواله، ذمُّوه ونفَّروا عنه وتبرَّأوا منه، وأذلُّوه وأهانوه.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: قال ابنُ مسعود: من أراد أنْ ينظر إلى وصية

---

(١) اخرجه الطبري في «التفسير» الأرقام (١٤١٦٣ - ١٤١٦٥)، وابن ابي شيبة، كما في «الدرالمنثور» (٣/ ٣٨٦).

(٢) الأخيَّةُ. بالمد والتشديد. واحد الأواخيّ، وهي الوتد الذي تشدُّ إليه الدابة. «الصحاح» (٦/ ٢٢٦٥).

(٣) ابن القيم: «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٠).

(٤) أبو محمد بن يونس التُّستري من كبار الصوفية. أثنى عليه ابنُ تيمية، (ت ٢٨٣) ينظر «الاستقامة» (١/ ٤٠٤) «والشذرات» (٢/ ١٨٢).

محمد ﷺ التى عليها خاتمُه، فليقرأ [قوله تعالى][1] ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم﴾ إلى قوله: ﴿وأنَّ هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه﴾ الآية.

ش: قوله: (ابن مسعود). هو عبد الله بن مسعود بن غافل - بمعجمة وفاء - بن حبيب الهُذَلى، أبو عبد الرحمن، صحابىٌّ جليل من السابقين الأولين. منَ أهل بدر، وأُحد، والخندق، وبيعة الرِّضوان، ومن كبار علماء الصحابة. أمَّره عُمرُ على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين، رضى الله عنه[2].

وهذا الأثر، رواه الترمذىُّ وحسَّنه[3]، وابن المنذر، وابن أبى حاتم[4]، والطبرانى[5] بنحوه.

[6]وسببُ هذا القول - والله أعلم - ما رواه البخارىُّ فى (صحيحه)، عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال لما اشتدَّ بالنبى ﷺ وجعه، قال: «ائتونى بكتاب أكتُبْ لكم كتاباً لا تختلفوا بعده» قال عمر: إنَّ النبى ﷺ غَلَبَهُ الوجع! وعندنا كتابُ الله حَسْبُنا[7]. فاختلفوا، وكثُر اللَّغط، قال: «قوموا عنِّى ولا ينبغى عندى التَّنازع» فخرج ابنُ عباسٍ يقول: إنَّ الرَّزيَّة كلَّ الرزية، ما حال بين رسول الله وبين كتابه[8] [9]. فقال ابن مسعود: من أراد أنْ ينظر إلى وصية محمدٍ ﷺ التى عليها خاتمه... الحديث[10].

---

(١) إضافة من (ض).

(٢) ترجمته فى «طبقات ابن سعد» (٢/ ٣٤٢).

(٣) الترمذى: فى «الجامع» رقم (٣٠٧٢).

(٤) كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٣٨١).

(٥) «المعجم الكبير» رقم (١٠٠٦٠)، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ، وابن مُردويه، والبيهقى فى «شعب الإيمان» كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٣٨١).

(٦) من هنا ساقطٌ من (ض) و(م) و(هـ) و(ط) ومعلقٌ فى هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٧) إنما كان قصده رضى الله عنه التخفيف عن رسول الله ﷺ؛ لما رأى ما هو فيه من شدة الكرب، ينظر «فتح البارى» (٨/ ١٣٤).

(٨) أخرجه البخارى فى «الصحيح» الأرقام (١١٤، ٣٠٥٣، ٣١٦٨، ٤٤٣١، ٤٤٣٢، ٥٦٦٩، ٧٣٦٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٣٧)، وأحمد فى «المسند» برقم (٢٩٩٢).

(٩) قال ابنُ تيمية: ومن توهم أن هذا الكتاب كان بخلافة علىّ، فهو ضالٌ باتفاق عامة الناس. «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢٦).

(١٠) إلى هنا ينتهى السقط.

ش: هذا الحديثُ في (الصحيحين) من طُرق، وفي بعض رواياته نحوٌ مما ذكره المصنف.

ومُعاذ: هو ابن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى، أبو عبد الرحمن، صحابىٌ مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها. وكان إليه المُنتهى، في العلم والأحكام والقرآن، رضى الله عنه.

وقال النبى ﷺ: «معاذٌ يُحشر يومَ القيامة أمام العُلماء برَتوة»[1] أى بخطوة.

قال في (القاموس): والرَّتْوَةُ: الخطوَةُ، وشَرَفٌ من الأرض، وسُوَيعةٌ من الزمان، والدَّعوةُ، والقَطْرة[2]، ورميةٌ بسَهم، أو نحوُ ميلٍ أو مَدَى البَصَر. والرَّاتى: العالمُ الربَّانىُّ. انتهى[3].

[١٠/ب] وقال في (النهاية)/: أنه يتقدَّم العُلماء برَتْوة. أى: برَمْية سَهْم. وقيل: بميل. وقيل: مدى البصر[4]. وهذه الثلاثةُ، أشبهُ بمعنى الحديث.

مات سنة ثمانى عشرة بالشام، في طاعون عَمَواس. واستخلفه النبىُّ ﷺ على أهل مكة يوم الفتح، يعلمهم دينهم.

قوله: (كنتُ رديفَ النبى ﷺ). فيه: جوازُ الإرداف على الدابة، وفضيلةُ معاذ. قوله: (على حمار). في رواية اسمه: عُفير[5].

قلت: أهداه إليه المُقَوقس[6]، صاحب مصر[7]. وفيه: تواضُعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه[8]، وخلافاً لما عليه أهلُ الكِبر.

---

(١) أخرجه موصولاً ابنُ سعد في «الطبقات» (٢/٣٤٨، ٣/ ٥٨٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١/ ٢٢٨) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وذكره الألبانى في «صحيحته» برقم (١٠٩٠).

(٢) في جميع النسخ: الفطرة. والتصويب من «القاموس».

(٣) «القاموس المحيط» للفيروزآبادى (٤/ ٣٣٢).

(٤) «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ١٩٥).

(٥) البخارى في «الصحيح» رقم (٢٨٥٦).

(٦) جُرَيْجُ بنُ مِينى القِبطى، والمقوقس لقبٌ لكل من حكم مصر في ذلك الزمان. «القاموس» (٢/ ٢٤٢).

(٧) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢١٢) عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة.

(٨) «كتاب التوحيد» المسألة الحادية والعشرون.

قوله: «أتدرى ما حقُّ الله على العباد» أخرج السؤالَ بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقعَ فى النفس، وأبلغ فى فهم المُتعلِّم.

وحقُّ الله على العباد: هو ما يستحقُّه عليهم.

وحقّ العباد على الله: معناه أنه مُتحقِّقٌ لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاءً لهم على توحيده ﴿وَعْدَ اللهِ لاَ يُخلفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

قال شيخُ الإِسلام: كونُ المطيع يستحق الجزاءَ، هو استحقاق إنعامٍ وفضلٍ. ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوقُ على المخلوق. فمِن الناس، من يقول: لا معنى للاستحقاق إلا أنَّه أخبر بذلك ووعْده صدقٌ. ولكنّ أكثرَ الناس يُثبتون استحقاقاً زائداً على هذا؛ كما دلَّ عليه الكتابُ والسنة؛ قال تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾ [الروم: ٤٧]، لكن أهلُ السنة يقولون: هو الذى كتب على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه الحقَّ، لم يوجبه عليه مخلوق.

والمعتزلةُ يدَّعون أنَّه واجبٌ عليه بالقياس على المخلوق[1]، وأنَّ العبادَ همُ الذين أطاعوه بدون أنْ يجعلَهم مُطيعين له، وأنَّهم يستحقون الجزاء بدون أنْ يكون الموجب، وغلطوا فى ذلك.

وهذا البابُ غَلِطت فيه الجبريةُ القدرية[2] أتباع جهم، والقدرية النافية[3].

قوله: (قلتُ: الله ورسوله أعلم). فيه: حُسن الأدب من المتعلم، وأنَّه ينبغى لمن سُئل عمّا لا يعلم أنْ يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلِّفين[4].

قوله: «أنْ يعبدوه ولا يشركوا به شيئا» أى: يوحِّدوه بالعبادة. ولقد أحسن العلامةُ ابن القيم، حيث عرَّف العبادة/ بتعريفٍ جامع، فقال: [١١/أ]

وعبـــادةُ الرحمـــن غايـــةُ حُبِّـــه ... مـــع ذُلِّ عابـــده همـــا قُطبـــانِ

وعـليهمـــا فلـــكُ العبـــادة دائـــرٌ ... مـــادار حتـــى قامـــتِ القطبـــان

---

(١) (م): الخلق.

(٢) الأصل و(هـ) و(ط): والقدرية.

(٣) هم القدريةُ المعتزلة، ينظر «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٣٠٠ - ٣٦٠).

(٤) الأولى إحالة الأمر إلى علم الله وحده، حيث لم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم بعد وفاة النبى ﷺ، فيما نعلم.

ومـــدارُهُ بالأمـــر أمـــرِ رسولِـــه لا بالهـوى والنفـسِ والشيطـان[1]

قوله: «ولا يُشركوا به شيئا» أي: يوحِّدوه بالعبادة، فلابُدَّ من التجرُّد من الشرك في العبادة. ومَن لم يتجرَّد من الشرك، لم يكن آتياً بعبادة الله وحده، بل هو مشركٌ، قد جعل لله نداً.

وهذا معنى قول المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه: أنَّ العبادةَ هى التوحيدُ؛ لأنَّ الخصومةَ فيه[2].

وفى بعض الآثار الإلهية: إنى والجنُّ والإنس فى نبأ عظيم، أخلقُ ويُعبد غيرى، وأرزقُ ويُشكر سواى. خيرى إلى العباد نازل، وشرُّهم إلىَّ صاعد، أتحبَّبُ إليهم بالنعم، ويتبغَّضون إلىَّ بالمعاصى[3].

قوله: «وحقُّ العباد على الله أنْ لا يُعذِّب من لا يُشرك به شيئاً». قال الحافظ: اقتصر على نفى الإشراك؛ لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء، ويستدعى إثباتَ الرسالة باللزوم. إذ من كذَّب رسولَ الله ﷺ فقد كذَّب الله، ومن كذّب الله فهو مشرك. أو[4] هو مثلُ قولِ القائل: من توضأ صحَّت صلاتُه، أى: مع سائر الشروط. انتهى[5].

قوله: (أفلا أبشِّرُ الناس). فيه: استحبـابُ بشـارة المُسلم، بما يَسرُّه[6]، وفيه: ما كان عليه الصحابةُ من الاستبشار بمثل هذا. قاله المصنِّفُ رحمه الله تعالى.

قوله: «لا تُبشرهم فيتَّكلوا». أى: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس فى الأعمال.

وفى رواية: فأخبر بها مُعاذُ عند موته، تأثماً[7]. أى: تخرُّجاً من الإِثم.

---

(١) ابن القيم: «الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية» (٣٢).

(٢) المسألة الثانية.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «مُسند الشاميين»، والحاكم فى «التأريخ»، والبيهقى فى «شعب الإيمان»، والديلمى فى «مسند الفردوس» كما فى «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٢) والحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» كما فى «الكنز» (١٦/ ٣) مرفوعا عن حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٤) جميع النسخ: و. والمثبت من «الفتح».

(٥) ابن حجر العسقلانى: «فتح البارى» (١/ ٢٢٨).

(٦) المسألة السابعة عشرة.

(٧) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٢٨).

قال الوزير، أبو المظفَّر[1]: لم يكن يكتمها إلا عن جاهلٍ، يحمله جهلُه على سُوء الأدب بترك الخدمة فى الطاعة. فأمَّا الأكياسُ، الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا فى الطاعة، ورأوا أنَّ زيادة النعم تستدعى زيادةَ الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم.

وفى الباب من الفوائد، غيرُ ما تقدَّم: الحثُّ على إخلاص العبادة لله تعالى، وأنها لا تنفع مع الشرك بل لا تُسمَّى عبادة. والتنبيهُ على عَظَمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما. والتنبيهُ على عظمة الآيات المحكمات فى سُورة الأنعام[2].

وجوازُ كِتمان العلم للمصلحة[3].

قوله: (أخرجاه). أى: البخاريُّ، ومسلم.

والبخارى: هو الإمام، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَرْدِزَبَه الجُعفى مولاهم، الحافظ الكبير، صاحب (الصحيح) و(التأريخ) و(الأدب المُفرد)[4]، وغيرِ ذلك من مصنفاته.

روى عن: الإمام أحمد بن حنبل، والحُمَيدى[5]، وابن المَدينى[6]، وطبقتهم.

وروى عنه: مسلمٌ، والنسائى، والترمذى، والفِرَبرى[7] راوى (الصحيح).

ولد سنة أربعٍ وتسعين ومائة، ومات سنة ستٍ وخمسين ومائتين[8].

---

(١) يحيى بن محمد بن هُبيرة، الوزير، فقيه محدث، له كتاب «الافصاح عن معانى الصحاح» وغيره (ت ٥٦٠) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) «المسألة التاسعة».

(٣) «المسألة السادسة عشرة».

(٤) كلها مطبوعة متداولة، والحمد لله.

(٥) أبو بكر، عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشى، ثقة حافظ فقيه. (ت ٢١٩) «تقريب» (/ ٣٠٣).

(٦) أبو الحسن، على بن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدى، مولاهم البصرى، ثقة ثبت إمام. (ت ٢٣٤). «تقريب» (١/ ٤٠٣).

(٧) أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن مطر بن صالح، منسوبٌ إلى فَرَبْر. وهى بلدة على طرف جيحون، مما يلى بُخارى (ت ٣٢٠) «اللباب» (٢/ ٤١٨).

(٨) ينظر: الذهبى: «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٥٥٥).

ومسلم[1]: هو ابن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين، القُشيرى النيسابورى، صاحب (الصحيح) و(العلل) و(الوحدان)، وغير ذلك. روى عن: أحمد بن حنبل، ويحيى بن مَعين، وأبى خيثمة، وابن أبى شيبة وطبقتهم، وروى عن البخارى (صحيحه).

وروى عنه: الترمذى[2]، وإبراهيم بن محمد بن سفيان[3] راوى (الصحيح) وغيرهما.

ولد سنة أربعٍ ومائتين، ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور[4]، رحمهما الله تعالى.

---

(١) ينظر: فى ترجمته، الذهبى، «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٥٩٠).

(٢) روى عنه الترمذى حديثاً واحداً. «تذكرة الحفاظ» للذهبى (٢/ ٥٨٨).

(٣) العالم الفقيه. الذهبى، «المصدر السابق».

(٤) منطقة واسعة فى شرق بلاد فارس، مما يلى بحر قزوين. ولم تزل بلاد إسلام حتى استحوذ عليها الرافضة. ينظر البلاذرى «فتوح البلدان» (٣٩٥).

(١)

بـــاب

بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ بيان فضلِ التوحيد وما يكفِّر من الذنوب.

ش : (باب): خبرُ مبتدأ محذوف، تقديرُه: هذا.

قلتُ: ويجوز أنْ يكون مبتدأً خبرهُ محذوف، تقديره: هذا.

و: (ما). يجوز أنْ تكون موصولة، والعائد محذوفٌ. أى: وبيانُ الذى يكفِّرهُ من الذنوب. ويجوز أنْ تكون مصدرية، أى: وتكفيره الذنوب، وهذا الثانى أظهر.

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: **﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلمٍ أُولئك لهم الأمنُ وهم مُهتدَون﴾** [الأنعام: ٨٢].

ش: قال ابنُ جرير: حدَّثنى المُثَنَّى ـ وساق بسنده ـ عن الربيع بن أنس، قال: الإيمان: الإِخلاصُ لله وحده[١].

وقال ابنُ كثير ـ فى الآية ـ: أى: هؤلاء الذين أخلصوا العبادةَ لله وحده، ولم يُشركوا به شيئاً: هم الآمنون يوم القيامة، المُهتدون فى الدنيا والآخرة[٢].

وقال ابنُ زيد، وابنُ إسحاق: هذا من الله على فَصل القضاء، بين إبراهيم وقومه[٣].

وعن ابن مسعود: لَمَّا نزلت هذه الآيةُ، قالوا: فأيُّنا لم يظلم نفسه؟.

قال عليه السلام: **﴿إنّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾** [لقمان: ١٣].

---

(١) ابن جرير «التفسير» (١١/ ٤٩١).

(٢) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٨٨).

(٣) «تفسير الطبرى» (١١/ ٤٩٣).

[١٢/أ] وساقه البخاريُّ/ بسنده، فقال: حدَّثنا عُمرُ بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمشُ، حدثنى إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله رضى الله عنه، قال: لَمَّا نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم﴾ قلنا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك. أولَم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يابُنَىَّ لا تُشرك بالله إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾[(١)]»

وهذا الحديثُ فى (الصحيح) و(المُستدرك) وغيرهما.

ولأحمد بنحوه، عن عبد الله، قال: لَمَّا نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يارسول الله، فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألَم تسمعوا ما قال العبدُ الصالح: ﴿يابُنى لا تُشرك بالله إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾، إنما هو الشرك»[(٢)].

وعن عُمر: أنَّه فسَّره بالذنب. فيكون المعنى: الأمنُ من كلِّ عذاب. وقال الحسن، والكلبى: أولئك لهم الأمنُ فى الآخرة، وهم مُهتدون فى الدنيا.

قال شيخُ الإسلام: والذين شَقَّ عليهم، ظنوا أنَّ الظلم المشروط هو ظُلمُ العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه. فبيَّن لهم النبىُّ ﷺ ما دلَّهم على أنَّ الشرك ظلمٌ فى كتاب الله، فلا يحصل الأمنُ والاهتداء إلا لمن لم يَلْبِس إيمانه بظلم، فإنَّ من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء، فى قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتابَ الذين اصْطَفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾ [الآية فاطر: ٣٢].

[و] هذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدُهم بظلمه لنفسه، بذنب إذا لم يتب؛ كما قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقالَ ذرةٍ خيراً يرَه * ومن يعمل مثقالَ ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٦ - ٧].

وقد سأل أبو بكر الصديق رضى الله عنه النبىَّ ﷺ، فقال: يارسول الله، أيُّنا

---

(١) صحيح البخارى الأرقام (٣٢، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٧٦، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧)، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١٢٤).

(٢) «المسند» الأرقام (٣٥٨٩، ٤٠٣١، ٤٢٤٠)، والطبرى فى «التفسير» رقم (١٣٤٨٠)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٦٩).

لم يعمل سوءاً؟! فقال: «يا أبا بكر ألست تنصَب؟ ألست تحزن، أليس يصيبك اللَّأواء[1]؟! فذلك ما تُجزون به»[2].

فبيَّن: أنَّ المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة، قد يُجزى بسيئاتِهِ فى الدنيا بالمصائب.

ـ قال ـ: فمن سَلِم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرِك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمنُ التام/ والاهتداء التام. ومن لم يسْلَم من [١٢/ب] ظلمه لنفسه، كان له الأمنُ والاهتداء مطلقاً.

بمعنى: أنَّه لابُدَّ أنْ يدخل الجنة، كما وُعد بذلك فى الآية الأخرى. وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم، الذى تكون عاقبتُه فيه إلى الجنة. ويحصل له من نقصِ الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

ليس مرادُ النبى ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» أنَّ من لم يُشرك الشرك الأكبر، يكونُ له الأمنُ التام والاهتداء التام. فإنَّ أحاديثه الكثيرة، مع نصوص القرآن: تبيِّنُ أنَّ أهل الكبائر مُعرَّضون للخوف، لم يحصل لهم الأمنُ التام والاهتداء التام الذى يكونون به مُهتدين إلى الصراط المستقيم، صراطِ الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم. بل معهم أصلُ الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمةِ الله تعالى عليهم، ولابُدَّ لهم من دخول الجنة.

وقوله: «إنما هو الشرك» إنْ أراد الأكبر، فمقصودُه: أنَّ من لم يكن من أهله فهو آمنٌ مما وُعِدَ به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإنْ كان مرادُه جنس الشرك، فيقال: ظُلمُ العبد لنفسه، كبُخله ـ بحُب المال ـ ببعض الواجب هو شِركٌ أصغر. وحبُّه ما يبغضه الله تعالى، حتى يقدِّم هواه على محبة الله شركٌ أصغر، ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء، بحسبه.

---

(١) الشدة وضيق المعيشة. «النهاية» (٤/ ٢٢١).

(٢) اخرجه أحمد فى «المسند» الأرقام (٦٨ـ٧١)، والمروزى فى «مسند» ابى بكر رقم (١١١)، والطبرى فى «التفسير» الأرقام (١٠٥٢٣ ـ ١٠٥٢٨)، وابن حبان رقم (١٧٢٣) (موارد)، والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٧٤) وصححه ووافقه الذهبى.

ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنبَ في هذا الشرك، بهذا الاعتبار. انتهى مُلخصاً[1].

وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مُهتدون**﴾. قال الصحابة: " وأيُّنا يا رسول الله لم يَلْبِس إيمانه بظلم؟. قال: «ذلك الشرك. ألَمْ تسمعوا قولَ العبد الصَّالح ﴿**إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيم**﴾ فلما أشكل عليهم المرادَ بالظلم، فظنُّوا أنَّ ظلمَ النفس داخلٌ فيه، وأنَّ من ظلم نفسه ـ أيَّ ظلمٍ كان ـ لم يكن آمناً ولا مهتدياً. أجابهم صلوات الله وسلامه عليه: بأنَّ الظلم الرَّافع للأمن والهداية على الإطلاق، هو الشرك.

وهذا والله، هو الجوابُ الذي يشْفي العليلَ ويروي الغليل، فإنَّ الظلمَ المطلق التام: هو الشرك، الذي هو/ وضعُ العبادة في غير موضعها. [١٣/أ] والأمن والهُدى المطلق: هو الأمن في الدنيا والآخرة، والهُدى إلى الصراط المستقيم. فالظلمُ المطلق التام، رافعٌ للأمن والهُدى المطلق التام. ولا يمنع ذلك أنْ يكون مطلقُ الظلم مانعاً من مطلق الأمن، ومطلق الهُدى. فتأمَّله. فالمطلقُ للمطلق، والحصَّةُ للحصة. انتهى ملخصاً[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عُبادةَ بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من شهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبدُه ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، والجنَّةَ حقٌ والنارَ حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه[3].

ش: عُبادة بن الصامت: ابن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، أحد النقباء، بدريٌّ مشهور. مات بالرَّملة[4] سنة أربعٍ وثلاثين، وله اثنتان وسبعون سنة. وقيل: عاش إلى خلافة مُعاوية.

---

(١) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإسلام» (١٢٢ - ١٢٤).

(٢) ابن القيم، «الصواعق المرسلة» (١/ ٢٢١).

(٣) البخاري في «الصحيح» رقم (٣٤٣٥)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٨).

(٤) عُلِّق في هامش الأصل: موضع بالشام. وكتب عليه حرف (ح) إشارة إلى أنه حاشية. والرَّملةُ مدينة في بلاد فلسطين السليب بالقرب من اللُّد، بين يافا والقُدس.

قوله: «من شهد أنْ لا إله إلا الله» أى: من تكلَّم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً؛ كما قال تعالى: ﴿فاعلم أنَّه لا إله إلا الله﴾. [محمد: ١٩] وقوله: ﴿إلا من شَهد بالحق وهم يعلمون﴾. [الزخرف: ٨٦].

أمَّا النطقُ بها من غير معرفة بمعناها، ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه، من نفى الشرك وإخلاص القول والعمل - قولِ القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح - فغيرُ نافعٍ بالإِجماع.

قال فى (المُفهم على صحيح مسلم)[١]: بابٌ لا يكفى مجرَّد التلفظ بالشهادتين، بل لابُدَّ من استيقان القلب.

هذه الترجمة تنبيهٌ على فساد مذهب المُرْجِئة، القائلين بأنَّ التلفظ بالشهادتين كافٍ فى الإيمان.

وأحاديثُ هذا الباب تدلُّ على فساده، بل هو مذهبٌ معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها. ولأنه يلزم منه تسويغُ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطلٌ قطعاً. انتهى.

وفى هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: «من شهد» فإنَّ الشهادة لا تصلح إلا إذا كانت عن علم ويقين./ [١٣/ب]

قال النووى: هذا حديثٌ عظيمٌ جليل الموقع، وهو أجمعُ - أو من أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنَّه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من مِلل الكفر، على اختلاف عقائدهم وتباعُدها، فاقتصر ﷺ فى هذه الأحرف على ما يُبايَن [به][٢] جميعُهم. انتهى[٣].

ومعنى: لا إله إلا الله. أى: لا معبودَ حقٌ إلا الله. وهو فى مواضعَ من القرآن، ويأتيك فى قول البِقَاعى[٤] صريحاً.

---

(١) المفهم فى شرح مختصر مسلم، لأبى العباس أحمد بن إبراهيم القُرطبى (ت ٦٥٦). مخطوط، ينظر «الديباج» (١/ ٤١).

(٢) إضافة من (م) و(ض) و«المنهاج».

(٣) النووى، «المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١/ ٢٢٧).

(٤) أبو الحسن، إبراهيم بن عمر الشافعى. مفسر، مؤرخ. (ت ٨٨٥) «شذرات الذهب» (٧/ ٣٤٠).

قوله: «وحْدَه» تأكيدٌ للإثبات. «شريك له» تأكيدٌ للنفى. قاله الحافظ؛ كما قال تعالى: ﴿وإلهكم إلهٌ واحدٌ لا إله إلا هو الرحمنُ الرحيم﴾. [البقرة: ١٦٣]، وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وإلى عاد أخاهمْ هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه﴾. [الأعراف: ٦٥]. فأجابوا ـ رداً عليه ـ بقولهم: ﴿أجئتنا لنعبُد الله وحدَهُ ونذرَ ما كان يعبدُ آباؤُنا﴾. [الأعراف: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿ذلك بأنَّ الله هو الحقُّ وأنَّ ما يدعونَ من دُونه هو الباطلُ وأنَّ الله هو العليُّ الكبير﴾ [الحج: ٦٢].

فتضمَّن ذلك: نفيَ الإلهية عمَّا سوى الله، وهى العبادة، وإثباتهاَ لله وحده لا شريك له.

والقرآنُ من أوَّله إلى آخره، يُبيِّنُ هذا ويقرِّرُهُ ويُرشد إليه. فالعبادةُ بجميع أنواعها، إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل، رَغَباً ورَهَباً. وهذا كلُّه لا يستحقه إلا الله تعالى، كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله.

فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله، فقد جعله نِداً لله، فلا ينفعه مع ذلك قولٌ ولا عمل.

ذِكْر كلام العُلماء فى معنى: الإله.

قد تقدَّم كلامُ ابن عباس.

وقال الوزير، أبو المظفر فى (الإفصاح): قوله: «شهادة أنْ لا إله إلا الله» يقتضى أنْ يكون الشاهدُ عالماً بأنْ لا إله إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿فاعلم أنَّه لا إله إلا الله﴾.

ـ قال ـ: واسم الله. مرتفعٌ بعد إلا؛ من حيثُ أنّه الواجبُ له الإلهية، فلا يستحقها غيرهُ سبحانه.

ـ قال ـ : وجملةُ الفائدة فى ذلك: أنْ تعلم أنَّ هذه الكلمة مشتملةٌ على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنَّك لَمَّا نفيت الإلهيةَ وأثبت الإيجاب لله تعالى كُنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال في (البدائع) ـ رداً لقول من/ قال: إنَّ المُستثنى مُخرجٌ من المنفي ـ قال: [١٤/أ]
بل هو مخرجٌ المنفي وحُكمِه، فلا يكون داخلاً في المنفي. إذ لو كان كذلك، لم يدخل الرجلُ في الاسلام بقول: لا إله إلا الله؛ لأنه لم يُثبت الإِلهيةَ لله تعالى. وهذه أعظمُ كلمة تضمَّنت نفيَ الإِلهية عما سِوى الله، وإثباتَها له بوصف الاختصاص. فدلالتُها على إثبات إلهيته، أعظمُ من دلالة قولنا: الله إلهٌ. ولا يستريب أحدٌ في هذا، البتَّة. انتهى بمعناه[1].

[قلتُ: ولا ريب أنَّه لم يدخل في المنفى أصلاً؛ لأنَّ المراد من هذه الكلمة: إفرادهُ تعالى بالإِلهية في قلب الموحِّد وقوله وعمله، كما دلَّت عليه الآيات المُحكمات، كما أخبر عن دعوة رُسله **﴿أَنْ اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرهُ﴾** [المؤمنون/ ٣٢] فنفوا الإِلهيةَ عمَّا سوى الله تعالى، وأثبتوها لله وحده.

فإنه تعالى هو المتصفُ بتفرُّده بالإِلهية، أزلاً وأبداً؛ كما قال تعالى: **﴿ذلك بأنَّ الله هو الحق وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل﴾** [الحج: ٦٢]، . وأخبر تعالى عن المُشركين، أنهم قالوا: **﴿أجئتنا لنعبُد الله وحده﴾**. [الأعراف: ٧٠].

أرادوا أنْ يُدخلوه في جُملة آلهتهم في العبادة، وأنكروا أنْ تكون العبادةُ له وحده، مع معرفتهم أنَّ: لا إله إلا الله. تبطلُ ذلك.

وتسويةُ آلهتهم بالله في العبادة: هو الشرك الأكبرُ، الذي يوجبُ الخلود في النار. فالموحِّدُ، مخالفٌ للمشرك في قوله وفعله ونيَّته. وهذا ظاهرٌ لاخفاءَ به، بحمد الله][2].

وقال أبو عبد الله، القُرطبي، في تفسير لا إله إلا هو. أي: لا معبودَ إلا هو[3].

وقال الزَّمخشري[4]: الإِله. من أسماء الأجناس، كالرجل والفَرس، يقع على

---

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٣/ ٥٨).

(٢) ما بينهما ساقطُ من الأصل و(م) و(هـ) و(ط).

(٣) والصواب أن يُقال: لا معبود بحق إلاّ هو.

(٤) أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، لغويٌّ، مفسر. من كبار المعتزلة (ت ٥٣٨) «اللسان» (٦/ ٤).

كل معبودٍ بحق أو بباطل[1]، ثم غلب على المعبود بحق[2].

قال شيخُ الإسلام: الإله. هو المعبودُ المُطاع؛ فإنَّ الإله هو المألُوه، والمألُوه: هو الذى يستحق أنْ يُعبد، وكونُه يستحق أنْ يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أنْ يكون هو المحبوبُ غايةَ الحب، المخضُوع له غايةَ الخضوع[3].

وقال رحمه الله تعالى: فإنَّ الإله هو المحبوبُ المعبود، الذى تألهُهُ القلوبُ بحبها، وتخضعُ له وتذلُّ له وتخافه وترجوه، وتنيب إليه فى شدائدها، وتدعوه فى مهمَّاتها، وتتوكلُ عليه فى مصالحها، وتلجأ إلَيه وتطمئنُّ بذكره، وتَسكُن إلى حبه. وليس ذلك إلا لله وحده؛ ولهذا كانت: لا إله إلا الله. أصدقَ الكلام، وكان أهلُها أهلَ الله وحزبَه، والمنكرون لها أعداءه وأهلَ غضبه ونقمته. فإذا صحَّت صحَّ بها كلُ مسألة، وحالٍ، وذوق. وإذا لم يُصحِّحها العبدُ فالفسادُ لازمٌ له، فى علومه وأعماله[4].

وقال ابنُ القيم: الإله. هو الذى تألهُهُ القلوبُ محبةً وإجلالاً، وإنابة وإكراماً، وتعظيماً وذُلاً، وخضوعاً وخوفاً، ورجاءً وتوكلا[5].

وقال ابنُ رجب: الإله. هو الذى يُطاعُ فلا يُعصى، هيبةً له وإجلالاً ومحبةً، وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كلُّه إلا لله عز وجل. فمن أشرك مخلوقاً فى شئٍ من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحاً فى إخلاصه، فى، قول: لا إله إلا الله، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك[6].

وقال البِقاَعى: لا إله إلا الله. أى [انتفى][7] انتفاءً عظيماً أنْ يكون معبودٌ بحقٍ

(١) (هـ) (ط): باطل.

(٢) الزمخشرى، «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» (١/ ٣٦).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٤٩).

(٤) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٠٢).

(٥) ينظر ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٦) ابن رجب، «كلمة الإخلاص» (٢٣).

(٧) ساقط من الأصل و(م) و(هـ) و(ط).

غيرَ الملك الأعظم. فإنَّ هذا العِلْمَ هو أعظمُ الذكْرى المُنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون عِلْماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإِذعان والعمل بما تقضيه، وإلا فهو جهلٌ صِرْفٌ.

وقال الطيبي: الإله. فِعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أَلِهَ إلهةً. أي: عَبَدَ عبادةً.

قال الشَّارحُ: وهذا كثيرٌ في كلام العلماء، وإجماعٌ منهم[1] أنَّ الإِلهَ هو المعبود، خلافاً لما يعتقدُه عُبَّادُ القبور وجهلةُ المتكلمين، من أنَّ معناه: هو الخالق والقادر على الاختراع، ونحو ذلك. ويظنون أنَّهم إذا قالوها فقد أتوا من التوحيد بالغاية القُصوى، ولو فعلوا ما فعلوا: من عبادة غير الله كدعوة الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات والنذر في المُلِمَّات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات.

وما شعروا أنَّ مُشركي العرب وغيرِهم يُشاركونهم في الإِقرار بهذا المعنى، ويعتقدون أنَّ الله هو الخالقُ القادر على الاختراع، كما قال تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله﴾**. [الزخرف: ٨٧] وقال: **﴿ولئن سألتهم مَن خلق السموات والأرضَ ليقولُنَّ خلقهُن العزيز العليم﴾** [الزخرف: ٩].

فأخبر تعالى عنهم: أنهَّم اتخذوا الأولياء من دونه، وقالوا: **﴿ما نعبدهم إلا ليُقرِّبونا إلى الله زُلْفى﴾** [الزمر: ٤]. فتباً لمن كان أبو جهلٍ ورؤوسُ الكفرِ من قريشٍ وغيرهم أعلَمَ منه بمعنى لا إله إلا الله!!.

قال تعالى: **﴿إنَّهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون﴾** [الصافات: ٣٥ - ٣٦]. فعرفوا أنَّها تدلُّ على ترك عبادةِ معبوداته[2].

قلتُ: ودلالتُها على هذا دلالةُ تضمُّن، وأنَّ ذلك يقتضي إخلاصَ العبادة لله وحده. فدلالتُها على نفي الإلهية وعبادتِها، وإفرادِ الله تعالى بالعبادة دلالةُ مُطابقةٍ[3].

---

(١) من هنا ساقطٌ من (م) و(هـ) و(ط) ومعلقٌ في هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٢) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» / (٧٦ - ٧٧).

(٣) هنا ينتهي السقط.

فدلَّت لا إله إلا الله: على نفى العبادة عن كُلّ ما سوى الله، كائنا من كان، وإثبات الإلهية لله وحده، دون ما سواه. وهذا هو التوحيدُ الذى دعت إليه الرسل/ [١٤/ب] ودلَّ عليه القرآن من أوَّله إلى آخره؛ كما قال تعالى عن الجن: **﴿قُل أُوحيَ إليَّ أنَّهُ استمع نفرٌ من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نُشرك بربنا أحدا﴾** [الجن: ١ - ٢].

فلا إله إلا الله: لا تنفع إلا من عرف مدلولهَا نفياً وإثباتاً، واعتقد ذلك، وقَبِلَه وعمل به.

وأمَّا من قالها عن غير علمٍ واعتقادٍ وعمل، فقد تقدَّم كلامُ العُلماء أنَّ هذا جهلٌ صِرفٌ. فهو حجةٌ عليه، بلا ريب.

فقوله فى الحديث: «وحدَه لا شريك له». تأكيدٌ، وبيانٌ لمضمون معناها. وقد أوضح الله تعالى ذلك، وبيَّنه فى قصَص الأنبياء والمرسلين فى كتابه المُبين.

فما أجهلَ عُبَّادَ القُبور بحالهم!!، وما أعظمَ ما وقعوا فيه. فإنَّ مُشركى العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله، لفظاً ومعنى. وهؤلاء المشركون أقرُّوا بها لفظاً، وجحدوها معنى.

فتجد أحدَهم يقولُها وهو يألهُ غيرَ الله بأنواع العبادة، كالحُب والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة. بل زاد شركُهم على شرك العرب بمراتب؛ فإنَّ أكثرهم إذا وقع فى شدة، أخلصَ الدعاءَ لغير الله تعالى، ويعتقدون أنَّه أسرعُ فرجاً لهم. بخلاف حالِ المُشركين الأوَّلين، فإنهم يُشركون فى الرخاء، وأمَّا فى الشدائد فإنما يُخلصون لله وحده؛ كما قال تعالى: **﴿فإذا ركبوا فى الفُلك دعوا الله مُخلصين له الدين فلمَّا نجَّاهم إلى البر إذا هم يُشركون﴾**. [العنكبوت: ٦٥].

فبهذا تبيَّن: أنَّ مُشركى أهلِ هذه الأزمان، أجهلُ بالله وبتوحيده من مُشركى العرب، ومن قبلهم.

وقوله: «وأنَّ محمداً عبده ورسولـه» أى: وشهـد بذلك، وهو معطوفٌ على ما قبله على نِيَّة تكرار العامل.

ومعنى: العبد، هنا: المملوكُ العابد. أى: أنَّه مملوكٌ لله تعالى، والعبوديةُ الخاصة وصفُه؛ كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾ [الزمر: ٣٦]. فأعلى مراتب العبد، العبوديةُ الخاصة والرسالة.

فالنبىُّ، محمد ﷺ أكملُ الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين. وأمَّا الربوبيةُ والإلهية: فهما حقٌّ الله تعالى، لا يُشاركه فى شئٍ منها مَلَكٌ مقرب، ولا نبىٌّ مُرسل.

وقوله: «عبدهُ ورسوله» أتى بهاتين الصفتين، وجمعهما دفعاً للإفراط والتفريط/ . [١٥/أ]

فإنَّ كثيراً ممَّن يدعى أنَّه من أُمَّته: أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، وفرَّط بترك مُتابعته، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسَّف فى تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها، والصَّدْف عن الانقياد لها مع اطِّراحها. فإنَّ شهادة أنَّ محمداً عبدُه ورسوله: تقتضى الإيمانَ به، وتصديقَه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاءَ عمَّا عنه زجر، وأنْ يُعظَّم أمرهُ ونهيهُ، ولا يُقدَّمَ عليه قولُ أحدٍ كائناً من كان.

والواقعُ اليومَ وقبلَه خلاف ذلك!، فالله المُستعان.

وروى الدّارمىُّ فى (مُسنده) عن عبد الله بن سلاَم رضى الله عنه، أنه كان يقول: إنَّا لنجدُ صفةَ رسول الله ﷺ: إنَّا أرسلناك شاهداً ومُبشراً ونذيراً وحرزا للأُمِّيين. أنت عبدى ورسولى، سميَّتُه المتوكِّل. ليس بفظٌ ولا غليظ ولا سخَّابٍ بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة مثلَها، ولكن يعفو ويتجاوز. ، لن أقبضَه حتى يُقيمَ الملَّة المتعوِّجة، بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله، يُفتح بها أعيناً عُميا، وآذاناً صُمَّاً، وقلوباً غُلفا[١].

قال عطاءُ بن يَسار: وأخبرنى أبو واقد الليثى، أنَّه سمع كعبا يقول، مثلَ ما قال ابنُ سلاَم[٢] [٣].

---

(١) «سنن الدارمى» (١/ ١٤).

(٢) «سنن الدارمى» (١/ ١٤).

(٣) جميع هذا النص، من قوله: وروى الدارمى إلى هنا. سقط من (م).

قوله: «وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه» أى: خلافاً لما يعتقدُه النصارى، أنَّه الله، أو ابنُ الله، أو ثالثُ ثلاثة. تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيرا ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾. [المؤمنون: ٩١].

فلابُدَّ أنْ يشهد أنَّ عيسى عبدُ الله ورسوله. على علمٍ ويقين بأنه مملوكٌ لله، خلَقه من أُنثى بلا ذكر؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدمَ خلقه من تُرابٍ ثم قال له كُن فيكون﴾. [آل عمران: ٥٩]. فليس رباً ولا إلهاً، سبحان الله عما يشركون، قال تعالى: ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نُكلِّم من كان فى المهد صبيًّا * قال إنى عبدُ الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا﴾. [مريم: ٢٩ - ٣٠].

وقال: ﴿لن يستنكف المسيحُ أنْ يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقرَّبون ومَن يستنكفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشرُهم إليه جميعاً﴾ . [النساء: ١٧٢].

ويشهدُ المؤمنُ أيضاً ببطلان قولِ أعدائه اليهود: أنَّه ولدُ بغي، لعنهم الله. فلا يصحُّ إسلامُ أحدٍ[1] حتى يتبرأ من قول الطائفتين جميعاً فى عيسى عليه السلام، ويعتقدَ ما قالَه الله تعالى فيه/ : أنَّه عبدُ الله ورسوله. [١٥/ب]

قوله: «وكلمتُه» إنما سُمِّى عيسى عليه السلام كلمتُه؛ لوجوده بقوله: كُن. كما قاله السلفُ من المُفسرين[2].

قال الإمامُ أحمد فى (الرَّد على الجهمية): الكلمةُ التى ألقاها إلى مريم [حين][3] قال له: كُن. فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو: كن. ولكن كان بكُن. فكُن من الله تعالى قولاً، وليس: كُن. مخلوقاً. وكذَبَ النصارى والجهميةُ على الله فى أمر عيسى. انتهى[4].

وقوله: «ألقاها إلى مريم». قال ابنُ كثير: خلَقه بالكلمة التى أُرسل بها جبرائيلُ عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عزّ وجل، فكان

(١) (هـ) (ط): أحد علم ما كانوا يقولونه.

(٢) ينظر «تفسير الطبرى» (شاكر) (٦/ ٤١١، ٩/ ٤١٩).

(٣) إضافة من (ط) و«الرد».

(٤) الإمام أحمد، «الردُّ على الجهمية والزَّنادقة» / (١٢٤).

عيسى بإذن الله عزَّ وجل. فهو ناشئٌ عن الكلمة - التى قال له: كُن، فكان - والروح التى أُرسل بها جبرائيل عليه السلام[1].

قوله: «وروحٌ منه» قال أُبيُّ بن كعب: عيسى روحٌ من الأرواح التى خلقها الله تعالى، واستنطقها بقوله: ﴿ألستُ بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريمَ، فدخل فيها. رواه عبدُ بن حُميد، وعبد الله بن أحمد فى زوائد (المسند)، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وغيرُهم[2].

قال الحافظ: ووصْفُه بأنَّه منه، المعنى: أنَّه كائنٌ منه؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وسخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه﴾ [الجاثية: ١٣] فالمعنى أنَّه كائنٌ منه؛ كما أنّ معنى الآية الأُخرى: أنَّه سخَّر هذه الأشياءَ كائنةً منه. أى: أنَّه مُكوِّنُ ذلك وموجِدُه، بقدرته وحكمته[3].

قال شيخُ الإسلام: المضافُ إلى الله تعالى إذا كان معنىً لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أنْ يكون صفةَ لله تعالى قائمةً به، وامتنع أنْ تكون إضافتها إضافةَ مخلوقٍ مربوب.

فإذا كان المضافُ عيناً قائمةً بنفسها: كعيسى، وجبرائيل عليهما السلام، وأرواح بنى آدم، امتنع أنْ تكون صفةً لله تعالى؛ [لأن ما قام بنفسه لا يكون صفةً لغيره][4]. لكنّ الأعيان المضافة إلى الله على وجهين:

---

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (الشعب) (٢/ ٤٣٠).

(٢) عبد بن حميد، وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٦٠٠)، وعبد الله بن أحمد، فى «المسند» (٥/ ١٣٥) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٥): رواه عبد الله بن أحمد، عن شيخه محمد بن يعقوب الربالى. وهو مستور، وبقية رجاله رجال الصحيح، وابن جرير، «جامع البيان» رقم (١٠٨٥٥)، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٦٠٠)، وأخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٣٢٣) وصححه ووافقه الذهبى. وأخرجه ابن مَنده فى «الرد على الجهمية» رقم (٣٣).

(٣) ابن حجر، «فتح البارى» (٦/ ٤٧٥).

(٤) ما بينهما إضافة من (ض) و(م) و(هـ) و(ط).

أحدُهما: أنْ تُضاف إليه؛ لكونه خلقَها وأبدعها. فهذا شاملٌ لجميع المخلوقات، كقولهم: سماءُ الله، وأرضُ الله. فجميع المخلوقين عبيدُ الله، وجميع المال مالُ الله.

الوجه الثاني: أنْ يُضاف إليه؛ لما خصَّهُ به من معنىً يُحبُّه ويأمر به ويرضاه، كما خصَّ البيتَ العتيق بعبادةٍ فيه لا تكون في غيره، وكما يُقال عن مال الفيءِ والخُمُسْ: هو مالُ الله ورسوله.

ومن هذا الوجه: فعبادُ الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافةٌ تتضمن أُلوهيَّته وشرعه ودينه، وتلك إضافةٌ تتضمن ربوبيَّته وخلْقه. انتهى ملخصاً[1].

قوله: «والجنَّةَ حقٌ والنَّارَ حقٌ». أي: وشهد أنَّ الجنة التي أخبر بها تعالى في كتابه أنَّه أعدَّها للمُتقين حقٌ ثابتةٌ لا شك فيها، وشهد أنَّ النار التي أخبر بها تعالى في كتابه أنَّه أعدَّها/ للكافرين حقٌ كذلك ثابتةٌ كما قال تعالى: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنَّة عرضُها كعرض السماء والأرض أُعدَّت للذين آمنوا بالله ورسُلهَ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾. [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿**فاتقوا النارَ التي وقودها الناسُ والحجارة أُعدَّت للكافرين**﴾ [البقرة: ٢٤]. [١٦/أ]

وفي الآيتين ونظائرهما: دليلٌ على أنَّ الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافاً للمبتدعة. وفيهما: الإيمانُ بالمعاد.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». هذه الجملةُ جوابُ الشرط، وفي رواية: «أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»[2].

قال الحافظ: ومعنى قوله «على ما كان من العمل» أي: من صلاحٍ أو فساد، لكنَّ[3] أهلَ التوحيد لابُدَّ لهم من دخول الجنّة. ويحتملُ أنْ يكون معنى قوله

(١) ابن تيمية، «الفتاوى» (٦/ ١٤٥ ، ٩/ ٢٩٠).

(٢) أخرجها البخاري في «الصحيح» رقم (٣٤٣٥).

(٣) في جميع النسخ: لأن. والمُثبت من «الفتح».

«على ما كان من العمل» أى: يدخل أهلُ الجنة [الجنة][١] على حَسَب [أعمال][٢] كلٍّ منهم فى الدرجات. انتهى[٣].

قال القاضى عياض[٤]: ما ورد فى حديث عُبادة يكون خصوصاً لمن قال ما ذكره النبىُّ[٥] ﷺ، وقَرَن بالشهادتين حقيقةَ الإيمان والتوحيد الذى ورد فى حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجَحُ على سيئاته، ويوجبُ له المغفرةَ والرحمة، ودخولَ الجنة لأوَّل وهْلة.

[٦]قال العلامةُ ابن القيّم رحمه الله تعالى: والمقصود أنَّ كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمنُ عارفاً لمعناها وحقيقته نفياً وإثباتا، مُتصفاً بموجبها قائماً قلبه ولسانُه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمةُ من هذا الشاهد. أصلُها ثابتٌ راسخ فى قلبه، وفروعُها متصلةٌ فى السماء، وهى مخرجةٌ لثمرتها كلَّ وقت[٦]. انتهى[٧].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، فى حديث عِتْبان «فإنَّ الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجهَ الله»[٨].

ش: قوله: (ولهما). أى: للبخارى، ومسلم فى (صحيحيهما) بكماله. وهذا طرفٌ من حديث طويل، أخرجه الشيخان.

و: عِتبان. بكسر المهملة، بعدها مُثَنَّاة فوقية، ثم موحَّدة: ابنُ مالك بن عمرو ابن العجلان الأنصارى، من بنى سالم بن عوف، صحابىٌّ مشهور، مات فى خلافه معاوية.

---

(١) إضافة من «الفتح».

(٢) ساقط من الأصل و(ض).

(٣) ابن حجر، «فتح البارى» (٦/ ٤٧٥).

(٤) أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض اليحصبى. محدث فقيه (ت ٥٤٤). «الديباج المذهب» (٢/ ٤٦).

(٥) النبى. ليست فى (ض) و(م) و(هـ) و(ط).

(٦) ما بينهما ساقطٌ من (هـ) و(ط). وفى (ض) فى موضع آخر، ومعلَّقٌ فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٧) انظر ابن القيم، «الفوائد» (٢١٤).

(٨) البخارى فى «الصحيح» الأرقام (٤٢٥، ٦٦٧، ٦٤٢٣، ٦٩٣٨)، ومسلم فى «الصحيح» الرقمان (٣٣، ٦٥٧) فى قصة مالك بن الدُّخْشُن.

وأخرجه البخاريُّ في (صحيحه) بسنده، عن قتادة، قال: حدثنا أنس بن مالك، أنَّ النبي ﷺ - ومُعاذٌ رديفُه على الرَّحْل - قال: «يامُعاذُ!» قال: لبَّيك يا رسول الله وسَعْدَيْك، قال: «يا معاذُ!» قال: لبَّيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ» قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثاً - قال: «ما مِن أحد يشهدُ أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله صِدقاً من قلبه إلا حرَّمه اللهُ تعالىَ على النار» قال: يا رسول الله، أفلا أُخبر به الناسَ فيستبشروا، قال: «إذًا يتَّكلوا» فأخبر بها معاذٌ عند موته تأثُّما[1].

وساق بسند آخر: حدثنا معتمر، قال: سمعتُ أبى، قال: سمعتُ أنساً، قال: ذُكر لى أنَّ النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «من لقى الله لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة» قال: أفلا أُبشِّرُ الناس؟ قال: «لا إنى أخاف / أن يتكلوا»[2]. [١٦/ب]

قلتُ: فتبيَّن بهذا السياق معنى شهادةِ أنْ لا إله إلا الله، وأنها تتضمن تركَ الشرك لمن قالها بصدقٍ ويقين وإخلاص.

قال شيخُ الإسلام، وغيرُه - فى هذا الحديث ونحوه - : إنها فيمن قالها ومات عليها؛ كلما جاءت مقيدةً بقوله، خالصاً من قلبه غيرَ شاك فيها، بصدق ويقين.

فإنَّ حقيقة التوحيد انجذابُ الروح إلى الله تعالى [جملةً، فمن شهد أنْ لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة؛ لأنَّ الإِخلاص هو انجذابُ القلب إلى الله تعالى][3] بأن يتوبَ من الذنوب توبة نصوحاً.

فإذا مات على تلك الحال نال ذلك؛ فإنه قد تواترت الأحاديثُ بأنه يخرجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزنُ شعيرةً، وما يزنُ خردلةً، وما يزن ذرَّةً.

وتواترت بأنَّ كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله، يدخل النار ثم يخرج منها.

وتواترت بأن الله حرَّم على النار أنْ تأكل أثرَ السجود من ابن آدم؛ فهؤلاء كانوا يُصلُّون، ويسجدون لله.

---

(١) «صحيح البخارى» رقم (١٢٨)، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٣٢) واللفظ للبخارى.

(٢) «صحيح البخارى» رقم (١٢٩).

(٣) ما بينها ساقط من الأصل، ولعله انتقال نظر من الناسخ.

وتواترت بأن الله يُحرِّمُ على النار من قال: لا إله إلا الله، وشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيّدةً بالقيود الثِّقال.

وأكثرُ من يقولها لا يعرف الإِخلاص!، وأكثر من يقولها إنَّما يقولها تقليداً أو عادةً، ولم يخالط الإِيمانُ بشاشةَ قلبه!.

وغالبُ من يُفتنُ عند الموت وفى القبور أمثالُ هؤلاء؛ كما فى الحديث: «سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً فقُلتُه» وغالبُ أعمال هؤلاء إنَّما هو تقليدٌ واقتداءٌ بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿**إنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّة وإنَّا على آثارهم مُقتدون**﴾. [الزخرف: ٢٣] وحينئذٍ فلا مُنافاة بين الأحاديث.

فإنَّه إذا قالها بإخلاصٍ ويقين تام، لم يكن فى هذه الحال مُصَّراً على ذنب أصلاً؛ فإنَّ كمال إخلاصه ويقينه يوجبُ أنْ يكون الله أحبَّ إليه من كل شئ، فإذن لا يبقى فى قلبه إرادةٌ لما حرَّم الله ولا كراهةٌ لما أمر الله.

وهذا هو الذى يَحُرم على النار، وإنْ كانت له ذنوبٌ قبل ذلك. فإنَّ هذا الإِيمان وهذا الإِخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا تترك له ذنباً إلا مُحي عنه كما يمحو الليلُ النهار.

فإذا قالها على وجه الكمال المانعِ من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غيرُ مصرٍّ على ذنبٍ أصلا، فيُغفر له ويحرم على النار.

وإنْ قالها على وجه خلص به/ من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأتِ [١٧/أ] بعدها بما يناقضُ ذلك، فهذه الحسنةُ لا يقاومها شئٌ من السيئات.

فيرجحُ بها ميزانُ الحسنات؛ كما فى حديث البطاقة[٢]، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجتُه فى الجنة بقدر ذنوبه.

وهذا بخلاف من رجحت سيئاتُه بحسناته، ومات مُصراً على ذلك. فإنَّه يستوجب النار، وإنْ قال: لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنَّه لم

---

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» (٦/ ١٣٩) من حديث عائشة رضى الله عنها، وصححه المنذرى فى «الترغيب» (٣٦٥/٤).

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» (٢/ ٢١٣)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٦٣٩). وقال حديثٌ حسن. وسيأتى.

يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده. فإنه فى حال قولها كان مُخلصاً، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نارُ الذنوب حتى أحرقت ذلك. بخلاف المُخلص المستيقن؛ فإنَّ حسناته لا تكون إلا راجحةً على سيئاته، ولا يكون مُصرّاً على سيئات، فإنْ مات على ذلك دخل الجنة.

وإنَّما يُخاف على المخلص أنْ يأتى بسيئة راجحة، فيضعُف إيمانُه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانعٍ من جميع السيئات. ويُخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإنْ سَلِم من الأكبر بقى معه من الأصغر، فيُضيف إلى ذلك سيئاتٍ تنضمُّ إلى هذا الشرك، فيرجح جانبُ السيئات.

فإنَّ السيئات تُضعف الإيمان واليقين، فيضعف قولُ: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاصُ بالقلب، فيصير المتكلمُ بها كالهاذى أو النائم، أو من يُحسِّن صوته بآيةٍ من القرآن من غير ذوق وحلاوة. فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقُضُ ذلك، بل يقولونها من غير يقينٍ وصدق، ويموتون على ذلك، ولهم سيئاتٌ كثيرة تمنعهم من دخول الجنة.

وإذا كُثرت الذنوبُ ثقُل على اللسان قولُها، وقسا القلب عن قولها، وكره العملَ الصالح، وثقُل عليه سماعُ القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأنَّ إلى الباطل، واستحلى الرَّفث، ومخالطةَ أهل الباطل، وكره مخالطة أهل الحق. فمثل هذا إذا قالها، قال بلسانه ما ليس فى قلبه، وبفيه ما لا يصدِّقُه عملُه.

قال الحسن: ليس الإيمانُ بالتحلّى ولا بالتمنى، ولكن ما وقَر فى القلوب وصدَّقته الأعمال. فمن قال خيراً وعمل خيراً قُبل منه، ومن قال خيراً وعمل [١٧/ب] شراً/ لم يُقبل منه(١).

وقال بكرٌ(٢) بن عبد الله المُزَنىُّ(٣): ما سبقهم أبو بكر رضى الله عنه بكثرة صيامٍ ولا صلاة، ولكن بشئٍ وقَر فى قلبه.

(١) أخرجه الخطيب فى «اقتضاء العلم العمل» رقم (٥٦).

(٢) الأصل و(م) و(هـ): أبو بكر. تحريف.

(٣) أبو عبد الله، بن عمر والبصرىُّ، من أقران الحسن البصرى، ثقة ثبت، من العباد (ت ١٠٨) «سير النبلاء» (٤/ ٥٣٢).

فمن قال: لا إله إلا الله، ولم يقُم بموجَبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً، وكان صادقاً فى قولها موقناً بها ـ لكن له ذنوبٌ أضعفت صدقهَ ويقينه - وانضاف إلى ذلك الشركُ الأصغر العملى: رجحت[1] هذه السيئاتُ على هذه الحسنة، ومات مُصراً على الذنوب.

بخلاف مَن يقولُها بيقين وصدق؛ فإنَّه: إمَّا أنْ لا يكون مُصراً على سيئةٍ أصلا، أو يكون توحيدُه ـ المتضمِّن لصدقه ويقينه ـ رجَّح حسناته.

والذين يدخلون النار ممن يقولها: لم يقولوها بالصدق واليقين التامَّين المُنافيين للسيئات، أو لرُجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئاتٍ رجحت على حسناتهم، ثم ضعُف لذلك صدقُهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدقٍ ويقين تام؛ لأنَّ الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم. فقولُها من مثل هؤلاء: لا يقوى على محو السيئات، فترجحُ سيئاتهم على حسناتهم. انتهى مُلخصا[2].

وقد ذكر هذا كثيرٌ من العُلماء: كابن القيّم، وابن رجب، وغيرهما.

قلتُ: وبما قرَّره شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى، تجتمع الأحاديث. قال: وفى الحديث دليلٌ على أنَّه لا يكفي فى الإِيمان النطقُ من غير اعتقاد، وبالعكس.

وفيه: تحريمُ النار على أهل التوحيد الكامل.

وفيه: أنَّ العمل لا ينفعُ إلا إذا كان خالصاً لله تعالى.

تنبيه: قال القُرطبى فى (تذكرته): قولهُ فى الحديث: «من إيمان» أى: من أعمال الإِيمان التى هى من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالةٌ على أنَّ الأعمال الصالحة من الإِيمان.

والدليلُ على أنَّه أراد بالإِيمان ما قلناه - ولم يُرد مجرَّد الإِيمان الذى هو

---

(١) فى جميع النسخ: فرجحت. والمثبت من «التيسير» (٩٠).

(٢) فى جميع النسخ: و. والمثبت من «التيسير».

(٣) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٥٦، ١٤/ ٤٢٠).

(٤) الأصل و(ض) و(م) و(هـ): لما. والمثبت من (ط) و«التذكرة».

التوحيدُ، ونفى الشركاء والإِخلاص بقوله: لا إله إلا الله - ما فى الحديث نفسه، من قوله: «أخرجوا». ثم بعد ذلك «يقبضُ سبحانه قبضةً فيُخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط» يُريد بذلك: إلا التوحيدَ المجرَّد من الأعمال. انتهى ملخصاً من (شرح سنن ابن ماجة)(١).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبى سعيد الخُدرىِّ رضى الله عنه، عن رسول/ الله ﷺ، قال: «قال موسى: ياربِّ علِّمنى شيئاً أذكرُكَ وأدعوك به. قال: قُل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كلُّ عبادك يقولون هذا. قال: ياموسى لو أنَّ السمواتِ السبعَ وعامِرهُنَّ غيرى، والأرضين السبعَ فى كِفة، ولا إله إلا الله فى كِفةٍ، مالت بهن لا إله إلا الله» رواه ابنُ حبان، والحاكم وصَحّحه(٢). [١٨/أ]

ش: أبو سعيد. اسمُه: سعد بن مالك بن سِنان بن عبيد الأنصارىُّ الخزرجى، صحابىٌّ جليل، وأبوه كذلك. استُصغِر أبو سعيدٍ بأُحد، وشهد ما بعدها. مات بالمدينة سنة ثلاثٍ ـ أو أربع أو خمس ـ وستين. وقيل: سنة أربعٍ وسبعين.

قوله: «أذكرك» أى: أُثنى عليك. «وأدعوك» أى: أسألك به.

قوله: «قُل يا موسى: لا إله إلا الله» فيه: أنَّ الذاكر يقولُها كلَّها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على هو، كما يفعلُه غُلاة جهّالِ المتصوفة؛ فإنَّ ذلك بدعةٌ وضلالة.

قوله: «كلُّ عبادك يقولون هذا» ثبت بخط المُصنف بالجمع، والذى فى الأصول «يقول» بالإِفراد مراعاةً للفظة كُل.

وهو فى (المُسند) من حديث عبد الله بن عمرو، بلفظ الجمع؛ كما ذكره المصنِّفُ على معنى كُل. ومعنى: «كلُّ عبادك يقولون هذا». إنما أُريد شيئاً تخُصّنى به من بين عموم عبادك.

وفى رواية ـ بعد قوله «كلُّ عبادك يقولون هذا» - «قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت! ياربِّ: إنما أُريد شيئاً تُخصّنى به».

---

(١) القرطبى، «التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة» (٤٠٢).

(٢) ابن حبان فى «الصحيح» رقم (٢٣٢٤) (موارد)، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٥٢٨) ووافقه الذهبى. وصححه الحافظ بن حجر فى «فتح البارى» (١١/ ٢٠٨).

ولَمَّا كان بالناس ـ بل بالعالم كلِّه ـ من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حُصولاً، وأعظمِها معنىً.

والعَوامُّ والجُهَّال يَعدِلون عنها إلى الدعوات المُبتدعة، التى ليست فى الكتاب ولا فى السنة.

قوله: «وعامِرَهنَّ غيرى». هو بالنصب عطفٌ على السموات. أى: لو أنَّ السموات السبع ومن فيهنَّ من العُمَّار ـ غير الله تعالى ـ والأرضين السبع ومن فيهن وُضعوا فى كفة الميزان، ولا إله إلا الله فى الكِفَّة الأُخرى، مالت بهنَّ لا إله إلا الله.

وروى الإمامُ أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ «أنَّ نوحاً قال لابنه عند/ موته: آمُرك بلا إله إلا الله؛ فإنَّ السموات السبع والأرضين السبع لو [١٨/ب] وضعت فى كِفَّة ولا إله إلا الله فى كفة، رَجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله، ولو أنَّ السموات السبع والأرضين السبع كُن حَلْقةً مُبهمةً قصمتهن لا إله إلا الله»[1].

قوله: «فى كِفَّة» هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أى: كِفَّة الميزان.

قوله:

«مالت بهن» أى: رجحت؛ وذلك لما اشتملت عليه من نفى الشرك، وتوحيد الله: الذى هو أفضل الأعمال، وأساسُ الملة والدين. فمن قالها بإخلاصٍ ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقِها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنةُ لا يوازنها شئٌ؛ كما قال تعالى: **﴿إنَّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾**. [الأحقاف: ١٣].

ودلَّ الحديثُ على أنّ: لا إله إلا الله، أفضلُ الذكر؛ كحديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً «خيرُ الدعاء دعاءُ يومِ عرفة، وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلى:

---

(١) أحمد فى «المسند» (٢/ ١٦٩، ١٧٠، ٢٢٥)، وأخرجه البخارى فى «الأداب» رقم (٥٤٨)، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤٨، ٤٩) وصححه ووافقه الذهبى، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (١٠٣)، والطبرانى كما فى «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٢٠) وقال: ورجال أحمد ثقات.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد وهو على كل شئ قدير» رواه أحمد، والترمذى[1].

وعنه أيضاً، مرفوعاً «يُصاح برجلٍ من أُمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُنشر له تسعةٌ وتسعون سجلاً، كلُّ سجل منها مدَّ[2] البصر، ثم يُقال: أتُنكرُ من هذا شيئا؟ فيقول: لا يارب. فيُقال: ألك عُذرٌ أو حسنة؟ فيهاب الرجلُ، فيقول: لا. فيُقال: بلى إنَّ لك عندنا حسنةً، وإنه لا ظلم عليك، فيُخرجُ له بطاقةٌ فيها: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، فيقول: يارب ما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات؟! فيقال: إنّك لا تُظلم، فتُوضع السجلاتُ فى كِفَّة والبطاقةُ فى كِفة، فطاشت السجلاتُ وثقلت البطاقة».

رواه الترمذىُّ وحسَّنه، والنسائى، وابنُ حبان، والحاكم وقال: صحيحٌ على شرط مسلم، وقال الذهبىُّ فى (تلخيصه): صحيح[3].

قال ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى: فالأعمالُ لا تتفاضلُ بصورها وعددها، وإنَّما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب. فتكون صورةُ العملين واحدةً، وبينهما من/ [١٩/أ] التفاضل كما بين السماء والأرض.

قال: تأمل حديثَ البطاقة التى توضع فى كِفة، ويقابلها تسعةٌ وتسعون سجلاً، كلُّ سجل منها مدُّ البصر، فتثقل البطاقةُ وتطيش السجلات، فلا يُعذَّب. ومعلومٌ أنَّ كلَّ موحِّدٍ له هذه البطاقة، وكثرٌ منهم من يدخل النار بذنوبه[4].

قوله: (رواه ابنُ حبان، والحاكم). ابنُ حبان، اسمُه: محمَّد بن حِبَّان - بكسر المُهملة وتشديد الموحَّدة - ابنُ أحمد بن حبان بن مُعاذ، أبو حاتم التميمى، البُستى الحافظ، صاحبُ التصانيف: كا(لصحيح)، و(التأريخ)، و(الضعفاء)، و(الثقات) وغير ذلك.

---

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٧٩) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب، ومالك فى «الموطأ» (١/ ٢١٤، ٢١٥، ٤٢٢، ٤٢٣)، والبيهقى فى «السنن» (٥/ ١١٧)، وذكره الألبانى فى «صحيحته» رقم (١٥٠٣).

(٢) الأصل و(ض) و(هـ) و(ط): مدى.

(٣) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٦٤١)، وابن حبان فى «الصحيح» رقم (٢٥٢٤) (موارد)، والحاكم فى «المُستدرك» (١/ ٥، ٦) ولم يعزه صاحبُ «تحفة الأشراف» (٦/ ٣٤٢) إلى النسائى.

(٤) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٣١).

قال الحاكمُ: كان من أوعية العلم في الفقه، واللغة، والحديث، والوعظ، ومن عُقلاء الرجال. مات سنة أربعٍ وخمسين وثلاثمائة، بمدينة بُست - بالمهملة -[1].

وأمّا الحاكمُ، فاسمُه: محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، أبو عبد الله الحافظ، ويُعرف بابن البَيِّع، ولُد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنَّف التصانيف: كا(لمستدرك) و(تأريخ نيسابور) وغيرِهما، ومات سنة خمسٍ وأربعمائة[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وللترمذي وحسَّنه، عن أنس: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنَّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لَقيتني لا تُشرِك بي شيئاً، لأتيتك بقُرابها مغفرة»[3].

ش: ذكر المصنِّفُ رحمه الله تعالى: الجملةَ الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذيُّ بتمامه، فقال: عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم! إنك ما دعوتَني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي. يا ابن آدم لو بلغت ذُنوبُك عَنَان السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك ولا أُبالي. يا ابن آدم إنَّك لو أتيتني. . » الحديث.

الترمذي: اسمُه: محمد بن عيسى بن سَوْرة - بفتح المُهملة - ابن موسى بن الضحاك السُّلمي، أبو عيسى، صاحب (الجامع)، وأحد الحفاظ، كان ضرير البصر. روى عن قُتيبةَ، وهنَّادٍ، والبخاري، وخلق. مات سنة/ تسعٍ وسبعين ومائتين[4].

وأنسُ: هو ابن مالك بن النَّضْر الأنصاري الخزرجي، خادمُ رسول الله ﷺ:

---

(١) ينظر: السمعاني، «الأنساب» (٢/ ٢٠٩)، والذهبي، «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٩٢).

(٢) ينظر: الذهبي، «المصدر السابق» (١٧/ ١٦٢).

(٣) الترمذي في «الجامع» رقم (٣٥٣٤) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب. وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٤، ١٧٢)، والدرامي في «السنن» رقم (٢٧٩١) من حديث أبي ذر، وله شاهدٌ عند مسلم من حديث أبي ذر في «الصحيح» برقم (٢٦٨٧) وسوف يُشير المؤلّفُ إليها.

(٤) ينظر: الذهبي، «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٧٠).

خدمه عشرَ سنين، وقال [له][(١)] «اللهم أكثر مالَه وولده، وأدخله الجنة»[(٢)].. مات سنة اثنتين - وقيل: ثلاث - وتسعين، وقد جاوز المائة[(٣)].

وقد رواه الإمامُ أحمد، من حديث أبى ذرٍّ بمعناه، وهذا لفظُه: «ومن عمل قُراب الأرض خطيئةً، ثم لقينى لا يُشرك بى شيئاً جعلتُ له مثلَها مغفرة».

ورواه مسلم، وأخرجه الطبرانى، من حديث ابن عباس، عن النبى ﷺ.

قوله: «لو أتيتنى بقُراب الأرض» بضم القاف، وقيل: بكسرها. والضم أشهر، وهو ملؤُها أو ما يُقارب ملأَها.

قوله: «ثم لقيتنى لا تُشرك بى شيئا» شرطٌ ثقيل فى الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك: كثيره وقليله، صغيره وكبيره. ولا يسلمُ من ذلك إلا من سلَّم الله تعالى، وذلك هو القلبُ السليم؛ كما قال تعالى: ﴿يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم﴾[(٤)] [الشعراء: ٨٩].

قال ابنُ رجب: من جاء مع التوحيد بقُراب الأرض خطايا، لقيه الله تعالى بقُربها مغفرة.

إلى أنْ قال: فإنْ كمُل توحيد العبد وإخلاصُه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه وبلسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرةَ ما قد سلف من الذنوب كلِّها، ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبُه، أخرجت منه كلَّ ما سوى الله تعالى: محبةً وتعظيماً، وإجلالا ومهابة، وخشية وتوكلا. وحينئذٍ تُحرقُ ذنوبَه وخطاياه كلها، وإنْ كانت مثلَ زبد البحر. انتهى مُلخصاً[(٥)].

قال العلامةُ ابن القيم رحمه الله تعالى - فى معنى الحديث -: ويُعفى لأهل التوحيد المُحض - الذين لم يشوبوه بالشرك - ما لا يُعفى لمن ليس كذلك. ولو لقى

---

(١) إضافة من (ط).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٣٧٩، ٦٣٨١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٨٠، ٢٤٨١).

(٣) ينظر: الذهبى، . «سير أعلام النبلاء». (٣/ ٣٩٥).

(٤) ينظر: ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ١٣٣).

(٥) ينظر: ابن رجب، «كلمة الاخلاص» (٢١) وما بعدها.

الموحِّدُ ـ الذى لم يُشرك بالله شيئا ألبتَّة ـ ربَّه بقُراب الأرض خطايا، أتاه بقُرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيدُه.

فإنَّ التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك، لا يبقى[1] معه ذنبٌ؛ لأنه يتضمَّنُ من محبة الله وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه، ما يوجبُ غسل الذنوب ولو كانت قرابَ الأرض. فالنجاسةُ عارضة، والدافع لها قوى. انتهى.

وفى هذا الحديث: كثرةُ ثواب التوحيد، وسعةُ كرم الله وجوده ورحمته[2]، والردُّ على الخوارج: الذين يكفِّرون المسلم بالذنوب، وعلى المُعتزلة القائلين: بالمنزلة بين المنزلتين، وهى الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمنٍ ولا كافر، ويُخلَّد فى النار.

والصواب: قولُ أهل السنة: أنه لا يُسلب عنه اسمُ الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمنٌ عاصٍ، أو مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته. وعلى هذا يدلُّ الكتاب/ ، والسنة، وإجماع سلف الأمة. [٢٠/أ]

وعن عبد الله بن مسعود، قال: لما أُسرى برسول الله ﷺ، انتُهى به إلى سِدرة المُنتهى، فأُعطى ثلاثاً: أُعطى الصلوات الخمس، وخواتيمَ سورة البقرة، وغُفِرَ لمن لا يُشرك بالله من أُمتَّه شيئا المُقْحِمات[3]. رواه مسلم[4].

قال ابنُ كثير – فى (تفسيره) –[5]: وأخرج الإمامُ أحمد، والترمذى، وابن ماجة، والنسائى، عن أنس بن مالك، قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية **﴿هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفرة﴾** [المدثر: ٥٦]، وقال: «قال ربكم: أنا أهلٌ أنْ أُتَّقى فلا يُجعل معى إلهٌ، فمن اتقى أنْ يجعل معى إلهاً كان أهلا أن أغفرَ له»[6].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: تأمَّل الخمسَ اللواتى فى حديث عُبادة، فإنك إذا

(١) الأصل: ولا يبقى.

(٢) المسالتان: الأولى والثانية.

(٣) المُقْحِمَات: الذنوب العظام والكبائر، من التقحم: وهو الوقوع فى المهالك. «المنهاج» (٣/ ٣).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٧٣)، وأخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم: (٣٢٧٢).

(٥) ابن كثير «تفسير القرآن الكريم» (٨/ ٢٩٩).

(٦) أحمد فى «المسند» (٣/ ١٤٢، ١٤٣)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٣٢٥) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب.

جمعتَ بينه وبين حديثَ عِتبان: تبينّ لك معنى قول لا إله إلا الله، وتبيَّن لك خطأ المغرورين.

وفيه: أنَّ الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله، والتنبيه لرجحانها بجميع المخلُوقات، مع أنَّ كثيراً ممن يقولها يخِفُّ ميزانُه. وفيه: إثباتُ الصفات، خلافاً للمعطلة.

وفيه: أنك إذا عرفت حديثَ أنس، [عرفت أنَّ][1] قوله في حديث عتبان «إنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجهَ الله» أنَّه تركُ الشرك، ليس قولها باللسان[2]. انتهى.

---

(٢) إضافة من كتاب «التوحيد».

(٣) المسائل: الخامسة، والسادسة، والثامنة، والتاسعة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة.

(٢)

بـــاب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من حقَّق التوحيدَ دخل الجنَّةَ بغير حساب.

ش: أى: ولا عذاب، قلتُ: تحقيقه: تخليصُه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصى.

قال المُصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**. [النحل: ١٢٠].

ش: وصف إبراهيمَ عليه السلام بهذه الصفات، التى هى الغايةُ فى تحقيق التوحيد:

الأُولى: أنَّه كان أُمَّةً، أى: قدوةً، وإماماً مُعلِّما للخير. وماذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين، اللّذين تُنال بهما الإمامةُ فى الدين.

الثانيةُ: قوله: **﴿قانتاً﴾** قال شيخُ الإسلام: القُنوتُ: دوامُ الطاعة، والمُصلى إذا طال قيامُه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت. قال تعالى: **﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾** [الزمر: ٩]. انتهى مُلخصاً.

الثالثةُ: أنه كان حنيفاً.

قلتُ: قال العلاَّمةُ ابن القيم رحمه الله تعالى: الحنيف: المُقبلُ على الله، المعرِضُ عن كل ما سواه. انتهى[١].

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أى: لصحة إخلاصه وكمالِ صدقه، وبُعدِه/ [٢٠/ب] عن الشرك.

---

(١) ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٤).

قلتُ: يوضِّح هذا، قولُه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أى: على دينه من إخوانه المُرسلين، قاله ابنُ جرير رحمه الله تعالى[1].

﴿إِذ قَالُوا لِقَوْمِهِم إِنَّا بُرَآءُ مِنكُم وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بيننا وبينكم العداوَةُ وَالبغضاءُ أبداً حتى تُؤمنوا بالله وحدَه إلا قولَ إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملكُ لك من الله من شئ ربَّنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾. [الممتحنة: ٤].

وذكر تعالى عن خليله عليه السلام، أنَّه قال لأبيه آزر: ﴿وَأَعْتَزِلُكُم وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله وَأَدْعُوا رَبِّى﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا اعتزَلَهُم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وهبنا له إسحاقَ ويعقوب وكلاً جعلنا نبيا﴾. [مريم: ٤٨ - ٤٩].

فهذا هو تحقيقُ التوحيد: وهو البراءة من الشرك وأهلِه واعتزالُهم، والكفرُ بهم وعداوتهم وبغضُهم. فالله المُستعان.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى ـ فى هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيم كَانَ أُمَّةً﴾ ـ : لئلا يستوحشَ سالكُ الطريق من قلَّة السالكين ﴿قَانِتاً لله﴾ لَا للمُلوك ولا للتجار المُترفين! ﴿حَنِيفاً﴾ لا يميلُ يميناً ولا شمالاً، كفعلَ العُلماء المفتونين!! ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثَّر سوادَهم، وزعم أنّه من المسلمين[2]. انتهى.

وقد روى ابنُ أبى حاتم، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيم كَانَ أُمَّةً﴾ على الإِسلام. ولم يكن فى زمانه أحدٌ على الإسلام غيره[3].

قلتُ: ولا مُنافاة بين هذا وبين ما تقدَّم: من أنَّه كان إماماً يُقتدى به فى الخير.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِم لا يُشْرِكُونَ﴾. [المؤمنون: ٥٩].

ش: وصَفَ المؤمنين السابقين إلى الجنة، فأثنَى عليهم بالصفات التى أعظمُها:

---

(١) ابن جرير، «جامع البيان» (٢٨/ ٦٢).

(٢) محمد بن عبد الوهاب، «الاستنباط» (٢٣٧).

(٣) ابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٥/ ١٧٦).

أنهم بربهم لا يُشركون. ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يقدحُ فى إسلامه: من شركٍ جَلّى أو خفى، نفى ذلك عنهم. وهذا هو تحقيقُ التوحيد، الذى حسُنت به أعمالُهم، وكمُلت ونفعتْهم.

قلتُ: قوله: حسُنت وكمُلت[1]. هذا باعتبار سلامتِهم من الشرك الأصغر. وأمَّا الشركُ الأكبر، فلا يُقال فى تركه ذلك، فتدبر. ولو قال الشارح: صحَّت، لكان أقوم.

قال ابنُ كثير: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا يعبدون مع الله غيَره. بل يوحِّدونه، ويعلمونَ أنه: لا إله إلا الله، أحدٌ صمد. لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، وأنه لا نظير له[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنتُ عند سَعيد/ بن جُبير، فقال: أيُّكم رأى الكوكبَ الذى انقضَّ البارحة؟ فقلتُ: أنا!. ثم قلتُ: أمَا إنى لم أكُن فى صلاة، ولكنى لُدغتُ. قال: فماذا صنعتَ؟ قلتُ: ارتقيتُ. قال فما حملك على ذلك؟! قلتُ: حديثٌ حدَّثناه الشَّعبى، قال: وما حدثكم؟ قلتُ: حدَّثنا عن بُريدة بن الحُصَيْب، أنه قال: «لا رُقْيَةَ إلا من عين أو حُمَة» قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدَّثنا ابنُ عباس، عن النبى ﷺ أنه قال: «عُرِضَت علىَّ الأُمَمَ، فرأيتُ النبىَّ ومعه الرَّهَطُ، والنبىَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبى وليس معه أحدٌ. إذ رُفع لى سوادٌ عظيم، فظننت أنهم أُمتى، فقيل لى: هذا موسى وقومه. فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لى: هذه أُمَّتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنَّةَ بغير حساب ولا عذاب» ثم نَهضَ فدخل منزلَه، فخاض الناسُ فى أولئك، فقال بعضهم: فلعلَّهم الذين صحبُوا رسول الله ﷺ، وقال بعضُهم: فلعلَّهم الذين وُلِدوا فى الإسلام، فلم يُشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياءَ، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يسْتَرقُون ولا يكْتَوُون ولا يتطيرُّون وعلى ربهم يتوكَّلون». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن. فقال: يا رسول الله، أدْعُ الله أن يجعلنى منهم، قال: «أنت منهم». ثم

[٢١/أ]

---

(١) هذه الكلمة ليست فى المطبوعة من «تيسير العزيز الحميد» (١٠١).

(٢) ابن كثير. «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٤٧٣).

قام رجلٌ آخر، فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة».

ش: هكذا أورده المصنِّفُ غيرَ مَعزُوّ. وقد رواه البخاريُّ مختصراً ومطولاً. ومسلم، واللفظ له، والترمذي، والنسائي[1].

قوله: (عن حصين بن عبد الرحمن). هو السُّلَمي، أبو الهُذيل الكوفي، ثقةٌ مات سنة ستٍ وثلاثين ومائة، وله ثلاثٌ وتسعون سنة[2].

وسعيد بن جُبير: هو الإمامُ الفقيه، من جلَّة أصحاب ابن عباس، روايتُه عن عائشة، وأبي موسى مُرسلة. وهو كوفيٌّ، مولى لبني أَسَد. قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يُكمل الخمسين[3].

قوله: (انقضَّ). هو بالقاف والضَّاد المُعجمة، أي: سقط. والبارحةُ، هي: أقربُ ليلة مضت. قال أبو العباس ثعلب[4]/ يقال قبل الزوال: رأيتُ الليلة، وبعد الزوال: رأيتُ البارحة، وكذا قال غيرُه. وهي مُشتقةٌ من بَرِح: إذا زال. [٢١/ب]

قوله: (أمَا إني لم أكن في صلاة)، قال في (مُغني اللبيب): أمَا. بالفتح والتخفيف، على وجهين: أحدُهما: أن تكون حرفَ استفتاح بمنزلة ألاَ، وإذا وقعت أنّ بعدها كُسرت. الثاني: أنْ تكون بمعنى حقاً، أو أحقاً[5].

وقال آخرون: هي كلمتان: الهمزةُ للاستفهام، وما اسمٌ بمعنى شيْ، ذلك الشيُ حقٌّ. فالمعنى أحقاً[6]. وهذا هو الصواب.

و[موضعُ][7] ما: النصب على الظرفية: وهذه[8] تُفتح أنّ بعدها. انتهى[9].

---

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٧٠٥، ٥٧٥٢) مطولاً، ورقم (٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١) مختصراً، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٠)، والترمذي في (الجامع (٢٤٤٨)، والنسائي في «السنن الكبرى كتاب الطب» كما في «تحفة الأشراف» (٤/ ٤١٠).

(٢) ابن حجر، «تقريب» (١٧٠).

(٣) ابن حجر، «تقريب» (٢٣٤).

(٤) أحمد بن يحيى الشيباني. إمامُ أهل الكوفة في النحو، (ت ٢٩١هـ) «وفيات الأعيان» (١/ ١٠٢).

(٥) في جميع النسخ: أحق، والمثبت من «المغني».

(٦) في جميع النسخ: أحق، والمثبت من «المغني».

(٧) إضافة من «المغني».

(٨) أي: التي بمعنى حقا، أو أحقا.

(٩) ابن هشام، «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» (١/ ٥٦).

والأنسبُ هنا هو الوجه الأوَّل.

القائلُ هو حُصين، خاف أنْ يظنَّ الحاضرون: أنَّه رآه وهو يُصلى، فنفى عن نفسه إيهام العبادة. وهذا يدل على فضل السلف، وحرصِهم على الإِخلاص وإبعادهم عن الرياء والتزيُّن بما ليس فيهم.

قوله: (ولكنى لُدغت) بضم أوَّله، وكسر ثانيه. قال أهلُ اللغة: يُقال لدغته العقربُ، وذواتُ السموم: إذا أصابته بسُمِّها، وذلك بأنْ تأبره بشوْكتها.

قوله: (قلتُ: ارتقيت). لفظُ مسلم: استرقيتُ. أى: طلبتُ من يرقيني.

قوله: (فما حملك على ذلك؟) فيه طلبُ الحجَجِ على صحة المذهب.

قوله: (حديثٌ حدثناه الشعبيُّ). اسمُه: عامر بن شرَاحيل الهمدانى. وُلد فى خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم، مات سنة ثلاثٍ ومائة.

قوله: (عن بُريدة) بضم أوّله وفتح ثانيه، تصغيرُ بُردة (ابن الحُصَيب) - بضم الحاء وفتح الصاد المُهملتين - ابن الحارث الأسلمى، صحابيٌّ شهير. مات سنة ثلاثٍ وستين. قاله ابنُ سعد[1].

قوله (لا رُقْية إلا من عينٍ أو حُمَة) وقد رواه أحمدُ، وابن ماجة، عنه مرفوعاً[2]. ورواه أحمدُ، وأبو داود، والترمذى، عن عِمران بن حُصين، به مرفوعاً[3]. قال الهيثميُّ: رجالُ أحمد ثقات.

و(العين): هى إصابةُ العائن غيره بعينه. و(الحُمة) - بضمِّ المهملة وتخفيف الميم - سمُّ العقرب، وشبهها.

قال الخطَّابى: ومعنى الحديث: لا رُقية أشفى وأولى من رُقيةِ العين والحُمة، وقد رَقى النبىُّ ﷺ ورُقى.

قوله: (قد/ أحسن من انتهى إلى ما سمع). أى: مَن أخذ بما بلغه من العلم، [٢٢/أ]

---

(١) ابن سعد، «الطبقات» (٤/ ٢٤١).

(٢) أحمد فى «المسند» (١/ ٢٧١)، وابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٥١٣).

(٣) أحمد فى «المسند» (٤/ ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٥٧)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٨٨٤).

وعمل به فقد أحسن. بخلاف من يعملُ بجهل، أوْ لا يعمل بما يعلم؛ فإنَّه مسئٌ آثم. وفيه: فضيلةُ علم السَّلف، وحُسنُ أدبهم.

قوله: (ولكن حدّثنا ابنُ عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابنُ عم النبي ﷺ، دعا له، فقال: «اللَّهم فقِّههُ في الدين، وعلِّمه التأويل»[١] فكان كذلك، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنِّفُ رحمه الله: وفِيه عُمقُ علمِ السلف؛ لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا كذا. فعُلِم أنَّ الحديث الأول لا يخالفُ الثاني[٢].

قوله: «عُرضت عليّ الأُمم» وفي الترمذي، والنسائي - من رواية عَبْثر بن القاسم[٣]، عن حُصين بن عبد الرحمن: - أن ذلك كان ليلة الإسراء. قال الحافظ: فإنْ كان ذلك محفوظاً، كان فيه قوةٌ لمن[٤] ذهب إلى تعدد الإسراء، وأنه وقع بالمدينة أيضاً[٥].

قلتُ: وفي هذا نظر.

قوله: «فرأيتُ النبيَّ ومعه الرهط» الذي في (صحيح مُسلم): «الرُّهيط» بالتصغير لا غير، وهم الجماعةُ دون العشرة، قاله النووي.

قوله: «والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد» فيه الردُّ على من احتج بالكثرة.

قوله: «إذ رُفع لي سوادٌ عظيم» المراد [به][٦] هُنا: الشخصُ الذي يُرى من بعيد.

قوله: «فظننتُ أنهم أُمَّتي»؛ لأن الأشخاص التي تُرى في الأُفق لا يُدرك منها إلا الصورة.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣٦٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٥٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٣٤) وصححه ووافقه الذهبي، قال الهيثمي في «المجمع» (٩/٢٧٦): ولأحمد طريقان، رجالُهما رجال الصحيح. وهو في الصحيح، غير قوله: «وعلمه التأويل».

(٢) المسألة السابعة عشرة.

(٣) أبو زبيد، ابن القاسم الزبيدي، ثقة. ت(١٧٩ هـ). «تقريب» (/ ٢٩٤).

(٤) الأصل و(ض) و(م) و(هـ): إلى من. والمثبت من (ط) و«الفتح».

(٥) ابن حجر، «فتح الباري» (١١/ ٤٠٧).

(٦) زيادة من (ض).

وفى (صحيح مسلم) «ولكن انظر إلى الأُفق» ولم يذكره المصنف. فلعلَّه سقط من الأصل الذى نقل الحديث منه. والله أعلم.

قوله: «فقيل لى: هذا موسى وقومه» أى: موسى بن عِمران، كليمُ الرحمن. وقومُه: أتباعهُ على دينه من بنى إسرائيل.

قوله: «فنظرتُ فإذا سوادٌ عظيم. فقيل لى: هذه أُمَّتكُ ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» أى: لتحقيقهم التوحيد.

وفى رواية ابن فُضيل «ويدخل الجنة من هؤلاء من أُمتك سبعون ألفاً».

وفى حديث أبى هريرة - فى (الصحيحين) - أنهم[1] «تُضئُ وجوهُهم إضاءةَ القمر ليلة البدر»[2].

وروى الإمامُ أحمد، والبيهقى - فى حديث أبى هُريرة - «فاستزدتُ ربى فزادنى مع كلِّ ألفٍ سبعين ألفاً»[3] قال الحافظُ: / وسندُه جيد[4]. [٢٢/ب]

قوله: (ثم نهض). أى: قام.

قوله: (فخاض الناسُ فى أولئك) - [هذا من العامِّ الذى أُريد به الخصوص - أى: جُملةُ الحاضرين][5]. خاض: بالخاء والضاد المُعجمتين.

وفى هذا: إباحةُ المناظرة والمُباحثة فى نصوص الشرع، على وجه الاستفادة وبيان الحق.

وفيه: عُمق علم السلف؛ لمعرفتهم أنَّهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

وفيه: حرصهُم على الخير. ذكره المصنف[6].

---

(١) الأصل و(ض) و(م) و(هـ): بأنهم.

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٨١١، ٦٥٤٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٦)، وأحمد فى «المسند» (٢/ ٤٠٠).

(٣) أحمد فى «المسند» (٢/ ٣٥٩)، والبيهقى فى «كتاب البعث» رقم (٤١٦).

(٤) ابن حجر، «فتح البارى» (١١/ ٤١٠).

(٥) ما بينهما إضافة من (ض).

(٦) المسألتان: السابعة، والثامنة.

قوله: فقال «هم الذين لا يَسترقون» هكذا ثبت فى (الصحيحين)، وهو كذلك فى حديث ابن مسعود، فى (مُسند أحمد)[1]. وفى رواية لمسلم «لا يَرقُون».

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: هذه الزيادةُ وهمٌ من الراوى، لم يَقُل النبىُّ ﷺ «لا يَرقُون»؛ وقد قال النبىُّ ﷺ وقد سُئل عن الرُّقى: «من استطاع منكم أنْ ينفع أخاه فلينفعه»[2].

وقال: «لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركاً»[3].

قال: وأيضاً، فقد رقى جبريلُ النبىَّ ﷺ[4] ورقى النبىُّ ﷺ أصحابه[5].

قال: والفرقُ بين الراقى والمُسترقى: أنَّ المُسترقى[6] سائلٌ مستعطٍ ملتفتٌ إلى غير الله بقلبه، والراقى مُحسن!

قال: وإنما المُراد: وصفُ السبعين ألفاً بتمام التوكل، فلا يسألون غيرَهم أنْ يرقيهم ولا يكويهم[7]. وكذا قال ابنُ القيم[8].

قوله: «ولا يكتوون» أى: لا يسألون غيرَهم أنْ يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أنْ يرقيهم؛ استسلاماً للقضاء، وتلذذاً بالبلاء.

قلتُ: والظاهر أنَّ قوله: «لا يكتوون» أعمُّ من أنْ يسألوا ذلك، أو يُفعل بهم ذلك باختيارهم.

أمَّا الكىُّ فى نفسه فجائز؛ كما فى (الصحيح) ـ عن جابر بن عبد الله ـ أنَّ

---

(١) أحمد فى «المسند» رقم (٣٨٠٦، ٣٨١٩، ٣٩٨٧).

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٩٩) من حديث جابر.

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٠٠)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٨٨٦) من حديث عوف ابن مالك.

(٤) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٨٦)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٩٧٢) من حديث أبى سعيد. وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٨٥) من حديث عائشة.

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٤٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٩٤)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٨٩٥) من حديث عائشة.

(٦) الأصل: أن المسترقى. ساقط.

(٧) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١/ ١٨٢، ٣٢٨).

(٨) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٥).

النبي ﷺ بعث إلى أُبي بن كعب طبيباً، فقطع له عِرقاً، وكواه[1].

وفي (صحيح البخاري) - عن أنس - أنه كُوِي من ذات الجنب، والنبيّ ﷺ حيٌّ[2].

وروى الترمذي، وغيرُه - عن أنس - أنَّ النبي ﷺ كوى أسعد بن زُرارة، من الشوكة[3] [4].

وفي (صحيح البخاري) - عن ابن عباس - مرفوعاً «الشِّفاءُ في ثلاث: شربةُ عسل، وشرطة محجم، وكيَّةُ نار. وأنا أنهى عن الكي»[5] وفي لفظ «وما أُحب أنْ أكتوي»[6].

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: قد تضمَّنت أحاديثُ الكيِّ أربعةَ أنواع. أحدُها: / فعْلُه. والثاني: عدمُ محبته، والثالث: الثناءُ على من تركه، والرابع: النهيُ عنه. ولا تعارُضَ بينها بحمد الله. [٢٣/أ]

فإنَّ فعله له يدلُّ على جوازه، وعدمَ محبته لا يدلُّ على المنع منه. وأمَّا الثناءُ على تاركه، فيدلُّ على أنَّ تركه أولى وأفضل، وأما النهيُ، فعلى سبيل الاختيار والكراهة[7].

وقوله: «ولا يتطيّرون» أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها. وسيأتي إنْ شاء الله تعالى بيانُ الطيرة، وما يتعلَّق بها في بابها.

قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» ذكر الأصلَ الجامع الذي تفرَّعت عنه هذه الأفعالُ والخصال، وهو التوكلُ على الله، وصِدقُ الالتجاء إليه، والاعتمادُ بالقلب عليه،

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٠٧)، وأبو داود في «السنن» رقم (٣٨٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٧١٩، ٥٧٢١).

(٣) الشوكة: إحمرار ينتشر على الوجه والجسد. ينظر «النهاية» (٢/ ٥١٠).

(٤) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٢٠٥١). وقال: هذا حديثٌ حسن غريب، وابن حبان في «الصحيح» رقم (١٤٠٤).

(٥) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٦٨٠، ٥٦٨١).

(٦) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٦٨٣، ٥٦٩٧، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٠٥).

(٧) ابن القيم، «زاد المعاد» (٤/ ٦٦).

الذى هو نهايةُ تحقيق التوحيد، الذى يُثمر كلَّ مقام شريف: من المحبة، والرجاء، والخوف، والرضى به رباً وإلهاً، والرضى بقضائه.

وأعلم أنَّ الحديث لا يدلُّ على أنهم لا يُباشرون الأسباب أصلاً؛ فإنَّ مُباشرة الأسبابِ ـ في الجُملة ـ أمرٌ فطرى ضرورى، لا انفكاك لأحد عنه. بل نفسُ التوكل: مباشرةٌ لأعظم الأسباب؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. [الطلاق: ٣] أى: كافيه.

وإنما المرادُ: أنهم يتركون الأمورَ المكرُوهة مع حاجتهم إليها، توكلاً على الله تعالى، كالاكتواء والاسترقاء. فتركُهم له؛ لكونه سبباً مكروهاً، لاسيما والمريضُ يتشبَّث ـ فيما يظنُّه سبباً لشفائه ـ بخيط العنكبوت.

وأمَّا مباشرةُ الأسباب، والتداوى ـ على وجهٍ لا كراهية فيه ـ فغيرُ قادح في التوكل، فلا يكون تركهُ مشروعاً؛ لما في (الصحيحين) ـ عن أبى هريرة ـ مرفوعاً «ما أنزل الله من داءٍ إلا أنزل له شفاء. علِمه من علمه، وجهله من جهله»(١).

وعن أُسامةَ بنِ شَريك، قال: كنتُ عند النبى ﷺ وجاءت الأعرابُ، فقالوا: يارسول الله، أنتداوى؟ قال: «نعم ـ يا عباد الله ـ تداووا؛ فإنَّ الله عزَّ وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً. غيرَ داءٍ واحد» قالوا: وما هو؟ قال: «الهرم» رواه أحمد(٢).

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: وقد تضمَّنت هذه الأحاديثُ إثباتَ الأسباب والمُسبِّبات. وإبطالَ قول من أنكرها، والأمرَ بالتداوى، وأنه لا يُنافى التوكل؛ كما لا يُنافيه/ دفعُ ألم الجوع والعطش، والحرِّ والبرد، بأضدادها. بل لا تتم حقيقةُ [٢٣/ب] التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله تعالى مقتضية(٣) لمسبَّباتها قَدَراً وشرعاً،

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٦٧٨) دون الجملة الأخيرة، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٠٤) من حديث جابر.

(٢) أحمد فى «المسند» (٤/ ٢٧٨)، وأخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٣٩) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح.

(٣) (م) و«زاد المعاد»: مقتضيات.

وأنَّ تعطيلها يقدَحُ في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعِفُه من حيثُ يظنُّ معطِّلُها أنَّ تركها أقوى في[1] التوكل.

فإنَّ تركها عجزٌ يُنافي التوكل، الذي حقيقتُه اعتمادُ القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبدَ في دينه ودنياه، ودفع ما يضرُّه في دينه ودنياه. ولابُدَّ مع هذا الاعتماد من مُباشرة الأسباب، وإلاَّ كان مُعَطِّلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبدُ عجزه توكلاً، ولا توكُّله عجزاً[2].

وقد اختلف العُلماءُ في التداوي: هل هو مباحٌ، وتركهُ أفضل، أو مُستحب أو واجب؟

فالمشهورُ عن أحمد الأوَّل؛ لهذا الحديث وما في معناه. والمشهورُ عند الشافعية الثاني، حتى ذكر النوويُّ ـ في (شرح مسلم) ـ: أنه مذهبُهم، ومذهب جمهور السلف وعامَّة الخلف[3].

واختاره الوزير، أبو المظفَّر. قال: ومذهبُ أبي حنيفة: أنه مؤكد، حتى يُداني به الوجوب. قال: ومذهبُ مالك: أنه يستوي فعلُه وتركه، فإنه قال: لا بأس بالتداوي، ولا بأس بتركه[4].

وقال شيخُ الإسلام: ليس بواجبٍ عند جماهير الأئمة، وإنَّما أوجبه طائفةٌ قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد[5].

قوله: (فقام عكَّاشةُ بن مِحْصَن). هو: بضم العين وتشديد الكاف، ومحصن: بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المُهملتين، ابن حُرثان: بضم المهملة وسكون الراء بعدها مُثلَّثة. الأسدي، من بني أسد بن خُزيمة. كان من السابقين إلى الإسلام، ومن أجمل الرجال. هاجر، وشهد بدراً وقاتل فيها، واستُشهد في قتال الرِّدَّة مع خالد بيد طُليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة[6]، ثم

---

(١) الأصل و(ض) و(م): من.

(٢) ابن القيم، «زاد المعاد» (٤/ ١٤ ـ ١٥).

(٣) النووي، «المنهاج» (١٤/ ١٩١).

(٤) ينظر: ابن عبد البر، «التمهيد» (٢٤/ ٦٥).

(٥) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٦٩).

(٦) قتله انتقاماً لمقتل أخيه حبال بن خويلد، على ماء بُزاخة ببلاد بني أسد. البلاذري «فتوح البلدان» (١٠٥).

أسلم طُليحةُ بعد ذلك، وجاهد الفُرس يوم القادسية مع سعد بن أبى وقاص، واستُشهد فى وقعة الجسر المشهورة[1].

قوله: (فقال: يارسول الله، ادعُ الله أنْ يجعلنى منهم، قال: «أنت منهم» وللبخارى فى روايةٍ، فقال: «اللهم / اجعله منهم» وفيه: طلبُ الدعاء من الفاضل. [٢٤/أ]

قوله: (ثم قام رجلٌ آخر) ذكره مُبهماً، فلا حاجةَ بنا إلى البحث عن اسمه[2].

قوله: فقال «سبقك بها عكاشة» قال القُرطبى: لم يكن عند الثانى من الأحوال ما كان عند عكَّاشة، فلذلك لم يُجبه، إذ لو أجابه لجاز أنْ يطلب ذلك كلٌّ من كان حاضراً، فيتسلسل الأمر، فسدَّ الباب بقوله ذلك. انتهى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه: استعمالُ المعاريض، وحسنُ خُلُقه ﷺ[3].

---

(١) وكانت سنه ثلاث عشرة للهجرة، وسمى يوم قس الناطف. «فتوح البلدان» (٢٥٢).

(٢) ما بينهما ساقط من (ط).

(٣) المسألتان: الحادية والعشرون، والثانية والعشرون.

(٣)
بــاب
الخــوف مـــن الشـــرك

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ الخوف من الشرك.

وقول الله تعالى: ﴿إنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمنْ يَشاءُ﴾. [النساء: ٤٨ - ١١٦].

ش: قال ابنُ كثير: أخبر تعالى أنَّه: ﴿لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أى: لا يغفر لعبدٍ لقيه وهو مشرك ﴿ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمنْ يَشَاءُ﴾ أى: منَ الذنوب لمن يشاء من عباده. انتهى[١].

فتبيَّن بهذه الآية: أنَّ الشرك أعظمُ الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنَّه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخلٌ تحت المشيئة: إنْ شاء غفره لمن لقيه به، وإنْ شاء عذَّبه.

وذلك يوجبُ للعبد شدَّة الخوف من الشرك الذى هذا شأنُه عند الله؛ لأنه أقبحُ القبيح، وأظلم الظلم، وتنقّصٌ لربِّ العالمين، وصرفُ خالص حقِّه لغيره. وعدلُ غيره به، كما قال تعالى ﴿ثم الذين كفروا بربِّهم يَعْدِلُون﴾. [الأنعام: ١].

ولأنه مناقضٌ للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غايةُ المُعاندة لربِّ العالمين، والاستكبارِ عن طاعته، والذّل له، والانقيادِ لأوامره، الذى لا صلاح للعالم إلا بذلك. فمتى خلا منه خرب، وقامت القيامة، كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى لا يقال فى الأرض الله، الله» رواه مسلم[٢].

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٨٦).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٤٨)، من حديث أنس.

ولأنَّ الشركَ تشبيهُ للمخلوق بالخالق - تعالى وتقدَّس - في خصائص الإلهية: مِن مُلك الضر والنفع، والعطاء والمنع، الذى يوجب تعلُّقَ الدعاء، والخوف والرجاء والتوكل، وأنواع العبادة كلِّها بالله تعالى وحده. فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق، وجعلَ من لا يملكُ لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نُشوراً شبيهاً بمن له الحمدُ كلُّه، وله الخلق كله، وله المُلك كله، وبيده الخيرُ كله، وإليه يرجع الأمرُ كلُّه.

فأزمَّةُ الأمور كلِّها بيده سبحانه، ومرجعُها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا مانع / لما أعطى، ولا مُعطى لما منع، الذى إذا فتح للناس رحمةً فلا مُمسك لها، وما يمسكُ فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. فأقبحُ التشبيه: تشبيه العاجز الفقير بالذات، بالقادر الغنى بالذات. [٢٤/ب]

ومن خصائص الإلهية: الكمالُ المُطلق من جميع الوجوه، الذى لا نقص فيه بوجهٍ من الوجوه. وذلك يوجب أنْ تكون العبادةُ كلُّها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشيةُ والدعاء، والرجاء والإنابة، والتوكلُ والتوبة والاستعانة، وغايةُ الحبِّ مع غايةِ الذل. كلٌّ ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة، أنْ يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أنْ يكون لغيره.

فمن فعل شيئاً من ذلك بغيره، فقد شبَّه ذلك الغيرَ بمن لا شبيه له، ولا مِثل له، ولا ندَّ له، وذلك أقبحُ التشبيه وأبطلهُ.

فلهذه الأمور وغيرها: أخبر سُبحانه وتعالى أنه لا يغفره، مع أنَّه كتب على نفسه الرحمة. هذا معنى كلامِ ابن القيِّم رحمه الله تعالى[1].

وفى الآية ردٌّ على الخوارج المكفِّرين بالذنوب، وعلى المُعتزلة القائلين بأنَّ أصحاب الكبائر مخلَّدون فى النار، وليسوا عندهم بمؤمنينَ ولا كفار.

ولا يجوز أنْ يُحمل قولهُ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ على التائب؛ فإنَّ التائب من الشرك مغفورٌ له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾. [الزمر: ٥٣].

---

(١) ينظر: ابن القيم، «الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٦٠ وما بعدها).

فهُنا عمَّ وأطلق؛ لأن المُراد به التائب، وهناك خصَّ وعلّق؛ لأن المُراد به من لم يتب. هذا مُلخص قولِ شيخ الإسلام[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال الخليلُ عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾. [ابراهيم: ٣٥].

ش: الصنَم: ما كان منحوتاً على صورة. والوثَنُ: ما كان منحوتاً على غير ذلك. ذكره الطبريُّ، عن مُجاهد[2].

قلتُ: وقد يُسمّى الصنمُ وثَناً؛ [كما قال الخليلُ عليه السلام: ﴿إِنَّما تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ [العنكبوت: ١٧]][3] ويُقال: إنَّ الوثَنَ أعمُّ؛ وهو قويٌّ. فالأصنامُ أوثانٌ، كما أنَّ القبور أوثان.

قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني وبنيَّ في جانبٍ عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالى دعاءَه، وجعل بَنِيه/ [٢٥/أ] أنبياءَ وجنَّبهم عبادة الأصنام.

وقد بيَّن ما يوجب الخوفَ من ذلك؛ بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾. [ابراهيم: ٣٦]، فإنَّه هو الواقعُ في كلِّ زمان؛ فإذا عرف الإنسانُ أنَّ كثيراً وقعوا في الشرك الأكبر، وضلُّوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفَه من أنْ يقع فيما وقع فيه الكثير، من الشرك الذي لا يغفره الله.

قال ابراهيمُ التيمي[4]: ومَن يأمنُ البلاءَ بعد إبراهيم؟. رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم[5].

فلا يأمنُ الوقوعَ في الشرك إلا من هو جاهلٌ به، وبما يُخلِّصه منه: من العلم بالله، وبما بعث به رسولَه، من توحيدِه، والنهي عن الشرك به.

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٧٥).

(٢) ينظر «تفسير الطبري» (١١/ ٤٦٩).

(٣) ما بينهما إضافة من (هـ) و(ط).

(٤) أبو أسماء، بن يزيد بن شَريك الكوفي العابد، ثقة إلا أنه يرسل ويدلس (ت ١٩٢هـ) «تقريب» (٩٥).

(٥) كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٦).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفى الحديث «أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغر»، فسُئل عنه؟ فقال: «الرياء».

ش: أورد المصنفُ هذا الحديثَ مختصراً غيرَ معزوّ. وقد رواه الإمامُ أحمد، والطبرانى، والبيهقى.

وهذا لفظُ أحمد: حدَّثنا يُونس، حدَّثنا ليث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لَبيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشركُ الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياءُ. يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً»[1]؟

قال المُنذرى: ومحمودُ بن لَبيد رأى النبىَّ ﷺ، ولم يصح له منه سماعٌ فيما أرى. وذكر ابنُ أبى حاتم: أنَّ البخارىَّ قال: له صحبة، ورجَّحه ابنُ عبد البر والحافظ.

وقد رواه الطبرانىُّ بأسانيد جيّدة عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خَديج[2]. مات محمود سنة ستٍ وتسعين. وقيل: سنة سبع وتسعين. وله تسع وتسعون سنة.

قوله: «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» هذا من شفقته ﷺ بأمته، ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلا دلَّهم عليه وأمرهم به، ولا شرَّ إلا بيَّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه؛ كما قال ﷺ ـ فيما صحَّ عنه ـ: «مابعث الله من نبى إلا كان حقاً عليه أنّ يدل أُمته على خير ما يعلمه لهم» الحديث[3]/ . [٢٥/ب]

فإذا كان الشركُ الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ ـ مع كمال علمهم وقوةِ إيمانهم ـ فكيف لا يخافه ـ وما فوقه ـ ممن هو دونهم فى العلم والإيمان

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٢): ورجاله رجال الصحيح، والطبرانى فى «الكبير» رقم (٤٣٠١) قال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٢٢٢): ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن شبيب بن خالد وهو ثقة، وحسَّن الحافظ إسناده كما فى «بلوغ المرام» (٣٠٢).

(٢) المنذرى، «الترغيب والترهيب» (١/ ٦٩).

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد الله بن عمرو.

بمراتب؟! خصوصاً إذا عُرف أنَّ أكثر عُلماء الأمصاراليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقرَّ به المشركون!. وما عرفوا معنى الإِلهية، التى نفتها كلمةُ الإِخلاص عن كلِّ ما سوى الله.

وأخرج: أبو يعلى، وابنُ المنذر، عن حُذيفة بن اليمان، عن أبى بكر، عن النبى ﷺ، قال: «الشركُ [فيكم][1] أخفى من دبيب النمل» قال أبو بكر: يارسول الله، وهل الشركُ إلا ما عُبد من دون الله، أو ما دُعى مع الله، قال: ثكلتك أمك! الشركُ فيكم أخفى من دبيب النمل» الحديث. وفيه: «أنْ تقول: أعطانى الله وفلان، والنِّدُّ: أنْ يقول الإِنسان: لولا فلان قتلنى فلان»[2] انتهى. من (الدُّر).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود رضى الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من ماتَ وهو يدعو مِن دون الله نِداً دخل النار» رواه البخارى[3].

ش: قال ابنُ القيم: النِّدُّ: الشَّبيه، يُقال: فلانٌ ندُّ فلان، ونديده، أى: مثله وشبهه[4]. انتهى، قال تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَندَاداً وَأَنتُم تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢٢].

قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً» أى: يجعل لله نداً فى العبادة، يدعوه ويسأله ويستغيث به، «دخل النار».

قال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى:

والشركُ فاحذره، فشركٌ ظاهر ... ذا القِسم ليس بقابل الغفرانِ
وهو اتخاذ الندِّ للرحمن أيّاً ... كان، من حجرٍ ومن إنسان

(١) ساقط من الأصل و(م) و(هـ) و(ط).

(٢) أبو يعلى فى «المسند» رقم (٥٨)، وعنه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٢٨٦). وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٤/ ٥٤)، وفيه ليث بن أبى سليم وهو مدلس، كما فى «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢٤)، وله شاهد من حديث أبى موسى الأشعرى، أخرجه أحمد فى «المسند» (٤/ ٤٠٣)، (١٠/ ٢٢٣) وشاهد من حديث معقل بن يسار، عن أبى بكر، أخرجه البخارى فى «الأب المفرد» رقم (٧١٦).

(٣) «صحيح البخارى» (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ٤٦٢، ٤٦٤). وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٢) بغير هذا اللفظ.

(٤) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٢٥).

يدعــوه، أو يرجــوه، ثم يخافــه ويحبــه كمحبــة الــدَّيان[1]

واعلم، أنَّ اتخاذ الندِّ على قسمين:

الأوَّل: أنَّه يجعله لله شريكاً فى أنواع العبادة أو بعضها، كما تقدَّم. وهو شركٌ أكبر.

والثانى: ما كان من نوع الشرك الأصغر، كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء؛ فقد ثبت أنّ النبى ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتنى لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده» رواه أحمدُ، وابن أبى شيبة والبخارى فى (الأدب المفرد)، والنسائى، وابن ماجة[2]. وقد تقدَّم حُكمُه فى باب فضل التوحيد.

وفيه: بيانُ أنَّ دعوةَ غير الله فيما لا يقدرُ عليه إلا الله شركٌ جلى، كطلب الشفاعة من الأموات. فإنَّها مُلكٌ لله تعالى، / وبيده ليس بيد غيره منها شئٌ، [٢٦/أ] وهو الذى يأذنُ للشفيع أنْ يشفع فيمن لاقى الله بالإِخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتى تقريرُه فى باب الشفاعة إنْ شاء الله تعالى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلمٍ، عن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من لقىَ الله لا يُشركُ به شيئاً دخل الجنة، ومن لَقيهُ يشركُ به شيئاً دخل النار»[3].

ش: جابر: هو ابنُ عبد الله بن عمرو بن حَرام ـ بمُهملتين ـ الأنصارى، ثم السَّلَمى ـ بفتحتين ـ صحابىٌّ جليل، ولأبيه مناقبُ مشهورة رضى الله عنهما، مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُفَّ بصرهُ، وله أربعٌ وتسعون سنة.

قوله: «مَن لقى الله لا يُشرك به شيئاً» قال القُرطبى: أى: لم يتخذ معه شريكاً فى الإِلهية، ولا فى الخلق، ولا فى العبادة. ومن المعلوم من الشرع، المجمعِ عليه

---

(١) ابن القيم، «الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية» (١٥٧).

(٢) أحمد فى «المسند» (١/ ٢١٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، والبخارى فى «الأدب» رقم (٧٨٣)، والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٨٨)، وابن ماجة فى «السنن» رقم (٢١١٧). من حديث ابن عباس. وذكره الألبانى فى «صحيحته» رقم (١٣٩).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٣)

عند أهل السُّنة: أنَّ من مات على ذلك فلابُدَّ له من دخول الجنة، وإنْ جَرت عليه قبل ذلك أنواعٌ من العذاب والمحنة، وأنَّ مَن مات على الشرك لا يدخل الجنَّةَ، ولا يناله من الله رحمة، ويُخلَّد في النار أبد الآباد، من غير انقطاع عذابٍ، ولا تصرُّم آماد.

وقال النووي: أمَّا دخولُ المشرك النارَ فهو على عُمومه، فيدخلها ويخلَّد فيها، ولا فرقَ فيه بين الكتابي ـ اليهودي والنصراني ـ وبين عبدةِ الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بينَ من خالف مِلَّة الإِسلام وبين من انتسب إليها ثم حُكم بكفره؛ بجحده [ما يكفُر بجحده][1] وغيرَ ذلك.

وأمَّا دخولُ من مات غيرَ مشركٍ الجنَّةَ، فهو مقطوعٌ له به. لكن إنْ لم يكن صاحبَ كبيرةٍ ـ مات مُصراً عليها ـ دخل الجنةَ أوَّلاً، وإنْ كان صاحب كبيرة مات مُصراً عليها فهو تحت المشيئة: فإنْ عُفي عنه دخل الجنة أوَّلاً، وإلا عُذِّب في النار، ثم أُخرج من النار وأُدخل الجنة[2].

وقال غيرهُ: اقتصر على نفي الشرك؛ لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم. إذ من كذَّب رُسلَ الله فقد كذَّب الله، ومَن كذَّب الله فهو مشرك. وهو كقولك: من توضأ صحَّت صلاتُه، أي/: مع سائر الشروط. [٢٦/ب] فالمرادُ: من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به، إجمالاً في الإِجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي. انتهى[3].

---

(١) إضافة من «المنهاج».

(٢) النووي، «المنهاج» (١/ ٩٧).

(٣) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (١٢٢).

(٤)

بـــاب

الدعاء إلـى شهـادة أن لا إلـه إلا اللـه

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ الدُّعاء إلى شهادة أنْ لا إله إلا الله.

ش: لما ذكر المُصنف رحمه الله تعالى: التوحيدَ وفضله، وما يُوجب الخوف من ضدِّه.

نبَّه بهذه الترجمة على أنَّه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أنْ يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة؛ كما هو سبيل المُرسلين وأتباعهم، كما قال الحسنُ البصري ـ لَمَّا تلا هذه الآية: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً ممَنْ دَعاَ إلى الله وَعَملَ صَالحاً وَقَالَ إنَّنى منَ المُسْلمينَ﴾**. [فصلت: ٣٣] فقال: هذا حَبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هَذا صفوةُ الله، هذاَ خيرَةُ الله، هذا أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله فى دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً فى إجابته، وقال: إننى من المسلمين. هذا خليفةُ الله[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: **﴿قُلْ: هَذه سبيلى أدْعُوا إلَى الله عَلَى بَصيرَة أَنَا وَمَنْ اتَّبعنى وَسُبحَانَ الله وَمَا أَنَا منَ المُشركينَ﴾**. [يوسف: ١٠٨].

ش: قال أبو جعفر بـن جريـر: يقول تعالـى ذكُره لنبيه محمـد ﷺ **﴿قُـل﴾** يا محمد **﴿هذه﴾** الدعوة التى أدعو إليها، والطريقة التى أنا عليها: من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاصِ العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاءِ إلى طاعته وترك معصيته **﴿سبيلى﴾** وطريقتى، ودعوتى **﴿أدعوا إلى الله﴾** تعالى وحدهَ لا شريك له **﴿على بصيرة﴾** بذلك ويقينِ علمٍ منى به **﴿أنا و﴾** يدعو إليه على بصيرة أيضاً **﴿مَن اتبعنى﴾** وصدَّقنى، وآمن بى. **﴿وسبحانَ الله﴾** يقول له تعالى ذِكرُه: وقل

(١) أخرجه عبد الرازق، فى «التفسير» (٢/ ١٨٧).

تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له: من أن يكون له شريكٌ فى ملكه أو معبود سواه فى سلطانه ﴿وما أنا من المشركين﴾ يقول: وأنا بريءٌ من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم منّى. انتهى[1].

قال فى (شرح المَنازل): يريدُ أنْ تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم، وهى البصيرةُ التى يكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر. وهذه هى الخصيصة التى اختص بها الصحابة / عن سائر الأمة، وهى أعلى درجات العلماء. [٢٧/أ]

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذه سَبِيلِى أدْعُوا إلَى الله عَلَى بَصِيرَة أنَا وَمَنْ اتَّبَعَنى﴾ أى: أنا وأتباعى على بصيرة. وقيل ﴿ومَن اتَّبعنى﴾ عطفٌ علَى المرفوع فى ﴿أدعوا﴾ أى: أنا أدعو إلى الله على بصيرة، ومن اتبعنى كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة. وعلى القولين: فالآيةُ تدل على أن أتْباعَه هم أهلُ البصائر الداعين إلى الله تعالى، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة. وإن كان من أتباعه على الانتساب والدَّعوى[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فيه مسائل:

منها: التنبيهُ على الإِخلاص؛ لأن كثيراً [من الناس][3] لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

ومنها: أنَّ البصيرةَ من الفرائض.

ومنها: أنَّ من دلائل حُسن التوحيد: أنَّه تنزيهٌ لله تعالى عن المَسبَّة.

ومنها: أنَّ من قُبح الشرك كونه مَسبَّة لله.

ومنها: إبعادُ المسلم عن المشركين لا يصير منهم، ولو لم يُشرك. انتهى[4].

وقال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى - فى معنى قوله تعالى: ﴿أُدْعُ إلى

---

(١) «تفسير الطبرى» (١٦/ ٢٩١).

(٢) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨١).

(٣) إضافةٌ من كتاب «التوحيد».

(٤) المسائل: الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة.

سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَة وَٱلموعظَة الحَسَنَة﴾ [النحل: ١٢٥] ـ: ذكر سبحانه مراتبَ الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو:

فإنَّه إمَّا أنْ يكون طالباً للحق محباً له، مُؤثراً له على غيره إذا عرفه. فهذا يُدعَى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظةٍ وجدال.

وإما أنْ يكون مُشتغلاً بضد الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه. فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون مُعانداً معارضاً، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن. فإنْ رجع، وإلا انتقل معه إلى الجلاَد إنْ أمكن. انتهى[١].

[٢]وقال أيضاً رحمه الله تعالى: والفرقُ بين حُبِّ الإمامة والدعوة إلى الله، وحب الرياسة: هو الفرقُ بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيمِ النفس والسعى فى حظِّها.

فإنَّ الناصح لله المحب له، يُحبُّ أنْ يُطاع ربُّه فلا يُعصى، وأن تكون كلمته هى العليا، وأن يكون الدينُ كلُّه لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه.

فقد ناصح الله فى عبوديته، وناصح خلقه فى الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة فى الدين. بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدى به المقتدون، كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبدُ الداعى إلى الله أن يكون فى أعين الناس جليلاً، وفى قلوبهم مهيباً، وإليهم حبيبا، وأن يكون فيهم مطاعاً، لكى يأتموا به، ويقتفوا أثر الرسول ﷺ على يديه. لم يضره ذلك بل يُحمد عليه؛ لأنه داعٍ إلى الله، يُحب أنْ يطاع ويعبد ويوحَّد. فهو يُحب ما يكون عوناً على ذلك، موصلاً إليه.

ولهذا ذكر الله سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه، وأثنى عليهم فى تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه. فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال ﴿والذين يقولون ربَّنا هب لنا من أزواجنا وذُرِّياتنا قرَّةَ أعين واجعلنا للمتقين

(١) ينظر ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٣).

(٢) من هنا ساقطٌ من (ط)، ومعلّق من هامش الأصل وعليه كلمة صح.

إماما﴾. [سورة الفرقان: ٧٤]. فسألوه أنْ يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته.

فإنَّ الإمام والمؤتم متعاونـان على طاعتـه، وإنَّمـا سألـوه ما يعاونـون بـه المتقين علـى مرضاتـه وطاعتـه، وهو دعوتهـم إلـى الله بالإمامة فى الدين، التى أساسها الصبر واليقين، قال تعالى: **﴿وجعلنـا منهـم أئمةً يهـدون بأمـرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يُوقنون﴾**. [السجدة: ٢٤]. فسؤالهمُ: أنْ يجعلهم أئمة للمتقين.

هو سؤالٌ أنْ يهديهم ويوفقهم ويمنَّ عليهم بالعلوم النافعة، والأعمال [الصالحة][1] ظاهراً وباطناً، التى لا تتم الإمامةُ إلا بها.

وتأمَّل كيف نسبهم فى هذه الآيات إلى اسم الرحمن جلَّ جلاله، ليعلم خلقُه أنَّ هذا إنما نالوه بفضله ورحمته، ،ومحض جوده ومنَّته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم فى هذه الصورة: الغرف وهى المنازل العالية فى الجنة.

وهذا لَمَّا كانت الإمامةُ فى الدين من الرتب العالية ـ بل من أعلى مراتب يُعطاها العبد فى الدنيا ـ كان جزاؤه عليها الغرف العالية فى الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإنَّ طالبيها يسعون فى تحصيلها لينالوا بها أغراضهم: من العلوِّ فى الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم.

فترتب على هذا الطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله: من البغى والحسد، والطغيان والحقد، والظلم، والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيمِ من حقّر الله، واختقار من أكرمه الله.

ولا تتم الرياسةُ الدنيوية إلا بذلك، ولا تُنال إلا بأضعافه من المفاسد، والرؤساء فى عمى عن هذا.

فإذا كُشف الغطاء تبيَّن لهم فسادَ ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا فى صفة

(١) إضافة من (ض).

الذَّر، يطؤهم أهلُ الموقف بأرجلهم[1]؛ إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً، كما صغَّروا أمر الله، وحقروا عباده. انتهى كلامُه ـ رحمه الله تعالى[2] [3].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن ابن عباس رضى الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ لما بعث مُعاذاً إلى اليمن، قال له: «إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب، فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله ـ وفى رواية: إلى أن يوحِّدوا الله ـ فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمسَ صلوات فى كل يوم وليلة، فإنْ هم أطاعوك لذلك. فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فَتُرَدُّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتقِ دعوةَ المظلوم؛ فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب»[4]. أخرجاه.

ش: قال الحافظ: كان بعثُ معاذٍ إلى اليمن سنة عشر، قبل حجِّ النبى ﷺ؛ كما ذكره المصنف ـ يعنى البخارى ـ فى أواخر المغازى. وقيل: كان ذلك فى آخر سنة تسع، عند مُنْصرَفه ﷺ من تبوك. رواه الواقدىُّ بإسناده إلى كعب بن مالك. وأخرجه ابن سعد فى (الطبقات) عنه.

واتفقوا أنه لم يزل على اليمن، إلى أنْ قدم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه. ثم توجَّه إلى الشام، فمات بها[5].

قال شيخُ الإسلام: / ومن فضائل معاذ رضى الله تعالى عنه: أنَّه بعثه ﷺ إلى اليمن مبلِّغاً عنه، ومفقِّهاً ومعلماً وحاكماً[6]. [٢٧/ب]

قوله «إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب» قال القُرطبى: يعنى به اليهود

---

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٤٩٤) وقال: هذا حديث حسن، وأحمد فى «المسند» (٢/ ١٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) إلى هنا ينتهى السقط من (ط).

(٣) ابن القيم، «الروح» (٣٧٤).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٤٥٨، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٩).

(٥) ابن حجر، «فتح البارى» (٣/ ٣٥٨).

(٦) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٤).

والنصارى؛ لأنهم كانوا فى اليمن أكثر من مشركى العرب أو أغلب. وإنَّما نبَّه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم.

وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية، ليجمع همَّته عليها.

قوله: «فليكن أوَّلَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله» شهادة: رُفع على أنه اسم يكن مؤخر. وأوَّل: خبرها مقدَّم، ويجوز العكس.

قوله: «وفى رواية: إلى أن يوحدوا الله» هذه الرواية ثابتةٌ فى كتاب التوحيد من (صحيح البخارى). وأشار المصنف بذكر هذه الرواية: إلى التنبيه على معنى شهادة أنْ لا إله إلا الله، فإنَّ معناها توحيدُ الله تعالى بالعبادة، ونفىُ عبادة ما سواه.

وفى رواية «فليكن أولَ ما تدعوهم إليه عبادةُ الله» وذلك هو الكفرُ بالطاغوت، والإيمان بالله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا﴾. [البقرة: ٢٥٦]، والعُروةُ الوثقى: هى لا إله إلا الله. وفى روايةٍ للبخارى، فقال: «ادعُهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله».

قلتُ: لابُدّ فى شهادة أنْ لا إله إلا الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلَها إلا باجتماعها:

أحدُها: العلمُ، المنافى للجهل.

الثانى: اليقينُ، المنافى للشك.

الثالث: القبولُ، المنافى للرد.

الرابع: الانقيادُ، المنافى للترك.

الخامس: الإخلاصُ المنافى للشرك. السادس: الصدقُ، المنافس للكذب.

السابع: المحبةُ، المنافية لعدمها.

وفيه دليلٌ على أنَّ التوحيد ـ الذى هو إخلاصُ العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه ـ هو أوَّلُ واجب؛ ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسلُ عليهم

السلام ﴿أنِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِن إله غَيْرُهُ﴾ وقول نوح ﴿أن لا تَعْبُدُوا إلا الله﴾ وفيه معنى: لا إله إلا الله، مطابقة.

[قال العلاَّمة ابنُ القيم رحمه الله تعالى: ولهذا خاطب الرسلُ أممهم، مخاطبةَ من لا شك عنده فى الله، وإنَّما دَعوْهم إلى عبادة الله وحده، لا إلى الاقرار به؛ فقالت لهم ﴿أفى الله شكٌّ فاطر السموات والأرض﴾. [ابراهيم ١٠] فوجودُه سبحانه وربوبيتُه وقدرته، أظهرُ من كل شئ على الاطلاق.

فهو أظهرُ للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده. فما يُنكره إلا مكابر بلسانه، وقلبهُ وعقله وفطرته وكلُّها تكذِّبه، قال تعالى: ﴿الله الذى رفع السموات بغيرعَمَدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجلٍ مسمًّى يدبِّر الأمر يفصِّلُ الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾. [الرعد:٢] إلى آخرِ الآيات][(١)].

قال شيخُ الإِسلام: وقد علُم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت عليه الأمةُ: أن أصلَ الإِسلام[(٢)]، وأوَّلَ ما يؤُمر به الخلق: شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله. فبذلك يصير الكافر مسلماً/ والعدوّ ولياً، والمباحُ دمه [٢٨/أ] وماله معصومَ الدم والمال. ثم إنْ كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإِيمان، وإنْ قاله بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الإِسلام دون باطن الإِيمان. قال: وأمَّا إذا لم يتكلَّم بها مع القُدرة فهو كافرٌ باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء. انتهى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه: أنَّ الإِنسان قد يكون عالماً وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله، أو يعرفه ولا يعمل به[(٣)].

قلتُ: فما أكثر هؤلاء، لا كثَّرهم الله تعالى.

قوله: «فإنْ هم أطاعوك لذلك» أى: شهدوا، وانقادوا لذلك «فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمسَ صلوات» فيه: أنَّ الصلاة أعظمُ واجب بعد الشهادتين. قال

---

(١) ما بينهما ساقطٌ من الأصل و(ط).

(٢) ما بينهما ساقطٌ من (ض).

(٣) المسألةُ العاشرة.

النووى ما معناه: أنه يدلُّ على أنَّ المطالبة بالفرائض فى الدنيا لا يكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أنْ لا يكونوا مُخاطبين بها، ويزاد فى عذابهم بسببها فى الآخرة. والصحيح: أنَّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، المأمور به والمنهى عنه. وهذا قولُ الأكثرين. انتهى.

قولُه: «فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم» فيه: دليلٌ على أنَّ الزكاة أوجبُ الأركان بعد الصلاة[١]، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف على الفقراء. وإنَّما خصَّ النبيُّ ﷺ الفقراء؛ لأن حقَّهم فى الزكاة آكدُ من حق بقية الأصناف الثمانية.

وفيه: أنَّ الإمام هو الذى يتولىَّ قبض الزكاة وصرفَها: إمَّا بنفسه أو نائبه، فمن امتنع من أدائها أُخذت قهراً منه.

وفى الحديث: دليلٌ على أنه يكفى إخراج الزكاة فى صنفٍ واحد، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد[٢].

وفيه: أنه لا يجوز دفعُها إلى غنى، ولا إلى كافرٍ غيرِ المؤلَّف، وأنَّ الزكاة واجبةٌ فى مال الصبى والمجنون، كما هو قولُ الجمهور؛ لعموم الحديث[٣].

قلتُ: والفقير إذا أفرد فى اللفظ تناول المسكين وبالعكس، كنظائره. قرره شيخُ الإسلام[٤].

قوله: «فإيَّاك وكرائمَ أموالهم» بنصب كرائم؛ على التحذير. جمعُ كريمة، قال صاحبُ (المطالع): هى الجامعةُ للكمال الممكن / فى حقها: من غزارة لبن، [٢٨/ب] وجمال صورة، وكثرة لحمٍ وصوف. ذكره النووى[٥].

قلتُ: وهى خيارُ المال، وأنفسهُ وأكثره ثمناً.

وفيه: أنَّه يحرُم على العامل فى الزكاة أخذُ كرائم المال، ويحرم على صاحب

---

(١) وهو الصواب، ينظر: آل تيمية «المسوَّدة» (٤٦)، والشنقيطى «أضواء البيان» (٧/ ١١٤).

(٢) ينظر: ابن قدامة، «المغنى» (٤/ ١٢٨).

(٣) ينظر: ابن قدامة، «المغنى» (٩/ ٣١٦)، وابن عبد الهادى، «الدر النقى» (٣/ ٦١٠).

(٤) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٦٧).

(٥) النووى: «المنهاج» (١/ ١٩٧)، وذكره البعلى (ت ٧٠٩هـ) فى «المُطلع على أبواب المقنع» غير معزو.

المال إخراجُ شرار المال. بل يُخرج الوسط، فإنْ طابت نفسه بالكريمة جاز.

قوله: «واتقِ دعوة المظلوم» أي: اجعل بينك وبينها وقاية، بالعل وترك الظلم. وهذان الأمران يقيان مَن رُزقَهما من جميع الشرور، دُنيا وأُخرى.

وفيه: تنبيهٌ على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: «فإنه» أي: الشأن «ليس بينها وبين الله حجاب» هذه الجملةُ مفسرة لضمير الشأن. أي: فإنَّها لا تُحجب عن الله تعالى، فيقبلها.

وفي الحديث أيضاً: قبولُ خبر الواحد العدل، ووجوب العمل به، وبعثُ الإمام العُمَّالَ لجباية الزكاة، وأنه يعظ عُمَّاله وولاته، ويأمرُهم بتقوى الله تعالى، ويعلِّمهُم، وينهاهم عن الظلم، ويعرِّفهُم سوء عاقبته. والتنبيهُ على التعليم بالتدريج. قاله المصنف[1].

قلتُ: ويبدأ بالأهم فالأهم.

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصومَ والحج، فأشكل ذلك على كثيرٍ من العلماء.

قال شيخُ الإسلام: أجاب بعضُ الناس: أنَّ بعض الرواة اختصر الحيث، وليس كذلك؛ فإنَّ هذا طعنٌ في الرواة، لأن ذلك إنما يقعُ في الحديث الواحد، مثل حديث وفد عبد القيس[2]، حيث ذكر بعضُهم الصيام، وبعضهم لم يذكره. فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمرُ فيهما كذلك، ولكن عن هذا جوابان:

أحدُهما: أنَّ ذلك بحسب نزول الفرائض. وأوَّلُ ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي؛ ولهذا لم يذكر وجوبَ الحج كعامة الأحاديث، إنَّما جاء في الأحاديث المتأخرة.

[قلتُ: وهذا من الأحاديث المتأخرة، ولم يُذكر فيها][3].

---

(١) المسألة الحادية عشرة.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٣، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٦١٧٦، ٧٢٦٦)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧) من حيث ابن عباس.

(٣) إضافة من (ض) و(م) و«التيسير».

الجوابُ الثانى: أنه كان يذكرُ فى كل مقامٍ ما يُناسبه. فيذكر تارةً الفرائض التى يُقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكرُ تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم: فإمَّا أنْ يكون قبل فرض الحج، وإمَّا أنْ يكون المخاطبُ بذلك لا حج عليه.

[٢٩/أ] وأما الصلاةُ والزكاة فلهما شأنٌ ليس لسائر الفرائض؛ ولهذا ذكر / تعالى فى كتابه القتالَ عليهما لأنهما عبادتان ظاهرتان، بخلاف الصوم فإنَّه أمرٌ باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة، ونحو ذلك مما يؤتمنُ عليه العبد. فإنَّ الإنسان يمكنه أنْ لا ينوى الصوم وأنْ يأكل سراً، كما يمكنه أنْ يكتم حدثَه وجنابته. وهو ﷺ يذكر فى الأعمال الظاهرة التى يُقاتل الناسُ عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها. فلهذا علَّق ذلك بالصلاة والزكاة، دون الصوم. وإنْ كان واجباً كما فى آيتى براءة[1]، [فإنّ براءة][2] نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر فى حديثه الصوم؛ لأنه تبعٌ وهو باطن، ولا ذكر الحجَّ لأنَّ وجوبه خاصٌ ليس بعام، ولا يجب فى العُمر إلا مرة. انتهى بمعناه.

قوله: (أخرجاه) أى: البخارى ومسلم، وأخرجه أيضاً: أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، عن سَهْل بن سعْد: أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يُحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه» فباتَ الناسُ يَدوكون ليلتهم: أيُّهم يُعطاها. فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يعطاها، فقال: «أين على بن أبى طالب؟» فقيل: هو يشتكى عينيه، فأرسلوا إليه. فأُتى به، فبصق فى عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجَع. فأعطاه الراية، فقال: «انفُذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإِسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى

(١) الأيتان الخامسة، والحادية عشرة.
(٢) ساقطٌ من جميع النسخ، والإِضافة من «التيسير».

فيه؛ فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من حُمر النَّعم»[1] يدوكون. أى يخوضون.

ش : قوله: (عن سَهل بن سعد)، أى: ابن مالك بن خالد الأنصارى الخَزْرجى السَّاعدى، أبو العباس، صحابىٌّ شهير، وأبوه صحابى أيضاً. مات سنة ثمانٍ وثمانين، وقد جاوز المائة.

قوله: (قال يوم خيبر) [أى: فى غزوة خيبر] وفى (الصحيحين) عن سَلَمة بن الأكوع، قال: كان علىٌّ رضى الله عنه قد تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر، وكان أرمدا، فقال: أنا أتخلفُ عن رسول الله ﷺ ؟ فخرج علىٌّ رضى الله عنه فلحق بالنبى ﷺ، فلما كان مساءَ الليلة التى فتحها الله عز وجل فى صباحها، قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية ـ أو ليأخذن الراية ـ غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ـ أو قال: يحب الله ورسوله ـ يفتح الله على يديه». فإذا نحن بعلى وما نرجوه، فقالوا: هذا على، فأعطاه رسولُ الله ﷺ الراية ففتح الله عليه[2].

قوله: «لأعطينَّ الراية» قال الحافظ: فى رواية بُريدة «إنى دافع/ اللواءَ إلى [٢٩/ب] رجلٍ يحبه الله ورسوله»[3] وقد صرَّح جماعةٌ من أهل اللغة بترادفهما.

لكن روى أحمد، والترمذىُّ، من حيث ابن عباس: كانت رايةُ رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض. ومثله عند الطبرانى، عن بُريدة[4]. وعند ابن عَدى، عن أبى هريرة، وزاد: مكتوبٌ فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله[5].

قوله: «يحب الله ورسولَه ويحبه الله ورسولُه» فيه: فضيلةٌ عظيمة لعلى رضى الله تعالى عنه.

قال شيخُ الإِسلام: ليس هذا الوصفُ مختصاً بعلى ولا بالأئمة؛ فإنَّ الله

---

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٧٠١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٠٦).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٧٠٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٠٧).

(٣) أخرجه أحمد فى «المسند» (٥/ ٣٥٣).

(٤) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٦٨١) وقال: هذا حديث حسن، والطبرانى فى «الكبير» رقم (١١٦١، ١٢٩٠٩)، وأخرجه ابنُ ماجة فى «السنن» رقم (٢٨١٨).

(٥) ابن عدى فى «الكامل» (٢/ ٦٥٨).

ورسوله يحب كلَّ مؤمن تقى يحب الله ورسوله. لكن هذا الحديث من أحسن ما يُحتجُّ به على النواصب، الذين لا يتولَّونه، أو يكفرونه أو يفسقونه، كالخوارج. لكنَّ هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة، الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردَّتهم. فإنَّ الخوارج تقول فى على مثلَ ذلك، لكن هذا باطل؛ فإن الله تعالى ورسوله لا يُطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً[(١)].

وفيه: إثباتُ صفة المحبَّة لله، خلافاً للجهمية.

قوله: «يفتح الله على يديه» صريحٌ فى البشارة بحصول الفتح، فهو عَلَمٌ من أعلام النبوة.

قوله: (فبات الناسُ يدوكون ليلتهم)، بنصب ليلتهم. ويدوكون، قال المصنف: يخوضون. أى: فيمن يدفعها إليه. وفيه: حرصُ الصحابة على الخير واهتمامُهم به، وعلوُّ مراتبهم فى العلم والإيمان.

قوله: (أيهُّم يُعطاها) هو برفع أى، على البناء؛ لإضافتها وحذف صدر صلتها.

قوله: (فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أنْ يُعطاها).

وفى رواية أبى هريرة عند مُسلم، أنَّ عمر قال: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذ[(٢)].

قال شيخُ الإسلام: إنَّ فى ذلك شهادةَ النبى ﷺ لعلى بإيمانه باطناً وظاهراً، وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله، ووجوبَ موالاة المؤمنين له. وإذا شهد النبىُّ ﷺ لمعين بشهادة، أو دعا له أحبَّ كثيرٌ من الناس أنْ يكون له مثلُ تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، وأنْ كان النبى ﷺ / يشهد بذلك لخلقٍ كثير، ويدعو لخلقٍ كثير. وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس[(٣)]، وعبد الله بن سلام[(٤)] ـ وإنْ كان قد [٣٠/أ]

---

(١) ابن تيمية، «منهاج السنة النبوية» (٧/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه مسلمٌ فى «الصحيح» رقم (٢٤٥٠).

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١١٩).

(٤) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٨١٣، ٧٠١٠، ٧٠١٤)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٨٤).

شهد بالجنة لآخرين ـ والشهادةِ بمحبة الله ورسوله للذى ضُرب فى الخمر[1] [2].

قوله: فقال: «أين على بن أبى طالب؟» فيه سؤالُ الإمام عن رعيَّته؛ وتفقُّد أحوالهم.

قوله: (فقيل: هو يشتكى عينيه). أى: من الرمد، كما فى (صحيح مسلم)، عن سعد بن أبى وقاص، فقال: «ادعوا لى علياً» فأُتى به أرمد. الحديث[3].

وفى نسخةٍ صحيحة بخط المصنف: فقيل: هو يشتكى عينيه، فأرسل إليه. مبنىٌ للفاعلِ، وهو ضميرٌ مستتر فى الفعل راجعٌ إلى النبى ﷺ. ويحتمل أنْ يكون مبنياً لما لم يُسمَّ فاعله. ولمسلم، من طريق إياس بن سلمة، عن أبيه، قال: فأرسلنى إلى على، فجئتُ به أقوده أرمد.

قوله: (فبصق). بفتح الصاد، أى: تفل.

قوله: (ودعا له فبرأ) هو بفتح الراء والهمزة، أى: عُوفى فى الحال عافية كاملة، كأنْ لم يكن به وجعٌ من رمد، ولا ضعف بصر.

وعند الطبرانى، من حديث على: «فما رمدتُ ولا صُدِّعت منذ دفع النبىُّ ﷺ إلىَّ الراية»[4].

وفيه دليلٌ على الشهادتين.

قوله: (فأعطاه الراية). قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فيه: الإِيمانُ بالقدر؛ لحصولها لمن لم يَسعَ، ومنعها عمَّن سعى[5].

وفيه: أنَّ فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا يُنافى التوكل.

قوله: فقال: «انفُذ على رسلك» ـ بضم الفاء ـ أى: امض. ورِسْلك ـ بكسر الراء وسكون السين ـ أى: على رفقك من غير عجلة، وساحتهم: فِناء أرضهم وهو ما حولها.

وفيه: الأدبُ عند القتال، وترك العجلة والطيش، والأصواتِ التى لا حاجة إليها.

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٧٨٠).

(٢) ابن تيمية، «منهاج السنة» (٧/ ٣٦٧).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤٠٤).

(٤) أخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ٧٨)، والطيالسى فى «المسند» رقم (١٨٩)، وأخرجه الطبرانى فى «الاوسط» بغير هذا اللفظ كما فى «مجمع الزوائد» للهيثمى (٩/ ١٢٢) وقال: وإسناده حسن.

(٥) المسألةُ الثالثة والعشرون.

وفيه: أمرُ الإمام عمَّالَه بالرفق من غير ضعفٍ ولا انتقاض عزيمة، كما يُشير إليه [قوله: «حتى تنزل بساحتهم»][1].

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» أى: الذى هو معنى: شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله. وإن شئت قلت: الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وما اقتضته الشهادتان: من إخلاص العبادة لله وحده وإخلاصِ الطاعة له ولرسوله ﷺ.

ومن هنا طابق الحديثُ الترجمة؛ كما قال تعالى لنبيه ورسوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. [آل عمران: ٦٤].

[٣٠/أ] قال/ شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى: والإسلامُ هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له. والعبودية له. كذا قال أهلُ اللغة.

وقال رحمه الله تعالى: ودينُ الإسلام الذى ارتضاه الله، وبعث به رُسله: هو الاستسلام له وحده ـ فأصله في القلب ـ والخضوعُ له وحده بعبادته وحده دون ما سواه. فمن عبده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً. ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً، وفى الأصل: هو من باب العمل، عمل القلب والجوارح. وأمَّا الإيمان، فأصله: تصديقُ القلب وإقراره، ومعرفته، فهو من باب قول القلب المتضمِّن عمل القلب. انتهى[1].

فتبيَّن أنَّ أصل الإسلام: هو التوحيد ونفيُ الشرك فى العبادة، وهو دعوة جميع المرسلين. وهو الاستسلامُ لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسُن رسله؛ كما قال تعالى عن أوَّل رسولٍ أرسله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[2]. [نوح: ٣].

---

(١) ساقطٌ من الأصل و(ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨٦).

وفيه: مشروعيةُ الدعوة قبل القتال، لكن إنْ كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً[1]؛ لأن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلِق وهم غارُّون، وإنْ كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتُهم.

قوله: «وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله تعالى فيه» أى: الإِسلام، إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التى لابُدَّ لهم من فعلها، كالصلوات والزكاة؛ كما فى حديث أبى هريرة «فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها»، ولما قال عمر لأبى بكر فى قتاله مانعى الزكاة: كيف تُقاتل الناس، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «أمرتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟» قال أبو بكر: فإنَّ الزكاة حقُّ المال، والله لو منعونى عَناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها[2].

وفيه بعثُ الإِمام الدعاةَ إلى الله تعالى، كما كان النبيُّ ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون؛ كما فى (المسند)، عن عُمر بن الخطاب رضى الله عنه/ [31/أ] أنه قال فى خُطبته: ألاَ إنى والله ما أُرسل عُمَّالى إليكم ليضربوا أبشَاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أُرسلهم إليكم ليعلّموكم دينكم وسنّتكم[3].

قوله: «فو الله لأنْ يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النَّعم» أنْ: مصدريةٌ واللام قبلها مفتوحة؛ لأنها لامُ القَسَم. وأن، والفعلُ بعدها فى تأويل مصدر، رُفع على الابتداء. والخبر: خير. وحُمْر ـ بضم المهملة وسكون الميم ـ [جمعُ أحمر][4]، والنَّعم ـ بفتح النون والعين المهملة ـ أى: خيرٌ لك من الإِبل الحمر، وهى أنفسُ أموال العرب.

---

(1) المسألتان: الخامسة والعشرون، والسادسة والعشرون.

(2) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٠).

(3) أحمد في «المسند» (١/ ٤١) وأخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٤٥٣٧) وأصله في «صحيح البخاري» رقم (٢٦٤١).

(4) إضافةٌ من (ط).

قال النوويُّ: وتشبيه أُمور الآخرة بأمور الدنيا؛ إنما هو للتقريب إلى الأفهام. وإلا فذرَّةٌ من الآخرة خيرٌ من الأرض بأسرها، وأمثالِها معها.

وفيه: فضيلةُ من اهتدى على يديه رجلٌ واحد، وجوازُ الحلفِ على الخبر والفُتيا ولو لم يُستحلف[1].

(١) المسألتان: التاسعة والعشرون والثلاثون.

(٥)

بـــاب
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ تفسيرِ التوحيد وشهادةِ أن لا إله إلا الله.

ش: [أراد المصنِّفُ رحمه الله تعالى بهذه الترجمة، وما جاء بعدها من الآيات والحديث: أنْ يزيد هذا المقام بياناً وإيضاحاً، وإلا فقد تقدم فى الآيات والأحاديث ما يفسِّرُ لا إله إلا الله، وما دلَّت عليه من التوحيد ونفى الشركِ والتنديد][١].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى **﴿أُولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربِّهم الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويرجون رحمته ويخافون عذابَه إنَّ عذابَ ربك كان محذوراً﴾**. [الإسراء: ٥٧].

ش: يتبيَّنُ معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهى قوله تعالى: **﴿قُل ادعوا الذين زَعَمْتم من دونه فلا يملكون كشفَ الضرِّ عنكم ولا تحويلا﴾** [الإسراء: ٥٦].

قال ابنُ كثير: يقول تعالى: **﴿قل﴾** [يا محمد للمشركين الذين عبدوا غيرَ الله][٢] **﴿ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾** من [الأصنام و][٣] الأنداد، وارغبوا إليهم فإنَّهم **﴿لا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُم﴾** أى: بالكلية: **﴿ولا تحويلا﴾** أى: ولا أنْ يحوِّلوه إلى غيركم.

فإنَّ الذى يقدرُ على ذلك، هو الله وحده لا شَريك له، [الذى له الخلقُ والأمر][٤].

---

(١) ساقطٌ من الأصل و(م) و(هـ) و(ط). والمثبت من (ض) ويلاحظ حذف المكرر من الشرح.

(٢) ساقطة من الأصل و(ض) و(هـ).

(٣) ساقطٌ من الأصل و(هـ).

(٤) إضافة من (ط) «التفسير».

قال العَوْفى[1]، عن ابن عباس، فى الآية: كان أهلُ الشرك يقولون: نعبدُ الملائكة والمسيح وعُزيراً، وهم الذين يُدعون[2].

وروى البخاريُّ - فى الآية - عن ابن مسعود، قال: ناسٌ من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا. وفى رواية: كان ناسٌ من الإِنس يَعبُدون ناساً من الجن، فأسلم الجنُّ وتمسَّك هؤلاء بدينهم[3].

وقولُ ابن مسعود هذا، يدلُّ على أنَّ الوسيلة هى الإِسلام، وهو كذلك على كلا القولين.

[33/أ] وقال السُّدى، عن أبى صالح/ ، عن ابن عباس فى الآية، قال: عيسى وأُمُّهُ وعُزير.

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابنُ عباس، يقول فى هذه الآية هم عيسى وعُزير، والشمس والقمر.

وقال مُجاهد: عيسى وعُزير والملائكة.

قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لا تتم العبادةُ إلا بالخوف والرجاء[4]. فكل داعٍ دُعاءَ عبادةٍ أو استغاثة لابد له من ذلك: فإمَّا أن يكون خائفاً، وإما أن يكون راجياً، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخُ الإِسلام رحمه الله تعالى - فى هذه الآية لَمَّا ذكر أقوال المفسرين -: وهذه الأقوالُ كلها حق؛ فإنَّ الآية تعمُّ من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلفُ فى تفسيرهم: يذكرون جنسَ المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول التُّرجُمان لمن سأله: ما معنى الخُبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول: هذا. فالإِشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع، مع شمول الآية.

---

(1) أبو الحسن، عطية بن سعد بن جُنَادة الجدلى، صدوق يخطئ كثيراً، وكان شيعياً مدلساً (ت 111هـ). «تقريب» (393).

(2) أخرجه الطبرى فى «التفسير» (15/ 72).

(3) البخارى فى «الصحيح» رقم (4714، 4715)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (3030).

(4) «تفسير ابن كثير» (5/ 86 - 87).

فالآيةُ خطابٌ لكل من دعا من دون الله مدعواً، وذلك المدعو يبتغى إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه. فكلُّ من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها، فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن. فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضرِّ عن الداعين ولا تحويله. لا يرفعونه بالكلية ولا يحوِّلونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿ولا تحويلا﴾ فذكر نكرة تعمُّ أنواعَ التحويل.

فكلُّ من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يُغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله. انتهى[1].

وفى هذه الآية ردٌّ على من يدعو صالحاً، ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئاً؛ الشركُ عبادة الأصنام.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ لأبيه وَقَومه إِنَّنى بَرآءٌ مِّما تَعْبُدُون * إلا الَّذى فَطَرَنى فإنَّه سيهدين * وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبِه لعلَّهم يرجِعون﴾. [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

ش: قال ابنُ كثير: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمامِ الحُنفاء، ووالد من بُعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها: إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان/ فقال: ﴿إِنَّنى بَرآءٌ مِّما تَعْبُدُونَ * إلاَّ الَّذى فَطَرَنى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧] ﴿وَجَعَلَها كَلِمَةً بَاقِيَةً فى عَقِبه﴾ [الزخرف: ٢٨] أى: هذه الكلمة ـ وهى عبادةُ الله وحده لاَ شريك له، وَخلعُ ما سواه من الأوثان، وهى لا إله إلا الله ـ جعلَها فى ذريته يَقتدى به فيها من هداه الله من ذُرية إبراهيم عليه السلام: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: إليها. [٣٣/ب]

قال عكرمة، ومجاهدُ والضَّحاك وقتادة، والسدى، وغيرُهم، فى قوله:

---

(١) ابن تيمية، «قاعدة التوسل» (٧٩، ٢٣١، ٢٦٥).

﴿وجعلها كلمةً باقية فى عقبه﴾ يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها[1].

وروى ابنُ جَرير، عن قتادة ﴿إنَّنى بَرَآءٌ مِّما تَعْبُدُونَ * إلا الَّذى فَطَرَنى﴾ قال: إنَّهم يقولون: إنَّ الله ربُّنا ﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. [الزخرف: ٨٧] فلم يبرأ من ربِّه، [و][2] رواه عَبْد بن حُميد.

وروى ابنُ جرير[3]، وابن المنذر، عن قتاة ﴿وَجَعَلَهَا كَلمَةً بَاقِيَةً فى عَقِبِهِ﴾ قال: الإِخلاصُ والتوحيد، لا يزال فى ذرِّيته من يعبد الله ويوحِّده.

قلتُ: فتبيَّن أنَّ معنى لا إله إلا الله، توحيدُ الله بإخلاص العباد له والبراءةِ من كل ما سواه.

قال المصنِّفُ: وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة، وهذه الموالاة هى شهادةُ أنْ لا إله إلا الله[4].

وفى هذا المعنى، يقول العَّلامةُ ابن القيم رحمه الله تعالى فى (الكافية الشافية):

وإذا تولاَّه امـرؤٌ دون الـورى طُرًّا تولاَّه العظيـمُ الشـأن

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً من دُون الله والمَسيحَ ابنَ مَرْيَم وما أُمروا إلَا ليَعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاَّ هو سُبحَانَه عمَّا يُشرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ش: الأحبارُ: هم العُلماء، والرُّهبان: هم العُبَّاد.

وهذه الآيةُ قد فسرَّها رسولُ الله ﷺ لعَدى بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مُسْلماً، دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية. قال: فقلتُ: إنَّهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢١٢).

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

(٣) «تفسير الطبرى» (٢٥/ ٣٩).

(٤) المسألةُ الثالثة.

عبادتهم إياهم» رواه أحمد، والترمذى وحسنه[1]، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، والطبرانى، من طُرق[2].

قال السُّدى: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلَهاً واحداً لا إله/ إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَما يُشرِكُونَ﴾. [التوبة: ٣١]، فإنَّ الحَلال ما أحلَّه الله، والحرام ما حرمه الله، والدينَ ما شرعه الله تعالى. [٣٤/أ]

فظهر بهذا، أنَّ الآية دلَّت: على أنَّ من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة فى تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه فى معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن الله، فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله لله شريكاً. وذلك يُنافى التوحيد، الذى هو دينُ الله الذى دلَّت عليه كلمةُ الإخلاص لا إله إلا الله. فإنَّ الإله هو المعبود، وقد سمَّى الله تعالى طاعتهم عبادةً لهم، وسمَّاهم أرباباً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلا يَأْمُرَكُم أن تَتَّخذُوا المَلائكَةَ والنَّبيينَ أَرْبَاباً﴾ أى: شركاء لله تعالى، فى العبادة ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾. [آل عمران: ٨٠]، فكلُّ معبودٍ رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله تعالى ورسوله فقد اتخذه المطيع ربا ومعبوداً؛ [كما قال تعالى فى آية الأنعام ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُم إِنَّكُم لَمشرِكُونَ﴾][3] [الأنعام: ١٢١] وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة، ويُشبه هذه الآية فى المعنى، قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ الله﴾ [الشورى: ٢١] والله أعلم.

قال شيخُ الإسلام، فى معنى قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنَ دُونِ الله﴾: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أرباباً ـ حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحل الله ـ يكونون على وجهين.

أحدُهما: أن يعلموا أنهم بدَّلوا دينَ الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون

---

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٩٤) وفى المطبوعة: هذا حديثٌ غريب، وعند أحمد فى «المسند» (٤/ ٣٧٨) أصلُ القصة.

(٢) كما فى «الدر المنثور» (٤/ ١٧٤).

(٣) إضافة من (هـ) (ط).

تحليل ما حرَّم الله وتحريمَ ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإنْ لم يكونوا يُصلُّون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيرهَ فى خلاف الدين ـ مع علمه أنه خلافٌ للدين ـ واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركاً مثل هؤلاء.

الثانى: أنْ يكون اعتقادُهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله، كما يفعلُ المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاص. فهؤلاء لهم حُكم أمثالهم من أهل الذنوب؛ كما قد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «إنما الطاعةُ فى المعروف»(1).

ثم ذلك المُحرِّمُ للحلال والمحلل للحرام؛ إنْ كان مجتهداً ـ قصدُه اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع ـ فهذا لا يُؤاخذه بخطئه، بل يثيبُه على اجتهاده الذى أطاع به ربه.

ولكن من علم أنَّ هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدَل عن قول الرسول، فهذا له نصيبٌ من هذا الشرك الذى ذمَّة الله، لا سيما إنْ اتبع فى ذلك هواه ونَصره باليد واللسان، مع علمه بأنه مخالفٌ للرسول، فهذا شركٌ يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماءُ على أنَّه إذا عُرِف الحق، لا يجوز تقليد أحدٍ فى خلافه، وإنَّما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال.

وأنْ كان عاجراً عن إظهار الحق الذى يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أنَّ دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل مايقدر عليه من الحق، لا يؤاخذ بما عجز عنه؛ وهؤلاء كالنجاشى وغيره. وقد أنزل الله فى هؤلاء الآيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤمِنُ باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِل إِلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسى

(1) قطعة من حديث أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٣٤٠، ٧١٤٥، ٧٢٥٧)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٨٤٠).

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وبه يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وأمَّا إن كان المتبعُ للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما قدر عليه مثلُه: من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إنْ أخطأ؛ كما في القِبْلة.

وأمَّا إنْ قلَّد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصرهَ بيده ولسانه من غير علم أنَّ معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية. وإنّ كان متبوعُهُ مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإنْ كان متبوعُه مخطئاً كان آثماً؛ كمن قال في (القرآن) برأيه، فإنْ أصاب فقط أخطأ، وإنْ أخطأ[١] فليتبوأ مقعدَه من النار[٢].

وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذى تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة. فإنَّ ذلك لما أحبَّ المال ـ منعه عن عبادة الله وطاعته ـ صار عبداً له، وكذلك هؤلاء. فيكون فيه شركٌ أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك. وفى الحديث: «إنّ يسير الرياء شرك»[٣] وهذا مبسوطٌ عن النصوص التى فيها إطلاقُ الكفر والشرك على كثير من الذنوب. انتهى[٤].

قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله، فى معنى قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً﴾. [فصلت: ٩] أى: وتجعلون لمن خلق ذلك، الأنداد ـ وهم الأكفاء من الرجال ـ تُطيعونهم فى معاصى الله. انتهى[٥].

قلتُ: كما هو الواقع من كثيرٍ من عُبَّاد القبور!.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلهِ﴾. [البقرة: ١٦٥].

ش: قال العمادُ ابن كثير رحمه الله تعالى: يذكر تعالى حالَ المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أنداداً؛ أى: أمثالاً ونُظراء

---

(١) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٣٦٥٢)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٩٩٣) من حديث جندب.

(٢) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٩٥١)، وأحمد فى «المسند» (١/ ٢٣٣، ٢٦٩، ٣٢٣، ٣٢٧) من حديث ابن عباس بلفظ: (من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعدهَ من النار).

(٣) قطعة من حديث أخرجه ابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٩٨٩)، والطبرانى فى «الصغير» (٢/ ٤٥)، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤، ٤/ ٣٢٨) ووافقه الذهبى، وأبو نُعيم فى «الحلية» (١/ ٥). من حديث معاذ.

(٤) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٧٠).

(٥) الطبرى، «التفسير» (٢٤/ ٩٥).

يعبدونهم معه، ويُحبونه كحبه. [وهو الله][1] لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه.

وفي (الصحيحين)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قلتُ: يارسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعل لله نداً وهو خلقك»[2].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لله﴾ ولحبهم لله، وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يُشركون به شيئاً. بل يعبدونه وحده، ويتوكّلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه. ثم توعَّد تعالى المشركين الظالمين لأنفسهم بذلك.

فقال تعالى: ﴿وَلَو يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾ قال بعضُهم: تقديرُ الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أنَّ القوة لله جميعاً، أي: إنَّ الحكم لله وحده لا شريك له؛ فإنَّ جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وأنَّ الله شَديدُ العذاب﴾. [البقرة: ١٦٥] كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمئذ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥ - ٢٦]، يقول: لو علموا مايعاينون هناك، وما يحلُّ بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كُفرهم بأوثانهم، وتبرُّء المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾. [البقرة: ١٦٦]، تبرأت منهم الملائكةُ الذين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدونهم في الدنيا، فتقول الملائكة ﴿تَبرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾. [القصص: ٦٣] ويقولون ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، والجن أيضاً يتبرؤون منهم، وينتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ الله مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. [الأحقاف: ٥ - ٦] انتهى كلامه[3].

---

(١) إضافة من (هـ) «والتفسير».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٢).

وروى ابن جرير، عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿يحبونهم كحب الله﴾ مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ من الكفار لأوثانهم.

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: ومن الأمور المبيِّنة لتفسير التوحيد وشهادة أنْ لا إله إلا الله: آيةُ البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ومَا هُم بخارجين من النَّار﴾. [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنَّهم يُحبوُّن أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يَحبون الله حباً عظيماً، فلم يُدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحبَّ الندَّ أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده؟. انتهى[1].

ففي الآية: بيانُ أنَّ من أشرك مع الله في المحبة فقد جعله شريكاً لله في العبادة، واتخذه نداً من دون الله. وأنَّ ذلك هو الشركُ الذي لا يغفره الله، كما قال تعالى في أولئك: ﴿وَمَا هُم بخَارجينَ من النَّار﴾ وقوله: ﴿ولَوْ يَرى الَّذينَ ظَلَمُوا إذ يَرَوْنَ العَذَابَ﴾ المرادُ بالظلم هنا: الشرك؛ كقوله/ [٣٤/ب]: ﴿ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بظُلْمٍ﴾. [الأنعام: ٨٢] كما تقدم.

فمن أحب الله وحده، وأحب فيه وله فهو مخلص. ومن أحبه وأحب معه غيره، فهو مشرك؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذي خَلَقَكُم وَالَّذينَ من قَبْلكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ * الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فرَاشاً والسَّمَاءَ بنَاءً وَأَنْزَلَ منَ السَّمَاء مَاءً فَأَخرَجَ به منَ الثَّمَرات رزْقاً لكُم فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قال شيخُ الإسلام ما معناه: فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة، لزم أنْ يكون محباً له، ومحبَّتهُ هي الأصل في ذلك. انتهى.

فكلمةُ الإخلاص: لا إله إلا الله تنفي كلَّ شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة، وتُثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى. وقد تقدَّم بيانُ أنَّ الإله: هو المألوه، الذي تألهه القلوب بالمحبة أو غيرها من أنواع العبادة. فلا إله إلا الله: نفت ذلك كلَّه عن غير الله، وأثبتته لله وحده، فهذا هو الذي دلت عليه كلمةُ الإخلاص مطابقة. فلابد من معرفة معناها واعتقاده، وقبوله، والعمل به باطناً وظاهراً، والله أعلم.

---

(١) المسألةُ الرابعة.

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالي: فتوحيدُ المحبوب: أنْ لا يتعدَّد محبوبه، أى: مع الله تعالي بعبادته له. وتوحيد الحب: أنْ لا يبقى فى قلبه بقيةُ حب، حتى يبذلها له. فهذا الحب - وإن سُمِّى عشقاً - فهو غايةُ صلاح العبد، ونعيمه وقرة عينه. وليس لقلبه صلاحٌ ولا نعيم، إلا بأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من كل ما سواهما، وأن يكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى، فلا يُحب إلا الله؛ كما فى الحديث الصحيح «ثلاث من كن فيه» الحديث[1].

ومحبةُ رسول الله ﷺ هى من محبته، ومحبة المرء إنْ كانت لله فهى من محبته، وإن كانت لغير الله فهى مُنقصةٌ لمحبة الله، مضعفة لها.

ويُصدِّقُ هذه المحبة: بأنْ تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهته لإلقائه فى النار أو أشد. ولا ريب أنَّ هذا من أعظم المحبة؛ فإنَّ الإنسان لا يقدم على محبة نفسه شيئاً، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه - بحيث لو خيرٌ بين الكفر وإلقائه فى النار لاختار أنْ يُلقى فى النار ولا يكفر - كان أحبَّ إليه من نفسه.

وهذه المحبة هى فوقَ ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة، كمن لا مثل لمن تعلَّقت به، وهى محبةٌ تقتضى تقديمَ المحبوب فيها على النفس / والمال والولد. وتقتضى كمالَ الذُّل والخضوع، والتعظيم والإجلال، والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً. وهذا لا نظير له فى محبة مخلوق، ولو كان المخلوق مَن كان. [١/٣٥]

ولهذا من شرَّك بين الله تعالى وبين غيره فى المحبة الخاصة، كان مُشركاً شركاً لا يغفره الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الناسِ مَن يَتَّخذُ من دُون الله أَندَاداً يُحبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حبّاً للهِ﴾ والصحيح: أنَّ معنى الآية: أنَّ الذينَ آمنوا أشدُّ حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم؛ كما تقدم أنَّ محبة المؤمنين لربهم لا يُماثلها محبة المخلوق أصلاً، كما لا يُماثل محبوبهم غيره. وكلُّ أذى فى محبة غيره فهو نعيمٌ فى محبته، وكلُّ مكروهٍ فى محبة غيره فهو قرة عين فى محبته.

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٣). من حديث أنس.

ومَن ضرَب بمحبته الأمثال التى فى محبة المخلوق للمخلوق ـ كالوصل، والهجر والتجنى بلا سبب من المُحب، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً ـ فهو مخطئٌ أقبح الخطأ وأفحشه، وهوحقيقٌ بالابعاد والمقت. انتهى[(١)].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفى الصحيح، عن النبى ﷺ، أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبدُ من دون الله، حَرُم ماله ودمُه، وحسابه على الله عز وجل»[(٢)].

ش: قوله: (وفى الصحيح). أى: (صحيح مسلم)، عن أبى مالك الأشجَعى، عن أبيه، عن النبى ﷺ، فذكره.

وأبو مالك، اسمُه: سعْد بن طارق، كوفىٌ ثقة، مات فى حُدود الأربعين ومائة. وأبوه طارق بن أشيَم ـ بالمعجمة والمُثنَّاة التحتية، وزن أحمر ـ ابن مسعود الأشجعى، صحابىٌ له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وفى (مسند الإمام أحمد)، عن أبى مالك، قال: وسمعته يقول للقوم «من وحَّد الله وكفر بما يُعبد من دون الله، حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل».

رواه أحمد، من طريق يزيد بن هارون، قال: أنبأنا أبو مالك الأشجعى، عن أبيه.

ورواه الإمام أحمد، عن عبد الله بن إدريس، قال: سمعتُ أبا مالك قال: قلتُ لأبى... الحديث[(٣)]. وروايةُ الحديث بهذا اللَّفظ: يُفسِّر لا إله إلا الله.

قوله: «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله». / اعلم أنَّ النبىَّ [٣٥/ب] ﷺ علَّق عصمة المال والدم فى هذا الحديث بأمرين:

الأول: قولُ لا إله إلا الله. عن علمٍ ويقين، كما هو مُقَيد فى قولها فى غير ما حديث، كما تقدم.

والثانى: الكفر بما يُعبد من دون الله، فلم يكتف باللَّفظ المجرد عن المعنى، بل لابد من قولها والعمل بها.

---

(١) ينظر: ابن القيم، «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠).

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٣).

(٣) أحمد فى «المسند» (٣/ ٤٧٢، ٦/ ٣٩٤) وليس فى احد الطريقين عبد الله بن إدريس.

قلتُ: وفيه معنى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا﴾. [البقرة: ٢٥٦].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وهذا من أعظم ما يُبيِّن معنى: لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفةَ معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له. بل لا يحرُم مالهُ ودمه حتى يُضيف إلى ذلك الكفرَ بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف[1] لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلَّها، ويا له من بيان ما أوضحه وحجةٍ ما أقطعها للمنازع. انتهى[2].

قلتُ: وهذا هو الشرط المُصحِّحُ لقول: لا إله إلا الله. فلا يصح قولُها بدون هذه الخمس - التى ذكرها المصنف رحمه الله تعالى - أصلاً؛ قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾. [الأنفال: ٣٩]، وقال: ﴿فَاقْتُلُوا المُشركينَ حَيْثُ وَجَدْتموهُم وَخُذُوهُم واحْصُرُوهُمْ واقعدوا لهم كلَّ مَرصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم﴾. [التوبة: ٥].

أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك، ويخلصوا أعمالَهم لله تعالى، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة. فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً.

[3]وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، فى تفسير قوله تعالى ﴿قد أفلحَ من تَزكَّى﴾ فقال: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن أحمد، - وساق بسنده - عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ، ﴿قد أَفْلَح من تَزكَّى﴾. قال: «من شهد أنّ لا إله إلا الله، وخلع الأنداد وشهد أنى رسول الله» الحديث[4] [5].

وفى (صحيح مسلم)، عن أبى هريرة مرفوعاً «أُمرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله، ويؤمنوا بى، وبما جئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالَهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى»[6].

(١) فى جميع النسخ: تردد. والمثبت من المسألة.
(٢) المسألة الأخيرة فى الباب.
(٣) من هنا ساقطٌ من (هـ) و(ط) ومعلَّق فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.
(٤) إلى هنا ساقط من (هـ) و(ط) ومعلَّق فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.
(٥) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٣)، والحديث: أخرجه البزَّار فى «المسند» رقم (٢٢٨٤) (كشف).
(٦) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢١)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (٢/ ٣٤٥، ٤٢٣).

وفي (الصحيحين)، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أنْ أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابُهم على الله»[1].

وهذان الحديثان تفسيرُ الآيتين: آية/ الأنفال، وآية براءة. وقد أجمع العلماءُ على أنَّ من قال: لا إله إلا الله. ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها، أنه يقاتل حتى يعمل بما دلَّت عليه من النفي والإثبات. [٣٦/أ]

قال أبو سُليمان الخطَّابي رحمه الله تعالى - في قوله: «أُمرتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»[2] -: معلومٌ أن المراد بهذا: أهل عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله. ثم يُقاتَلون، ولا يُرفع عنهم السيف[3].

وقال القاضي عياض: اختصاصُ عصمة المال والنفس بمَن قال: لا إله إلا الله. تعبيرٌ عن الإجابة إلى الإيمان، وأنَّ المراد بذلك: مشركو العرب، وأهل الأوثان. فأما غيرُهم ممن يقرُّ بالتوحيد، فلا يُكتفى في عصمته بقول لا إله إلا الله، إذا يقولها في كفره[4]. انتهى ملخصاً.

وقال النووي: لابُدَّ مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ؛ كما جاء في الرواية «ويؤمنوا بي وبما جئتُ به»[5].

وقال شيخُ الإسلام - لما سُئل عن قتال التتار، فقال: كلُّ طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة - من هؤلاء القوم أو غيرهم - فإنه يجب قتالُهم حتى يلتزموا شرائعه، وإنْ كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه؛ كما قاتل أبو بكر والصحابةُ رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى هذا اتفق الفقهاءُ بعدهم.

---

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٢٥)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢)، وأخرجه أحمد في «المسند» (١٩/١، ٣٥، ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٨٢٨٤)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١) من حديث أبي هريرة.

(٣) الخطابي، «معالم السنن» (١١/٢).

(٤) ينظر: القاضي عياض، «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» (٢/ ٥٣٨ - ٥٤٢).

(٥) النووي، «المنهاج شرح مسلم بن الحجاج» (٢١٢/١).

قال: فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال، أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرَّماته التي لا عُذر لأحد في جُحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإنَّ الطائفة الممتنعة تُقاتل عليها وإنْ كانت مقرَّةً بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بُغاةً، بل هم خارجون عن الإسلام. انتهى[1].

[٣٦/ب] قوله: «وحسابه على الله» أي: الله تبارك وتعالى هو الذي يتولَّى حسابه/ فإنْ كان صادقاً جازاه بجنات النعيم، وإنْ كان منافقاً عذَّبه العذاب الأليم. وأمَّا في الدنيا فالحكمُ على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما يُنافيه ظاهراً، والتزم شرائع الإسلام، وجب الكفُّ عنه.

قلتُ: وأفاد الحديث أنّ الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ولا يكفر بما يُعبد من دون الله، ولم يأت بما يعصمُ دَمه وماله؛ كما دلَّ على ذلك الآياتُ المحكمات والأحاديث.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وشرحُ هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

ش: قلتُ: وذلك أنَّ ما بعدها من الأبواب: فيه ما يبيِّن التوحيد، ويوضح معنى لا إله إلا الله. وفيه أيضاً: بيانُ أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر، وما يوصِّل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركُه من مضمون: لا إله إلا الله.

فمن عرف ذلك وتحقَّقه: تبين له معنى لا إله إلا الله، وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبضدها تتبين الأشياء. فبمعرفة الأصغر من الشرك يُعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهوالموحد حقاً.

وبمعرفة وسائل الشرك ـ والنهي عنها لتُجتنب ـ تُعرف الغايات التي نُهي عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص، بل يقتضيه.

وفيها أيضاً من أدلة التوحيد: إثباتُ الصفات، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله. وكل ما يعرَّفُ بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدلُّ على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٠٢).

(٦)

بـــاب
من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك: لبسُ الحلْقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه.

ش: رفْعه: إزالتُه بعد نزوله، ودفعُه: منعُه قبل نزوله.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ من دُون الله إنْ أَرَادَنِي الله بضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشفَاتُ ضُرِّه أَوْ أرادني برَحْمَة هَلْ هُنَّ مُمْسكَاتُ رَحْمَته قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْه يَتوكَّلُ الْمُتوكِّلُون﴾ [الزُّمر: ٣٨].

ش: قال ابنُ كثير: أي: لا تستطيعُ شيئاً من الأمر. ﴿قُلْ حَسْبِي الله﴾ أي: الله كافٍ من توكَّل عليه ﴿عَلَيْه يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هودٌ عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إنْ نَقُولُ إلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلهَتنَا بسُوء/ قَالَ إنِّي أُشْهدُ الله واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ ممَّا تُشْرِكُونَ * من دُونه فَكيدُوني جَميعاً ثُمَّ لا تُنْظرُونَ * إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وربِّكُمْ مَا من دَابَّة إلاَّ هُوَ آخذٌ بنَاصيَتهَا إنَّ رَبِّي عَلَى صرَاط مُسْتَقيم﴾[1] [هود: ٥٤ - ٥٦]. [١/٣٧]

قال مُقاتل - في معنى الآية: فسألهم النبيُّ ﷺ فسكتوا. أي: لأنهم لايعتقدون ذلك فيها.

وإنَّما كانوا يدْعونها: على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا أنهم يكشفون

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩١).

الضُّرَّ ويجيبون دعاء المضطر. فهم يعلمون أنَّ ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[1] [النحل: ٥٣ - ٥٤].

قلتُ: فهذه الآيةُ وأمثالُها: تبطل تعلُّقَ القلبِ بغير الله، في جلب نفعٍ أو دفع ضر، وأنَّ ذلك شركٌ بالله.

وفي الآية: بيانُ أنَّ الله تعالى وَسمَ أهلَ الشرك بدعوة غير الله، والرغبة إليه من دون الله. والتوحيدُ ضدُّ ذلك، وهو: أنْ لا يدعو إلا الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه. وكذا جميعُ أنواع العبادة لا يصلُح منها شئٌ لغير الله؛ كما دلَّ على ذلك الكتابُ والسنة، وإجماعُ سلف الأمة وأئمتها، كما تقدَّم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن عمران بن حُصَين رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقة من صُفْر، فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة. فقال: «انزَعها؛ فإنَّها لا تَزيدُك إلا وهَناً؛ فإنك لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبداً» رواه أحمدُ، بسندٍ لا بأس به.

ش: قال الإمامُ أحمد: حدَّثنا خلفُ بن الوليد، حدَّثنا المباركُ، عن الحسن، قال: أخبرني عمران بن حُصين: أنَّ النبي ﷺ أبصر على عَضُد رجلٍ حلْقة - قال: أراه من صُفْر - فقال: «ويحك، ما هذه؟» قال: من الواهنة. قال: «أمَا إنها لا تزيدك إلا وهناً. انبذها عنك، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً» ورواه ابنُ حبَّان في (صحيحه)، فقال: «فإنَّك إنْ مت وُكلت إليها»، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وأقرَّه الذهبي[2].

وقال الحاكم: أكثرُ مشايخنا على أنَّ الحسن سمع من عمران. وقوله في الإسناد: أخبرني عمران. يدلُّ على ذلك.

قوله: (عن عِمرانَ بن حُصين). أي: ابن عُبيد بن خَلَف الخُزاعي، أبو نُجَيْد - بنونٍ / وجيم. مصغَّر - صحابيٌّ، ابنُ صحابي. أسلم عام خيبر. ومات سنة اثنتين وخمسين، بالبصرة. [٣٧/ب]

(١) سيلمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (١٥٣).

(٢) احمد في «المسند» (٤/ ٤٤٥) وابن حبان في «الصحيح» (٧/ ٦٢٨) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢١٦).

قوله: (رأى رجلاً). فى رواية الحاكم: دخلتُ على رسول الله ﷺ، وفى عضُدى حلْقة صُفر، فقال: «ما هذه؟» الحديث.

فالُمبهم فى رواية أحمد، هو عِمران، راوى الحديث.

قوله: «ما هذه؟» يُحتمل أنَّ الاستفهام للاستفصال عن سبب لُبسها، ويحتمل أنْ يكون للإنكار، وهو أظهر.

قوله: من (الواهنة). قال أبو السَّعادات: الواهِنةُ: عِرقٌ يأخذُ من المنكِب، وفى اليد كلِّها، فيرُقى منها. وقيل: هو مرضٌ يأخذ فى العضُد، وهى تأخذ الرجالَ دون النساء؛ وإنَّما نُهى عنها: لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمُه من الألم، وفيه: اعتبارُ المقاصد[1].

قوله: «انزعها؛ فإنَّها لا تزيدُك إلا وهَناً» النزع: هو الجذبُ بقوة. أخبر أنَّها لاتنفعه، بل تضره، وتزيده ضعفاً. وكذلك كلُّ أمرٍ نُهى عنه: فإنه لا ينفع غالباً، وإنْ نفع بعضه فضَرُّه أكبرُ من نفعه.

قوله: «فإنَّك لو متَّ وهى عليك ما أفلحت أبداً»؛ لأنه شرك. والفلاح: هو الفوزُ والظفر والسعادة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فيه شاهدٌ لكلام الصحابة: أنَّ الشرك الأصغر أكبرُ من الكبائر، وأنه لم يُعذر بالجهالة. وفيه: الإنكارُ بالتغليظ على من فعل مثل ذلك[2].

قوله: (رواه أحمدُ بسندٍ لا بأس به). هو الإمام أحمد بن محمد بن حَنْبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حَيَّان[3] بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط[4] بن مازن بن شيبان بن ذُهَلْ بن ثعلبة بن عُكَابَة بن صَعْب بن على بن بكْر ابن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفْصَى بن دُعْمِىّ بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن

---

(١) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (٥/ ٢٣٤).

(٢) المسائل: الثانية والثالثة والخامسة.

(٣) فى جميع النسخ: حسان. تصحيف، والتصويب من «طبقات الحنابلة» (١/ ٤).

(٤) فى جميع النسخ: قاسم. تصحيف.

نزار بن مَعَدّ بن عدنان. الإمام العالم، أبو عبد الله، الذُّهلى، ثم الشيبانى المَرْوزِى، ثم البغدادى.

إمامُ أهل عصره، وأعلمُهم بالفقه والحديث، وأشدُّهم ورعاً ومتابعة للسنة، وهو الذى يقول فيه بعضُ أهل السُّنة: عن الدنيا ما كان أصبرَه، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشُّبَهُ فنفاها. خُرِجَ به من مرو وهو حَمل، فوُلد ببغداد سنة أربعٍ وستين ومائة، فى شهر ربيع الأول.

وطلب أحمدُ العلم سنة وفاة مالك، وهى سنة تسعٍ وسبعين، فسمع من هُشيم، وجرير بن عبد الحميد، وسفيان بن عُيينة، ومُعتمر بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان، ومحمَّد بن إدريس الشافعى، [ويزيد بن هارون][1] وعبد الرزاق، وعبد الرحمن بن مهدى/ ، وخلائق بمكة، والبصرة، والكوفة، وبغداد، واليمن، وغيرها من البلاد. [٣٨/أ]

روى عنه ابناه: صالح، وعبد الله، والبخارى، ومسلم، وأبو داود، وإبراهيم الحربى، وأبو زُرْعة الرازى، وأبو زُرْعة الدِّمَشقى، وعبد الله بن أبى الدنيا، وأبو بكر الأثرم، وعُثمان بن سعيد الدارمى، وأبو القاسم البغوى، وهو آخر من حدَّث عنه، وخلائق. وروى عنه من شيوخه: عبدُ الرحمن بن مهدى، والأسودُ بن عامر، ومن أقرانه: علىُّ بن المدينى، ويحيى بن معين.

قال البخارى: مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأوَّل، ومات يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت منه. وقال حنبل: مات يوم الجمعة فى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله سبعٌ وسبعون سنة. وقال ابنه عبدُ الله، والفضل بن زياد: مات فى ثانى عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وله عن عُقْبَةَ بن عامر، مرفوعاً: «من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له، ومنَ تعلَّق وَدْعةً فلا ودَع الله له» وفى رواية: «مَن تعلَّق تميمةً فقد أشرك».

---

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

ش: الحديثُ الأوَّل: رواه الإمامُ أحمد، كما قال المصنف، ورواه أبو يعلى، والحاكم، وقال صحيحُ الإسناد، وأقرَّه الذهبى[1].

قوله: (وفى رواية). أى: من حديث آخر، رواه أحمد، فقال: حدَّثنا عبدُ الصَّمد بن عبد الوارث، حدَّثنا عبد العزيز بن مسلم، حدَّثنا يزيد بن أبى منصور، عن دُخين الحَجْرى، عن عُقبة بن عامر الجهنى، أنَّ رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط، فبايع تسعةً وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: «إنَّ عليه تميمة»، فأدخل يده فقطعها. فبايعه، وقال: «من تعلَّق تميمة فقد أشرك» ورواه الحاكم بنحوه[2]، ورواته ثقات.

قوله: (عن عُقبة بن عامر). صحابىٌّ مشهور، فقيهٌ فاضل. ولىَ إمرة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريباً من الستين.

قوله: «من تعلَّق تميمة» أى: علَّقها متعلِّقاً بها قلبهُ، فى طلب خير أو دفع شر.

قال المُنذرى: خرزةٌ كانوا يُعلِّقونها، يرون أنَّها تدفع عنهم الآفات. وهذا جهل/ [٣٨/ب] وضلالة؛ إذ لا مانع، ولا دافع غير الله تعالى[3].

وقال أبو السعادات: التمائمُ: جمعُ تميمة، وهى خَرَزاتٌ كانت العربُ تعلِّقها على أولادهم؛ يتَّقون بها العين فى زعمهم، فأبطله الإسلام[4].

قوله: «فلا أتمَّ الله له» دعاءٌ عليه.

قوله: «ومن تعلَّق وَدْعَة» بفتح الواو وسكون المهملة. قال فى (مُسند الفردوس): الودْع: شىءٌ يخرج من البحر شبه الصَّدف، يتَّقون به العين.

قوله: «فلا ودَع الله له» بتخفيف الدال. أى: لا جعله فى دعَةٍ وسكون. قال أبوالسعادات: وهذا دعاءٌ عليه.

---

(١) أحمد فى «المسند» (٤/ ١٥٤) وأبو يعلى فى «المسند» رقم (١٧٥٩) والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٤١٧)، وجوَّد المنذرى إسناده كما فى «الترغيب» (٤/٣٠٦).

(٢) أحمد فى «المسند» (٤/ ١٥٦) والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٤١٧)، قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٣): رواه أحمد ثقات.

(٣) «الترغيب والترهيب» للمنذرى (٤/ ٣٠٧).

(٤) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (١/ ١٩٧).

قوله: وفي رواية: «من تعلَّق تميمة فقد أشرك» قال أبو السعادات: إنَّما جعلها شركاً؛ لأنهم أرادوا دفعَ المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعهُ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولابن أبي حاتم عن حُذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خَيطٌ من الحُمّى، فقطعه وتلا قوله: ﴿وما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بالله إلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾. [يوسف: ١٠٦].

ش: قال ابنُ أبي حاتم، حدَّثنا محمَّد بن الحُسين بن إبراهيم بن إشكاب، حدَّثنا يونس بن محمد، حدثنا حمَّاد بن سلمة، عن عاصم الأحول، عن عُروة، قال: دخل حُذيفةُ على مريض، فرأى في عضُده سيراً، فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بالله إلا وَهُمْ مُشرِكُونَ﴾[١].

وابن أبي حاتم: هو الإمامُ أبو محمد، عبد الرحمن بن أبي حاتم، محمّد بن إدريس الرازي، التميمي، الحنظلي، الحافظ، صاحبُ (الجرح والتعديل)، (والتفسير)، وغيرهما. مات سنة سبعٍ وعشرين وثلاثمائة.

وحُذيفة: هو ابن اليمان. واسم اليمان: حُسيل ـ بمهملتين مصغَّراً ـ ويقال: حِسْل ـ بكسر ثم سكون ـ العبسي ـ بالموحَّدة ـ حليف الأنصار، صحابيٌّ جليل من السابقين، ويقال له: صاحبُ السرِّ، وأبوه أيضاً صحابي. مات حُذيفة في أوّل خلافة عليّ، سنة ستٍ وثلاثين.

قوله: (رأى رجلاً في يده خيط من الحمَّى). أي: عن الحُمَّى. وكان الجهال يعلِّقون التمائم والخيوط ونحوهما، لدفع الحمَّى.

وروى وكيع: عن حُذيفة: أنه دخل على مريضٍ يعوده، فلمس عضُده، فإذا فيه خيط، فقال: ماهذا؟ قال: شيءٌ/ رُقي لي فيه، فقطعه، وقال: لو متَّ وهو عليك ما صلَّيتُ عليك. [٣٩/أ]

وفيه: إنكارُ مثل هذا، وإنْ كان يعتقد أنه سبب: فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله، مع عدم الاعتماد عليها. وأمَّا التمائم والخيوط

---

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٤/ ٣٤٢).

والحروز والطلاسم ونحو ذلك، مما يعلِّقه الجهال: فهو شركٌ، يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه.

قوله: وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بالله إلا وَهُمْ مُشرِكُونَ﴾. استدلَّ حذيفة رضي الله عنه بالآية: أنَّ هذا شرك.

ففيه: صحةُ الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله فى الشرك الأكبر؛ لشمول الآية، ودخوله فى مسمَّى الشرك. وتقدَّم معنى هذه الآية عن ابن عباس، وغيره، والله أعلم.

وفى هذه الآثار عن الصحابة: ما يبيِّنُ كمالَ علمهم بالتوحيد وما ينافيه، أو ينافى كماله.

(٧)

بــاب
مـا جـاء في الرقـى والتمائـم

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في الرُّقى والتمائم.

ش: أي: من النهي، وما ورد عن السَّلف في ذلك.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن أبي بشير الأنصاري: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أنْ لا يَبقَيَنَّ في رقبة بعيرٍ قلادةٌ من وتَر ـ أو قلادةٌ ـ إلا قُطعت.

ش: هذا الحديث في (الصحيحين)[1].

قوله: (عن أبي بشير). فتح أوله وكسر المُعجمة، قيل: اسمُه قيس بن عُبيد، قاله ابن سعد. وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسمٍ صحيح، وهو صحابيٌّ، شهد الخندق، ومات بعد الستين. ويقال: إنه جاوز المائة.

قوله: (في بعض أسفاره). قال الحافظ: لم أقف على تعيينه.

قوله: (فأرسل رسولاً)، هو زيدُ بن حارثة، روى ذلك الحارثُ بن أبي أُسامة في (مسنده). قاله الحافظ[2].

قوله: (أن لا يبقين) بالمثناة التحتيَّة والقاف المفتوحتين، (وقلادة). مرفوعٌ على أنَّه فاعل. (والوتر)، بفتحتين: واحدُ أوتار القوس. وكان أهلُ الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلَّدوا به الدواب؛ اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدَّابة العين.

---

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٣٠٠٥) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١١٥).

(٢) ابن حجر، «فتح الباري» (٦/ ١٤١).

قوله: (أو قلادة، إلا قطعت). معناه: أنَّ الراوى شكَّ، هل قال شيخُه: قلادة من وتر، أو قال: قلادة/ . وأطلق ولم يُقيِّد؟. [٣٩/ب]

ويؤيدُ الأول: ما روى عن مالك، أنه سُئل عن القلادة؟ فقال: ما سمعتُ بكراهتها إلا فى الوتر. ولأبى داود: ولا قلادة. بغير شك[١].

قال البغوىُّ فى (شرح السُّنة): تأوَّل مالكُ أمرَه عليه السلام بقطع القلائد، على أنَّه من أجل العين. وذلك أنهم كانوا يشدُّون تلك الأوتار والتمائم والقلائد، ويُعلِّقون عليها العُوذ؛ يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبىُّ ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا تردُّ من أمر الله شيئاً[٢].

قال أبو عُبيد: كانوا يقلِّدون الإِبل الأوتار، لئلا تصيبها العين. فأمرهم النبىُّ ﷺ بإزالتها؛ إعلاماً لهم بأنَّ الأوتار لا تردُّ شيئاً[٣]. وكذا قال ابنُ الجوزى وغيره[٤].

قال الحافظ: ويؤيِّدُه: حديثُ عُقبة بن عامر، رفعه «من تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له» رواه أبو داود[٥]، وهى ما عُلِّق من القلائد خشيةَ العين، ونحو ذلك. انتهى[٦].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُّقى والتمائمَ والتِّولَة شرك». رواه أحمد، وأبو داود.

ش: وفيه قصة، ولفظُ أبى داود: عن زينب، امرأة عبد الله بن مسعود: إن عبد الله رأى فيه عُنقى خيطاً، فقال: ما هذا؟ قلتُ: خيطٌ رُقى لى فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنبياء عن الشرك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُّقى والتمائم والتِّولة شرك» فقلت: لقد كانت عينى تقذف،

---

(١) ينظر: ابن حجر «فتح البارى» (٦/ ١٤١).

(٢) البغوى، «شرح السنة» (١١/ ٢٧).

(٣) أبو عبيدة، «غريب الحديث» (٢/ ٢).

(٤) ابن الجوزى، «غريب الحديث» (٢/ ٤٥٢).

(٥) مضى تخريجه، فى الباب قبله.

(٦) ابن حجر، «فتح البارى» (٦/ ١٤٢).

وكنتُ أختلف إلى فلان اليهودى، فإذا رقى سكنت. فقال عبد الله: إنما ذلكَ عمل الشيطان، كان ينخسُها بيده، فإذا رقى كفَّ عنها. إنما كان يكفيكِ، أنْ تقولى كما كان رسولُ الله ﷺ يقول: «أذهِب الباس، ربّ الناس، واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سَقَماً» ورواه ابنُ ماجة، وابن حبَّان، والحاكم وقال: صحيح، وأقرَّه الذهبى[١].

قوله: «إنَّ الرقى» قال المصنِّفُ: (هى التى تُسمَّى العزائم، وخصَّ منه الدليلُ ما خلا من الشرك. فقد رخَّص فيه رسول الله ﷺ/ ، من العين [٤٠/أ] والحُمَة)[٢].

يُشير إلى أنَّ الرقى الموصوفةَ بكونها شركاً، هى التى يُستعان فيها بغير الله. وأمَّا إذا لم يُذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبى ﷺ، فهذا حسن: جائزٌ، أو مُستحب.

قوله: فقد رخَّص فيه رسولُ الله ﷺ من العين والحُمَة. كما تقدَّم، فى باب من حقَّق التوحيد[٣].

وكذا رخَّص فى الرقى من غيرها؛ كما فى (صحيح مسلم)، عن عوف بن مالك: كُنَّا نَرقى فى الجاهلية، فقلنا: يارسول الله، كيف ترى فى ذلك؟ فقال: «اعرضوا علىّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»[٤] وفى الباب أحاديثُ كثيرة.

قال الخطَّابى: وكان عليه السلام، قد رقَى ورُقى، وأمر بها وأجازها. فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله تعالى فهى مباحةٌ أو مأمور بها.

وإنما جاءت الكراهةُ والمنع، فيما كان منها بغير لسان العرب؛ فإنَّه ربما كان كفراً أو قولاً يدخلهُ الشرك[٥].

---

(١) أحمد فى «المسند» (١/ ٣٨١) وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٨٨٣) وابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٥٧٦) وابن حبان فى «الصحيح» (٧/ ٦٣٠) والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٢١٧، ٤١٨).

(٢) المصنف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٣) الباب الثانى.

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٠٠).

(٥) الخطابى، «معالم السنن» (٤/ ٢٢٦).

قلتُ: من ذلك: ما كان على مذهب الجاهلية التى يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون أنَّ ذلك من قِبل الجن ومعونتهم. وبنحو هذا ذكر الخطَّابى.

وقال شيخُ الإِسلام: كلُّ اسم مجهول فليس لأحد أنْ يرقى به، فضلاً أنْ يدعو به ولو عُرف معناه؛ لأنه يُكره الدعاء بغير العربية. وإنما يُرخَّص لمن لا يُحسن العربية، فأمَّا جعلُ الألفاظ العجمية شعاراً، فليس من دين الإِسلام[١].

وقال السيوطى: وأجمع العلماءُ على جواز الرقى، عند اجتماع ثلاثة شروط: أنْ يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربى وبما يُعرف معناه. وأنْ يعتقد أنَّ الرقية لا تؤثرُ بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

قوله: «والتمائم» قال المصنف: (شئٌ يُعلَّق على الأولاد، عن العين)[٢]. وقال الخلخالى[٣]: التمائم، جمعُ تميمة، وهى ما يُعلَّق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام؛ لدفع العين. وهذا منهىٌّ عنه؛ لأنه لا دافع إلا الله، ولا يُطلب دفعُ المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته.

قال المُصنِّفُ: (لكن إذا كان/ المعلَّق من القرآن، فرخَّص فيه بعضُ السلف. وبعضُهم لم يرخِّص فيه، ويجعلُه من المنهى عنه. منهم ابن مسعود)[٤].

اعلم أنَّ العلماء ـ من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ـ اختلفوا فى جواز تعليق التمائم التى من القرآن، وأسماء الله وصفاته.

فقالت طائفة: يجوز ذلك، وهو قولُ عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو ظاهر ما روى عن عائشة. [وبه][٥] قال أبو جعفر الباقر، وأحمدُ فى رواية. وحملوا الحديثَ على التمائم، التى فيها شرك.

وقالت طائفة: لا يجوز ذلك، وبه قال ابنُ مسعود، وابنُ عباس. وهو ظاهر

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٦٩).

(٢) المصنف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٣) شمس الدين، محمد بن مظفر الخطيبى، أديب محدث. له كتاب «المفاتيح شرح مصابيح السنة» (ت ٧٤٥هـ). «الدرر الكامنة» (٤/ ٢٦٠).

(٤) المصنف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٥) ساقط من الأصل.

قول حُذيفة، وعقبة بن عامر وابن عُكَيم. وبه قال جماعةٌ من التابعين، ومنهم أصحابُ ابن مسعود، وأحمدُ في روايةٍ اختارها كثيرٌ من أصحابه. وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه.

قلتُ: وهذا هو الصحيح، لوجوهٍ ثلاثة تظهرُ للمتأمِّل:

الأوَّل: عمومُ النهي، ولا مُخصِّص للعموم. الثاني: سدُّ الذريعة؛ فإنه يُفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علُِّق فلابُد أنْ يمتهنه المعلِّق، بحمله معه في [حال][1] قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

وتأمل هذه الأحاديث، وما كان عليه السلفُ رضي الله تعالى عنهم: يتبيَّنُ لك بذلك غربة الإسلام.

خصوصاً إنْ عرفت عظيم ما وقع فيه الكثيرُ بعد القرون المفضَّلة: من تعظيم القبور، واتخاذ المساجد عليها، والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف جُلِّ الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات ـ التي هي حقُّ الله تعالى ـ [إليها][2] من دونه؛ كما قال تعالى: ﴿ولاَ تَدْعُ من دُون الله مَالا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإن فَعلْتَ فَإنَّك إذاً من الظَّالمين * وَإن يمْسَسْكَ اللهَ بضُرٌّ فَلا كَاشفَ لَهُ إلاَّ هُو وإن يُردْكَ بَخير فَلاَ رَادَّ لفَضْله يُصيبُ به مَنْ يَشَاءُ من عباده وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ﴾ [يونس: ١٠٦ - ١٠٧] ونظائرُها في القرآن، أكثر من أن تُحصر.

قوله: «والتِّولة شركٌ» قال المُصنِّفُ: (هو شيءٌ يصنعونه، يزعمون أنه يُحبِّبُ المرأةَ / إلى زوجها والرجلَ إلى امرأته)[3]. [٤١/أ]

وبهذا فسَّره ابنُ مسعود، راوي الحديث؛ كما في (صحيح ابن حبان)، والحاكم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرقى والتمائم، قد عرفناها. فما التولة؟ قال: شيءٌ يصنعه النساء، يتحببن إلى أزواجهن[4].

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) المصنف، «كتاب التوحيد» من هذا الباب.

(٤) ابن حبان في «الصحيح» (٧/ ٦٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤١٨).

قال الحافظ: التِّولة ـ بكسر المُثنَّاة وفتح الواو واللام مخففًا ـ: شيءٌ كانت المرأةُ تجلب به محبَّةَ زوجها، وهو ضربٌ من السحر، والله أعلم.

وكان من الشرك؛ لما يُراد به من دفع المضار، وجلب المنافع من غير الله تعالى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عبد الله بن عُكَيم، مرفوعاً «من تعلَّق شيئاً وُكِل إليه» رواه أحمد، والترمذي.

ش: ورواه أبو داود، والحاكم[1]. وعبد الله بن عكيم: هو بضمٍّ المهملة مُصغَّراً. ويكنَّى أبا معبد، الجُهنى الكوفى. قال البخارى: أدرك زمنَ النبىِّ ﷺ، ولا يُعرف له سماعٌ صحيح.

وكذا قال أبو حاتم. قال الخطيب: سكن الكوفةَ، وقدِم المدائن فى حياة حُذيفة، وكان ثقة. وذكر ابنُ سعد، عن غيره: أنه مات فى ولاية الحجَّاج[2].

قوله: «من تعلَّق شيئاً وكل إليه» التعلُّق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما. أى: وكَلَه الله، إلى ذلك الشئ الذى تعلَّقه.

فمن تعلَّق بالله وأنزل حوائجَه به، والتجأ إليه وفوَّض أمره إليه: كفاه، وقرَّب إليه كلَّ بعيد ويسَّر له كل عسير. ومن تعلَّق بغيره، أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك: وكَلَه الله إلى ذلك، وخذله. وهذا معروفٌ بالنصوص والتجارب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ على الله فهو حسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هشام بن القاسم، حدَّثنا أبو سعيد المؤدِّب، حدثنا من سمع عطاء الخراسانى، قال: لقيتُ وهبَ بن منبِّه وهو يطوف بالبيت، فقلت: حدثنى حديثاً أحفظهُ عنك فى مقامى هذا، وأوجز. قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: ياداود، أمَا وعزتى وعظمتى، لا يعتصمُ بى عبدٌ من عبادى دون خلقى ـ أعرف ذلك من نيته ـ فتكيده السمواتُ السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن: إلا جعلتُ له من بينهن مخرجاً. أمَا وعزَّتى وعظمتى، لايعتصم

---

(١) أحمد فى «المسند» (٤/ ٣١٠، ٣١١)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٧٣) والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٢١٦)، ولم أجده عند أبى داود فى «السنن» المطبوعة من رواية اللؤلؤى.

(٢) ابن سعد، «الطبقات الكبرى» (٦/ ١١٥).

عبدٌ من عبادى بمخلوق/ دونى، أعرفُ ذلك من نيته: إلا قطعتُ أسباب السماء [٤١/ب] من يده، وأسختُ الأرضَ من تحت قدميه، ثم لا أُبالى بأىّ أوديتها هلك[(١)].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وروى الإمامُ أحمد، عن رُويفع، قال: قال لى رسولُ الله ﷺ: «يارُويفع، لعلَّ الحياة ستطولُ بك، فأخبرِ الناس: أنَّ من عقد لحيته، أو تقلَّد وتَراً أو استنجى برجيع دابةٍ أو عظم، فإنَّ محمَّداً برىءٌ منه».

ش: الحديثُ: رواه الإمامُ أحمد، عن يحيى بن إسحاق، والحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن ابن لَهيعة. وفيه قصةٌ اختصرها المصنف.

وهذا لفظ الحسن: حدَّثنا ابنُ لهيعة، حدثنا عياش بن عباس، عن شُيَيْم بن بيتان، قال: حدَّثنا رُويفع بن ثابت، قال: كان أحدنا فى زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه، على أنْ يعطيه النصفَ مما يغنم وله النصف، حتى إنَّ أحدنا ليَصير[(٢)] له النصلُ والريش، وللآخر القدح. ثم قال لى رسول الله ﷺ. الحديث.

ثم رواه أحمد، عن يحيى بن غيلان، حدثنى المفضَل، حدثنا عيَّاش بن عباس: أن شُيَيم بن بيتان أخبره، أنه سمع شيبان القِتْبانى. الحديث. ابن لهيعة، فيه مقال. وفى الإسناد الثانى: شيبان القتبانى، قيل فيه: مجهول. وبقيَّةُ رجالهما ثقات[(٣)].

قوله: «لعلَّ الحياة ستطول بك» فيه عَلَمٌ من أعلام النبوة، فإنَّ رُويفعاً طالت حياتُه إلى سنة ستٍ وخمسين. فمات ببُرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار، وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين[(٤)].

قوله: «فأخبرِ الناس» دليلٌ على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مُختصاً برُويفع. بل كلٌّ من كان عنده علمٌ ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس، وجب

---

(١) لم أقف عليه فى كتاب «الزهد» المطبوع ولا فى «المسند»، وأخرجه من غير هذا الطريق أبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٢٦).

(٢) فى «المسند»: ليطير.

(٣) أحمد فى «المسند» (٤/١٠٨، ١٠٩).

(٤) الأصل و(ض) و(هـ): قوله لعل الحياة. بعد قوله: فأخبر الناس. ولعل المثبت هو الصواب.

إعلامهم به. فإنْ اشترك هو وغيره في علم ذلك، فالتبليغُ فرض كفاية. قاله أبو زُرْعة[1] في (شرح سُنن أبي داود).

قوله: «أنّ من عقد لحيته» بكسر اللام لا غير، والجمع لُحِي، بالكسر والضم. قاله الجوهري.

قال الخطَّابي: أمَّا نهيهُ عن عقد اللحية، فيفسَّرُ على وجهين:

أحدُهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم؛ وذلك من زيٍّ بعض الأعاجم، يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبراً وعُجباً.

[٤٢/أ] ثانيهما: أنَّ معناه معالجة الشعر ليتعقَّد/ ويتجعَّد، وذلك من فعل أهل التأنيث[2].

قال أو زُرْعة بن العراقي: والأولى، حملُه على عقد اللحية في الصلاة، كما دلّت عليه روايةُ محمَّد بن الربيع. وفيه: «أنَّ من عقد لحيته في الصلاة».

[3][قلت]: وهذه الرواية، لا تدل على تخصيصه في الصلاة، بل تدلّ على أنَّ فعله في الصلاة أشد من فعله خارجها[3].

قوله: «أو تقلَّد وتراً» أي: جعله قلادة في عُنقه، أو عُنق دابته. وفي رواية محمد بن الربيع «أو تقلَّد وتراً ـ يريد: تميمة».

فإذا كان هذا فيمن تقلَّد وتراً، فكيف بمن تعلَّق بالأموات، وسألهم قضاءَ الحاجات وتفريج الكربات. وما يترتب على ذلك من العبادة، التي لا يستحقها إلا رب الأرض والسموات، الذي جاء النهيُ عنه وتغليظه في الآيات المحكمات؟

قوله: «أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإنَّ محمداً بريء منه» قال النووي:

---

(١) أبو زرعة ولي الدين، أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، الكردي الشافعي، المعروف بابن العراقي، ابن صاحب «الألفية». فقيه محدث، له كتاب «التحرير» و«الدليل القويم» و«شرح سنن أبي داود». ولد سنة (٧٦٢) ومات سنة (٨٢٦) السخاوي، «الضوء اللامع» (١/ ٣٣٦).

(٢) الخطابي، «معالم السنن» (١/ ٢٧).

(٣) ما بينها ساقطٌ من (هـ) و(ط)، ومعلّقٌ في هامش الأصل وعليه كلمة صح.

أي: بـريءٌ من فعله[1]. وهـذا خلاف الظاهـر، والنـووي كثيـراً ما يتـأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها، فيغفر الله تعالى له. بل هو بريءٌ من الفاعل، وفعله.

وفي (صحيح مسلم)، عن ابن مسعود رضي الله عنه، مرفوعاً «لا تستنجوا بالروث، ولا العظام؛ فإنَّه زادُ إخوانكم من الجن»[2]. وعليه لا يجزيءُ الاستنجاء بهما، كما هو ظاهرُ مذهب أحمد[3]؛ لما روى ابنُ خزيمة، والدارقطني، عن أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ: نهى أنْ يُستنجى بعظمٍ أو روثٍ، وقال: «إنهما لايطهران»[4].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن سعيد بن جُبير، قال: مَن قطع تميمةً من إنسان، كان كعِدل رقبة[5]. رواه وكيع.

ش: هذا عند أهل العلـم، لـه حكـمُ الرفـع؛ لأن مثـل ذلـك لا يُقـال بالرأي. ويكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيـداً تابعـي. وفيـه: فضـلُ قطـع التمائم لأنها شرك.

ووكيع: هو ابنُ الجرَّاح بن وكيع الكوفي، ثقةٌ إمام، صاحبُ تصانيف، منها (الجامع) وغيرُه. وروى عنه الإمامُ أحمد، وطبقتُه. مات سنة سبع وتسعين ومائة[6].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلَّها، من القرآن وغير القرآن[7].

---

(١) ينظر: القاسم بن سلام، «كتاب الإيمان» (٨٩).

(٢)مسلم في «الصحيح» رقم (٤٥٠).

(٣) ينظر: ابن قدامة، «المغني» (١/ ٢١٥).

(٤) ابن خزيمة في «الصحيح» رقم (٨٢) والدارقطني في «السنن» (١/ ٥٦) وقال: إسنادٌ صحيح. واللفظ له، وأخرجه ابن عَدى في «الكامل» (٧/ ٢٥٠٤).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥٢٤).

(٦) ينظر: الذهبي، «سير النبلاء» (٩/ ١٤٠).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥١٨).

ش: إبراهيم، هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يكنَّى أبا عمران، ثقةٌ من كبار الفقهاء. قال المِزِّي: دخل على عائشة، ولم يثبت له سماعٌ منها. مات سنة ستٍ وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها[1].

قوله: (كانوا يكرهون التمائم). إلى آخره، مرادُه بذلك: أصحاب عبد الله بن مسعود، / كعلقمة، والأسود، وأبي وائل، والحارث بن سُويد، وعَبيدة [٤٢/ب] السلماني، ومسروق، والربيع بن خُثيم، وسُويد بن غَفَلة، وغيرهم. وهم من سادات التابعين. وهذه الصيغةُ: يستعملها إبراهيمُ في حكاية أقوالهم، كما بيَّن ذلك الحفَّاظ، كالعراقي وغيره.

---

(١) المِزِّي، «تهذيب الكمال» (٢/ ٢٣٥) وينظر: ابن حجر «تقريب التهذيب» (٩٥).

(٨)

بـــاب
مـن تبرك بشجـرة أو حجـر ونحوهما

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ من تبرَّك بشجرةٍ أو حجر ونحوهما.

ش: كبُقعةٍ أو قبر، ونحو ذلك، أي: فهو مُشرك.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: **﴿أفرَأَيْتُم اللاتَ والعُزَّى * ومَنَاةَ الثَّالثَةَ الأُخرَى * ألكم الذكَرُ وله الأُنثى * تلك إذاً قسمةٌ ضيزى * إنْ هي إلا أسماءٌ سَميتُموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سُلطان إنْ يتبعون إلا الظنَّ وما تهوى الأنفسُ ولقد جاءهم من ربهم الهُدى﴾** [النجم: ١٩ - ٢٣].

ش: وكانت اللاتُ، لثقيف. والعُزَّى، لقريش وبنى كِنانة. ومناة لبنى هلال. وقال ابنُ هشام: كانت لهُذيل وخُزاعة.

فأمّا (اللاَّتُ) فقرأ الجمهورُ: بتخفيف التاء. وقرأ ابنُ عباس، وابن الزبير، ومُجاهد، وحُميد، وأبو صالح، ورُوَيْس[١]، ويعقوب[٢]: بتشديد التاء.

فعلى الأُولى: قال الأعمش: سمَّوا اللات، من الإله. والعُزَّى، من العزيز. قال ابنُ جرير: وكانوا قد شقُّوا اسمَها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، مؤنثة منه. تعالى الله عمَّا يقولون، علواً كبيراً. قال: وكذا العُزَّى، من العزيز[٣].

وقال ابنُ كثير: اللات، كانت صخرةً بيضاء منقوشة، عليها بيتٌ بالطائف، له

---

(١) أبو عبد الله، محمد بن المتوكل بن عبد الرحمن اللؤلؤى، البصرى، توفى سنة ٢٣٨هـ الذهبى، «التذكرة» (٤٧٣).

(٢) ابن اسحاق بن زيد الحضرمى البغوى، مقرىء نحوى، ولد سنة ١١٧هـ ومات سنة ٢٠٥ هـ. الزبيدى «الطبقات» (٥١).

(٣) «تفسير الطبرى» (٢٧/ ٣٤- ٣٥).

أستار وسَدَنة. وحوله فِناءٌ معظَّمٌ عند أهل الطائف ـ وهم ثقيف ومن تبعها ـ يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب، بعد قريش[1]. قال ابنُ هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرةَ بن شُعبة، فهدمها وحرَّقها بالنار[2].

وعلى الثانية: قال ابنُ عباس: كان رجلاً يلُتُّ السويق للحاج، فلما مات عكفوا على قبره. ذكره البخاريُّ[3].

قال ابنُ عباس: كان يبيع السويقَ والسَّمن عند صخرة، ويسلوه عليها. فلمَّا مات ذلك الرجل، عبدت ثقيفُ تلك الصخرة إعظاماً لِصاحب السويق. وعن مُجاهد نحوه، وقال: فلما مات عبدوه. رواه سعيدُ بن منصور[4].

وكذا، روى ابنُ أبي حاتم، عن ابن عباس: أنهم عبدوه[5]. وبنحو هذا، قال جماعة من أهل العلم.

قلتُ: لا منافاة بين القولين؛ فإنَّهم عبدوا الصخرةَ والقبر، تألُّهاً وتعظيماً.

[٤٣/أ] ولمثل هذا بُنيت المشاهدُ والقباب/ [على القبور][6]، واتخذت أوثاناً. وفيه: بيانُ أنَّ أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين، والأصنام والأوثان.

وأمَّا العُزَّى. فقال ابنُ جرير: كانت شجرةً عليها بناءٌ وأستار، بنخلة ـ بين مكة والطائف ـ كانت قريشُ يعظمونها؛ كما قال أبو سفيان، يوم أُحد: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسولُ الله ﷺ: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»[7].

وروى النسائي، وابنُ مردويه، عن أبي الطفيل، قال: لما فتح رسولُ الله ﷺ مكة، بعث خالدَ بن الوليد إلى نخلة ـ وكانت بها العُزَّى، وكانت على ثلاث

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٠).

(٢) «السيرة» لابن هشام (٤/ ١٣٨).

(٣) البخاري في «الصحيح» (٨/ ٦١١) دون الجملة الأخيرة، وأخرجه الطبري في «التفسير» (٢٧/ ٣٥) وعبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٥٢).

(٤) سعيد بن منصور في «السنن»، والفاكهي كما في «الدر» (٧/ ٦٥٢).

(٥) ابن أبي حاتم في «التفسير»، وابن مردويه كما في «الدر» (٧/ ٦٥٣).

(٦) إضافةٌ من (ض) و(هـ) و(ط).

(٧) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٠٣٩، ٣٩٨٦، ٤٠٤٣، ٤٠٦٧، ٤٥٦١) وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٩٣) من حديث البراء.

سَمُرات ـ فقطع السَّمُرات، وهدم البيت الذى كان عليها. ثم أتى النبى ﷺ، فأخبره. فقال: «ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنةُ أمعنوا فى الجبل، وهم يقولون: يا عُزَّى يا عُزَّى. فأتاها خالدُ، فإذا امرأةٌ عُريانة، ناشرةٌ شعرها تحفن التراب على رأسها! فعممَّهَا بالسيف، فقتلها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى»[1] [٢] قال أبو صالح: كانوا يُعلِّقون عليها السُّيور، والعُهن. رواه عبد بن حُميد، وابن جرير[٢] [3].

قلتُ: وكلُّ هذا، وما هو أعظمُ منه يقعُ فى هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات، وفى المشاهد.

وأمَّا مَناة. فكانت بالمشلَّل عند قُديد، بين مكة والمدينة. وكانت خُزاعةُ والأوس والخزرج يعظمونها، ويُهلُّون منها للحج. وأصلُ اشتقاقها، من اسم الله المنَّان. وقيل لكثرة ما يُمنى ـ أى يُراق ـ عندها من الدماء، للتبرُّك بها.

قال البخاريُّ رحمه الله تعالى ـ فى حديث عُروة، عن عائشة رضى الله عنها ـ: إنَّها صنمٌ بين مكة والمدينة[4].

قال ابنُ هشام: فبعث رسولُ الله ﷺ علياً، فهدمها عام الفتح [٢]وقال العمادُ بن كثير: فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى غزوة بنى المصطلق، فكسرها[٢] [5].

فمعنى الآية، كما قال القرطبى: أنَّ فيها حذفاً، تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة: أنفعتْ أو ضرَّت، حتى تكون شركاء لله تعالى؟

وقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ قال ابنُ كثير: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور[6].

---

(١) النسائى فى «السنن الكبرى» كما فى «تحفة الأشراف» (٤/ ٢٣٥) وابن مردويه فى «التفسير» كما فى «الدر» (٧/ ٦٥٢).

(٢) ما بينهما ساقطٌ من (هـ) و(ط)، ومعلَّقٌ فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٣) الطبرى فى «التفسير» (٢٧/ ٣٧) وعبد بن حُميد، كما فى «الدر» (٧/ ٦٥٣).

(٤) البخارى فى «الصحيح» (٨/ ٦١٣).

(٥) ينظر ابن كثير، «التفسير» (٧/ ٤٣٢) «والبداية» (٢/ ١٩٢، ٤/ ٣٧٥).

(٦) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٣٣).

قوله: ﴿تلكَ إذاً قسمَةٌ ضِيزَى﴾ أى: جورٌ، وباطلة. فكيف تُقاسمون ربَّكم [٤٣/ب] هذه القسمة، التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً/ . فتنزِّهون أنفسكم عن الإناث، وتجعلونهن لله تعالى.

وقوله: ﴿إنْ هِىَ إلا أسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وآبَاؤُكُم﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنْزَلَ الله بهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة ﴿إن يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وما تهوى الأنفس﴾ أى: ليس لهم مستندٌ إلا حسن ظنهم بآبائهم، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم. وإلا حظ أنفسهم، فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين.

قوله: ﴿ولَقَدْ جَاءَهُم مِن ربِّهم الهُدَى﴾. قال ابنُ كثير: ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة. ومع هذا، ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له(١).

ومطابقةُ الآيات للترجمة: من جهة أنَّ عُبَّاد الأوثان، إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها: بتعظيمها، ودعائها، والاستعانة بها، [والاعتماد عليها فى حصول ما يرجونه منها](٢) ويؤمِّلونه ببركتها وشفاعتها، وغير ذلك.

فالتبركُ بقبور الصالحين ـ كاللات ـ وبالأشجار والأحجار ـ كالعُزَّى، ومَناة ـ من فِعل جملة أولئك المشركين مع تلك الأوثان. فمن فعل مثل ذلك، أو اعتقد فى قبرٍ أو حجر أو شجر، فقد ضاهى عُبَّاد هذه الأوثان فيما يفعلونه معها من هذا الشرك. على أنَّ الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم، أعظم مما وقع من أولئك. فالله المُستعان.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن أبى واقد الليثى، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حُدَثاءُ عهدٍ بكفر. وللمشركين سِدْرةٌ يَعكفُون عندها، ويَنوطون بها أسلحتَهم، يقال لها: ذاتُ أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السُّنن. قُلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إلهاً

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٣٣).
(٢) ما بينهما ساقطٌ من الأصل.

﴿كَمَا لَهُم آلِهَةٌ قَالَ: إِنَّكُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] «لتركبُنَّ سُنن من كان قبلكم» رواه الترمذى وصححه(١).

ش: أبو واقد: اسمُه الحارثُ بن عوف. وفى الباب: عن أبى سعيد، وأبى هريرة. قاله الترمذى.

وقد رواه أحمدُ، وأبو يعلى، وابنُ أبى شيبة، والنسائى، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والطبرانى، بنحوه(٢).

قوله: (عن أبى واقد). تقدم اسمُه، فى قول الترمذى، وهو صحابىٌّ مشهور، مات سنة ثمانٍ وستين، وله خمسٌ وثمانون سنة.

قوله: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين). وفى حديث عمرو بن عوف ـ وهو عند ابن أبى حاتم، وابن مردويه، والطبرانى ـ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، ونحن ألفٌ ونيِّفٌ. حتى إذا كنا بين حُنين والطائف ـ الحديث.

[٤٤/أ] قوله: (ونحن حُدَثاءُ عهد بكفر)./ أى: قريبٌ عهدُنا بالكفر، ففيه: دليلٌ على أنَّ غيرهم ممن تقدم إسلامُهُ من الصحابة لا يجهل هذا، وأنَّ المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبُه، لا يأمن أنْ يكون فى قلبه بقيةٌ من تلك العادة. ذكره المصنف(٣).

قوله: (وللمشركين سدرةٌ يعكفون عندها). العكوف: هو الإقامةُ على الشئ فى المكان، ومنه قولُ الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكان عكوفُ المشركين عن تَلك السدرة؛ تَبركاً بها وتعَظيماً لها. وفى حديث عمرو: كان يُناط بها السلاح؛ فسُمِّيت ذاتُ أنواط. وكانت تُعبد من دون الله.

قوله: (وينوطون بها أسلحتَهم). أى: يعلِّقونها عليها؛ للبركة.

---

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢١٨١) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح.

(٢) أحمد فى «المسند» (٥/ ٢١٨) وأبو يعلى فى «المسند» رقم (١٤٤١) وابن أبى شيبة فى «المصنف» (١٥/ ١٠١) والنسائى فى «السنن الكبرى» كما فى «تحفة الاشراف» (١١/ ١١٢) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٩/ ٣١) وابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى «الدر» (٣/ ٥٣٣) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٣٢٩٠، ٣٢٩٤).

(٣) المسألة: الثانية عشرة، والثانية والعشرون.

قلت: ففى هذا، بيانَ أنّ عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك. وبهذه الأمور الثلاثة، عُبدت الأشجار ونحوها.

قوله: (فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط). قال أبو السعادات: سألوه أنْ يجعل لهم، مثلَها، فنهاهم عن ذلك. وأنواط: جمع نَوْط، وهو مصدرٌ سُمِّي به المَنُوط[1]. ظنوا أنَّ هذا محبوبٌ عند الله، وقصدوا التقرب به. وإلا فهم أجلُّ قدراً، من أنْ يقصدوا مخالفة النبى ﷺ.

قوله: (فقال رسولُ الله ﷺ «الله أكبر) وفى رواية: «سبحان الله!». والمراد: تعظيم الله تعالى، وتنزيهه عن هذا الشرك بأى نوع كان، مما لا يجوز أن يُطلب ويُقصد به غير الله.

وكان النبى ﷺ يستعملُ التكبير والتسبيح، فى حال التعجُّب؛ تعظيماً لله وتنزيهاً له. إذا سمع من أحدٍ ما لا يليق بالله، مما فيه هَضْمٌ للربوبية والإلهية.

قوله: «إنها السُّنَن» بضم السين، أى: الطرق.

قوله: «قلتم والذى نفسى بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً﴾» شبَّه مقالتَهم هذه، بمقالة بنى إسرائيل؛ بجامع أنَّ كلاً طَلَب أنْ يُجعل له ما يألهه ويعبُده من دون الله. وإن اختلف اللفظان، فالمعنى واحد. فتغيير الإِسم، لا يُغير الحقيقة.

[٤٤/ب] ففيه: الخوفُ من الشرك. وأنَّ الإِنسان قد يستحسن شيئاً يظنه يقربه إلى الله/، وهو أبعدُ ما يبعده من رحمته، ويقربه من سخطه.

ولا يعرف هذا على الحقيقة، إلا من عرف ما وقع فى هذه الأزمان، من كثيرٍ من العلماء والعُبَّاد مع أرباب القبور. من الغلوِّ فيها، وصرف جل العبادة لها. ويحسبون أنهم على شئ، وهو الذنبُ الذى لا يغفره الله.

قال الحافظُ أبو محمد، عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعى، المعروف بأبى شامة[2] - فى (كتاب البدع والحوادث) - : ومن هذا القسم، أيضاً: ما قد عَمَّ الابتلاءُ به، من تزيين الشيطان للعامة: تخليقُ الحيطان والعُمد، وسرْجُ مواضع

(١) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (٥/ ١٣٨).

(٢) وهو من كبار العلماء والدعاة، الحفاظ (ت ٦٦٥هـ) «الشذرات» (٥/ ٣١٨).

مخصوصة، في كل بلد يحكى لهم حاكٍ أنه رأى فى منامه بها أحداً ممن شُهر بالصلاح والولاية. فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائضَ الله تعالى وسننه. ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يَعظُمَ وقعُ تلك الأماكن فى قلوبهم. فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهى من عيون وشجرَ وحائط وحجر.

وفى مدينة دِمَشق من ذلك مواضعُ متعددةٌ، كعوينة الحمَّى خارج باب توُما، والعمود المخلَّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة خارج باب النصر فى نفس قارعة الطريق[1]. سَهَّل الله قطعها، واجتثاثَها من أصلها. فما أشبهها بذات أنواط، الواردة فى الحديث. انتهى[2].

وذكر ابنُ القيم رحمه الله تعالى: نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرعَ أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت. ويقولون: إنَّ هذا الحجر وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر. أى: تقبل العبادةَ من دون الله؛ فإنَّ النذر عبادةٌ وقربة، يتقرب بها الناذرُ إلى المنذور له[3]. وسيأتى ما يتعلَّق بهذا الباب، عند قوله: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد»[4].

وفى الجملة من الفوائد: أنَّ ما يفعلهُ من يعتقد فى الأشجار والقبور والأحجار، من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها، هو الشرك. ولا يغتر/ [٤٥/أ] بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله يقع فى هذه الأمة.

فإذا كان بعضُ الصحابة ظنوا ذلك حَسناً، وطلبوه من النبى ﷺ حتى بيَّن لهم أنَّ ذلك كقوله بنى إسرائل ﴿اجْعَلْ لَنَا إلهاً﴾ [الأعراف: ١٣٨] فكيف لا يخفى على من هو دونهم فى العلم والفضل بأضعاف مضاعفة، مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة؟!. بل خفى عليهم عظائمُ الشرك فى الإلهية والربوبية، فأكثروا فعله واتخذوه قُربة.

ومنها: أنَّ الاعتبار فى الأحكام بالمعانى لا بالأسماء، ولهذا جعل النبىُّ

---

(١) ينظر: ابن بدران، «منادمة الأطلال» (٤٠).

(٢) أبو شامة، «الباعث على إنكار البدع والحوادث» (٢٣).

(٣) ابن القيم، «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (١/ ٢٣٠).

(٤) الباب رقم (٢٠).

ﷺ طلبهم كطلب بنى إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سمَّوها ذاتَ أنواط.

فالمشركُ وإنْ سمَّى شركَه ما سماه ـ كمن يُسمى دعاء الأموات، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيماً ومحبة ـ فإنَّ ذلك هو الشرك، وإنْ سمَّاه ما سماه. وقس على ذلك[1].

قوله: «لتركبُن سُنن من كان قبلكم» بضمِّ الموحَّدة وضم السين، أى: طرقهم ومناهجهم. وقد يجوز فتحُ السين على الإِفراد، أى: طريقهم. وهذاخبرٌ صحيح، والواقع من كثيرٍ من هذه الأمة يَشهدُ له.

وفيه: عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ من حيثُ إنه وقع كما أخبر ﷺ.

وفى الحديث: النهىُ عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلا ما دلَّ الدليلُ على أنه من شريعة محمد ﷺ[2].

قال المُصنِّفُ: وفيه: التنبيهُ على مسائل القبر، أمَّا: مَن ربُّك؟ فواضح، وأمَّا: من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب. وأمَّا: ما دينُك؟ فمن قولهم **﴿اجعل لنا إلهاً﴾** إلى آخره.

وفيه: أنَّ الشرك لابُدَّ أنْ يقع فى هذه الأمة، خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك، وفيه: الغضبُ عند التعليم، وأنَّ ماذم الله به اليهود والنصارى فإنه لنا لنحذره[3]. قاله المصنف.

وأمَّا ما ادعاه بعضُ المتأخرين: من أنه يجوز التبركُ بآثار الصالحين، فممنوعٌ من وجوه:

منها: أنَّ السابقين الأولين من الصحابة ومَن بعدهم، لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبى ﷺ. لا فى حياته، ولا بعد موته. ولو كان خيراً لسبقونا إليه.

---

(١) المسألة: الخامسة، والثامنة.

(٢) المسألة: الخامسة عشرة، والثامنة عشرة.

(٣) المسائل: السادسة عشرة، والسابعة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرون.

وأفضلُ الصحابة/ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى ـ وقد شهد لهم النبىُّ ﷺ [٤٥/ب] فيمن شهد له بالجنة ـ وما فعله أحدٌ من الصحابة والتابعين مع أحدٍ من هؤلاء السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم فى العلم والدين، وهم الأسوة.

فلا يجوز أنْ يُقاس على رسول الله ﷺ أحدٌ من الأمة، وللنبى ﷺ فى حال الحياة خصائصُ كثيرة لا يصلح أنْ يُشاركه فيها غيره.

ومنها: أنَّ فى المنع عن ذلك سدّاً لذريعة الشرك، كما لا يخفى[1].

(١) ينظر: الشاطبى، «الاعتصام» (١/ ٤٨٢) وابن رجب، «الحكم الجديرة» (٥٥).

(٩)
بـــاب
ما جـاء فى الذبح لغير الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء فى الذَّبح لغير الله.

ش: أى: من الوعيد، وأنه شرك.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: **﴿قُل إنَّ صَلاَتى وَنُسُكى وَمَحيَاى وَمَمَاتى لله رَبِّ العَالَمينَ * لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أوَّلُ المسلمين﴾** [الأنعام: ١٦٢: ١٦٣].

ش: قال ابن كثير: يأمرُه تعالى، أن يُخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه[١]: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحتَه؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام، ويذبحون لها. فأمره الله تعالى بمخالفتهم، والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مُجاهد: النسك: الذبح، فى الحج والعُمرة[٢].

وقال الثورى، عن السُّدى، عن سعيد بن جُبير: **﴿وَنُسُكِى﴾**: ذبحى. وكذا قال الضحاك[٣] [٤].

وقال غيرهُ: **﴿وَمَحْيَاى وَمَمَاتى﴾** أى: وما آتيه فى حياتى، ومتُّ عليه من الإيمان والعمل الصالح **﴿لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾** خالصاً لوجهه **﴿لاَ شرِيكَ لَهُ**

---

(١) فى جميع النسخ: له. والمثبت من «التفسير».

(٢) أخرجه الطبرى فى «التفسير» (١٢/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه الطبرى. «المصدر السابق».

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٧).

وَبِذَلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبى متقدمٌ إسلام[1] أمته: قال قتادة: «وأنا أول المسلمين» أى: من هذه الأمة[1] [2].

قال ابنُ كثير: وهو كما قال، فإنَّ جميع الأنبياء قبله، كانت دعوتُهم إلى الإسلام. وهو عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وذكر آيات فى هذا المعنى[3].

ووجه مُطابقة الآية للترجمة: أنَّ الله تعالى تعبَّد عباده، بأن يتقربوا إليه بالنّسك. كما تعبَّدهم بالصلاة، وغيرها من أنواع العبادة. فإنَّ الله تعالى أمرهم أن يُخلصوا جميع أنواع العبادة له/ ، دون كلٍّ ما سواه. فإذا [٤٦/أ] تقرَّب إلى غير الله بالذبح، أو غيره من أنواع العبادة فقد جعل لله شريكاً فى عبادته.

وهو ظاهرٌ فى قوله: ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ نفى أنْ يكون لله تعالى شريك فى هذه العبادات، وهو بحمد الله واضح.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

ش: قال شيخُ الإسلام رحمه الله تعالى: أمرَه الله أنْ يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك. الدالتان على القُرب والتواضع، والافتقار وحُسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَته.

عكسَ حال أهل الكِبر والنُّفرة، وأهل الغنى عن الله ـ الذين لا حاجة لهم فى صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ـ ولهذا جمع بينهما فى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾ ـ الآية.

والنُّسك: الذبيحة لله تعالى، ابتغاء وجهه. فإنهما أجلُّ ما يُتقرب به إلى الله

---

(١) ما بينهما ساقطٌ من (هـ) و(ط)، ومعلَّقٌ فى هامش (الأصل) وعليه كلمة صح.

(٢) أخرجه الطبرى فى «التفسير» (٢/ ٢٨٥).

(٣) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٧).

تعالى، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك سببٌ للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر.

وأجلُّ العبادات البدنية: الصلاة، وأجلُّ العبادات المالية: النحر. وما يجتمع للعبد في الصلاة، لا يجتمع له في غيرها؛ كما عرفه أربابُ القلوب الحية. وما يجتمع له في النحر - إذا قارنه الإيمان والإخلاص - من قوة اليقين وحُسن الظن: أمرٌ عجيب، وكان ﷺ، كثيرَ الصلاة، كثير النحر. انتهى(١).

قلتُ: وقد تضمَّنت الصلاةُ من أنواع العبادة كثيراً، فمن ذلك: الدعاءُ والتكبير، والتسبيح والقراءة، والتسميع والثناء، والقيام والركوع، والسجودُ والاعتدال، وإقامة الوجه لله تعالى، والإقبالُ عليه بالقلب، وغيرُ ذلك مما هو مشروع في الصلاة. وكل هذه الأمور من أنواع العبادة، التي لا يجوز أنْ يُصرف منها شيءٌ لغير الله . وكذلك النسك، يتضمن أموراً من العبادة، كما تقدم في كلام شيخ الإسلام.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن علي بن أبي طالب، قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعنَ الله مَن ذبح لغير الله ، لعن الله مَن لعنَ والديه، لعن الله من آوى مُحْدِثاً، لعن الله من غيرَّ مَنار الأرض» رواه مسلم.

[٤٦/ب]

ش: رواه مُسلم من طُرق/ ، وفيه قصة(٢).

ورواه الإمام أحمد كذلك، عن أبي الطفيل، قال: قُلنا لعلي: أخبرنا بشيءٍ أسرَّه إليك رسولُ الله ﷺ، فقال: ما أسرَّ إلي شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعتُه يقول: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غيرَّ تُخوم الأرض. يعني: المنار»(٣).

وعليٌّ بن أبي طالب: هو الإمام، أمير المؤمنين، أبو الحسن الهاشمي، ابنُ عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمةُ الزهراء.

وكان من أسبق السابقين الأولَّين، ومن أهل بدر وبَيعة الرضوان، وأحد

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣١).

(٢) مسلم في «الصحيح» رقم (١٩٧٨).

(٣) أحمد في «المسند» (١/ ١٠٨، ١١٨، ١٥٢)، وهو احدى روايات مسلم في «الصحيح».

العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخُلفاء الراشدين، ومناقبهُ مشهورة رضى الله تعالى عنه. قتله ابنُ مُلْجم الخارجى، فى رمضان سنة أربعين.

قوله: «لعن الله» اللعنة: البُعد عن مظان الرحمة، ومواطنها. قيل: واللعين والملعون: من حقّت عليه اللعنة، أو دُعى عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإِبعاد [من الله، ومن الخلق: السب والدعاء][1] [2].

قال شيخُ الإِسلام: ما معناه: إنَّ الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول؛ كما يصلى سبحانه على من استحق الصلاة من عباده، قال تعالى: ﴿هُوَ الذى يُصَلّى عَلَيْكُم وَمَلائكَتُهُ لِيُخرجَكُم منَ الظُّلُماتِ إلى النُّور وكَانَ بالمُؤمنينَ رَحيماً * تَحيَّتُهم يومَ يَلقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣ - ٤٤] وقال: ﴿إنَّ الله لَعَنَ الكَافرينَ وأَعَدَّ لَهُم سَعِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٤] وقال: ﴿ملعونينَ أينما ثُقفوا أُخذُوا وقُتِّلُوا تقتيلا﴾ [الأحزاب: ٦١].

والقرآن كلامه تعالى، أوحاه إلى جبرائيل عليه السلام وبلَّغه رسولَه محمداً ﷺ، وجبرائيل سمعه منه، كما سيأتى فى الصلاة إنْ شاء الله تعالى.

[فالصلاةُ ثناءُ الله تعالى]، كما تقدَّم. فالله تعالى هو المصلِّى وهو المُثيب، كما دل على ذلك الكتابُ والسنة، وعليه سلف الأمة. قال الإِمام أحمد رحمه الله تعالى: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله: «من ذبح لغير الله» قال شيخُ الإِسلام رحمه الله تعالى - فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهلَّ به لغَير الله﴾ [البقرة: ١٧٣] - : ظاهرُه: أنه ما ذُبح لغير الله، مثلُ أن يُقال: هذا ذَبيحَةٌ لكذا.

وإذا كان هذا هو المقصود، فسواء لفظ به أو لم يلفظ. وتحريمُ هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم، وقال فيه: باسم المسيح/ ونحوه؛ كما أنّ ما ذبحناه متقرِّبين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حرُم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزُّهرة، فَلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزُّهرة أو قصد به ذلك، أولى؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله. [٤٧/أ]

(١) ساقطٌ من الأصل.

(٢) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (٤/ ٢٥٥).

وعلى هذا: فلو ذَبح لغير الله متقرباً إليه لَحرُم، وإن قال فيه: باسم الله. كما قد يفعله طائفةٌ من منافقى هذه الأمة، الذين قد يتقرَّبون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك.

وإنْ كان هؤلاء مرتدين، لا تُباح ذبيحتهم بحال. لكن يجتمع فى الذبيحة مانعان، الأول: أنه مما أُهلَّ به لغيرالله. والثانى: أنها ذبيحة مُرتد.

[1]قلتُ: هذا لا اختلاف [فيه][2]، بين العلماء. وأمَّا إذا ذُبح للحم وذُكر على الذبيحة اسمُ المسيح أو الزهرة ونحو ذلك، فهذا الذى فيه خلافُ العلماء. وكلامُ شيخُ الإِسلام هذا: يدلُّ على أنَّه يقول بتحريمه، ووافقه على ذلك بعضُ العلماء.

وذكر القرطبىُّ فى تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه﴾. [الأنعام: ١٢١]: ثم استثنى قوله: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ [المائدة:٥]. يعنى: ذبيحة اليهودى والنصرانى، وإن كان النصرانى يقول عند الذبح بسم المسيح. واليهودى يقول: بسم عُزير. وذكر قول عطاء: كُل من ذبيحة النصرانى وإنْ قال: بسم المسيح؛ لأن الله تعالى قد أباح ذبائحهم، وقد علم ما يقولون. وذكر مثله عن القاسم بن مُخَيْمِرَة[3]، وهو قول الزهرى، وربيعة، والشعبى، ومكحول. وروى عن عُبادة بن الصَّامت، وأبى الدرداء من الصحابة. انتهى مُلخصاً[4].

ثم قال[5] ومن هذا الباب: ما يفعلُه الجاهلون بمكة، من الذبح للجن. ولهذا رُوى عن النبى ﷺ: أنه نهى عن ذبائح الجن[6]. انتهى[7].

---

(١) من هنا ساقطٌ من (ض) و(هـ) و(ط) ومثبت فى (م) ومعلق فى هامش الأصل وعليه كلمة صح.

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) أبو عُروة، الهمدانى الكوفى، ثقة فاضل ت (١٠٠هـ) «تقريب التهذيب» (٤٥٢).

(٤) «تفسير القرطبى» (٦/ ٧٦).

(٥) إلى هنا ساقط من (ض) و(هـ) و(ط).

(٦) أخرجه ابن الجوزى فى «الموضوعات الكبرى» (٢/ ٣٠٢) من حديث أبى هريرة، وقال: فيه عبد الله بن أذينة. وذكره الذهبى فى «الميزان» (٢/ ٣٩١) معزواً إلى ابن حبان، وأخرجه البيهقى فى «السنن» (٩/ ٣١٤) مرسلاً.

(٧) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٥٦٣).

قال الزمخشرى: كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً، ذبحوا ذبيحة خوفاً أنْ تُصيبهم الجن، فاضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر إبراهيم المروزى[1]: أنَّ ما ذُبح عند استقبال السُّلطان تقرباً إليه، أفتى أهلُ بُخارى بتحريمه؛ لأنه مما أُهلَّ لغير الله[2].

قوله: «لعن الله من لعن والديه» يعنى أباه وأُمَّه، وإن عَلَيا. وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شَتْم الرجلِ والديه»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجلُ والديه؟ قال: «نعم، يَسبُّ أبا الرجل فيسب أباه، ويَسبُّ أمَّه فيسب أمَّه»[3].

قوله: «لعن الله من آوى مُحْدِثاً». هو بفتح الهمزة، ممدودة: أى ضمَّه إليه، وحماه أنْ يُؤخذ منه الحق الذى وجب عليه.

قال أبو السعادات: أويتُ إلى المنزل، وأويت غيرى، وآويته. وأنكر بعضهم المقصور المتعدى. وقال الأزهرى: هى لغةٌ صحيحة.

وأما مُحْدِثاً: فقال أبو السعادات: يُروى بكسرالدال وفتحها، على الفاعل والمفعول. فمعنى الكسر: من نَصَر جانياً وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقتصَّ منه. والفتح: هو الأمر المُبتدَع نفسُه، ويكون معنى الإِيواء فيه: الرضى به والصبر عليه. فإنه إذا رضى بالبدعة، وأقرَّ فاعلها ولم يُنكر عليه فقد آواه[4].

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: هذه الكبيرة، تختلف مراتبُها بختلاف مراتب الحَدَث بنفسه. فكلَّما كان الحدثُ فى نفسه أكبر، كانت الكبيرة أعظم/ . [٤٧/ب]

قوله: لعن الله من غيَّر منار الأرض» بفتح الميم: علاماتُ حدودها. قال فى (النهاية): أى: معالمها وحدودها، واحدُها تَخْم. قيل: أراد حدود الحرم خاصة،

---

(١) أبو إسحاق، إبراهيم بن عبد الله بن أحمد الخلال. صدوق ت (٢٤١هـ). «تقريب» (٩٠).

(٢) ذكره النووى فى «المنهاج» (١٣/ ١٤١).

(٣) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٩٧٣)، ومسلم فى الصحيح رقم (٩٠) وأحمد فى «المسند» (٢/ ١٦٤) من حديث ابن عمرو.

(٤) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (١/ ٨٢، ٣٥١).

وقيل: هو عامٌ في جميع الأرض، وأراد: المعالم التي يُهتدى بها في الطريق. وقيل: هو أن يَدخل الرجلُ في مُلك غيره، فيقتطعه ظُلماً. قال: وروى: تَخوم. بفتح التاء، على الإفراد. وجمعه تُخُم، بضم التاء والخاء. انتهى[١].

وتغييرُها: أنْ يُقدِّمها، أو يؤخرها. فيكون هذا من ظُلم الأرض، الذى قال فيه النبيُّ ﷺ: «من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين»[٢] ففيه: جوازُ لعن أهل الظلم، من غير تعيين.

وأمَّا لعنُ الفاسق المعيَّن: ففيه قولان، أحدُهما: أنه جائز. اختاره ابنُ الجوزى، وغيره. والثانى: لا يجوز، اختاره أبو بكر عبدُ العزيز[٣]، وشيخ الإِسلام.

[٤]وقال النوويُّ رحمه الله تعالى: [٥]واتفق العلماءُ على تحريم اللعن؛ فإنَّه فى اللغة: الابعادُ، والطرْد. وفى الشرع: الابعادُ من رحمة الله.

فلا يجوز أنْ يُبعد من رحمة الله، من لا يُعرف حاله وخاتمة أمره معرفةً قطعية. فلهذا قالوا: لا يجوز لعن أحدٍ بعينه، مُسلماً كان أو كافراً أو دابة. إلا من علمنا بنصٍّ شرعى أنه مات على الكفرِ، أو يموت عليه كأبى جهل وإبليس.

وأمَّا اللعنُ بالوصف، فليس بحرام. كلعن: الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة، وآكلِ الربا وموكله، والمصوِّرين، والظالمين، والفاسقين، والكافرين، ولعنِ من غيَّر منار الأرض، ومن تولّى غير مواليه، ومن انتسب إلى غير أبيه، ومن أحدَث فى الإِسلام حَدَثاً أو آوى محدثاً. وغير ذلك، مما جاءت النصوص الشرعية بإطلاقه على الأوصاف لا على الأعيان، والله أعلم[٦] [٧].

(١) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (١/ ١٨٣)

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٤٥٣، ٩٣١٩٥)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦١٢)، وأحمد فى «المسند» (٦/ ٦٤، ٧٩، ٢٥٢، ٢٥٩) من حديث عائشة.

(٣) عبد العزيز بن جعفر بن أحمد، المعروف بغلام الخلال، فقيه محدث (ت ٣٦٣هـ). «طبقات الحنابلة» (٢/ ١١٩).

(٤) من هنا ساقطٌ من (هـ) و(ط)، ومثبت فى (ض) و(م) ومعلّق فى هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٥) (ض): و. ساقطة.

(٦) النووى «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٢/ ٦٧).

(٧) إلى هنا ساقط من (هـ) و(ط).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن طارق بن شهاب: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنةَ رجلٌ فى ذُباب، ودخل النارَ رجلٌ فى ذُباب»، قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: «مرَّ رجلان على قوم لهم صنمٌ لا يجاوزُه أحدٌ حتى يُقرِّب له شيئاً. قالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندى شىءٌ أُقرِّب، قالوا له: قرِّب ولو ذباباً، فقرَّب ذُباباً، فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنتُ لأُقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد[1].

ش: قال ابن القيم رحمه الله تعالى: قال الإمام أحمد: حدَّثنا أبو معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن سُليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب يرفعه، قال: «دخل الجنة رجلٌ فى ذباب» الحديث[2].

وطارق بنُ شهاب: هو البَجَلى الأحمُسى، أبو عبد الله. رأى النبىَّ ﷺ وهو رجل. قال البغوى: ونزل الكوفة. وقال أبو داود: رأى النبى ﷺ ولم يسمع منه شيئاً. قال الحافظ: إذا ثبت أنه رأى النبى ﷺ فهو صحابى، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه، فروايتُه عنه مُرسل صحابى، وهو مقبولٌ على الراجح.

وكانت وفاتُه ـ على ما جزم به ابنُ حبان ـ سنة ثلاث وثمانين[3].

قوله: «دخل الجنة رجلٌ فى ذباب» أى: من أجله [لأن فى تأتى للتعليل].

قوله: (قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟) كأنهم تقالّوا ذلك، وتعجّبوا منه.

[٤٨/أ] فبيَّن لهم النبىُّ ﷺ: ما صيَّر لهم هذا الأمر الحقير عندهم/ عظيماً، يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار.

قوله: فقال: «مرَّ رجلان على قومٍ لهم صنم» الصنم: ما كان منحوتاً على صورة.

---

(١) أحمد فى «كتاب الزهد» (/ ٢٢)، وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٢٠٣) كلاهما موقوفاً على سلمان الفارسى.

(٢) ابن القيم، «الجواب الكافى» (٣٦)، وقال الحافظ، سُليمان بن عبد الله فى «تيسير العزيز الحميد» (١٩٤) ذكره المصنف معزواً لأحمد، وأظنه تبع ابن القيم فى عزوه لأحمد. وقد طالعتُ «المسند» فما رأيته فيه!.

(٣) ابن حجر، «الاصابة» (٢/ ٢٢٠).

قوله: «لا يُجاوزه» أى: لا يمرُّ به ولا يتعداه أحدٌ، حتى يقرِّب له شيئاً وإن قلّ.

قوله: «قالوا له: قرِّب ولو ذباباً، فقرَّب ذُباباً فخلّوا سبيله، فدخل النار» وفى هذا: بيانُ عظمة الشرك، ولو فى شيء قليل، وأنه يوجب النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفى هذا الحديث: الحذرُ من الوقوع فى الشرك، وأنَّ الإِنسان قد يقع فيه وهو لا يدرى أنه من الشرك الذى يوجبُ النار.

وفيه: أنه دخل النار بسببٍ لم يقصده ابتداءً، وإنما فعله تخلُّصاً من شر أهل الصنم.

وفيه: أنَّ ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك، وإلا فلو لم يكن مُسلماً لم يقل: دخل النار فى ذُباب.

وفيه: أنَّ عمل القلب هو المقصودُ الأعظم، حتى عند عبَدَة الأوثان. ذكره المصنفُ بمعناه[1].

قوله: «وقالوا للآخر: قرِّب. قال: ما كنتُ لأقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل» ففيه: بيانُ فضيلة التوحيد والإِخلاص، والصلابة فى الدين.

وفيه: معنى قوله فى الحديث: «وأنْ يكره أنْ يعود فى الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه، كما يكره أنْ يُقذف فى النار»[2] [3].

قال المُصنِّف: وفيه: معرفةُ قدر الشرك فى قلوب المؤمنين، كيف صبر على القتل ولم يوافقهم، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر[4].

---

(١) المسائل: التاسعة، والحادية عشرة، والثالثة عشرة.

(٢) ما بينهما ساقطٌ من (هـ) و(ط) ومعلَّق فى هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٣) قطعةٌ من حديث: أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٣) من حديث أنس.

(٤) المسألة العاشرة.

(١٠)

بـــاب

لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله.

ش: لا: نافية، ويَحتمل أنها للنهى، وهو أظهر.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿**لا تَقُمْ فيه أبَداً، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِن أوَّل يَوْمٍ أحَقُّ أنْ تَقُومَ فِيه، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُوا والله يُحِبُّ المُطَّهِّرِين**﴾ [التوبة: ١٠٨].

ش: قال المُفسِّرون: إنَّ الله تعالى نهى رسولَه ﷺ عن الصلاة فى مسجد الضرار، والأمةُ تبعٌ له فى ذلك.

ثم إنه تعالى حَثَّه على الصلاة فى مسجد قُباء، الذى أُسِّس من أوَّل يوم بُنى على التقوى، وهى طاعةُ الله ورسوله ﷺ، وجمعاً لكلمة المؤمنين، ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «صلاةٌ فى مسجد قُباء كعمرة»(١). وفى الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ/ كان [٤٨/ب] يزور قُباء راكباً وماشياً(٢).

وقد صرَّح أنَّ المسجد المذكور فى الآية هو مسجدُ قُباء جماعةٌ من السلف، منهم: ابنُ عباس. وعُروة، وعطية، والشَّعبى، والحسن وغيرهم.

---

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٢٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة فى «السنن» رقم (١٤١١)، وقال المنذرى فى «الترغيب» (٢/ ٢١٧): حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١١٩١، ١١٩٣، ١١٩٤، ٧٣٢٦)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٣٩٩) من حديث ابن عمر.

قلتُ: ويؤيدُه، قوله: ﴿فيه رجَالٌ يُحبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ الآية. وقيل: هو مسجدُ رسول الله ﷺ؛ لحديث أبى سعيد، قال: تمارى رجلان فى المسجد الذى أُسِّس على التقوى من أوَّل يوم، فقال رجل: هو مسجد قُباء، وقال الآخر: هو مسجدُ رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «هو مسجدى هذا» رواه مسلم[1]. وهو قولُ عمر، وابنه، وزيد بن ثابت، وغيرهم.

وقال ابنُ كثير: وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجدُ قباء قد أُسِّس على التقوى من أوَّل يوم، فمسجدُ رسول الله ﷺ بطريق الأولى[2]. وهذا بخلاف مسجد الضّرار الذى أُسس على معصية الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

فلهذه الأمور، نهى الله نبيَّه ﷺ عن القيام فيه للصلاة. وكان الذين بنوه جاؤوا إلى النبى ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك، فسألوه أنْ يُصلى فيه، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة فى الليلة الشاتية. فقال: «إنَّا على سفَر، ولكن إذا رجعنا إنْ شاء الله» فلمَّا قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلا يومٌ أو بعضه نزل الوحْى بخبر المسجد، فبعث إليه، فهدمه قبل قدومه إلى المدينة[3].

ووجهُ مناسبة الآية للترجمة: أنَّ المواضع المعدَّة للذبح لغير الله يجب اجتنابُ الذبح فيها لله؛ كما أنَّ هذا المسجد لمَّا أُعد للمعصية صار محلَّ غضبٍ لأجل ذلك، فلا تجوز الصلاةُ فيه لله. وهذا قياسٌ صحيح، ويؤيده حديث ثابت بن/ الضحاك الآتى. [٤٩/أ]

قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ روى الإمام أحمد، وابنُ خزيمة، وغيرُهما، عن عُويم بن ساعدة الأنصارى: أنَّ النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قُباء،

---

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٣٩٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥٢).

(٣) أخرجه ابنُ اسحاق فى «المغازى» كما فى «الدلائل» للبيهقى (٥/ ٢٥٩) وابن مردوية كما فى «الدر» (٣/ ٢٧٦).

فقال: «إنَّ الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور فى قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟» فقالوا: يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أنه كان لنا جيرانٌ من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغلسنا كما غسلوا[1]. وفى رواية عن جابر، وأنس، «هو ذاك فعليكموه» رواه ابنُ ماجه، وابن أبى حاتم، والدارقطنى، والحاكم[2].

قوله: ﴿والله يُحبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ قال أبو العالية: إنَّ الطهور بالماء لحسن، ولكنَّهم المتطهرون من الذنوب. وفيه: إثباتُ صفةِ المحبة، خلافاً للأشاعرة ونحوهم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن ثابتِ بن الضَّحاك، قال: نذر رجلٌ أنْ ينحر إبلاً ببُوانة، فسأل النبى ﷺ، فقال: «هل كان فيها وَثَنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قالوا: لا. فقال رسولُ الله ﷺ: «أوْفِ بنذرِك، فإنه لا وفاء لنذرٍ فى معصية الله، ولا فيما لا يملك ابنُ آدم». رواه أبو داود[3]، وإسنادُه على شرطهما.

ش: قوله: (عن ثابت بن الضحاك). أى: ابن خليفة الأشهَلى، صحابىٌّ مشهور. روى عنه أبو قِلابة وغيره، مات سنة أربعٍ وستين.

قوله: (ببوانة». بضم الباء، وقيل: بفتحها. قال البغوى: موضعٌ فى أسفل مكة، دون يَلَمْلَم. قال أبو السعادات: هضبةٌ من وراء يَنْبُع.

قوله: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟» فيه: المنعُ من الوفاء بالنذر إذا كان فى المكان وثن، ولو بعد زواله. قاله المصنف رحمه الله[4].

قوله: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟» قال شيخُ الإسلام: العيد: اسمٌ لما يعود ـ من الاجتماع العامِّ ـ على وجهٍ مُعتاد، عائدٌ: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، والشهر ونحو ذلك.

---

(١) أحمد فى «المسند» (٣/ ٤٢٢) واللفظ له، وابن خزيمة فى «الصحيح» رقم (٨٣).

(٢) ابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٥٥) وابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر» (٣/ ٢٧٨) والدارقطنى فى «السنن» (١/ ٦٢) والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٣٣٤).

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٣١٣)، قال شيخ الإسلام فى «الاقتضاء» (١/ ٤٣٦) إسنادُه على شرط الصحيحين.

(٤) المسألة السادسة.

والمراد به هُنا: الاجتماع المعتاد، من اجتماع أهل الجاهلية. فالعيدُ يجمع أموراً منها: يومٌ عائد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماعٌ فيه، ومنها: أعمالٌ تتبع ذلك، من العبادات والعادات. وقد يختصُّ العيد بمكان بعينه/ ، وقد يكون [٤٩/ب] مطلقاً. وكلٌّ من هذه الأمور قد يُسمَّى عيداً. فالزمان، كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «إنَّ هذا يومٌ جعله الله للمسلمين عيداً»[١]. والاجتماعُ والأعمال، كقول ابن عباس: شهدتُ العيد مع رسول الله ﷺ[٢].

والمكان، كقوله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً»[٣] وقد يكون لفظُ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه، وهو الغالب؛ كقول النبي ﷺ: «دعهما يا أبا بكر؛ فإنَّ لكل قوم عيداً»[٤]. انتهى[٥].

قال المُصنِّفُ: وفيه: استفصالُ المفتي، والمنعُ من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية، ولو بعد زواله[٦].

قلتُ: وفيه سدُّ الذريعة، وتركُ مشابهة المشركين، والمنعُ مما هو وسيلة إلى ذلك.

قوله: «أوف بنذرك» هذا يدلُّ على أنَّ الذبح لله في المكان الذي يَذبح فيه المشركون لغيره، أو في محل أعيادهم، معصية؛ لأن قوله: «فأوف بنذرك»[٧] تعقيبٌ للوصف بالحكم بالفاء، وذلك يدل على أنَّ الوصف سببُ الحكم، فيكون سببُ الأمر بالوفاء خلُّوه عن هذيْن الوصفين.

---

(١) أخرجه ابن ماجة في «السنن» رقم (١٠٩٨)، قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٦٧): فيه صالح ابن أبي الأخضر، ليِّنة الجمهور، وباقي رجال الاسناد ثقات.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٩٧٧، ٥٤٩٩).

(٣) أخرجه أبو يعلى في «المسند» رقم (٤٦٩) من حديث علي. وسيأتي بقية تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٩٥٢، ٩٨٧، ٣٥٢٩، ٣٩٣١) ومسلم في «الصحيح» رقم (٨٩٢) من حديث عائشة.

(٥) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٤١).

(٦) المسألتان: الرابعة، والسابعة.

(٧) من حديث كردم الثقفي.

فلما قالوا: لا. قال: «فأوف بنذرك» وهذا يقتضى أنَّ كون البقعة مكاناً لعيدهم، أو بها وثنٌ من أوثانهم: مانعٌ من الذبح بها، ولو نذره. قاله شيخُ الإِسلام[1].

قوله: «فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله» دليلٌ على أنَّ هذا نذرُ معصيةٍ، لو قد وجد فى المكان بعضُ الموانع. وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به، بإجماع العلماء.

واختلفوا: هل تجب فيه كفارةُ يمين؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد.

أحدُهما: تجبُ، وهو المذهب. وروى عن ابن مسعود، وابن عباس. وبه قال أبو حنيفة، وأصحابهُ؛ لحديث عائشة مرفوعاً: «لا نذر فى معصية، وكفارته كفارةُ يمين» رواه أحمد، وأهل السنن[2]. واحتج به أحمدُ، وإسحاق[3].

الثانى: لا كفارة عليه. روى ذلك عن مسروق، والشعبى، والشافعى؛ لحديث الباب، ولم يذكر/ فيه كفارة. وجوابُه: أنه ذكر الكفارةَ فى الحديث المتقدم، [٥٠/أ] والمطلقُ يُحمل على المقيَّد.

قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم» فى (شرح المصابيح): يعنى إذا أضاف النذرَ إلى معيَّنٍ لا يملكه، بأنْ قال: إنْ شفى الله مريضى، فلله علىَّ أنْ أُعتق عبدَ فلان، ونحو ذلك. فأمَّا إذا التزم فى الذِّمة شيئاً؛ بأن قال: إنْ شفى الله مريضى فلله علىَّ أنْ أُعتق رقبة، وهو فى تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإذا شفى الله مريضَه ثبت ذلك فى ذمته.

---

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٤١)

(٢) أحمد فى «المسند» (٦/ ٢٤٧)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٢٩٠، ٣٢٩١)، والترمذى فى «الجامع» رقم (١٥٢٤) وقال: هذا حديث لا يصح؛ لأن الزهرى لم يسمع هذا الحديث من أبى سلمة، ورقم (١٥٢٥) وقال: هذا حديثٌ غريب وهو أصح. وله شاهدٌ من حديث ابن عباس: أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٣٣٢٢) قال ابن حجر فى «التلخيص» (٤/ ١٨٦): حديث حسن.

(٣) «الجامع» للترمذى (٥/ ٢٤٣).

قوله: (رواه أبو داود، وإسنادُه على شرطهما) ـ أي: البخاري ومسلم.

وأبو داود: اسمُه سُليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شدَّاد الأزدي السجستاني، صاحبُ الإِمام أحمد، ومصنف (السنن)[1] و(المراسيل)[2] وغيرهما، ثقةٌ إمام حافظ، من كبار العلماء، مات سنة خمسٍ وسبعين ومائتين.

(١) مطبوع، برواية اللؤلؤي.

(٢) مطبوع محقق، برواية اللؤلؤي أيضاً.

(١١)

بـــاب

مــن الشــرك النذر لغيــر الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ: من الشرك النذرُ لغير الله.

ش: أي: لكونه عبادةً يجب الوفاء به إذا نذره الله، فيكون النذر لغير الله شركاً في العبادة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿**يُوفُونَ بالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كان شرُّهُ مستطيراً**﴾ [الإنسان: ٧].

ش: فالآية دلَّت على وجوب الوفاء بالنذر، ومدح من فعل ذلك طاعةً لله، ووفاءً بما تقرب به إليه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِن نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِن نَذْرٍ فَإِنَّ الله يَعْلَمُهُ**﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ش: قال ابنُ كثير: يخبر تعالى بأنه عالمٌ بجميع ما يعمله العاملون [من الخيرات](١)، من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاتُه على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه(٢).

إذا علمت ذلك: فهذه النذورُ الواقعة من عُبَّاد القبور، تقرُّباً بها إليهم، ليقضوا لهم حوائجهم أو ليشفعوا لهم، هذا شركٌ في العبادة بلا ريب؛ كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ من الحرْثِ والأنعامِ نَصيباً فَقَالوا هذا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا**

---

(١) إضافة من (ط) و«التفسير».

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٧٢).

لشُرَكائنَا فَما كَانَ لشُرَكَائهم فَلاَ يَصلُ إلى الله وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصلُ إلى شُرَكَائهِم سَاءَ مَا يَحكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قال شيخُ الإسلام: وأمَّا ما نُذر لغير الله، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أنْ يحلف بغير الله من المخلوقات/ . والحالفُ [٥٠/ب] بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفَّارة، وكذلك الناذر للمخلوقات، فإنَّ كلاهما شرك.

ليس له حُرمة. بل عليه أنْ يستغفر الله من هذا، ويقول ما قال النبي ﷺ: «من حلف باللات والعُزَّى، فليقل: لا إله إلا الله»[1].

وقال فيمن نذر للقبور ونحوها دُهْناً لتُنَوَّر به - ويقول: إنها تقبل النذر كما يقوله بعضُ الضالين -: وهذا النذر معصيةٌ باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً للسَّدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البُقعة، فإنَّ فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة. يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدُّون عن سبيل الله.

والمجاورون هناك فيهم شبهٌ من الذين قال فيهم الخليلُ عليه السلام: ﴿ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون؟﴾ [الأنبياء: ٥٢]، والذين اجتاز بهم موسى وقومه؛ قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا ببني إسرائيل البَحْرَ فأتَوْا على قومٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أصنامٍ لَهُم﴾. [الأعراف: ١٣٨].

فالنذرُ لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذرُ معصية. وفيه شبهٌ من النذر لسدنة الصُّلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد[2] التي في الهند والمجاورين عندها.

وقال الأذرُعي[3] في (شرح المنهاج): وأمَّا النذرُ للمشاهد التي على قبر وليّ أو شيخ، أو على اسم من حلّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦٦٥٠)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٦٤٧).

(٢) الأبداد: جمع بُد، وهو الصنم.

(٣) أبو العباس، أحمد بن حمدان بن أحمد بن عبد الوهاب، فقيهٌ شافعي (ت ٧٨٣هـ). «الدرر الكامنة» (١/ ١٢٥).

والصالحين: فإنْ قصد الناذر بذلك ـ وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة ـ تعظيمَ البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيمَ من دُفن بها، أو نُسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطلٌ غيرُ منعقد. فإنَّ معتقدهم أنَّ لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع به البلاء ويُستجلب به النعماء، ويُستشفى بالنذر لها من الأدواء. حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار؛ لَمَّا قيل: إنه استند إليها عبدٌ صالح، وينذرون لبعض القبور: السُرُجَ والشموع، والزيت/. [٥١/أ]

ويقولون: القبرُ الفلانى، أو المكان الفلانى يقبلُ النذر، يعنون بذلك: أنه يحصل [به][١] الغرض المأمول: من شفاء مريض، أو قدوم غائب وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة. فهذا النذر على هذا الوجه باطلٌ لا شك فيه، بل نذرُ الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطلٌ مطلقاً.

ومن ذلك: نذرُ الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء. فإنَّ الناذر لا يقصد بذلك إلا الإِيقاد على القبر تبرُّكاً وتعظيماً، ظاناً أنَّ ذلك قربة. فهذا مما لا ريب فى بُطلانه، والإِيقادُ المذكور محرَّم، سواء انتفع به هناك منتفعٌ أم لا.

وقال الشيخ قاسمُ الحنفى فى (شرح دُرر البحار)[٢]: النذرُ الذى ينذره أكثرُ العوام على ما هو مشاهدٌ: كأن يكون لإِنسان غائبٌ أو مريض، أو له حاجة، فيأتى إلى [قبر][٣] بعض الصُّلحاء ويجعل على رأسه سُترة، ويقول: يا سيدى فلان!، إنْ ردَّ الله غائبى، أو عُوفى مريضى، أو قضيت حاجتى، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا.

فهذا النذرُ باطلٌ بالاجماع؛ لوجوه:

---

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) القاسم بن قطلوبغا بن عبد الله المصرى، فقيه حنفى ت (٨٧٩)، له «شرح درر البحار» ليوسف القونوى (ت ٧٨٨) فى الفروع. «هدية العارفين» (١/ ٨٣٠).

(٣) إضافة من «الانتصار لحزب الله» (٧٥).

منها: أنه نذرٌ لمخلوق، والنذرُ للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أنَّ المنذور له ميتٌ، والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أنَّ الميت يتصرفُ في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر.

إلى أنْ قال: إذا علمت هذا، فما يُؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ويُنقل إلى ضرائح الأولياء، تقرّباً إليهم: فحرامٌ بإجماع المسلمين.

نقله عنه ابنُ نجيمٍ[1] في (البحر الرائق)[2]. ونقله المُرشديُّ في (تذكرته)، وغيرُهما عنه، وزاد: وقد ابتلى الناس بهذا، لا سيَّما في مولد البدوي[3].

وقال الشيخ صُنع الله الحلبي الحنفي[4] - في الرَّد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء -: فهذا الذبح والنذر إنْ كان على اسم فلان، فهو لغير الله، فيكون باطلاً؛ وفي التنزيل: ﴿وَلاَ تأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذكرِ اسمُ الله عَلَيْه﴾ [الأنعام: ١٢١]، [٥١/ب] ﴿قُلْ إنَّ صَلاتي/ وَنُسُكي ومَحْيَاي وَمَمَاتي لله رَبِّ العالمينَ * لا شريكَ لهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]. والنذرُ لغير الله إشراكٌ مع الله، كالذبح لغيره[5].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي الصحيح، عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن نذر أنْ يُطيع الله فليُطعه، ومن نذر أنْ يَعصي الله فلا يعصه»[6].

ش: قوله: في (الصحيح). أي: (صحيحُ البخاري).

قوله: (عن عائشة): هي أم المؤمنين، زوجُ النبي ﷺ، وابنة الصديق رضي الله عنهما. تزوَّجها النبي ﷺ وهي ابنةُ سبع سنين، ودخل بها وهي ابنةُ تسع.

---

(١) زين الدين بن إبراهيم بن محمد، فقيهٌ حنفي (ت ٩٧٠هـ) «شذرات الذهب» (٨/ ٣٥٨).

(٢) ابن نُجيم، «البحر الرائق شرح كنز الدقائق» (٢/ ٣٢٠ - ٣٢١».

(٣) أبو العباس، أحمد بن علي البري البدوي، ولد عام ٥٩٦ وهلك، سنة ٦٧٥، من مجاذيب الصوفية، لاعلم ولا دين، له قبر في طندتا (طنطا) يطاف به ويذبح له ويقيم فيه المولد كل عام، نعوذ بالله من الخذلان.

ينظر «شذرات الذهب» (٥/ ٣٤٥).

(٤) ابن صنع الله المكي، الواعظ بها (ت ١١٢٠هـ) «هدية العارفين» (١/ ٤٢٨) «وإيضاح المكنون» (٢/ ٣٥).

(٥) «سيفُ الله على من كذب على أولياء الله» للشيخ صنع الله الحلبي، ورقة (١١).

(٦) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦٦٩٦، ٦٧٠٠)

وهى أفقهُ النساء مطلقاً، وأفضل أزواج النبى ﷺ إلا خديجة، ففيها خلاف. ماتت سنة سبعٍ وخمسين، على الصحيح.

قوله: «من نذر أنْ يطيع الله فليطعه» أى: فليفعل ما نذره من طاعة الله، وقد أجمع العلماءُ على أنَّ من نذر طاعةً بشرط يرجوه، كإنْ شفى الله مريضى فعلى أنْ أتصدَّق بكذا، ونحو ذلك وجب عليه، إنْ حصل على ما علَّق نذرهُ على حصوله[1].

وحُكى عن أبى حنيفة: أنَّه لا يلزمه الوفاء إلا بما جنسُه واجبٌ بأصل الشرع، كالصوم. وأمَّا ما ليس كذلك، كالاعتكاف فلا يوجب عليه الوفاء به.

قوله: «ومن نذر أنْ يعصى الله فلا يعصه» زاد الطحاوى «وليكفِّر عن يمينه»[2] وقد أجمع العلماء: أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

قال الحافظ: اتفقوا على تحريم النذر فى المعصية، وتنازعوا: هل ينعقدُ موجباً للكفارة، أم لا؟[3]، وتقدم.

وقد يُستدل بالحديث على صحة النذر فى المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره، يؤيده: ما رواه أبو داود - عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده - وأحمد، والترمذى، عن بُريدة: أنَّ امرأة قالت: يا رسول الله، إنى نذرتُ أنْ أضرب على رأسك بالدُّف، فقال: «أوفى بنذرك»[4].

وأمَّا نذرُ اللَّجاج والغضب: فهو يمينٌ عند أحمد، فيخيَّرُ بين فعله وكفارة يمين؛ لحديث عمران بن حُصين مرفوعاً: «لا نذر فى غضب، وكفارته كفارة يمين». رواه سعيد [ابن منصور][5]، وأحمد، والنسائى[6]. فإن نذر مكروهاً كالطلاق/ استحب أنْ يكفِّر، ولا يفعله. [٥٢/أ]

---

(١) الأصل و(ض) و(هـ) بزيادة وهو قول جمهور العلماء.

(٢) الطحاوى فى «مشكل الآثار» (٣/ ٤٣).

(٣) ابن حجر، «فتح البارى» (١١/ ٥٨٧).

(٤) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٣١٢) وأحمد فى «المسند» (٥/ ٣٥٣، ٣٥٦) «والفضائل» رقم (٤٨٠) والترمذى فى «الجامع» (٣٦٩١) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٥) إضافة من (هـ) و(ط).

(٦) أحمد فى «المسند» (٤/٤٣٣، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٣)، والنسائى فى «المجتبى» (٧/٢٨، ٢٩).

(١٢)

بـــاب
مـــن الشـــرك الاستعاذة بغيـــر الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك الاستعاذة بغير الله.

ش: الاستعاذة: الالتجاءُ والاعتصام؛ ولهذا يُسمَّى المستعاذُ به: مَعاذاً وملجأ. فالعائذُ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يُهلكه، إلى ربه ومالكه، واعتصم به واستجار، والتجأ إليه. وهذا تمثيل، وإلا فيما يقومُ بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والاطراح بين يدى الرب، والافتقار إليه، والتذلل [له][1]، أمرٌ لا تحيط به العبارة. قاله ابنُ القيم رحمه الله[2].

وقال ابنُ كثير: الاستعاذة: هى الالتجاء إلى الله، والالتصاقُ بجنابه من شرِّ كلِّ ذى شر. والعياذُ يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير. انتهى[3].

قلتُ: وهى من العبادات التى أمر الله تعالى عباده بها، كما قال تعالى: **﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نزغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هو السميعُ العليمُ﴾** [فصلت: ٣٦] وأمثالُ ذلك فى القرآن كثير، كقوله: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾**، **﴿قُل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾** فما كان عبادة لله فصرفُه لغير الله شرك.

فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله فقد جعله لله شريكاً فى عبادته، ونازع الرب فى إلهيته؛ كما أنَّ من صلَّى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله، ولا فرق، كما سيأتى تقريره قريباً إن شاء الله.

---

(١) إضافةٌ من (هـ) و(ط).

(٢) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٣).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾. [الجن: ٦].

ش: قال ابنُ كثير: [أى][1]: كما نرى أنَّ لنا فضلاً على الإِنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا. أى: [إذا] نزلوا وادياً أو مكانا مُوحشاً ـ كما كانت عادةُ العربى فى جاهليتها ـ [يعوذون] بعظيم ذلك المكان من الجان أنْ يصيبهم شىءٌ بسوء.

[2]وذلك أنَّ الرجل من العربى كان إذا أمسى بوادٍ قفر، وخاف على نفسه، قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سُفهاء قومه. يريدُ كبيرَ الجن[2]!!.

قال مجاهد: كانوا إذا هبطوا وادياً يقولون: نعوذ بعظيم هذا الوادى. ﴿فزادوهم رهقاً﴾. قال: زادوا الكفار طغياناً. رواه عبدُ بن حميد، وابنُ المنذر[3] [4].

وقال ابنُ كثير: لما رأت الجنُ أنَّ الإِنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً. أى: خوفاً وإرهاباً وذعراً؛ حتى يبقوا أشد منهم مخافة، وأكثر تعوذاً بهم. [5]كما قال السُّدى:[6] كان الرجلُ يخرج بأهله، فيأتى الأرض فينزلها، فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن، أن أُضرَّ فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى. [٥٢/ب] قال:/ فإذا عاذ بهم من دون الله، رهقَتهم الجنُّ الأذى عند ذلك.

وذكر عن ابن أبى حاتم ـ بسندٍ إلى عكرمة ـ نحو ذلك[5]. انتهى[7].

وقد أجمع العلماءُ: على أنَّه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال مُلا على قارى الحنفى[8]: لا تجوز الاستعاذةُ بالجن، فقد ذمَّ الله الكافرين

---

(١) إضافةٌ من (هـ) و(ط) و«التفسير».

(٢) ما بينهما فى (هـ) و(ط) بعد قوله: لما رأت الجن.

(٣) هذا الأثر ساقطٌ من (هـ) و(ط).

(٤) عبد بن حميد، وابن المنذر فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٢).

(٥) ما بينها. ساقطٌ من (هـ) و(ط).

(٦) الأصل و(ض) و(م): قتادة والمثبت من «التفسير».

(٧) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢٦).

(٨) أبو الحسن، على بن سُلطان محمد القارى الهروى، فقيهٌ حنفى (ت ١٠١٤هـ) «البدر الطالع» (١/ ٤٤٥).

على ذلك ـ وذكر الآية ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ استَكْثَرْتُم مِنَ الإِنسِ وقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُم خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَآءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. [الأنعام: ١٢٨].

فاستمتاعُ الإِنسي بالجني: في قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، وإخباره بشيءٍ من المغيَّبات. واستمتاع الجنيِّ بالإِنسي: تعظيمُه إياه، واستعاذته به وخضوعه له. انتهى ملخصاً.

قال المصنف: وفيه: أنَّ كون الشيْ يحصل به منفعةٌ دنيوية، لا يدلُّ على أنه ليس من الشرك[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن خولةَ بنت حكيم، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن نزل منزلاً، فقال: أعوذُ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ما خلق: لم يضرُّه شيءٌ حتى يرحل من منزله ذلك» رواه مسلم[2].

ش: هي خولةُ بنتُ حكيم بن أمية السُّلمية، يقال لها: أم شَريك، ويقال: إنها هي الواهبة، وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مَظْعون.

قال ابنُ عبد البر: وكانت صالحةً فاضلة.

قوله: «أعوذُ بكلمات الله التامات» شرع الله لأهل الإِسلام أنْ يستعيذوا به، بدلاً عما يفعلُه أهلُ الجاهلية من الاستعاذة بالجن. فشرع الله للمسلمين أن يتعوَّذوا بأسمائه وصفاته.

قال القُرطبي: قيل: معناه: الكاملات التي لا يلحقها نقصٌ ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه: الشافيةُ الكافية. وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فإنَّ الله أخبر عنه بأنه ﴿هُدى وَشِفَاءٌ﴾. [فصلت: ٤٤] وهذا الأمر على جهة الإِرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

ولَمَّا كان ذلك استعاذةً بصفات الله تعالى، كان من باب المندوب إليه المرغَّب

---

(١) المسألة الخامسة.

(٢) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٧٠٨).

فيه. وعلى هذا، فحقٌّ المستعيذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته: أنْ يَصدق الله فى التجائه إليه، وتوكل فى ذلك عليه، ويُحضر ذلك فى قلبه. فمتى فعل ذلك،/ [٥٣/أ] وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.

قال شيخُ الإِسلام: وقد نصَّ الأئمةُ ـ كأحمد وغيره ـ على أنَّه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما استدلُّوا به على أنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوق، قالوا: لأنه ثبت عن النبى ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماءُ عن التعازيم والتعاويذ التى لا يُعرف معناها، خشية أنْ يكون فيها شرك[1].

وقال ابنُ القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرَّب إليه بما يُحب فقد عبده، وإنْ لم يسمِّ ذلك عبادة ويسميه استخداماً. وصَدَقَ، هو استخدامٌ من الشيطان له، فيصيرُ من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان. لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة؛ فإنَّ الشيطان لا يخضعُ له، ولا يعبده كما يفعل هو به[2].

قوله: «من شر ما خلق» قال ابنُ القيم: أى: من كلِّ شرٍ، فى أىِّ مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسياً كان أو جنياً، أو هامَّة أو دابة، أو ريحاً، أو صاعقة. أى نوعٍ كان من أنواع البلاء، فى الدنيا والآخرة[3].

وما: ها هنا موصولة، ليس إلا. وليس المرادُ بها العمومَ الاطلاقى، بل المراد التقييد الوصفى، والمعنى: من شر [كلِّ مخلوقٍ فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله، فإنَّ الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر][4] والشرُّ يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يُفضى إليه.

قوله: «لم يضرُّه شىءٌ حتى يرحل من منزله ذلك» قال القرطبى: هذا خبرٌ صحيح وقول صادق، علمنا صدقه؛ دليلاً وتجربة!

---

(١) ابن تيمية: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٦).

(٢) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٥).

(٣) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢١٥).

(٤) ما بينهما ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر.

فإنى منذُ سمعتُ هذا الخبر عملت عليه، فلم يضرُّنى شىءٌ إلى أنْ تركته، فلدغتنى عقربٌ بالمهدية[1] ليلاً. فتفكَّرتُ فى نفسى، فإذا بى قد نسيتُ أنْ أتعوَّذ بتلك الكلمات.

(١) المهدية: مدينةٌ عامرة ببلاد الأندلس السليب.

(١٣)

بـــاب
من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك أنْ يَستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

ش: قال شيخُ الإسلام: الاستغاثة: هى طلبُ الغَوث، وهو إزالة الشِّدة؛ كالاستنصار: طلبُ النصر. والاستعانة: طلب العون.

وقال غيره: الفرقُ بين الاستغاثة والدعاء: أنَّ الاستغاثة/ لا تكون إلا من المكروب، والدعاءُ أعمُّ من الاستغاثة؛ لأنه يكون من المكروب وغيره. فعطفُ [٥٣/ب] الدعاء على الاستغاثة، من عطف العامِّ على الخاص.

فبينهما عمومٌ وخصوص مُطلق؛ يجتمعان فى مادةٍ، وينفردُ الدعاء عنها فى مادة. فكلُّ استغاثة دُعاء، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثة.

وقوله: (أو يدعو غيره) اعلم أنَّ الدعاء نوعان: دعاءُ عبادة، ودعاءُ مسألة. ويُراد به فى القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويُراد به مجموعهما.

فدعاءُ المسألـة: هو طلـبُ ما ينفـع الداعـى، من جلب نفعٍ أو كشف ضر ولهـذا أنكـر الله علـى مـن يدعـو أحـداً من دونـه، ممن لا يملـك ضـراً ولا نفعـاً؛ كقوله: ﴿قُل أتعبُدُون من دُون الله مَا لاَ يَملكُ لَكُمْ ضَراً ولا نَفعاً والله هُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾. [المائدة: ٧٦]، وقوله: ﴿قُل أنَدعُوا من دُون الله مَا لاَ يَنفَعُنا ولاَ يَضرنّا ونُرَدُّ عَلَى أعقابنَا بَعدَ إذ هَدَانَا الله كالَّذى استَهوَتهُ الشَّيَاطينُ فى الأرضِ حيرَانَ لَهُ أصحَابٌ يَدعُونَهُ إلى الهُدَى ائتنا قُل إنَّ هُدَى الله هُو الهدى وأُمِرنَا لِنُسلم لربِّ العَالَمين﴾. [الأنعام: ٧١].

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٣).

وقال: ﴿وَلاَ تَدعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفعُكَ وَلاَ يَضرُك فإن فَعلتَ فَإنَّكَ إذاً منَ الظَّالمين﴾. [يونس: ١٠٦].

قال شيخُ الإسلام: فكلُّ دعاءِ عبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة، وكلُّ دعاء مسألة متضمنٌ لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿أُدعوا ربَّكم تضرُّعاً وَخُفيةً إنَّهُ لا يُحبُّ المُعتدين﴾. [الأعراف: ٥٥]، وقال ﴿قُل أرَأيتكُم إن أتَاكُم عَذَابُ الله أوْ أتَتكُمْ السَّاعَةُ أغَيرَ الله تَدعُونَ إن كُنتُم صَادقين * بَل إيَّاهُ تَدعُونَ فَيَكشفُ مَا تَدعُونَ إلَيه إن شَاءَ وَتَنسَونَ مَا تُشركُونَ﴾. [الأنعام: ٤٠ - ٤١]، وقال: ﴿وأنَّ المَساجدَ لله فَلا تَدعُوا مَعَ الله أحداً﴾. [الجن: ١٨]، وقال: ﴿لَهُ دَعوةُ الحَقِّ وَالَّذين يَدعُون من دُونه لاَ يَستَجيبُونَ لَهُم بشيءٍ إلا كبَاسط كَفَّيه إلَى الماء ليَبلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ ببَالغه وَمَا دُعَاءُ الكَافرينَ إلا في ضَلاَلٍ﴾. [الرعد: ١٤]. وأمثالُ هذا في القرآن ـ في دعاء المسألة ـ أكثر من أنْ يُحصر، وهو يتضمَّن دعاء العبادة؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكر لله. والتالي لكتابه ونحوه، طالبٌ من الله في المعنى، فيكون داعياً عابداً[١].

فتبيَّن بهذا قول شيخ الإسلام: أنَّ دعاء العبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة، كما أنَّ دعاء المسألة متضمن/ لدعاء العبادة. [٥٤/أ]

وقد قال تعالى عن خليله: ﴿وأعتَزلُكُم وَمَا تَدعُونَ من دُون الله وأدعُو ربِّي عَسَى ألا أكُون بدُعَاء ربِّي شَقياً * فَلَمَّا اعتَزلَهُم وَمَا يَعبُدُونَ من دُون الله وَهَبنَا لَهُ إسحاق ويعقوب وكُلا جَعَلنَا نَبيَّاً﴾. [مريم: ٤٨ - ٤٩]. فصار الدعاءُ من أنواع العبادة؛ فإنَّ قوله: ﴿وأَدعُو ربِّي عَسَى ألا أكُون بدعَاء ربِّي شقياً﴾ كقول زكريا: ﴿رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظمُ منِّي واشتَعَلَ الرَّأسُ شَيبَاً وَلَم أكُن بدُعَائك رَبِّ شَقياً﴾. [مريم: ٤].

وقد أمر الله تعالى [به][٢] في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿أُدعُوا ربَّكُم تَضَرُّعاً

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٠).

(٢) ساقط من الأصل.

وخُفيَةً، إنَّهُ لاَ يحُبُّ المُعتَدينَ * ولاَ تُفسدُوا فى الأرضِ بَعدَ إصلاَحِها وادعوهُ خَوفاً وَطَمَعاً إنَّ رَحمَةَ الله قَرِيبٌ منَ المُحسنِينَ﴾. [الأعراف: ٥٥ - ٥٦] وهذا هو دعاءُ المسألة المتضمن للعبادة، فإنَّ الداعى يرغبُ إلى المدعو، ويخضع له ويتذلل، وغير ذلك.

وضابطُ هذا: أنَّ كل أمرٍ شرعه الله لعباده وأمرهم به، ففعلُه لله عبادة. فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشركٌ، مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله: ﴿قُلِ الله أَعبُدُ مُخلِصاً لَهُ دِينِى﴾. [الزُّمر: ١٤] وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قال شيخُ الإسلام فى (الرسالة السَّنية): فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ - ممن انتسب إلى الإسلام - مَن مرق منه مع عبادته العظيمة، فليُعلم أنَّ المنتسب إلى الإسلام والسنة فى هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام؛ لأسباب، منها: الغلو فى بعضِ المشايخ، بل الغلو فى على بن أبى طالب، بل الغلو فى المسيح عليه السلام.

فكلُّ من غلا فى نبى أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أنْ يقول: ياسيدى فلان انصُرنى، أو أغثنى أو ارزقنى، وأنا فى حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكلُّ هذا شركٌ وضلال، يُستتاب صاحبه، فإنْ تاب وإلا قُتل.

فإنَّ الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل، وأنزل الكُتب، ليُعبد وحده لا شريك له، ولا يُدعَى معه إلهٌ آخر. والذين يدعون مع الله آلهةً أُخرى، مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلُق الخلائق/ أو تُنزل المطر، أو تنبت النبات. وإنما كانوا يَعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿مَا نَعبُدُهُم إلا ليقرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى﴾. [الزمر: ٣]، ﴿ويَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله﴾. [يونس: ١٨]. فبعث الله سبحانه رسله: تنهى أنْ يُدعَى أحدٌ من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استعانة. انتهى[1].

[٥٤/ب]

---

(١) ابن تيمية، «الوصية الكبرى» (مجموع الفتاوى) (٣ [illegible]، ٣٩٥).

وقال أيضاً: من جعل بينه وبين الله وسائط، يتوكَّلُ عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفرَ إجماعاً.

نقله عنه صاحبُ (الفروع)، وصاحبُ (الإنصاف)[1]، وصاحب (الإقناع)[2]، وغيرهم. وذكره في (مسألة الوسائط)[3]، ونقلتهُ منه في (الرد على ابن جرجيس)[4].

وقال ابنُ القيم رحمه الله: ومن أنواعه ـ أي الشرك ـ طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثةُ بهم والتوجه إليهم. وهذا أصلُ شرك العالم؛ فإنَّ الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده[5]. وسيأتي تتمةُ كلامه في باب الشفاعة إنْ شاء الله تعالى.

وقال الحافظُ محمد بن عبد الهادي[6]، في (ردِّه على السبكي) في قوله: إنَّ المبالغة في تعظيمه ـ أي: الرسول ﷺ ـ واجبة:

إنْ أُريد بها[7] المبالغة بحسب ما يراه كلُّ أحد تعظيماً، حتى الحج إلى قبره، والسجود له والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء.

فدعوى [وجوب][8] المبالغة في هذا التعظيم مبالغةٌ في الشرك، وانسلاخٌ من جُملة الدين[9].

---

(١) محمد بن مُفلح (ت ٧٦٣هـ) «الفروع» (٦/ ١٦٥) علي بن سليمان المرداوي (ت ٨٨٥) «الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف» (١٠/ ٣٢٧).

(٢) موسى الحجاوي (ت٩٦٨هـ) «الاقناع لطالب الانتفاع» (٤/ ٢٩٧).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٤).

(٤) داود بن جرجيس البغدادي ت (١٢٩٩هـ)

(٥) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

(٦) أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عبد الهادي، حافظ، فقيهٌ مجوّد (ت ٧٤٤هـ). «تاريخ ابن رجب» (٢/ ٤٣٦).

(٧) (هـ) (ط): به.

(٨) إضافة من «الصارم».

(٩) ابن عبد الهادي، «الصارم المُنكي في الرد على السبكي» (٤٦٤).

وفى (الفتاوى البَزازية) ـ من كُتب الحنفية[1] ـ : قال عُلماؤنا: من قال: أرواحُ المشايخ حاضرةٌ تعلم: يكفر.

وقال الشيخ صُنع الله الحلبى[2] الحنفى ـ فى كتابه فى الرد على من ادَّعى أنَّ للأولياء تصرفات فى الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة ـ: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين، جماعات يدَّعون أنَّ للأولياء تصرُّفات/ بحياتهم وبعد مماتهم، ويُستغاث بهم فى الشدائد والبليات وبِهِمَمِهم تُكشف المهمات. [٥٥/أ]

فيأتون قبورَهم وينادونهم فى قضاء الحاجات، مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات، وقالوا: منهم أبدالٌ ونُقباء، وأوتادٌ ونُجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطبُ: هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوَّزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور.

قال: وهذا كلامٌ فيه تفريطٌ وإفراط، بل فيه الهلاكُ الأبدى والعذاب السرَّمدى؛ لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومُصادرة الكتاب العزيز المُصدَّق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة، وفى التنزيل: **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسولَ من بَعْدِ مَا تَبين لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِع غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤمِنينَ نُوَلِّه مَا تَوَلَّى وَنُصلِه جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصيراً﴾**. [النساء: ١١٥].

ثم قال: وأمَّا قولهم: إنَّ للأولياء تصرفات فى حياتهم وبعد الممات، فيردُّه قوله تعالى **﴿أإلَهٌ مَعَ الله﴾**. [النحل: ٦١ - ٦٤]، **﴿ألا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ﴾**. [الأعراف: ٥٤]، **﴿لله مُلْكُ السَّمَوات وَالأرْض﴾**. [الشورى: ٤٩]، ونحوه من الآيـات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شىء لغيره فى شيء ما بوجه م الوجوه. فالكلُّ تحت ملكه وقهره: تصرفاً وملكاً، وإحياءً وإماتة وخلقاً.

وتمدح الربُ تبارك وتعالى [بانفراده][3] بملكه فى آيات مـن كتابـه، كقـولـه

(١) تأليف: حافظ الدين، محمد بن محمد بن شهاب الخوارزمى الحنفى، مات بمكة عام ٨٢٧هـ. «الضوء اللامع» (١٠/ ٣٧).

(٢) صنع الله بن صنع الله الحلبى، ثم المكى الحنفى الواعظ بها، له «ارجوزة فى الحديث» و«اكسير النقى» و«سيف الله» فرغ منها سنة ١١١٧هـ. «هدية العارفين» (٥/ ٤٢٨).

(٣) ساقطٌ من الأصل و(ض) و(هـ).

تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾. [فاطر: ٣]، ﴿والَّذين تَدْعُونَ من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دُعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويومَ القيامة يكفُرون بشرككم ولا يُنبِئُك مثلُ خبير﴾. [فاطر: ١٣ - ١٤] وذكر آيات فى هذا المعنى.

ثم قال: فقولُه فى الآيات كلها ﴿من دونه﴾ أى: من غيره، فإنه عامٌّ يدخل فيه من اعتقدته، من ولىّ وشيطان تستمدُّه؛ فإنَّ من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمدُّ غيره؟

إلى أنْ قال: إنَّ هذا القول وخيمٌ، وشرك عظيم. إلى أن قال: وأمَّا القول بالتصرُّف بعد الممات، فهو أشنعُ وأبدع من القول بالتصرف فى الحياة؛ قال جل ذكره: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُم ميِّتُونَ﴾. [الزمر: ٣٠]،/ ﴿الله يَتَوفَّى الأنْفُس حين مَوْتِهَا والَّتِي لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتى قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إلى أجَلٍ مُسَمَّى﴾. [الزمر: ٤٢] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾. [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. [المدثر: ٣٨] وفى الحديث «إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث» الحديث(١).

فجميعُ ذلك، وما هو نحوه: دالٌّ على انقطاع الحِس والحركة من الميت، وأنَّ أرواحهم مُمسكة، وأنَّ أعمالهم منقطعةٌ عن زيادة أو نقصان. فدلَّ ذلك: على أنْ ليس للميت تصرفٌ فى ذاته، فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرَّف فى غيره؟! فالله سبحانه يُخبر أنَّ الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إنَّ الأرواح مطلقة متصرِّفة ﴿قُلْ أأَنْتُم أعْلَمُ أمِ اللهُ﴾. [البقرة: ١٤٠].

وقال: وأمَّا اعتقادُهم أنَّ هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة؛ لأن الكرامة شىءٌ من عند الله يكرم بها أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدِّى، ولا قدرة ولا علم؛ كما فى قصة مريم ابنة عمران،

---

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٣١) من حديث أبى هُريرة.

وأسيد بن حُضير[1]، وأبى مُسلم الخولانى[2].

قال: وأمَّا قولهم: فيستغاثُ بهم فى الشدائد. فهذا أقبحُ مما قبله وأبدع؛ لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أم مَن يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ويَكْشفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأرْضِ أإلهٌ معَ الله﴾. [النمل: ٦٢] ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُماتِ البرِّ وَالبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضرعاً وَخُفْيَةً لئنْ أنْجانَا من هَذه لنكوننَّ منَ الشَاكرينَ * قُلِ الله يُنَجِّيكُم مِنهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُم تُشرِكُونَ﴾. [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] وذكر آياتٍ فى هذا المعنى.

ثم قال: فإنه جل ذكره قرَّر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كلِّه، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير، فهو المنفردُ بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبى وولى.

قال: والاستغاثةُ تجوز فى الأسباب الظاهرة العادية، من الأمور الحسية: فى قتال، أو إدراك عدو أو سبُع أو نحوه، كقولهم: يا لَزَيد، يا لَلمسلمين، بحسب الأسباب[3] الظاهرة بالفعل.

وأمَّا الاستغاثةُ بالقوة والتأثير، أو فى الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض، وخوف الغرق والضيق والفقر، وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص/ الله، [٥٦/أ] لا يُطلب فيها غيره.

قال: وأمَّا كونهم معتقدين التأثير منهم فى قضاء حاجاتهم، كما تفعله جاهليةُ العرب والصوفية الجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم: فهذا من المنكرات؛ فمن اعتقد أنَّ لغير الله ـ من نبيٍ أو ولي أو روح، أو غير ذلك ـ فى كشف كُربةٍ أو

(١) أبو يحيى، بن سماك الأنصارى، صحابيٌّ جليل (ت٢٠هـ). اضاءت له عصاه، بعد أن انصرف من مجلس النبى ﷺ فى ليلة مظلمة، أخرجه: ابن سعد فى «الطبقات» (٣/ ٦٠٦) وأحمد فى «المسند» (١٣٨/٣، ٨٠، ٢٧٢).

(٢) عبد الله بن أثوب الشامى، من التابعين. ألقاه الطاغية العنسى فى النار، فلم تأكله. أخرجه: أو نعُيم فى «الحلية» (٢/ ١٢٩).

(٣) فى جميع النسخ: الأفعال. والمثبت من كتاب «سيف الله».

قضاء حاجة تأثيراً: فقد وقع فى وادى جهلٍ خطير، فهو على شفا حُفرة من السعير.

وأمَّا كونهم مستدلين على أنَّ ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أنْ تكون أولياءُ الله بهذه المثابة؛ فهذا ظنٌّ أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾. [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ﴾. [يس: ٢٣].

فإنَّ ذكرَ ما ليس من شأنه النفعُ ولا دفع الضر - من نبى وولى وغيره - على وجه الإِمداد منه: إشراكٌ مع الله؛ إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره.

قال: وأمَّا ما قالوه: إنَّ منهم أبدالاً ونقباء، وأوتاداً ونجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب؛ هو الغوث للناس: فهذا من موضوعات إفكهم. كما ذكره القاضى المحدِّث [أبو بكر بن العربى] فى (سراج المُريدين)، وابنُ الجوزى، وابن تيمية. انتهى باختصار(١).

والمقصود: أنَّ أهل العلم ما زالوا يُنكرون هذه الأمور الشركية، التى عمَّت بها البلوى، واعتقَدها أهلُ الأهواء. فلو تتبعنا كلامَ العُلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية، لطال الكتاب.

والبصيرُ النبيل، يُدرك الحق من أول دليل. ومن قال قولاً بلا بُرهان، فقولُه ظاهرُ البُطلان مخالفٌ ما عليه أهل الحق والإِيمان، المتمسكون بمُحكم القرآن، المستجيبون لداعى الحق والإِيمان. والله المستعان، وعليه التكلان.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. [يونس: ١٠٦ - ١٠٧].

---

(١) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» لصنع الله الحلبى ورقة (٢، ٥، ٦، ٧، ٨، ١١).

ش: قال ابنُ عطية: معناه: قيل لي ﴿وَلا تَدْعُ﴾ فهو معطوفٌ على ﴿أَقِمْ﴾.
وهذا الأمرُ والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا،/ فأحرى أنْ يتحرَّزَ من ذلك [٥٦/ب] غيرُه[١]. والخطابُ خرج مخرج الخصوص، وهو عامٌّ للأُمّة.

قال أبو جعفر بن جرير في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ولا تدعُ، يا محمد، من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعُك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرُّك في دين ولا دنيا، يعني بذلك: الآلهة [والأصنام][٢]، يقول: لا تعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضرّها؛ فإنها لا تنفعُ ولا تضر. فإنْ فَعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فإنَّكَ إذاً منَ الظَّالمين﴾ يقول: من المشركين بالله[٣].

قلتُ: وهذه الآية لها نظائر، كقوله: ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذَّبينَ﴾. [الشعراء ١٢٣] وقوله: ﴿ولاَ تَدْعُ مَعَ الله إلهاً آخر، لا إله إلا هو﴾. [القصص: ٨٨].

ففي هذه الآيات: بيانُ أنَّ كلَّ مدعوٍّ يكون إلهاً، والإلهية حقٌّ لله لا يصلح منها شيء لغيره؛ ولهذا قال: ﴿لاَ إلَهَ إلا هُوَ﴾ كما قال تعالى: ﴿ذَلكَ بأنَّ الله هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونه هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ الله هُوَ العليُّ الكبيرُ﴾. [الحج: ٦٢].

وهذا هو التوحيدُ الذي بعث الله به رُسله، وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمروا إلا ليَعْبُدواُ الله مُخْلصين لهُ الدِّينَ﴾. [البينة: ٥] والدِّين: كلُّ ما يُدان الله به، من العبادات الباطنة والظاهرة. وفسرّه ابنُ جرير في (تفسيره): بالدعاء، وهو فردٌ من أفراد العبادة، على عادة السلف في التفسير: يفسرون الآية ببعض أفراد معناها.

فمن صرف منها شيئاً لقبر، أو صنم، أو وثن، أو غير ذلك: فقد اتخذه معبوداً، وجعله شريكاً لله في الإلهية التي لا يستحقُّها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ الله إلهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ به فَإنَّما حسَابُهُ عنْدَ ربِّه إنه لاَ يُفْلحُ الكَافرُونَ﴾. [المؤمنون: ١١٧] فتبيَّن بهذه الآية ونحوها: أنَّ دعوة غير الله شركٌ، وكفرٌ وضلال.

---

(١) ابن عطية، «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (٩/ ٩٩).
(٢) إضافة من (ط) «والتفسير».
(٣) الطبري: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (١٥/ ٢١٨).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وإِنْ يُرِدْكَ بِخَيرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِه يُصيب به من يشاءُ من عباده﴾.

[٥٧/أ] فإنَّه المتفرِّدُ بالمُلك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع، دون/ كلِّ ما سواه. فيلزمُ من ذلك: أنْ يكون هو المدعوُّ وحده، المعبودُ وحده؛ فإنَّ العبادة لا تصلح إلا لمالك النفع. ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره؛ فهو المستحقُّ للعبادة وحده، دون من لا ينفعُ ولا يضرُ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أفَرَأيْتُم مَا تَدْعُونَ من دُون الله إنْ أرَادَنى الله بضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشفَاتُ ضُرِّه أَوْ أَرَادَنى برَحْمَة هَلْ هُنَّ مُمْسكَاتُ رَحْمَته قُلْ حَسْبِىَ الله عَلَيْه يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكلُونَ﴾. [الزُّمر: ٣٨] وقال: ﴿مَا يَفْتح الله للنَّاس من رَحْمَة فَلاَ مُمْسكَ لَهَا وَمَا يُمْسكْ فَلاَ مُرْسلَ لَهُ من بَعْده وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ﴾. [فاطر: ٢] فهذا ما أخبرَ به فى كتابه، من تفرُّده بالإلهية والربوبية، ونصب الأدلة على ذلك.

فاعتقد عُبّادُ القبور والمشاهد، نقيضَ ما أخبر به الله، واتخذوهم شركاءَ لله فى استجلاب المنافع ودفع المكاره: بسؤالهم، والالتجاء إليهم بالرغبة والرهبة والتضرع، وغير ذلك من أنواع العبادة التى لا يستحقها إلا الله، واتخذوهم شُركاء لله فى ربوبيته، وإلهيته.

وهذا فوقَ شركِ كُفار العرب القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُم إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى﴾، ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنا عِنْدَ الله﴾، فإنَّ أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم، ويقربوهم إلى الله. وكانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك؛ لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك!.

وأمَّا هؤلاء المشركون: فاعتقدوا فى أهل القبور وفى المشاهد ما هو أعظمُ من ذلك، فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير، وجعلوهم معاذاً لهم وملاذاً فى الرغبات والرَّهبات ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشركُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحيم﴾ أى: لمن تاب إليه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُه: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ الله الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ واشكُرُوا لَهُ إِلَيه تُرْجَعُونَ﴾. [العنكبوت: ١٧].

ش: يأمرُ عبادَه بابتغاء الرزق عنده وحده، دون ما سواه، ممن لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً. فتقديمُ الظرف يُفيد الاختصاص.

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص؛ فإنَّ ابتغاء الرزق عنده/ ، [٥٧/ب] من العبادة التي أمر بها.

قال العمادُ ابن كثير: ﴿فَابْتَغُوا﴾ [أي: فاطلبوا][1] ﴿عِنْدَ الله الرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره؛ لأنه المالكُ له، وغيرُه لا يملك شيئاً من ذلك ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: [يوم القيامة]، فيُجازى كلَّ عاملٍ بعمله[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدعُو من دُون الله من لا يَسْتَجيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القِيَامَة، وَهُمْ عَن دُعَائِهم غَافِلُونَ * وإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُم أعْدَاءً وكَانُوا بِعِبَادَتِهم كَافِرِينَ﴾. [الأحقاف: ٥ - ٦].

ش: فنفى سبحانه أنْ يكون أحدٌ أضل ممن يدعو غيره. وأخبر أنه لا يستجيبُ له ما طلب منه إلى يوم القيامة.

والآيةُ تعمُّ كلَّ من يُدعى من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم مِن دُونِه فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِ عَنْكُم وَلاَ تَحْوِيلاً﴾. [الإسراء: ٥٦].

وفي هذه الآية: أخبر أنه لا يستجيب، وأنه غافلٌ عن داعيه ﴿وإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُم أعداء وكَانُوا بِعِبَادَتِهم كَافِرِينَ﴾ فتناولت الآيةُ كلَّ داعٍ، وكلَّ مدعوٍّ من دون الله.

قال أبو جعفر بن جرير ـ في قوله: ﴿وَإذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُم أعداءً﴾ ـ: يقول تعالى ذِكره: وإذا جُمع الناسُ ليوم القيامة في موقف الحساب، كانت هذه الآلهةُ التي يدعونها في الدنيا لهم أعداءً؛ لأنهم يتبرؤون منهم. ﴿وكَانُوا بِعِبَادَتِهم كَافِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكانت آلهتُهم التي يعبدونها في الدنيا، لعبادتهم

---

(١) إضافةٌ من (ط) «والتفسير».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٧٩).

جاحدين؛ لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرنا بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم يا ربنا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم وَمَا يَعْبُدُونَ من دُون الله فَيَقُولُ: أَأَنْتُم أَضْلَلْتُم عبَادي هَؤُلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغي لَنَا أن نَتَّخذَ من دُونكَ من أَوْلِيَاءَ وَلَكن مَتَّعْتَهُم وآبَاءَهُم حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾. [الفرقان: ١٧ - ١٨].

قال ابن جرير: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم وَمَا يَعْبُدُونَ من دُون الله﴾ من الملائكة والإنس والجن، وساق بسنده عن مجاهد، قال: عيسى وعزيرٌ والملائكة[2].

ثم قال: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة/ ـ الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله ـ وعيسى: تنزيهاً لك يا ربنا، [وتبرئة][3] مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ﴿مَا كَانَ يَنْبَغي لَنَا أن نَتَّخذَ من دُونكَ من أَوْلِيَاء﴾ نواليهم ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا من دُونهم﴾ انتهى[4].

قلتُ: وأكثرُ ما يُستعمل الدعاء في الكتاب والسنة، واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء: في السؤال والطلب؛ كما قال العُلماء من أهل اللغة، وغيرهم: الصلاة لغة: الدُّعاء، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذينَ تَدْعُونَ منْ دُونه مَا يَمْلكُونَ من قطْمير * إنْ تدعوهم لا يسمعوا دُعاءَكم ولو سَمعوا ما استَجابوا لكم ويومَ القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئُك مثلُ خبير﴾. [فاطر: ١٣ - ١٤] وقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم منْ ظُلُمَات البَرِّ والبَحْر تَدْعُونَهُ تَضرُّعاً وَخُفْيَةً﴾. [الأنعام: ٦٣] وقال: ﴿وإذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لجنْبه أوْ قَاعداً أو قَائماً﴾ [يونس: ١٢] وقال: ﴿وإذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَريض﴾. [فصلت: ٥١] وقال: ﴿لاَ يَسْأَمُ

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٨٩).

(٣) إضافة من (ط) «والتفسير».

(٤) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٩٠).

الإنسَانُ من دُعَاء الخَير وإنْ مسَّه الشرُّ فيئوسٌ قَنُوط﴾ [فصلت: ٤٩] وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغيثُونَ رَبَّكُم فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾. [الأنفال: ٩].

وفي حديث أنس، مرفوعاً «الدعاءُ مُخُّ العبادة»(١).

وفي الحديث الصحيح «ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإِجابة»(٢).

وفي آخر «من لم يسأل الله يغضب عليه»(٣)

وحديث «ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدعاء» رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابنُ حبان، والحاكم وصححه(٤).

وقوله: «الدعاءُ سلاحُ المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض» رواه الحاكم وصححه(٥).

وقوله: «سلوا الله كلَّ شيء حتى الشِّسْع إذا انقطع» الحديث(٦). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضلُ العبادة الدعاء، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُم﴾ [غافر: ٦٠]. رواه ابنُ المنذر، والحاكم وصححه(٧).

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٣٤٦٨). والطبراني في كتاب «الدعاء» رقم (٨)، وله شاهدٌ من حديث النعمان بن بشير، والبراء بن عازب، وسيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٣٣٧٤) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٣). حديث أبي هريرة، وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٧) من حديث ابن عمرو، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨): إسناده حسن.

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٣٣٧٠) وابن ماجة في «السنن» رقم (٣٨٢٧) وأحمد في «المسند» (٢/ ٤٤٢، ٤٤٣) من حديث أبي هريرة. قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

(٤) أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٢) والترمذي في «الجامع» رقم (٣٣٦٧) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب. وابن ماجة في «السنن» رقم(٣٨٢٩) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٠) وصححه ووافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة.

(٥) الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٣٦٠٧) وقال: هذا حديثٌ غريب، ورقم (٣٦٠٨) وقال: وهذا أصح.

(٧) ابن المنذر في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٠٢) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩١) وصححه ووافقه الذهبي.

وحديث «اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان» الحديث[١].

وحديث «اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»[٢].

[٥٨/ب] وأمثالُ هذا فى الكتاب والسنة أكثرُ من أنْ يُحصى[٣]/ فى الدعاء، الذى هو السؤال والطلب.

فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة: فقد صادم النصوص، وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفاً وخلفاً.

وأمَّا ما تقدَّم من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلامة ابن القيم: من أنَّ الدعاء نوعان: دعاءُ مسألة، ودعاء عبادة. وما ذكر بينهما من التلازم، وتضمُّن أحدهما للآخر: فذلك باعتبار كون الذاكر والتالى والمصلى والمتقرب بالنسك، وغيره طالباً فى المعنى، فيدخلُ فى مسمَّى الدعاء بهذا الاعتبار. وقد شرع الله تعالى فى الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به، كما فى الفاتحة وبين السجدتين وفى التشهد، وذلك عبادةٌ كالركوع والسجود. فتدبَّر هذا المقام، يتبيَّن لك جهلُ الجاهلين بالتوحيد.

ومما يُبيِّن هذا المقام، ويزيدُه إيضاحاً: قولُ العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فى معنى قوله تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الله أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أياً مَا تَدعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾**. [الإسراء: ١١٠]: هذا الدعاءُ، المشهورُ أنه دعاء المسألة، قالوا: كان النبىُّ ﷺ يدعو ربه، مرة يقول: يا الله. ومرة: يارحمن. فظن المشركون أنه يدعو إلهين، فأنزل الله هذه الآية. ذُكر هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما[٣].

وقيل: إنَّ الدعـاء هُنا بمعنـى التسميـة، والمعنى: أىُّ اسمٍ سمَّيتموه به من

---

(١) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٤٩٥) واللفظ له، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٣٧) وقال: هذا حديثٌ غريب. والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٥٠٣) وصححه ووافقه الذهبى. من حديث أنس.

(٢) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٤٩٣) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٤٧١) وقال: هذا حديث حسن غريب. من حديث بريدة.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٥/ ١٨٢) وابن مردويه فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٨).

أسماء الله تعالى: إمَّا الله، وإمَّا الرحمن، فله الأسماء الحسنى.

وهذا هو من لوازم المعنى فى الآية، وليس هو عينُ المراد. بل المراد بالدعاء: معناه المعهود المطَّردُ فى القرآن. وهو دعاء السؤال، ودعاء الثناء.

ثم قال: إذا عُرف هذا، فقوله تعالى: ﴿ادعُوا ربَّكُم تَضرُّعاً وخفية﴾. [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعى الدعاء، لكنه ظاهرٌ فى دعاء المسألة، متضمنٌ لدعاء العبادة؛ ولهذا أُمر بإخفائه. قال الحسن: بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء، ولم يُسمع لهم صوت، إنْ كان إلا همساً بينهم وبين ربهم(١).

وقوله: ﴿وإذَا سَألَك عِبَادى عنِّى فإنى قريب/ أُجيب دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ﴾. [٥٩/أ] [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعى الدعاء، وبكل منهما فُسرِّت الآية. قيل: أُعطيه إذا سألنى، وقيل: أُثيبه إذا عبدنى.

وليس هذا من استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً. وهذا يأتى فى مسألة الصلاة، وأنها [هل](٢) نُقلت عن مسمَّاها فى اللغة وصارت حقيقة شرعية، أو(٣) استعملت فى هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينهما وبين المُسمَّى اللغوى، أو هى باقيةٌ على الوضع اللغوى، وضُمَّ إليها أركانٌ وشرائط.

وعلى ما قررناه: لا حاجة إلى شىء من ذلك؛ فإنَّ المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفكُّ عن دعاء: إما دعاء عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو فى الحالين داع. انتهى من (البدائع)(٤).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قولُه: ﴿أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأرْضِ أإلهٌ مَعَ الله﴾. [النمل: ٦٢].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٢/ ٤٨٥) وابن المبارك وأبو الشيخ، كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٤٧٦).

(٢) إضافة من «البدائع».

(٣) فى جميع النسخ: و. تحريف.

(٤) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٣/ ٣، ٥، ٦).

ش: يُبيِّنُ تعالى أنَّ المشركين من العرب ونحوهم، قد علموا أنه لا يُجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده. فذكر ذلك سبحانه مُحتجاً عليهم فى اتخاذهم الشفعاء من دونه؛ ولهذا قال: ﴿أإلهٌ مَعَ الله﴾ يعنى يفعل ذلك.

فإذا كانت آلهتُهم لا تُجيبهم فى حال الاضطرار، فلا يصلح أنْ يجعلوها شركاء لله الذى يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده. وهذا أصح ما فُسرت به الآية؛ كسابقتها من قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأرْضَ وَأنْزَلَ لَكُم منَ السَّمَاء مَاءً فَأنْبَتْنَا به حَدَائقَ ذَاتَ بَهْجَة مَا كَانَ لَكُم أنْ تُنْبتُوا شَجَرَهَا أإلهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قومٌ يَعْدلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأرْضَ قَرَاراً وجَعَلَ خلالَهَا أنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسىَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجزاً أإلهٌ مَعَ الله بَلْ أكْثَرُهُم لاَ يَعْلَمُونَ﴾. [النمل: ٦٠ - ٦١] ولاحقها، إلى قوله: ﴿أَمَّنْ يَهْديكُمْ فى ظُلُمَات البَرِّ والبَحْر وَمَنْ يُرْسلُ الرِّيَاحَ بُشْرا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَته أإلهٌ مَعَ الله تَعَالى الله عَمَّا يُشركُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُمْ منَ السَّمَاء وَالأرْضِ أإلهٌ مَعَ الله قلْ هاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادقين﴾. [النمل: ٦٣ - ٦٤].

فتأمَّل هذه الآيات، يتبيَّنُ لك: أنَّ الله تعالى احتج - على المشركين - بما أقروا به على ما جحدوه، من قَصْر العبادة جميعِها عليه؛ كما فى فاتحة الكتاب ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾. [الفاتحة: ٥].

قال أبو جعفر بن جرير: قوله: ﴿أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأرْضِ أإلهٌ مَعَ الله قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: أم ما تُشركون بالله خير، أم الذى يُجيب المضطر إذا دعاه/ [٥٩/ب] ويكشف [السوء][1] النازل به عنه؟

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأرْضِ﴾ يقول: يستخلف بعد أمواتكم[2] فى الأرض منكم خُلفاء، أحياء يخلفونهم.

---

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط) و«التفسير».

(٢) «فى التفسير». أمرائكم.

وقوله: ﴿أإلهٌ معَ الله﴾ يقول: أإلهٌ سواه يفعل هذه الأشياء بكم، وينُعم عليكم هذه النعم؟

وقوله : ﴿قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تذكُّراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم، تذكرون وتعتبرون حُجج الله عليكم يسيراً؛ فلذلك أشركتم بالله غيره فى عبادته[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وروى الطبرانِّى، بإسناده: أنَّه كان فى زمن النبى ﷺ منافقٌ يؤذى المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبى ﷺ: «إنه لا يُستغاث بى، وإنما يُستغاث بالله»[2].

ش: الطبرانى: هو الإمام الحافظ، سُليمان بن أحمد بن أيوب اللَّخْمى الطبرانى، صاحبُ المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائى، وإسحاق بن إبراهيم الدَّبَرى، وخلقٌ كثير. مات سنة ستين وثلاثمائة. روى هذا الحديث، عن عُبادة بن الصامت رضى الله عنه.

قوله: (أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافقٌ يُؤذى المؤمنين)، لم أقف على اسم هذا المنافق.

قلتُ: هو عبد الله ابنُ أبى حاتم، فى روايته.

قوله: (فقال بعضهم) ـ: أى: الصحابة [رضى الله عنهم ـ هو أبو بكر رضى الله عنه][3].

قوله: (قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافق) لأنه ﷺ كان يقدرُ على كف أذاه.

قوله: «إنه لا يُستغاث بى، وإنما يُستغاث بالله» فيه: النصُّ على أنَّه لا يُستغاث بالنبى ﷺ، ولا مَن دونه.

---

(١) «تفسير الطبرى» (٢٠/ ٤).

(٢) الطبرانى فى «المعجم الكبير» كما فى «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩) وقال: ورجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقال الحافظ ابن تيمية فى كتاب «الاستغاثة» (١٥٢): وهو صالح للاعتضاد، ودلَّ على معناه الكتاب والسنة.

(٣) إضافةٌ من (هـ) و(ط).

كره ﷺ أنْ يُستعمل هذا اللفظ فى حقه، وإنْ كان فيما يقدر عليه فى حياته[1]: حمايةً لجناب التوحيد، وسداً لذرائع الشرك، وأدباً وتواضعاً لربه، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك، فى الأقوال والأفعال.

فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ فى حياته، فكيف يجوز أنْ يُستغاث به بعد وفاته، ويُطلب منه أمورٌ لا يقدر عليها إلا الله؟! كما جرى على ألسنة كثيرٍ من الشعراء ـ كالبُوصيرى[2]، والبُرَعى[3]/ وغيرهم ـ من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. [٦٠/أ]

ويُعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء، الذى له الخلقُ والأمر وحده، وله الملك وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلاَ ضراً إلا مَا شَآءَ الله﴾. [الأعراف: ١٨٨] فى مواضع من القرآن ﴿قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُم ضراً وَلاَ رَشَداً﴾. [الجن: ٢١].

فأعرض هؤلاء عن القرآن، واعتقدوا نقيضَ ما دلَّت عليه هذه الآيات المحكمات. وتبعهم على ذلك الضلال الخلقُ الكثير، والجمُّ الغفير. فاعتقدوا الشرك بالله ديناً، والهدى ضلالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فما أعظمها من مصيبة عمَّت بها البلوى، فعاندوا أهل التوحيد، وبدَّعوا أهل التجريد؛ فالله المستعان.

---

(١) قال ابن تيمّية فى كتاب «الاستغاثة» (٢٠٠): وظاهرُ لفظ الحديث، إنْ صح: يقتضى أنه لم يكن قادراً على دفع ضرر ذلك المنافق، وأنه أمرهم أن يستغيثوا فيه بالله تعالى.

(٢) محمد بن سعيد بن حمَّاد الصنهاجى، أديبٌ صوفى، صاحب البُردة، له ديوان مطبوع. مات سنة ٦٩٦هـ الزركلى، «الاعلام» (٦/ ١٣٩).

(٣) عبد الرحيم بن أحمد اليمانى، شاعر متصوف، مشهور ببلاد اليمن، له ديوان مطبوع. مات سنة ٨٠٣هـ «الاعلام» (٣/ ٣٤٣).

(١٤)

بـــاب

قول الله تعالى:
﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿أَيُشرِكُونَ مَا لاَ يَخلُقُ شَيْئاً وَهُم يُخلَقُونَ * وَلا يَستَطِيعُون لَهُمَ نَصْراً وَلا أَنفُسَهُم يَنصُرُونَ﴾. [الأعراف: ١٩١ - ١٩٢].

ش: قوله: ﴿أَيُشرِكُونَ﴾ أى: فى العبادة.

قال المفسرون فى هذه الآية: هذا توبيخٌ وتعنيف للمشركين، فى عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلُق شيئاً وهو مخلوق. والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق فى العبادة التى خلقهم لها، وبيَّن أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم يَنصُرون، فكيف يُشركون به من لا يستطيع نَصْر عابديه ولا نصر نفسه؟

وهذا برهانٌ ظاهرٌ على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا وصف كلِّ مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين.

وأشرفُ الخلق محمد ﷺ وقد كان يستنصرُ ربه على المشركين، ويقول: «اللهم أنت عَضُدى ونصيرى، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل»(١).

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً لاَ يَخلُقُونَ شَيْئاً وهم يُخلَقُونَ وَلا يَملكُونَ لأنفُسِهِم ضَراً وَلاَ نفعاً وَلَا يَمْلكُونَ مَوْتاً ولا حَيَاةً وَلا

---

(١) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٢٦٢٣)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٧٨) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب. من حديث أنس.

نُشُوراً﴾. [الفرقان: ٣] وقوله: **﴿قُلْ لاَ أَمْلكُ لنَفْسي نَفْعاً وَلاَ ضَراً إلا مَا شَاءَ الله وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ من الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إنْ أنا إلا نَذيرٌ وبَشيرٌ لقَوْمٍ يُؤْمنُونَ﴾**. [الأعراف: ١٨٨] وقوله: **﴿قُلْ إنى لاَ أملكُ لَكُم ضراً وَلاَ رَشَداً * قُلْ إنِّى لَنْ يُجيرنى منَ الله أحَدٌ ولَنْ أجدَ من دونه مُلْتَحَداً * إلا بَلاغاً منَ الله وَرِسَالاته﴾**. [الجن: ٢١ - ٢٣].

فكفى بهذه الآيات برهاناً على بُطلان دعوة غير الله، كائناً من كان. فإنْ كان نبياً أو صالحاً: فقد شرَّفه الله تعالى بإخلاص العبادة له، والرضى به رباً ومعبوداً. فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب إليه بالنهى عن هذا الشرك؟ كما قال تعالى: **﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلهاً آخَرَ لا إلهَ إلا هُوَ كُلُّ شىء هالكٌ إلا وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإلَيه تُرْجَعُونَ﴾**. [القصص: ٨٨] وقال **﴿إنِ الحُكْمُ إلا للهِ أمَرَ أن لا تَعْبُدوا إلا إيَّاهُ﴾**. [يوسف: ٤٠].

فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده، ونهاهم أنْ يعبدوا معه غيره. وهذا هو دينُهُ الذى بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ورضيه لعباده، وهو الإسلام؛ كما روى البخارىُّ، عن أبى هريرة فى سؤال جبرائيل عليه السلام، قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلامُ أنْ تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» الحديث[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: **﴿وَالَّذينَ تَدْعُونَ منْ دُونه مَا يَمْلكُونَ من قطمير * إنْ تَدْعُوهُم لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم وَلَوْ سَمعُوا مَا اسْتَجَابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيَامَة يَكْفُرُونَ بِشركِكُم وَلاَ يُنَبِّئُكَ مثْلُ خَبيرٍ﴾**. [فاطر: ١٣ - ١٤].

ش: يخبرُ تعالى عن حال المدعوِّين من دونه ـ من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها ـ بما يدلُّ على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التى تكون فى المدعو، وهى: المُلك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته. فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوتُه، فكيف إذا عُدمت بالكلية؟

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٠، ٤٧٧٧).

فنفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ من قطْمير﴾ قال ابنُ عباس، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والحسن، وقتادة: القِطْمير: اللفافة التى تكون على نواه التمر[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدونَ من دُون الله مَا لا يَمْلكُ لَهُم رِزْقاً من/ السَّمَوَات وَالأَرْض شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطيعُونَ﴾. [النحل: ٧٣] وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُم منْ دُون الله لاَ يَمْلكُونَ مثْقَالَ ذَرَّة فـى السَّمـوَاتَ وَلاَ فى الأَرْض وَمَا لَهُم فيهمـا من شـرْك وَمَا لَهُ منهـم من ظَهيـر * وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عنْـدَهُ إلا لمَـنْ أَذنَ لَهُ﴾. [سبأ: ٢٢ - ٢٣].

ونفى عنهم سماع الدعاء، بقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُم لاَ يَسْمَعوا دُعَاءَكُم﴾، لأنهم ما بين ميتٍ، وغائب عنهم مشتغلٍ بما خُلق له، مسخَّرٍ بما أُمر به كالملائكة.

ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُم﴾ لأن ذلك ليس إليهم؛ فإنَّ الله تعالى لم يأذن لأحدٍ من عباده فى دُعاء أحدٍ منهم، لا استقلالاً ولا واسطة، كما تقدَّم بعضُ أدلة ذلك.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ القيَامَة يَكْفُرُونَ بشركِكُم﴾ فتبيَّن، أنَّ دعوة غيرالله شرك. وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا من دُون الله آلهَةً ليَكُونُوا لَهُم عزاً * كُلا سَيَكْفُرُونَ بعبَادتهم وَيَكُونُونَ عَلَيْهم ضداً﴾. [مريم: ٨١ - ٨٢]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ القيَامَة يَكْفُرُونَ بشرككُم﴾ قال ابنُ كثير: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو من دُون الله مَن لاَ يَسْتَجيبُ لَهُ إلى يَوْم القيَامَة وَهُمْ عَن دُعَائهم غَافلُون * وَإذا حُشرَ النَّاسُ كَانُوا لَهم أعدآءً وَكَانُوا بعبَادَتهم كَافرينَ﴾. [الأحقاف: ٥ - ٦].

قال: وقوله: ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مثْلُ خَبير﴾ أى: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها، وما تصيرُ إليه مثلُ خبير بها. قال قتادة: يعنى نفسه تبارك وتعالى؛ فإنه أخبر بالواقع لا محالة[2].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٢/ ١٢٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٢٧).

قلتُ: والمشركون لم يُسلِّموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع، وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبيرُ: من أنَّ كلَّ معبودٍ يعادى عابده يوم القيامة، ويتبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُم جميعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُم أَنْتُم وَشُرَكَاؤُكُم فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُم وَقَالَ شركَاؤُهم مَا كُنْتُم إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وبَيْنَكُم إن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُم لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى الله مَوْلاَهُم الحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

أخرج ابنُ جرير، عن ابن جُريج، قال: قال مجاهد: ﴿إن كُنَّا عَن عِبَادَتِكُم لَغَافِلِينَ﴾ قال: يقول ذلك كلُّ شيء كان يُعبد من دون الله(١).

[٦١/ب] فالكيِّسُ يستقبلُ هذه الآيات ـ التى هى الحجةُ والنور والبرهان/ ـ بالإيمان، والقبول والعمل. فيجرِّدُ أعماله لله وحده دون كلِّ ما سواه، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً، فضلاً عن غيره.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفى الصحيح، عن أنسٍ، قال: شُجَّ النبىُّ ﷺ يوم أُحد، فقال: «كيف يُفلحُ قومٌ شجَّوا نبيَّهم؟» فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ش: قوله: فى (الصحيح)، أى: (الصحيحين). علَّقه البخارى، عن حُميد، وعن ثابت: عن أنس(٢). ووصله أحمد، والترمذى، والنسائى، عن حُميد، عن أنس به(٣). ووصله مسلمٌ، عن ثابت، عن أنس(٤).

وقال ابنُ إسحاق فى (المغازى): حدثنى حُميد الطويل، عن أنس، قال: كُسِرت رَباعيَةُ النبى ﷺ يوم أُحد، وشُج وجهه، فجعل الدمُ يسيل على وجهه،

---

(١) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١١/ ١١٢).

(٢) ابن حجر، «فتح البارى» (٧/ ٣٦٥).

(٣) أحمد فى «المسند» (٣/ ٩٩، ١٧٨، ٢٠٦) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٠٢) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح. والنسائى كما فى «التغليق» (٤/ ١٠٨).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٧٩١).

وجعل يمسح الدم، وهو يقول: كيف يُفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟! فأنزل الله الآية(1).

قوله: (شُجَّ النبي ﷺ) قال أبو السعادات: الشجُّ في الرأس خاصة في الأصل، وهو أنْ يضربه بشيء فيجرَحه فيه ويشقه، ثم استُعمل في غيره من الأعضاء(2).

وذكر ابنُ هشام، من حديث أبي سعيد الخدري: أنَّ عُتْبة بن أبي وَقَّاص، هو الذي كسر رَباعية النبي ﷺ السفلى، وجرح شفته السفلى، وأنَّ عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجَّه في وجهه، وأن عبد الله بن قَمِيئَة جرحه في وَجْنته، فدخلت حلقتان من حِلَق المِغْفَر في وجنته، وأنَّ مالك بن سنان مصَّ الدمَ من وجه رسول الله ﷺ، وازدرده. فقال له: «لن تمسك النار»(3).

قال القرطبي: والرباعية ـ بفتح الراء وتخفيف الياء ـ وهي كلُّ سنٍ بعد ثنية.

قال النووي: وللإنسان أربعُ رَباعيات.

قال الحافظ: والمراد: أنها كُسرت، فذهب منها فلقة، ولم تُقلع من أصلها.

قال النووي: وفي هذا: وقوعُ الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات/ الله وسلامه [62/أ] عليهم؛ لينالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أُممُهم ما أصابهم، ويأتسوا بهم.

قال القاضي: وليُعلم أنهم من البشر، تُصيبهم محنُ الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليُتيقَّن أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يُفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويُلبِّس الشيطانُ من أمرهم ما لبَّسه على النصارى وغيرهم. انتهى(4).

قلتُ: يعني: من الغلو، والعبادة.

قوله: (يوم أُحد).

هو جبلٌ معروف، كانت عنده الوقعة المشهور. فأُضيفت إليه.

---

(1) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (3/ 28).

(2) ابن الأثير، «النهاية» (2/ 445).

(3) «سيرة ابن هشام» (3/ 28) وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (3/ 266) وانظر «مغازي الواقدي» (1/ 244).

(4) النووي، «المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجاج» (12/ 148).

قوله: «كيف يُفلح قومٌ شجّوا نبيَّهم؟» زاد مسلم: «وكسروا رَباعيتَهُ وأدموا وجهه».

قوله: فأنزل الله ﴿لَيْسَ لك مِنَ الأمْرِ شيءٌ﴾ قال ابنُ عطية: كانَّ النبى ﷺ لَحقَه فى تلك الحال يأسٌ من فلاح كفار قريش؛ فقيل له بسبب ذلك ﴿لَيْس لَكَ مِنَ الأمْرِ شىءٌ﴾ أى: عواقبُ الأمور بيد الله، فَامْضِ أنت لشأنك، ودُمْ على الدعاء لربك[1].

وقال ابنُ إسحاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شىءٌ﴾ فى عبادى، إلا ما أمرتُك به فيهم[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه: عن ابن عمر، أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعَة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فُلاناً وفُلانا»، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شىءٌ﴾[3].

وفى رواية: يدعو على صَفوان بن أمية، وسُهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شىءٌ﴾[4].

ش: قوله: (وفيه)، أى: فى (صحيح البخارى)، ورواه النسائى.

قوله: (عن ابن عمر)، هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، صحابىٌّ جليل. شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح. مات سنة ثلاثٍ وسبعين فى آخرها، أو أوَّل التى تليها.

قوله: (أنه سمع رسول الله ﷺ). هذا القنوتُ على هؤلاء، بعد ما شُجَّ وكُسرت ربَاعيته يوم أُحد.

---

(١) ابن عطية، «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» (٣/ ٢٢٦).

(٢) «السيرة» لابن هشام (٣/ ٤٩).

(٣) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٠٠٩، ٤٠٧٠، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦).

(٤) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٠٧٠) مرسلاً، ووصله الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٠٧) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب. وأحمد فى «المسند» (٢/ ٩٣) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٤/ ٨٨) من حديث ابن عمر.

قوله: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» قال أبوالسعادات: أصلُ اللعن: الطردُ والإِبعاد من الله. ومن الخلق: السب والدعاء[1]. وتقدم كلامُ شيخ الإِسلام.

قوله: (فلاناً وفلاناً). يعني صفوان بن أمية، وسهيلَ بن عمرو، والحارث بن هشام/ ، كما بيَّنه في الرواية الآتية. [٦٢/ب]

وفيه: جوازُ الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة، وأنَّ ذلك لا يضرُّ الصلاة.

قوله: (بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده)، قال أبو السعادات: أي أجاب حمدَه، وتقبَّله[2]. وقال السُّهيلي: مفعولُ سَمِع محذوف؛ لأن السمع متعلقٌ بالأقوال والأصوات، دون غيرها. فاللام تُؤذِن بمعنى زائد، وهو الاستجابة للسمع. فاجتمع في الكلمة الإِيجاز، والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده.

وقال ابنُ القيم ما معناه: عُدِّي، سمع الله لمن حمده، باللام المتضمنة معنى: استجاب له. ولا حَذْف هناك، وإنما هو مضمَّن.

قوله: (ربَّنا ولك الحمد)، في بعض روايات البخاري، بإسقاط الواو. قال ابنُ دقيق العيد: كأنَّ إثباتها دالٌّ على معنى زائد؛ لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال شيخُ الإِسلام: والحمد ضدُّ الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أنَّ الذم يكون على مساوئه مع البغض له.

وكذا قال ابنُ القيم، وفرَّق بينه وبين المدح: بأنَّ الإِخبار عن محاسن الغير: إمَّا أنْ يكون إخباراً مجرَّداً عن حُبٍّ وإرادة، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته.

فإنْ كان الأول، فهو المدح. وإنْ كان الثاني، فهو الحمد. فالحمدُ: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه؛ ولهذا كان خبراً يتضمَّن الإِنشاء، بخلاف المدح؛ فإنه خبرٌ مجرد.

---

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٤/ ٢٥٥).

(٢) ابن الأثير، «النهاية» (٢/ ٤٠١).

فالقائلُ، إذا قال: الحمدُ لله، أو قال: ربنا ولك الحمد. تضمنَّ كلامُه الخبرَ عن كلٍّ ما يُحمد عليه تعالى، باسمٍ جامع محيط متضمِّن لكلِّ فردٍ من أفراد الجملة المحقَّقة والمقدَّرة. وذلك يستلزم إثبات كلِّ كمال يُحمد عليه الربُ تعالى؛ ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه، ولا تنبغى إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد[1].

[٦٣/أ] وفيه: التصريحٌ بأنَّ الإمام يجمعُ بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعى/ وأحمد، وخالف فى ذلك مالكُ وأبو حنيفة، فقالا: يقتصرُ على سمع الله لمن حمده.

قوله: (وفى رواية: يدعو على صفوان بن أُميَّة، وسُهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام).

وذلك لأنهم رؤوسُ المشركين يوم أحد: هم، وأبو سفيان بن حرب. فما استُجيب له ﷺ فيهم، بل أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شىءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِم أوْ يُعَذِّبَهُم﴾ فتاب عليهم، فأسلموا وحسُن إسلامهم.

وفى هذا كله: معنى شهادة أنْ لا إله إلا الله، الذى له الأمر كلُّه، يهدى من يشاء بفضله ورحمته، ويضلُّ من يشاء بعدله وحكمته. [2]فهو المستحق أنْ يُعبد وحده[2].

وفى هذا من الحجج والبراهين: ما يُبيِّن بُطلان ما يعتقده عبَّادُ القبور، فى الأولياء والصالحين ـ بل فى الطواغيت ـ من أنهم ينفعون من دَعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم.

فسبحان من حال بينهم وبين فَهم الكتاب. وذلك عدلُه سبحانه، وهو الذى يحول بين المرء وقلبه، وبه الحولُ والقوة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه: عن أبى هريرة، قال: قام رسولُ الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾. [الشعراء: ٢١٤] قال: «يامعشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم؛ لا أُغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباسُ

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

(٢) ما بينهما ساقط من (ض) و(هـ) و(ط) ومعلّق فى هامش الاصل، وعليه كلمة صح.

ابن عبد المطلب، لا أُغنى عنك من الله شيئاً، يا صفيةُ عمةَ رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنت محمد، سَلينى من مالى ما شئت، لا أُغنى عنكِ من الله شيئاً»[1].

ش : قوله: (وفيه)، أى: (صحيح البخارى).

قوله: (عن أبى هريرة). اختُلف فى اسمه. وصحَّح النووىُّ أنَّ اسمه: عبد الرحمن بن صخر؛ كما رواه الحاكم فى (المستدرك)، عن أبى هريرة، قال: كان اسمى فى الجاهلية: عبد شمس بن صخر، فسُمِّيتُ فى الإسلام عبد الرحمن[2]. وروى الدُّولابى بإسناده، عن أبى هريرة، أنَّ النبى ﷺ سماه عبد الله[3].

وهو دَوْسىٌّ، من فُضلاء الصحابة وحفَّاظهم. حفظ عن النبى ﷺ أكثرمما حفظه غيرُه، مات سنة سبعٍ ـ أو ثمان، أو تسع ـ وخمسين، وهو ابنُ ثمانٍ وسبعين سنة.

قوله: (قام رسولُ الله ﷺ)/ . فى الصحيح ـ من رواية ابن عباس ـ: صعد رسولَ الله ﷺ على الصفا[4]. [٦٣/ب]

قوله: حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقرَبِين﴾. عشيرةُ الرجل: هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته؛ لأنهم أحقُّ الناس ببرِّك وإحسانك الدينى والدنيوى؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُم وأَهْلِيكُم نَاراً وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ﴾. [التحريم: ٦].

وقد أمره الله تعالى أيضاً بالنِّذارة العامة، كما قال تعالى: ﴿لتُنْذرَ قَوْماً مَا أُنْذرَ آبَاؤُهُم فَهُم غَافِلونَ﴾. [يس: ٦] ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهمُ العَذَابُ». [إبراهيم: ٤٤].

قوله: «يا معشرَ قريش» المعشر: الجماعة.

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٧٥٣، ٣٥٢٧، ٤٧٧١).

(٢) الحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٥٠٦، ٥٠٧).

(٣) الدولابى، «الكنى والأسماء» (١/ ٧٧).

(٤) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٧٧٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٠٨).

قوله: (أو كلمةً نحوها) هو بنصب كلمة؛ عطفاً على ما قبله.

قوله: «اشتروا أنفسكم» أى: بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه؛ فإنَّ ذلك هو الذى يُنجى من عذاب الله. لا الاعتماد على الأنساب والأحساب؛ فإنَّ ذلك غيرُ نافعٍ عند رب الأرباب.

قوله: «لا أُغنى عنكم من الله شيئاً» فيه حجةٌ على من تعلَّق على الأنبياء والصالحين، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه.

فإنَّ ذلك هو الشركُ الذى حرَّمه الله تعالى، وأقام نبيه ﷺ بالإنذار عنه؛ كما أخبر تعالى عن المشركين، فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونه أوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُم إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى﴾. [الزُّمر: ٣] ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله﴾. [يونس: ١٨].

فأبطل الله ذلك، ونزّه نفسه عن هذا الشرك. وسيأتى تقريرُ هذا المقام إن شاء الله تعالى.

وفى (صحيح البخارى): «يا بنى عبد مناف، لا أُغنى عنكم من الله شيئاً».

قوله: «يا عباسُ بنَ عبد المطلب». بنصب ابن، ويجوز فى عباس الرفعُ والنصب، وكذا فى قوله: «يا صفيةُ عمَّة رسول الله»، و«فاطمة بنتَ محمد».

[٦٤/أ] قوله: «سَلِينى من ما لى ما شئتِ». بيَّن ﷺ/ أنه لا يُنجى من عذاب الله إلا الإِيمان، والعمل الصالح.

وفيه: أنه لا يجوزُ أنْ يُسأل العبدُ إلا ما يقدر عليه، من أمور الدنيا. وأمَّا الرحمة والمغفرة، والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كلِّ ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يجوز أنْ يُطلب إلا منه.

فإنَّ ما عند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد، والإِخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أنْ يتقربوا إليه به.

فإذا كان لا ينفع ابنته وعمَّه وعمَّته وقرابته إلا ذلك، فغيرُهم أولى وأحرى. وفى قصة عمه أبى طالب مُعتبر.

فانظر إلى الواقع من كثيرٍ من الناس: من الالتجاء إلى الأموات، والتوجُّه إليهم بالرغبات والرهبات. وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن غيرهم. يتبينُ لك أنهم ليسوا على شيء ﴿إِنَّهُم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أولياءَ مِن دُونِ الله ويَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ﴾. [الأعراف: ٣٠].

أظهرلهم الشيطانُ الشرك فى قالب محبة الصالحين، وكلٌّ صالحٍ يبرأُ إلى الله من هذا الشرك فى الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ولا ريب أنَّ محبة الصالحين: إنما تحصلُ بموافقتهم فى الدين، ومتابعتهم فى طاعة رب العالمين. لا باتخاذهم أنداداً من دون الله، يُحبونهم كحب الله، إشراكاً بالله وعبادة لغير الله، وعداوةً لله ورسله والصالحين من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ الله يَا عيسى ابنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَخذُونى وأُمِّى إِلَٰهينْ من دُون الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لى بحَقٍّ إنَ كُنْتُ قُلْته فَقَدْ عَلمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فى نَفْسى ولاَ أَعْلَمُ مَا فى نَفْسكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الغُيُوب * مَا قُلْتُ لَهُم إلا مَا أَمرْتَنى به أَنْ اعْبُدُوا الله رَبى وَربَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهم شَهيداً مَا دُمْتُ فيهم فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهم وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شىءٍ شَهِيدٌ﴾. [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

قال العَّلامة ابنُ القيم فى هذه الآية ـ بعد كلام سبق ـ: ثم نفى أنَّ يكون قال لهم غيرَ ما أُمر به، وهو محضُ التوحيد؛ فقال: ﴿مَا قُلْتُ لهُم إلا مَا أَمرْتَنى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا الله ربِّى وَرَبَّكُم﴾ ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم، وأنَّ الله عز وجل المنفردُ بعد الوفاة/ بالاطلاع عليهم، [٦٤/ب] فقال: ﴿وكُنْت عَلَيْهم شَهيداً مَا دُمْتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ﴾ وصفَه سبحانه: بأنَّ شهادته فوق كلِّ شهادة، وأعم. انتهى ملخصا.

قلتُ: ففى هذا بيانُ أنَّ المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله: من توحيده الذى هو دينهم، الذى اتفقوا عليه ودعوا الناس إليه، وفارقوهم فيه إلا من آمن.

فكيف يُقال لمن دان بدينهم، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده: إنه قد تنقَّصهم بهذا التوحيد الذى أطاع به ربه، واتبع فيه رسله عليهم السلام، ونزَّه به ربَّه عن الشرك الذى هو هضمٌ للربوبية، وتنقصٌ للإلهية، وسوءُ ظن برب العالمين؟!.

والمشركون هم أعداءُ الرسل وخصماؤهم فى الدنيا والآخرة، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرؤوا من كلِّ مشرك، ويكفروا به، ويبغضوه ويعادوه فى ربهم ومعبودهم: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُم أجْمَعِين**﴾. [الأنعام: ١٤٩].

(١٥)
بـــاب
قول الله تعالى:
﴿حتى إذا فـزع عن قلوبـهم قالـوا ماذا قـال ربكم قالـوا الحق وهو العلي الكبير﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾. [سبا: ٢٣].

ش: قوله: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم﴾ أى: زال الفزع عنها. قاله ابنُ عباس، وابن عمر، وأبو عبد الرحمن السُّلَمى، والشعبى، [والحسن][١] وغيرهم.

وقال ابنُ جرير: قال بعضهم: الذى فُزِّعَ عن قلوبهم: الملائكة. قالوا: وإنما فُزِّع عن قلوبهم، من غَشْيَة تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحى[٢].

وقال ابنُ عطية: فى الكلام حذفٌ يدلُّ عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاءُ كما تزعمون أنتم، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون أبداً، يعنى منقادون، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم، والمراد: الملائكة. على ما اختاره ابنُ جرير، وغيره.

قال ابنُ كثير: وهو الحق الذى لا مِرْية فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار[٣].

وقال أبو حيَّان[٤]: تظاهرت الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ، أنَّ قوله: ﴿حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم﴾ إنما هى فى الملائكة، إذا سمعت الوحىَ إلى جبريل يأمره الله به، سمعت كجرِّ سلسلة الحديد على الصَّفْوان، فتفزعُ عند ذلك تعظيماً وهيبة.

---

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) «تفسير الطبرى» (٢٢/ ٩٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٠٣).

(٤) محمد بن يوسف بن على الجيَّانى، مفسرٌ نحوى (ت ٧٤٥هـ) «شذرات الذهب» (٦/ ١٤٥).

[٦٥ /أ] قال:/ وبهذا المعنى ـ مِنْ ذكر الملائكة فى صدر الآية ـ تتسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشارٌ إليهم من أوَّل قوله: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها.

قوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم﴾ ولم يقولوا: ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلامُ الله مخلوقاً، لقالوا: ماذا خلق؟! انتهى. من (شرح سُنن ابن ماجة).

ومثلُه الحديث «ماذا قال ربنا يا جبريل؟»[1] وأمثالُ هذا فى الكتاب والسنة كثير.

وقوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أى: قالوا: قال الله الحق. وذلك لأنهم إذا سمعوا كلامَ الله صُعقوا، ثم [إذا][2] أفاقوا أخذوا يسألون، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. علوُّ القدر وعلوُّ القهر وعلو الذات، فله العلوُّ الكامل من جميع الوجوه؛ كما قال عبدُ الله بن المبارك ـ لما قيل له: بماذا نعرفُ ربَّنا؟. قال: بأنه على عرشه، بائنٌ من خلقه. تمسكاً منه بالقرآن، لقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. [طه: ٥] ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾. [الفرقان: ٥٩] فى سبعة مواضع فى القرآن.

قوله: ﴿الْكَبِيرُ﴾. الذى لا أكبر منه ولا أعظم، تبارك وتعالى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إذا قضَى الله الأمرَ فى السماء ضربت الملائكةُ بأجنحتها خَضَعاناً لقوله، كأنه سلسلةٌ على صفوان، يَنْفُذُهم ذلك، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مُسترقُ السمع ـ ومسترقُ السمع هكذا بعضُه فوق بعض، وصفَه سفيانُ بكفِّه فحرَّفها وبدَّد بين أصابعه ـ، فيسمعُ الكلمةَ فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يُلقيها الآخرُ إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشِّهابُ قبل أنْ يلقيها،

(١) قطعةٌ من حديث النواس بن سمعان، سيأتى قريبا.
(٢) ساقطٌ من الأصل و(ض) و(هـ).

وربما ألقاها قبل أنْ يُدركه، فيكذبُ معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء»[1].

ش : قوله: (فى الصحيح) ـ أى: (صحيح البخارى).

قوله: إذا قضى الله الأمر فى السماء» أى: إذا تكلَّم الله بالأمر الذى يوحيه إلى جبرائيل، بما أراده؛ كما صرَّح به فى الحديث الآتى.

وكما روى سعيدُ بن منصور، وأبو داود، وابنُ جرير، عن ابن مسعود «إذا تكلَّم الله بالوحى سمع أهلُ السموات صلصلة كجرِّ السلسلة على الصفوان»[2].

وروى ابنُ أبى حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس، قال: لما أوحى الجبارُ إلى محمد ﷺ دعا الرسولَ من الملائكة ليبعثه بالوحى. فسمعت الملائكةُ صوت الجبار يتكلم بالوحى، فلما كشف عن قلوبهم، سألوا عما قال الله؟ فقالوا: الحق، وعلموا أنَّ الله لا يقول/ إلا حقاً[3]. [٦٥/ب]

قوله: «ضربت الملائكةُ بأجنحتها خَضَعاناً لقوله» أى: لقول الله تعالى.

قال الحافظ: خَضَعاناً. بفتحتين، من الخضوع. وفى رواية بضمٍّ أوله وسكون ثانية، وهو مصدرٌ بمعنى خاضعين[4].

قوله: «كأنه سلسلةٌ على صفوان» أى: كأن الصوت المسموع سلسلةٌ على صفوان، وهو الحجرُ الأملس.

قوله: «يَنْفُذُهم ذلك» هو: بفتح التحتية، وسكون النون، وضم الفاء والذال المعجمة. ذلك. أى: القول. والضمير فى : ينفُذُهم. للملائكة، أى: ينفذُ ذلك القولُ الملائكة: أى: يخلص ذلك القول، ويمضى فيهم حتى يفزعوا منه.

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١).

(٢) سعيد بن منصور، كما فى «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٩) وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٧٣٨) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٢/ ٩٠).

(٣) ابن أبى حاتم، وابن مردويه، كما فى «الدر المنثور» (٦/ ٦٩٧).

(٤) ابن حجر، «فتح البارى» (٨/ ٥٣٨).

وعند ابن مردويه، من حديث ابن عباس: «فلا ينزل على أهل سماء إلا صُعقوا»[1].

وعند أبى داود، وغيره مرفوعاً «إذا تكلم الله بالوحى سمع أهلُ السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل» الحديث[2].

قوله: «حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم» تقدم معناه.

قوله: «قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق» أى: قالوا: قال الله الحق، علموا أنَّه لا يقول إلا الحق.

قوله: «فيسمعها مسترقُ السمع» أى: يسمع الكلمة التى قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً.

وفى (صحيح البخارى)، عن عائشة مرفوعاً «إنَّ الملائكة تنزلُ فى العَنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمرَ قُضِىَ فى السماء، فتسترقُ الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكُهَّان»[3].

قوله: (ومسترق السمع، هكذا وصفه سفيانُ بكفه). أى: وصف ركوبَ بعضهم فوق بعض.

وسُفيان: هو ابنُ عيينة، أبو محمد الهلالى الكوفى، ثم المكى، ثقةٌ حافظ، فقيه إمامٌ حجة. مات سنة ثمانٍ وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون سنة.

قوله: (فحرَّفها). بحاء مهملة، وراء مشدَّدة، وفاء.

قوله: (وبدَّد). أى: فرَّق بين أصابعه.

قوله: «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته» أى: يسمع الفوقانِّى الكلمة، فيُلقيها إلى آخر تحته، ثم يلقيها إلى من تحته، حتى يُلقيها على لسان الساحر أو الكاهن.

---

(١) ابن مردويه، كما فى «فتح البارى» (٨/ ٥٣٨).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١).

قوله: «فربما أدركه الشهابُ قبل أن يلقيها» الشهاب: هو النجم الذي يُرمى. أي: ربما أدرك الشهابُ المسترِقَ.

وهذا/ يدلُّ على أنَّ الرمي بالشُّهب كان قبل المبعث؛ لما روى أحمدُ، وغيره - [٦٦/أ] والسياق له في (المسند)، من طريق مَعْمر ـ: أنبأنا الزهري، عن علي بن حسين، عن ابن عباس، قال: كان رسولُ الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال عبدُ الرزاق: من الأنصار ـ قال: فرُمي بنجمٍ عظيم، فاستنار، قال: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟» قال: كنا نقول: لعلَّه[1] يولد عظيم أو يموت عظيم ـ قلتُ للزهري: أكان يُرمى في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غلظت حين بُعث النبي ﷺ ـ [قال][2]: «فإنه[3] لا يُرمى بها لموت أحد، ولا لحياته. ولكن ربنا تبارك اسمه: إذا قضى أمراً سبَّح حملةُ العرش، ثم سبح أهلُ السماء الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا. ثم يستخبر أهلُ السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهلُ كل سماء سماءً، حتى ينتهي الخبرُ إلى هذه السماء، ويخطفُ الجنُّ السمعَ فيُرمون. فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون». قال عبدُ الله: قال أبي، قال عبد الرزاق ويخطف الجنُّ ويُرمون» وفي رواية له «لكنهم يزيدون فيه، ويقرفون وينقصون»[4].

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة» أي: الكاهن، أو الساحر.

وكذْبة. بفتح الكاف، وسكون الذال المعجمة.

قوله: «فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا» هكذا في نسخةٍ بخط المصنف رحمه الله، كالذي في (صحيح البخاري) سواء.

قال المُصنِّفُ: وفيه: قبولُ النفوس للباطل. يتعلَّقون بواحدة، ولا يعتبرون بمائة[5].

---

(١) كلمة: لعله. ليست في النسختين المطبوعتين من «المسند».

(٢) إضافةٌ من (هـ) و(ط) و«المسند» (ط. المعارف ٣/ ٢٦٨).

(٣) الأصل و(هـ) و(ط): فإنها. «والمثبت» من (ض) «والمسند».

(٤) أحمد في «المسند» (١/ ٢١٨)، وأخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٢٩).

(٥) المسألة الثامنة عشرة.

وفيه: أنَّ الشيء إذا كان فيه شيءٌ من الحق، فلا يدلُّ على أنه حقٌ كلُّه. فكثيراً ما يلبس أهلُ الضلال الحقَّ بالباطل، ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾. [البقرة: ٤٢].

وفي هذه الأحاديث وما بعدها، وما في معناها: إثباتُ علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة/ [٦٦/ب]. وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً، خلافاً للأشاعرة والجهمية، ونُفاة المعتزلة. فإياك أنْ تلتفت إلى ما زخرفة أهلُ التعطيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن النوّاس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله تعالى أنْ يُوحي بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السموات منه رَجفةٌ - أو قال رَعدةٌ - شديدةٌ، خوفاً من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهلُ السموات صُعقوا وخرُّوا لله سجّداً. فيكون أوَّلَ من يرفع رأسه جبريلُ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلَّما مرَّ بسماء سأله ملائكتُها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهوالعليُّ الكبير. فيقولون كلُّهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريلُ بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

ش: هذا الحديث: رواه ابنُ أبي حاتم، بسنده، كما ذكره العمادُ ابن كثير في (تفسيره)[١].

النَّواسُ بن سِمْعان - بكسر السين - بن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي. ويقال: إنَّ أباه صحابيٌّ أيضاً.

قوله: «إذا أراد الله أنْ يُوحي بالأمر» إلى آخره، فيه: النصُّ على أنَّ الله تعالى يتكلَّم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة - على النفاة - لقولهم: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله: «أخذت السمواتِ منه رجفةٌ» السموات مفعول مقدَّم، والفاعل رجفة، أي: أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة، أي: ارتجفت.

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٠٤).

وهو صريحٌ فى أنها تسمع كلامه تعالى؛ كما روى ابنُ أبى حاتم، عن عكرمة، قال: إذا قضى الله أمراً تكلَّم تبارك وتعالى، رجفت السموات والأرض والجبال، وخرَّت الملائكة كلُّهم سجداً[(١)].

قوله: أو قال: «رَعدةٌ شديدة». شكٌّ من الراوى. هل قال النبى ﷺ رجفة، أو قال: رعدة. والراء مفتوحة فيهما.

قوله: «خوفاً من الله عز وجل» وهذا ظاهرٌ فى أنَّ السموات تخاف الله، بما يجعل الله تعالى فيها من الإحساس، ومعرفة مَن خلَقها.

وقد أخبر تعالى: أنَّ هذه المخلوقات العظيمة تُسبِّحة؛ كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فيهنَّ وَإِنْ من شىءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِه ولَكن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم إنَّهُ كَانَ حَليماً غَفُوراً﴾. [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ منهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هداًّ﴾ [مريم: ٩٠]، وقال تعالى/ : ﴿وإنَّ منها لَما يهبطُ من خشية الله﴾. [البقرة: ٧٤]. [٦٧/أ]

وقد قرَّر العلامة ابن القيم رحمه الله : أن هذه المخلوقات، تسبح الله وتخشاه حقيقة، واحتج بهذه الآيات ونحوها.

وفى البخارى: عن ابن مسعود، قال: كنا نسمعُ تسبيحَ الطعام، وهو يُؤكل[(٢)].

وفى حديث أبى ذر: أنَّ النبى ﷺ أخذ فى يده حصياتٍ، فسُمع لهن تسبيح. الحديث[(٣)].

---

(١) ابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٠).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٥٧٩)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ٤٦٠).

(٣) أخرجه البزار فى «المسند» رقم (٢٤١٣، ٢٤١٤) (كشف) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٩): رجال أحدهما ثقات، وفى بعضهم ضعف، وقال (٥/١٧٩): وإسناده صحيح. وأبو نعيم فى «الدلائل» رقم (٣٣٩) والبيهقى فى «الدلائل» (٦/ ٦٤) والتيمى فى «الدلائل» رقم (٢٩٦) والطبرانى فى «الأوسط» فى «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٩) قال ابن حجر فى «فتح البارى» (٦/ ٥٩٢): ليس له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها. وأخرجه من طريق آخر: أبو نعيم فى «الدلائل» رقم (٣٣٨)، ومن طريق ثالث أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» كما فى «مجمع الزوائد» (٥/ ١٧٩) وقال: وفيه محمد بن أبى حُميد، وهو ضعيف.

وفى الصحيح: قصةُ حَنين الجِذْع، الذى كان يخطبُ عليه النبىُّ ﷺ قبل اتخاذ المنبر[١]. ومثلُ هذا كثير.

وقوله: «صُعقوا وخرُّوا لله سجداً» الصَّعق: هو الغشى، ومعه السجود.

وقوله: «فيكون أوَّلَ من يرفع رأسه جبريل» بفتح أول؛ خبر يكون تقدم على اسمها. ويجوز العكس.

ومعنى جبريل: عبد الله؛ كما روى ابنُ جرير، وغيره، عن على بن الحسين، قال: كان اسمِ جبريل: عبد الله، واسم ميكائيل: عُبيد الله، وإسرافيل: عبد الرحمن. وكلُّ شيءٍ رجع إلى إيل، فهو مُعبَّدٌ لله عز وجل[٢].

وفيه: فضيلةُ جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: **﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾**. [التكوير: ١٩ - ٢١].

قال ابنُ كثير رحمه الله: إنه لَتبليغُ رسولٍ كريم[٣].

قال أبو صالح[٤] ـ فى الآية ـ قال: جبريلُ يدخلُ فى سبعين حجاباً من نور، بغير إذن[٥].

ولأحمد ـ بإسنادٍ صحيح ـ عن ابن مسعود، قال: رأى رسولُ الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كلُّ جناح قد سدَّ الأفق. يسقط من جناحه من التهاويل[٦] والدر والياقوت، ما الله به عليم[٧].

فإذا كان هذا عِظم هذه المخلوقات، فخالقها أعظمُ وأجلُّ وأكبر. فكيف يسوّى

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٥٨٣) والترمذى فى «الجامع» رقم (٥٠٥) من حديث ابن عمر.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١/ ٤٣٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦١).

(٤) ميزان البصرى، مشهور بكنيته، من تلاميذ ابن عباس، مقبول. «تقريب» (٥٥٥).

(٥) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٣٠/ ٨٠).

(٦) التهاويل: واحدُها تَهْوَال، وهى الأشياء المختلفة الألوان، التى تهول الانسان وتحيره «النهاية» (٥/ ٢٨٣).

(٧) أحمد فى «المسند» (١/ ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤١٢، ٤٦٠) قال الحافظ ابن كثير فى «التفسير» (٧/ ٤٢٧): إسنادُه حسن، وأصلُ الحديث: عند البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨٥٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٨٢).

به غيره في العبادة. دعاءً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُون * لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم وَلاَ يَشْفَعُونَ إلا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِن خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنهُم إنِّي إِلهٌ مِن دُونِه فَذَلِكَ نَجْزِيه جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

قوله: «فينتهي جبريل/ بالوحي إلى حيثُ أمره الله عز وجل» «من السماء [٦٧/ب] والأرض» وهذا تمامُ الحديث.

والآياتُ المذكورة في هذا الباب، والأحاديث: تُقرِّرُ التوحيدَ، الذي هو مدلولُ شهادة أنْ لا إله إلا الله.

فإنَّ الملك العظيم، الذي تُصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابة، وترجُف منه المخلوقات. الكامل في ذاته وصفاته، وعلمه وقدرته، وملكه وعزِّه وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعهم إليه، ونفوذ قَدَره وتصرف فيهم لعلمه وحكمته: لا يجوز شرعاً ولا عقلاً، أنْ يُجعل له شريكٌ من خلقه في العبادة التي هي حقه عليهم.

فكيف يُجعل المربوب رباً، والعبد معبوداً؟ أين ذهبت عقولُ المشركين؟! سبحان الله عمّا يشركون.

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوات وَالأَرْضِ إلا آتي الرَّحْمنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُم وَعَدَّهُم عَداً * وَكُلُّهُم آتِيه يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً﴾. [مريم: ٩٣ - ٩٥].

فإذا كان الجميع عبيداً: فَلِمَ يَعبدُ بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرَّد الرأي والاختراع والابتداع؟! ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك الشرك، وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله. (انتهى من شرح سُنن ابن ماجة).

(١٦)
بـــاب
الشفـــاعــــة

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ الشفاعة.

ش: أي: بيانُ ما أثبته القرآن منها وما نفاه، وحقيقةُ ما دلَّ القرآنُ على إثباته.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنْذِرْ به الَّذينَ يَخافُونَ أن يُحْشَرُوا إلى ربِّهم لَيْسَ لَهُمْ من دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

ش : الإِنذار: هو الإِعلامُ بأسباب المخافة، والتحذيرُ منها.

قوله: به. قال ابنُ عباس: بالقرآن، ﴿الَّذينَ يَخَافُونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِهم﴾ وهو المؤمنون.

وعن الفُضَيل بن عياض: ليس كلَّ خلْقه عاتَب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنْذِر به الَّذِينَ يَخَافُونَ أن يُحْشَرُوا إلى ربِّهم﴾ أي: وهم المؤمنون، أصحاب القلوب الواعية.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم من دُونه وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ قال الزَّجّاج: موضع ليس: نُصب على الحال، كأنه قال: متخلِّين، من وليّ وشفيع. والعاملُ فيه: يخافون.

قوله: ﴿لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ أي: فيعملون في هذه الدار عملاً، ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿قُلْ لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾.

ش: وقبلها ﴿أَمِ اتَّخذُوا مِن دُونِ الله شُفَعَاء/ قُلْ أوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَملِكُونَ شَيْئاً وَلاَ [٦٨/أ]

يَعقلُونَ﴾. [الزمر: ٤٣] وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُون الله مَا لاَ يَضرُهُم وَلاَ يَنْفَعُهُم وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عنْدَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فى السَّمَوَاتِ وَلاَ فى الأرضِ سُبحَانَهُ وتَعَالى عَمَّا يُشرِكون﴾. [يونس: ١٨] فبيَّن تعالى فى هذه الآيات، وأمثالها: أنَّ وقوع الشفاعة على هذا الوجه، منتفٍ وممتنع.

وأنَّ اتخاذهم شفعاء شركٌ، يتنزّه الرب تعالى عنه. وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلا نَصرَهُم الَّذينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً آلهةَ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُم وَذَلكَ إفكُهُم وَمَا كَانُوا يَفتَرُونَ﴾. [الأحقاف: ٢٨] فبيَّن تعالى: أنَّ دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألُّهِهِم، أنَّ ذلك منهم إفكٌ وافتراء.

وقوله: ﴿قُلْ لله الشَّفَاعَةُ جميعاً﴾ أى: هو مالكها، وليس لمن تُطلب منه شىءٌ منها، وإنما تُطلب ممن يملكُها دون كلٍّ ما سواه؛ لأن ذلك عبادةٌ، وتألُّه لا يصلُح إلا لله.

قال البيضاوى: لعله ردٌّ لما عسى أنْ يُجيبوا به، وهو أنَّ الشفعاء أشخاصٌ مقربون.

وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ﴾ تقريرٌ لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه؛ لأنه مالكُ الملك، فاندرج فى ذلك ملكُ الشفاعة. فإذا كان هو مالكها، بطل أنْ تُطلب ممن لا يملكها ﴿مَن ذَا الَّذى يَشْفعُ عِنْدَهُ إلا بإذْنه﴾، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلا لمن ارْتَضى﴾. [الأنبياء: ٢٨].

قال ابنُ جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبدُ أوثاننا هذه، إلا ليقربونا إلى الله زُلفى. قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ ثُمَّ إليْه تُرْجَعُونَ﴾(١) [الزُّمر: ٤٤].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: ﴿مَن ذَا الَّذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بإذنه﴾. [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) ابن جرير، «التفسير» (٥/ ٣٩٥).

ش : قد تبيَّن مما تقدم من الآيات: أنَّ الشفاعة التى نفاها القرآن، هى التى تُطلب من غير الله.

وفى هذه الآية: بيانُ أنَّ الشفاعة إنما تقع فى الدارالآخرة بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلا مَن أذِنَ لَهُ الرَّحمَنُ وَرَضِى لَهُ قَوْلاً﴾. [طه: ١٠٩].

فبيَّن أنها لا تقع لأحد، إلا بشرطين: إذنُ الرب تعالى للشافع أنْ يشفع، ورضاهُ عن المأذون بالشفاعة فيه. وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، إلا ما أُريد به وجهه، ولقى العبدُ به مخلصاً غيرَ شاكٍّ فى ذلك؛ كما دلَّ على ذلك الحديثُ الصحيح[1]. وسيأتى ذلك مقرراً، فى كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى./ [٦٨/ب]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّموَاتِ لا تُغنى شَفَاعَتُهُم شيئاً إلا مِن بَعْدِ أن يَأذَنَ الله لَمِنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

ش: قال ابنُ كثير: ﴿وكَمْ من مَلَكٍ فى السَّموَات لاَ تُغْنى شَفَاعَتُهم شيئاً إلا من بَعْد أنْ يَأذَنَ الله لَمنْ يشَآءُ ويَرْضَى﴾ كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذى يَشْفَعُ عنْدَهُ إلا بإذْنه﴾، ﴿ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلا لمَنْ أذن لَهُ﴾ فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعةَ هذه الأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها، ولا أذن فيها. بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذين زَعَمْتُم من دُون الله لا يَملكُونَ مثْقَالَ ذَرَّة فى السَّموَات وَلاَ فى الأرض وَمَالهم فيهما من شرك، وَمَا لَهُ منهُم من ظَهِير * وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندهُ إلا لَمَنْ أذنَ لَهُ﴾. [سبأ: ٢٢ - ٢٣].

ش : قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى، فى الكلام على هذه الآيات: وقد قطع

(١) منها حديث أبى هريرة، عند مسلم فى الصحيح» رقم (١٩٠٥)، وحديث أبى موسى الأشعرى رقم (١٩٠٤) وفيه: «من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٣٤).

الله الأسباب التى يتعلَّق بها المشركون جميعها. فالمشرك إنما يتخذ معبودَه لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلةٌ من هذه الأربع: إمَّا مالكٌ لما يريدُه عابدُه منه، فإنْ لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإنْ لم يكن شريكاً له كان مُعيناً له وظهيراً، فإنْ لم يكن مُعيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتبَ الأربع نفياً مُرتبا، منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى. فنفى الملكَ والشركة، والمظاهرة والشفاعة التى يطلُبها المشرك. وأثبت شفاعةً لا نصيب فيها لمشرك، وهى الشفاعةُ بإذنه.

فكفى بهذه الآية: نوراً وبرهاناً، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك وموادّه لمن عقلها.

والقرآنُ مملوءٌ من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنه فى نوعٍ وقومٍ قد خَلَوا من قبلُ، ولم يُعقبوا وارثاً. وهذا هو الذى يحولُ بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله، إنّ كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلُهم أو شرٌّ منهم، أو دونهم. وتناولُ القرآن لهم كتناوله لأولئك[1].

ثم قال: ومن نوعه ـ أى: الشرك ـ طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثةُ بهم.

[٦٩/أ] وهذا أصلُ شرك العالم؛ فإنَّ الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً لمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. فإنَّه لا يقدر أنْ يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه وإنما السبب كمالُ التوحيد. فجاء هذا المشركُ بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان فى حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالةُ كلِّ مشرك.

فجمعوا: بين الشرك بالمعبود، وتغيير دينه، ومعاداة أهلِ التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات. وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣).

منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداءُ الرسل فى كلِّ زمانٍ ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم.

وما نجا من شَرَكِ هذا الشرك الأكبر إلا من جَرَّد توحيدَه لله، وعادى المشركين فى الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحدَه وليّه وإلّهه ومعبوده.

فجرَّد حُبَّه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكُّله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله. متبعاً لأمره، مُتطلِّباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله، وبالله، ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله[1].

وهذا الذى ذكره هذا الإمام: هو حقيقةُ دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾. [النساء: ١٢٥].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال أبو العباس: نفى الله عمَّا سواه، كلَّ ما يتعلق به المشركون. فنفى أنْ يكون لغيره مِلكٌ أو قسطٌ منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبقَ إلا الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفعُ إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنْ ارْتَضَى﴾. [الأنبياء: ٢٨].

فهذه الشفاعةُ التى يظنها/ المشركون: هى مُنتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، [٦٩/ب] وأخبر النبىُّ ﷺ: أنه يأتى فيسجدُ لربه ويحمَدُه. لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تُعط واشفع تُشفَّع»[2].

وقال له أبو هريرة: من أسعدُ الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»[3] فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

---

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

(٢) قطعةٌ من حديث الشفاعة: أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٣٤٠، ٣٣٦١، ٤٧١٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٩٤) من حديث أبى هريرة.

(٣) سيأتى تخريجه.

وحقيقتُه: أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذى يتفضَّل على أهل الإِخلاص، فيغفرُ لهم بواسطة دعاء من أذن له أنْ يشفع، ليُكرمَه وينال المقام المحمود. فالشفاعةُ التى نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعةَ بإذنه فى مواضع، وقد بيَّن النبىُّ ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص[1].

ش: قوله: (قال أبو العباس): هو كُنيةُ شيخ الإِسلام، أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام ابن تيمية الحرانى، إمام المسلمين رحمه الله.

قوله: (وقال له أبو هريرة) إلى آخره. هذا الحديث رواه البخارى، والنسائى، عن أبى هريرة[2].

ورواه أحمدُ، وصححه ابنُ حبان، وفيه: «وشفاعتى لمن قال: لا إله إلا الله مخلصاً، يُصدِّقُ قلبُه لسانَه، ولسانه قلبه»[3].

وشاهدُه فى (صحيح مسلم)، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «لكل نبيٍ دعوةٌ مُستجابة، فتعجَّل كلُّ نبى دعوته، وإنى اختبأتُ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلةٌ إنْ شاء الله من مات لا يُشرك بالله شيئاً»[4].

وقد ساق المصنِّفُ رحمه الله كلام شيخ الإِسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما فى هذا الباب من الآيات. وهو كافٍ وافٍ، بتحقيق مع الإِيجاز. والله أعلم.

وقد عَرَّف الإِخلاص بتعريفٍ حسن، فقال: الإِخلاصُ: محبّةُ الله وحده، وإرادةُ وجهه[5].

وقال ابنُ القيم رحمه الله ـ فى معنى حديث أبى هريرة ـ: تأمل هذا الحديث كيف جعل الأسباب التى تُنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أنَّ الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم. فقلَب النبىُّ ﷺ ما فى

---

(١) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإِسلام» (١١٩ - ١٢١).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٩٩، ٦٥٧٠)، والنسائى فى «السنن الكبرى» فى كتاب «العلم» كما فى «تحفة الأشراف» (٩/ ٤٨٣).

(٣) أحمد فى «المسند» (٢/ ٣٠٧) وابن حبان فى «الصحيح» (٨/ ١٣١).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٩٩)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (٢/ ٢٧٥).

(٥) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢/ ٨٩).

زعمهم الكاذب، وأخبر أنَّ سبب الشفاعة تجريدُ التوحيد، فحينئذ يأذن/ الله [٧٠/أ] للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك اعتقادُه أنَّ من اتخذه ولياً أو شفيعاً، أنه يشفعُ له وينفعه عند الله، كما يكون خواصُّ الملوك والولاة تنفع مَن والاهم.

ولم يعلموا أنه لا يشفعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله؛ كما قال فى الفصل الأول: **﴿مَن ذا الَّذى يَشْفَعُ عنْدَهُ إلا بإذْنه﴾** وفى الفصل الثانى: **﴿ولاَ يَشْفَعُونَ إلا لمَنْ ارْتَضَى﴾** وبقى فصلٌ ثالث، وهوَ أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيدَه واتباع رسوله ﷺ. فهذه ثلاثةُ فصول، تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها. انتهى[١].

وذكر أيضاً رحمه الله: أنَّ الشفاعة ستةُ أنواع:

الأول: الشفاعةُ الكبرى، التى يتأخَّرُ عنها أُولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى تنتهى إليه ﷺ، فيقول: أنا لها[٢]. وذلك حين يرغبُ الخلائقُ إلى الأنبياء، ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يُريحهم من مقامهم فى الموقف. وهذه شفاعةٌ يختصُّ بها، لا يَشْرَكه فيها أحد.

الثانى: شفاعتُه لأهل الجنة، فى دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة، فى حديثه الطويل المتفق عليه[٣].

الثالث: شفاعتُه لقومٍ من العُصاة من أمته، قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفعُ لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعتُه فى العُصاة من أهل التوحيد، الذين يدخلون النار بذنوبهم.

والأحاديثُ بها متواترة عن النبى ﷺ، وقد أجمع عليها الصحابةُ وأهلُ السنة قاطبة، وبدَّعوا من أنكرها، وصاحوا به من كلِّ جانب، ونادوا عليه بالضلال.

---

(١) ابن القيم «مدارج السالكين» (١/ ٣٤١).

(٢) قطعةٌ من حديث: أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٧٥١٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٩٣) من حديث أنس.

(٣) مضى تخريجه قريبا.

الخامس: شفاعتهُ لقومٍ من أهل الجنة، في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم. وهذه مما لم يُنازع فيها أحد.

وكلها مختصةٌ بأهل الإخلاص، الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾. [الأنعام: ٥١].

السادس: شفاعتهُ في بعض الكفَّار من أهل النار، حتى يُخفَّف عذابه. وهذه خاصةٌ بأبي طالب وحده.

(١٧)

بـــاب

قول الله تعالى:

﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. [القصص: ٥٦].

ش: سببُ نزول هذه الآية: موتُ أبى طالب على ملَّة عبد المطلب، كما يأتى بيانُ ذلك فى حديث الباب.

قال ابنُ كثير: يقول تعالى لرسوله: إنك يا محمد ﴿لا تَهْدى من أحْبَبتَ﴾ أى: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدى/ من يشاء، وله الحكمةُ [٧٠/ب] البالغة، والحجة الدامغة؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْس عَلَيْكَ هُدَاهُم وَلَكنَّ الله يَهْدى مَنْ يَشَآء﴾. [البقرة: ٢٧٢] وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمُؤْمنينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قلتُ: والمنفىُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول؛ فإنَّ أمر ذلك إلى الله، وهو القادرُ عليه. وأمَّا الهداية المذكورة فى قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّك لَتَهْدى إلى صراط مُسْتَقيم﴾. [الشورى: ٥٢] فإنها هدايةُ الدلالة والبيان. فهو المبيِّنُ عن الله، والدالُّ على دينه وشرعه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن ابن المسيَّب عن أبيه، قال: لما حضرَتْ أبا طالب الوفاة، جاءه رسولُ الله ﷺ وعنده عبدُ الله بن أبى أُميَّة،

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥٥).

وأبو جهل، فقال له: «يا عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله».
فقالا له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبيُّ ﷺ، فأعاد. فكان آخرُ ما قال: هو على مِلَّة عبد المطلب. وأبى أنْ يقول: لا إله إلا الله. فقال النبيُّ ﷺ «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك» فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِى وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُم أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل فى أبى طالب ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾(١).

ش : قوله: فى (الصحيح)، أى فى (الصحيحين).

وابن المسيب، هو سعيدُ بن المسيب بن حَزْن بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ ابن عمران بن مخزوم القُرشى المخزومى، أحدُ العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهلُ الحديث على أنَّ مراسيله أصحُّ المراسيل. وقال ابنُ المَدينى: لا أعلمُ فى التابعين أوسع علماً منه. مات بعد التسعين، وقد ناهز الثمانين.

وأبوه المسيب صحابى، بقى إلى خلافة عثمان رضى الله عنه، وكذا جدُّه حزْن، صحابىٌّ استُشْهِدَ باليمامة.

قوله: (لَّما حضرت أبا طالب الوفاة). أى: علاماتُها ومقدماتها.

قوله: (جاءهُ رسول الله ﷺ). يُحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين؛ فإنهما من بنى مخزوم، وهو أيضاً مخزومى. وكان الثلاثةُ إذ ذاك كفاراً؛ فقُتل أبو جهل على كفره، وأسلم الآخران.

[٧١/أ] قوله: «يا عمِّ» منادى مُضاف/ ، يجوز فيه إثباتُ الياء وحذفها. حُذفت الياءُ هُنا، وبقيت الكسرة دليلاً عليها.

قوله: «قل: لا إله إلا الله» أمره أنْ يقولها، لِعلم أبى طالب بما دلَّت عليه: من نفى الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده.

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٤).

فإنَّ من قالها بعلم ويقين، فقد برىء من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام؛ لأنهم يعلمون ما دلَّت عليه. وفي ذلك الوقت، لم يكن بمكة إلا مسلمٌ أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك، وبرىء منه.

ولما هاجر النبيُّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة: كان فيها المسلمون الموحّدون، والمنافقون الذين يقولون بألسنتهم وهم يعرفون معناها لكن لا يعتقدونه، لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن.

وفيها اليهود، وقد أقرَّهم رسولُ الله ﷺ لمَّا هاجر، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يُظاهروا عليه عدواً، كما هو مذكورٌ في كُتب الحديث والسِّير.

قوله: «كلمةً» قال القرطبي: بالنصب، على أنه بدلٌ من لا إله إلا الله. ويجوز الربع، على أنه خبرُ مبتدأ محذوف.

قوله: «أحاجُّ لك بها عند الله» هو بتشديد الجيم، من المحاجة.

وفيه: دليلٌ على أنَّ الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها في تلك الحال، معتقداً ما دلَّت عليه مطابقة من النفي والإثبات، لنفعته.

قوله: (فقالا له: أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟). ذكَّراه الحجَّةَ الملعونة، التي يحتج بها المشركون على المرسلين؛ كقول فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

قوله: (فأعاد عليه النبيُّ ﷺ، فأعادا). فيه: معرفتهُما معنى لا إله إلا الله؛ لأنهما عرفا أنَّ أبا طالب لو قالها لتبرأ من ملَّة عبد المطلب. فإنَّ ملَّة عبد المطلب هي الشرك بالله في إلهيته؛ وأمَّا الربوبيةُ فقد أقروا بها كما

تقدم، وقد قال عبدُ المطلب لأبْرَهَة:[1] أنا ربُّ الإبل، والبيتُ له ربٌّ يمنعه منك[2].

[٧١/ب] وهذه المقالة منهما/ عند قول النبي ﷺ لعمه «قل: لا إله إلا الله» استكباراً عن العمل بمدلولها؛ كما قال الله تعالى عنهما، وعن أمثالهما من أولئك المشركين: ﴿إِنَّهُم كَانُوا إِذاَ قِيلَ لَهُم لاَ إِلهَ إِلا الله يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦] فردَّ عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ﴾ [الصفات: ٣٧].

فبيَّن تعالى أنَّ استكبارهم عن قول: لا إله إلا الله؛ لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإنَّ دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالةُ تضمنٍ، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالةُ مطابقة.

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام، ليبيِّن لعباده أنَّ ذلك إليه، وهو القادرُ عليه دون من سواه.

فلو كان عند النبي ﷺ ـ الذي هو أفضلُ خلقه ـ من هداية القلوب وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيءٌ: لكان أحقَّ الناس بذلك وأولاهم به عمُّه، الذي كان يحوطُه ويحميه وينصره ويؤويه. فسبحان من بَهَرَتْ حكمتُه العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلهم على معرفته وتوحيده؛ وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: (فكان آخرُ ما قال)، الأحسن فيه الرفعُ، على أنَّه اسمُ كان. وجملةُ هو، وما بعدها الخبر.

قوله: (هو على ملة عبد المطلب). الظاهرُ أنَّ أبا طالب، قال: أنا. فغيَّره الراوي؛ استقباحاً للَّفظ المذكور، وهي من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ[1].

---

(١) ابرهة الأشرم بن الصباح أبايكسوم، من قواد النجاشي، تولى الجيش الذي بعثه إلى اليمن لانقاذ من بقي من النصارى في تلك البلاد، «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٩٠).

(٣) ابن حجر، «فتح الباري» (٨/ ٥٠٧).

قوله: (وأبى أنْ يقول: لا إله إلا الله)، قال الحافظ: هذا تأكيدٌ من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب.

قال المُصنِّفُ: وفيه الردُّ على من زعم إسلامَ عبد المطلب[1]، وأسلافِه. ومضرَّةُ أصحاب السوء على الإنسان، ومضرَّةُ تعظيم الأسلاف[2].

أى: إذا زاد على المشروع، بحيثُ تُجعلُ أقوالهم حجة يُرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبى ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك» قال النووى: وفيه جوازُ الحَلِف من غير استحلاف. وكأنَّ الحلف هنا لتأكيد/ العزم على الاستغفار، [٧٢/أ] تطييباً لنفس أبى طالب.

وكانت وفاةُ أبى طالب بمكة، قبل الهجرة بقليل.

قال ابنُ فارس: مات أبو طالب، ولرسول الله ﷺ تسعٌ وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً.

وتوفيت خديجةُ أمُّ المؤمنين رضى الله عنها، بعد موت أبى طالب بثمانية أيام.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. أى: ما ينبغى لهم ذلك. وهو خبرٌ بمعنى النهى، والظاهرُ أنَّ هذه الآية نزلت فى أبى طالب؛ فإنَّ الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب، فى قوله: فأنزل الله، بعد قوله: «لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك» يُفيد ذلك.

وقد ذكر العلماءُ لنزول هذه الآيةِ أسباباً أُخر، فلا منافاة؛ لأن أسباب النزول قد تتعدد.

قال الحافظ: أمَّا نزولُ الآية الثانية، فواضحٌ فى قصة أبى طالب. وأمَّا نزول الآية التى قبلها، ففيه نظر.

ويهظر أنَّ المراد: أنَّ الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبى طالبٍ بمدة، وهى عامةٌ فى حقه وحق غيره.

---

(١) الأصل و(ض): أبى طالب. والمثبت من (هـ) و(ط) «وكتاب التوحيد». ويرد عليهم أيضاً ما ثبت من حديث أبى سعيد الخدرى، أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٨٨٥، ٦٥٦٤) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١١) وحديث ابن عباس، أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٢) وأحمد فى «المسند» (١/ ٢٩٠).

(٢) المسائل: السادسة والثامنة والتاسعة.

يوضِّحُ ذلك ما يأتي في التفسير: فانزل الله بعد ذلك ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِي وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، ونزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

كلُّه ظاهرٌ في أنه مات على غير الإسلام، ويُضَعِّفُ ما ذكره السُّهَيلي: أنه رأى في بعض كُتب المسعودي[1] أنه أسلم؛ لأن مثل ذلك لا يُعارِضُ ما في الصحيح. انتهى[2].

وفيه: تحريمُ الاستغفار للمشركين، وموالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرُمَ الاستغفارُ لهم فموالاتهُم ومحبتهم أولى.

---

(١) أبو الحسن، على بن الحسين بن على المسعودي، إخباري صاحب غرائب. قال ابن حجر: وكتبه طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً. ت (٣٤٥هـ). «لسان الميزان» (٤/ ٢٢٤).

(٢) ابن حجر، «فتح الباري» (٧/ ١٩٥).

(١٨)

بـــاب

ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هـو الغلـو في الصالحـين

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء أنَّ سبب كُفرِ بنى آدم وتركِهم دينَهم هو الغلوُّ فى الصالحين.

ش: قوله: (تركهم). بالجر عطفاً على المضاف إليه. وأراد المصنفُ رحمه الله تعالى: بيانَ ما يؤول إليه الغلو فى الصالحين، من الشرك بالله فى الإلهية الذى هو أعظمُ ذنب عُصى الله به، وهو ينافى التوحيد الذى دلَّت عليه كلمةُ الإخلاص، شهادة أنْ لا إله إلا الله.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله عز وجل: **﴿يَا أَهْلَ الكتَاب لاَ تَغْلُوا فى دينكُم ولا تَقولُوا على الله إلا الحقَّ إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريم رسولُ الله وكلمتُه ألقاهَا إلى مريم وروحٌ منه﴾** [النساء: ١٧١].

ش: الغلو: هو الإفراطُ فى التعظيم، بالقول والاعتقاد/ . أى: لا ترفعوا [٧٢/ب] المخلوقَ عن منزلته التى أنزل الله، فتنزّلوه المنزلةَ التى لا تنبغى إلا لله.

والخطابُ: وإنْ كان لأهل الكتاب، فإنَّه عامٌّ يتناول جميعَ الأمة؛ تحذيراً لهم أنْ يفعلوا فعل النصارى فى عيسى عليه السلام، واليهود فى العُزير، كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ يَأن للَّذينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُم لذكْر الله وَمَا نزل منَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذينَ أُوتُوا الكتَابَ من قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثيرٌ منْهُم فَاسقُونَ﴾** [الحديد: ١٦] ولهذا قال النبىُّ ﷺ: «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم» ويأتى.

فكلُّ من دعا نبياً، أو ولياً من دون الله: فقد اتخذه إلهاً، وضاهى النصارى فى شركهم، وضاهى اليهود فى تفريطهم.

فإنَّ النصارى غلوا فى عيسى عليه السلام، واليهود عادَوه وسبُّوه وتنقَّصوه. فالنصارى أفرطوا، واليهودُ فرَّطوا؛ وقد قال تعالى: ﴿مَا المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يأكلاَنِ الطَّعَامَ﴾ الآية. [المائدة: ٧٥] ففى هذه الآية وأمثالِها: الردُّ على اليهود والنصارى.

قال شيخُ الإسلام: ومن تشبَّه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا فى الدين بإفراط فيه أو تفريط، فقد شابههم.

قال: وعليٌّ رضى الله عنه حرَّق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِندة، فقذفهم فيها. واتفق الصحابةُ على قتلهم، لكنَّ ابن عباس مذهبُه أنْ يُقتلوا بالسيف من غير تحريق، وهو قولُ أكثر العلماء[(١)]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن ابن عباس - فى قول الله تعالى: ﴿وقالوا لاَ تَذرُنَّ آلِهَتَكُم وَلاَ تَذَرُنَّ وداً وَلاَ سُواعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ - قال: هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم: أنِ انصِبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسى العلم، عُبدت[(٢)].

ش : قوله: فى (الصحيح) أى: (صحيح البخارى).

[٧٣/أ] وهذا الأثرُ، اختصره المصنِّفُ رحمه الله. ولفظ/ ما فى البخارى، عن ابن عباس: صارتِ الأوثانُ التى فى قوم نوح، فى العرب بعدُ. أمَّا وَدٌّ: فكانت لكلْب، بدَوْمَة الجندَل. وأمَّا سُواعٌ؛ فكانت لهُذيل. وأمَّا يَغـوثُ: فكانت لمراد، ثم لبنى غُطيف بالجُرف عنـد سَبأ. وأمَّا يعـوق: فكانت لهمْدان. وأمَّا نَسْرٌ:

---

(١) ابن تيمية، ينظر «منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية» (١/ ٢٨). و«مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٠، ٣٩٤).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٩٢٠) وعبد الرزاق فى «التفسير» (٢١/ ٣٢٠).

فكانت لحِمْيَرَ، لآلِ ذى الكَلاع: أسماءُ رجالٍ صالحين، فى قوم نوح. إلى آخره.

وروى: عن عكرمة، والضَّحاك، وابن إسحاق، نحو هذا.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ حميد، قال: حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد بن قيس: أنَّ يغوث ويعوق ونسراً، كانوا قوماً صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم. فلمَّا ماتوا، قال أصحابهم: لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة؛ فصوَّروهم. فلما ماتوا، وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم[1].

قوله: (أنِ انصِبوا)، هو بكسر الصاد المُهملة.

قوله: (انصاباً). جمع نُصب، والمراد به هنا: الأصنامُ المصوَّرة على صور أولئك الصالحين، التى نصبوها فى مجالسهم، وسمَّوها بأسمائهم.

وفى سياق حديث ابن عباس: ما يدلُّ على أنَّ الأصنام تُسمَّى أوثاناً. فاسمُ الوثن، يتناول كلَّ معبودٍ من دون الله، سواء كان ذلك المعبودُ قبراً أو مَشْهداً، أو صورةً أو غير ذلك.

قوله: (حتى إذا هلك أولَئك). أى: الذين صوَّروا تلك الأصنام.

قوله: (ونُسى العلم)، ورواية البخارى: وتَنَسَّخ. وللكُشْمِيْهَنى[2]: ونُسخ العلم. أى: درست آثارهُ بذهاب العلماء، وعمَّ الجهلُ حتى صاروا لا يُميِّزون بين التوحيد والشرك. فوقعوا فى الشرك، ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله.

قوله: (عُبدت). لما قال لهم إبليس: إنَّ من كان قبلكم كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر.

فهو الذى زَيَّن لهم عبادة الأصنام، وأمرهم بها. فصار هو معبودهم فى الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يَا بَنى آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ

---

(١) «تفسير الطبرى» (٢٩/ ٩٨).

(٢) أبو الهيثم، محمد بن مكى بن محمد المروزى، محدث ثقةٌ، من رواة صحيح البخارى. ت (٣٨٩هـ) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٤٩١).

عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُم جِبِلا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

[٧٣/ب] وهذا يفيدُ الحذرَ من الغلوِّ ووسائل الشرك، وإنْ/ كان القصد بها حسناً.

فإنَّ الشيطان أدخل أولئك فى الشرك من باب الغلو فى الصالحين، والإفراط فى محبتهم، كما قد وقع مثلِ ذلك فى هذه الأمة. أظهر لهم البدعَ والغلوَّ فى قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك، من عبادتهم لهم من دون الله.

وفى رواية، أنهم قالوا: ما عَظَّم أوّلُنا هولاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله. أى: يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوَّروا تلك الأصنام على صورهم، وسمَّوها بأسمائهم.

ومن هُنا يعلُم أنَّ اتخاذ الشفعاء، ورجاءَ شفاعتهم بطلبها منهم: شركٌ بالله، كما تقدم بيانُه فى الآيات المحكمات.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال ابنُ القيم: قال غيرُ واحدٍ من السَّلف: لَمَّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم. ثم طال عليهم الأمدُ، فعبدوهم[1].

ش : قوله: (وقال ابن القيم). هو الإمام العلامة، محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى، المعروف بابن قيم الجوزية.

قال الحافظ السخاوى: العلامةُ الحجة، المتقدِّمُ فى سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمعُ عليه بين الموافق والمخالف، صحابُ التصانيف السائرة، والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

قوله: (قال غيرُ واحد من السلف). هو بمعنى ما ذكره البخاريُّ، وابنُ جرير. إلا أنه ذكر عكوفَهم على قبورهم، قبل تصويرهم تماثيلهم.

وذلك من وسائل الشرك، بل هو شرك؛ لأن العكوف لله فى المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور، صار عكوفُهم ـ تعظيماً ومحبة ـ عبادةً لها.

---

(١) ابن القيم، «اغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٣).

قوله: (ثم طال عليهم الأمدُ فعبدوهم). أي: طال عليهم الزمان. وسبب تلك العبادة والموصل إليها: هو ما جرى من الأولين، من التعظيم فى العكوف على قبورهم، ونصب صورهم فى مجالسهم. فصارت بذلك أوثاناً تعبدُ من دون الله، كما ترجم به المصنفُ رحمه الله تعالى.

فإنهم تركوا بذلك دينَ الإِسلام، الذى كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك.

فكفروا بعبادة تلك الصور، واتخاذهم شفعاء. وهذا أوَّلُ شرك حدث فى الأرض.

قال القُرطبى: وإنما صوَّر أوائلُهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قومٌ جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنَّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. انتهى[1].

قال ابنُ القيم: ومازال الشيطانُ يُوحى إلى عُبَّاد القبور، ويُلقى إليهم أنَّ البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأنَّ الدعاء عندها مُستجاب. ثم ينقلُهم من هذه المرتبة إلى الدعاء به، والإِقسام على الله به، فإن شأن الله أعظمُ من أنْ يُقسم عليه، أو يُسأل بأحدٍ من خلقه.

فإذا تقرَّر ذلك عندهم. نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذِ قبره وثناً تُعلَّقُ عليه القناديلُ والستور، ويُطاف به ويُستلم ويُقبَّل، ويُحج إليه ويذبح عنده!

فإذا تقرَّر ذلك عندهم. نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذِه عيداً ومنسكاً، ورأوا أنَّ ذلك أنفعُ لهم فى دنياهم وأُخراهم.

وكلٌّ هذا مما قد عُلم بالاضطرار من دين الإِسلام، أنه مضادٌّ لما بعث الله به رسول ﷺ: من تجريد التوحيد، وأنْ لا يُعبد إلا الله.

---

(١) القرطبى، «أحكام القرآن» (١٨/ ٣٠٨).

فإذا تقرَّر ذلك عندهم. نقلهم منه إلى أنَّ مَن نهى عن ذلك فقد تنقَّص أهلَ الرتب العالية، وحطَّهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حُرمة لهم ولا قدر.

وغضب المشركون واشمأزَّت قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُم يَسْتَبْشِرونَ﴾ [الزُّمر: ٤٥] وسرى ذلك في نفوس كثيرٍ من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين. حتى عادَوْا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفَّروا الناس عنهم، ووالَوْا أهلَ الشرك وعظَّموهم، وزعموا أنهم أولياءُ الله، وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. انتهى كلامُ ابن القيم رحمه الله تعالى(١).

[٧٤/ب] وفي القصة فوائد/ ذكرها المصنفُ رحمه الله:

(٢)منها: أنَّ من فهم هذا الباب وما بعده، تبيَّن له غربةُ الإِسلام، ورأى من قُدرة الله وتقليبه القلوب العجب.

ومنها: أنَّ أوَّلَ شرك حدث في الأرض، سببُه محبةُ الصالحين. أي: المحبة التي فيها غُلوّ.

ومنها: معرفةُ أوَّل شيءٍ غُيِّر به دينُ الأنبياء.

ومنها: معرفةُ سبب قبول البدع، مع كون الشرائع والفِطر تُنكرها، وأنَّ سبب ذلك كلّه مَزْجُ الحق بالباطل، بأمرين:

الأول: محبةُ الصالحين. والثاني: فِعلُ أُناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظنَّ مَن بعدهم أنهم أرادوا غيره.

ومنها: معرفة جبلّة الإِنسان، في كون الحق ينقصُ في قلبه والباطل يزيد. أي: في الغالب.

ومنها: أنَّ فيها شاهداً لما نُقل عن بعض السلف: أنَّ البدعة سبب الكفر، وأنها

---

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣١).

(٢) من هنا ساقطٌ من (ط).

أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية قد يُتابُ منها، والبدعة لا يُتاب منها[1].

ومنها: معرفةُ الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حَسُن قصد الفاعل.

ومنها: معرفة القاعدة الكلية، وهى: النهى عن الغلو، ومعرفةُ ما يؤول إليه. أى: من الشرك.

ومنها: النهىُ عن التماثيل، والحكمة فى إزالتها.

ومنها: معرفةُ عظم شأن هذه القصة، وشدةِ الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

ومنها: ـ وهى أعجب ـ قراءتُهم إياها فى كتب التفسير والحديث، ومعرفتُهم لمعنى الكلام، وكون الله تعالى حال بين قلوبهم، حتى اعتقدوا أنَّ فعل قوم نوح هو أفضلُ العبادة، واعتقدوا أنَّ نهى الله ورسوله هو الكفر المُبيح للدم والمال.

يعنى: لو نهاهم ناهٍ بنهى الله لهم عن الشرك، لكفَّروه واستحلوا دمه وماله بذلك.

ومنها: التصريحُ بأنهم لم يُريدوا إلا الشفاعة.

ومنها: ظنُّهم أنَّ الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك.

ومنها: التصريحُ بأنها لم تُعبد، حتى نُسى العلم. ففيها: معرفةُ قدر وجوده ومضرّة فقده.

ومنها: أنَّ سبب فقد العلم موتُ العُلماء. انتهى[2] [3].

ومنها: ردُّ الشبه التى يُسمِّيها أهلُ الكلام عقليات، ويدفعون بها ما جاء به الكتابُ والسنة:/ من توحيد الصفات، وإثباتها على ما يليقُ بجلال الله وعظمته [٧٥/أ] وكبريائه.

ومنها: مضرَّةُ التقليد.

(١) أخرجه ابن الجعد فى «المسند» رقم (١٨٨٥) عن سفيان.

(٢) إلى هنا ساقط من (ط).

(٣) المسائل: الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسابعة، والثامنة، والتاسعة، والعاشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرون.

ومنها: ضرورة الأمة إلى ما جاء به الرسول ﷺ، علماً وعملاً بما يدلُّ عليه الكتاب والسنة، فإنَّ ضرورة العبد إلى ذلك فوق كلِّ ضرورة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لا تُطْرُونى كما أطَرتِ النصارى ابنَ مريم؛ إنما أنا عبدٌ. فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أخرجاه[1].

ش: قوله: (عن عمر)، هوابنُ الخطاب بن نُفيل - بنون وفاء مصغَّراً - العَدوى، أميرُ المؤمنين، وأفضلُ الصحابة بعد الصديق رضى الله عنهم. ولِىَ الخلافة عشر سنين ونصفاً، فامتلأت الدنيا عدلاً، وفُتحت فى أيامه ممالكُ كسرى وقيصر. واستُشهد فى ذى الحجة، سنة ثلاث وعشرين.

قوله: «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم» الإطراء: مجاوزةُ الحدّ فى المدح، والكذب فيه. قاله أبوالسعادات. وقال غيرُه: أى: لا تمدحونى بالباطل، ولا تجاوزوا الحدَّ فى مدحى.

قوله: «إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أى: لا تمدحونى فتغلوا فى مدحى، كما غلت النصارى فى عيسى عليه السلام، فادّعَوْا فيه الإِلهية. وإنما أنا عبدُ الله، فصفونى بذلك كما وصفنى ربىّ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله.

فأبى المشركون إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه. فعظَّموه بما نهاهم عنه وحذَّرهم منه، وناقضوه أعظمَ مناقضة، وضاهوا النصارى فى غُلُوهم وشركهم، ووقعوا فى المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطولُ عدُّه، وصنَّفوا فيه المصنفات.

وقد ذكر شيخُ الإِسلام، عن بعض أهل زمانه: أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ، فى كلِّ ما يُستغاث فيه بالله. وصنَّف فى ذلك مصنفاً، ردَّه شيخُ الإِسلام، وردُّه موجودٌ بحمد الله[2].

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٤٥، ٦٨٣٠) واصله عند مسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٩١).

(٢) يُعرف بكتاب «الاستغاثة» أو «الرد على البكرى» (على بن يعقوب بن جبريل ت ٧٢٤ هـ. «طبقات الداودى» (٢/ ٢١٥) طُبع مختصرُه منذ سنوات طويلة.

ويقول: إنه يعلمُ مفاتيح الغيب، التى لا يعلمها إلا الله. وذكر عنهم أشياءَ من هذا النمط. نعوذُ بالله من عمى البصيرة.

وقد اشتهر فى نظم البُوصِيرى، قوله:

ياأكرمَ الخلق ما لى من ألوذُ به   سواك عند حُلول الحادث العَمِمِ[1]!!

/ وما بعده من الأبيات، التى مضمونُها: إخلاصُ الدعاء، واللياذ والرجاء [٧٥/ب] والاعتماد ـ فى أضيق الحالات، وأعظم الاضطرار ـ لغير الله.

فناقضوا الرسول ﷺ فى ارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقُّوا الله ورسوله أعظمَ مشاقة.

وذلك أنَّ الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم، فى قالب محبة النبى ﷺ وتعظيمه. وأظهر لهم التوحيدَ والإِخلاص، الذى بعثه الله به فى قالب تنقُّصه.

وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا فى تعظيمه بما نهاهم عنه أشدَّ النهى، وفرَّطوا فى متابعته. فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا سلَّموا له. وإنما يحصلُ تعظيمُ الرسول ﷺ: بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنَّته، والدعوة إلى دينه الذى دعا إليه، ونُصرته، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه.

فعكَس أولئك المشركون ما أراده الله ورسوله علماً وعملاً، وارتكبوا ما نهى الله عنه ورسوله، فالله المتسعان[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال: قال رسول[3] الله ﷺ: «إياكم والغُلو؛ فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم الغلو».

(١) من أبيات البُردة المشهورة.

(٢) ينظر: كتاب «المحجَّة فى الرد على اللجة» للمؤلف، ورسالته إلى الحِفظى «مجموع رسائل وفتاوى» الشيخ عبد الرحمن بن حسن (٨٢ - ٨٤ ط ١٣٤٥هـ).

(٣) قال الشيخ، سليمان بن عبد الله فى «تيسير العزيز الحميد» (٣١٧): هكذا ثبت هذا البياض فى أصل المصنف. اهـ قُلت: وهكذا أيضاً وجدتُه فى نسخة خطية من نُسخ الكتاب. وفى نسخة خطية أخرى، ذكر ما نصه: وفى الصحيح عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ. فذكره.

ش : هذا الحديث، ذكره المصنفُ بدون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجة، من حديث ابن عباس[١].

وهذا لفظُ أحمد: عن ابن عباس، قال: قال لى رسول الله ﷺ غَداة جَمْعٍ: «هَلُمَّ الْقُطْ لى» فلقطتُ له حَصيات، هُنَّ حَصَى الخَذْف. فلما وضعهن فى يده، قال: «نعم، بأمثال هؤلاء. وإياكم والغلو فى الدين؛ فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين».

قال شيخُ الإسلام: هذا عامٌّ فى جميع أنواع الغلو، فى الاعتقادات والأعمال. وسببُ هذا اللفظ العام: رمْىُ الجمار، وهو داخلٌ فيه. مثل الرمى بالحجارة الكبار؛ بناءً على أنه أبلغُ من الصغار.

ثم علله بما يقتضى مجانبةَ هَدْى من كان قبلنا؛ إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به. وأن المشارك لهم فى بعض هديهم يُخافُ عليه من الهلاك[٢].

[٧٦/أ] قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم/ ، عن ابن مسعود: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «هلك المُتنطِّعون» قالها ثلاثاً[٣].

ش: قال الخطَّابى: المتنطِّع: المتعمقُ فى الشىء، المتكلِّفُ البحث عنه، على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولُهم[٤].

ومن التنطع: الامتناع من المباح مُطلقاً، كالذى يمتنعُ من أكل اللحم والخبز، ومن لُبْس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنعُ من نكاح النساء. ويظنُّ أنَّ هذا من الزهد المستحب، قال الشيخ تقىُّ الدين: فهذا جاهلٌ ضال. انتهى[٥].

---

(١) أحمد فى «المسند» (١/ ٢١٥، ٣٤٧) وابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٠٦٤) ولم أراه فى «الجامع» قال الحافظ ابن تيمية فى «الاقتضاء» (١/ ٢٨٩): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٤٩ - ٢٩٠).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٧٠).

(٤) الخطابى، «معالم السنن» (٧/ ١٣) (ط المُختصر).

(٥) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥١١).

وقال ابنُ القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث، والاستقصاء!.

وقال أبو السعادات: هم المتعمقون، الغالون في الكلام، المتكلمون بأقاصي حلوقهم. مأخوذٌ من النطع، وهو الغارُ الأعلى من الفم، ثم استُعمل في كلِّ متعمِّق قولاً وفعلاً[1].

وقال النووي: فيه: كراهةُ التقعُّرِ في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة، واتعمال وحشي اللغة، ودقائق الإِعراب في مخاطبة العوام ونحوهم[2].

قوله: (قالها ثلاثاً). أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغةً في التعليم والإِبلاغ، فقد بلَّغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٥/ ٧٤).

(٢) النووي، «رياض الصالحين» (٥٩٠).

(١٩)

بـــاب

ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبـر رجل صالح، فكيف إذا عبده ؟!

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء من التغليظ فيمن عبدَ الله عند قبر رجلٍ صالح، فكيف إذا عبده.

ش: أى: الرجل الصالح؛ فإنَّ عبادته هى الشركُ الأكبر، وعبادةُ الله عنده وسيلةٌ إلى عبادته. ووسائلُ الشرك محرمة؛ لأنها تؤدى إلى الشرك الأكبر، وهو أعظمُ الذنوب.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن عائشة: أنَّ أمَّ سَلَمة، ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسةً رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصُّور، فقال: «أولئكِ إذا مات فيهم الرجلُ الصالح أو العبد الصالح، بَنَوا على قبره مَسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئكِ شرارُ الخلق عند الله»(١)، فهؤلاء، جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنةِ التماثيلِ(٢).

ش : قوله: (فى الصحيح). أى (الصحيحين).

قوله: (أنَّ أمَّ سلمة). هى هندُ بنتُ أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم القُرشية المخزومية. تزوجها النبى ﷺ بعد أبى سلمة، سنة أربع. وقيل: ثلاث. وكانت قد هاجرت مع أبى سلمة إلى الحبشة، ماتت سنة اثنتين وستين. / [٧٦/ب]

قوله: (ذكرت لرسول الله ﷺ). وفى (الصحيحين): أنَّ أمَّ حبيبة وأمَّ سلمة،

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٥٢٨).

(٢) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٣).

ذكرتا لرسول الله ﷺ والكنيسة، بفتح الكاف وكسر النون: معبدُ النصارى.

قوله: «أولئكِ» بكسر الكاف، خطاباً للمرأة.

قوله: «إذا مات فيهم الرجلُ أو العبدُ الصالحُ» هذا ـ والله أعلم ـ شك فى بعض رواة الحديث: هل قال النبىُّ ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه: التحرّى فى الرواية، وجوازُ الرواية بالمعنى.

قوله: «وصوَّروا فيه تلك الصور» الإشارةُ إلى ما ذكرت أمُّ سلمة وأمُّ حبيبة، من التصاوير التى فى الكنيسة.

قوله: «أولئكِ شرارُ الخلق عند الله» وهذا يقتضى تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لُعن من فعل ذلك، كما سيأتى.

قال البيضاوى: لَّما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلةً يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً، لعنهم النبىُّ ﷺ.

قال القُرطبى: وإنما صوَّر أوائلُهم الصُّور ليتأسَّوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قومٌ جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنَّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. فحذَّر النبىُّ ﷺ عن مثل ذلك؛ سدّاً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل). هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، ذكره المصنفُ رحمه الله؛ تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل. فإنَّ الفتنة بالقبور، كالفتنة بالأصنام أو أشد.

قال شيخُ الإسلام: وهذه العلَّةُ ـ التى لأجلها نهى الشارعُ ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور ـ هى التى أوقعت كثيراً من الأمم: إمَّا فى الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك.

[٧٧/أ] فإنَّ النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيلٍ يزعمون أنها/ طلاسم الكواكب ونحو ذلك. فإنَّ الشرك بقبر الرجل الذى يُعتقد صلاحه، أقربُ إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجدُ أهلَ الشرك يتضرعون عندها

ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى بيوت الله، ولا وقت السَّحَر. ومنهم من يسجدُ لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجون فى المساجد.

فلأجل هذه المفسدة، حسم النبيُّ ﷺ مادَّتها، حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقاً، وإنْ لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد. كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقاتٌ يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فنهى أُمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سدّاً للذريعة.

وأمَّا إذا قصد الرجلُ الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة فى تلك البقعة، فهذا عينُ المُحادَّة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله.

فإنَّ المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله ﷺ: أنَّ الصلاة عند القبور منهيٌّ عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد. فمن أعظم المحدثات، وأسباب الشرك: الصلاةُ عندها، واتخاذها مساجد، وبناءُ المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبى ﷺ بالنهى عن ذلك، والتغليظ فيه.

وقد صرَّح عامّةُ الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها؛ متابعةً منهم للسُّنة الصحيحة الصريحة.

وصرَّح أصحابُ أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريم ذلك، وطائفةٌ أطلقت الكراهة. والذى ينبغى: أنْ تُحمل على كراهة التحريم، إحساناً للظن بالعلماء، وأنْ لا يُظن بهم أنْ يجوِّزوا فعلَ ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهى عنه. انتهى كلامُه رحمه الله[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما عنها ـ أى: عن عائشة ـ قالت: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ، طَفِق يطرحُ خَميصةَ له على وجهه/ ، فإذا اغتم بها كشفها، فقال [٧٧/ب]

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٤).

ـ وهو كذلك ـ: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» يُحذِّر ما صنعوا. ولولا ذلك أُبرز قبرُه؛ غير أنه خَشى أنْ يُتخذ مسجداً. أخرجاه[1].

ش : قوله: (ولهما). أى: البخارى ومسلم. وهو يغنى عن قوله، فى آخره: أخرجاه.

قوله: (لما نُزل)، هو بضم النون وكسر الزاى. أى: نزل به مَلَكُ الموت والملائكةُ الكرام عليهم السلام.

قوله: (طَفِق). بكسر الفاء وفتحها، والكسرُ أفصح، وبه جاء القرآن[2].

ومعناه: جعل.

قوله: (خَميصَة)، بفتح المعجمة والصاد المهملة: كساءٌ له أعلام.

قوله: (فإذا اغتمَّ بها كشفها). أى: عن وجهه.

قوله: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» يبيِّنُ أنَّ من فعل مثل ذلك، حلَّ عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى.

قوله: (يُحذِّرُ ما صنعوا)، الظاهر: أنَّ هذا من كلام عائشة رضى الله عنها؛ لأنها فهمت من قول النبى ﷺ ذلك تحذيرَ أُمَّته من هذا الصنيع، الذى كانت تفعله اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو فى الأنبياء. ومن أعظم الوسائل إلى الشرك.

ومن غُربة الإسلام: أنَّ هذا الذى لعن رسولُ الله ﷺ فاعليه ـ تحذيراً لأمته أنْ يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أُمَّته ـ قد فعله الخلقُ الكثير من متأخرى هذه الأمة، واعتقدوه قربةً من القُربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أنَّ ذلك محادَّةٌ لله ورسوله.

قال القُرطبى فى معنى هذا الحديث: وكلُّ ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة مَن فيها؛ كما كان السبب فى عبادة الأصنام. انتهى.

---

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٣٥، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٥٨١٥) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٥٣١).

(٢) قال تعالى: ﴿فطَفِق مسحاً بالسُّوق والأعناق﴾ سورة ص آية ٣٣.

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه، وعبادة الصنم. وتأمَّل قولَ الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب، حيث قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ﴾. [يوسف: ٣٨] نكرة فى سياق النفىِّ، تعمُّ كلَّ شرك.

قوله: (ولولا ذلك)، أى: ما كان يُحْذَرُ من اتخاذ قبر النبى ﷺ مسجداً، لأُبرز قبرهُ مع قبور أصحابه الذين كانت قبورهم فى البقيع.

قولـه: (غير أنه خَشى أنْ يُتخذ مسجداً)، رَوى بفتح الخاء، وضمها. فعلى/ [٧٨/أ] الفتح: يكون هو الذى خشى ذلك ﷺ، وأمرهم أنْ يدفنوه فى المكان الذى قُبض فيه. وعلى رواية الضَّم: يحتمل أنْ يكون الصحابةُ هم الذين خافوا أنْ يقع ذلك من بعض الأمَّة ـ غُلوّاً وتعظيماً ـ بما أبدى وأعاد من النهى والتحذير منه، ولعن فاعله.

قـال القُرطـبى: ولهـذا بالـغ المسلمون فى سدِّ الذريعة فى قبـر النبـى ﷺ، فأعلوا حيطان تُربتـه وسدوا المدخل إليها، وجعلوها محدقـةً بقبـره ﷺ.

ثم خافوا أنْ يُتَّخذ موضعُ قبره قبلةً ـ إذ كان مستقبل المصلين، فتتصوَّر الصلاةُ إليه بصورة العبادة ـ فبنوا جدارين من رُكنى القـبر الشماليِّين، وحـرفوهمـا حتى التقيا على زاويةٍ مثلَّثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحدٌ من استقبال قبره. انتهى.

[١]قال المصنف: وفيه من المسائل: ما ذكر الرسولُ ﷺ فيمن بنى مسجداً يُعبد الله فيه على قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيةُ الفاعل.

ومنها: النهى عن التماثيل، بتغليظ الأمر.

ومنها: نهيهُ عن فعله عند قبره، قبل أنْ يُوجد القبر.

ومنها: أنه من سُنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم.

ومنها: لعنهُ إيَّاهم على ذلك.

ومنها: أنَّ مُراده بذلك تحذيره إيانا عن قبره.

---

(١) من هنا ساقط من (ط).

ومنها: أنها هي العلة في عدم إبرازه. انتهى[1][2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلمٍ، عن جُنْدُب بن عبد الله، قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل أنْ يموت بخمسٍ، وهو يقول: «إنيّ أَبْرَأُ إلى الله أنْ يكونَ لي منكم خليلٌ؛ فإنَّ الله قد اتخَّذني خَليلاً، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً. ولو كنتُ مُتَّخِذاً من أُمتي خليلاً، لاتخَّذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ألاَ وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألاَ فَلاَ تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[3].

فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن - وهو في السِّياق - مَنْ فَعله. والصلاةُ عندها من ذلك، وإنْ لم يُبن مَسْجِد.

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإنَّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حَولَ قبره مسجداً. وكلٌّ موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجداً، بل كلُّ موضع يُصلَّى فيه يُسمَّى مسجداً؛ كما قال ﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً»[4].

ش: قوله: (عن جُندب بن عبد الله). أي: ابن سُفيان البَجلي، وينسبُ إلى جده، صحابيٌّ مشهور. مات بعد الستين.

قوله: «إني أبرأُ إلى الله أنْ يكون لي منكم خليل» أي: أمتنع عمَّا لا يجوز لي أنْ أفعله. والخُلَّة فوق المحبة، والخليل: هو المحبوب غاية الحب، مشتقٌّ من الخَلَّة - بفتح الخاء - وهي تَخلُّل المودة/ في القلب، كما قال الشاعر: [٧٨/ب]

قد تخلَّلتَ مسلكَ الروح مني ... وبذا سُمِّي الخليلُ خليلا[5]

---

(١) إلى هنا ساقطٌ من (ط).

(٢) المسائل: الأولى، والثانية، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة.

(٣) مسلم في «الصحيح» رقم (٥٣٢).

(٤) قطعةٌ من حديث: أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٥٢١)، من حديث جابر. والنقل عن ابن تيمية، في «الاقتضاء» (٢/ ٦٦٨، ٦٧١).

(٥) من كلام بشَّار بن بُرد، «الديوان» (٢٧٨).

هذا هو الصحيح فى معناه؛ كما ذكره شيخُ الإِسلام، وابنُ القيم، وابنُ كثير وغيرهم[1].

قال القُرطبى: وإنَّما كان ذلك؛ لأنَّ قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته، فَلا يسعُ خُلَّة غيره.

قوله: «فإنَّ الله قد اتخذنى خليلاً» فيه: بيانُ أنَّ الخُلَّة فوق المحبة.

قال ابنُ القيم رحمه الله: وأمَّا ما يظنُّه بعض الغالطين من أن المحبة أكملُ من الخُلَّة، وأنَّ إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيبُ الله، فمن جهلهم.

فإنَّ المحبة عامَّة، والخلة خاصة، وهى نهاية المحبة. وقد أخبر النبى ﷺ: أنَّ الله قد اتخذه خليلاً، ونفى أنْ يكون له خليلٌ غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، وغيرهم[2]. وأيضاً: فإنَّ الله يحبُّ التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين، وخُلَّته خاصةٌ بالخليلين[3].

قوله: ولو كنت متخذاً من أُمتى خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً» فيه: بيانُ أنَّ الصِّدِّيق أفضلُ الصحابة.

وفيه: الردُّ على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شرُّ أهل البدع، وأخرَجَهم بعضُ السلف من الثنتين والسبعين فرقة. وبسبب الرافضة حدث الشركُ وعبادة القبور، وهم أوَّلُ من بنى عليها المساجد. قاله المصنف[4]، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه: إشارةٌ إلى خلافة أبى بكر؛ لأن من كانت محبتهُ لشخص أشد، كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل: يصلى بهم عمر، وذلك فى مرضه الذى توفى فيه، صلواتُ الله وسلامه عليه[5].

---

(١) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٠٣)، وابن القيم «الجواب الكافى» (١٩٩).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٦٦٢، ٤٣٥٨)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص.

(٣) ابن القيم، «الجواب الكافى» (٢٠٠).

(٤) المسألة الحادية عشرة.

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٦٤، ٧١٢، ٧١٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤١٨) من حديث عائشة.

واسمُ أبى بكر: عبد الله بن عُثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة. الصّديقُ الأكبر، خليفةُ رسول الله ﷺ، وأفضلُ الصحابة بإجماع من يُعتدُّ بقوله من أهل العلم. مات فى جُمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاثٌ وستون سنة رضى الله عنه[1].

قوله: «ألا» حرفُ استفتاح «ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» الحديث. / [٧٩/أ]

قال الخلخالى:[2] وإنكارُ النبى ﷺ صنيعهم هذا، يخرَّجُ على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء، تعظيماً لهم.

الثانى: أنهم يجوِّزون الصلاة فى مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة فى تعظيم الأنبياء. والأول: هو الشرك الجلى،

والثانى: الخفىّ، فلذلك استحقُّوا اللعن.

قوله: (فقد نهى عنه فى آخر حياته). أى: كما فى حديث جُنْدُب. هذا من كلام شيخ الإِسلام، وكذا ما بعده.

قوله: (ثم إنه لعن ـ وهو فى السِّياق ـ من فعله). كما فى حديث عائشة.

قلتُ: فكيف يسوغُ مع هذا التغليظ من سيد المرسلين، أنْ تُعظَّم القبور ويُبنى عليها، ويُصلى عندها وإليها. هذا أعظم مشاقَّة ومحادَّة لله تعالى ولرسوله ﷺ، لو كانوا يعقلون.

قوله: (والصلاةُ عندها من ذلك، وإن لم يُبن مسجد). أى: من اتخاذِها مساجد، الملعون فاعله، وهذا يقتضى تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، مرفوعاً «الأرضُ كلُّها مسجدٌ إلا المقبرة والحمَّام» رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه ابنُ حبان، والحاكم[3].

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٦٩).

(٢) ينظر: ابن العماد «شذرات الذهب» (٨/ ٣٣٣).

(٣) أحمد فى «المسند» (٣/ ٨٣، ٩٦)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٢) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣١٧)، وابن ماجة في «السنن» رقم (٧٤٥)، وابن حبان في «الصحيح» (٣/ ١٠٣، ٤/ ٣٢) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٢٥١) قال ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢): أسانيده جيدة.

قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: وبالجملة، فمن له معرفةٌ بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفَهِمَ عن رسول الله ﷺ مقاصدَه، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أنَّ هذه المبالغة واللعن والنهى بصيغتيه ـ صيغة «لا تفعلوا» وصيغة «إنى أنهاكم عن ذلك» ـ ليس لأجل النجاسة، بل هى لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربَّه ومولاه، وقلَّ نصيبُه أو عُدم من لا إله إلا الله.

فإنَّ هذا وأمثاله من النبى ﷺ: صيانةٌ لحمى التوحيد أن يلحقه الشركُ ويغشاه، وتجريدٌ له وغضبٌ لربه أنْ يعدل به سواه. فأبى المشركون إلا معصيةً لأمره، وارتكاباً لنهيه. وغرّهم الشيطانُ، بأنَّ هذا تعظيمٌ لقبور المشايخ/ والصالحين، [٧٩/ب] وكلَّما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر الله، من هذا الباب دخل على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عُبَّاد الأصنام، منذ كانوا إلى يوم القيامة.

فجمع المشركون بين الغلو فيهم، والطعن فى طريقتهم. فهدى الله أهلَ التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها: من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم(١).

قال الشارح: وممن علَّل بخوف الفتنة بالشرك: الإمامُ الشافعى، وأبو بكر الأثرم(٢)، وأبو محمد المقدسى(٣)، وشيخُ الإسلام، وغيرهم، وهو الحقُّ الذى لا ريب فيه(٤).

---

(١) ابن القيم، «اغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٨).

(٢) احمد بن محمد هانىء الطائى، فقيهٌ محدِّث، من أصحاب الإمام احمد (ت٢٦١هـ). «تاريخ بغداد» (٥/ ١١٠).

(٣) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة الصالحى الدمشقى، فقيهٌ أصولى محدِّث (ت ٦١٥هـ) «تأريخ ابن رجب» (٢/ ١٣٣).

(٤) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (٣٢٩).

قوله: (فإنَّ الصحابة لم يكونوا لِيبنوا حولَ قبره مسجداً)، أي: لما علموا من تشديده في ذلك، وتغليظه ولعنِ من فعله.

قوله: (وكلٌّ موضع قُصدت الصلاةُ فيه فقد اتُّخذ مسجداً) أي: وإنْ لم يُبن مسجد. بل كلٌّ موضع يُصلَّى فيه يسمى مسجداً.

يعني: وإن لم يُقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يُصلى، فأوقع الصلاة[1] في ذلك الموضع الذى حانت الصلاة[1] عنده من غير أنْ يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قوله: كما قال ﷺ: «جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» أى: فسمى الأرض مسجداً تجوزُ الصلاةُ فى كلٍّ بقعة منها، إلا ما استثنى من المواضع التى لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها.

قال البغوى فى (شرح السنة): أراد أنّ أهلَ الكتاب لم تُبح لهم الصلاة إلا فى بِيَعِهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمَّامَ والمقبرة والمكان النجس. انتهى[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولأحمد بسندٍ جيِّد، عن ابن مسعود مرفوعاً «إنَّ مِن شِرار الناس مَن تُدركهم الساعةُ وهم أحياءٌ، والذين يتخذون القبورَ مساجد» رواه أبو حاتم ابن حبان فى (صحيحه)[3].

[٨٠/أ] **ش**: قوله: «إنَّ من شِرار الناس» بكسر الشين/، جمعُ شرِّير.

قوله: «من تدركهم الساعةُ وهم أحياء» أى: مقدماتها، كخروج الدَّابة، وطلوع الشمس من مغربها. وبعد ذلك يُنفخُ فى الصُّوْر، نفخة الفَزَع.

قوله: «والذين يتَّخذون القبور مساجد» معطوفٌ على خبر إنَّ، فى محل نصب، على نيه تكرار العامل.

---

(١) ما بينهما ساقط من (ط).

(٢) البغوى، «شرح السنة» (٢/٤١٢).

(٣) أحمد فى «المسند» رقم (٥٣١٦) وابن خزيمة فى «الصحيح» رقم (٨٧٩)، وابن أبي شيبة فى «المصنف» (٣/٣٤٥) والطبرانى فى «الكبير» كما فى «مجمع الزوائد» (٢/٢٧) وقال: وإسناده حسن.

أي: ومن شرار الناس، الذين يتخذون القبور مساجد. أي: بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها.

وتقدَّم في الأحاديث الصحيحة أنَّ هذا من عمل اليهود والنصارى، وأنَّ النبي ﷺ لعنهم على ذلك، تحذيراً للأمة أنْ يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم فعلَ اليهود والنصارى. فما رفع أكثرُهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أنَّ هذا الأمر قربةٌ إلى الله، وهو مما يُبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته.

والعجب أنَّ أكثر من يدَّعي العلم ممن هو مِن هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغَّبوا في فعله. فلقد اشتدت غربةُ الإسلام، وعاد المعروفُ منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

قال شيخُ الإسلام رحمه الله: أمَّا بناءُ المساجد على القبور: فقد صرَّح عامةُ الطوائف بالنهي عنه؛ متابعةً للأحاديث الصحيحة. وصرَّح أصحابُنا، وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه. [قال][1]: ولا ريب في القطع بتحريمه.

ثم ذكر الأحاديث في ذلك، إلى أنْ قال: وهذه المساجدُ المبنيةُ على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم، تتعيَّنُ إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلمُ فيه خلافاً بين العلماء المعروفين[2].

وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: يجبُ هدمُ القباب التي بُنيت على القبور؛ لأنها أُسِّست على معصية الرسول ﷺ[3].

وقد أفتى جماعةٌ من الشافعية بهدم ما في القرَّافة[4] من الأبنية، منهم ابنُ

---

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٧).

(٣) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٨).

(٤) مقبرة أهل مصر، بها أبنية وسوق قائمة، منسوبة إلى قرافة: بطنٌ من المعافر، نزلوها فسُمِّيت بهم. «معجم البلدان» ياقوت الحموي (٤/ ٣١٧).

الجُمَّيزى[1] والظَّهير التَّزْمَنتى[2] وغيرهما.

وقال القاضى ابن كَجّ:[3] ولا يجوز أنْ تُجصَّص القبور، ولا أنْ يُبنى عليها قباب، ولا غير قباب، والوصيةُ بها باطلة.

وقال الأذرُعى[4]: وأمَّا بُطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية، وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب فى تحريمه. / [٨٠/ب]

وقال القُرطبى فى حديث جابر - «نهى أنْ يُجصص القبر أو يُبنى عليه»[5] - وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناءَ والجص على القبور. وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجةٌ عليه.

وقال ابنُ رُشْد[6]: كره مالكُ البناء على القبر، وجَعْلَ البلاطة المكتوبة. وهو من بدع أهل الطَّول، أحدثوه إرادةَ الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه[7].

وقال الزَّيْلعى[8] فى (شرح الكنز): ويُكره أنْ يُبنى على القبر[9]. وذكر قاضى خان[10]: أنَّه لا يُجصص القبر ولا يُبنى عليه؛ لما رُوى عن النبى ﷺ أنه نهى عن

---

(١) بهاء الدين، على بن هبة الله بن سلامة اللخمى، فقيه محدث (ت٦٤٩هـ) «طبقات ابن السبكى (٨/ ٣٠١).

(٢) ظهير الدين، جعفر بن يحيى بن جعفر، فقيه، شيخ الشافعية فى زمانه (ت٦٨٢هـ) «طبقات ابن السبكى» (٨/ ١٣٩).

(٣) أبو القاسم، يوسف بن أحمد الدينورى، فقيه شافعى، من أقران أبى حامد (ت٤٠٥هـ). «طبقات ابن السبكى» (٥/ ٣٥٩).

(٤) أبو الوليد، أحمد بن عبد الله الأذرعى، فقيه شافعى، له «غنية المحتاج وغيره (ت ٧٨١هـ) ابن هداية الله «طبقات الشافعية» (٢٣٨).

(٥) سيأتى تخريجه.

(٦) أبو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبى، فقيه أصولى مجّود (ت٥٢٠هـ) «الديباج المُذهَب» (٢/ ٢٤٨).

(٧) ابن رشد، «البيان والتحصيل» (٢/ ٢٢٠).

(٨) أبو محمد، عثمان بن على بن مِحْجَن، فقيهٌ حنفى (ت٧٤٣هـ) «الجواهر المُضيَّة (٢/ ٥١٩).

(٩) الزيلعى، «تبيين الحقائق» (١/ ٢٤٦).

(١٠) الحسن بن منصور ابن أبى القاسم الأُوزْجَندى، فقيهٌ حنفى (ت ٥٩٢هـ) «الجواهر المضيّة» (٢/ ٩٤).

التجصيص والبناء فوق القبر. والمرادُ بالكراهة ـ عند الحنفية ـ كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابنُ نُجيم فى (شرح الكنز)[1].

وقال الشافعيُّ رحمه الله: أكرهُ أنْ يُعظَّم مخلوق، حتى يُجعل قبره مسجداً؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس[2]. وكلامُ الشافعى رحمه الله يبين أنَّ مراده بالكراهة: كراهة التحريم.

قال الشارح: وجزم النووىُّ رحمه الله فى (شرح المُهذَّب) بتحريم البناء مطلقاً[3]، وذكر فى (شرح مسلم)[4] نحوه أيضاً[5].

وقال أبو محمد، عبد الله بن أحمد بن قُدامة ـ إمامُ الحنابلة، صاحبُ المصنفات الكبار (كالمغنى) و(الكافى) ـ: ولا يجوز اتخاذُ المساجد على القبور؛ لأنَّ النبى ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى» الحديث.

وقد روِّينا أنَّ ابتداء عبادة الأصنام: تعظيمُ الأموات واتخاذُ صورهم[6]، والتمسُّحُ بها والصلاة عندها، انتهى[7].

وقال شيخُ الإِسلام رحمه الله: وأمَّا المقربة، فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، ومن انقلبت تربتُها أو لم تنقلب.

ولا فرق بين أنْ يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا؛ لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبىَّ ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور الأنبياء مساجد، ومعلومٌ أنَّ قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة، فمن علَّل النهى عن الصلاة فى المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيدٌ عن مقصود النبى ﷺ. ثم لا يخلو أن يكون القبرُ قد بُنى عليه مسجد، فلا يُصلَّى

(١) ابن نُجيم، «البحر الرائق» (٢/٢٠٩).
(٢) الشافعى «الأم» (١/٢٧٨).
(٣) النووى، «المجموع شرح المهذب» (٥/ ٢٧٠).
(٤) النووى، «المنهاج شرح مسلم بن الحجاج» (٧/٣٧).
(٥) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (٣٣٣).
(٦) المثبت من (هـ) و(ط) و«المغنى».
(٧) ابن قدامة، «المغنى شرح الخرقى» (٢/٥٠٨).

فى هذا المسجد، سواء كان خلف القبر أو أمامه بغير خلافٍ فى المذاهب؛ لأن النبى ﷺ قال: «إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك»[1]. وخصَّ قبور الأنبياء والصالحين؛ لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد [أشد][2].

وكذلك إنْ لم يكن بُنى عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التى كان النهىُ عن الصلاة عند القبور من أجلها. فإنَّ كُلّ مكان صُلِّى فيه يُسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «جُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً»[3] وإنْ كان موضع قبرٍ أو قبرين.

وقال بعضُ أصحابنا: لا يُمنع الصلاة فيها؛ لأنه لا يتناولها اسمُ المقبرة. وليس فى كلام أحمد، ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضى منع الصلاة عند كل قبر.

وقد تقدَّم عن على، أنه قال: لا أصلى فى حَمَّامٍ ولا عند قبر.

فعلى هذا: يكونُ النهى متناولاً تحريم القبر وبنائه، ولا تجوزُ الصلاة فى مسجد بُنى فى مقبرة، سواءٌ كان له حيطان تحجزُ بينه وبين القبور أو كان مكشوفاً.

قال فى راية الأثْرم: إذا كان المسجدُ بين القبور لا يُصلَّى فيه الفريضة، وإنْ كان بينها وبين المسجد حاجز فرخَّص أنْ يُصلَّى فيه على الجنائز، ولا يُصلى فيه على غير الجنائز.

وذكر حديث أبى مَرْثَد، عن النبى ﷺ «لا تُصلُّوا إلى القبور»[4] وقال: إسنادهُ جيد. انتهى[5].

ولو تتبَّعنا كلام العلماء فى ذلك، لاحتمل عِدَّة أوراق. فتبيَّن بهذا أنَّ العلماء رحمهم الله بيَّنوا أنَّ علة النهى، ما يؤدِّى إليه ذلك: من الغلوِّ فيها، وعبادتها من دون الله، كما هو الواقع والله المستعان.

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) إضافةٌ من (هـ) و(ط).

(٣) مضى تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٧٢).

(٥) ينظر: ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢).

وقد حَدَث بعد الأئمة، ومن يُعتدُّ بقولهم: أناسٌ كثُر في أبواب العلم بالله اضطرابُهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابُهم. فقيَّدوا نصوصَ الكتاب [والسنة][1] بقيودٍ أوهنت الانقياد، وغيرَّوا بها ما قصده الرسولُ ﷺ بالنهي وأراد.

فقال بعضهم: النهيُ عن البناء على القبور/ يختصُّ بالمقبرة المسبَّلة، والنهي عن الصلاة فيها لتنجُّسها بصديد الأموات. وهذا كلّه باطل، لوجوه: [١/٨١]

منها: أنه من القولِ على الله بلا علم. وهو حرامٌ بنصٍّ الكتاب.

ومنها: أنَّ ما قالوه لا يقتضي لعنَ فاعله، والتغليظ. وما المانع له من أنْ يقول: من صلَّى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله. ويلزم على ما قاله هؤلاء: أنَّ النبي ﷺ لم يُبيِّن العلة، وأحالَ الأمة في بيانها على من يجيءُ بعده ﷺ، وبعد القرون المُفضَّلة والأئمة.

وهذا باطلٌ قطعاً عقلاً وشرعاً؛ لما يلزمُ عليه من أنَّ الرسول ﷺ عجز عن البيان، أو قصَّر في البلاغ. وهذا من أبطل الباطل؛ فإنَّ النبي ﷺ بلَّغ البلاغ المبين، وقدرتُه في البيان فوقَ قدرة كلِّ أحد، فإذا بطل اللازمُ بطل الملزوم.

ويُقال أيضاً: هذا اللعنُ والتغليظ الشديد إنَّما هو فيمن اتخذ قبورَ الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يَعمُّ الأنبياء وغيرهم. فلو كانت هذه [هي][2] العلة لكانت منتفيةً في قبور الأنبياء؛ لكون أجسادهم طريَّة لا يكون لها صديدٌ يمنع من الصلاة عند قبورهم. فإذا كان النهيُ عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناولُ قبور الأنبياء بالنص، عُلم أنَّ العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين نَقلتُ أقوالهم.

والحمدُ لله على ظهور الحجةِ وبيان المحجَّة، والحمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كُنَّا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله.

---

(١) ينظر: ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢).

(٢) إضافةٌ من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢٠)

بـــاب
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء أنَّ الغلوَّ في قبور الصالحين يُصيِّرها أوثاناً تُعبد من دون الله.

روى مالك في (الموطأ): أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعبد. اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ش : هذا الحديثُ رواه مالكٌ مرْسلاً، عن زيد بن أسْلم، عن عطاء بن يسار: أنَّ رسول الله ﷺ قال. الحديث.

ورواه ابنُ أبي شيبة في (مُصنَّفه)، عن ابن عجلان، عن زيد بن أسلم، به. ولم يذكر عطاء[١]. ورواه البَزَّارُ عن زيد، عن عطاء، عن أبي سعيد الخُدري، مرفوعاً[٢].

وله شاهدٌ عند الإمام أحمد بسنده، عن سُهيل/ بن أبي صالح، عن أبيه، عن [٨١/ب] أبي هريرة، رفعه «اللهمَّ لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٣].

قوله: (روى مالكٌ في الموطأ). هو الإمامُ، مالكُ بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبد الله المدني. إمامُ دار الهجرة، وأحدُ الأئمة

(١) مالك في «الموطأ» كتاب الصلاة باب الصلاة رقم (٢٦١) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٣٤٥).

(٢) البزار في «المسند» رقم (٤٤٠) (كشف) وعزاه الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٤٢) إلى البزار من طريق عمر بن محمد العمري، وصححه.

(٣) أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٦).

الأربعة، وأحد المتقنين للحديث؛ حتى قال البخارى: أصحُّ الأسانيد مالكٌ عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسعٍ وسبعين ومائة. وكان مولده [سنة][1] ثلاثٍ وتسعين. وقيل: أربع وتسعين. قال الواقدى: بلغ تسعين سنة.

قوله: «اللهمَّ لا تجعل قبرى وثناً يُعبد» قد استجاب الله دعاءه، كما قال ابنُ القيم رحمه الله:

فأجاب رَبُّ العالمين دعاءَه وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه فى عِزَّةٍ وحماية وصيان[2]

ودلَّ الحديثُ: على أنَّ قبر النبى ﷺ لو عُبد لكان وثناً، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس، فلا يُوصلُ إليه.

ودلَّ الحديثُ: على أنَّ الوثن، هو ما يباشر العابدُ من القبور، والتَّوابيت التى عليها. وقد عظُمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير. تجرى على الناس يتخذونها سنَّة، إذا غُيرِّت، قيل: غُيِّرت السنة.[3] انتهى[4].

ولخوف الفتنة، نهى عمر رضى الله عنه عن تتبُّع آثار النبى ﷺ:

قال ابنُ وضَّاح[5]: سمعتُ عيسى بن يُونس[6]، يقول: أمر عمرُ بن الخطاب بقطع الشجرة التى بُويع تحتها النبى ﷺ[7]. فقطعها؛ لأن النَّاس كانوا يذهبون فيصلُّون تحتها، فخاف عليهم الفتنة[8].

---

(١) ساقط من الأصل.

(٢) ابن القيم، «الكافية الشافية» (١٨٠).

(٣) أخرجه الدارمى فى «السنن» رقم (١٩١)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٥١٤).

(٤) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (٣٤٠).

(٥) أبو عبد الله، محمد بن وضَّاح بن بزيع، مولى عبد الرحمن بن معاوية، حافظ الأندلس (ت٢٨٦هـ) «لسان الميزان» (٥/ ٤١٦).

(٦) ابن أبى اسحاق السَّبيعى، نزل الشام مُرابطاً، ثقةٌ مامون (ت١٨٧هـ) «تقريب» (٤٤١).

(٧) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (٢/ ١٠٠)، وابن أبى شيبة فى «المصنف» (٢/ ٣٧٥) عن ابن عون عن نافع، قال ابن حجر فى «الفتح» (٧/ ٤٤٨) إسناده صحيح.

(٨) ابن وضاح، «البدع والنهى عنها» (٤٢).

قال المعرور بن سُويد[1]: صلَّيتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة، صلاة الصبح. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهبُ هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجدٌ صلَّى فيه النبيُّ ﷺ فهم يُصلُّون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا؛ كانوا يتَّبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعاً/ [٨٢/أ]. فمن أدركته الصلاةُ في هذه المساجد، فليصلِّ. ومن لا، فليمض ولا يتعمَّدها[2].

وفي (مغازي) ابن إسحاق[3]، من زيادات يُونس بن بُكير[4]، عن أبي خَلْدة خالد بن دينار[5]، حدَّثنا أبو العالية، قال: لما فتحنا تُسْتَرَ[6]، وجدنا في بيت مال الهُرمزان سريراً عليه رجلٌ ميت، عند رأسه مصحف. فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أوَّلُ رجلٍ قرأه من العرب:

قرأته مثل ما أقرأ القرآن. فقلت: لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتُكم وأمورُكم ولحون كلامكم، وما هو كائنٌ بعدُ. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة. فلما كان بالليل دفناه، وسوَّينا القبور كلها لنُعمِّيه على الناس لا ينبشونه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماءُ إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرُون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجلٌ يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغيَّر منه شيء؟ قال: لا، إلا شُعيرات من قفاه. إنَّ لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض[7].

---

(١) أبو أمية الأسدي الكوفي، تابعي ثقة، عاش مائة وعشرين سنة. «تقريب» (٥٤٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٧٦) وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (٤٢) قال الحافظ ابن تيمية في «التوسل والوسيلة» (٢٠٣) إسناده صحيح.

(٣) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي مولاهم، المدني نزيل العراق، إمام المغازي، صدوقٌ يدلس، ورمي بالتشيع والقدر (ت ١٥٠هـ) «تقريب» (٤٦٧).

(٤) أبو بكر، ابن واصل الشيباني الجمَّال الكوفي، صدوقٌ يخطىء (ت ١٩٩هـ). «تقريب» (٦١٣).

(٥) التميمي السَّعدي، البصري الخياط، مشهور بكنيته، صدوق. «تقريب» (١٨٧).

(٦) مدينة بالمشرق الأقصى، فتحت في خلافة عمر رضي الله عنه، ينظر: ياقوت «معجم البلدان» (٢/ ٢٩) والذهبي «تاريخ الإسلام» (١٩٨/ عهد الخلفاء).

(٧) قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٣٧) وهذا إسنادٌ صحيح، إلى أبي العالية. ولكن أن كان تأريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة، فليس بنبي، بل هو رجلٌ صالح. وأخرجه نُعيم بن حماد. في «الفتن» رقم (٣٧) مختصراً. قال ابن تيمية في «الاغاثة» (٢٨): وهذا من فعل أهل الكتاب، لا من فعل المسلمين. فليس فيه حجة، فلا يحتج به محتج.

قال ابنُ القيم: ففى هذه القصة، ما فعله المهاجرون والأنصار من تَعْمية قبره؛ لئَّلا يُفتتن به. ولم يُبرزُوه للدعاء عنده والتبركِ به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله(١).

قال شيخُ الإِسلام: وهو إنكارٌ منهم لذلك، فمن قصد بقعةً يرجو الخير بقصدها ـ ولم يستحب الشارعُ قصدها ـ فهو من المنكرات، وبعضه أشدّ من بعض. سواءٌ قصدها ليصلِّى عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها، أو لينسُك عندها. بحيثُ يخصُّ تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يُشرع تخصيصُها به، لا نوعاً ولا عيناً.

إلا أنَّ ذلك قد يجوزُ بحكم الاتفاق، لا لقصد الدعاء فيها. كمن يزورها ويسلِّمُ عليها، ويسألُ الله العافية له وللموتى، كما جاءت السنة به.

وأمَّا تحرى الدعاء عندها، بحيثُ يستشعرُ أنَّ الدعاء هناك أجْوَبُ منه فى غيره، فهذا هو المنهى عنه. انتهى مُلخصاً(٢).

[٨٢/ب] قوله: «اشتدَّ غضبُ الله على قومٍ اتَّخذوا قبور/ أنبيائهم مساجد» ففيه تحريمُ البناء على القبور، وتحريمُ الصلاة عندها، وأنَّ ذلك من الكبائر.

وفى (القِرَى) للطبرى(٣): عن أصحاب مالك، عن مالك، أنَّه كره أنْ يقول: زرتُ قبرَ النبى ﷺ. وعَلَّل ذلك، بقوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد» الحديث. كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التَّشبُّه بفعل أولئك؛ سدّاً للذريعة(٤).

قال شيخُ الإِسلام: ومالكُ قد أدرك التابعين، وهم أعلمُ الناس بهذه المسألة، فدلَّ ذلك على أنَّه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظُ زيارة قبر النبى ﷺ.

إلى أنْ قال: وقد ذكروا فى أسباب كراهته لأن يقول: زرتُ قبر النبى ﷺ؛

---

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٢).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٨١) وما بعدها.

(٣) أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر الطبرى المكى، الشافعى، فقيه محدث (ت٦٧٤هـ). «تذكرة الحفاظ» (٤/ ٢٥٥).

(٤) الطبرى، «القِرى لقاصد أم القرى» (٦٢٩).

لأنَّ هذا اللفظ قد صار كثيرٌ من الناس يريد [به][1] الزيارة البدعية، وهى قصدُ الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة فى قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثيرٌ من الناس.

فهم يعنون بلفظ الزيارة: مثل هذا، وهذا ليس بمشروعٍ باتفاق الأئمة. فكره مالكُ أنْ يتكلَّم بلفظٍ مجمل يدلُّ على معنى فاسد، بخلاف الصلاة عليه والسلام، فإنَّ ذلك مما أمر الله به.

أمَّا لفظُ الزيارة فى عموم القبور، فلا يُفهم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: «فزوروا القبور فإنَّها تذكركُم الآخرة» مع زيارته لقبر أمه[2]. فإنَّ هذا يتناول قبور الكفار.

فلا يُفهم من ذلك: زيارة الميت لدعائه، وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهلُ الشرك والبدع. بخلاف ما إذا كان المَزَورُ معظَّماً فى الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يُعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية. فلهذا كره مالك ذلك فى مثل هذا، وإنْ لم يكره ذلك فى موضعٍ آخر، ليس فيه هذه المفسدة. انتهى[3].

وفيه: أنَّ النبى ﷺ لم يستْعذ إلا مما يُخاف وقوعه. ذكره المصنِّف رحمه الله تعالى[4].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولابن جريرٍ بسنده، عن سُفيان، عن منصور، عن مجاهد ﴿أَفَرَأَيْتُم اللاتَ وَالعُزَّى﴾ [النجم: ١٩] قال: كان يَلُتُّ لهم السَّويق فمات، فعكفوا على قبره[5].

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: كان يلُتُّ السويق للحاج[6].

---

(١) إضافة من (ط).

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٧٦) من حديث أبى هريرة.

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٤/٣٥٨)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٦٢).

(٤) المسألةُ الثالثة.

(٥) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٧/٥٨).

(٦) «المصدر السابق» (٢٧/٥٩).

[٨٣/أ] **ش** : قوله: (ولابن جرير). هو الإمام / الحافظُ، محمد بن جرير بن يزيد الطبرى، صاحبُ (التفسير) و(التاريخ) وغيرهما. قال ابنُ خزيمة: لا أعلمُ على وجه الأرض أعلمَ من محمد بن جرير. وكان من المجتهدين، لا يقلِّدُ أحداً. وله أصحابٌ يتفقهون على مذهبه، يأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشرٍ وثلاثمائة.

قوله: (عن سُفيان)، الظاهر: أنَّه سفيان بن سعيد بن مسرُوق [الثورى][1]، أبو عبد الله الكوفى، ثقةٌ حافظٌ فيه إمامٌ عابد. كان مجتهداً، وله أتباعٌ يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربعٌ وستون سنة.

قوله: (عن منصور). هو ابن المعتمر بن عبد الله السُّلمى، ثقةٌ ثبتٌ فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن مُجاهد) هو ابنُ جَبْر ـ بالجيم والموحَّدة ـ أبو الحجاج المخزُومى مولاهم المكى، ثقةٌ إمامٌ فى التفسير، أخذه عن ابن عباس وغيره. مات سنة أربعٍ ومائة، قاله يحيى القطَّان. وقال ابنُ حبان: مات سنة اثنتين ـ أو ثلاث ـ ومائة، وهو ساجد. ولد سنة إحدى وعشرين، فى خلافه عمر.

قوله: (كان يَلُتُّ لهم السَّويق، فمات فعكفوا على قبره)، في رواية: فيُطعِمُ من يمرُّ من الناس، فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللاتّ. رواه سعيدُ بنُ منصور[2].

ومناسبتُه للترجمة: أنَّهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه، وصار قبره وثناً من أوثان المشركين.

قوله: (وكذا قال أبو الجوزاء). هو أوسُ بن عبد الله الرَّبَعى، بفتح الراء والباء. مات سنة ثلاث وثمانين.

قال البخارى: حدَّثنا مسلم ـ وهو ابنُ إبراهيم ـ، حدَّثنا أبو الأشهب[3]،

---

(١) إضافةٌ من (ط).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) جعفر بن حيَّان السعدى العُطاردى، البصرى، مشهور بكنيته، ثقة (ت١٦٥هـ) «تقريب» (١٤٠).

حدَّثنا أبو الجوزاء، عن ابن عباس، قال: كان اللاتُ رجلاً يَلُتُّ سويق الحاج[1].

قال ابنُ خُزيمة: وكذا العُزَّى، وكانت شجرةً عليها بناءٌ وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريشُ يعظِّمونها، كما قال أبو سفيان يوم أُحد: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: لعن رسولُ الله ﷺ زائراتِ القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج. رواه أهلُ السنن[3].

ش: قلتُ: وفي الباب حديثُ أبي هريرة/ ، وحديثُ حسَّان بن ثابت. فأمَّا [٨٣/ب] حديثُ أبي هُريرة: فرواه أحمد، والترمذي وصحَّحه[4]. وحديثُ حسَّان، أخرجه ابنُ ماجة، من روايةعبد الرحمن [بن حسَّان][5] بن ثابت، عن أبيه، قال: لعن رسولُ الله ﷺ زوَّارات القبور[6].

وحديثُ ابنُ عباس هذا: في إسناده أبو صالح مولى أُم هانيء، وقد ضعَّفه بعضُهم ووثقه بعضهم. قال علي بن المَديني[7]، عن يحيى القطان[8]: لم أر أحدا من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أُم هانيء. وما سمعتُ أحداً من الناس يقول فيه

---

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٤٨٥٩).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أبو داود في «السنن» رقم (٣٢٣٦)، والترمذي في «الجامع» رقم (٣٢٠) وقال: حديث ابن عباس حديثٌ حسن. يقول ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٩٤) قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٤) أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، والترمذي في «الجامع» رقم (١٠٥٦)، وصححه ابن تيمية في «الفتاوى» (٢٤/ ٣٦٠).

(٥) إضافةٌ من (ط).

(٦) ابن ماجة في «السنن» رقم (١٥٧٤)، قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٥١٦): إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٧) أبو الحسن، ابن عبد الله بن جعفر بن نجيح السَّعدي مولاهم، بصري ثقة ثبت إمام (ت٢٣٤هـ). «تقريب» (٤٠٣).

(٨) أبو سعيد، بن سعيد بن فَرُّوخ التميمي، ثقة متقن، حافظ إمام قدره (ت ١٩٨هـ). «تقريب» ٥٩١.

شيئاً، ولم يتركه شُعبة[1]، ولا زائدة[2]، ولا عبد الله بن عثمان[3].

وقال ابنُ معين:[4] ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السَّكَن[5] فى (صحاحه). انتهى من (الذهب الإبريز)[6]، عن الحافظ المِزِّى[7].

قال شيخُ الإسلام: وقد جاء عن النبى ﷺ، من طريقين: فعن أبى هريرة رضى الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ: لعن زوّارات القبور. وذكر حديثَ ابن عباس، ثم قال: ورجالُ هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدُهما عن الآخر، وليس فى الإسنادين من يُتَّهم بالكذب، ومثلُ هذا حجةٌ بلا ريب. وهذا من أجود الحسن، الذى شرطه الترمذى؛ فإنه جعل الحسن: ما تعدَّدت طرقُه ولم يكن فيه مُتَّهم، ولم يكن شاذاً، أى: مُخالفاً لما ثبت بنقل الثقات.

وهذا الحديثُ: تعددت طرقُه، وليس فيها مُتهم، ولا خالفه أحدٌ من الثقات. هذا لو كان عن صاحب واحد، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحبٍ، وذاك عن آخر؟ فهذا كلُّه يُبيِّنُ أنَّ الحديث فى الأصل معروف.

والذى رخَّصوا فى الزيارة، اعتمدوا على ما رُوى عن عائشة رضى الله عنها: أنها زارت قبرَ أخيها عبد الرحمن، وقالت: لو شهدتُك ما زُرتُك[8].

---

(١) أبو بسطام، شُعبة بن الحجاج بن الورد العَتَكى، مولاهم الواسطى، ثم البصرى، ثقةٌ حافظ متقن، وكان عابداً (ت ١٦٠هـ). «تاقريب» (٢٦٦).

(٢) أبو الصَّلت، زائدة بن قدامة الثقفى الكوفى، ثقة ثبْت، صاحب سُنَّة (ت ١٦٠هـ) وقيل بعدها «تقريب» (٢١٣).

(٣) البصرى، شَريك شعبة، قال النسائى: ثقة ثبْت، مات قبل شعبة. «تقريب» (٣١٣).

(٤) أبو زكريا، يحيى بن مَعين بن عَوْن الغَطَفَانى مولاهم، البغدادى، ثقة حافظٌ مشهور إمام الجرح والتعديل (ت٢٣٣هـ) بالمدينة النبوية. «تقريب» (٥٩٧).

(٥) أبو على، سعيد بن عثمان بن سعيد البغدادى، حافظ حجة (ت ٣٥٣هـ) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ٩٣٧).

(٦) كتاب «الذهب الابريز شرح المعجم الوجيز من أحاديث الرسول العزيز» لأبى المحاسن، محمد بن خليل الطرابلسى، القاوقجى (ت ١٣٠٥هـ) «هدية العارفين» (٢/ ٣٨٧).

(٧) «تهذيب الكمال فى أسماء الرجال» للمزى (٤/ ٧).

(٨) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (١٠٥٥)، وابن أبى شيبة فى «المصنف» (٣/ ٣٤٣) وعبد الرزاق فى «المصنف» (٣/ ٥١٧).

وهذا يدُلُّ على أنَّ الزيارة ليست مُستحبةً للنساء كما تُستحب للرجال، إذ لو كان كذلك لاستَحبَّت زيارته، سواء شهدته أم لا[1].

قلتُ: فعلى هذا، فلا حُجَّةَ فيه لمن قال بالرُّخصة.

وهذا السِّياقُ لحديث عائشة: رواه الترمذيُّ، من رواية عبد الله بن أبى مُلَيْكة[2]، عنها/ . وهو يُخالف سياق الأثرم له، عن عبد الله بن أبى مُليكة أيضاً: [٨٤/أ] أنَّ عائشة رضى الله عنها أقبلت ذاتَ يومٍ من المقابر. فقلتُ لها: يا أُمَّ المؤمنين، أليس نهى رسولُ الله ﷺ عن زيارة القبور؟ فقالت: نعم!، نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها[3].

فأجاب شيخُ الإسلام عن هذا، فقال: ولا حُجّة فى حديث عائشة؛ فإنَّ المُحتجَّ عليها احتج بالنهى العام، فدفعت ذلك بأنَّ النهى منسوخ، ولم يَذكُر لها المُحتجُّ النهىَ الخاص بالنساء، الذى فيه لعنهن على الزيارة.

يُبيِّنُ ذلك قولها: قد أمر بزيارتها. فهذا يُبيِّنُ أنه أمرَ بها أمراً يقتضى الاستحباب، والاستحبابُ إنما هو ثابتٌ للرجال خاصة. ولو كانت تعتقدُ أنَّ النساء مأمورات بزيارة القبور، لكانت تفعلُ ذلك كما يفعلُه الرجال، ولم تقل لأخيها: لما زرتك.

واللَّعنُ صريحٌ فى التحريم، والخطابُ بالإذن فى قوله: «فَزُورُوها»[4] لم يتناول النساء، فلم يدخلن فى الحكم الناسخ. والعامُّ إذا عُرِف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء، وهو مذهبُ الشافعى، وأحمد فى أشهر الروايتين عنه، وهو المعروفُ عن أصحابه. فكيف إذا لم يُعلم أنَّ هذا العام بعد الخاص؟. إذْ قد يكون قوله: «لعن الله زوَّارات القبور» بعد إذنه للرجال فى الزيارة؛ يدلُّ على ذلك: أنَّه قرنه بالمتَّخذين عليها المساجد والسُّرُج؛ ومعلومٌ أنَّ اتخاذ المساجد

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٤٥، ٣٥١).

(٢) عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن أبى مليكة بن عبد الله بن جُدْعان التيمى، المدنى، أدرك ثلاثين من الصحابة، ثقة فقيه (ت ١١٧هـ). «تقريب» (٣١٢).

(٣) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٣٧٦) وصححه ووافقه الذهبى، والبيهقى فى «السنن الكبرى» (٤/ ٧٨).

(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٧٧). من حديث بريدة.

والسـرج المنهـى عنـه مُحكـم؛ كمـا دلَّـت عليـه الأحـاديـثُ الصحيحـة، وكذلـك الآخر.

والصحيح: أنَّ النساء لم يدخُلن فى الإذن فى زيارة القبور، لعدة أوجه:

أحدُها: أنَّ قوله ﷺ: «فزوروها صيغةُ تذكير. وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان، قيل: إنَّه يحتاجُ إلى دليل مُنفصل، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك النساء إلى دليلٍ منفصل، وقيل: إنَّه يُحمل على ذلك عندَ الإطلاق.

وعلى هذا: فيكونُ دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعامٌّ لا يُعارضُ الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء. ولو كان النساءُ داخلات فى هذا الخطاب لاستُحبَّ لهن زيارة القبور، وما علمنا أحداً من الأئمة استحبَّ لهن زيارة القبور/ ، ولا كان النساء على عهد النبى ﷺ وخلفائه الراشدين يخرُجن إلى زيارة القبور. [٨٤/ب]

ومنها: أنَّ النبى ﷺ علَّل الإذن للرجال، بأنَّ ذلك «يذكِّرُ الموت، ويرقِّقُ القلب، وتدمع العين» هكذا فى (مُسند أحمد)[1]. ومعلومٌ أنَّ المرأة إذا فُتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة؛ لما فيها من الضَّعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مَظنَّةً وسبباً للأمور المحرَّمة، فإنه لا يُمكن أنْ يُحدَّ المقدار الذى لا يُفضى إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أُصول الشريعة: أنَّ الحكمة إذا كانت خفيَّةً أو مُنتشرة علِّق الحكمُ بمظنتها. فيحرُم هذا الباب سدّاً للذريعة، كما حُرِّم النظرُ إلى الزينة الباطنة، وكما حُرِّم الخلوةُ بالأجنبية وغير ذلك. وليس فى ذلك من المصلحة ما يُعارض هذه المفسدة، فإنَّه ليس فى ذلك إلا دعاؤها للميت. وذلك ممكنٌ فى بيتها.

ومن العُلماء من يقول: التَّشْييعُ كذلك، ويحتجُّ بقوله ﷺ: «ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تَفتنَّ الحى وتُؤذين الميت»[2] وقوله لفاطمة: «أمَا إنَّك لوَ

(١) أحمد فى «المسند» (٣/ ٢٣٧، ٢٥٠) حديث أنس.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادى فى «التاريخ» (٦/ ٢٠١). وأخرجه موقوفاً على عمر: عبد الرازق فى «المصنف» (٣/ ٤٥٧).

بلغت معهم الكُدَى[١] لم تدخُلى الجنة»[٢].

يؤيّدُه: ما ثبت فى (الصحيحين)؛ من أنَّه نهى النساءَ عن اتباع الجنائز[٣]، ومعلومٌ أنَّ قوله ﷺ: «من صلَّى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تُدفن فله قيراطان»[٤] هو أدلُّ على العموم من صيغة التذكير؛ فإن لفظ: مَن، يتناولُ الرجالَ والنساء باتفاق الناس، وقد عُلم بالأحاديث الصحيحة أنَّ هذا العموم لم يتناول النساء لنهى النبى ﷺ لهن عن اتباع الجنائز. فإذا لم يدخُلن فى هذا العموم، فكذلك فى ذلك بطريق الأولى. انتهى ملخصاً[٥].

قلتُ: وعمَّا استدلَّ به القائلون بالنسخ أجوبةٌ أيضاً.

منها: أنَّ ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضى الله عنهما معارضٌ بما ورد عنهما فى هذا الباب، فلا يثبتُ به النسخ.

ومنها: أنَّ قول الصحابى وفعله ليس حجةً على الحديث، بلا نزاع. وأمَّا تعليمهُ عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدلُّ على نسخ ما دلَّت/ عليه الأحاديثُ الثلاثة من لعن زائرات القبور؛ لاحتمال أنْ يكون ذلك قبل هذا النهى الأكيد والوعيد الشديد، والله أعلم. [٨٥/أ]

قال محمـدُ بن إسماعيـل[٦] فى كتـاب (تطهـير الاعتقاد). والمشاهدُ التى صارت أعظـم ذريعـةٍ إلى الشـرك والالحـاد، غالـبُ من يعمرُها الملوكُ والسلاطين. إمَّا على قريـبٍ لهـم، أو علـى مـن يُحسنـون الظـنَّ فيه من فاضلٍ أو عالم.

---

(١) جمع كُدْيَة، وهى القطعةُ الصلبة من الأرض، تحفر فيها القبور. «غريب الحديث» للخطابى (١/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث بن عمر فى «السنن» رقم (٣١٢٣) والنسائى فى «المجتبى» (٣/ ٢٧) وأحمد فى «المسند» (٢/ ١٦٨، ١٦٩) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٣٧٣) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣١٣، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ٥٣٤٠، ٥٣٤١، ٥٣٤٢، ٥٣٤٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٩٣٨)، من حديث أم عطية.

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٣٢٥) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٩٤٥) من حديث أبى هريرة.

(٥) «مجموع فتاوى» ابن تيمية (٢٤/ ٣٤٣ - ٣٥٦).

(٦) الأمير، ابن صلاح بن محمد الحسنى الكحلانى، ثم الصنعانى، فقيه محدِّث، داعيةٌ مصلح (ت١١٨٢) «البدر الطالع» (٢/ ١٣٣).

ويزوره الناسُ الذين يعرفونه، زيارةَ الأموات من دون توسلٍ به ولا هتفٍ باسمه، بل يدعون له ويستغفرون.

حتى ينقرض من يعرفُه أو أكثرهم، فيأتي مَنْ بعدهم من يرى قبراً قد شُيِّد عليه البناء، وسرُجت عليه الشموع، وفُرش بالفراش الفاخر. فيعتقد أنَّ ذلك لنفعٍ أو دفع ضر، وتأتيه السدنةُ يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلانٍ الضر وبفلان النفع، حتى يغرسوا في جبلَّته كلَّ باطل. والأمرُ ما ثبت في الأحاديث النبوية، من لعن من سرج القبور وكتب عليها وبنى عليها. وأحاديثُ ذلك واسعةٌ معروفة؛ فإنَّ ذلك في نفسه منهيٌّ عنه، ثم هو ذريعةٌ إلى مفسدةٍ عظيمة. انتهى[1]. ومنه تعلم مطابقة الحديثِ للترجمة، والله أعلم.

قوله: (والمتَّخذين عليها المساجد) تقدَّم شرحُه في الباب قبله.

قوله: (والسُّرُج) قال أبو محمد المقدسي: لو أبيح اتخاذُ السرج عليها لم يُلعن من فعله؛ لأنَّ فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام.

وقال ابنُ القيم رحمه الله تعالى: اتخاذها مساجد وإيقادُ السرج عليها من الكبائر[2].

قوله: (رواه أهلُ السُّنن). يعني أبا داود، والترمذي، وابن ماجة، فقط، ولم يروه النسائي[3].

---

(١) ابن الأمير «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد» (٤٨) (ط صبيح).

(٢) ابن القيم، «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (١/ ٢١٥).

(٣) أخرجه النسائي كما سبق بيانه، وقد تابع المؤلف الشارح في ذلك. والله اعلم.

(٢١)

بــاب
ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد، وسدِّه كلَّ طريق يُوصل إلى الشرك.

ش: الجناب: هو الجانب، والمرادُ حمايتهُ عمَّا يقربُ إليه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُم رَسُولٌ من أنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

ش: قال ابنُ كثير: يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما/ أرسل إليهم رسولاً من [٨٥/ب] أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿**ربَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمِ رَسُولاً مِنهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ منَّ الله عَلَى الْمُؤْمنينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولاً من أَنفُسِهِمِ**﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُم رَسُولٌ من أَنفُسكُمْ**﴾ أي: منكم، كما قال جعفرُ بن أبي طالب للنجاشي[(١)]، والمغيرةُ بن شُعبة لرسول كسرى[(٢)]: إنَّ الله بعث فينا رسولا منا، نعرفُ نسَبَه وصفته، ومدخلَه ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٠١، ٥/ ٢٩٠) وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (١٩٤) وفي «الحلية» (١/ ١١٥) والبيهقي في «السنن» (٩/ ٩) والتيمي في «الدلائل» رقم (١٠٠) من حديث أم سلمة، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٤): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير ابن اسحاق، وقد صرَّح بالسماع.

(٢) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٣/ ٥٢٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٤٧٦).

وقال سُفيان بن عُيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُم رَسُولٌ من أَنفُسكُمْ﴾ قال: لم يُصبه شيءٌ من ولادة الجاهلية[1].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْه ما عَنِتُّمْ﴾ أي: يعزُّ عليه الشيءُ الذي يعْنتُ أمتَّه، ويشقُّ عليها؛ ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه، أنه قال: «بُعثتُ بالحنيفية السَّمحة»[2] وفي الصحيح: «إنَّ هذا الدين يسرٌ»[3] وشريعتُه كلُّها سمحةٌ سهلةٌ كاملة، يسيرةٌ على من يسرها الله عليه.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم، ووصولِ النفع الدنيوي والأُخروي إليكم.

وعن أبي ذر، قال: تركنا رسولُ الله ﷺ، وما طائر يُقلِّبُ جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً. أخرجه الطبراني، قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «ما بقي شيءٌ يُقرِّبُ من الجنة ويُباعد من النار إلا وقد بيّنتُه لكم»[4].

قوله: ﴿بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾، كما قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمنين * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بريءٌ ممَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٦]. وهكذا أَمَره تعالى في هذه الآية الكريمة[5].

قلتُ: فاقتضت هذه الأوصافُ التي وصف الله بها رسوله ﷺ، في حقِّ أُمَّته: أنْ أنذَرَهم وحذَّرهم الشرك الذي هو أعظمُ الذنوب، وبيِّن لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها. ومن ذلك تعظيم القبور والغلوُّ فيها، والصلاةُ عندها

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (١١/ ٧٦) والبيهقي في «السنن» (٧/ ١٩٠) وعبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٤/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١١٦، ٢٣٣) من حديث عائشة، قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٨٦): وسنده حسن».

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٩، ٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٧٢٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (١٦٤٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٤): ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى وهو ثقة. وجوَّد سليمان بن عبد الله إسناده، كما في «تيسير العزيز الحميد» (٣٤٩).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧٧ - ١٧٩).

وإليها، ونحو ذلك مما يُوصل إلى عبادتها، كما تقدَّم، وكما سيأتى فى أحاديثِ الباب.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن أبى هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً. وصلُّوا عَلَيَّ فإنَّ/ صلاتكم تبلُغنى حيث كنتم» رواه أبو داود بإسنادٍ حسن، رواتُه ثقات[1]. [٨٦/أ]

ش: قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً» قال شيخُ الإسلام: أى: لا تُعطِّلُوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور. فأمر بتحرِّى العبادة فى البيوت، ونهى عن تحريها عن القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبَّه بهم من هذه الأمة.

وفى (الصحيحين)، عن ابن عمر، مرفوعاً «اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»[2].

وفى (صحيح مسلم)، عن ابن عمر، مرفوعاً «لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإنَّ الشيطان يفرُّ من البيت الذى يسمع سورة البقرة تقرأ فيه»[3] [4].

قوله: «ولا تجعلوا قبرى عيداً» قال شيخُ الإسلام: العيد: اسمٌ لما يعود من الاجتماع العام على وجهٍ مُعتاد، عائد: إمَّا بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر ونحو ذلك[5].

وقال ابنُ القيم: العيد: ما يُعتاد مجيئُه وقصده، من زمان ومكان. مأخوذٌ من المعاودة، والاعتياد.

فإذا كان اسماً للمكان فهو المكانُ الذى يُقصد فيه الاجتماع، وانتيابه للعبادة أو لغيرها؛ كما أنَّ المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحُنفاء ومثابة، كما جعل أيام التعبد[6] فيها عيداً.

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٢٠٤٢) قال الحافظ ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٤): وإسنادهُ حسن. وسيأتى كلامُ المؤلف عليه فى شرح الحديث الذى بعده.

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٣٢، ١١٨٧)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٧٧٧).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٧٨٠)، من حديث أبى هريرة.

(٤) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٦٥٧).

(٥) ابن تيمية، «المصدر السابق» (١/٤٤١).

(٦) جميع النسخ: العيد. والمثبت من «الاغاثة».

وكان للمشركين أعيادٌ زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإِسلام أبطلها وعوَّض الحُنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر، وأيام منى. كما عوَّضهم عن أعياد المشركين المكانية، الكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر(١).

قوله: «وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلُغنى حيث كنتم.

قال شيخُ الإِسلام: يُشير بذلك إلى أنَّ ما ينالُنى منكم من الصلاة والسلام يحصلُ مع قربكم من قبرى وبُعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. انتهى(٢).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن على بن الحُسين، أنه رأى رجلاً يجيءُ إلى فُرجة كانت عند قبر النبى ﷺ، فيدخلُ فيها فيدعو. فنهاه، وقال: ألا أحدِّثُكم حديثاً سمعته من أبى، عن جدِّى، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبرى عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإنَّ تسليمكم يبلُغنى أين كنتم» رواه فى المُختارة(٣).

ش: هذا الحديثُ والذى قبله جيِّدان، حَسَنا الإِسنادين.

[٨٦/ب] أمَّا الأول/: فرواه أبو داود، وغيرهُ، من حديث عبد الله بن نافع الصَّائغ(٤)، قال: أخبرنى ابنُ أبى ذئب(٥)، عن سعيد المَقبُرى(٦)، عن أبى هريرة، فذكره. ورواتُه ثقاتٌ مشاهير، لكن عبد الله بن نافع، قال فيه أبو حاتم الرازى: ليس بالحافظ، تعرفُ وتُنكر. وقال ابنُ معين: هو ثقة. وقال أبو زُرعة: لا بأس به.

قال شيخُ الإِسلام: ومثلُ هذا، إذا كان لحديثه شواهدُ عُلم أنَّه محفوظ، وهذا له شواهدٌ متعددة(٧).

---

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٠٩)

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٧).

(٣) الضياء المقدسى فى «المختارة» رقم (٤٢٨).

(٤) أبو محمد، المخزومى مولاهم المدنى، ثقةٌ صحيح الكتاب، فى حفظه لين. (ت٢٠٦هـ). «تقريب» (٣٣٦).

(٥) أبو الحارث، محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث القرشى العامرى المدنى، ثقة فقيهٌ فاضل (ت ١٥٨هـ). «تقريب» (٤٩٣).

(٦) أبو سعد، ابن كيسان المقبرى المدنى، ثقة، تغير قبل موته بأربع سنين (ت ١٢٠هـ). «تقريب» (٢٣٦).

(٧) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٤).

وقال الحافظُ محمَّد بن عبد الهادى: هو حديثٌ حسن، جيِّدُ الإِسناد، وله شواهد كثيرة يرتقى بها إلى درجة الصحة[١].

وأمَّا الحديثُ الثانى: فرواه أبو يعلى، والقاضى إسماعيل، والحافظ الضياء. فى (المختارة).

قال شيخُ الإِسلام: فانظر هذه السُّنَّة، كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت، الذين لهم من رسول الله ﷺ قُرب النسب وقُرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط. انتهى[٢].

وقال سعيدُ بن منصور فى (سُننه): حدَّثنا عبدُ العزيز بن محمد[٣]، أخبرنى سُهيل بن أبى سهيل، قال: رآنى الحسنُ بن الحسن بن على بن أبى طالب[٤] رضى الله عنه عند القبر، فنادانى، وهو فى بيت فاطمة يتعشَّى، فقال: هلُمّ إلى العشاء. فقلت: لا أُريده. فقال: مالى رأيتك عن القبر؟ فقلت: سلَّمتُ على النبى ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلِّم. ثم قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبرى عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلُّوا علىّ فإنَّ صلاتكم تبلُغنى حيثما كُنتم، لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء[٥].

وقال سعيدٌ أيضاً: حدَّثنا حِبَّانُ بنُ على[٦]، حدَّثنا محمد بن عجلان[٧]، عن أبى سعيد مولى المَهْرى[٨]، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا بيتى عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلُّوا علىّ فإنَّ صلاتكم تبلُغنى»[٩].

---

(١) ابن عبد الهادى، «الصارم المُنكى فى الرد على السبكى» (٤١٤).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦٠).

(٣) أبو محمد، ابن محمد بن عُبيد الدَّراوَردى الجهنى مولاهم، المدنى، صدوقٌ كان يحدث من كتب غيره فيخطىء (ت ١٨٦هـ). «تقريب» (٣٥٨).

(٤) صدوق، (ت ١٩٧هـ). «تقريب» (١٥٩).

(٥) وأخرجه الجهضمى فى «فضل الصلاة» رقم (٣٠)، وابن أبى شيبة فى «المصنف» (٤/ ٣٤٥).

(٦) أبو على، العَنَزى الكوفى، وكان له فقهٌ وفضل (ت ١٧٢هـ). «تقريب». (١٤٩).

(٧) أبوعبد الله، المدنى، صدوق إلا أنه اختلطت عليه أحاديث أبى هريرة (ت ١٤٨هـ). «تقريب» (٤٩٦).

(٨) مقبول من الثالثة. «تقريب» (٦٤٤).

(٩) وأخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» (٤/ ٣٤٥).

قال شيخُ الإِسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين، يدلان على ثبوت الحديث. لا سيَّما وقد احتجَّ به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده. هذا لو لم/ يُروَ من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدَّم مُسنداً؟[1] [٨٧/أ]

قوله: (عن علي بن الحسين). أي: ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه، أفضلُ التابعين من أهل بيته وأعلمُهم. قال الزهري: ما رأيتُ قُرشياً أفضل منه.

مات سنة ثلاث وتسعين، على الصحيح. وأبوه الحسين، سِبْطُ رسول الله ﷺ وريحانته. حفظ عن النبي ﷺ، واستُشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وله ستٌ وخمسون سنة.

قوله: (أنَّه رأى رجلاً يجيءُ إلى فُرجة). بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكُوَّة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: (فيدخلُ فيها فيدعو، فنهاه). هذا يدلُّ على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخُ الإِسلام: ما علمتُ أحداً رخَّص فيه؛ لأن ذلك نوعٌ من اتخاذه عيداً، ويدلُّ أيضاً: أنَّ قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهيٌّ عنه، لأنَّ ذلك لم يُشرع.

وكره مالكُ لأهل المدينة كلَّما دخل الإِنسانُ المسجد أنْ يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأنَّ السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها[2].

وكان الصحابةُ والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلُّون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام؛ لعلمهم أنَّ الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكملُ وأفضل.

وأمَّا دخولُهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو الصلاة أو الدعاء، فلم

---

(١) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٦).

(٢) نقله القاضي عياض في «الشفاء» (٢/ ٨٧).

يشرعه لهم. بل نهاهم، فى قوله: «لا تتخذوا قبرى عيداً وصلُّوا على فإنَّ صلاتكم تبلُغنى»، فبيَّن أنَّ الصلاة تصل إليه من بُعدٍ، وكذلك السلام، ولعن من اتَّخذ قبورَ الأنبياء مساجد[1].

وكانت الحجرةُ فى زمانهم يُدخَل إليها من الباب، إذا كانت عائشة فيها، وبعد ذلك، إلى أنْ بُنى الحائط الآخر. وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه، لا لسلامٍ ولا لصلاة، ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤالٍ عن حديثٍ أو علم. ولا كان الشّيطانُ يطمعُ فيهم - حتى يُسمعَهم كلاماً أو سلاماً، فيظّنون/ أنَّه هو كلَّمهم وأفتاهم وبيَّن لهم الأحاديث، أو أنه قد ردَّ عليهم [٨٧/ب] السلام بصوتٍ يُسمع من خارج - كما طمع الشيطانُ فى غيرهم، فأضلَّهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أنَّ صاحب القبر يأمرُهم وينهاهم ويُفتيهم ويحدِّثهم فى الظاهر، وأنه يخرجُ من القبر ويرونه خارجاً من القبر، ويظنُّون أنَّ نفس أبدان الموتى خرجت تكلِّمهُم، وأنَّ روح الميت تجسَّدت لهم فرأوها، كما رآهم النبىُّ ﷺ ليلة المِعراج[2].

والمقصود: أنَّ الصحابة لم يكونوا يعتادون الصلاةَ والسلام عليه عند قبره، كما يفعلهُ من بعدهم من الخلوف. وإنما كان بعضُهم يأتى من خارج فيسلِّمُ عليه إذا قدم من سفره، كما كان ابنُ عمر يفعلُه.

قال عُبيدُ الله بن عُمر[3]، عن نافع: كان ابنُ عمر إذا قدم من سفر أتى قبرَ النبى ﷺ، فقال: السلامُ عليك يا رسول الله. السلام عليك يا أبا بكر. السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف[4]. قال عُبيد الله: ما نعلمُ أحداً من أصحاب النبى ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر. وهذا يدلُّ على أنَّه لا يقفُ عند القبر للدعاء إذا سلَّم، كما يفعلُه كثير.

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٣٨٦).

(٣) أبوعثمان، بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، المدنى، ثقةٌ ثبت، توفى سنة بضع وأربعين ومائة. «تقريب» (٣٧٣).

(٤) أخرجه ابن بطة فى «الابانة» باسناد صحيح كما فى «الاقتضاء» (٢/ ٦٦٣).

قال شيخُ الإِسلام: لأنَّ ذلك لم يُنقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعةَ محضة[1]. وفى (المبسوط): قال مالك: لا أرى أنْ يقف عند قبر النبى ﷺ، ولكن يُسلِّم ويمضى. ونصَّ أحمدُ أنه يستقبلُ القبلةَ، ويجعل الحجرةَ عن يساره؛ لئلا يستدبره.

وبالجملة، قد اتفق الأئمةُ على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أو لا؟[2].

وفى الحديث: دليلٌ على منع شدِّ الرحال إلى قبره ﷺ، وإلى غيره من القبور والمشاهد؛ لأنَّ ذلك من اتخاذها أعياداً. بل من أعظم أسباب الإِشراك بأصحابها.

وهذه هى المسألةُ التى أفتى فيها شيخُ الإِسلام ـ أعنى من سافر لمجرَّد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ـ ونقل فيها اختلافَ العُلماء. فمن مبيحٍ لذلك، كالغزّالى، وأبى محمَّد المقدسى. ومن مانعٍ لذلك، كابن بَطَّه[3]، وابن عقيل، وأبى محمَّد الجُوينى، والقاضى عياض.

وهو قول الجمهور؛ نصَّ عليه مالك، ولم يخالفه أحدٌ من الأئمة: وهو الصواب؛ لما فى (الصحيحين)، عن أبى سعيد، عن النبى ـ ﷺ ـ/ [88/أ]: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجدِ الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى»[4] فدخل فى النهى: شدُّها لزيارةَ القبور والمشاهد، فإما أنْ يكون نهياً، وإمَّا إنْ يكون نفياً. وجاء فى روايةٍ، بصيغة النهى[5]، فتعيَّن أنْ يكون للنهى.

ولهذا فهم منه الصحابةُ المنع؛ كما فى (الموطأ)، [والمسند][6] والسنن، عن بَصرْة بن أبى بصرة الغِفارى، أنه قال لأبى هريرة ـ وقد أقبل من الطُّور ـ:[7] لو

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٧/٣٩٦).

(٢) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٣٠).

(٣) أبو عبد الله، عبيد الله بن محمد بن بطة العكبرى، فقيهٌ محدِّث (ت ٣٨٧هـ) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٤٤).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (١١٩٧، ١٩٩٥)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٨٢٧).

(٥) وهى عند مسلم، بلفظ «لا تشدوا الرحال».

(٦) إضافة من (ط).

(٧) جبلٌ يقع فى الضفة الشرقية من خليج السويس، فى جنوب شبه جزيرة سيناء. ينظر «معجم البلدان» (٤/٤٨).

أدركتُك قبل أنْ تخرج إليه لما خرجت؛ سمعتُ رسول الله يقول: «لا تُعْمل المَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى»[١].

وروى الإمامُ أحمد، وعمر بن شَبَّة[٢] فى (أخبار المدينة) بإسناد جيد، عن قَزَعة[٣]، قال: أتيتُ ابن عمر، فقلت: إنى أريدُ الطُّور. فقال: إنما تشدُّ الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأته[٤].

فابن عمر، وبَصرْة بن أبى بصرة، جعلا الطور مما نُهى عن شد الرِّحال إليه؛ لأن اللفظ الذى ذكراه: فى النهى عن شدِّها إلى غير الثلاثة، مما يُقصدُ به القُربة. فعُلم أنَّ المستثنى منه عامٌّ فى المساجد وغيرها، وأنَّ النهى ليس خاصاً بالمساجد؛ ولهذا نهيا عن شدِّها إلى الطور مُستدلِّين بهذا الحديث.

والطُّورُ إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البُقعة؛ فإنَّ الله سمَّاه الوادى المقدَّس[٥] والبُقعة المباركة[٦]، وكلَّم كليمَه موسى هُناك، وهذا هو الذى عليه الأئمةُ الأربعة، وجمهور العلماء.

- ومن أراد بسط القول فى ذلك والجوابَ عمَّا يُعارضُه، فعليه بما كتبه شيخُ الإسلام مُجيباً لابن الأخنائى[٧] فيما اعتراض به على ما دلَّت عليه الأحاديثُ، وأخذ به العلماء[٨] وفى (الجواب الباهر)[٩] الذى نقل عنه ابن

---

(١) مالك فى «الموطأ» كتاب الصلاة باب الصلاة رقم (٩٣)، وأحمد فى «المسند» (٦/ ٧، ٣٩٧) والنسائى فى «المجتبى» (٣/ ١١٣).

(٢) أبو زيد، النميرى البصرى، حافظ مؤرخ (ت ٢٦٢هـ) «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٥١٦).

(٣) أبوالغادية، قزعة بن يحيى البصرى الأموى مولاهم، ثقةٌ من الثالثة «تقريب» (٤٥٥).

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» (٢/ ٣٧٤، ٤/ ٦٥) وأحمد، فى «المسند» (٣/ ٤٥، ٦٤، ٩٣).

(٥) كما فى سورة طه، آية: ١٢، سورة النازعات: آية: ١٦.

(٦) كما فى سورة القصص: آية: ٣٠.

(٧) أبو عبد الله، محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران السعدى، المصرى، فقيهٌ مالكى (ت ٧٥٠هـ)، «الديباج المذهب» (٢/ ٣٢١). وردُّ شيخ الإسلام عليه مطبوع، واطلعتُ على نسخة خطية، فى احدى مكتبات الرياض الخاصة.

(٨) ما بينهما ساقطٌ من (ض) و(هـ) و(ط) ومعلَّقٌ فى هامش الأصل، وعليه كلمة صح.

(٩) «الجواب الباهر فى زوار المقابر»، نشره الشيخ عبد الرحمن المعلِّمى، والصنيِّع سنة ١٣٧٨هـ.

عبد الهادى رحمه الله تعالى - وقياسُ الأولى[1]؛ لأن المفسدة فى ذلك ظاهرة.

وأمَّا النهى عن زيارة غير المساجد الثلاثة، فغايةُ ما فيها: أنها لا مصلحة فى ذلك توجبُ شدَّ الرحال، ولا مزيَّة تدعو إليه.

وقد بسط القولَ فى ذلك الحافظُ محمد بن عبد الهادى فى كتاب (الصَّارم المُنكى) فى رده على السُّبكى[2]، وذكر فيه عللَ الأحاديث الواردة فى زيارة قبر النبى ﷺ.

وذكر هو، وشيخُ الإسلام رحمه الله: أنه لا يصحُّ منها حديثٌ عن النبى ﷺ، / ولا عن أحدٍ من أصحابه. مع أنها لا تدلُّ على محل النزاع؛ إذ ليس فيها إلا مطلقُ الزيارة، وذلك لا ينكرهُ أحدٌ بدون شد الرحال. فيُحمل على الزيارة الشرعية، التى ليس فيها شرك ولا بدعة. [٨٨/ب]

قوله: (رواه فى المُختارة)، المختارة: كتابٌ جمع فيه مؤلِّفُه الأحاديث الجياد الزائدة على (الصحيحين).

ومؤلفه: هو أبو عبد الله، محمد بن عبد الواحد المقدسى، الحافظ ضياء الدين الحنبلى، أحدُ الأعلام. قال الذهبى: أفنى عمره فى هذا الشأن مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامَّة والإتقان، فالله يرحمه ويرضى عنه[3].

وقال شيخُ الإسلام: تصحيحهُ فى (مختارته) خيرٌ من تصحيح الحاكم بلا ريب[4]. مات سنة ثلاثٍ وأربعين وستمائة.

(١) ينظر «الصارم المنكى» (٤١) وما بعدها.

(٢) أبو الحسن، على بن عبد الكافى بن على بن تمّام، فقيهٌ متكلِّم (ت ٧٥٦هـ) «طبقات الشافعية» (١٠/ ١٣٩).

(٣) الذهبى، «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ١٢٦).

(٤) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٥٥).

(٢٢)

بـــاب

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء أنَّ بعض هذه الأمة يعبدُ الأوثان.

وقول الله تعالى: ﴿أَلم تَر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يُؤمنونَ بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

ش: الوثن: يطلقُ على ما قُصد بنوعٍ من أنواع العبادة من دون الله، من القبور والمشاهد وغيرها؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّما تَعْبُدُون من دُون الله أوثاناً وتَخْلُقُونَ إفْكاً﴾ [العنكبوت: ١٧] مع قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكفين﴾ [الشعراء: ٧١] وقوله: ﴿أَتَعْبُدونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] فبذلك يُعلَم أنَّ الوثن يطلقُ على الأصنام وغيرها مما عُبِدَ من دون الله، كما تقدَّم فى الحديث.

وقوله: ﴿ يؤمنون بالجبت والطَّاغوت﴾ روى ابنُ أبى حاتم، عن عكرمة، قال: جاءُ حُيَيٌّ بن أخطَب[١] وكعبُ بن الأشرف[٢] إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهلُ الكتاب وأهلُ العلم، فأخبرونا عنَّا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصلُ الأرحام، وننحر الكَوْماء[٣]، ونسقى الماء على اللبن، ونفُكُّ العناة، ونسقى الحجيج. ومحمد صنبور[٤]، قطع أرحامنا، واتبعه سُرّاق الحجيج

---

(١) من يهود بنى قُريضة، قتل مع من قتل منهم حين نزلوا على حُكم سعد بن معاذ، بعد أن نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله ﷺ فى أواخر السنة الخامسة «الدر فى المغازى والسير» (٢٠٦).

(٢) نبهانىٌّ من طىء، وأمُّه من بنى النضير، أسرف فى إيذاء المسلمين، فقتله محمد بن مسلمة بأمر النبى ﷺ فى السنة الثالثة. «المصدر السابق» (١٥٢) ويأتى.

(٣) الكوماء: المرتفعة السنام «غريب الحديث» للخطابى (١/٣٨٩).

(٤) الصُّنبور: الأبتر الذى لا عقب له. «النهاية» (٣/٥٥).

من غفار، فنحن خيرٌ أم هو؟ فقالوا: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكتاب يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوت وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾**(١).

وفي (مسند أحمد)، عن ابن عباس، نحوه(٢).

قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: الجِبْت: السحر، والطاغوت: الشيطان(٣). وكذا قال ابنُ عباس/ وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وغيرهم. [٨٩/أ]

وعن ابن عباس، وعكرمة، وأبي مالك: الجبت: الشيطان ـ زاد ابنُ عباس: بالحبشية.

وعن ابن عباس أيضاً: الجبت: الشرك. وعنه، الجبت: الأصنام. وعنه، الجبت: حُيي بن أخْطب.

وعن الشعبي، الجبت: الكاهن.

وعن مجاهد، الجِبْت: كعب بن الأشرف(٤).

قال الجوهري: الجِبت: كلمةٌ تقع على الصنم والكاهن والساحر، ونحو ذلك(٥).

قال المصنف: وفيه: معرفةُ الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع: هل هو اعتقادُ قلبٍ، أو هو موافقة أصحابها مع بُغْضها، ومعرفة بطلانها؟(٦)

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيْه وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** [المائدة: ٦٠].

---

(١) ابن أبي حاتم في «التفسير» كما في «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٩٤).

(٢) عزاه لأحمد ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٢٩٥) والسيوطي في «الدر» (٢/ ٥٦٢) ولم أجده في النسخة المطبوعة من «المسند»، وأخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٥/ ١٣٤) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر» (٢/ ٥٦٢).

(٣) علقه البخاري في «الصحيح» (٨/ ٢٥١) «فتح» قال الحافظ: وإسناده قوي.

(٤) أخرج هذه الآثار: ابن جرير الطبري في «التفسير» (٥/ ١٣٤) وما بعدها.

(٥) الجوهري، «الصحاح» (١/ ٢٤٥).

(٦) المسألةُ الرابعة.

ش: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، هل أُخبركم بشرٍّ جزاءٍ عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتَّصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَعَنَهُ اللهُ﴾ أى: أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أى: غضباً لا يرضى بعده أبدًا ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

وقد قال الثورىُّ: عن عَلْقمة بن مَرْثَد،[1] عن المُغيرة بن عبد الله[2]، عن المعرور بن سُويد: إنَّ ابن مسعود، قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهى مما مسخ الله؟ فقال: «إنَّ الله لم يُهلك قوماً ـ أو قال: لم يمسخ قوماً ـ فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة، وإنَّ القردة والخنازير كانت قبل ذلك»[3] ورواه مسلم[4].

قال البَغوى فى (تفسيره): ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ﴾ يعنى، قولهم: لم نَر أهل دين أقل حظاً فى الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء؛ كقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثواباً وجزاءً، نُصب على التفسير ﴿عِندَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى. وعن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أنَّ المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، ومشايخهم مسخوا خنازير.

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أى: وجعل منهم/ مَنْ عبد الطاغوت، أى: أطاع الشيطان فيما سوَّل له. [٨٩/ب]

وقرأ ابنُ مسعود ﴿وَعَبَدُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقرأ حمزةُ: «وعَبُدِ الطاغوت» بضم الباء وجر التاء، أراد العبد. وهما لغتان: عبْد بجزم الباء، وعبُد بضمها، مثل سبْع وسبُع، وقرأ الحسن ﴿وعبْد الطاغوت﴾ على الواحد[5].

---

(١) أبوالحارث، الحضرمى الكوفى، ثقةٌ من السادسة «تقريب» (٣٩٧).

(٢) ابن أبى عقيل اليَشْكرى، الكوفى، ثقةٌ من الرابعة «تقريب» (٥٤٣).

(٣) أخرجه ابن مردويه فى «التفسير» كما فى «الدر» (٣/ ١٠٩).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٦٣)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ٣٩٠، ٤٣٣، ٤٤٥، ٤٦٦).

(٥) البغوى، «معالم التنزيل» (٢/ ٤٩).

وفي (تفسير الطبرسي)[1]: قرأ حمزةُ وحده ﴿وعبُد الطاغوتِ﴾ بضم الباء وجر التاء، والباقون ﴿وعبَدَ الطاغوتَ﴾ بنصب الباء وفتح التاء. وقرأ ابنُ عباس، وابن مسعود، وإبراهيم النخعي، والأعمش، وأبَان بن تغلب ﴿وعُبُدَ الطاغوتِ﴾ بضم العين والباء، وفتح الدال وخفض التاء.

قال: وحجةُ حمزة في قراءته ﴿وَعَبُد الطاغوت﴾ أنه يحملُه على ما عمل فيه ﴿جعل﴾. كأنه: وجعل منهم عبُد الطاغوت. ومعنى ﴿جَعَلَ﴾: خلق، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنور﴾ وليس عبُد لفظ جمعٍ؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شيءٌ على هذا البناء، ولكنه واحدٌ يُراد به الكثرة. ألاَ ترى أنَّ في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الإفراد ومعناه الجمع، كما في قوله: ﴿وإِنْ تَعُدُّوا نعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ولأنَّ بناء فَعُل يُراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُس، وكأن تقديره: أنه قد ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب.

وأمَّا من فتح فقال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغوتَ﴾ فإنه عطفه على بناء المُضيِّ الذي في الصلة، وهو قوله: ﴿لَعَنَهُ الله﴾. وأفرد الضمير في عَبَد، وإنْ كان المعنى فيه الكثرة؛ لأنَّ الكلام محمولٌ على لفظه دون معناه. وفاعله ضميرُ مَن، كما أنَّ فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير مَن، فأُفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ. وأمَّا قوله: ﴿عُبُدَ الطَّاغُوت﴾ فهو جمع عبَد.

وقال أحمدُ بنُ يحيى: عبُد جمع عابد؛ كبازل وبُزل، وشارف وشرف، وكذلك عبَّد جمع عابد. ومثله عباد وعبَّاد. انتهى[2].

وقال شيخُ الإسلام ـ في قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ـ الصَّواب: أنه معطوفٌ على ما قبله من الأفعال، أي: مَن لعنه وغضب عليه، ومَن جعل منهم القردةَ والخنازير وعبد الطاغوت. قال: والأفعالُ المتقدِّمة، الفاعلُ فيها اسم/ الله تعالى، [١/٩٠] مظهراً ومضمراً. وهنا الفاعلُ اسم مَنْ عَبَد الطاغوت، وهو الضمير في عَبَد. ولم يُعد سبحانه مَن؛ لأنه جعل هذه الأفعال صفةً لصنفٍ واحد، وهم اليهود[3].

---

(١) أبوعلي، الفضل بن الحسن الطبرسي، لُغوي مفسر، شيعيٌّ مُحترق ت (٥٤٨هـ) «روضات الجنات» للخونساري (٥١٢).

(٢) الطبرسي، «مجمع البيان في تفسير القرآن» (٦/ ١٣٥).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٤٥٥).

قوله: ﴿أولئكَ شرٌّ مكاناً﴾ مما تظنون بنا ﴿وأضلُّ عن سواءِ السبيل﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خيرٌ مُستَقراً وأحسنُ مَقيلاً﴾ [الفرقان: ٢٤] قاله العِمادُ ابن كثير في (تفسيره)[1]. وهو ظاهر.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً﴾ [الكهف: ٢١].

ش: والمراد: أنَّهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2] أراد تحذيرَ أمته أنْ يفعلوا كفعلهم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبي سعيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذَّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» أخرجاه[3].

ش: وهذا سياقُ مسلم.

قوله: «سنن» بفتح المهملة، أي: طريق من كان قبلكم. قال المهلب: الفتح أولى.

قوله: «حَذو القُذَّة بالقذة» بنصب حذو، على المصدر. والقُذة - بضم القاف - واحدة القذاذ، وهو ريشُ السَّهم. أي: لتتبعن طريقهم في كلِّ ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قُذة السهم القذة الأخرى، فوقع كما أخبر ﷺ. وبهذا تظهرُ مناسبةُ الآيات للترجمة. وقد وقع كما أخبر، وهو عَلَمٌ من أعلام النبوة.

قوله: «حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لدخلتموه» وفي حديث آخر «حتى لو كان فيهم من يأتي أُمّه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك»[5].

---

(١) ابن كثير، «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٣٥).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) البخاري في «الصحيح» رقم (٣٤٥٦) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٦٦٩).

(٤) أبو القاسم، المهلَّب بن أحمد بن أسيد بن عبد الله الأسدي، محدِّث لُغوي (ت ٤٣٥هـ) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٥٧٩).

(٥) قطعة من حديث أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٢٦٤٣).

أراد ﷺ أنَّ أمتَّه لا تدع شيئاً مما كان يفعلُه اليهود والنصارى إلا فعلته كله، لا تترك منه شيئاً؛ ولهذا قال سُفيان بن عُيينة: من فسد من عُلمائنا ففيه شبهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبهٌ من النصارى. انتهى[1].

قلتُ: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أنْ جعل هذه الأمة لا تجتمعُ على ضلالة؛ كما في حيث ثوبان الآتي قريباً.

[٩٠/ب] قوله: قالوا: يا رسول الله: اليهودُ والنصارى؟/ قال: «فمن» هو برفع اليهود؛ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: أهم اليهودُ والنصارى الذين نتبعُ سُننهم؟! ويجوزُ النصب بفعلٍ محذوفٍ تقديُره: تعني.

قوله: قال: «فمن» استفهامُ إنكار. أي: فمن هم غير أولئك؟

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن ثَوبان: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله زَوَى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنَّ أُمَّتي سيبلُغ ملكُها ما زُوِيَ لي منها. وأُعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض. وإني سألتُ ربي لأُمتي أنْ لا يُهلكها بسنَةٍ بعامَّة، وأنْ لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوى أنفسهم، فيستبيحَ بَيْضتهم. وإنَّ ربي قال: يا محمد، إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ. وإني أعطيتك لأُمتك أنْ لا أُهلكهم بسنةٍ بعامَّة، وأنْ لا أُسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيحَ بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلكُ بعضاً، ويَسْبي بعضهم بعضاً»[2].

ورواه البرقانُي في (صحيحه)، وزاد: «إنَّما أخافُ على أُمَّتي الأئمة المضلِّين. وإذا وقع عليهم السيفُ لم يُرْفَع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَق حَيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أُمتي كذَّابون ثلاثون، كلُّهم يزعم أنه نبي. وأنا خاتمُ النبيين، لا نبيَّ بَعْدي. ولا تزالُ طائفةٌ من أُمتي على الحقِّ منصُورة، لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم حتى يأتي أمرُ الله، تبارك وتعالى».

---

(١) هذا الأثر، نقله ابنُ تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٦٧).

(٢) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٨٨٩).

ش: هذا الحديثُ رواه أبو داود فى (سننه)، وابن ماجة، بالزيادة التى ذكرها المصنف[١].

قوله: عن (ثَوْبان). هو مولى النبى ﷺ. صحِبه ولازمه، ونزل بعده الشام. ومات بحِمص سنة أربعٍ وخمسين.

قوله: «زَوَى لى الأرض» قال التُّوربِشْتى[٢]: زَويتُ الشىءَ، جمعتهُ وقبضته. يُريدُ تقريبَ البعيد منها، حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب.

وحاصلُه: أنه طوى له الأرض، وجعلها مجموعةً كهيئة كف فى مرآةٍ ينظره. قال الطِّيبى[٣]: أى: جمعها لى، حتى أبصرتُ ما تملكُه أُمتى من أقصى المشارق والمغارب منها.

قوله: «وإنَّ أُمتى سيبلُغ ملكُها ما زُوى لى منها» قال القرطبى: هذا الخبر وُجد مخبرُه كما قال، وكان ذلك من دلائل نُبوَّته. وذلك أنَّ مُلك أمته اتسع/ إلى أنْ [٩١/أ] بلغ أقصى طَنْجة ـ بالنون والجيم ـ الذى هو مُنتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما وراء خُراسان والنهر، وكثير من بلاد الهند والسند والصُغد[٤].ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال؛ ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أُريه، ولا أُخبر أنَّ مُلك أمته يبلغه.

قوله: «زُوى لى منها» يحتمل أنْ يكون مبنياً للفاعل، وأن يكون مبنياً للمفعول.

قوله: «وأعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض» قال القرطبى: يعني بها كنز كسرى، وهو ملِكُ الفُرس، وكنز قيصر وهو ملِكُ الروم وقصورَهما وبلادهما.

وقد قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لتنفقنَّ كنوزهما فى سبيل الله»[٥] وعبَّر

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٢٥٢) وابن ماجه فى «السنن» رقم (٤٠٠٠).

(٢) شهاب الدين، فضل الله بن حسن التوربشتى، محدث فقيه (ت ٦٦٠هـ). «طبقات الشافعية» (٨/ ٣٤٩).

(٣) أبو العباس، أحمد بن على بن أحمد، القاضى، فقيه محدث توفى بعد الخمس مائة «طبقات الشافعية» (٦/ ٢٨).

(٤) بلاد واسعة فيما وراء النهر، عاصمتها سمرقند «معجم البلدان» (٣/ ٤٠٩).

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٦٢٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٩١٩) من حديث أبى هريرة.

بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأنَّ الغالب عندهم كان الجوهر والفضة.

ووُجد ذلك في خلافة عمر؛ فإنَّه سيق إليه تاجُ كسرى وحليتُه وما كان في بيوت أمواله، وجميعُ ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر. والأبيض والأحمر، منصوبان على البدل.

قوله: «وإنّي سألتُ ربي لأمتي أنْ لا يهلكها بسنةٍ بعامة» هكذا ثبت في أصل المنصف رحمه الله تعالى: بعامّة. بالباء، وهي روايةٌ صحيحة في (صحيح مسلم). وفي بعضها بحذفها.

قال القرطبي: وكأنها زائدة؛ لأنَّ عامة صفةُ السنة، والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاكُ العام. ويسمَّى الجدبُ والقحط: سنة. ويُجمع على سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٠] أي: الجدب المتوالي.

قوله: «وأنْ لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوى أنفسهم» أي: من غيرهم من الكفار: من إهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً، كما هو مبسوطٌ في التاريخ فيما قبلُ، وإلى زماننا هذا. نسألُ الله العفو والعافية.

قوله: «فيستبيحَ بَيْضتهم» قال الجوهري: بَيْضَةُ كلِّ شيءٍ: حَوْزَتُهُ. وبيضةُ القوم: ساحتهم[1].

وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إنَّ الله تعالى لا يُسلِّط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض، وهي جوانبها. وقيل: بيضتُهم: معظمُهم وجماعتهم، وإن قلّوا.

[٩١/ب] قوله/: «حتى يكون بعضهم يُهلكُ بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» والظاهر أنَّ حتّى. عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية. أي: أنَّ أمر الأُمة ينتهي إلى أنْ «يكون بعضُهم يُهلك بعضاً» الحديث. وقد يسلِّطُ بعضُهم على بعض، كما هو الواقع؛ وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

---

(١) الجوهري، «الصحاح» (١٠٦٨/٣).

قوله: «وإنَّ ربي قال: يا محمد، إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُردّ» قال بعضهم: أي: إذا حكمتُ حُكماً مُبرماً نافذاً فإنَّه لا يُردّ بشيء، ولا يقدرُ أحدٌ على ردِّه؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «ولا رادَّ لما قضيت»[1].

قوله: (ورواه البَرْقانيُّ في صحيحه). هو الحافظُ الكبير، أبو بكر، أحمدُ بن محمد [بن أحمد][2] بن غالب الخوارزميُّ الشافعي. ولد سنة ستٍ وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمسٍ وعشرين وأربعمائة.

قال الخطيب: كان ثبتاً ورعاً، لم نرَ في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه. كثير التصانيف، صنَّف (مسنداً) ضمّنه ما اشتمل عليه (الصحيحان)، وجمع حديث الثوري، وحديث شُعبة، وطائفة.

/ [3]وهذا الحديثُ رواه أبو داود بتمامه، بسنده إلى أبي قِلابة، عن أبي أسماء، [٩٢/أ] عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ـ أو قال: إنَّ ربي ـ زَوى لي الأرضَ، فرأيتُ مشارق الأرض ومغاربها، وإنَّ مُلك أُمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، وأعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض، وإني سألتُ ربي لأمَّتي أنْ لا يُهلكها بسَنة عامة، ولا يسلِّط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضَتهم، وأن ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُرد، ولا أُهلكهم بسنةٍ عامة، ولا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بَين أقطارها ـ أو قال: بأقطارها ـ حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يَسْبي بعضاً، وإنَّما أخافُ على أمتي الأئمة المُضلين. وإذا وضع السيف في أمتي لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعةُ حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تَعبُد قبائلُ من أُمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون كلُّهم يزعم أنَّه نبي، وأنا خاتمُ النبيين، لا نبيَّ بعدي، ولا تزال طائفةٌ من أُمتي على الحق ـ قال ابنُ عيسى: ظاهرين، ثم اتفقا ـ لا يضرُّهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»[4].

---

(١) أحمد في «المسند» (٣/١٢٨، ١٦٧، ٢٨٤) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤) واللفظ له.

(٢) إضافة من (ط) «وسير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٦٤).

(٣) من هنا ساقطٌ من (ض) ومضافٌ إلى الأصل بقلم مُختلف.

(٤) مضى تخريجه.

وروى أبو داود أيضاً، عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ أنه قال: «تدورُ رَحَى الإِسلام لخمسٍ وثلاثين، أو ستٍ وثلاثين، أو سبعٍ وثلاثين، فإنْ يهلكوا فسبيلُ مَن هلك، وإنْ يَقُمْ لهم دينُهم يقم سبعين عاماً»، قال: قلتُ: إمّما بقى أو مما مضى؟ قال: «مما مضى»(١).

وروى فى (سننه) أيضاً، عن هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يتقارَبُ الزمان وينقصُ العلم، وتظهرُ الفتن، ويُلقى الشُّحُّ، ويكثرُ الهرْجُ» قيل: يا/ [٩٢/ب] رسول الله، أيّهْ هو؟ قال: «القتل القتل»(٢).

قوله: «وإنّما أخافُ على أُمّتى الأئمة المضلّين» أى: الأمراء والعُلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم فيُضلُّوهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وكان بعضُ هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجةٌ فليأت إلى قبرى فإنى أقضيها له، ولا خير فى رجُلٍ يحجبهُ عن أصحابه ذراعٌ من تراب، أو نحو هذا.

وهذا هو الضَّلالُ البعيد؛ يدعو أصحابه إلى أنْ يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم، وتفريج كُرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿يَدْعُوا من دُون الله مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلكَ هو الضَّلاَلُ البَعيدُ * يَدْعُوا لمنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَفْعه لَبِئْسَ المولَى ولَبِئْسَ العَشِيرُ﴾. [الحج: ١٢ - ١٣] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا من دُونه آلهةً لاَ يَخلُقُونَ شَيْئاً وَهُم يُخلَقُونَ ولاَ يَملكُونَ لأنفُسهم ضَراً وَلاَ نَفعاً وَلاَ يَمْلكُونَ مَوتاً وَلاَ حَياةً وَلاَ نُشُوراً﴾ [الفرقان: ٣] وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عنْد الله الرِّزْقَ وَاعبُدُوهُ وَاشكُرُوا لَهُ إلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وأمثالُ هذا فى القرآن كثير، يُبيِّنُ تعالى الهدى من الضلال.

ومن هذا الضَّرب: مَنْ يدّعى أنه يصلُ مع الله إلى حالٍ تسقط عنهم التكاليف، أو يدَّعى أنَّ الأولياء يُدعون أو يستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم. وأنَّهم ينفعون

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٢٥٤) وقال ابن حجر: وإسناده حسن.

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٢٥٥)، وأخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦١٠٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٥٧).

ويضرُّون ويدبِّرون الأمور على سبيل الكرامة، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرارَ الناس وما فى ضمائرهم.

أو يُجَوِّز بناء المساجد على قبور الأولياء/ والصالحين، وإيقادها بالسُّرُج، ونحو ذلك من الغلوِّ والإفراط والعبادة لغير الله. فما أكثر هذا الهذيان والكفر، والمحادة لله ولكتابه ولرسوله. [٩٣/أ]

وقوله ﷺ: «وإنما أخافُ على أمتى الأئمة المضلين» أتى بإنَّما، التى قد تأتى للحصر؛ بياناً لشدة خوفه على أُمَّته من أئمه الضلال. وما وقع فى خَلَد النبى ﷺ من ذلك، إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقعُ نظير ما فى الحديث قبله من قوله: «لتتبعن سَنَن من كان قبلكم» الحديث.

وقد بيَّن الله تعالى فى كتابه صراطَهُ المستقيم، الذى هو سبيلُ المؤمنين. فكلُّ من أحدث حَدَثاً ليس فى كتاب الله ولا فى سُنَة رسوله ﷺ فهو ملعونٌ، وحدثُه مردود؛ كما قال ﷺ: «مَن أحدَث حدثاً، أو آوى مُحدثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(١).

وقال: «مَن أحدَث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»(٢).

وقال «كُلُّ مُحدَثَة بدعة وكلُّ بدعة ضلالة»(٣).

وهذه أحاديثُ صحيحة، ومدارُ أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها. وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصلَ فى مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِه أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ * إِنَّهم لَنْ يُغْنوا عنكَ مِنَ الله شيئاً﴾ الآية [الجاثية: ١٨ - ١٩] ونظائرُها فى القرآن كثيرة.

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٨٧٠، ٦٧٥٥) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٣٧١).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٦٩٧) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٧١٨) من حديث عائشة.

(٣) قطعةٌ من حديث العرباض بن سارية: أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٠٧) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٦٧٦) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح.

(٤) الأسدى، ثقة عابد، من الثانية. «تقريب» (٢١٨).

وعن زياد بن حُدَير[٤]، قال: قال لي عُمر: هل تعرفُ ما يهدم الإسلام؟ قلتُ: لا، قال: يهدمه زَلّةُ العالم، وجدالُ المنافق بالكتاب، وحُكمُ الأئمة المُضلِّين. رواه الدارمي[١].

وقال يزيد بن عَميرة[٢]: كان مُعاذ بن جبل لا يجلسُ مجلساً للذكر إلا قال: الله حكمٌ قِسط، هلك المرتابون ـ وفيه ـ: واحذروا زيغةَ الحكيم؛ فإنَّ الشيطان قد يقول الضلالةَ على لسان الحكيم قد يقول المنافق كلمة الحق. قلت لمعاذ: وما يدريني ـ رحمك الله ـ أن الحكيم قد يقول كلمة الضلال، والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال: قال لي: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يُقال: ما هذه؟ ولا يثنينك عنه،/ فإنَّه لعله يُراجع الحق، وتَلَقّ الحق إذا سمعته، فإنَّ على الحق نوراً. [٩٣/ب] رواه أبو داود، وغيره[٣].

قوله: «وإذا وقع عليهم السيفُ لم يُرفع إلى يوم القيامة» وكذلك وقع، فإنَّ السيف لما وقع بقتل عُثمان رضي الله عنه لم يُرفع، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثُر تارة، ويقلُّ أخرى. ويكون في جهة، ويرتفعُ عن أخرى.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يَلْحق حيٌّ من أمتي بالمشركين» الحيُّ واحدُ الأحياء، وهي القبائل. وفي رواية أبي داود «حتى يلحق قبائلُ من أُمتي بالمشركين» والمعنى. أنَّهم يكونون معهم، ويرتدُّون؛ برغبتهم عن أهل الإسلام، ولحوقهم بأهل الشرك.

قوله: «وحتى تعبُدَ فئامٌ من أُمتي الأوثان» والفئامُ ـ مهمُوز ـ: الجماعاتُ الكثيرة. قاله أبو السعادات[٤].

وفي رواية أبي داود «وحتى تَعبُد قبائل من أُمتي الأوثان».

وهذا هو شاهدُ الترجمة. ففيه: الرَّدُّ على من قال بخلافه من عُبَّاد القبور، الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان. وذلك لجهلهم بحقيقة

(١) الدارمي في «السنن» رقم (٢٢٠)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (١٤٧٥) والفريابي في «صفة النفاق» (٧١) وأبو نُعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٦) وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ١١٠).

(٢) الحمصي الزُّبيدي، ثقةٌ من الثانية، نزل الكوفة. «تقريب» (٦٠٤).

(٣) أبو داود في «السنن» رقم (٤٦١١).

(٤) ابن الأثير، «النهاية» (٣/ ٤٠٦).

التوحيد وما يُناقضه من الشرك والتنديد، فالتوحيدُ هو أعظم مطلوب، والشرك هو أعظم الذنوب.

وفى معنى هذا الحديث: ما فى «الصحيحين»، عن أبى هريرة رضى الله عنه، مرفوعاً «لا تقومُ الساعةَ حتى تضطرب أَلْيَاتُ نساء دَوْس على ذى الخَلَصة». قال: وذو الخَلصة، طاغيةُ دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية[١]. وروى ابنُ حبان، عن معمر، قال: إنَّ عليه الآن بيتاً مبنياً مُغلقا[٢].

قال العلامة ابنُ القيم ـ فى قصة هدم اللاَّت لَمَّا أسلمت ثقيف ـ: فيه أنه لا يجوزُ إبقاءُ مواضع الشرك والطواغيت بعد القُدرة على هدمها وإبطالها، يوماً واحداً.

وكذلك حُكمُ المشاهد التى بُنيت على القبور، والتى اتُخذت أوثاناً تعبدُ من دون الله. والأحجار التى تُقصد للشرك والنذر، لا يجوز إبقاءُ شيء منها على وجه الأرض مع القُدرة على إزالتها. وكثيرٌ منها بمنزلة اللاَّت والعُزَّى ومناة، وأعظم شركاً عندها وبها. فاتَّبعَ هؤلاء سَنَن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُذَّة بالقذة، وغلب الشركُ على أكثر/ النفوس؛ لظهور الجهل [٩٤/أ] وخفاء العلم. فصار المعروفُ منكراً والمنكر معروفاً، والسُّنة بدعة والبدعة سنة. وطُمست الأعلام، واشتدت غُربة الإِسلام، وقلَّ العُلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتدَّ البأس، وظهر الفسادُ فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس.

ولكن لا تزال طائفةٌ من العصابة المحمَّدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أنْ يرث اللهُ الأرض ومن عليها وهو خيرُ الوارثين. انتهى ملخصا[٣].

قلتُ: فإذا كان هذا فى القرن السابع وقبله، فما بعده أعظمُ فساداً [كما هو الواقع][٤].

---

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٧١١٦)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٩٠٦).

(٢) ابن حبان فى «الصحيح» (٨/ ٢٦٤).

(٣) ابن القيم، «زادُ المعاد» (٣/ ٥٠٦).

(٤) إضافة من (هـ) و(ط).

قوله: «وإنه سيكون في أُمتي كذَّابون ثلاثون كلُّهم يزعم أنَّه نبي» قال القرطبي: وقد جاء عددُهم معيّناً في حديث حُذيفة، قال: قال رسولُ الله ﷺ «يكون في أُمتي كذابون دجَّالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة» أخرجه أبو نُعيم. وقال: هذا حديثٌ غريب(١). انتهى.

وحديثُ ثوبان أصحُّ من هذا.

قال القاضي عياض: عُدَّ من تنبَّأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ـ ممن اشتهر بذلك، وعُرف واتَّبعه جماعةٌ على ضلالته ـ فوُجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كُتبَ الأخبار والتواريخ عرف صحَّة هذا.

وقال الحافظ: قد ظهر مصداقُ ذلك في زمن النبي ﷺ: فخرج مسيلمةُ الكذَّاب باليمامة، والأسودُ العنسي باليمن. وفي خلافة أبي بكر: طُليحةُ بن خويلد في بني أسد بن خُزيمة، وسَجاحُ في بني تميم.

وقُتل الأسودُ قبل أنْ يموت النبي ﷺ، وقُتل مسيلمةُ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه. وتاب طليحةُ ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه، ونُقل أنَّ سَجاح تابت أيضاً.

ثم خرج المختارُ ابنُ أبي عُبيد الثقفي، وغلب على الكوفة في أوَّل خلافة ابن الزبير. فأظهر محبةَ أهل البيت، ودعا الناس إلى طلب قَتَلة الحُسين، فتتبَّعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك وأعان عليه، فأحبَّه الناس. ثم ادَّعى النبوة، وزعم أنَّ جبريل عليه السلام يأتيه. ومنهم الحارثُ الكذَّاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فقُتل. وخرج في خلافة بني العباس جماعة.

وليس المرادُ بالحديث من ادَّعى النبوةَ مطلقاً، فإنَّهم لا يُحصون كثرة؛ لكون غالبهم/ [٩٤/ب] ينشأ عن جنونٍ أو سوداء. وإنما المرادُ من قامت له شوكةٌ، وبدا له شبهةٌ كمن وصفنا. وقد أهلكَ الله تعالى من وقع منهم ذلك، وبقي منهم من يلحقه بأصحابه، وآخرُهم الدَّجالُ الأكبر(٢).

قوله: «وأنا خاتمُ النبيين» قال الحسن: خاتم: الذي خُتم به، أي: أنه آخرُ

---

(١) أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٧٩) قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٨٧) وسنده جيد.

(٢) ابن حجر، «فتح الباري» (٦/ ٦١٧).

النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُم وَلَكِن رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وإنَّا ينزلُ عيسى ابنُ مريم فى آخرِ الزمان، حاكماً بشريعة محمد ﷺ مُصلّياً إلى قبلته. فهو كأحدِ أُمّته، بل هو أفضلُ هذه الأمة؛ قال النبىُّ ﷺ: «والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابنُ مريم حكماً مُقْسِطاً. فليكسرنَّ الصَّليبَ، وليقتلنَّ الخنزير، وليضَعنَّ الجزية»[(١)].

قوله: «ولا تزالُ طائفةٌ من أُمتى على الحق منْصُورة لا يَضُرُّهم مَن خذلهم».

قال يزيدُ بن هارون، وأحمد بن حنبل: إنْ لم يكونوا أهلَ الحديث فلا أدرى مَن هم؟[(٢)].

قال ابنُ المبارك، وعلى بن المَدينى، وأحمد بن سنان[(٣)]، والبخارى، وغيرُهم: إنهم أهلُ الحديث[(٤)].

وعن ابن المدينى، رواية: هم العرب. واستدلَّ برواية من روى: هم أهلُ الغرب[(٥)]. وفسَّر الغربَ بالدَّلو العظيمة؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها[(٦)].

قال النووى: يجوز أنْ تكون الطائفةُ جماعةٌ متعددة، من أنواع المؤمنين ما بين شُجاعٍ وبصير بالحرب، وفقيهٍ ومحدِّث ومفسِّر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وزاهد وعابد. ولا يَلزم أنْ يكونوا مجتمعين فى بلدٍ واحد، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد، وافتراقُهم فى أقطار الأرض، ويجوز أنْ يجتمعوا فى البلد الواحد، وأنْ يكونوا فى بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاءُ الأرض من

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٤٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٥٥) من حديث أبى هريرة.

(٢) عن يزيد: أخرجه الرامهرمزى فى «المحدث الفاصل» رقم (٢٧)، وعن أحمد: أخرجه الخطيب فى «المصدر السابق» رقم (٤٨). وإسناده صحيح، كما قال ابن حجر فى «فتح البارى» (١٣/ ٢٩٣).

(٣) أبو جعفر، بن أسد بن حبان القطان الواسطى، ثقةٌ حافظ ت(٢٥٩هـ) «تقريب» (٨٠).

(٤) عن ابن المبارك: أخرجه الخطيب فى «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٧)، وعن ابن المدينى: أخرجه الترمذى فى «الجامع» (٨/٧)، وعن ابن سنان: أخرجه الخطيب فى «شرف أصحاب الحديث» رقم (٤٩)، وعن البخارى: أخرجه الخطيب فى «المصدرا لسابق» رقم (٥١).

(٥) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (١٩٢٥) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٦) النووى، «المنهاج» (١٣/ ٦٨).

بعضهم أولاً فأولاً، إلى أنْ لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمرُ الله. انتهى ملخصاً، مع زيادة فيه. قاله الحافظ[1].

قال القرطبي: وفيه دليلٌ على أنَّ الإجماع حُجَّة؛ لأنَّ الأُمَّة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة.

قال المصنف: وفيه: الآيةُ العظيمة، أنَّهم مع قلَّتهم لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم. والبشارةُ بأنَّ الحق لا يزول بالكلية[2].

قلتُ: واحتج به الإمامُ أحمد على أنَّ الاجتهاد لا ينقطعُ، ما دامت هذه الطائفة موجودة.

[١/٩٥] قوله: «حتى يأتي أمرُ الله» الظاهرُ أنَّ المراد به/ ما روى من قبض مَنْ بقى من المؤمنين بالرِّيح الطيبة، ووقوع الآيات العظام.

ثم لا يبقى إلا شِرار الناس؛ كما روى الحاكمُ: أنَّ عبد الله بن عمرو، قال: لا تقومُ الساعةُ إلا على شرار الخلق، هم شرُّ أهل الجاهلية. فقال عُقبة بن عامر لعبد الله: أعلَمُ ما تقول، وأمَّا أنا فسمعتُ النبي ﷺ يقول: «لا تزال عِصابةٌ من أُمَّتى يُقاتلون على أمر الله، ظاهرين، لا يضرُّهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعةُ وهم على ذلك» فقال عبدُ الله: ويبعث الله ريحاً ريحها المسك، ومسُّها مسُّ الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة[3].

وفى (صحيح مسلم) «لا تقوم الساعةُ حتى لا يُقال فى الأرض: الله الله»[4].

وعلى هذا: فالمرادُ بقوله فى حديث عُقبة، وما أشبهه «حتى تأتيهم الساعة» ساعتُهم، وهى وقت موتهم بهبوب الريح. ذكره الحافظ[5].

وقد اختُلف فى محلِّ هذه الطائفة، فقال ابنُ بَطَّال[6]: إنها تكون فى بيت

---

(١) ابن حجر، «فتح البارى» (١٣/ ٢٩٥).

(٢) المسألتان: التاسعة والعاشرة.

(٣) الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٤٥٦) وصححه ووافقه الذهبى، وأخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٥) (١٩٢٤).

(٤) مضى تخريجه.

(٥) ابن حجر، «فتح البارى» (١٣/ ٢٩٤).

(٦) أبوالحسن، على بن خلف بن بَطال البكرى، مُحدِّثٌ فقيه مالكى ت (٤٤٩هـ) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٧).

المقدس؛ كما رواه الطبرانيُّ، من حديث أبي أُمامة، قيل: يارسول الله، وأين هم؟ قال: «بيت المقدس»[1] وقال مُعاذُ بن جبل: هم بالشام[2].

وفي كلام الطَّبري ما يدلُّ على أنه لا يجب أنْ تكون في الشام أو في بيت المقدس دائماً، بل قد تكون في موضعٍ آخر في بعض الأزمنة.

قلتُ: ويشهدُ له الواقع، وحالُ أهلِ الشام وأهل بيت المقدس. [فإنهم][3] من أزمنةٍ طويلة لا يُعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإِسلام ابن تيمية وأصحابِه، في القرن السابع وأوَّلِ الثامن.

فإنَّهم على الحق يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يجيءُ من أمثالهم بعدُ بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة، والله على كلِّ شيءٍ قدير.

ومَّما يؤيِّدُ هذا: أنَّ أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة، وتوافر العُلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده، لم يكونوا في محلٍّ واحد. بل هم في غالب الأمصار: في الشام منهم أئمة، وفي الحرمين، وفي مصر، وفي العراق، وفي اليمن.

وكلُّهم على الحق يُناضلون ويُجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفاتُ التي صارت أعلاماً لأهل السنة، وحُجَّةً على كلِّ مُبتدع.

فعلى هذا: فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تفترق، وقد تكون في الشام، وقد/ [٩٥/ب] تكون في غيره.

فإنَّ حديث أبي أمامة، وقول معاذ، لا يُفيدُ حصرها بالشام، وإنما يُفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلِّها.

وقوله: «تبارك وتعالى» قال ابنُ القَيِّم: البركةُ نوعان: أحدُهما: بركةٌ هي فعلُه، والفعلُ منها بارَك. ويتعدَّى بنفسه تارةً، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة. والمفعول منها مُبارك. وهو ما جعل منها كذلك، فكان مُباركاً بجعله تعالى.

---

(١) الطبراني في «الكبير» رقم (٧٦٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٦٤١).

(٣) إضافة من (ط).

والنوعُ الثانى: بركةٌ تُضاف إليه إضافةَ الرحمة والعزّة، والفعلُ منها تبارك. ولهذا لا يُقال لغيره ذلك، ولا يصلُح إلا له عز وجل. فهو سبحانه المُبارك، وعبدُه ورسوله المُبارَك، كما قال المسيحُ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه، فهو المبارك.

وأما صفتُه تبارك فمختصةٌ به، كما أطلقها على نفسه فى قوله: ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذى بِيَدِهِ المُلْك وَهو عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]. أفلا تراها كيف اطَّردت فى القرآن جاريةً عليه مختصةً به، لا تُطلق على غيره؟.

وجاءت على بناء السَّعة والمُبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوه. فجاء بناء ﴿تَبَارَكَ﴾ على بناء: تعالى، الذى هو دالٌّ على كمال العلوِّ ونهايته، فكذلك ﴿تَبَارَكَ﴾ دالٌّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف ﴿تَبَارَكَ﴾: تعاظم. وقال ابنُ عباس: جاء بكلِّ بركة[1].

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٥ - ١٨٦).

(٢٣)
بـــاب
ما جاء في السحـــر

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في السِّحر.

ش: أي والكهانة. والسِّحرُ في اللغة: عبارةٌ عمَّا خفي ولطُف سببه؛ ولهذا جاء في الحديث «إنَّ من البيان لسحراً»[١] وسُمِّي السَّحَرُ سَحراً؛ لأنه يقع خفياً آخر الليل.

قال أبو محمَّد المقَدسي في (الكافي): السحرُ: عزائمٌ ورُقىً وعُقد، تُؤثِّرُ في القلوب والأبدان، فيُمرض ويقتل، ويفرِّقُ بين المرء وزوجه، قال الله تعالى: ﴿فيَتَعَلَّمُون منهُما ما يُفَرِّقُونَ به بَيْنَ المرءِ وزَوْجِه﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿ومِن شرِّ النَّفَّاثَاتِ في العُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

يعني: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن، وينفثن في عقدهن. ولولا أنَّ للسحر حقيقةً لم يأمر بالاستعاذة منه.

وعن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ سُحر، حتى إنَّه ليُخيَّلُ إليه أنه يفعل الشيءَ وما يفعله، وأنَّه قال لها ذات يوم: «أتاني مَلكان، فجلس أحدُهما عند رأسي والآخرُ/ عند رجلَيَّ، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طَبّه؟ قال: لَبيدُ ابن الأعصم، وفي مشطٍ ومِشاطة، في جُفِّ طلْعةِ ذَكر[٢] في بئر ذِرْوان» رواه البخاري[٣] [٤]. [٩٦/أ]

(١) أخرجه البخاريُّ في «الصحيح» رقم (٥١٤٦، ٥٧٦٧) وأحمد في «المسند» (٢/ ١٦، ٥٩، ٦٣، ٩٤) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) هو الغشاء الذي يكون على الطلع. «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٩).

(٣) البخاري في «الصحيح» رقم (٣١٧٥، ٥٧٦٣، ٦٠٦٣).

(٤) ابن قدامة، «الكافي» (٣/ ١٦٤).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: ﴿ولَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ في الآخِرَةِ مِن خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ش: قال ابنُ عباس: من نصيب(١). قال قتادة: وقد علم أهلُ الكتاب فيما عُهد إليهم: أنَّ الساحر لا خلاق له في الآخرة(٢). وقال الحسن: ليس له دين(٣).

فدلَّت الآيةُ على تحريم السِّحر، وكذلك هو محرَّمٌ في جميع أديان الرسل عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

وقد نص أصحابُ أحمد: أنَّه يكفر بتعلُّمه وتعليمه(٤).

وروى عبدُ الرزاق، عن صفوان بن سليم، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من تعلَّم شيئاً من السِّحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخرُ عهده من الله»(٥) وهو مُرسل.

وقد اختلفوا: هل يكفر الساحرُ أو لا؟ فذهب طائفةٌ من السلف [إلى](٦) أنَّه يكفر، وبه قال مالك، وأبو حنيفة، وأحمد. قال أصحابُه: إلا أن يكون سِحرُه بأدويةٍ وتدخين وسقي شيء(٧) لا يضر، فلا يكفر.

وقال الشافعي: إذا تعلَّم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك!، فإنْ وصف ما يوجِب الكفر ـ مثل ما اعتقده أهلُ بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها ـ فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر: فإنْ اعتقد إباحته كفر. انتهى(٨).

وقد سمَّاه الله كفراً في قوله: ﴿إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿وما كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكِنَّ الشياطين كَفَروا﴾ قال ابنُ عباس، في قوله:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، في «التفسير» والطستي، في «مسائله» كما في «الدر المنثور» (١/ ٢٥١).
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري، في «التفسير» رقم (١٧٠٥).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/ ٥٤).
(٤) ينظر: ابن قدامة المقدسي، «المغني» (١٢/ ٣٠٠).
(٥) عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ١٨٤).
(٦) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).
(٧) (ض) (هـ) (ط): لا. ساقطة.
(٨) ينظر: القرافي «كتاب الفروق» (٤/ ١٥٢).

﴿إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تكفُرْ﴾ وذلك أنهما علِما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أنَّ السحر من الكفر[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: ﴿يُؤمِنُونَ بالجِبْتِ والطاغُوت﴾ [النساء: ٥١].

ش: تقدَّم الكلامُ عليهما في الباب قبله. وفيه: أنَّ السحر من الجبت. قاله المُصنِّفُ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان.

ش: هذا الأثر، رواه ابنُ أبي حاتم، وغيرهُ[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال جابر: الطواغيت: كُهَّانٌ، كان ينزل عليهم الشيطانُ، في كلِّ حيٍّ واحد.

ش: هذا الأثر، رواه ابنُ أبي حاتم بنحوه مُطولاً، عن وهب بن مُنبِّه، قال: سألتُ جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، قال[3]: إنَّ في جُهينةَ واحداً، وفي أسْلَم واحداً، وفي هلال واحداً، وفي كلِّ حيٍ واحداً، وهم كُهّان تنزلُ عليهم الشياطين[4]/ . [٩٦/ب]

قوله: (قال جابر)، هو ابنُ عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري.

قوله: (الطواغيت: كهان)، أراد أنَّ الكهان من الطواغيت، فهو من أفراد المعنى.

قوله: (كان ينزل عليهم الشيطان)، أراد الجنس، لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين، ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقونه من السمع، فيصدِّقون مرة، ويكذبون مائة.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٢).

(٢) سبق تخريجه. وقال ابنُ حجر في «فتح الباري» (٨/ ٢٥٢): إسناده قوي.

(٣) (ط): فقال.

(٤) ابن أبي حاتم في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٢).

قوله: (في كلِّ حيٍ واحد). الحيُّ واحدُ الأحياء، وهم القبائل، أي: في كل قبيلة كانٌ يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمرُ قبل مبعث النبي ﷺ. فأبطل الله ذلك بالإسلام، وحُرست السماءُ بكثرة الشُّهُب.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبعَ المُوبقات» قالوا: يا رسول الله، وما هُن؟ قال: «الشركُ بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولّي يوم الزّحْف، وقذفُ المُحصَنَات الغافلات المؤمنات».

ش: [كذا أورده المصنفُ غيرَ معزو][1]، وقد رواه البخاريُّ، ومسلم[2].

قوله: «اجتنبوا» أي: ابعدوا، وهو أبلغُ من قوله: دعوا أو اتركوا؛ لأنَّ النهي عن القُربان أبلغ، كقوله: ﴿**ولا تَقْرَبُوا الفواحِش ما ظهر مِنْها وما بطن**﴾. [الأنعام: ١٥١].

قوله: «الموبقات» بموحَّدة وقاف. أي: المُهلكات. وسُمِّيت هذه موبقات؛ لأنها تُهلك فاعلَها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

وفي حديث ابن عمر ـ عند البخاري في (الأدب المفرد)، والطبري في (التفسير)، وعبد الرزاق، مرفوعاً وموقوفاً ـ قال: الكبائرُ تسع ـ وذكر السبعة المذكورة ـ والإلحاد في الحرم. وعقوق الوالدين[3].

ولابن أبي حاتم، عن علي، قال: الكبائر ـ فذكر السبع، إلا مال اليتيم ـ وزاد: العقوق، والتعرُّب بعد الهجرة، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة[4].

قال الحافظ: ويُحتاج عند هذا، إلى الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع.

ويُجاب: بأنَّ مفهوم العدد ليس بحُجة، وهو ضعيف، أو بأنَّه أعْلَم أوَّلاً

---

(١) ما بينهما ساقطٌ من الأصل.

(٢) البخاري في «الصحيح» رقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٨٩).

(٣) البخاري في «الأدب المُفرد» رقم (٨) وابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٩١٨٨) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٦٠).

(٤) ابن أبي حاتم في «التفسير» كما في المصدر السابق (٢/ ١٤٧).

بالمذكورات. ثم أعْلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أنَّ الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل.

وقد أخرج الطبرانيُّ، وإسماعيلُ القاضى/، عن ابن عباس، أنه قيل له: [٩٧/أ] الكبائرُ سبع، قال: هُن أكثر من سبعٍ وسبع[١]. وفى رواية: هى إلى السبعين أقرب[٢]. وفى رواية: إلى السبعمائة[٣] [٤].

قوله: قال «الشركُ بالله» هو أنْ يجعل لله نداً، يدعوه كما يدعو الله ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله.

وبدأ به؛ لأنه أعظمُ ذنب عُصى الله به، كما فى (الصحيحين)، عن ابن مسعود: سألتُ النبى ﷺ أىُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» الحديث[٥].

وأخرج الترمذى ـ بسنده ـ عن صفوان بن عسَّال، قال: قال يهودىٌّ لصاحبه: أذهب بنا إلى هذا النبى، فقال له صاحبهُ: لا تقل: نبىّ، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين، فأتيا رسولَ الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال رسول الله ﷺ «لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرَّم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا مُحصنة، ولا تُولّوا الفرار يوم الزحف. وعليكم خاصةً اليهود أنْ لا تعتدوا فى السبت» قال: فقبَّلا يديه ورجليه. وقالا: نشهدُ أنك نبى. الحديث[٦]. وقال: حسنٌ صحيح.

قوله: «والسحر» تقدم معناه. وهذا وجهُ مناسبة هذا الحديث للترجمة.

قوله: «وقتلُ النفس التى حرَّم الله» أى: حرَّم قتلَها.

«إلا بالحق» أى: بأنْ تفعل ما يوجب قتلها، كالشرك، والنفس بالنفس،

---

(١) وأخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٩٢٠٣).

(٢) وأخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (١٠/ ٤٦٠) وابن جرير فى «التفسير» رقم (٩٢٠٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٩٢٠٧).

(٤) ابن حجر، «فتح البارى» (١٢/ ١٨٣).

(٥) مضى تخريجه.

(٦) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٧٣٤، ٣١٤٣).

والزانى بعد الإحصان. (1)وقوله: «وقتل النفس التى حرم الله» أى: نفس المسلم المعصوم(1)، وقتل المُعاهد؛ كما فى الحديث «من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنة» الحديث(2).

واختلف العلماءُ فيمن قتل مؤمناً متعمِّداً، هل له توبة أم لا؟ فذهب ابنُ عباس، وأبو هريرة، وغيرهُما: إلى أنه لا توبة له؛ استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فجزاؤهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها﴾. [النساء: ٩٣].

قال ابنُ عباس: نزلت هذه الآيةُ وهى آخرُ ما نزل، وما نسخها شيء(3). وفى رواية: لقد نزلت فى آخر ما نزل، ما نسخها شيءٌ حتى قُبض رسولُ الله/ ﷺ وما نزل وحى(4). [٩٧/ب]

ورُوِى فى ذلك آثارٌ تدلُّ لما ذهب إليه؛ كما عند الإمام أحمد، والنسائى، وابن المُنذر، عن معاوية: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ ذنب عسى الله أنْ يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»(5).

وذهب جمهورُ الأُمة ـ سلفاً وخلفاً ـ إلى أنَّ القاتل له توبةٌ فيما بينه وبين الله، فإنْ تاب وأناب وعمل صالحاً بدَّل الله سيئاته حسنات؛ كما قال تعالى: ﴿والذين لايَدْعُونَ مع الله إلهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُون النَّفْس التى حرَّمَ الله إلا بالحَقِّ ولا يَزْنُونَ ومَنْ يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لهُ العَذَابُ يَوْمَ القيَامَة ويَخْلُدْ فيه مُهَانًا * إلاَّ مَنْ تَابَ وآمنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالحاً فأُولئك يُبَدِّلُ الله سيِّئَاتِهِمْ حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾. [الفُرقان: ٦٨ - ٧٠].

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً﴾ فقد قال أبو هريرة، وغيرهُ: هذا جزاؤه إنْ جازاه.

[وقد رُوِى عن ابن عباس ما يُوافق قول الجمهور، فروى عبدُ بن حُميد،

---

(1) ما بينهما ساقطٌ من (ظ).

(2) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣١٦٦، ٦٩١٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

(3) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٥٩٠، ٤٧٦٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٣٠٢٣).

(4) أخرجه فى «المسند» رقم (٢١٤٢) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٠١٨٨).

(5) أحمد فى «المسند» (٤/ ٩٩) والنسائى فى «المجتبى» (٧/ ٨١) من حديث أبى الدرداء.

والنَّحاس، عن سعيد بن عبيد: أنَّ ابن عباس رضى الله عنهما كان يقول: لِمن قتل مؤمناً توبة[1]. وكذلك ابن عمر رضى الله عنهما[2]. ورُوى مرفوعاً: أنَّ جزاءه جهنمُ إنْ جازاه][3] [4].

قوله: «وأكلُ الربا» أى: تناوله بأى وجه كان؛ كما قال تعالى: ﴿**الذين يأكُلُون الرِّبا لا يَقُومُون إلا كما يقُومُ الذى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ من المسِّ**﴾. الآيات [البقرة: ٢٧٥ - ٢٨٠]. قال ابنُ دقيق العيد[5]: وهو مجرَّبٌ لسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: «وأكلُ مال اليتيم» يعنى: التعدِّى فيه. وعبَّر بالأكل؛ لأنه أعمُّ وجوه الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿**إن الذين يأكُلُون أمْوَالَ اليَتَامى ظُلْماً إنَّما يَأكُلُون فى بُطُونِهِم نَاراً وسَيَصْلَوْن سعيراً**﴾. [النساء: ١٠].

قوله: «والتولى يوم الزحف» أى: الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال. وإنما يكون كبيرة إذا فرَّ إلى غير فئةٍ، أو غير متحرِّفٍ لقتال، كما قُيِّد به فى الآية.

قوله: «وقذفُ المُحصنات الغافلات المؤمنات» وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها: الحافظات فروجهن منه. والمراد: الحرائر العفيفات، والمراد: رميهن بزنا أو لواط. والغافلات: أى: عن الفواحش، وما رُمين به. فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل بريءٌ عمّا بُهت به، والمؤمنات: أى بالله تعالى، احترازاً من قذف الكافرات.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن جُندب مرفوعاً «حَدُّ الساحر: ضربُه بالسيف» رواه الترمذى، وقال: الصحيح أنه موقوف[6].

---

(١) عبد بن حميد، والنحاس، كما فى «الدر المنثور» (٢/٦٢٩).

(٢) أخرجه النحاس، كما فى «الدر المنثور» (٢/٦٢٩).

(٣) ما بينهما إضافة من (هـ) و(ط).

(٤) أخرجه ابنُ أبى حاتم، والطبرانى، كما فى «الدّر المنثور» (٢/٦٢٧).

(٥) أبو الفتح، تقى الدين، محمد بن على بن وهب القُشيرى، فقيه محدث (ت٧٠٢هـ) «طبقات الشافعية» (٩/٢٠٧).

(٦) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٤٦٠).

ش: قوله: (عن جُندب) ظاهرُ صنيع الطبرانى فى (الكبير): أنَّه جُندب بن عبد الله البَجلى. لا جُندب الخير/ الأزدى، قاتل الساحر؛ فإنه رواه فى ترجمة جُندب البجلى، من طريق خالد العبد، عن الحسن، عن جندب، عن النبى ﷺ، وخالد العبد: ضعيف. [٩٨/أ]

قال الحافظ: والصواب أنَّه غيرهُ، وقد رواه ابنُ قانع، والحسن بن سُفيان من وجهين، عن الحسن، عن جُندب الخير: أنه جاء إلى ساحرٍ، فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: فذكره.

وجُندب الخير: هو جندب بن كعب - وقيل: جندب بن زهير، وقيل هما واحد؛ كما قاله ابنُ حبان - أبو عبد الله الأزدى الغامدى، صحابى. روى ابنُ السَّكن، من حديث بُريدة: أنّ النبى ﷺ قال: «يضرب ضربةً واحدة فيكون أُمّةً وحده»[(١)].

قوله: «حدُّ الساحر: ضربهُ بالسيف» ورُوى بالهاء وبالتاء، وكلاهُما صحيح.

وبهذا الحديث: أخذ أحمدُ، ومالك، وأبو حنيفة، فقالوا: يُقتل الساحر. وروى ذلك عن عُمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز.

ولم ير الشافعى عليه القتل بمجرَّد السحر، إلا إنْ عمل فى سحره ما يبلغُ الكفر. وبه قال ابنُ المنذر، وهو روايةٌ عن أحمد[(٢)].

والأوَّل أولى؛ للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناسُ فى خلافته من غير نكير.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفى (صحيح البخارى)، عن بَجالة بن عَبَدة قال: كتب عمرُ بن الخطاب: أنِ اقتلوا كلَّ ساحرٍ وساحرة، قال: فقتلنا ثلاثَ سواحر[(٣)].

ش: هذا الأثرُ رواه البخارىُّ؛ كما قال المصنِّفُ، لكن لم يذكر قتلَ السواحر.

---

(١) ابن السكن كما فى «الإصابة» (١/ ٢٥٠).

(٢) ينظر: ابن قدامة، «المغنى» (١٢/ ٣٠٢).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣١٥٦).

قوله: (عن بَجالة) بفتح الموحَّدة بعدها جيم. ابن عبدة - بفتحتين - التميمى العنبرى، بصرىٌّ ثقة.

قوله: (كتب إلينا عمرُ بن الخطاب: أنِ اقتلوا كلَّ ساحرٍ وساحرة)، وظاهرهُ أنَّه يُقتل من غير استتابة. وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك؛ لأنَّ علم الساحر لا يزول بالتوبة. وعن أحمد يُستتاب، فإنْ تاب قُبلت توبتُه، وبه قال الشافعى؛ لأنَّ ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يُستتاب وتُقبل توبته. ولذلك صح إيمانُ سحرة فرعون وتوبتهم[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وصحَّ عن حفصة: أنَّها أمرت بقتل جاريةٍ لها سحرَتها/ فقُتلت. وكذا صحَّ عن جُندب. [٩٨/ب]

ش: هذا الأثرُ، رواه مالكٌ فى (الموطأ)[2].

وحفْصةُ، هى أمُّ المؤمنين، بنت عمر بن الخطاب، تزوَّجها النبىُّ ﷺ بعد خُنَيس بن حُذافة[3]، وماتت سنة خمسٍ وأربعين.

قوله: (وكذا صح عن جُندب)، أشار المصنفُ بهذا إلى قتله الساحر؛ كما رواه البخارىُّ فى (تاريخه)، عن أبى عُثمان النهدى، قال: كان عند الوليد رجلٌ يلعب، فذبح إنسانًا وأبان رأسَه. فعجبنا! فأعاد رأسه. فجاء جُندب الأزدى فقتله[4].

ورواه البيهقىُّ فى (الدلائل) مطولاً. وفيه: فأمر به الوليدُ، فسُجن. فذكر القصة بتمامها[5]، ولها طرقٌ كثيرة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال أحمد: عن ثلاثةٍ من أصحاب النبى ﷺ.

ش: أحمد، هو الإمام، أحمد بن محمد بن حنبل.

قوله: (عن ثلاثة). أى: صحَّ قتلُ الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من (أصحاب النبى ﷺ)، يعنى: عمر، وحفصة، وجُندبا. والله أعلم.

---

(١) ينظر: أبو يعلى، «الروايتين» (٢/ ٣٠٣).

(٢) مالك فى «الموطأ، كتاب العُقول» رقم (٤٦) بلاغا، ووصله عبدُ الرزاق فى «المصنف» (١٠/ ١٨٠).

(٣) أبو حُذافة، ابن قيس بن عدى، هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً، مات فى أول السنة الثالثة من الهجرة. «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٣٩٢).

(٤) البخارى فى «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٢٢) قال الذهبى فى «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣): إسنادهُ صحيح.

(٥) كما فى «الإصابة» (١/ ٢٥٠) وأخرجه فى «السنن الكبرى» (٨/ ١٣٦).

(٢٤)

بـــاب

بيـان شيء مــن أنـواع السحــر

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ بيان شيءٍ من أنواع السحر.

ش: قلتُ: ذكر الشارحُ هنا شيئاً من الخوارق وكراماتِ الأولياء، وذكر ما اغترَّ به كثيرٌ من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرَّت كثيراً من العوام والجهال، وظنوا أنها تدلُّ على ولاية مَنْ جرت على يده، ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، ثم قال: ولشيخ الإِسلام كتابُ (الفُرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) فراجعه. انتهى[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال أحمد: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا عوف، حدثنا حيَّان بن العلاء، حدثنا قَطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إنَّ العِيَافة، والطَّرْق، والطِّيرة من الجِبْت» قال عوف: العيافةُ: زَجر الطير، والطَّرْقُ: الخط يُخط في الأرض. والجبت: قال الحسن: رنَّة الشيطان[2]. إسنادهُ جيد. ولأبي داود، [والنسائي][3]، وابن حبان في (صحيحه): المسندُ منه[4].

ش: قوله: (قال أحمد) هو الإِمام، أحمد بن محمد بن حنبل.

---

(١) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (٣٩٨).

(٢) أحمد في «المسند» (٥/ ٦٠، ٣/ ٤٧٧). وفيه قال الحسن: إنَّه الشيطان. وهو الصواب. والله أعلم.

(٣) إضافةٌ من (ط).

(٤) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩٠٧) والنسائي في «السنن الكبرى» التفسير كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٢٧٥) وابن حبّان في «الصحيح» (٧/ ٦٤٦)، قال النووي في «رياض الصالحين» (٦٣٧): رواه أبو داود بإسنادٍ حسن.

ومحمد بن جعفر: هو المشهور بغُندَر الهُذلى البصرى، ثقةٌ مشهور. مات سنة ستٍ ومائتين.

[٩٩/أ] وعوف: هو ابن/ أبى جَميلة ـ فتح الجيم ـ العبدى البصرى، المعروفُ بعوف الأعرابى، ثقة. مات سنة ستٍ ـ أو سبع ـ وأربعين[١]، وله ستٌ وثمانون سنة.

وحيَّان بن العلاء: هو بالتحتية، ويقال: حيَّان بن مُخارق، أبو العلاء البصرى، مقبول. وقَطَن ـ بفتحتين ـ أبو سهل البصرى، صدوق.

قوله: (عن أبيه) هو قَبيصة ـ بفتح أوله ـ ابن مُخارق ـ بضم الميم ـ أبو عبد الله الهلالى، صحابىٌّ نزل البصرة.

قوله: «إنَّ العيافة والطرْق والطيرة من الجبْت» قال عوف: العيافة: زجرُ الطير، والتفاؤلُ بأسمائها وأصواتها وممرِّها. وهو من عادة العرب، وكثُرُ فى أشعارهم. يُقال: عاف يعيف عيفاً: إذا زجر وحدس وظن.

قوله: «والطَّرْق»: الخط يُخط بالأرض. كذا فسَّره عوف، وهو كذلك.

وقال أبو السعادات: هو الضربُ بالحصى، الذى يفعلهُ النساء[٢].

وأمَّا الطيرة: فيأتى الكلامُ عليها، فى بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: «من الجِبْت» أى: السِّحر[٣]، قال القاضى: والجبتُ فى الأصل: الفشلُ الذى لا خير فيه، ثم استُعير لما يُعبد من دون الله، وللسَّاحر والسحر.

قوله: (قال الحسن: رنَّة الشيطان)[٤]. قلتُ: ذكر إبراهيمُ بن محمد بن مُفلح[٥]:

أنَّ فى (تفسير بَقِيِّ بن مَخْلَد)[٦]: أنَّ إبليس رنَّ أربع رنات: رنة حين لُعن،

---

(١) بعد المائة «تقريب التهذيب» (٤٣٣).

(٢) ابن الأثير، «النهاية فى غريب الحديث» (٣/ ١٢١).

(٣) يعنى: من أفعال السحرة، وليست هى بذاتها من السحر. والله أعلم.

(٤) سبق التنبيه على ذلك.

(٥) أبو إسحاق المقدسى، الرامينى، فقيه حنبلى (ت ٨٨٤هـ) «شذرات الذهب» (٧/ ٣٣٨).

(٦) أبو عبد الرحمن، ابن يزيد الأندلسى القرطبى، حافظ مفسر، إمام مجتهد صالح، منقطع القرين. ت (٢٧٦هـ) و«طبقات الحنابلة» لابن أبى يعلى (١/ ١٢٠).

ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسولُ الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحةُ الكتاب[١].

قال سعيدُ بن جُبير: لما لعن الله إبليس، تغيَّرت صورتُه عن صورة الملائكة، ورنّ رنة، فكلُّ رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة. رواه ابنُ أبى حاتم[٢].

وعن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: لما فتح رسولُ الله ﷺ مكة، رنّ إبليس رنّة اجتمعت عليه جنودهُ. رواه الحافظُ الضياء فى (المُختارة).

الرنين: الصوت. وقد رن يرنُّ رنيناً. وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله.

قوله: (ولأبى داود، وابن حبان فى صحيحه: المسندُ منه). ولم يذدر التفسيرَ الذى فسَّره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور، بدون كلام الحسن[٣]/ . [٩٩/ب]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من اقتبس شُعبةً من النجوم، فقد اقتبس شعبةً من السحر، زادَ مازاد» رواه أبو داود[٤]، بإسنادٍ صحيح.

ش: وكذا صحَّحه النوويُّ، والذهبى[٥]. ورواه أحمدُ، وابن ماجه[٦].

قوله: «من اقتبس» قال أبو السعادات: قبستُ العلم واقتبستهُ: إذا علِمتهُ. انتهى[٧].

قوله: «شُعبة» أى: طائفةٌ من علم النجوم. والشُّعبةُ الطائفة، ومنه الحديث «الحياءُ شعبةٌ من الإِيمان»[٨] أى: جزءٌ منه.

---

(١) اخرجه ابن ابي شيبة ، كما في " الدر المنثور "(١١/١) والطبراني في" الأوسط "(٢٩٥/١)عن ابي هريرة.قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح "مجمع الزوائد" (٣١١/٦). وقال ابن رجب في " لطائف المعارف" (١٩٢)والمعروف هذاعن مجاهد من قوله ، خرجه وكيع وغيره .

(٢) ابن ابي حاتم ، كما في " الدر المنثور " (٨٠/٥) وابن ابي الدنيا كما في "اللطائف "(١٩٢).

(٣) لكن أبا داود رحمه الله رواه بإسناد خاص . برقم (٣٩٠٨).

(٤) ابو داود في "السنن "رقم (٣٩٠٥).

(٥) النووي في " رياض الصالحين " (٦٣٧) والذهبي في "الكبائر" (١٢٣) وقال ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (١٩٣/٣٥) : إسناده صحيح .

(٦) أحمد في "المسند "(٢٧٧/١،٣١١)وابن ماجة في "السنن" رقم (٣٧٢٦)،وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية " (٤٣٤/٣):إسناده جيد.

(٧) ابن الأثير ، " النهاية في غريب الحديث " (٤/٤).

(٨) قطعةٌ من حديث أخرجه البخاري في "الصحيح" رقم (٩) ، ومسلم في" الصحيح " رقم (٣٥) واحمد في " المسند " (٤١٤/٢) من حديث ابي هريرة .

قوله: «فقد اقتبس شُعبةً من السحر»، المحرَّم تعلُّمه.

قال شيخُ الإسلام: فقد صرَّح رسولُ الله ﷺ بأنَّ علم النجوم من السحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[1]. [طه: ٦٩].

قوله: «زاد مازاد» أي: كلَّما زاد من تعلُّم علم النجوم، زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شُعَبه؛ فإنَّ ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أنَّ تأثير السحر باطل. والله اعلم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وللنسائي، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَن عقد عُقدةً ثم نفَث فيها فقد سَحر، ومن سَحر فقد أشرك، ومن تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه»[2].

ش: هذا الحديثُ ذكره المُصنِّفُ من حديث أبي هريرة، وعزاه للنسائي[3].

وقد رواه النسائيُّ مرفوعاً[4]، وحسَّنه ابنُ مُفلح[5].

قوله: (وللنسائي). هو الإمام الحافظ، أحمد بن شُعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرحمن، صاحبُ (السنن) وغيرها. روى عن محمد بن المُثنى، وابن بشار، وقُتيبة، وخلْق. وكان إليه المُنتهى في العلم بعلل الحديث. مات سنة ثلاثٍ وثلاثمائة، وله ثمانٌ وثمانون سنة.

قوله: «مَن عَقَد عُقدةً ثم نَفَث فيها فقد سَحر» إعلم أنَّ السُحرة إذا أرادوا عمل السحر، عقدوا الخيوط ونفثوا على كلِّ عُقدة، حتى نعقد كلُّ ما يُريدون من السحر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يعني: السواحر اللاتي يفعلن ذلك. والنفثُ: هو النفخ من ريق، وهو دون التفل. والنفثُ فعلُ الساحر، فإذا تكيَّفت نفسُه بالخُبث والشر ـ الذي يُريده بالمسحور ويستعين عليه / [١/أ] بالأرواح الخبيثة ـ نفخ في تلك العُقدة نفخاً معه ريق، فيخرُج من نفْسه الخبيثة نَفَسٌ ممازجٌ

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٣).

(٢) النسائي في «المجتبى» (٧/ ١١٢).

(٣) ولم يُبيِّن هل هو موقوف أو مرفوع. «التيسير» (٤٠١).

(٤) والصوابُ أنه موقوفٌ على الحسن؛ كما قال الذهبي في «الميزان» (٢/ ٣٧٨).

(٥) ابن مفلح، «الآداب الشرعية» (٣/ ٧٨).

للشر والأذى، مُقترنٌ للريق الممازج لذلك، وقد تَساعد هو والروح الشياطنية على أذى المسحور، فيصيبه السحرُ بإذن الله الكونى القدرى، لا الشرعى، قاله ابنُ القيِّم[1].

قوله: «ومن سَحر فقد أشرك» نصٌّ فى أنَّ الساحر مُشرك؛ إذ لا يتأتى السحرُ بدون الشرك، كما حكاه الحافظُ عن بعضهم.

قوله: «ومن تعلّق شيئاً وُكِل إليه» أى: من تعلَّق قلبُه شيئاً ـ بحيثُ يعتمد عليه ويرجوه ـ وكَلَه الله إلى ذلك الشىء.

فمن تعلَّق على ربه وإلهه وسيده ومولاه ربِّ كلِّ شىء ومليكه، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه، فنعم المولى ونعم النصير؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزُّمر: ٣٦]. ومن تعلَّق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكَلَه الله إلى من تعلَّقه، فهلك.

ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق، ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عيانًا، وهذا من جوامع الكلِم. والله أعلم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ألا أُنبئُكم ما العَضْهُ؟ هى النميمة: القالَةُ بين الناس» رواه مسلم[2].

ش: قوله: «ألا أُنبئكم» أى: أُخبركم، و«العَضْهُ» بفتح المُهملة وسكون المعجمة.

قال أبو السعادات: هكذا يُروى فى كُتب الحديث. والذى فى كُتب الغريب «ألا أُنبئكم ما العِضَه» بكسر العين وفتح الضاد.

قال الزمخشرى: أصلُها: العِضْهَة، فعلُه من العَضْه وهو البَهت، فحُذفت لامُه، كما حُذفت من السَّنَة والشَّفَة. وتُجمع على عِضين[3].

ثم فسَّره بقوله: «هى النميمة: القالَةُ بين الناس» فأطلق عليها: العَضْهُ؛ لأنَّها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً. ذكره القُرطبى.

---

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢١).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٠٦).

(٣) ابن الأثير، «النهاية» (٣/ ٢٥٤).

وذكر ابنُ عبد البر، عن يحيى بن أبى كثير، قال: يفسدُ النمام والكذَّابُ فى ساعةٍ ما لا يُفسد الساحرُ فى سنة(١).

وقال أبو الخطَّاب(٢) فى (عُيون المسائل): ومن السِّحر السعىُ بالنميمة والإِفساد بين الناس.

قال فى (الفُروع): ووجهُه: أنَّه يقصدُ الأذى بكلامه وعمله، على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر. وهذا يُعرف/ بالعُرف والعادة أنه يؤثر، وينُتج ما يعمله [١٠٠/ب] السِّحرُ أو أكثر. فيُعطى حكمُه؛ تسويةً بين المُتماثلين أو المتقاربين. لكن يُقال: الساحرُ إنَّما يكفر لوصف السحر، وهو أمرٌ خاص ودليله خاصّ. وهذا ليس بساحر، وإنَّما يؤثر عملُه ما يؤثره فيُعطى حكُمه، إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصاً(٣).

وبه يظهر مطابقةُ الحديث للترجمة. وهو يدلُّ على تحريم النميمة، وهو مجمعٌ عليه.

قال ابنُ حزم: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة، فى غير النصيحة الواجبة(٤). وفيه: دليلٌ علَى أنَّها من الكبائر.

قوله: «القالَةُ بين الناس» قال أبو السعادات: أى: كثرةُ القول، وإيقاع الخُصومة بين الناس. ومنه الحديث: «ففَشَتِ القالَةُ بين الناس»(٥).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من البيان لسحراً»(٦).

ش: البيانُ: البلاغةُ والفصاحة.

قال صَعْصعةُ بنُ صُوْحان(٧): صدق نبىُّ الله، فإنَّ الرجل يكون عليه الحقُّ وهو

---

(١) نقله ابن مفلح فى «الفروع» (٦/ ١٨٠).

(٢) محفوظ بن أحمد الكلوذانى، البغدادى الحنبلى، فقيه أصولى (ت٥١٠هـ) «طبقات الحنابلة».

(٣) ابن مفلح، «الفروع». (٦/ ١٨٠) ونقل كلام أبى الخطاب.

(٤) ابن حزم، «مراتب الاجماع» (١٥٦).

(٥) ابن الأثير، «النهاية» (٤/ ١٢٣).

(٦) مضى تخريجه.

(٧) العبدى، نزيل الكوفة، تابعى كبير، مخضرم، فصيح، ثقة، مات فى خلافة معاوية. «تقريب» (٢٧٦).

ألحنُ بالحُجج من صاحب الحق، فيسحرُ القومَ ببيانه فيذهب بالحق[1].

وقال ابنُ عبد البر: تأوَّلَته طائفةٌ على الذم؛ لأنَّ السحر مذموم. وذهب أكثرُ أهل العلم، وجماعة أهل الأدب إلى أنَّه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمرُ بن عبد العزيز لرجلٍ سأله عن حاجة فأحسن المسألة، فأعجبه قولُه قال: هذا والله السحرُ الحلال. انتهى[2].

والأوَّلُ أصح[3]. والمرادُ به البيان الذى فيه تمويهٌ على السامع وتلبيس، كما قال بعضُهم: شعراً.

فى زُخرف القول تزيينٌ لباطله   والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبير[4]

[مأخوذٌ من قول الشاعر:][5]

تقول: هذا مُجاج النحل، تمدحُه   وإنْ تشأ قلت: ذا قيءُ الزنابير

مدحاً وذماً، وما جاوزتَ وصفهما   والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبير[6]

وقوله: «إنَّ من البيان لسحراً» هذا من التشبيه البليغ؛ لكون ذلك يعملُ عملَ السحر، فيجعل الحقَّ فى قالب الباطل، والباطلَ فى قالب الحق. فيستميلُ به قلوبَ الجهال، حتى يُقبل الباطل ويُنكر الحق. نسألُ الله الثبات، والاستقامة على الهُدى.

وأمَّا البيانُ الذى يوضِّحُ الحقَّ ويقرِّره، [ويبطل الباطل][7] ويبيِّنه. فهذا هو الممدوح، وهكذا حالُ الرسل وأتباعهم؛ ولهذا علت مراتبُهم فى الفضائل، وعظمت حسناتهم.

---

(١) ذكره أبو داود فى، «السنن» (٥/ ٢٧٨).

(٢) ينظر «معالم السنن» للخطابى (٤/ ١٣٦).

(٣) قال ابن رجب فى «فضل علم السلف» (٥٥) وإنما قاله فى ذم ذلك، لا مدحاً له كما ظن من ظنّه. ومن تأمل سياق ألفاظ الحديث قطع بذلك.

(٤) من كلام أحمد بن شافع الجيلانى (ت ٥٦٥هـ) ذكره ابنُ رجب فى «التاريخ» (١/ ٣١٣).

(٥) ساقط من الأصل و(ض).

(٦) والبيتان ذكرهما ابنُ القيم رحمه الله تعالى فى «مفتاح دار السعادة» (١٥٣).

(٧) إضافةٌ من (ض) و(هـ) و(ط).

[١٠١/أ] وبالجملة: فالبيانُ لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد/ الإسهاب والاطناب، وتغطية الحق وتحسين الباطلِ. فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم؛ وعلى هذا تدلُّ الأحاديثُ، كحديث الباب، وحديث «إنَّ الله يبغض البليغَ من الرجال الذى يتخلَّل بلسانه كما تتخلّل البقرةُ بلسانها» رواه أحمد، وأبو داود[1].

---

(١) أحمد فى «المسند» (٢/ ١٦٥، ١٨٧) وأبو داود فى «السنن» رقم (٥٠٠٥)، من حديث عبد الله بن عمرو، وله شاهدٌ من حديث سعد بن أبى وقاص عند أحمد فى «المسند» (١/ ١٧٦، ١٨٤).

(٢٥)
بـــاب
ما جاء في الكهان ونحوهم

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في الكُهَّان ونحوهم.

ش: الكاهنُ: هو الذي يأخذ عن مُسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيراً. وأمَّا بعد المبعث فإنهم قليل؛ لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب.

وأكثرُ ما يقع في هذه الأمة: ما يُخبر به الجنُّ مواليهم من الإنس، عن الأشياء الغائبة مما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهلُ كشفاً وكرامة. وقد اغترَّ بذلك كثيرٌ من الناس، يظنون ذلك المخْبِر لهم عن الجن ولياً لله، وهو من أولياء الشيطان؛ كما قال تعال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الجِنِّ قد استكثرتُم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربَّنا استمتعَ بعضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذي أجَّلت لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُم خَالِدِين فيها إلا ما شاء الله إنَّ ربَّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. [الأنعام: ١٢٨].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: روى مسلم في (صحيحه) عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَن أتى عَرَّافاً فسأله عن شيءٍ ـ فصدَّقه بما يقول ـ لم تُقبَل له صلاةٌ أربعين يوماً»[١].

ش: قوله: (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي حفصة، وذكره أبو مسعود الدِّمشقي[٢]؛ لأنه ذكر هذا الحديث في (الأطراف) في مُسندها.

---

(١) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٣٠) دون قوله «فصدقه بما يقول» فهي عند أحمد في «المسند» (٤/ ٦٨، ٥/ ٣٨٠).

(٢) إبراهيم بن محمد بنُ عبيد الدمشقي، ثقة حافظ، مصنف كتاب أطراف الصحيحين (ت ٤٠١هـ) «تاريخ بغداد» (٦/ ١٧٢).

قوله: «من أتى عرّافاً» سيأتى بيانُ العرَّاف إنْ شاء الله تعالى.

وظاهر الحديث: أنَّ الوعيد مُرتّبٌ على مجيئه وسؤاله، سواءٌ صدَّقه أو شك فى خبره؛ فإنَّ [فى][1] بعض روايات الصحيح «من أتى عرافًا فسأله عن شىءٍ لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»[2].

قوله: «لم تُقبل له صلاة» إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسؤول؟

قال النووىُّ وغيره: معناه أنَّه لا ثواب له فيها، وإنْ كانت مُجزئةً بسقوط الفرض عنه. ولا بدَّ من هذا التأويل فى هذا الحديث؛ فإنَّ العلماء متفقون على أنَّه لا يلزم من أتى العرَّاف إعادة صلاة أربعين ليلة. انتهى ملخصاً[3].

وفى الحديث: النهىُ عن إتيان الكاهن ونحوه.

[١٠١/ب] قال القُرطبى: يجب على من قدر على ذلك من مُحتسب وغيره أن/ يُقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق، ويُنكر عليهم أشد النكير، على من يجىء إليهم، ولا يغتر بصدقهم فى بعض الأمور، ولا بكثرة من يجىء إليهم ممن ينتسب إلى العلم؛ فإنهم غيرُ راسخين فى العلم، بل من الجهال بما فى إتيانهم من المحذور.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبى هُريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «مَن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنْزِلَ على محمد ﷺ». رواه أبو داود[4]

ش: وفى رواية أبى داود «أو أتى امرأة ـ قال مُسدَّد: امرأته ـ حائضاً، أو أتى امرأة ـ قال مُسدَّد: امرأته ـ فى دبرها، فقد برىء مما أُنزل على محمد ﷺ» فناقلُ هذا الحديث من (السنن) حذف منه هذه الجملة، واقتصر على ما يُناسب الترجمة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وللأربعة، والحاكم ـ وقال: صحيحٌ على

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) هذا نصُّ رواية مسلم.

(٣) النووى «المنهاج» (١٤/ ٢٢٧).

(٤) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٩٠٤).

شرطهما ـ عن. . .[1] «من أتى عَرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بماأُنزل على محمد ﷺ».

ش: هكذا بيّض المصنفُ لاسم الراوى. وقد رواه أحمد، والبيهقي، والحاكم عن أبى هُريرة مرفوعا[2].

قوله: «من أتى كاهناً» قال بعضُهم: لا تَعارض بين هذا وحديث «من أتى عرافًا فسأله عن شيءٍ لم تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلة» هذا على قول من يقول: هو كفرٌ دون كفر. أمَّا على قول من يقول بظاهر الحديث، فيُسأل عن وجه الجمع بين الحديثين!.

وظاهرُ الحديث: أنَّه يكفر، متى اعتقد صدقَه بأى وجهٍ كان. وكان غالبُ الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

قوله: «فقد كفر بما أُنزل على محمد» قال القُرطبى: المراد بالمنزَّل: الكتاب والنسة. انتهى.

وهل الكفرُ فى هذا الموضع كفرٌ دون كفر، فلا ينقل عن الملة، أم يُتوقف فلا يقال: يُخرج عن الملة ولا ما يخرج؟ وهذا أشهرُ الروايتين عن أحمد رحمه الله.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولأبى يعلى ـ بسندٍ جيدٌ ـ عن ابن مسعود، مثلُه موقوفا[3].

ش: أبو يعلى: اسمُهُ: أحمد بن على بن المُثنى الموصلى، الإمام صاحبُ التصانيف [كالمسند]/ وغيره، روى عن يحيى بن مَعين وأبى خيثمة، [١٠٢/أ] وأبى بكر بن أبى شيبة، وخلْق. وكان من الأئمة الحُفاظ. مات سنة سبعٍ وثلاثمائة.

---

(١) بياضٌ فى جميع الأصول الخطية التى اطلعتُ عليها من كتاب التوحيد وشروحه.

(٢) أحمد فى «المسند» (٢/ ٤٢٩) والبيهقى فى «السنن» (٨/ ١٣٥) والحاكم فى «المُستدرك» (١/ ٨)، وصححه ووافقه الذهبى، وقال الذهبى فى «الكبائر» (١٢٣): إسنادهُ صحيح.

(٣) أبو يعلى فى «المسند» رقم (٥٤٠٨)، قال المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٦) رواه البراز وأبو يعلى، باسناد جيد موقوفاً.

وهذا الأثر: رواه البزَّارُ أيضاً، ولفظُه: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ[1].

وفيه: دليلٌ على كفر الكاهن والساحر؛ لأنهما يدَّعيان علم الغيب، وذلك كفر. والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به، وذلك كفرٌ أيضاً.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عمران بن حُصين، مرفوعاً: «ليس منا مَن تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سَحر، أو سُحر له. ومَن أتى كاهناً فصدَّقهُ بما يقول، فقد كفر بما أُنزِلَ على مُحمد ﷺ». رواه البزَّار[2] بإسنادٍ جيد.

ورواه الطبرانيُّ بإسناد حسن، من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى كاهنا» إلى آخره[3].

ش: قول: «ليس منا» فيه: وعيدٌ شديد، يدلُّ على أنَّ هذه الأمور من الكبائر؛ وتقدَّم: أنَّ الكهانَة والسحر كفر.

قوله: «من تطيَّر» أي: فعل الطيرة، «أو تُطير له» أي: قَبِل قولَ المُتطيِّر له وتابعه، وكذا معنى «أو تكهن أو تُكهن له» كالذى يأتى الكاهن ويصدِّقُه ويتابعه، وكذلك من عمل الساحرُ له السحر.

فكلٌّ من تلقَّى هذه الأمور عمَّن تعاطاها فقد برىء منه رسولُ الله ﷺ؛ لكونها: إمَّا شركٌ كالطيرة، أو كفرٌ كالكهانة والسحر. فمن رضى بذلك وتابع فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه.

قوله: (رواه البزَّار). هو أحمدُ بن عمرو بن عبد الخالق، أبو بكر البزَّار البصرى، صاحب (المُسند الكبير). وروى عن ابن بشّار[4]، وابن المُثنى[5]، وخلْق. مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

---

(1) البزَّار فى «المسند» رقم (٣٠٦٧) قال ابنُ حجر فى «الفتح» (١٠/ ٢١٧): إسنادهُ جيد.

(2) البزَّار فى «المسند» رقم (٣٠٤٤) قال المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٣) إسنادهُ جيد.

(3) الطبرانى فى «الأوسط» كما فى «مجمع الزوائد» (٥/ ١١٧) قال المُنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٣): إسنادهُ حسن.

(4) أبو بكر، محمد بن بشار بن عثمان العبدى، البصرى، بُندار، (ثقة ت ٢٥٢هـ) «التقريب» (٤٦٩).

(5) أبو موسى، محمد بن المثنى بن عبيد العنزى، البصرى، ثقةٌ ثبت، وكان هو وبُندار كفرسى رهان، وماتا فى سنة واحدة. «التقريب» (٥٠٥).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال البَغَوى: العرَّاف: الذى يدَّعى معرفةَ الأمور بمقدِّماتٍ يستدلُّ بها على المسروق ومكانِ الضَّالة، ونحو ذلك[١].

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذى يُخبر عن المغيَّبات فى المُستقبل. وقيل: الذى يُخبر عمَّا فى الضمير.

وقال أبو العباس ابنُ تيمية: العرَّاف: اسمٌ للكاهن والمنجم والرَّمَّال ونحوهم، ممن يتكلَّم فى معرفة الأمور بهذه الطرق[٢].

ش: البَغَوى ـ بفتحتين ـ هو الحُسين بن مسعود بن الفرَّاء الشافعى، صاحبُ التصانيف، وعالمُ أهلِ خُراسان. كان ثقة فقيهًا زاهداً. مات فى شوَّال سنة ستَ عشرة وخمسمائة.

قوله: (العرّاف: الذى يدَّعى معرفة الأمور). ظاهرهُ، أنَّ العرّاف: الذى يُخبر عن الواقع كالسرقة وسارقها، والضالةِ ومكانها.

وقال شيخُ الإسلام: إنَّ العرَّاف: اسمٌ للكاهن والمنجِّم والرَّمَّال/ ونحوهم، [١٠٢/ب] كالحازر الذى يدَّعى علمَ الغيب، أو يدَّعى الكشف!.

وقال أيضاً: والمنجِّمُ يدخلُ فى اسم العراف، وعند بعضهم هو فى معناه.

وقال أيضاً: والمنجِّمُ يدخل فى اسم الكاهن، عند الخطَّابى وغيره من العلماء، وحُكى ذلك عن العرب.

وعند آخرين: هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالاً منه، فيُلحق به من جهة المعنى[٣].

وقال الإمامُ أحمد: العراف: طَرَفٌ من السحر. والساحرُ أخبث.

وقال أبو السعادات: العرّاف: المنجِّـم، والحازر[٤] الذى يدَّعى علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به[٥].

---

(١) البغوى «شرح السنة» (١٢/ ١٨٢).

(٢) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧٣).

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧٣، ١٩٣).

(٤) فى النهاية: أو الحازى.

(٥) ابن الأثير، «النهاية» (٣/ ٢١٨).

وقال ابنُ القيِّم: من اشتهر بإحسان الزَّجْر عندهم سمَّوه عائفاً، وعرَّافًا.

والمقصودُ من هذا: معرفة من يدَّعى معرفة علم شئ من المُغيَّبات، فهو إمَّا داخلٌ فى اسم الكاهن، وإمَّا مشاركٌ له فى المعنى، فيُلحق به. وذلك أنَّ إصابة المُخبر ببعض الأمور الغائبة، فى بعض الأحيان يكون بالكشف. ومنه ما هو من الشياطين، ويكون: بالفأل، والزَّجر، والطِّيرة، والضرب بالحصى، والخط فى الأرض، والتنجيم، والكهانة، والسحر، ونحو هذا من عُلوم الجاهلية.

ونعنى بالجاهلية: كلَّ من ليس من أتباع الرُّسل عليهم السلام، كالفلاسفة والكُهَّان والمنجِّمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبى ﷺ؛ فإنَّ هذه علوم القوم، ليس لهم علمٌ بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكلُّ هذه الأمور يُسمَّى صاحبُها كاهنًا وعرَّافًا، أو فى معناهما. فمن أتاهم فصدَّقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوامٌ، فادَّعوا بها علم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه، وادَّعوا أنهم أولياء، وأنَّ ذلك كرامة!!.

ولا ريب أنَّ من ادعى الولاية، واستدلَّ بإخباره ببعض المُغيَّبات فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن!؛ إذ الكرامةُ: أمرٌ يُجريه الله على يد عبده المؤمن المتقى: إمَّا بدعاء، أو أعمال صالحة لا صُنع للولى فيها، ولا قُدرة له عليها. بخلاف من يدَّعىَ أنَّ ولىٌّ لله، ويقول للناس: اعلموا أنِّى أعلمُ المُغيبات؛ فإنَّ مثل هذه/ الأمور قد تحصُل بما ذكرنا من الأسباب، وإنْ كانت أسباباً محرَّمة كاذبة فى الغالب. [١٠٣/أ]

ولهذا قال ﷺ فى وصف الكهان: «فيكذبون معها مائةَ كذبة»[1] فبيَّن أنَّهم يصْدُقون مرةً ويكذبون مائة.

وهكذا حالُ من سلك سبيلَ الكُهَّان، ممن يدَّعى الولاية والعلم بما فى ضمائر الناس، مع أنَّ نفس دعواه دليلٌ على كذبه؛ لأن فى دعواه الولاية تزكيةَ النفس المنهى عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾. [النجم: ٣٢] وليس هذا من شأن الأولياء، بل شأنُهم الإزراءُ على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفُهم من ربهم. فكيف

(١) قطعةٌ من حديث، أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٨) من حديث عائشة.

يأتون الناس، يقولون: اعرفوا أنَّا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟ وفى ضمن ذلك طلبُ المنزلة فى قلوب الخلق، واقتناصُ الدنيا بهذه الأمور.

وحسْبك بحال الصحابة والتابعين، وهم سادات الأولياء رضى الله عنهم، أفكان عندَهم من هذه الدعاوى والشَّطحات شئ؟! لا والله، بل كان أحدُهم لا يملك نفسه من البُكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق رضى الله عنه[1]. وكان عمر يُسمع نشيجُه من وراء الصفوف يبكى فى صلاته[2]، وكان يمرُّ بالآية فى ورده بالليل فيمرضُ منها ليالى يعودونه[3]. وكان تميمُ الدارى يتقلَّب فى فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً، خوفًا من النار، ثم يقوم إلى صلاته!.

ويكفيك فى صفات الأولياء، ما ذكره الله تعالى من صفاتهم: فى سورة الرَّعد، والمؤمنين، والفُرقان، والذَّاريات، والطور. فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة ربِّ العالمين فيما اختصَّ به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرَّدُ دعواه علمُ الغيب كفر.

فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله؟. وقد عظُمَ الضررُ واشتدَّ الخطبُ بهؤلاء المغترِّين الذى ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبَّسوا بها على خفافيش القلوب. نسألُ الله السلامة والعافية فى الدنيا والآخرة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال ابنُ عباس - فى قومٍ يكتبون أبا جاد، وينظرون فى النجوم -: ما أرى مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق[4].

ش: هذا الأثرُ، رواه الطبرانىُّ / عن ابن عباس، مرفوعًا. وإسنادهُ ضعيف، [١٠٣/ب]

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٧١٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤١٨).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» معلقاً (٢/ ٢٠٦) ووصله ابن أبى شيبة فى «المصنف» (١/ ٣٥٥) قال ابن حجر فى «التعليق» (٢/ ٣٠٠): هذا إسنادٌ صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» (١٣/ ٢٦٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (١١/ ٢٦) وابن أبى شيبة فى «المصنف» (٨/ ٦٠٢).

ولفظه: رُبّ مُعَلِّم حروف أبى جاد دارسٍ فى النجوم. ليس له عند الله خلاقٌ يوم القيامة[1].

ورواه حُميد بن زَنْجويه عنه، بلفظ: رُبّ ناظرٍ فى النجوم ومتعلّمٍ حروف أبى جاد، ليس له عند الله خلاق.

قوله: (ما أرى). يجوزُ فتحُ الهمزة، بمعنى لا أعلم. ويجوز ضمُّها، بمعنى: لا أظن.

وكتابةُ أبى جاد، وتعلُّمها ـ لمن يدَّعى بها علم الغيب ـ هو الذى يُسمَّى علمُ الحرف[2]، وهو الذى فيه الوعيد. فأمَّا تعلُّمها للتهجى وحساب الجُمل، فلا بأس به.

قوله: (وينظرون فى النجوم)، أى: ويعتقدون أنَّ لها تأثيراً؛ كما سيأتى فى باب التنجيم.

وفيه من الفوائد: عدمُ الاغترار بما يؤتاه أهلُ الباطل من معارفهم وعلومهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. [غافر: ٨٣].

(١) الطبرانى فى «الكبير» رقم (١٠٩٨٠) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٥/١١٧): وفيه خالد بن يزيد العُمرى، وهو كذّاب!.

(٢) ينظر: طاش كبرى زاده، «مفتاح السعادة» (٢/ ٥٩١).

(٢٦)

بـــاب

ما جاء في النشرة

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في النُّشرة.

ش: بضمِّ النون؛ كما في (القاموس). قال أبو السعادات: النُّشْرة: ضربٌ من العلاج والرُّقية، يُعالَج به من كان يُظنُّ أنَّ به مسًّا من الجن، سُمِّيت نُشرة؛ لأنه يُنشَر بها عنه ما خامرَه من الداء، أي: يُكشف ويزال.

قال الحسن: النُّشرة من السحر[1]. وقد نَشَّرت عنه تنشيراً، ومنه الحديث «فلعل طَبًّا أصابه» ثم نَشَّره بـ ﴿قل أعوذُ بربِّ الناس﴾ أي: رَقَاه[2].

وقال ابنُ الجوزي: النُّشْرة: حلُّ السِّحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرفُ السحر[3].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن جابر، أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن النُّشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمدُ بسند جيِّد، وأبو داود[4]. وقال: سُئل أحمدُ عنها؟ فقال: ابنُ مسعودٍ يكره هذا كلَّه[5].

ش: هذا الحديثُ رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود في (سُننه). والفضلُ بن زياد في كتاب (المسائل)، عن عبد الرزاق، عن عقيل بن معقل بن مُنبِّه، عن عمه

---

(١) أخرجه الخطابي في «معالم السنن» (٤/ ٢٠١). أي: عن السحر.

(٢) ابن الأثير، «النهاية» (٥/ ٥٤).

(٣) «غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/ ٤٠٨).

(٤) أحمد في «المسند» (٣/ ٢٩٤) وأبو داود في «السنن» رقم (٣٨٦٨)، قال ابنُ حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٣٣): إسنادهُ حسن.

(٥) رواية جعفر عنه، كما في «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٧٧).

وهب بن منبه، عن جابر، فذكره. قال ابنُ مفلح: إسناده جيّد[1]. وحسّن الحافظ/ إسناده. [١٠٤/أ]

قوله: (سُئل عن النُّشرة)، الألفُ واللام في النُّشرة للعهد. أي: النُّشرةُ المعهودة، التي كان أهلُ الجاهلية يصنعونها، هي من عمل الشيطان.

قوله: (وقال: سُئل أحمدُ عنها؟ فقال: ابنُ مسعود يكره هذا كلَّه)، أراد أحمدُ رحمه الله: أنَّ ابن مسعود يكره النُّشرة التي هي من عمل الشيطان؛ كما يكره تعليقَ التمائم مُطلقًا.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وللبخاري، عن قتادة: قلتُ لابن المسيّب: رجلٌ به طِبٌّ أو يُؤخَّذُ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر؟ قال: لا بأسَ به، إنَّما يُريدون به الإِصلاح؛ فأمَّا ما ينفع فلم يُنه عنه[2].

ش: قوله: (عن قتادة). هو ابن دِعامة ـ بكسر الدال ـ السَّدوسي، ثقةٌ، فقيه، من أحفظ التابعين. قالوا: إنه ولد أكْمه. مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: (رجلٌ به طِب). بكسر الطاء. أي: سِحْر، يُقال له: طُبَّ الرجل ـ بالضم ـ إذا سُحر، ويقال: كَنَّوا عن السحر بالطِب؛ تفاؤلاً. كما يُقال للديغ: سليم.

وقال ابنُ الأنباري[3]: الطِّبُّ من الأضداد. يقال لعلاجِ الدَّاء: طبٌّ. والسحرُ من الداء، ويقال له: طب[4].

قوله: (يَؤخَّذُ) ـ بفتح الواو مهموز، وتَشديد الخاء المعجمة وبعدها ذالٌ مُعجمة ـ أي: يُحبس عن امرأته، ولا يصل إلى جِماعها. والأُخذة ـ بضم الهمزة ـ الكلامُ الذي يقوله السَّاحر.

قوله: (أيُحَل)، بضم الياء وفتح الحاء، مبني للمفعول.

---

(١) ابن مفلح، «الآداب الشرعية» (٣/ ٧٣).

(٢) البخاري في «الصحيح» تعليقاً (١٠/ ٢٣٢)، ووصله ابنُ جرير الطبري في «التهذيب» كما في «تغليق التعليق» (٥/ ٤٩) بإسنادٍ صحيح.

(٣) أبو بكر، محمد بن القاسم بن بشار، المقرىء النحوي (ت ٣٢٨هـ) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٦٩).

(٤) ابن الأنباري «كتاب الأضداد» (٢٣١).

قوله: (أو يُنشرَّ) بتشديد المعجمة. قوله: (لا بأس به) يعنى: أنَّ النُّشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح. أى: إزالة السحر، ولم يُنه عما يُراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيِّب يُحمل على نوع من النُّشرة، لا يُعلم أنه سحر.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ويُروى عن الحسن، أنه قال: لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر[1].

ش: هذا الأثرُ، ذكره ابنُ الجوزى فى (جامع المسانيد)[2].

والحسن: هو ابنُ أبى الحسن، واسمه يسار ـ بالتحتية والمهملة ـ البصرى الأنصارى، مولاهم. ثقةٌ فقيه، إمامٌ من خيار التابعين. مات سنة عشرٍ ومائة، وقد قارب التسعين.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال ابنُ القيِّم: النُّشرةُ: حلُّ السحر عن المسحور، وهى نوعان:

أحدُهما: حلٌّ بسحرٍ مثله، وهو الذى من عمل الشيطان. وعليه يُحمل قولُ الحسن، فيتقرَّب الناشرُ والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيبطل عملُه عن المسحور.

والثانى: النُّشرة بالرُّقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز[3].

ش: ومما جاء/ فى صفة النُّشرْة الجائزة: ما رواه ابنُ أبى حاتم، وأبو الشيخ، [١٠٤/ب] عن ليث بن أبى سُليم، قال: بلغنى أنَّ هؤلاء الآيات شفاءٌ من السحر بإذن الله، ـ تقرأ فى إناء فيه ماء، ثم يُصبُّ على رأس المسحور ـ الآيةُ التى فى يونس **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قال مُوسَى ما جِئْتُم به السِّحْرُ إنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إنَّ الله لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسدين * ويُحِقُّ الله الحَقَّ بكلماته ولَوْ كَرِهَ المُجْرِمُون﴾**. [يونس: ٨١ - ٨٢]، وقوله: **﴿فَوَقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾**. [الأعراف: ١١٨] إلى آخر الآيات الأربع، وقوله: **﴿إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾**. [طه: ٦٩][4].

---

(١) أخرجه ابنُ جرير الطبرى فى «التهذيب» كما فى «فتح البارى» (١٠/ ٢٣٣).

(٢) نقله عنه ابنُ مفلح فى «الآداب الشرعية» (٣/ ٧٧).

(٣) ينظر ابن القيم «زاد المعاد» (٤/ ١٢٤، ١٨١).

(٤) ابن أبى حاتم فى «التفسير»، وأبو الشيخ، كما فى «الدر المنثور» (٤/ ٣٨١).

وقال ابنُ بطّال: فى (كتاب وهب بن مُنبّه): أنْ يأخذ سبعَ ورقات من سدْر أخضر، فيدقَّه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آيةَ الكرسى والقَواقل[1]، ثم يحسو منه ثلاثَ حسوات، ثم يغتسل به، يذهب عنه كلُّ ما به، وهو جيدٌ للرجل إذا حُبس عن أهله[2].

قلتُ: قولُ العلامة ابن القيِّم: (والثانى: النُّشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة. فهذا جائز). يُشير إلى مثل هذا، وعليه يُحمل كلامُ من أجاز النُّشرة من العلماء.

[والحاصلُ: أنَّ ما كان منه بالسحر فيحرُم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة، فجائز][3]. والله أعلم.

---

(١) السور الثلاث الأخيرة، من القرآن الكريم. وسورة الكافرون.

(٢) نقله ابنُ حجر فى «فتح البارى» (١٠/ ٢٣٣).

(٣) ما بينهما إضافةٌ من (هـ) و(ط).

(٢٧)
بـــاب
ما جـــاء فى التطيـــــر

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في التطير.

ش: أي: من النهى عنه والوعيد فيه، مصدرُ تطيَّر يتطيَّر [تطيُّراً][(١)]، والطِّيرةُ ـ بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تُسكَّن ـ: اسمُ مصدرٍ من تطيَّر [طِيرة][(٢)].

وأصلُه: التطيرُ بالسَّوانح والبوارح، من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصُدُّهم عن مقاصدهم. فنفاه الشرّعُ وأبطله، وأخبر أنَّه لا تأثير له فى جلب نفع أو دفع ضُرٍّ[(٣)].

قال المدائنى[(٤)]: سألتُ رُؤبة بن العجاج: ما السانحُ؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلتُ: فما البارحُ؟ قال: وما ولاك مياسِره. والذى يجىءُ من أمامك فهو النَّاطحُ والنطيح، والذى يجىءُ من خلفك هو القاعدُ والقعيد!.

ولما كانت الطيرةُ من الشرّك المُنافى لكمال التوحيد الواجب ـ لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ـ ذكرها المصنِّفُ فى (كتاب التوحيد)؛ تحذيراً مما يُنافى كمالَ التوحيد الواجب.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: **﴿ألا إنَّما طائِرُهُم عند الله/ ولكنَّ أكْثَرَهُم لا يَعْلَمُون﴾**. [الأعراف: [١٣١]. [١٠٥/أ]

---

(١) إضافةٌ من (ض) و(هـ).

(٢) إضافةٌ ن (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) ينظر: ابن الأثير، «النهاية» (٣/ ١٥٢).

(٤) أبو الحسن، على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف الأخبارى، مؤرخٌ نسَّابه حافظ. له كتاب الزجر والفال (ت ٢٢٥هـ) «اللباب» (٣/ ١٨٢).

ش: ذكر تعالى هذه الآيةَ في سياق قوله تعالى: ﴿فإذَا جاءتْهُم الحسَنَةُ قالوا لنا هَذه وإن تُصبْهُم سيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى ومَنْ مَعهُ﴾. [الأعراف: ١٣١].

المعنى: أنَّ آل فرعون إذا أصابتهم الحسنة، أي: الخِصب والسعة والعافية ـ كما فسَّره مجاهدُ وغيرُه[١] ـ قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهلُه. وإنْ تُصبهم سيئةٌ، أي: بلاء وقحط، يطَّيروا بموسى ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه، أصابنا بشؤمهم. فقال الله تعالى: ﴿ألا إنَّما طائِرُهُم عِنْدَ الله﴾.

قال ابنُ عباس: طائرهم: ما قضى عليهم وقدَّر لهم. وفي رواية: شُؤمهم عند الله ومن قِبَله. أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله؛ بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله[٢].

قوله: ﴿ولَكنَّ أكثَرَهُم لا يَعْلَمونَ﴾ أي: أكثرهم جهّالٌ لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنَّه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: ﴿قالُوا طائِرُكُم مَعَكُم أئِنْ ذُكِّرْتُم بَلْ أنْتُم قَوْمٌ مُسرِفُون﴾. [يس: ١٩].

ش: المعنى ـ والله أعلم ـ حظُّكم وما نابكم من شرٍّ معكم، بسبب أفعالِكم وكفركم ومخالفتِكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعداوتكم.

فطائرُ الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشرور فهو سببُه الجالب له. وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله؛ كما قال تعالى: ﴿أفَنَجْعَلُ المُسْلِمين كالمُجْرِمِين * مالكُم كيْف تحْكُمُون﴾. [القلم: ٣٥ - ٣٦].

ويحتمل أنْ يكون المعنى: طائركم معكم. أي: راجعٌ عليكم. فالتطيُّر الذى حصل لكم إنما يعود عليكم؛ وهذا من باب القصاص فى الكلام، ونظيرُه قولُه

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٤٩٨٣).

(٢) «تفسير البغوى» (٢/ ١٩٠).

عليه السلام: «إذا سلَّم عليكم أهلُ الكتاب فقولوا: وعليكم»[1] ذكره ابنُ القيِّم[2].

وقوله: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُم﴾ أي: من أجل أنَّا ذكَّرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسرِفُونَ﴾ وقال قتادة: أئن ذكَّرناكم بالله تطيَّرتم بنا[3]؟!.

ومناسبةُ الآيتين للترجمة: أنَّ التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين، وقد ذمَّهم الله به ومقتهم. وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن التطير، وأخبر أنَّه شرك؛ كما سيأتي في أحاديث الباب/. [١٠٥/ب]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدوى ولا طِيرة ولا هامَةَ ولا صَفَر» أخرجاه[4]. زاد مسلمٌ: «ولا نَوْءَ، ولا غُول»[5].

ش: قال أبو السعادات: العَدوى: اسمٌ من الإِعداء. كالرَّعوى. يُقال: أعداه الداءُ، يُعديه إعداءً: إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء[6].

وفي روايةٍ لمسلم: أنَّ أبا هريرة، كان يُحدِّثُ بحديث «ولا عدوى»، ويُحدِّثُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُورِدُ مُمرِضٌ على مُصح».

ثم إنَّ أبا هريرة اقتصر على حديث «لا يُورِدُ ممرضٌ على مصح» وأمسك عن حديث «لا عدوى» فراجعوه، وقالوا: سمعناك تُحدثه، فأبى أنْ يعترف به.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٦٢٥٨، ٦٩٢٦) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١٦٣) من حديث أنس ابن مالك.

(٢) ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (٥٧٩).

(٣) أخرجه ابنُ جرير الطبري في «التفسير» (٢٢/ ١٥٨).

(٤) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٧٥٧) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٢٠).

(٥) من رواية أبي هريرة، ومن رواية جابر رقم (٢٢٢٢).

(٦) ابن الأثير، «النهاية» (٣/ ١٩٢).

قال أبو سلمة - الراوى عن أبى هريرة -: فلا أدرى أنسى أبو هريرة أو نَسخ أحدُ القولين الآخر؟[1].

وقد رَوى حديثَ «لا عدوى» جماعةٌ من الصحابة: أنسُ بن مالك[2]، وجابر ابن عبد الله[3]، والسائب بن يزيد[4]، وابنِ عمر[5] وغيرُهم[6]، وفى بعض روايات هذا الحديث «وفِرَّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد»[7].

وقد اختلف العلماءُ فى ذلك، وأحسنُ ما قيل فيه: قولُ البيهقى - وتبعه ابنُ الصَّلاح، وابنُ القيم، وابنُ رجب، وابنُ مُفلح، وغيرهم[8]- أنَّ قوله: «ولا عدوى» على الوجه الذى يعتقده أهلُ الجاهلية، من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأنَّ هذه الأمور تُعدى بطبعها. وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطةَ الصحيح من به شىءٌ من الأمراض سببًا لحدوث ذلك؛ ولهذا قال: «وفِرَّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد» وقال: «لا يُورِدُ مُمرضٌ على مُصح» وقال فى الطاعون «من سمع به فى أرضٍ فلا يقدُم عليه»[9] وكلٌّ ذلك بتقدير الله تعالى[10].

ولأحمد، والترمذى، عن ابن مسعود، مرفوعاً «لا يُعدى شىءٌ شيئا» - قالها ثلاثاً - فقال أعرابىٌّ: يا رسول الله النُّقْبَةُ من الجرَب تكون بمِشفَر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتَجْرَبُ كلُّها؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «فمن أجربَ الأول؟ لا عدوى

(1) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢١).

(2) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٥٦، ٥٧٧٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٤).

(3) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٢).

(4) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٠).

(5) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٧٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٥).

(6) وأخرجه أحمد فى «المسند» (١/ ٢٦٩، ٣٢٨) من حديث ابن عباس، وأخرجه أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو (٢/ ٢٢٢) ومن حديث سعد بن أبى وقاص (١/ ١٨٠) ومن حديث ابن مسعود (١/ ٤٤٠).

(7) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٠٧) تعليقاً، وقد وصله أحمد فى «المسند» (٢/ ٤٤٣).

(8) البيهقى، فى «السنن» (٧/ ٢١٦) وابن الصلاح، «علوم الحديث» (٤١٥) وابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (٥٨٢) و«زاد المعاد» (٤/ ١٤٨) وابن رجب، «لطائف المعارف» (٦٩) وابن مفلح، «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٦٣).

(9) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٢٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢١٨) من حديث أسامة.

(10) ينظر البغوى، «شرح السنة» (١٢/ ١٦٩).

ولا طِيرةَ ولا هامة ولا صَفَر، خلق الله كلَّ نفسٍ وكتب حياتَها ومصائبها/ [١٠٦/أ] ورزقها»(١).

فأخبر ﷺ: أنَّ ذلك كلَّه بقضاء الله وقدره، والعبدُ مأمورٌ باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية. فكما أنه يُؤمر أنْ لا يُلقي نفسَه في الماء وفي النار، مما جرت العادةُ أنه يُهلك أو يضر. فكذلك اجتنابُ مقاربةِ المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون؛ فإن هذه كلها أسبابٌ للمرض والتلف، فالله سبحانه هو خالقُ الأسباب ومُسبَّباتها، لا خالق غيرُه ولا مقدِّر غيره.

وأما إذا قوى التوكُّل على الله، والإيمان بقضاء الله وقدره ـ فقويت النفسُ على مُباشرة بعض هذه الأسباب، اعتماداً على الله، ورجاءً منه لا يحصل به ضرر ـ ففي هذه الحال تجوزُ مباشرةُ ذلك، لا سيَّما إذا كانت مصلحةً عامة أو خاصة.

وعلى هذا يُحمل الحديث الذي رواه أبو داود، والترمذي: أنَّ النبي ﷺ أخذ بيد مجذومٍ فأدخلها معه في القَصْعة، ثم قال «كُل بسم الله، ثقةً بالله وتوكلاً عليه»(٢) وقد أخذ به الإمامُ أحمد. ورُوى ذلك عن عمر(٣)، وابنه(٤)، وسلمان(٥) رضي الله عنهم.

ونظيرُ ذلك: ما رُوى عن خالد بن الوليد من أكل السُّم(٦)، ومنه: مَشْيُ سعد ابن أبي وقَّاص(٧)، وأبي مُسلم الخولاني على متن البحر. قاله ابنُ رجب رحمه الله(٨).

---

(١) أحمد في «المسند» (١/ ٤٤٠) والترمذي في «الجامع» رقم (٢١٤٤).

(٢) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩٢٥) والترمذي في «الجامع» رقم (١٨١٨) وقال: هذا حديثٌ غريب، من حديث جابر، وقال ابنُ القيم في «زاد المعاد» (٤/ ١٥٣): لا يثبت ولا يصح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٠٥، ١١/ ٢٠٥) البغوي في «شرح السنة» (١٢/ ١٧٢): وهو عندي أشبه وأصح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٣١٧).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٣١٧).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (١٥٥٧٧) وأبو يعلى في «المسند» رقم (٧١٨٦) وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» رقم (١٤٨١، ١٤٨٢) بإسناد متصل.

(٧) أخرجه أبو نُعيم في «الدلائل» رقم (٥٢٢).

(٨) ابن رجب، «لطائف المعارف» (٦٩).

قوله: «ولا طِيرةَ» قال ابنُ القيِّم: يحتمل أنْ يكون نفيًا أو نهيًا، أى: لا تطيَّروا، ولكنَّ قولَه فى الحديث «ولا عدوى ولا صَفَر ولا هامَة» يدلُّ على أن المراد النفيُ، وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهليةُ تعانيها. والنفيُ فى هذا أبلغ من النهى؛ لأنَّ النفى يدلُّ على بُطلان ذلك وعدمِ تأثيره، والنهيُ إنما يدلُّ على المنع منه.

وفى (صحيح مسلم)، عن معاوية بن الحكم: أنه قال لرسول الله ﷺ: ومنا أناسٌ يتطيرون، قال: «ذلك شىءٌ يجده أحدُكم فى نفسه فلا يصدنَّكم»[1] فأخبر أن تأذِّيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو فى نفسه وعقيدته، لا فى المُتطيَّر به. فوهمُه وخوفه وإشراكه هو الذى يُطيرُه ويصده، لا ما رآه وسمعه.

[١٠٦/ب] فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبيَّن لهم فسادَ الطيرة/ ليعلموا أنَّ الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نَصَبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبُهم، وتسكن نفوسُهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجنةَ والنار بسبب التوحيد. فقطع ﷺ علَق الشرك من قلوبهم؛ لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبَّسوا بعمل من أعمال [أهل][2] النار البتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكَّل على الله، قطع هاجسَ الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرهَا من قبل استمكانها.

قال عكرمة: كنَّا جلوسًا عند ابن عباس، فمرَّ طائرٌ يصيح، فقال رجلٌ من القوم: خير خير، فقال ابن عباس: لا خير ولا شر[3]. فبادره بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره فى الخير والشر.

وخرج طاوسُ مع صاحبٍ له فى سفر، فصاح غرابٌ، فقال الرجل: خير، فقال طاوس: وأىُّ خيرٍ عند هذا؟ لله لا تصحبنى[4]. انتهى ملخصًا[5].

---

(١) قطعةٌ من حديث طويل، عند مسلم فى «الصحيح» رقم (٥٣٧).

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) أخرجه الطبرى، كما فى «فتح البارى» (١٠/ ٢١٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (١٠/ ٤٠٦).

(٥) ابنُ القيِّم «مفتاحُ دار السعادة» (٥٨٢).

وقد جاءت أحاديثُ ظن بعضُ الناس أنَّها تدلُّ على جواز الطيرة؛ كقوله ﷺ: «الشؤمُ في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار»[1] ونحو هذا.

قال ابنُ القيِّم رحمه الله: إخبارُه ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثباتُ الطِّيرةِ التي نفاها الله، وإنما غايتُه أنَّ الله سبحانه قد يخلُق منها أعيانًا مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤمٌ ولا شر.

وهذا كما يُعطى سبحانه الوالدين ولداً مُباركًا يريان الخير على وجهه، ويُعطى غيرَهما ولداً مشؤومًا يريان الشرَّ على وجهه، وكذلك ما يُعطاه العبدُ من ولاية أو غيرها، فكذلك الدارُ والمرأة والفرس.

والله سبحانه خالقُ الخير والشر والسُّعودِ والنحوس، فيخلُق بعضَ هذه الأعيان سعودًا مُباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصولِ اليُمن والبركة له. ويخلق بعضها نُحوسا يتنحَّس بها من قاربها.

وكلُّ ذلك بقضاء الله وقدره، كما خلق سائرَ الأسباب وربطها بمسبَّباتها المتضادة والمختلفة. كما خلق المسك وغيرَه من الأرواح الطيبة ولذَّذ بها مَن قاربها من الناس، وخلق ضدَّها وجعلها سببًا لألم من قاربها/ من الناس. [١٠٧/أ]

والفرقُ بين هذين النوعين مُدركٌ بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لونٌ والطِّيرةُ الشركية لون. انتهى[2].

قوله: «ولا هامةَ» بتخفيف الميم، على الصحيح. قال الفَرَّاء[3]: الهامةُ: طيرٌ من طيور الليل. كأنَّه يعني البُومة.

قال ابنُ الأعرابي[4]: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدِهم، يقول: نَعَتْ إليَّ نفسي أو أحدًا من أهل داري، فجاء الحديثُ بنفي ذلك وإبطاله.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٢٨٥٨)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٢٥) من حديث ابن عمر.

(٢) ابن القيِّم «مفتاح دار السعادة» (٦٠٦).

(٣) أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبد الله الأسدي، مولاهم، حافظ نحوي، لغوي مفسر (ت ٢٠٧هـ) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٧٢).

(٤) أبو عبد الله، محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي، مولاهم، لغوي مؤرخ نسابة (ت ٢٣١هـ) «تاريخ ابن كثير» (١٠/ ٣٠٧).

قوله: «ولا صفَر» بفتح الفاء. روى أبو عبيدة في (غريب الحديث)، عن رُؤْبة، أنه قال: هي حيَّةٌ تكون في البطن تُصيب الماشيةَ والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب[١]!.

وعلى هذا: فالمرادُ بنفيه: ما كانوا يعتقدونه من العدوى. وممن قال بهذا سفيانُ ابن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به: شهر صفر، والنفي لِما كان أهلُ الجاهلية يفعلونه في النسيء، وكانوا يُحلُّون المحرم ويُحرمون صفر مكانه، وهو قولُ مالك[٢].

وروى أبو داود، عن محمَّد بن راشد، عمَّن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهرٌ مشؤوم، فأبطل النبيُّ ﷺ ذلك[٣].

قال ابنُ رجب: ولعل هذا القول أشبهُ الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطير المنهيِّ عنها، وكذلك التشاؤم بيومٍ من الأيام، كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة[٤].

قوله: «ولا نَوْءَ» النَّوءُ: واحدُ الأنواء، وسيأتي الكلامُ عليه في بابه إنْ شاء الله تعالى.

قوله: «ولا غُول» هو بالضم، اسمُه. وجمعُه أغوالٌ وغيلان. وهو المراد هُنا.

قال أبوالسعادات: الغول: واحد الغِيلان، وهو جنسٌ من الجن والشياطين. كانت العربُ تزعم أنَّ الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلوَّن تلونًا [في صور][٥] شتّى، وتَغُولُهم: أي: تُضلُّهم عن الطريق وتُهلكُهم، فنفاه النبيُّ ﷺ وأبطله[٦].

فيكون المعنيُّ بقوله: «لا غُول» أنَّها لا تستطيع أن تُضلَّ أحدًا مع ذكر الله والتوكل عليه. ويشهدُ له الحديثُ الآخر «لا غُول ولكن السَّعالي»[٧]

---

(١) أبو عبيدة، «غريب الحديث» (١/ ٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم (٣٩١٤).

(٣) أبو داود في «السنن» رقم (٣٩١٥).

(٤) ابن رَجَب «لطائف المعارف» (٧٤).

(٥) ساقط من الأصل.

(٦) ابن الأثير، «النهاية» (٣/ ٣٩٦).

(٧) أخرجه الخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٤٦٣)، وروى معناه عن عمر، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ١٦٢).

[السَّعالى][1]: سَحرةُ الجن. أى: ولكنَّ فى الجن سحرةً لهم تلبيسٌ وتخييل.

ومنه: الحديث «إذا تغوَّلت الغيلانُ فبادروا بالأذان»[2] أى: ادفعوا شرَّها بذكر الله. وهذا يدلُّ على أنَّه لم/ يُرد بنفيها عدمَها. [١٠٧/ب]

ومنه: حديثُ أبى أيوب: كان لى تمرٌ فى سَهْوة، فكانت الغولُ تجىء فتأخذ[3] [4].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، عن أنسٍ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوَى ولا طِيرة، ويُعْجِبُنى الفألُ» قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمةُ الطيبة»[5].

ش: قوله: «ويُعجبنى الفأل» قال أبو السعادات: الفأل - مهموز - فيما يَسرُّ ويسوء، والطيرةُ لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استُعملت فيما يسر. يقال: تفاءلتُ بكذا وتفاولت، على التخفيف والقلب. ولقد أولع الناسُ بترك الهمزة تخفيفاً، وإنما أحبَّ الفألَ، لأن الناس إذا أمَّلوا فائدة الله، ورجوا عائدته عند كلِّ سببٍ ضعيف أو قوى فهم على خير، وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر.

وأمَّا الطيرةُ: فإن فيها سُوءَ الظن بالله وتوقُّعَ البلاء، والتفاؤل: أنْ يكون رجلٌ مريض فيسمع آخرَ يقول: ياسالم، أو يكون طالبُ ضالَّة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع فى ظنه أنه يبرأُ من مرضه ويجد ضالته؛ ومنه الحديث، قيل: يا رسول الله، ما الفأل؟ قال: «الكلمةُ الطيبة»[6].

---

(١) إضافةٌ من «النهاية».

(٢) قطعة من حديث: أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/٣٠٥، ٣٨١، ٣٨٢) وأبو يعلى فى «المسند» رقم (٢٢١٩) من حديث جابر، وله شاهدٌ من حديث سعد بن أبى وقاص، وأخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (١٦٣/٥). وله شاهدٌ آخر من حديث أبى هريرة، وأخرجه ابن خزيمة فى «الصحيح» رقم (٢٥٤٩)، وأصله فى «صحيح مسلم» رقم (١٩٢٦) دون اللفظ المذكور.

(٣) قطعةٌ من حديث: أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٨٨٣) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب، وأحمد فى «المسند» (٤٢٣/٥).

(٤) ابن الأثير، «النهاية» (٣٩٦/٣).

(٥) البخارى فى «الصحيح» رقم (٥٧٧٦)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٢٤).

(٦) ابن الأثير، «النهاية» (٤٠٥/٣).

قوله: قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة» بيَّن ﷺ أنَّ الفأل يُعجبه، فدلَّ على أنَّه ليس من الطيرة المنهيِّ عنها.

قال ابنُ القيِّم: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبَّته شيءٌ من الشرك، بل ذلك إبانةٌ عن مُقتضى الطبيعة، وموجَب الفطرة الإنسانيَة، التي تميلُ إلى ما يوافقها ويلائمُها؛ كما أخبرهم ﷺ أنه حُبِّب إليه النساءُ والطيب[1]، وكان يُحبُّ الحلواء والعسل[2]، ويحبُّ حَسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه[3]، ويحبُّ معالي الأخلاق ومكارمَ الشِّيَم[4].

وبالجملة: يُحبُّ كلَّ كمالٍ وخير، وما يُفضي إليهما. والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجابَ بسماعِ الاسم الحسن، ومحبته وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياحَ ،والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة، والبُشرى والفوز والظفر ونحو ذلك. فإذا قرعت هذه الأسماءُ الأسماعَ استبشرت بها النفس، وانشرح لها الصدر، وقوى بها القلب. وإذا سمعت أضدادَها أوجب لها ضدَّ هذه الحال، فأحزنها ذلك/ وأثار لها خوفا وطِيرة وانكماشاً وانقباضا عمَّا قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضررا في الدنيا ونقصا في الإيمان ومقارفةَ الشرك[5]. [١٠٨/أ]

وقال الحَليمي[6]: وإنَّما كان ﷺ يُعجبه الفأل؛ لأنَّ التشاؤم سُوءُ ظنٍّ بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حُسن ظن به، والمؤمن مأمورٌ بحسن الظن بالله تعالى على كلِّ حال[7].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولأبي داود ـ بسند صحيح ـ عن عُقبة بن عامر، قال: ذُكرتْ الطيرةُ عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنُها الفألُ، ولا تَردُّ مسلمًا،

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (٧/ ٦١) وأحمد في «المسند» (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) من حديث أنس.
(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٤٣١) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٤٧٤) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٥٠٤٩) ومسلم في «الصحيح» رقم (٨٠٠) عن ابن مسعود.
(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣٨٦١) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٤٧٤) من حدثث أبي ذر.
(٥) ابن القيِّم «مفتاح دار السعادة» (٥٩٢).
(٦) أبو عبد الله، الحسين ين الحسن بن محمد بن حليم المروزي حافظ، من فقهاء الشافعية (ت ٤٠٣هـ) «تذكرة الحافظ» (٣/ ١٠٣٠).
(٧) الحليمي «المنهاج في شعب الإيمان» (٢/ ٢٥).

فإذا رأى أحدُكم ما يكره، فليقُل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

ش: قوله: (عن عُقبة بن عامر) هكذا وقع فى نُسخ (التوحيد)، وصوابُه: عن عروة بن عامر[2]. كذا أخرجه أحمد، وأبو داود، وغيرُهما. وهو مكىٌّ، اختُلف فى نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القُرشى[3]. وقال غيرُه: الجهنى. واختلف فى صُحبته، فقال الباوردى: له صُحبة. وذكره ابنُ حبان فى ثقات التابعين. وقال المِزى: لا صُحبة له تصح[4].

قوله: فقال: «أحسنُها الفأل» قد تقدَّم أنَّه ﷺ كان يُعجبه الفأل.

وروى الترمذىُّ وصححه، عن أنس: أنَّ النبى ﷺ كان إذا خرج لحاجته، يُحبُّ أن يسمع: يا نجيحُ، ياراشد[5].

وروى أبو داود، عن بُريدة: أن النبى ﷺ كان لا يتطيَّرُ من شىء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمَه رُئى كراهيةُ ذلك فى وجهه[6]. وإسنادُه حسن. وهذا فيه استعمالُ الفأل.

قال ابنُ القيِّم: أخبر ﷺ أنَّ الفأل من الطيرة، وهو خيرُها. فأبطل الطِّيرةَ، وأخبر أنَّ الفأل منها ولكنه خيرٌ منها. ففصَل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفعِ أحدهما، ومضرَّة الآخر، ونظيرُ هذا: منعُه من الرُّقى بالشرك، وإذنُه فى الرّقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة[7].

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٧١٩)، قال النووى فى «رياض الصالحين» (٦٣٩): رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٢) يبدو أن الغلط فى ذلك قديم؛ فقد أخرجه ابنُ السنى من رواية عقبة، وهكذا نقله النوويُّ فى «الأذكار» (٢٧٤).

(٣) ليس فى «مسند أحمد» المطبوع شىءٌ من حديث عروة بن عامر.

(٤) المِزّي، «تهذيب الكمال» (١٠/ ٢٦).

(٥) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٦١٦).

(٦) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٩٢٠)، قال ابن حجر فى «فتح البارى» (١٠/ ٢١٥): أخرجه أبو داود بسند حسن.

(٧) ابن القيم، «مفتاح دار السعادة» (٥٩٣).

قوله: «ولا تردُّ مسلمًا» قال الطيبى. تعريضٌ بأنَّ الكافر بخلافه.

[١٠٨/ب] قوله: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت/ أى: لا تأتى الطيرةُ بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذى تأتى بالحسنات، وتدفع السيئات.

ففيه: نفىُ تعلُّق القلبِ بغير الله فى جلب نفعٍ أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد. وهو دعاءٌ مناسب لمن وقع فى قلبه شىءٌ من الطيرة، وتصريحٌ بأنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضراً، ويُعدُّ مَن اعتقدها سفيها مُشركا.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك» استعانةٌ بالله تعالى على فعل التوكل، وعدمِ الالتفات إلى الطيرة التى قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبةً لفاعلها. وذلك الدعاءُ إنَّما يصدر عن حقيقة التوكل، الذى هو أقوى الأسبابِ فى جلب الخيرات ودفع المكروهات.

والحولُ والتحول: الانتقالُ من حالٍ إلا حال، والقوَّةُ على ذلك بالله وحده.

ففيه: التبرى من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته، وهذا هو التوحيد فى الربوبية، وهو الدليلُ على توحيد الإلهية الذى هو إفرادُ الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيدُ القصد والإرادة. وقد تقدَّم بيانُ ذلك بحمد الله.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود، مرفوعاً: «الطِّيرةُ شركٌ، والطيرة شرك» وما منا إلا!، ولكن الله يُذْهِبُه بالتوكل. رواه أبو داود، والترمذى، وصحَّحه[١]، وجعل آخرَه من قول ابن مسعود.

ش: ورواه ابنُ ماجة، وابن حِبَّان[٢]. ولفظُ أبى داود «الطيرةُ شرك، والطيرةُ شرك، الطيرة شرك» ثلاثاً.

وهذا صريحٌ فى تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلُّق القلبِ على غير الله تعالى.

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٩١٠) والترمذى فى «الجامع رقم (١٦١٤).

(٢) ابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٥٣٨) وابن حبان فى «الصحيح» (٧/ ٦٤٢).

قال ابنُ حمْدان[1]: تُكره الطيرة، وكذا قال غيرهُ من أصحاب أحمد.

قال ابنُ مُفلح: والأولى القطعُ بتحريمها؛ لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية؟!![2].

قال فى (شرح السنن): وإنَّما جعل الطيرةَ من الشرك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ الطيرة تجلبُ لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبه، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى[3].

قوله: (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهانى[4]، والمُنذرى: فى الحديث إضمارٌ، والتقدير: وما منا إلا وقد وقع فى قلبه شىءٌ من ذلك. انتهى[5].

وقال الخلخالى: حَذف المُستثنى؛ لما يتضمَّنه من الحالة المكروهة. وهذا/ من [١٠٩/أ] أدب الكلام.

قوله: (ولكن الله يُذهبُه بالتوكل). أى: لكن لَمَّا توكَّلنا على الله فى جلب النفع أو دفع الضر، أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: (وجعل آخرَه من قول ابن مسعود)، قال ابنُ القيم: وهو الصواب؛ فإنَّ الطيرة نوعٌ من الشرك[6].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «مَن ردَّته الطِّيَرةُ عن حاجته فقد أشرك». قالوا: فما كفَّارةُ ذلك؟ قال: «أنْ تقول: اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طير إلا طيرُك، ولا إله غيرك»[7].

---

(١) أبو عبد الله، أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان النّمرى، فقيهٌ أصولى (ت ٦٩٥هـ) «تاريخ ابن رجب» (٢/ ٣٣١).

(٢) ابن مفلح «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٦٢).

(٣) «معالم السنن» للخطابى (٤/ ١٣٤).

(٤) إسماعيل بن محمد بن الفضل بن على القرشى، الأصبهانى، حافظ مفسر لغوى (ت ٥٣٥هـ) «شذرات الذهب» (٤/ ١٠٥).

(٥) المنذرى، «الترغيب والترهيب» (٤/ ٦٤).

(٦) ابن القيِّم «مفتاح السعادة» (٥٨١).

(٧) أحمد فى «المسند» (٢/ ٢٢٠).

ش: هذا الحديثُ رواه أحمد، والطبرانى، عن عبدُ الله بن عمرو بن العاص، وفى إسناده ابنُ لَهيعة، وبقيةُ رجاله ثقات[1].

قوله: (من حديث ابن عمرو). هو عبدُ الله بن عمرو بن العاص بن وائل السَّهمى، أبو محمد ـ وقيل: أبو عبد الرحمن ـ أحدُ السابقين المُكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء. مات فى ذى الحجة، ليالى الحرَّة[2] ـ على الأصح ـ بالطائف.

قوله: «من ردَّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» وذلك أنَّ الطيرة هى التشاؤمُ بالشىء المرئى أو المسموع. فإذا ردَّه شىءٌ من ذلك عن حاجته التى عزم عليها ـ كإرادة السفر ونحوه ـ فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وسمع تشاؤمًا، فقد دخل فى الشرك؛ كما تقدم. فلم يُخلص توكّلَه على الله بالتفاتة إلى ماسواه، فيكون للشيطان منه نصيب.

قوله: (فما كفارة ذلك)؟ إلى آخره. فإذا قال ذلك، وأعرض عمَّا وقع فى قلبه ولم يلتفت إليه: كفَّر الله عنه ما وقع فى قلبه ابتداءً؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمِّن للاعتماد على الله وحده، والإعراضِ عمَّا سواه.

وتضمَّن الحديث: أنَّ الطيرة لا تضرُّ من كرهها ومضى فى طريقه، وأمَّا من لم يُخلص توكله على الله، واسترسل مع الشيطان فى ذلك، فقد يُعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه إعراضٌ عن واجب الإيمان بالله، وأنَّ الخير كلَّه بيده. فهو الذى يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذى يدفع عنه الضر وحده بقُدرته ولُطفه وإحسانه. فلا خير إلا منه، وهو الذى يدفع الشرَّ عن عبده، فما أصابه من ذلك فبذنبه؛ كما قال تعالى: ﴿ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نَفْسِك﴾. [النساء: ٧٩].

---

(١) كما قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٥) وله شاهدٌ من حديث بُريدة، أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» رقم (١٢٧٠).

(٢) «ينظر تاريخ الطبرى» (٥/ ٤٩١)، وابن تيمية، «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٥٧٥).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وله، من حديث الفَضل بن عبَّاس: «إنَّما الطيرةُ ما أمضاك أو ردَّك»[1].

ش: هذا الحديثُ: عند الإمام أحمد، من حديث الفَضْل بن عباس، قال: خرجتُ مع رسول الله/ ﷺ يومًا، فبرَّح ظبيٌ، فمال في شِقِّه فاحتضنتهُ، فقلتُ: [١٠٩/ب] يا رسول الله، تطيرت، فقالت: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

وفي إسناده انقطاع[2]، أي: بين مَسلمة راويه، وبين الفضل. وهو الفضلُ بن العباس بن عبد المطلب، ابنُ عمِّ النبي ﷺ. قال ابنُ مَعين: قُتل يوم اليرموك[3]. وقال غيرهُ: [قُتل يوم مَرْج الصُّفَّر[4] سنة ثلاث عشرة، وهو ابنُ اثنتين وعشرين سنة. وقال أبو داود]: قتل بدمشق، كان عليه درعُ النبي ﷺ[5].

قوله: «إنما الطيرةُ ما أمضاك أو ردك» هذا حدُّ الطيرة المنهي عنها، لأنها: ما يحمل الإنسان على المُضي فيما أراده، ويمنعُه من المضي فيه كذلك.

وأمّا الفألُ الذي كان يُحبه النبيُّ ﷺ: فيه نوعُ بشارة، فيُسرُّ به العبدُ ولا يعتمد عليه؛ بخلاف ما يُمضيه أو يردّه؛ فإنَّ للقلب عليه نوعَ اعتماد، فافهم الفرق، والله أعلم.

---

(١) أحمد في «المسند» (١/ ٢١٣) من حديث أبي أُمامة.

(٢) كما قال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٣٦١).

(٣) الطبري (٣/ ٣٩٤).

(٤) المَرج: الأرض الواسعة فيها نبتٌ كثير، والصُّفَّر بُليدةٌ في ضواحي دمشق. «معجم البلدان» (٥/ ١٠١).

(٥) قال ابنُ كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ٣٤): والصحيحُ أنه تأخر إلى سنة ثماني عشرة.

(٢٨)

بـــاب
ماجـــاء في التنجيم

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في التَّنجيم.

ش: قال شيخُ الإِسلام: التنجيم: هو الاستدلالُ بالأحوال الفلكية، على الحوادث الأرضية[١].

وقال الخطَّابي: علمُ النجوم المنهى عنه: ما يدَّعيه أهلُ التنجيم، من علم الكوائن والحوادث التى ستقع فى مُستقبل الزمان، كأوقات هبوب الريح ومجىء المطر، وتغيُّر الأسعار، وما فى معناها من الأمور التى يزعمون أنَّها تُدرك معرفتُها بمسير الكواكب فى مجاريها، واجتماعها وافتراقها يدَّعون أن لها تأثيراً فى السُّفليات. وهذا منهم تحكّمٌ على الغيب، وتعاط لعلمٍ قد استأثر الله به، لا يعلم الغيب سواه[٢].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال البخاريُّ فى (صحيحه): قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَى بها. فمن تأوَّل فيها غيرَ ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلَّف ما لا علمٍ له به. انتهى[٣].

ش: هذا الأثرُ علَّقه البخاريُّ فى (صحيحه)، وأخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حُميد[٤]، وابن جرير، وابن المُنذر، وغيرُهم[٥].

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٢).

(٢) الخطابى «معالم السنن» (٤/ ٢٣٠).

(٣) البخارى فى «الصحيح» (٦/ ٢٩٥).

(٤) عبد الرزاق فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٣٢٨).

(٥) ابنُ جرير الطبرى فى «التفسير» (١/ ٩١، ٢٩/ ٣).

وأخرجه الخطيبُ فى (كتاب النجوم)، عن قتادة، ولفظُه، قال: إنَّما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينةً للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجومًا للشياطين. فمن تعاطى فيها غيرَ ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظَّه، وأضاع/ نصيبه، وتكلَّف ما لا علم له به. وإنَّ ناساً جهلةً بأمر الله، قد أحدثوا [١١٠/أ] فى هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا كذا. ولعمرى ما من نجمٍ إلا يولد به الأحمرُ والأسود، والطويل والقصير، والحسن والدميم، وما عِلمُ هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىءٍ من هذا الغيب. ولو أنَّ أحداً علم الغيب لعلمه آدمُ الذى خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شىء. انتهى[١].

وتأمَّل ما أنكره هذا الإمامُ، مما حدث من هذه المنكرات فى عصر التابعين. ومازال الشرُّ يزداد فى كل عصرٍ بعدهم، حتى بلغ الغايةَ فى هذه الأعصار، وعمَّت به البلوى فى جميع الأمصار، فمقلٌّ ومستكثر. وعزَّ فى الناس من يُنكره، وعظُمت المصيبة فى الدين. فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

قوله: (خلق الله هذه النجوم لثلاث). قال الله تعالى: ﴿ولَقد زيَّنا السماء الدُّنيا بمصابيح وجعلناها رُجوماً للشياطين﴾. [الملك: ٥] وقال تعالى: ﴿وعلامات وبالنَّجْم هُمْ يهتدون﴾. [النحل: ١٦].

وفيه: إشارةٌ إلى أنَّ النجوم فى السماء الدنيا؛ كما روى ابنُ مردويه، عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ «أما السماء الدنيا: فإنَّ الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجاً وقمراً مُنيراً، وزيَّنها بمصابيح، وجعلها رجوماً للشياطين، وحِفظاً من كلِّ شيطانٍ رجيم»[٢].

قوله: (وعلامات). أى: دلالات على الجهات. يُهتدى بها، أى: يهتدى بها الناسُ فى ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وهو الذى جعل لكمُ النجُومَ لتهتدوا بها فى ظُلُمات البر والبحر﴾. [الأنعام: ٩٧] أى: ليعرفوا بها جهةَ قصدهم، وليس المرادُ أنه يُهتدى بها فى علم الغيب، كما يعتقده المنجِّمون.

---

(١) الخطيب البغدادى فى كتاب «القول فى النجوم» كما فى «الدر المنثور» (٣/٣٢٨).

(٢) ينظر «الدر المنثور» (٣/٣٢٨).

وقد تقدَّم بطلانُه وأنَّه لا حقيقة له؛ كما قال قتادة: فمن تأول فيها غير ذلك - أي: زعم فيها غيرَ ما ذكر الله فى كتابه من هذه الثلاث - فقد أخطأ، حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان، وأضاع نصيبهَ من كلِّ خير؛ لأنه أشغل نفسه بما يضره ولا ينفعه[1].

فإن قيل: المنجِّمُ قد يصدق!! قيل: صدقُه كصدق الكاهن، يصدقُ فى كلمةٍ ويكذب فى مائة. وصدقُه ليس عن علم، بل قد يوافق قدراً فيكون فتنةً فى حق من صدَّقه.

وعن ابن عباس/ رضى الله عنهما - فى قولع تعالى: ﴿وأَلْقى فى الأرض [١١٠/ب] رواسِى أنْ تميد بِكُمْ وأنهاراً وسُبُلاً لعَلَّكُم تهْتَدُون * وعلاماتٍ﴾. [النحل: ١٥ - ١٦].

فقوله: ﴿وعلامات﴾ معطوفٌ على ما تقدَّم، مما ذكره فى الأرض، ثم استأنف، فقال: ﴿وبالنَّجْمِ هُمْ يهتدُون﴾ ذكره ابنُ جرير، عن ابن عباس بمعناه[2].

وقد جاءت الأحاديثُ عن النبى ﷺ بإبطال علم التنجيم؛ كقوله: «من اقتبس شُعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر. زاد ما زاد»[3].

وعن رجاء بن حَيْوة[4]، أنَّ النبى ﷺ قال: «مما أخافُ على أمتى: التصديقَ بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيفَ الأئمة». رواه عبدُ بن حُميد[5].

---

(١) قال ابن تيمية، فى «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٣): والاستقراء يدل على أنَّ أهل النجوم لا يفلحون لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٤/ ٩١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أبو المقدام، الكندى الفلسطينى، ثقةٌ فقيه (ت ١١٢هـ) «تقريب» (٢٠٨).

(٥) عبد بن حميد فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٨/ ٣١)، وأخرجه أيضاً، من طريق عبد الله بن محيريز به، كما فى «المصدر السابق».

وعن أبى محجن، مرفوعاً «أخافُ على أُمتى ثلاثاً: حيفَ الأئمة، وإيمانًا بالنجوم، وتكذيباً بالقدر» رواه ابنُ عساكر، وحسَّنه السيوطى[1].

وعن أنس، مرفوعًا «أخافُ على أُمتى بعدى خَصلتين: تكذيباً بالقدر وإيماناً بالنجوم». رواه أبو يعلى، وابنُ عَدى، والخطيب فى (كتاب النجوم)[2]، وحسَّنه السيوطى أيضاً.

والأحاديثُ فى ذمِّ التنجيم والتحذير منه كثيرة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وكره قتادةُ تعلُّمَ منازل القمر، ولم يُرخِّص ابنُ عيينة فيه. ذكره حرب[3] عنهما. ورخَّص فى تعلُّمِ المنازل أحمدُ، وإسحاق[4].

ش: قال الخطَّابى: أمَّا علمُ النجوم الذى يُدرك من طريق المشاهدة والخبر، الذى يُعرف به الزوال، وتُعلم به جهةُ القبلة: فإنَّه غيرُ داخل فيما نهى عنه؛ وذلك أنَّ معرفة رصدِ الظل، ليس شيئاً بأكثر من أنَّ الظل مادام مُتناقصاً، فالشمسُ بعدُ صاعدة نحو وسط السماء من الأُفق الشرقى، وإذا أخذ فى الزيادة فالشَمسُ هابطة من وسط السماء نحو الأُفق الغربى. وهذا علمٌ يصحُّ إدراكُه بالمشاهدة، إلا أنَّ أهل هذه الصناعة قد دبَّروها بما اتخذوا له من الآلات التى يستغنى الناظرُ فيها عن مراعاة مُدَّته ومُراصدته.

وأمَّا ما يُستدلُّ به من النجوم على جهة القبلة: فإنها كواكبُ رصدها أهلُ الخبرة بها من الأئمة، الذين لا نشكُّ فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقِهم فيما أخبروا به عنها. مثل أنْ يُشاهدَها بحضرة الكعبة، ويُشاهدها على حال الغيبة عنها. فكان إدراكُهم الدلالة منها بالمعاينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذْ كانوا

---

(١) ابن عساكر فى «التاريخ» كما فى «الكنز» (٦/ ١٥) وله شاهدٌ من حديث أبى أمامة، أخرجه الطبرانى كما فى «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٣) وقال: وفيه ليث بن أبى سليم، وهو لين، وبقية رجاله وثِّقوا.

(٢) أبو يعلى فى «المسند» رقم (٤١٣٥) وابن عدى فى «الكامل» (٤/ ١٣٥٠) والخطيب البغدادى فى كتاب «القول فى النجوم» كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٣٣٠).

(٣) أبو محمد، حرب بن اسماعيل بن خلف الكرمانى، فقيه محدث، من تلاميذ أحمد، له عنه مسائل «طبقات الحنابلة» (١/ ١٤٥).

(٤) أبو محمد، إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلى، ثقة حافظ مجتهد، قرين أحمد (ت ٢٣٨هـ) «التقريب» (٩٩). ونقله عنهم، ابن رجب فى «فضل علم السلف» (٣١، ٣٢).

عندنا غيرَ متهمين فى دينهم، ولا مُقصّرين فى معرفتهم/ انتهى[1]. [١١١/أ]

وروى ابن المنذر، عن مجاهد: أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلَّم الرجلُ منازلَ القمر[2].

وروى عن إبراهيم: أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلَّم الرجلُ من النجوم ما يهتدى به[3].

قال ابنُ رجب: والمأذون فى تعلمه [علمُ][4] التسيير لا علم التأثير؛ فإنَّه باطلٌ محرم، قليله وكثيرة. وأما علم التسيير، فيتعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق. جائزٌ عند الجمهور. انتهى[5].

قوله: (ذكره حرب عنهما). هو الإِمام الحافظ، حربُ بن إسماعيل، وأبو محمد الكرمانى، الفقيه، من جلة أصحاب الإِمام أحمد. روى عن أحمد، وإسحاق، وابن المدينى، وابن معين، وغيرهم. وله (كتابُ المسائل) التى سُئل عنها الإِمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين.

وأمَّا إسحاق: فهوابن إبراهيم بن مخلد، أبو يعقوب الحنظلى النيسابورى، الإِمام المعروف بابن راهُويه. روى عن ابن المبارك، وأبى أُسامة، وابن عُيينة وطبقتهم. قال أحمد: إسحاق عندنا إمامٌ من أئمة المسلمين. روى عنه أحمد، والبخارى، ومسلم، وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضًا عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبى موسى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: مُدمِنُ الخمر، وقاطع الرحم، ومصدِّقٌ بالسحر». رواه أحمد، وابن حبان فى (صحيحه)[6].

---

(١) الخطابى «معالم السنن» (٤/ ٢٣٠).

(٢) وأخرجه الخطيب البغدادى كما فى «الدر المنثور».(٣/ ٣٢٩).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» رقم (٥٦٩٩) وأبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٢٢٥).

(٤) إضافة من (ض).

(٥) «فضل علم السلف على علم الخلف» لابن رجب (٣٤).

(٦) أحمد فى «المسند» (٤/ ٣٩٩) وابن حبان فى «الصحيح» (٧/ ٣٦٦).

ش: هذا الحديثُ رواه أيضا الطبراني، والحاكم، وقال: صحيح. وأقرَّه الذهبي[1]. وتمامه: «ومن مات وهو مدمنٌ الخمر سقاه الله من نهر الغُوطة: نهر يجرى من فروج المومسات، يؤذى أهل النار ريحُ فروجهن».

قوله: عن (أبى موسى). هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حَضَّار ـ فتح المهملة وتشديد الضاد ـ أبو موسى الأشعرى، صحابىٌ جليل، مات سنة خمسين.

قوله: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة» هذا من نصوص الوعيد التى كره السلفُ تأويلَها، وقالوا: أمِرُّوها كما جاءت، ومن تأوَّلها فهو على خطر من القول على الله بلا علم.

وأحسنُ ما يقال: إنَّ كلَّ عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملّة الإسلام فإنَّه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذَّبه به فقد استوجب العذاب/ ، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته. [١١١/ب]

قوله: «مدمن الخمر» أى: المداوم على شربُها.

قوله: «وقاطع الرحم» يعنى القرابة؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُم إن تَوَلَّيْتُم أن تُفْسِدوا فى الأرض وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُم﴾. [محمد: ٢٢] الآية.

قوله: «ومصدِّقٌ بالسحر» أى: مطلقاً، ومنه التنجيم؛ لِما تقدَّم من الحديث، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

قال الذهبى فى (الكبائر): ويدخل فيه تعلم السِّيميا وعملُها، وعقْد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباهُ ذلك بكلمات مجهولة. قال: وكثيرٌ من الكبائر ـ بل عامتها إلا الأقل ـ يجهل خلقٌ من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه، ولا الوعيدُ عليه. انتهى[2].

---

(١) الطبرانى كما فى «مجمع الزوائد» (٥/ ٧٤) والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ١٤٦) وله شاهدٌ من حديث أبى سعيد: أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/ ١٤، ٨٣).

(٢) الذهبى، «الكبائر» (٤٥، ٤٦).

(٢٩)

بــــاب
ما جــــاء في الاستسقاء بالأنواء

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء فى الاستسقاءِ بالأنْوَاء.

ش: أى: من الوعيد، والمراد: نسبةُ السُّقيا ومجيء المطر إلى الأنواء. ـ جمع نَوْء وهى منازلُ القمر.

قال أبو السعادات: وهى ثمانٌ وعشرون منزلة، ينزل القمرُ كلَّ ليلة منزلة منها. ومنه قوله تعالى: ﴿**والقَمَر قدَّرْنَاهُ مَنَازِل**﴾. [يس: ٣٩].

يسقطُ فى الغرب كلَّ ثلاث عشرة ليلة منزلةً مع طلوع الفجر، وتطلعُ أُخرى مُقابلَتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضى جميعُها مع انقضاء السنة. وكانت العربُ تزعم أنَّ مع سقوط المنزلة وطلوع رَقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: مُطرنا بنوْء كذا. وإنما سُمِّى نَوْءاً؛ لأنه إذا سقط الساقطُ منها نَاء الطالعُ بالمشرق، أى: نَهض وطلع[١].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُون**﴾. [الواقعة: ٨٢].

ش: روى الإمام أحمد، والترمذىُّ ـ وحسنه ـ وابن جرير، وابن أبى حاتم، والضياء فى (المُختارة)، عن على رضى الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «﴿**وتَجعلون رِزْقَكُم**﴾ يقول: شُكرَكم ﴿**أنَّكم تُكذِّبون**﴾ يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذَا كذا»[٢] وهذا أولى ما فُسِّرت به الآية.

---

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٥/ ١٢٢).

(٢) أحمد فى «المسند» (١/ ٨٩، ١٠٨، ١٣١) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٢٩١) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٧/ ٢٠٨)، وابن أبى حاتم فى «التفسير» والضياء فى «المختارة» كما فى «الدر المنثور» (٨/ ٢٩).

وروى ذلك: عن على، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخُراسانى، وغيرهم[1]، وهو قولُ جمهور المفسرين، وبه يظهر وجهُ استدلال المُصنِّف بالآية.

قال ابنُ القيم: أى: وتجعلون حظَّكم من هذا الرزق الذى به حياتكم: [١١٢/أ] التكذيب به، يعنى/ القرآن[2].

[قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن][3] أنكم تُكذِّبون[4]. قال: وخسر عبدٌ لا يكون حظُّه من القرآن إلا التكذيب.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبى مالك الأشعرى، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ فى أُمَّتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخرُ بالأحساب، والطعنُ فى الأنساب، والاستسقاءُ بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحةُ إذا لم تتب قبل موتها تُقام يومَ القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِران، ودِرعٌ من جرب» رواه مسلم[5].

ش: أبو مالك، اسمُه: الحارث بن الحارث الشامى. صحابىٌّ، تفرَّد عنه بالرواية أبو سلاَّم. وفى الصحابة أبو مالك الأشعرى، اثنان غير هذا[6].

قوله: «أربعٌ فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن» ستفعلُها هذه الأمة: إمَّا مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال أهل الجاهلية المذمومة المكروهةِ المحرَّمة.

والمرادُ بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث؛ سُمّوا بذلك لفرط جهلهم، وكلُّ ما يُخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فهو جاهلية. فقد خالفهم رسول الله ﷺ فى كثيرٍ من أمورهم أو أكثرها، وذلك يُدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة.

قال شيخُ الإسلام: أخبر أنَّ بعض أمرِ الجاهلية لا يتركُه الناس كلُّهم، ذمًّا لمن لم يتركه، وهذا يقتضى أنَّ كلَّ ما كان من أمر الجاهلية وفعلِهم فهو مذمومٌ فى

(١) ينظر «تفسير الطبرى» (٢٧/٢٠٨).

(٢) ابن القيم، «التبيان فى أقسام القرآن» (١/٤١٨).

(٣) ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٤) أخرجه عبدُ بن حميد، كما فى «الدر المنثور» (٨/ ٣٠).

(٥) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٣٤).

(٦) ينظر «الاستغناء فى الكُنى» لابن عبد البر (١/ ٢٢٠).

دين الإسلام، وإلا لم يكن فى إضافة هؤلاء المنكرات إلى الجاهلية ذمٌّ لها. ومعلومٌ أنَّ إضافتها للجاهلية خرج مخرج الذم؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿ولا تَبَرَّجْنَ تبرُّج الجاهلية الأولى﴾. [الأحزاب: ٣٣].

[فإنَّ فى ذلك ذمّاً للتبرج، وذماً لحال الجاهلية الأولى][١] وذلك يقتضى المنعَ من مشابهتهم فى الجملة[٢].

قوله: «الفخرُ بالأحساب» أى: التعاظمُ على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهلٌ عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عنْد الله أتْقَاكُمْ﴾. [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وما أَمْوَالُكُم ولا أَوْلادُكُم بالتى تُقَرِّبُكُم عنْدنا زُلْفى إلا من آمن وعمِل صالحاً فأوْلئك لهم جزاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلُوا وهُم فى الغُرُفات آمِنُونَ﴾. [سبأ: ٣٧].

ولأبى داود، عن أبى هريرة، مرفوعًا: «إنَّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية[٣]، وفخرَها بالآباء. إنما هو مؤمنٌ تقى، أو فاجرٌ شقى. الناسُ بنو آدم، وآدم خُلق من تراب، ليدعَنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام - إنَّما هم فحمٌ من فحم جهنم - أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجعلان»[٤]/ الحديث[٥]. [١١٢/ب]

قوله: «والطعنُ فى الأنساب» أى: الوقوعُ فيها، بالعيب والتنقُّص.

---

(١) ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٢) ابن تيمية «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٠٥).

(٣) العُبِّيَّة: الكبر والنخوة. الخطابى «غريب الحديث» (١/ ٢٩٠).

(٤) أبو داود فى «السنن» رقم (٥١١٦)، (٢/ ٦٠) قال الحافظ ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢١٦، ٣٦٣): رواه أبو داود وغيره، وهو صحيح.

(٥) وهذا لا يعنى قطعاً إسقاط ما للعرب من خصوصية، قال ابنُ تيمية رحمه الله تعالى: الذى عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أنَّ جنس العرب أفضل من جنس العجم؛ والشعوبية الذين لا يفضلون العرب على من سواهم إنما يفعلون ذلك عن نوع نفاق!!.

ومن أجل ذلك كانت الكفاءة فى النسب شرطا من شروط صحة النكاح، ولا تختص بفرد معين بل لجميع الأولياء قريبهم وبعيدهم ممن وجد ومن لم يوجد بعد على أن الذى يجب على المسلم إذا نظر فى الفضائل، أو تكلم فيها: أن يسلك سبيل العاقل الدِّين، الذى غرضه أن يعرف الخير ويتحراه جهده. ليس غرضه الفخر على أحد ولا الغمص من أحد. ينظر: ابن تيمية «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩٥، ٤٠١) و«مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣٣١).

ولما عيَّر أبو ذر رضى الله عنه رجلاً بأُمِّه، قال النبى ﷺ: «أعيرته بأمه، إنك امرؤٌ فيك جاهلية» متفق عليه[1].

فدلَّ على أنَّ الطعن فى الأنساب من عمل الجاهلية، وأنَّ المسلم قد يكون فيه شىءٌ من هذه الخصال المسمَّاه بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجبُ ذلك كفرَه ولا فسقه. قاله شيخُ الإِسلام[2].

قوله: «والاستسقاءُ بالنجوم» أى: نسبةُ المطر إلى النوء، وهو سُقوط النجم؛ كما أخرج الإِمامُ أحمد، وابنُ جرير، عن جابر السوائى، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أخافُ على أُمتَّى ثلاثاً: استسقاءً بالنجوم، وحَيْفَ السلطان، وتكذيباً بالقدر»[3].

فإذا قال قائلُهم: مُطرنا بنجم كذا أو بنوْء كذا، فلا يخلو: إمَّا أنْ يعتقد أنَّ له تأثيراً فى نزول المطر، فهذا شركٌ وكفر. وهو الذى يعتقده أهلُ الجاهلية، كاعتقادهم أنَّ دعاء الميت والغائب يجلبُ لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً، أو أنَّه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشركُ الذى بعث الله رسوله ﷺ بالنهى عنه وقتال من فعله؛ كما قال تعالى: ﴿وقاتِلُوهُم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكون الدينُ كلّه لله﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنةُ الشرك.

وإمَّا أن يقول: مُطرنا بنوء كذا مثلاً، لكن مع اعتقاده أنَّ المؤثر هو الله وحده، لكنه أجرى العادةَ بوجود المطر عند سُقوط ذلك النجم.

والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم، ولو على طريق المجاز، فقد صرَّح ابنُ مُفلح فى (الفروع)، بأنه يحرم قول: مُطرنا بنوء كذا[4]. وجزم فى (الإِنصاف) بتحريمه، ولم يذكر خلافًا[5].

وذلك أنَّ القائل لذلك نسبَ ما هو من فعل الله تعالى ـ الذى لا يقدر عليه

---

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٠، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٦١).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٢٠).

(٣) أحمد فى «المسند» (٥/ ٨٩، ٩٠) وابن جرير الطبرى كما فى «الدر المنثور» (٨/ ٣٠). وللحديث شواهدُ مضت فى الباب السابق.

(٤) ابن مفلح، «الفروع»(٢/ ١٦٣).

(٥) المرداوى، «الانصاف» (٢/ ٤٦١).

غيرُه - إلى خلْقٍ مُسخَّر، لا ينفع ولا يضر ولا قُدرة له على شيء. فيكون ذلك شركاً أصغر، والله أعلم.

قوله: «والنياحةُ» أى: رفعُ الصوت بالندب على الميت؛ لأنها تسخُّطٌ لقضاء الله، وذلك يُنافى الصبر الواجب، وهى من الكبائر، لشدة الوعيد والعقوبة.

قوله: «النائحةُ إذا لم تتب/ قبل موتها» فيه: تنبيهٌ على أنَّ التوبة تكفِّر الذنب [١١٣/أ] وإن عظُم، هذا مجمعٌ عليه فى الجملة. وتكفر أيضًا بالحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله وعفو الله عمَّن شاء ممن لا يُشرِك بالله شيئًا.

وفى الحديث، عن ابن عمر، مرفوعًا «إنَّ الله تعالى يقبلُ توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِر» رواه أحمدُ، والترمذى، وابن ماجة، وابن حبان[١].

قوله: «تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران ودرعٌ من جرب» قال القُرطبى: السرِّبال، واحدُ السرابيل، وهى الثياب والقُمُص، يعنى أنهم يُلطَّخن بالقطران، فيكون لهن كالقُمص، حتى يكون اشتعالُ النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألَمُها بسبب الجرب أشد.

ورُوى عن ابن عباس: أنَّ القطران هو النحاسُ المُذاب[٢].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، عن زيد بن خالد، قال: صلَّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيبية، على إثْر سماءٍ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافر، فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بى كافرٌ بالكوكب. وأمَّا مَن قال: مُطرنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافرٌ بى مؤمنٌ بالكوكب»[٣].

---

(١) أحمد فى «المسند» (٢/ ١٣٢، ١٥٣) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٣١) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب، وابن ماجة فى «السنن» رقم (٤٢٥٣) وابن حبان فى «الصحيح» (٢/ ١٢).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٣/ ٢٥٧).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٧١).

ش: زيدُ بن خالد الجُهنى، صحابىٌّ مشهور، مات سنة ثمانٍ وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمسٌ وثمانون سنة.

قوله: (صلَّى لنا رسولُ الله ﷺ) أى: بنا، فاللامُ بمعنى الباء. قال الحافظ: وفيه إطلاقُ ذلك مجازاً. وإنَّما الصلاةُ لله[1].

قوله: (الحُديبية) بالمهملة وتخفيفِ يائها، وتُثقَّل.

قوله: (على إثْر) بكسر الهمزة وسكون المثلَّثة على المشهور، وهو ما يعقبُ الشىء.

قوله: (سماء). أى: مطر؛ لأنه ينزل من السحاب، والسماءُ يطلق على كل ما ارتفع.

قوله: (فلما انصرف). أى: من صلاته، أى: التفت إلى المأمومين؛ كما يدلُّ عليه قوله: (أقبل على الناس). ويُحتمل أنه أراد السلام.

قوله: «هل تدرون» لفظُ استفهام، ومعناه التنبيه.

وفى النسائى «ألم تسمعوا ما قال ربُّكم الليلة؟»[2] وهذا من الأحاديث القُدسية.

وفيه: إلقاءُ العالم المسألة على أصحابه، ليختبرهم.

[١١٣/ب] قوله: (قالوا الله ورسوله أعلم). فيه حُسن الأدب/ للمسؤول إذا سُئل عمَّا لا يعلم: أنْ يكِلَ العلم إلى عالمه. وذلك يجب.

قوله: «أصبح من عبادى» الإضافةُ هنا للعُموم؛ بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الذى خَلَقَكُم فَمِنكُم كافِرٌ ومِنكُم مؤمِنٌ﴾. [التغابن: ٢].

قوله: «مؤمنٌ بى وكافر» إذا اعتقد أنَّ للنوء تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه شركٌ فى الربوبية، والمشركُ كافر. وإنْ لم يعتقد ذلك، فهو من الشرك الأصغر؛ لكونه نسب نعمةَ الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوءَ سبباً لإنزال

(١) ابن حجر، «فتح البارى» (٢/ ٥٢٣).

(٢) النسائى فى «المجتبى» (٣/ ١٦٥).

المطر فيه، وإنَّما هو فضلٌ من الله ورحمة. يحبُسه إذا شاء، ويُنزلِه إذا شاء.

ودلَّ هذا الحديث: أنه لا يجوز لأحدٍ أنْ يُضيف أفعالَ الله إلى غيره، ولو على سبيل المجاز.

وأيضًا، الباءُ تحتمل معانى، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة؛ لما عرفتَ من أنَّ هذا باطل. ولا تصدقُ أيضًا على أنها للمصاحبة؛ لأن المطر قد يجيءُ فى هذا الوقت وقد لا يجيء فيه. وإنما يجيء المطرُ فى الوقت الذى أراد الله مجيئه فيه، برحمته وحكمته وفضله. فكلُّ معنى تُحمل عليه الباءُ فى هذا اللفظ المنهى عنه فاسدٌ.

فيظهر على هذا: تحريمُ هذه اللفظة مطلقاً؛ لفساد المعنى. وقد تقدَّم القطعُ بتحريمه فى كلام صاحب (الفروع) و(الإنصاف).

قال المُصنِّف: وفيه التفطُّنُ للإيمان فى هذا الموضع[1]. يشيرُ إلى أنه الإخلاص.

قوله: «فأمَّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته» فالفضلُ والرحمة صِفتان لله، ومذهبُ أهل السنة والجماعة: أنَّ ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة، والعلم. وصفات الأفعال؛ كالرحمة التى يرحم بها عباده، كلها صفاتٌ لله قائمة بذاته، ليست قائمةً بغيره، فتفطَّنْ لهذا؛ فقد غلِط فيه طوائف.

وفى هذا الحديث: أنَّ نعم الله لا يجوز أنْ تُضاف إلا إليه وحده، وهو الذى يُحمد عليها، وهذه حالُ أهل التوحيد

قوله: «وأمَّا من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا» إلى آخره، قد تقدم ما يتعلَّقُ بذلك.

قال المُصنِّفُ: وفيه: التفطُّن للكفر فى هذا الموضع[2].

يُشير: أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر؛ ولهذا قطع بعضُ العلماء بتحريمه،

---

(١) المسألة السادسة.

(٢) المسألة السابعة.

[١١٤/أ] وإنْ لم يعتقد تأثير النوء فى إنزال/ المطر. فيكون من كفر النعم؛ لعدم نسبتها إلى الذى أنعم بها ونسبتها إلى غيره، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ الله ثم يُنكِرُونها﴾. [النحل: ٨٣].

قال القُرطبى فى شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العربُ إذا طلع نجمٌ من المشرق وسقط آخرُ من المغرب فحدث عند ذلك مطرٌ أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبةَ إيجادٍ واختراع، ويُطلقون ذلك القولَ المذكور فى الحديث. فنهى الشارعُ من إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحدٌ اعتقادهم، ولا يشتبه بهم فى نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبُه نسبةَ إيجاد. يدلُّ على أنَّ بعضهم لا يعتقد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ولئن سألْتَهُم مَنْ نزَّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بَعْد موتها ليقُولُنَّ الله﴾. [العنكبوت: ٦٣]. فدلَّ على أنَّ منهم من يعرف ويقرُّ بأنَّ الله هو الذى أوجد المطر، و[قد][1] يعتقد هؤلاء أنَّ للنوء فيه شيئاً من التأثير.

والقرطبىُّ فى شرحه لم يُصرِّح أنَّ العرب كلَّهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية؛ للاحتمال المذكور.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما، من حديث ابن عباس، معناه. وفيه: قال بعضُهم: لقد صدق نَوءُ كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فلا أُقسمُ بمواقِعِ النُّجُومِ * وإنَّهُ لقسَمٌ لو تَعْلَمُون عظيـم * إنَّهُ لَقُرآنٌ كريـم * فـى كتاب مَكْنُون * لا يَمسهُ إلا المطهرون * تنْزيلٌ من ربِّ العالمين * أفبهذا الحديث أَنْتُم مُدْهِنُونَ * وتَجْعَلُون رِزْقكُم أَنَّكُم تُكَذِّبون﴾[2]. [الواقعة: ٧٥ - ٨٢].

ش: وبلفظه، عن ابن عباس، قال: مُطر الناسُ على عهد النبى ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «أصبح من الناس شاكرٌ، ومنهم كافر». قالوا: هذه رحمةُ الله، وقال بعضهم: لقد صدق نَوْءُ كذا وكذا. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فلا أُقسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾.

(١) إضافةٌ من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) هو من حديث ابن عباس، عند مسلم فى «الصحيح» رقم (٧٣) وأخرجه من حديث أبى هريرة رقم (٧٢).

هذا قسمٌ من الله عز وجل، يقسمُ بما شاء من خلقه على ما شاء، وجوابُ القسم ﴿إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ﴾ فتكونُ: لا صلةً لتأكيد النفى، فتقديرُ الكلام: ليس الأمرُ كما زعمتم فى القرآن أنه سحرٌ، أو كهانة، بل هو قرآنٌ كريم.

قال ابنُ جرير: قال بعضُ أهل العربية: معنى قوله ﴿فلا أُقْسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استُؤنف القسم بعد، فقيل: أُقسم[1].

ومواقع النجوم، قال ابنُ عباس: يعنى نجوم القُرآن، فإنَّه نزل جملةً ليلة القدر من السماء العُليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مُفرَّقاً فى السنين بعدُ. ثم قرأ ابنُ عباس هذه الآية[2].

ومواقعُها: نزولُها شيئا بعد شىء. وقال مُجاهد: مواقع النجوم: مطالعها ومساقطها[3]. واختاره ابنُ جرير/ . [١١٤/ب]

وعلى هذا: فتكون المناسبةُ بين المقسَم به والمُقسَم عليه ـ وهو القرآن ـ من وجوه:

أحدُها: أنَّ النجوم جعلها الله يُهتدى بها فى ظُلمات البر والبحر، وآياتِ القرآن يُهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل. فتلك هدايةٌ فى الظلمات الحسية، والقرآنُ هدايةٌ فى الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين.

مع ما فى النجوم من الزينة الظاهرة، وفى القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين، وفى القرآن من رجوم شياطين الإِنس والجن.

والنجوم آياتُه المشهودة العيانية، والقرآنُ آياته المتلوّةُ السمعية؛ مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية، ومواقعها عند النزول. ذكره ابنُ القيِّم[4].

(١) ابن جرير، «جامع البيان» (٢٧/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٧/ ٢٠٣).

(٣) فى جميع النسخ: ومشارقها. والمثبت من «التفسير» (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) ابن القيم، «التبيان فى أقسام القرآن» (١/ ٣٩٣).

وقوله: ﴿وإنَّهُ لقسمٌ لوْ تَعْلَمُونَ عظيم﴾ قال ابن كثير: أى: وإنَّ هذا القسم الذى أقسمتُ به لقسمٌ عظيم، لو تعلمون عظمتَه لعظَّمتم المقسِم به عليه(١).

وقوله: ﴿إنَّهُ لقُرآنٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسَمُ عليه، وهو القرآن، أى: وإنَّه وحىُ الله وتنزيلُه وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحرٌ أو كهانة، أو شعر. بل هو قرآنٌ كريم: أى: عظيمٌ كثير الخير، لأنه كلامُ الله.

قال ابنُ القيِّم: فوصفه بما يقتضى حُسنَه، وكثرة خيره ومنافعه وجلالته؛ فإنَّ الكريم هو البهىُّ الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شىءٍ أحسنَه وأفضله.

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم. ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثُرَ خيرهُ وحسُن منظرُه من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلفُ، الكريم: بالحسَن؛ قال الأزهرى: الكريم اسمٌ جامع لما يُحمد، والله تعالى كريمٌ جميل الفِعال. وإنه لقرآن كريمٌ يُحمد؛ لما فيه من الهُدى والبيان والعلم والحكمة(٢).

وقوله: ﴿فى كتابٍ مكنُونٍ﴾ أى: معظَّم، فى كتابٍ معظَّم محفوظ موقَّر. قاله ابنُ كثير(٣).

وقال ابنُ القيِّم: اختلف المفسرُّون فى هذا، فقيل: هو اللَّوحُ المحفوظ. ولاصحيحُ أنَّ الكتابُ الذى بأيدى الملائكة، وهو المذكور فى قوله: ﴿فى صُحُف مُكرَّمَة * مَرْفُوعَةٍ مُطهَّرةٍ * بأيدى سفرةٍ * كِرامٍ بَررَةٍ﴾. [عبس: ١٣ - ١٦].

ويدلُّ على أنَّه الكتابُ الذى بأيدى الملائكة؛ قولُه: ﴿لا يَمَسُّهُ إلا المُطهَّرُون﴾ فهذا يدلُّ على أنه بأيديهم يمسُّونه(٤).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١).

(٢) ابن القيم، «التبيان فى أقسام القرآن» (١/ ٤٠٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١).

(٤) ابن القيم «التبيان فى أقسام القرآن» (١/ ٤٠٢).

قوله: ﴿لا يمسُّه إلا المُطهرون﴾ قال/ ابنُ عباس: ﴿لا يمسُّهُ إلا المطهرون﴾ [١١٥/أ] قال: الكتابُ الذى فى السماء. وفى رواية ﴿لا يمسَّه إلا المطهرون﴾ يعنى الملائكة[١].

وقال قتادة: لا يمسُّه عند الله إلا المطهرون. فأمَّا فى الدنيا: فإنه يمسه المجوسىُّ النجس والمنافقُ الرجس[٢]. واختار هذا القول كثيرون. منهم ابن القيِّم، ورجَّحه.

وقال ابنُ زيد[٣]: زعمت قريشُ أنَّ هذا القرآن تنزَّلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنَّه لا يمسه إلا المطهرون؛ كما قال تعالى: ﴿وما تَنَزَّلَتْ به الشياطينُ * وما يَنْبَغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾. [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

قال ابنُ كثير: هذا قولٌ جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله[٤]. وقال البخارىُّ فى (صحيحه)[٥] ـ فى هذه الآية ـ لا يجد طعمَه إلا من آمن به.

قال ابنُ القيِّم: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يتلذذ به، وبقراءته، وفهمه، وتدبره، إلا من يشهد أنه كلامُ الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً. لا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه منه حرج، بوجه من الوجوه[٦].

وقال آخرون: ﴿لا يَمَسُّهُ إلا المُطهَّرُون﴾ أى: من الجنابة والحَدَث. قالوا: ولفظُ الآية خبرٌ، ومعناه الطلب.

وقالوا: والمرادُ بالقرآن ها هنا المصحف؛ واحتجوا على ذلك بما رواه مالك فى (الموطأ)، عن عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: إنَّ فى الكتاب الذى كتبه رسولُ الله ﷺ لعمرو بن حزم: «أنْ لا يمس القرآن إلا طاهر»[٧].

---

(١) أخرجه الطبرى فى «التفسير» (٢٧/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٧/ ٢٠٦).

(٣) أبو الشعثاء، جابر بن زيد الازدى البصرى، مشهور بكنيته، ثقةٌ فقيه (ت ١٩٣هـ) «تقريب» (١٣٦).

(٤) «تفسير» ابن كثير» (٨/ ٢٢).

(٥) هكذا فى جميع النسخ، ولم أجده فى مظانه منه، ونسبه ابنُ كثير فى «التفسير» (٨/ ٢٢) إلى الفراء.

(٦) ابن القيم، «التبيان» (١/ ٤١٠).

(٧) مالك فى «الموطأ» كتاب الصلاة باب الصلاة رقم (٣١٧) مرسلاً، وأخرجه من حديث ابن عمر، الطبرانى فى «الكبير» رقم (١٣٢١٧) و«الصغير» رقم (١١٦٢) والدارقطنى فى «السنن» (١/ ١٢١) قال ابن حجر فى «التلخيص الحبير» (١/ ١٣١): إسناده لا بأس به.

وقوله: ﴿تنزيلٌ من رب العالمين﴾ قال ابنُ كثير: أى: هذا القرآنُ منزَّلٌ من الله ربِّ العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو الحقُّ الذى لا مرية فيه، وليس وراءه حقٌّ نافع[1]. وفى هذه الآية: أنَّه كلام الله تكلَّم به.

قال ابن القيِّم: ونظيرُه ﴿ولكن حق القولُ منى﴾. [السجدة: ١٣] ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من ربِّكَ بِالحقِّ﴾. [النحل: ١٠٢] هو إثباتُ علو الله تعالى على خلقه؛ فإنَّ النزول والتنزيل الذى تعقله العقولُ، وتعرفه الفطر هو وصولُ الشيء من أعلى إلى أسفل. ولا يرد عليه قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم من الأنْعَامِ ثمانيةَ أَزْوَاجٍ﴾. [الزُّمر: ٦] لأنا نقول: إنَّ الذى أنزلها فوقَ سمواته، فأنزلها لنا بأمره.

قال ابنُ القيِّم: وذكر التنزيلَ مُضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لمُلْكه لهم وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأنَّ مَن هذا شأنُه مع الخلق، كيف يليق به مع ربوبيته/ التامة أن يتركهم سُدىً، ويدعهم هملاً، [١١٥/ب] ويخلقهم عبثاً. لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يُثيبهم ولا يُعاقبهم؟ فمن أقرَّ بأنه ربُّ العالمين، أقرَّ بأنَّ القرآن تنزيلُه على رسوله، واستدل بكونه ربَّ العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحَّة ما جاء به. وهذا الاستدلالُ أقوى وأشرفُ من الاستدلال بالمُعجزات والخوارق، وإنْ كانت دلالتها أقربَ إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العُقلاء[2].

قوله: ﴿أفبهذا الحديثِ أَنتُم مُدْهِنُونَ﴾ قال مجاهد: أى: تريدون أنْ تُمالئوهم فيه، وتركنوا إليهم[3].

قال ابنُ القيِّم: ثم وبَّخهم سبحانه على وضعهم الادهان فى غير موضعها، وأنهم يُداهنون فيما حقه أنْ يُصدع به ويُفرق به، ويُعضَّ عليه بالنواجذ، وتُثْنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوبُ والأفئدة، ويُحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفاتٌ إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمةٌ إلا به، ولا اهتداءٌ فى طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاءٌ إلا به.

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢).

(٢) ابن القيم، «التبيان فى أقسام القرآن» (١/ ٤١٢).

(٣) أخرجه ابنُ جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٧/ ٢٠٧).

فهو روحُ الوجود، وحياة العالم، ومدارُ السعادة، وفائدة، الفلاح، وطريقُ النجاة، وسبيلُ الرشاد، ونور البصائر.

فكيف تُطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداهنةُ إنما تكون في باطلٍ قوى لا تُمكن إزالتهُ، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهنُ إلى أن يترك بعضَ الحق ويلتزم بعض الباطل. فأمَّا الحقُ الذى قام به كلُّ حق، فكيف يُداهن به[1]؟

وقوله : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُم أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ﴾ تقدَّم الكلامُ عليها أول الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ابن القيم، «التبيان فى أقسام القرآن» (١/٤١٦).

(٣٠)
بـــاب
قول الله تعالى:
﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿ومِن النَّاسِ منْ يَتَّخِذُ من دُونِ الله أنْدَاداً يحبونهم كحُبِّ الله﴾. [البقرة: ١٦٥].

ش: لما كانت محبتُه سبحانه هى أصلُ دين الإِسلام الذى يدور عليه قطبُ رحاه، فبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص توحيدُ الإِنسان [نبَّه المصنفُ على ذلك بهذه الترجمة][١].

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ من يَتَّخِذُ من دُونِ الله أَنْداداً﴾. الآية. قال فى (شرح المنازل): أخبر تعالى أنَّ من أحبَ من دونَ الله شيئاً كما يُحب الله تعالى، فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً. فهذا ندٌّ فى المحبة، لا فى الخَلْق والربوبية؛ فإنَّ أحداً/ من أهل الأرض لا يُثبت هذا الند. بخلاف ند [١١٦/أ] المحبة، فإنَّ أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً فى الحب والتعظيم.

ثم قال تعالى: ﴿والذين آمَنُوا أشدُّ حبًا لله﴾ وفى تقدير الآية قولان:

أحدُهما: والذين آمنوا أشدُّ حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم، التى يُحبونها ويعظِّمونها من دون الله.

وروى ابنُ جرير، عن مُجاهد، فى قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله﴾: مُباهاةً ومضاهاةً للحق بالأنداد ﴿والذين آمَنُوا أشدُّ حُبّاً لله﴾ من الكفار لأوثانهم[٢].

---

(١) إضافة من (ط).

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٢٤٠٧، ٢٤٠٨).

ثم روى: عن ابن زيد، قال: هؤلاء المشركون أندادُهم آلهتهم التى عبدوا مع الله، يحبونهم كما يُحب الذين آمنوا الله، والذين آمنوا أشدُّ حباً لله من حُبهِم آلهتهم. انتهى[1].

والثانى: والذين آمنوا أشدُّ حباً لله، من المشركين بالأنداد لله؛ فإنَّ محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهُم بقسط منها، والمحبةُ الخالصة أشدُّ من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُم كحُبِّ الله﴾؛ فإنَّ فيها قولين أيضاً:

أحدُهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبةَ الله، ولكنها محبةٌ شرَّكوا فيها مع الله تعالى أندادهم. والثانى: أنَّ المعنى: يحبون أندادَهم كما يُحب المؤمنون الله، ثم بيَّن تعالى أنَّ محبة المؤمنين لله أشدُّ من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يُرجح القولَ الأول، ويقول: إنما ذُمُّوا بأنْ شرَّكوا بين الله وبين أندادهم فى المحبة، ولم يُخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسويةُ المذكورة فى قوله تعالى حكايةً عنهم، وهم فى النار، أنَّهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهى محضرةٌ معهم فى العذاب: ﴿تالله إن كُنَّا لَفِى ضلالٍ مُبينٍ * إذ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العالمين﴾. [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

ومعلومٌ أنهم لم يُسوّوهم برب العالمين فى الخلق والربوبية، وإنما سوّوهم به فى المحبة والتعظيم.

وهذا أيضاً هو العدلُ المذكور فى قوله تعالى: ﴿اَلحَمْدُ لله الذى خَلَقَ السموات والأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ثُمَّ الذين كفروا بِرَبِهم يَعْدِلُون﴾ . [الأنعام: ١].

أى: يعدلون به غيره فى العبادة، التى هى المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إن كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُم الله﴾. [آل عمران: ٣١]

[١١٦/ب] وهذه تُسمَّى آيةُ المِحنة. قال بعضُ / السلف: ادَّعى قومٌ محبة الله، فأنزل الله عز

(١) «المصدر السابق» رقم (٢٤١٠).

وجل آية المحنة ﴿قُلْ إن كُنْتُم تُحبُّون الله فاتَّبعُونى يُحْبِبْكُم الله﴾ إشارةً إلى دليل المحبة، وثمرتها وفائدتها. فدليلُها وعلامتها: اتباعُ الرسول ﷺ، وفائدتُها وثمرتها: محبةُ المُرسِل لكم، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة له حاصلة، ومحبتُه لكم مُنتقية.

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّها الذين آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ منكُم عن دينه فسوْف يأتِى الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحبُّونَهُ أَذلَّة على المؤمنين أعِزَّة على الكافِرِين يُجَاهِدُون فى سبيل الله ولا يَخافُون لَوْمَة لائمٍ﴾. [المائدة: ٥٤] وذكر لهم أربع علامات:

أحدُها: أنهم أذلةٌ على المؤمنين، قيل معناه: أرقَّاء رُحماء مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. فلما ضمَّن أذلةَ هذا المعنى عدَّاه بأدة على، قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده.

وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بيْنَهُم﴾[1]. [الفتح: ٢٩].

العلامةُ الثالثة: الجهادُ فى سبيل الله تعالى، بالنفس واليد واللسان والمال. وذلك يُحقِّق دعوى المحبة.

العلامةُ الرابعة: أنهم لا تأخذهم فى الله لومةُ لائم. وهذا علامةُ صحة المحبة. فكلُّ محبٍ أخذه اللومُ على محبوبه فليس بمحبٍّ على الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿أُولئكَ الذين يَدْعُون يَبْتَغُون إلى رَبِهِّم الوسيلةَ أَيُّهُم أقْرَبُ ويَرْجُون رحْمَتَهُ ويخافُون عذابَهُ﴾. [الإسراء: ٥٧]، فذكر المقامات الثلاثة: الحب. وهو ابتغاء القُرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاءُ والخوف يدلُّ على أنَّ ابتغاء الوسيلة أمرٌ زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنَّه لا يتنافس إلا فى قرب من يحب قربهَ، وحبُّ قربه تبعٌ لمحبة ذاته، بل محبةُ ذاته أوجبت محبةَ القرب منه.

وعند الجهمية والمعطِّلة: ما من ذلك كلِّه شىء؛ فإنه عندهم لا تقربُ ذاتهُ من

---

(١) هذه هى العلامةُ الثانية.

شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يُحَبُّ لذاته ولا يُحِب. فانكروا حياةَ القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرةَ العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضُربت قلوبُهم بالقسوة، وضُرب دونَهم ودون الله حجابٌ على معرفته ومحبته. فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته. فذكرهم أعظمُ آثامهم وأوزارهم، بل يُعاقبون من يذكره بأسمائه/ [١/١١٧] وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحقُّ بها وأهلُها.

وحسْبُ ذى البصيرة وحياة القلب، ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده. والله المُستعان[١].

وقال رحمه الله أيضاً: لا تُحدُّ المحبةُ بحدّ أوضح منها، فالحدودُ لا تزيدها إلا خفاءً.

فحدُّها وجودُها، ولا توصف المحبةُ بوصف أظهرَ من المحبة. وإنما يتكلَّم الناسُ فى أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدِها، وثمراتها، وأحكامها.

وأجمعُ ما قيل فى ذلك، ما ذكره أبو بكر الكتَّانى[٢] رحمه الله، عن الجُنَيد[٣]:

قال أبو بكر: جرت مسألةٌ فى المحبة بمكة ـ أعزها الله ـ فى أيام الموسم، فتكلم الشيوخُ فيها، وكان الجُنيد أصغرَهم سناً، فقالوا: هات ما عندك يا عراقى، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متصلٌ بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه. أحرق قلبَه نورُ هيبته، وصفا شِربُه من كأس مودَّته، وانكشف له الجبار[٤] من أستار غيبه. فإنْ تكلَّم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله: فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخُ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين!.

وذكر رحمه الله: أنَّ الأسباب الجالبة للمحبة عشرةٌ: أحدُها: قراءةُ القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، وما أُريد به.

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠ - ٢٣).

(٢) محمد بن على بن جعفر، زاهد مُتنسِّك. (ت ٣٢٢هـ) «تاريخ بغداد» (٣/ ٧٤).

(٣) أبو القاسم بن محمد بن الجنيد البغدادى، فقيه محدث زاهد، «وفيات الأعيان» (١/ ٣٧٣).

(٤) فى جميع النسخ: الحياء. والمثبت من «مدارج السالكين». وهى كلمة فيها نظر!!.

الثاني: التقرُّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوامُ ذِكره على كلِّ حال باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبُه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثارُ محابِّه على محابِّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعةُ القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدةُ برّه وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: ـ وهو أعجبُها ـ: انكسارُ القلب بين يديه.

الثامن: الخلوةُ وقت النزول الإلهي، وتلاوة كتابه ثم ختمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسةُ المحبين الصادقين، والتقاطُ أطايب كلماتهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحةُ الكلام، وعلمتَ أنَّ فيه مزيداً لحالك/ ومنفعةً لغيرك. [١١٧/ب]

العاشر: مباعدةُ كلِّ سببٍ يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المُحبّون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: ﴿قُلْ إنْ كان آباؤكم وأبناؤكُم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وتجارةٌ تَخْشَوْن كسادَها ومسَاكنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إليكُم من الله ورسولِه وجِهادٍ في سَبِيلِه فَتَرَبَّصُوا حتى يأتي الله بأَمْرِه والله لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِين﴾. [التوبة: ٢٤].

ش: أمر الله نبيَّه ﷺ أنْ يتوعَّد من أحبَّ أهلَه وماله وعشيرته، وتجارته ومسكنه، فآثرها أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال، التي يُحبُّها الله تعالى ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك.

قال العماد ابن كثير: أي: إنْ كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إليكُم من الله ورسُوله وجِهادٍ في سبيلِه فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ماذا يحلُّ بكم من عقابه. روى الإمَامُ

---

(١) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٣/ ٩، ١٦ - ١٨).

أحمد، وأبو داود ـ واللفظ له ـ من حديث أبى عبد الرحمن الخُراسانى(1)، عن عطاء الخراسانى، عن نافع، عن ابن عمر، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتهم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتُم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلا لا ينزعه حتى تُراجعوا دينكم»(2) (3).

فلا بُدَّ من إيثار ما أحبَّه الله من عبده وأراده، على ما يُحبه العبدُ ويُريده، فيجبُ ما يُحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويُوالى فيه ويُعادى فيه، ويُتابع رسولَه ﷺ؛ كما تقدَّم فى آية المحنة، ونظائرها.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناسِ أجمعين» أخرجاه(4).

ش: أى: البخارى، ومسلم. قوله: «لا يُؤمن أحدكم» أى: الإيمان الواجب، والمرادُ كماله، حتى يكون الرسولُ أحبَّ إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين. بل ولا يحصل هذا الكمالُ إلا بأن يكون الرسولُ أحبَّ إليه من نفسه؛ كما فى الحديث: أنَّ عمر قال: لأنت يا رسول الله أحبُّ إلىَّ من كلِّ شىء إلا نفسى، فقال: «والذى نفسى بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك» فقال له عمر: فإنك الآن أحبُّ إلىَّ من نفسى، فقال: «الآن يا عمر». رواه البخارى(5).

[118/أ] فمن قال: إنَّ المنفىَّ هوالكمال، فإنْ أراد الكمالَ الواجبَ/ الذى يُذمُّ تاركهُ ويعرَّض للعقوبة، فقد صَدَق. وإنْ أراد أنَّ المنفى الكمالُ المُستحب، فهذا لم يقع قطُّ فى كلام الله ورسوله ﷺ. قاله شيخُ الإسلام(6).

فمن ادَّعى محبةَ النبى ﷺ بدون متابعة، وتقديم قوله على قول غيره فقد

(1) إسحاق بن أُسيد الأنصارى، نزيل مصر، فيه ضعف «تقريب» (100).

(2) أحمد فى «المسند» (2/28، 42، 84) وأبو داود فى «السنن» رقم (3462)، قال ابن تيمية فى «إقامة الدليل» (45) وهذان إسنادان حسنان، أحدهما يشد الآخر ويقويه.

(3) «تفسير ابن كثير» (4/67).

(4) البخارى فى «الصحيح» رقم (15) ومسلم فى «الصحيح» رقم (44).

(5) البخارى فى «الصحيح» رقم (6632).

(6) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإسلام» (66).

كَذَب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ﴾. [النور: ٤٧].

فنفى الإِيمانَ عمن تولّى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كلّ مسلم يكون مُحباً بقدر ما معه من الإِسلام، وكل مسلم لابُدَّ أن يكون مؤمناً وإنْ لم يكن مؤمناً الإِيمان المطلق؛ لأن ذلك لا يحصل الا لخواص المؤمنين.

قال شيخُ الإِسلام: وعامةُ الناس إذا أسلموا بعد كفُر، أو ولِدوا على الإِسلام والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، فهم مسلمون ومعهم إِيمانٌ مُجْملَ. لكنَّ دخول حقيقةِ الإِيمان إلى قلوبهم يحصلُ شيئاً فشيئاً، إنْ أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثيرٌ من الناس لا يَصلون إلى اليقين، ولا إلى الجهاد. ولو شُكِّكوا لشكوا، ولو أُمروا بالجهاد لما جاهدوا؛ إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأُ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يُقدِّمونه على الاهل والمال. فهؤلاء إنْ عُرفوا من المحنة، وماتوا دخلوا الجنة، وإنْ ابتُلوا بمن يُدخل عليهم شبهاتٍ تُوجب ريبتَهم، فإنْ لم يُنعم الله عليهم بما يُزيل الريب، وإلا صاروا مُرتابينَ، وانتقلوا إلى نوعٍ من النفاق. انتهى[1].

وفي الحديث: أنَّ الأعمال من الإِيمان؛ لأن المحبة عملُ القلب.

وفيه: أنَّ محبة الرسول ﷺ واجبةٌ، تابعةٌ لمحبة الله لازمةٌ لها؛ فإنها محبةٌ لله ولِأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقصُ بنقصها. وكلٌّ من كان مُحباً لله فإنما يُحب في الله ولأجله، كما يُحبُّ الإِيمانَ والعملَ الصالح. وهذه المحبةُ ليس فيها شيءٌ من شوائب الشرك، كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوبٍ منه أو دفعِ مرهوب. وماكان فيها ذلك، فمحبةٌ مع الله؛ لما/ فيها من [١١٨/ب] التعلُّق على غيره، والرغبةِ إليه من دون الله.

فبهذا يحصلُ التمييز بين المحبة في الله ولأجله ـ التي هي من كمال التوحيد ـ وبين المحبة مع الله التي هي محبةُ الأنداد من دون الله؛ لما يتعلَّق بقلوب المُشركين من الإِلهية، التي لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له.

---

(١) ابن تيمية، «الكلام على حقيقة الإِسلام» (٢٨١).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما. وأنْ يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأنْ يكره أنْ يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أنْ يُقذف فى النار»[1].

وفى رواية: «لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان حتى» إلى آخره[2].

ش: قوله: (ولهما عنه). أى: البخارى، ومسلم، عن أنس.

قوله: «ثلاثٌ» أى: ثلاثُ خصال.

قوله: «من كنَّ فيه» أى: وجدت فيه تامة.

قوله: «وجد بهن حلاوةَ الإيمان» الحلاوةُ هنا: هى التى يُعبَّر عنها بالذوق؛ لما يحصل به من لذَّة القلب، ونعيمه وسروره وغذائه، وهو شىءٌ محسوس يجده أهلُ الإيمان فى قلوبهم.

قال السيوطىُّ فى (التوشيح): وجد حلاوةَ الإيمان. فيه: استعارةٌ تخييلية. شبَّه رغبة المؤمن فى الإيمان بشىءٍ حلو، وأثبت له لازمَ ذلك الشىء، وأضافه إليه.

وقال النووى: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذُ الطاعات وتحمُّل المشاق، وإيثارُ ذلك على أغراض الدنيا، ومحبةُ العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ[3].

قال يحيى بنُ معاذ[4]: حقيقةُ الحب فى الله: أنْ لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء.

قوله: «أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» يعنى بالسُّوى: ما يحبُّه الإنسانُ بطبعه، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فتكون: أحبَّ هنا على بابها.

---

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١، ٦٩٤١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٣).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٠٤١).

(٣) النووى، «المنهاج» (٢/١٣).

(٤) أبو زكريا الرازى،الواعظ الزاهد. (ت ٢٥٨هـ) «تاريخ بغداد» (١٤/٢٠٨).

[وقال الخطَّابى: والمراد بالمحبة هنا: حُبُّ الاختيار لا حب الطبع. كذا قال!][1].

وأمَّا المحبةُ الشركية ـ التى قد تقدَّم بيانُها ـ فقليلُها وكثيرها يُنافى محبةَ الله ورسوله. وفى بعض الأحاديث «أحبوا الله بكلِّ قلوبكم»[2].

فمن علامات محبة الله ورسوله: أنْ يُحبَّ ما يُحبه الله ويكره ما يكرهه الله، ويؤثَر مرضاته على ما سواه، ويسعى فى ما يُرضيه ما استطاع، [ويُبعد عمَّا حرَّمه ويكرهه أشد الكراهة]، ويُتابع رسولَهَ ويمتثل أمره ويترك نهيه؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرسُول فقد أطاع الله﴾. [النساء: ٨٠].

فمن آثر أمرَ غيره على أمره، وخالف ما نهى عنه، فذلك عَلَمٌ على عدم محبة الله ورسوله؛ فإنَّ محبة الرسول من لوازم محبة الله. فمن أحبَّ الله وأطاعه أحب الرسولَ وأطاعه، ومن لا فلا؛ كما فى آية المحنة ونظائرها، والله المُستعان.

قال شيخُ الإسلام: أخبر النبىُّ ﷺ أنَّ هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان/ ؛ لأن وجود الحلاوة للشىء يتبع المحبة له. فمن أحبَّ شيئاً واشتهاه، إذا [١١٩/أ] حصل له مرادُه، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذةُ أمرٌ يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب والمشتهى.

قال: فحلاوةُ الإيمان المتضمِّنة للَّذة والفرح، تتبع كمال محبة العبد لله. وذلك بثلاثة أمور: تكميلِ هذه المحبة، وتفريغها، ودفع ضدها. فتكميلُها: أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما؛ [فإنَّ محبة الله ورسوله لا يُكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أنْ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما][3].

قلتُ: ومحبةُ الله تعالى تستلزمُ محبةَ طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولابد.

ومن لوازم محبة الله أيضا: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين

---

(١) ساقط من الأصل.

(٢) قطعةٌ من حديث مُرسل، أخرجه البيهقى فى «الدلائل» (٢/ ٥٢٥) وذكره ابن اسحاق كما فى «السيرة» لابن هشام (١٤٦/٢) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

(٣) ما بينهما ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر. ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٢٠٥/١٠).

من عباده. فمحبةُ ما يحبه الله، ومن يُحبه الله من كمال الإِيمان؛ كما في حديث ابن عباس الآتي:

قال: وتفريغها: أنْ يُحب المرءَ لا يُحبه إلا لله، قال: ودفع ضدها: أنْ يكره ضدَّ الإِيمان، كما يكره أنْ يُقذف في النار. انتهى(١).

قوله: «أحبَّ إليه مما سواهما» فيه جمع ضمير الرب سبحانه وتعالى وضمير رسوله ﷺ، وفيه قولان.

أحدُهما: أنه ثنَّى الضمير هنا، إيماءً إلى أنَّ المُعتبر هو المجموع المركَّب من المحبَّتين. لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية. وأمر بالإِفراد في حديث الخطيب(٢)، إشعاراً بأنَّ كلَّ واحد من العصيانين مستقلٌّ باستلزام الغواية؛ إذ العطفُ في تقدير التكرير، والأصلُ استقلال كلٍّ من المعطوفين في الحكم.

الثاني: حملُ حديث الخطيب على الأدب والأولى، وهذا على الجواز.

وجوابٌ ثالث: وهو أنَّ هذا ورد على الأصل، وحديثُ الخطيب ناقلٌ فيكون أرجح.

قوله: «كما يكره أنْ يُقذف في النار» أي: يستوي عنده الأمران. وفيه: ردٌّ على الغُلاة الذين يتوهَّمون أنَّ صدور الذنب من العبد نقصٌ في حقه مُطلقاً، وإنْ تاب منه.

والصوابُ: أنه إنْ لم يتب كان نقصاً، وإنْ تاب فلا؛ ولهذا كان المهاجرون [١١٩/ب] والأنصار أفضلَ هذه الأمة، مع كونهم في الأصل كفاراً، فهداهم الله إلى/ الإِسلام. والإِسلامُ يمحو ما قبله وكذلك الهجرة، كما صح الحديثُ بذلك(٣).

قوله: وفي رواية «لا يجد أحدٌ» هذه الرواية أخرجها البخاريُّ في الأدب من (صحيحه). ولفظُه «لا يجد أحدٌ حلاوةَ الإِيمان حتى يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وحتى أنْ يُقذف في النار أحبُّ إليه من أنْ يرجع إلى الكفر بعد إذ

---

(١) ابن تيمية، «المصدر السابق» (١٠/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٨٧٠).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٥١) وقال ورجالهما ثقات. والبيهقي في «السنن» (٩/١٢٣) «والدلائل» (٤/ ٣٤٣) من حديث عمرو بن العاص.

أنقذه الله منه، وحتى أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما».

وقد تقدَّم أنَّ المحبة هنا: عبارةٌ عما يجده المؤمنُ من اللذة والبهجة والسرور، والإجلال والهيبة، ولوازم ذلك، قال الشاعر:

أهـابـك إجلالا. وما بِـكِ قـدرةٌ   عليَّ، ولكن ملءُ عينٍ حبيبُهـا[1]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: من أحب فى الله، وأبغض فى الله، ووالى فى الله، وعادى فى الله، فإنما تُنال ولاَيةُ الله بذلك. ولن يجدَ عبدٌ طعم الإيمان وإنْ كثُرت صلاتُه وصومه، حتى يكون كذلك. وقد صارت عامَّةُ مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يُجدى على أهله شيئاً. رواه ابنُ جرير[2].

ش: وأخرج ابنُ أبى شيبة، وابن أبى حاتم، الجملةَ الأولى منه فقط[3].

قوله: (من أحب فى الله) أى: أحبَّ أهلَ الإيمان بالله وطاعته؛ من أجل ذلك.

قوله: (وأبغض فى الله): أى: أبغض من كفر بالله وأشرك به، وفَسَقَ عن طاعته؛ لأجل ما فعلوه مما يُسخط الله، وإنْ كانوا أقربَ الناس إليه، كما قال تعالى: **﴿لا تَجِدُ قوْماً يُؤمِنُون بالله واليَوْمِ الآخرِ يُوادُّون من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أو عشيرتهم﴾**. الآية. [المُجادَلة: ٢٢].

قوله: (ووالى فى الله) هذا والذى قبله، من لوازم محبةِ العبد لله تعالى. فمن أحبَّ الله أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهلَ معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره. وكلما قويت محبةُ العبد لله فى قلبه قويت هذه الأعمالُ المرتبةِ عليها، وبكمالها يكملُ توحيدُ العبد، ويكون ضَعْفُها على قدر ضَعفِ محبة العبدِ لربه؛ فمقلٌّ، ومستكثر، ومحروم!.

قوله: (فإنما/ تُنال وَلايةُ الله بذلـك) أى: تولِّيه لعبـده. ووَلاية: بفتـح الواو [١٢٠/أ] لا غير، أى: الأخوة والمحبة والنُّصرة، وبالكسر الإمارة، والمرادُ هنا الأول.

---

(١) من كلام مجنون ليلى «الديوان» (٧١).

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتابه «الاخوان» رقم (٢٢) وابن المبارك فى «كتاب الزهد» رقم (٣٥٣).

(٣) ابن أبى شيبة فى «المسند» وابن أبى حاتم فى «التفسير»، كما فى «الدر المنثور» (٨/٨٧).

ولأحمد، والطبراني، عن النبي ﷺ قال: «لا يجدُ العبد صريحَ الإيمان حتى يُحبَّ لله ويبغض لله. فإذا أحبَّ لله وأبغض لله، فقد استحق الوَلاية لله»[1].

وفي حديث آخر «أوثقُ عُرى الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله عز وجل». رواه الطبراني[2].

قوله: (ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان) إلى آخره. أي: لا يحصل له ذوقُ الإيمان ولذتُه وسروره وإنْ كثُرت صلاتهُ وصومه، حتى يكون كذلك، أي: حتى يُحبَّ في الله، ويبغض في الله، ويعادى في الله، ويوالى في الله.

وفي حديث أبي أمامة، مرفوعاً «من أحبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان». رواه أبو داود[3].

قوله: (وقد صارت عامةُ مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يُجدى على أهله شيئاً) أي: لا ينفعهُم بل يضرهم؛ كما قال تعالى: ﴿الأَخِلاءُ يومئذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلا المُتَّقِين﴾. [الزخرف: ٦٧].

فإذا كانت البلوى قد عمَّت بهذا في زمن ابن عباس في خير القرون، فما زاد الأمرُ بعد ذلك إلا شدة. حتى وقعت الموالاةُ: على الشرك، والبدع، والفسوق، والعصيان. وقد وقع ما أخبر به ﷺ، بقوله: «بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»[4].

وقد كان الصحابةُ رضي الله عنهم في عهد نبيهم ﷺ، وعهد أبي بكر وعمر [يؤثر بعضُهم بعضاً على نفسه، محبةً في الله وتقرباً إليه][5]؛ كما قال تعالى: ﴿ويُؤثِرُونَ على أَنفُسِهِم ولَوْ كانَ بِهِم خصاصَةٌ﴾. [الحشر: ٩].

---

(١) أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٠) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٩) وقال: وفيه رشدين، وهو ضعيف. كلاهما من حديث عمرو بن الجموح وعمرو بن الحَمِق.

(٢) الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٧٢) و«الصغير» رقم (٦٢٤)، وانظر بقية التخريج في كتاب «أوثق عُرى الإيمان» للعلامة سليمان بن عبد الله (٢٧).

(٣) أبو داود في «السنن» رقم (٤٦٨١).

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (١٤٥) من حديث أبي هريرة.

(٥) ما بينهما ساقطٌ من الأصل.

وعن ابن عمر، قال: لقد رأيتُنا على عهد رسول الله ﷺ، وما منا أحدٌ يرى أنه أحقٌّ بديناره ودرهمه من أخيه المُسلم. رواه ابنُ ماجة[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال ابنُ عباس، في قوله تعالى: ﴿وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسْبَابُ﴾. [البقرة: ١٦٦] قال: المودَّة.

ش: هذا الأثَرُ رواه عبدُ بن حُميد، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكمُ وصححه[2].

قوله: (قال: المودَّة)، أي: التي/ كانت في الدنيا، خانتهم أحوجَ ما كانوا [١٢٠/ب] إليها، وتبرأ بعضُهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وقال إنَّما اتَّخَذْتُم من دُون الله أوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُم في الحياة الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ويَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ومأواكُم النَّارُ وما لَكُم مِن ناصِرِين﴾. [العنكبوت: ٢٥].

قال العلامةُ ابنُ القيِّم ـ في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورَأَوا العذاب وتقطَّعت بهم الأسباب﴾. [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهُدى، وأتباعُهم ادَّعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم وهو مخالفون لهم سالكون غيرَ طريقهم. ويزعمون أنَّ محبتهم لهم تنفعُهم مع مخالفتهم، فيتبرؤون منهم يوم القيامة؛ فإنَّهم اتخذوهم أولياء من دون الله.

وهذا حالُ كلِّ من اتخذ من دون الله وليجةً وأولياء، يوالي لهم ويُعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم. فإنَّ أعماله كلَّها باطلة، يراها يوم القيامة حسراتٍ عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصَبه؛ إذ لم يجرِّد موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإيثارهَ لله ورسوله. فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كلَّه، وقطع تلك الأسباب.

---

(١) لم أجده في المطبوعة من السنن، وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٨٤) والطبراني في «الكبير» رقم (١٣٥٨٣، ١٣٥٨٥) (١/ ٣١٣، ٣/ ٣١٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٥): رواه الطبراني بأسانيد، وبعضُها حسن.

(٢) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٢٤٢٣)، كما في «الدر المنثور» (١/ ٤٠٢).

فينقطعُ يوم القيامة كلُّ سببٍ ووصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السببُ الواصل بين العبد وربه. وهو خطُّه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريدِه عبادتِه وحدَه ولوازمِها: من الحبِّ والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريدِ متابعة رسوله ﷺ تجريداً محضاً، بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره، فضلا عن تقديم قولِ غيره عليه.

فهذا السببُ هو الذى لا ينقطع بصاحبه، وهذه هى النسبةُ التى بين العبد وبين ربه، وهى نسبة العبودية [المحضة][1]. وهى أخيتُه التى يجول ما يجول وإليها مرجعُه، ولا تتحقق إلا بتجريدِ متابعة الرُّسلِ صلواتُ الله وسلامه عليهم؛ إذ هذه العبودية إنَّما جاءت على ألسنتهم، وما عُرِفت إلا بهم، ولا سبيلَ إليها إلا بمتابعتهم/. [١٢١/أ]

وقد قال تعالى: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا من عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾. [الفرقان: ٢٣]. فهذه هى الأعمالُ التى كانت فى الدنيا على غير سنة رُسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثوراً، لا ينتفع منها صاحبُها بشىءٍ أصلاً. وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة، أنْ يرى سعيه ضائعاً، وقد سعد أهلُ السعى النافع بسعيهم. انتهى مُلخصاً[2].

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ابن القيم، «التبوكية» (٥٧).

(٣١)

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿إنَّما ذلكُم الشيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلياءه فلا تخافُوهُم وخَافُونِ إنْ كُنتُم مُؤمنين﴾. [آل عمران: ١٧٥].

ش: الخوفُ من أفضل مقامات الدِّين [وأجلِّها][١]، وأجمع أنواع العبادة التى يجب إخلاصُها لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿يَخافُون ربَّهُم من فَوْقِهِم﴾. [النحل: ٢٨] وقال: ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتَان﴾. [الرحمن: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وهُم مِن خَشْيَته مُشفقون﴾. [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وإيَّاى فارْهَبُون﴾][٢]. [البقرة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فلا تَخْشَوا النَّاسَ واخْشَوْنِ﴾. [المائدة: ٤٤]، وأمثالُ هذه الآيات فى القرآن كثير.

والخوفُ من حيث هو، ثلاثةُ أقسام:

أحدُها: خوفُ السر، وهو أنْ يخاف من غير الله، من وثن أو طاغوت أنْ يُصيبه بما يكره؛ كما قال تعالى عن قوم هود، إنهم قالوا له: ﴿إن نَقُولُ إلا اعْتراك بَعْضُ آلهتنا بسُوء قال إنى أُشْهِدُ الله واشْهَدُوا أنِّى بَرِىءٌ مما تُشْرِكُون * من دُونه فكيدُونى جميعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُون﴾. [هود: ٥٤ - ٥٥] وقال تعالى: ﴿ويُخَوِّفُونَكَ بالَّذين من دُونه﴾. [الزُّمَر: ٣٦] وهذا هو الواقع من عُبَّاد القبور ونحوها من

---

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ليست فى الأصل.

الأوثان، يخافونها ويخوِّفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا يُنافى التوحيد.

الثاني: أنْ يترك الإنسانُ ما يجب عليه، خوفاً من بعض الناس. فهذا مُحرَّمٌ، وهو نوعٌ من الشرك بالله المُنافى لكمال التوحيد، وهذا هو سببُ نزول هذه الآية، كما قال تعالى: ﴿الذين قال لهم النَّاسُ إن النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُم فَزَادَهُمْ إيماناً وقَالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيلُ * فانْقَلَبُوا بنعْمَة من الله وفَضْل لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوَان الله والله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إنّمَا ذَلكُم الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءه فلا تخافُوهُم وخافُونِ إن كُنْتُم مُؤْمنين﴾. [آل عمران: ١٧٣ : ١٧٥].

وفى الحديث «إن الله تعالى يقولُ للعبد يومَ القيامة: ما منعك إذْ رأيتَ المُنْكَرَ أنْ لا تُغيِّره؟ فيقول: ربِّ خشيتُ الناس. فيقول: إياى كُنتَ أحقُّ أن تخشى»[1].

[١٢١/ب] الثالث: الخوفُ الطبيعى، وهو الخوف من عدو أو سبُع/ أو غير ذلك، فهذا لا يُذمّ؛ كما قال تعالى فى قصة موسى عليه السلام: ﴿فخرج مِنْها خَائفاً يَترقَّبْ﴾. [القصص: ٢١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إنَّما ذَلكُم الشيْطانُ يُخَوِّفُ أولياءه﴾ أى: يُخوِّفكم أولياءه ﴿فلا تخافُوهُم وخافُون إنْ كنتم مؤمنين﴾ وهذا نهىٌ من الله تعالى للمؤمنين أنْ يخافوا غيره، وأمرٌ لهم أن يقصروا خوفَهم على الله تعالى، فلا يخافون إلا إياه.

وهذا هو الإِخلاصُ الذى أمر الله به عباده، ورضيه منهم. فإذا أخلصوا له الخوفَ، وجميعَ العبادة: أعطاهم ما يرجون، وأمّنهم من مخاوف الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْس الله بِكَافٍ عَبْدَهُ ويُخوِّفُونَك بالذين من دُونِه ومن يُضلل الله فما له من هاد﴾. [الزُّمر: ٣٦].

قال العلامةُ ابنُ القيِّم: ومن كيد عدو الله: أنْ يخوِّفَ المؤمنينَ من جُنده وأوليائهم؛ لئلا يُجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن مُنْكَر. وأخبر تعالى أنَّ هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أنْ نخافَه.

---

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/ ٢٧، ٢٩، ٧٧) والحُميدى فى «المسند» رقم (٧٣٩) وابن حبان فى «الصحيح» (٩/ ٢٣٠) وأبو نُعيم فى «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٨٧) من حديث أبى سعيد.

قال: والمعنى عند جميع المُفسِّرين: يخوِّفكم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم فى صدوركم. فكلَّما قوى إيمانُ العبد زال من قلبه خوفُ أولياء الشيطان، وكلَّما ضعف إيمانه قوى خوفُه منهم. فدلَّت هذه الآيةُ على أنَّ إخلاص الخوف من شروط كمال الإيمان[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿إنَّما يَعْمُرُ مَساجدَ الله مَن آمن بالله واليَوْم الآخرِ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولَمْ يَخْش إلا الله فعسى أُوْلئك أنْ يكونُوا من المهْتَدين﴾. [التوبة: ١٨].

ش: أخبر تعالى أنَّ مساجد الله لا يعمرها إلا أهلُ الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشيةَ دون من سواه.

فأثبت لهم عمارةَ المساجد بعد أنْ نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشركُ وإنْ عمل فعمله: ﴿كَسرَاب بقيعة يحسبهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾. [النور: ٣٩] أو ﴿كرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بهِ الرِّيحُ فى يَوْمٍ عَاصفٍ﴾. [ابراهيم: ١٨] وما كان كذلك فالعدمُ خيرٌ منه. فلا تكون المساجدُ عامرةً إلا بالإيمان الذى مُعظمه التوحيد، مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع. وذلك كلُّه داخلٌ فى مسمَّى الإيمان المطلق، عند أهل السنة والجماعة.

قوله:/ ﴿ولَمْ يَخْش إلا الله﴾ قال ابنُ عطية: يُريد خشيةَ التعظيم والعبادة [١٢٢/أ] والطاعة، ولا محالة أنَّ الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية. وينبغى أنْ يخشى فى ذلك كلِّه قضاءَ الله وتصريفه[2].

قال ابنُ القيِّم رحمه الله تعالى: الخوفُ عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء، وغيرها من عبودية القلب[3].

قوله: ﴿فعسى أُوْلَئك أَنْ يَكُونُوا مِن المهتدين﴾ قال ابنُ أبى طلحة، عن ابن

---

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣٠).

(٢) ابن عطية «المحرر الوجيز» (٨/١٤٨).

(٣) ينظر ابن القيم، «طريق الهجرتين» (٣٦٢).

عباس رضى الله عنهما: يقول: إنَّ أولئك هم المُهتدون؛ وكلُّ ﴿عسى﴾ فى القرآن فهى واجبة[1].

وفى الحديث «إذا رأيتم الرجلَ يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله من آمن بالله واليَوْمِ الآخِرِ﴾. رواه أحمد، والترمذى، والحاكم[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بالله فإذا أُوذِيَ فى الله جعل فِتْنَةَ النَّاسِ كعذاب الله﴾. [الآية العنكبوت: ١٠].

ش: قال ابنُ كثير: يقول تعالى مُخبراً عن صفات قومٍ من المُكذّبين الذى يدَّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت فى قلوبهم: إنهم إذا جاءتهم محنةٌ وفتنة فى الدنيا، اعتقدوا أنَّها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابنُ عباس: يعنى: فتْنَتَه، أنْ يرتدَّ عن دينه إذا أُوذى فى الله[3].

وقال ابنُ القيِّم: الناسُ إذا أُرسل إليهم الرسلُ بين أمرين: إمَّا أنْ يقول أحدُهم: آمنا. وإمَّا أنْ لا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر. فمن قال: آمنا، امتحنه ربُّه وابتلاه وفَتَنه. والفتنةُ: الابتلاءُ والاختبار، ليتبين الصادقُ من الكاذب. ومن لم يقل: آمنا. فلا يحسب أنه يُعجزُ الله ويفوته ويسبقه.

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتُلى بما يؤلمه. ومن لم يؤمن بهم ولم يُطعهم، عُوقب فى الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظمَ وأدوم من ألم أتباعهم.

فلابد من حصول الألم لكل نفسٍ آمنت، أو رغبت عن الإيمان. لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبةُ فى الدنيا والآخرة.

والمعرضُ عن الإيمان تحصل له اللذةُ ابتداءً، ثم يصير فى الألم الدائم.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «التفسير» رقم (١٦٥٥٥).

(٢) أحمد فى «المسند» (٣/ ٦٨، ٧٦) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٩٣) وقال: هذا حديثٌ حسن، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٢١٢، ٢/ ٣٣٢).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٧٥).

والإنسانُ لابد أنْ يعيش مع الناس، والناسُ لهم إراداتٌ وتصورات. فيطلبون منه أنْ يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذَّبوه، وإنْ وافقهم حصل له العذاب/ تارةً منهم وتارة من غيرهم. [[١٢٢/ب]]

كمن عنده دِينٌ وتُقى حلَّ بين قومٍ فُجّار ظلمة، ولا يتمكّنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم. فإنْ وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرِّهم في الابتداء، ثم يتسلَّطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداءً لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلِم منهم فلابد أنْ يُهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزمُ كل الحزم في الأخذ بما قالت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونةَ الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئا»[(١)].

فمن هداه الله وألهمه رُشده، ووقاه شرَّ نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكونُ له العاقبةُ في الدنيا والآخرة؛ كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر عن حال الداخلِ في الإيمان بلا بصيرة، وأنَّه إذا أُوذي في الله جعل فتنةَ الناس له، وهي أذاهُم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألَم الذي لابد أنْ ينال الرسلَ وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك ـ في فراره منه وتركه السببَ الذي يناله به ـ كعذاب الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم، فرُّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحمَّلوا ما فيه من الألم الزائل المُفارقِ عن قُرب.

وهذا من ضعف بصيرته، فرَّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم. ففرَّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألَم فتنة الناس ـ في الفرار منه ـ بمنزلة عذاب الله. وغُبن كل الغبن؛ إذ استجار من الرَّمْضاء بالنار، وفر من ألم

(١) أخرجه موقوفاً: الترمذي في «الجامع» (٧/ ١٣٣)، وأحمد في «الزهد» وأبو داود في «الزهد» رقم (٣٢٢)، والبيهقي في «الزهد» رقم (٨٨٦)، والقاضي وكيع في «الأخبار» (١/ ٣٨) بإسناد صحيح، عن عائشة.

ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جُنده وأولياءه، قال: إنى كنتُ معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدرُه من النفاق. انتهى[1].

وفى الآية: ردٌّ على المُرجئة والكَرَّامية، ووجهه: أنَّه لم ينفع هؤلاء قولُهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم فى الله، فلا ينفع القولُ والتصديق بدون العمل، فلا يصدق الإيمانُ الشرعى على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وهذا قولُ أهل السنة والجماعة، سلفاً وخلفاً. والله سبحانه أعلم.

[١٢٣/أ] [2]وفيه: الخوفُ من مداهنة/ الخلق، والمعصومُ من عصمه الله[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن أبي سَعيد مرفوعاً: «إنَّ من ضَعف اليقين: أنْ تُرضى الناسَ بسخط الله، وأنْ تحمَدهم على رزق الله، وأنْ تَذُمَّهم على ما لم يؤتك الله، إنَّ رزقَ الله لا يُجرُّه حرصُ حريص، ولا يرده كراهية كاره».

ش: هذا الحديثُ رواه أبو نُعيم فى (الحلية)، والبيهقى[3]. وأعلَّه بمحمد بن مروان السُّدى، وقال ضعيف[4]. وفى إسناده أيضاً: عطيةُ العوفى، ذكره الذهبىُّ فى (الضعفاء)[5]. وموسى بن بلال، قال الأزدى: ساقط[6].

وتمامُ الحديث: «وإنَّ الله بحكمته جعل الروحَ والفرح فى الرضى واليقين، وجعل الهمَّ والحزن فى الشك والسخط».

[7]والحديثُ وإنْ كان فى إسناده مَن ذُكر، فمعناه صحيح[7].

قوله: «إنَّ من ضعف اليقين» [الضعف: يُضمُّ ويحرك، ضد القوة، ضعُف ككرم ونصر، ضعفاً، وضعفة، ضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضُعفاء وضَعفة وضَعْفى وضعافى.

---

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٨٩).

(٢) ما بينهما ساقط من (ط).

(٣) أبو نعيم فى «الحلية» (٥/ ١٠٦، ١٠/ ٤١) والبيهقى فى «شعب الإيمان» رقم (٢٠٣).

(٤) قال ابن حجر فى «التقريب»، (٦٠٥٦): متهم بالكذب، من الثامنة.

(٥) الذهبى «المغنى» (٢/ ٤٣٦) وقال فى «التقريب» (٣٩٣): صدوق يخطىء كثيراً، وكان شيعياً مدلسًا.

(٦) وينظر: الذهبى، «ميزان الاعتدال» (٤/ ٢٠١).

(٧) ما بينهما ساقط من (ض) و(هـ) و(ط).

أو الضَّعف ـ بالفتح ـ في الرأى، وبالضم في البدن، فهى ضعيفة وضعوف][(١)]. واليقين: المرادُ به الإيمان كله؛ كما قال ابنُ مسعود: اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان. رواه الطبرانى بسند صحيح، [وأبو نعيم فى (الحلية)، والبيهقى فى (الزهد) من حديثه مرفوعا[(٢)].

قال[(٣)]: ويدخل فى ذلك تحقيقُ الإيمان بالقَدَر السابق؛ كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً «فإنْ استطعت أنْ تعمل بالرضى فى اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإنَّ فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»[(٤)] وفى رواية: قلت: يا رسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: «أن تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»[(٥)]][(٦)].

قوله: «أنْ تُرضى الناس بسخط الله» أى: تؤثر رضاهم على رضى الله، بأنْ توافقهم على ترك ما أمر الله به، وفعلِ ما نهى عنه؛ استجلاباً لرضاهم.

وهذا يُنافى قوَّةَ اليقين، وكمال الإيمان فى إيثار ما يُرضى الله على ما تهواه النفوس، والصبر على مخالفة هواها؛ كما قال تعالى: ﴿**الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا**﴾. [الأحزاب: ٣٩].

[وذلك إذا لم يقُم بقَلْبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته، ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخطَ خالقه وربه ومليكه، الذى يترصفُ فى القلوب ويفرِّج الكروب، ويغفر الذنوب.

وبهذا الاعتبار يدخل فى نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله. ولا يسلم من هذا إلا من سلَّمه الله، ووفَّقه

---

(١) فى الأصل: قال فى المصباح: الضعف بفتح الضاد، لغة تميم. وبضمها، لغة قريش. خلاف القوة والصحة.

(٢) الطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٥٤٤) وأبو نعيم فى «الحلية» (٥/ ٣٤) والبيهقى فى «الزهد» (١/ ٢٨)، قال ابن حجر فى «الفتح» (١/ ٤٨) أثر وصله الطبرانى بسند صحيح، ولا يثبت رفعه.

(٣) أى صاحب «تيسير العزيز الحميد» (٤٩).

(٤) أخرجه أبو نُعيم فى «الحلية» (١/ ٣١٤) والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٥٤١).

(٥) أخرجه الآجرى فى «الشريعة» (١٩٨) قال ابنُ رجب فى «الجامع» (١٨٤): إسنادُه ضعيف.

(٦) ما بينهما إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

لمعرفته، ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما يُنافى كماله، معرفةِ توحيده فى ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق][1].

قوله: وأنْ تحمَدهم على رزق الله» أى: على ما وصل إليك على أيديهم، بأنْ تضيفَه إليهم وتحمدهم عليه؛ فإنَّ المتفضل فى الحقيقة هو الله وحده، الذى قدَّره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمراً قيَّض له أسباباً.

ولا يُنافى هذا حديثَ «من لا يشكر الناسَ لا يشكر الله»[2]؛ لأن شكرهم إنَّما هو فى الدعاء لهم، لكون الله ساقه على أيديهم، فتدعو لهم أو تكافئهم؛ لحديث «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإنْ لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[3] فإضافةُ الصَّنيعةِ إليهم لكونهم صاروا سبباً فى إيصال المعروف إليك، والذى قدَّره وساقه هو الله وحده.

[١٢٣/ب] قوله:/ «وأنْ تذمَّهم على ما لم يؤتك الله» لأنَّه لم يقدَّر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قُدِّر لك لساقته المقاديرُ إليك. فمن عَلِم أنَّ المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنَّه الذى يرزق العبدَ بسببٍ وبلا سبب، ومن حيثِ لا يحتسب، لم يمدح مخلوقاً على رزق، ولم يذمّه على منع، ويفوِّض أمرَه إلى الله، ويعتمد عليه فى أمور دينه ودنياه.

وقد قرَّر هذا المعنى بقوله فى الحديث «إنَّ رزق الله لا يجرُّه حرصُ حريص، ولا يرده كراهيةُ كاره»؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ من رَحْمَةَ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لَهُ من بَعْدِه وهو العزيز الحكيمُ﴾. [فاطر: ٢].

قال شيخُ الإسلام: اليقينُ يتضمَّن اليقينَ فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهلَ طاعته، ويتضمَّن اليقينَ بقَدَر الله وخلْقه وتدبيره. فإذا أرضيتَهم بسخط الله لم

(١) إضافةٌ من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) أخرجه أبو داود فى «السنن» (٤٨١١)، والترمذى فى «الجامع» رقم (١٩٥٤) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح، من حديث أبى هريرة.

(٣) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٦٧٢، ٥١٠٩) والنسائى فى «المجتبى» (٥/ ٨٢) وأحمد فى «المسند» (٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧) من حديث ابن عمر.

تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسانَ على ذلك: أمَّا ميلٌ إلى ما في أيدى الناس، فيترك القيامَ فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم. وإمَّا ضعفُ تصديقه بما وعد الله أهل طاعته، من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة. فإنك إذا أرضيتَ الله، نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم.

وإرضاؤهم بما يَسخَطُه إنما يكون خوفاً منهم ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يُقدَّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمرُ فى ذلك إلى الله لا لهم؛ فإنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يُقدَّر كان ذلك من ضعف يقينك.

فلا تَخَفْهم ولا ترجهم، ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك. ولكن من حَمِدَهُ الله ورسوله فهو المحمود، ومن ذمَّه الله ورسوله منهم فهو المذموم.

ولما قال بعضُ وفد بنى تميم: أى محمد، أعطنى! فإنَّ حَمْدى زيْن، وذمِّى شيْن، قال ﷺ: «ذاك الله»[1] انتهى[2].

ودلَّ الحديثُ على أنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأنَّ الأعمال من مسمَّى الإيمان.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عائشة رضى الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سَخِطَ الله عليه وأسخط عليه/ الناس» رواه ابنُ حبان فى (صحيحه)[3]. [١٢٤/أ]

ش: هذا الحديثُ: رواه ابنُ حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذىُّ عن رجلٍ من أهل المدينة، قال: كتب معاويةُ، إلى عائشة: أنْ اكتُبى لى كتاباً تُوصينى فيه، ولا تُكثرى علىَّ، فكتبت عائشةُ إلى معاوية: سلامٌ عليك، أمَّا بعد: فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونةَ الناس،

---

(١) أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/ ٤٨٨، (٦/ ٣٩٣، ٣٩٤) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٧٨) من حديث الأقرع بن حابس.

(٢) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (١/ ٥١).

(٣) ابن حبان فى «الصحيح» (١/ ٢٤٧).

ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس» والسلام عليكم. ورواه أبو نُعيم[1].

قوله: «من التمس»: أى: طلب.

قال شيخُ الإسلام: وكتبت عائشةُ إلى معاوية، وروى أنَّها رفعته: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع.

ولفظُ الموقوف: من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناسَ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامدُه من الناس له ذامًّا.

وهذا من أعظم الفقه فى الدين؛ فإنَّ من أرضى الله بسخطهم كان قد اتَّقاه، وكان عبْدَه الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كافٍ عبده ﴿وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * ويَرْزُقْهُ من حَيْثُ لا يَحْتَسِب﴾. [الطلاق: ٢ - ٣] والله يكفيه مؤونةَ الناس بلا ريب!.

وأمَّا كونُ الناس كلِّهم يرضون عنه، فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سَلِموا من الأغراض، وإذا تبيَّن لهم العاقبة. «ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئاً» كالظالم الذى يَعضُّ على يديه.

وأمَّا كون حامدِه ينقلب ذاماً، فهذا يقع كثيراً، ويحصل فى العاقبة. فإنَّ العاقبة للتقوى، لا تحصل ابتداءً عند أهوائهم. انتهى[2].

وقد أحسن من قال:

إذا صحَّ منك الودُّ ياغاية المُنى فكلُّ الذى فوق التراب تُراب[3]

قال ابنُ رجب: فمن تحقق أنَّ كل مخلوقٍ فوق التراب فهو تراب، فكيف

---

(١) أخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٤١٦)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٨/ ١٨٨).

(٢) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (١/ ٥٢).

(٣) من كلام أبى فِراس الحمْدانى. نقله ابنُ القيِّم فى «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠١، ٣/ ١٧٨).

يقدِّم طاعةَ من هو تراب على طاعةَ رب الأرباب؟ أم كيف يُرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟ إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب(١).

وفى الحديث: عقوبةُ من خاف الناس/ وآثر رضاهم على الله، وأنَّ العقوبة قد [١٢٤/ب] تكون فى الدين. عياذاً بالله من ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِم إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٨].

---

(١) ابن رجب، «نور الاقتباس» (٨٩).

(٣٢)

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: **﴿وعَلَى الله فتوَكَّلُوا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين﴾**. [المائدة: ٢٣].

ش: قال أبو السعادات: يقال: توكَّل بالأمر: إذا ضمن القيامَ به، ووكَّلتُ أمرى إلى فُلان: إذا اعتمدتُ عليه، ووكَّل فلانٌ فلاناً: إذا استكفاه أمرَه ثقةً بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه. انتهى[1].

وأراد المصنفُ بهذه الترجمة بالآية: بيانَ أنَّ التوكل فريضةٌ يجب إخلاصُه لله تعالى؛ فإنَّ تقديم المعمول يُفيد الحصر، أى: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها، لما ينشأُ عنه من الأعمال الصالحة. فإنَّه إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كلِّ من سواه، صح إخلاصُه ومعاملته مع الله تعالى.

فهو من أعظم منازل **﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نستَعينُ﴾** فلا يحصل كمالُ التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله؛ كما فى هذه الآية، وكما قال تعالى: **﴿إن كُنْتُم آمَنْتُم بالله فَعَلَيْه تَوَكَّلُوا إنْ كُنْتُم مُسْلمين﴾**. [يونس: ٨٤] وقوله: **﴿ربُّ المشرقِ والمغْربِ لا إله إلاَّ هُو فاتخذْهُ وكيلاً﴾**. [المزمل: ٩] والآياتُ فى الأمر به كثيرةٌ جَداً.

قال الإمامُ أحمد: التوكلُ عملُ القلب[2].

---

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٥/ ٢٢١).

(٢) نقله ابن القيم فى «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤). و«طريق الهجرتين» (٣٢٩).

وقال ابنُ القيِّم في معنى الآية المُترجم بها: فجعل التوكلَ على الله شرطاً في الإيمان، فدلَّ على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى: **﴿قال موسى يا قَوْمِ إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُم بالله فعلَيْه توكَّلُوا إنْ كُنْتُم مُسلمين﴾**. [يونس: ٨٤] فجعل دليلَ صحةِ الإسلام التوكل، وكلَّما قوى توكُّلُ العبد كان إيمانهُ أقوى، وإذا ضعُف الإيمانُ ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولابد. والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أنَّ التوكل أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأنَّ منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس؛ فكما لا يقوم الرأسُ إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمانُ ومقاماته/ وأعمالُه إلا على ساق التوكل[1]. [١٢٥/أ]

قال شيخُ الإسلام: وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنُّه فيه؛ فإنَّه مُشرك: **﴿ومَنْ يُشرِكْ بالله فكأنما خرَّ من السماء، فتخْطَفُهُ الطَّيْرُ أو تَهْوى به الرِّيحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾**. [الحج: ٣١].

قال الشارحُ: قلتُ: لكنَّ التوكُّلَ على [غير][2] الله قسمان:

أحدُهما: التوكلُ في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذي يتوكَّلُ على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم: من نصرٍ أو حفظ أو رزق أو شفاعة، فهذا شركٌ أكبر.

الثاني: التوكُّلُ في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكَّلُ على أميرٍ أو سُلطان فيما أقدره الله تعالى عليه: من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوعُ شركٍ أصغر.

والوكالةُ الجائزة: هي توكيلُ الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابةً عنه، لكن ليس له أنْ يعتمد عليه في حصول ما وكَّله عليه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبهُ بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلُها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبِّب الذي أوجد السبب والمُسبَّب[3].

---

(١) ابن القيم «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٣٢٧ - ٣٣٠).

(٢) ساقطٌ من جميع النسخ، والإضافة من «الشرح».

(٣) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (٤٩٧).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿إنَّما المُؤمنُون الذين إذا ذُكِر الله وجِلَتْ قُلُوبُهُم وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آياتُهُ زادَتْهُم إيماناً وعَلى رَبِهِّم يتوَكَّلُونَ﴾. [الأنفال: ٢].

ش: قال ابنُ عباس في الآية: المنافقون، لا يدخل في قلوبهم شيءٌ من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يُؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكَّلونَ على الله، ولا يُصلُّون إذا غابوا، ولا يؤدُّون زكاة أموالهم. فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين، فقال: ﴿إنَّما المؤمنُون الذين إذا ذُكِر الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُم﴾ فأدَّوا فرائضه. رواه ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم(١).

ووَجَلُ القلب من الله يستلزمُ القيامَ بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

قال السُّدِّي: ﴿الذين إذا ذُكرَ الله وَجلَتْ قُلُوبُهُم﴾. هو الرجلُ يُريد أنْ يظلم، أو قال: يَهِمّ بمعصية، فيقَال لهَ: اتق اللهَ، فيجلُ قلبُه. رواه ابنُ أبي شيبة، وابن جرير(٢).

قوله: ﴿وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آياتُهُ زَادَتهُم إيماناً﴾ استدلَّ الصحابةُ والتابعون ومن تبعهم من أهل السُّنة، بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونُقصانه.

قال عُمير بن حبيب، الصحابي: إنَّ الإيمان يزيدُ وينقص. فقيل له: وما زيادتُه ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه،/ فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا [١٢٥/ب] وضيَّعنا، فذلك نقصانه. رواه ابنُ سعد(٣).

وقال مُجاهد: الإيمانُ يزيد وينقُص، وهو قولٌ وعمل. رواه ابنُ أبي حاتم(٤).

---

(١) ابنُ جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٥٦٨٤). وابن أبي حاتم في التفسير كما في «الدر المنثور» (٤/ ١١)، وأخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٦٠٢).

(٢) ابن أبي شيبة كما في «الدر المنثور» (٤/ ١٢) وابن جرير في «التفسير» رقم (١٥٦٩٠).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (٦٢٤) وابن أبي شيبة في «الإيمان» رقم (١٤) وابن بطه الحنبلي في «الإبانة» رقم (١١٣١) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٧٢١) والبيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٥٥).

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (٦١١) والآجري في «الشريعة» (١١١) وابن بطة الحنبلي في «الإبانة» رقم (١١٦٧) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٧٢٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٥٩).

وحكى الإجماعَ على ذلك الشافعيُّ، وأحمدُ، وأبو عبيد، وغيرُهم[1].

وقوله: ﴿وعَلَى رَبِهِّم يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوِّضين إليه أمورهم. فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرفُ فى المُلْك وحده، والمعبودُ وحده لا شريك له.

وفى الآية: وصفُ المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإِحسان، وهى: الخوفُ، وزيادةُ الإِيمان، والتوكلُ على الله وحده. وهذه المقامات تقتضى كمالَ الإِيمان، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة. مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها، وأدَّى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العملَ بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَلاَة تنهى عن الفحْشَاءِ والمُنْكَرِ ولَذكْرُ الله أكبر﴾. [العنكبوت: ٤٥].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿يا أَيُّهَا النبىُّ حَسْبُكَ الله ومن اتَّبعَكَ مِن المؤمِنين﴾. [الأنفال: ٦٤].

ش: قال ابنُ القيِّم: أى: الله وحده كافيك وكافى أتباعَك، فلا تحتاجون معه إلى أحد. وهذا اختيارُ شيخ الإِسلام ابن تيمية.

وقيل: المعنى: حسْبُك الله، وحسْبك المؤمنون.

قال ابن القيِّم: وهذا خطأ محض، لا يجوز حملُ الآية عليه؛ فإنَّ الحسْب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة، قال تعالى: ﴿وإِنْ يُرِيدُوا أن يخدعوك فإنَّ حَسْبَكَ الله هُو الذى أيَّدَك بِنَصْرِهِ وبالمؤمِنين﴾. [الأنفال: ٦٢].

ففرَّق بين الحسْب والتأييد، فجعل الحسْبَ له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناسُ إنَّ النَّاس قد جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إيمَاناً وقالوا حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيلُ﴾. [آل عمران: ١٧٣] ولم يقولوا: حَسْبنا الله ورسولُه.

---

(١) أخرجه ابن بطه الحنبلى فى «الإبانة» رقم (١١٤٦) اللالكائى فى «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٥٩٢) وينظر «شرح السنة» للبغوى (١/ ٣٨) وكتاب «الإيمان» لابن تيمية (١٢٣) وما بعدها.

ونظيرُ هذا قوله سبحانه: ﴿وقالوا حَسْبُنا الله سَيؤتينا الله من فَضْلِه ورَسُولُه إنَّا إلى الله رَاغِبُون﴾. [التوبة: ٥٩].

فتأمَّل كيف جعل الإيتاء لله والرسول، وجعل الحسبَ له وحده، فلم يقل:/ [١٢٦/أ] حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالصَ حقِّهِ؛ كما قال: ﴿إنَّا إلى الله رَاغِبُونَ﴾ فجعل الرغبةَ إليه وحده، كما قال: ﴿وإلى ربِّك فارْغَبْ﴾. [الشرح: ٨] فالرغبةُ والتوكل والإنابة والحسْبُ لله وحده؛ كما أنَّ العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سُبحانه وتعالى. انتهى[١].

وبهذا يتبيَّنُ مطابقةُ الآية للترجمة؛ فإذا كان هو الكافى لعبده، وجب ألا يتوكل إلا عليه. ومتى التفت بقلبه إلى سواه، وُكِل إلى من التفت إليه؛ كما فى الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكل إليه»[٢].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: ﴿وَمَنْ يتوكَّل على الله فهو حَسْبُهُ﴾. [الطلاق: ٣].

ش: قال ابنُ القيِّم: أى: كافيه. ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضرُّه إلا أذىً لابُدَّ منه، كالحر والبرد والجوع والعطش. وأمَّا أنْ يضره بما يبلغ به مُراده، فلا يكون أبداً. وفرقٌ بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء، وفى الحقيقة إحسانٌ وإضرارٌ بنفسه، وبين الضرِّ الذى يتشفىً به منه.

قال بعضُ السلف: جعل الله لكل عملٍ جزاءً من نفسه، وجعل جزاءَ التوكل عليه نفسَ كفايته، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ علَى الله فهو حَسْبُهُ﴾ ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال فى الأعمال. بل جعل نفسَه سبحانه كافى عبده المتوكِّل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبدُ على الله حقَّ توكله، وكادته السمواتُ والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجاً، كفاه ونصره. انتهى[٣].

وفى أثرٍ رواه أحمد فى (الزهد)، عن وهب بن مُنبِّه، قال الله عزَّ وجل فى بعض كُتبه: بعزتى، إنَّه من اعتصم بى فكادته السمواتُ بمن فيهن والأرضون بمن

(١) ابن القيم «زاد المعاد» (١/ ٣٥ - ٣٧) وانظر ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٩٣، ١٠/ ١٥٤).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) ابن القيم «تفسير سورة الفلق/ التفسير القيم» (٥٨٧).

فيهن، فإنى أجعلُ له من ذلك مخرجاً. ومن لم يعتصم بى، فإنى أقطعُ يديه من أسباب السماء، وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعلُه فى الهواء، ثم أكلُه إلى نفسه. كفى بى لعبدى مآلاً، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أنْ يسألنى، وأستجيب له قبل أنْ يدعونى، فأنا أعلم بحاجته التى ترفق به منه[1].

وفى الآية: دليلٌ على فضل التوكل، وأنه أعظمُ الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار؛ لأنَّ الله علَّق الجملَة الأخيرة على الأولى تعليقَ الجزاءِ على الشرط، فيمتنع أنْ يكون وجودُ الشرط كعدمه، لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعُلم أنَّ توكله هو/ سببُ كون الله حسْباً له. [١٢٦/ب]

وفيه: تنبيهٌ على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال: ﴿واتَّقُوا الله وعلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنُونَ﴾. [المائدة: ١١]، فجعل التوكل مع التقوى، الذى هو قيامٌ بالأسباب المأمورِ بها. فالتوكلُ بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجزٌ محض، وإنْ كان مشوباً بنوعٍ من التوكل.

فلا ينبغى للعبد أنْ يجعل توكلَه عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكلَه من جملة الأسباب التى لا يتم المقصودُ إلا بها كلها. ذكره ابنُ القيِّم بمعناه[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، قال: حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيمُ ﷺ حين أُلقى فى النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إنَّ النَّاس قَدْ جَمَعوا لكُم فاخْشَوْهُم فزادَهُم إيماناً وقالُوا حَسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل﴾. [آل عمران: ١٧٣] رواه البخارى[3].

ش: قوله: (حَسْبُنَا الله)، أى: كافينا، فلا نتوكل إلا عليه؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. [الزُّمر: ٣٦].

قوله: (ونِعْمَ الوكيلُ): أى: نِعْم الموكول إليه؛ كما قال تعالى: ﴿واعْتَصِمُوا بالله هُوَ مولاَكُم فنِعْمَ المولَى ونِعْمَ النَّصِيرُ﴾. [الحج: ٧٨] ومخصوصُ نِعم، محذوفٌ تقديره: هو.

---

(١) أخرجه الديلمى فى «مسند الفردوس» رقم (٤٩٦).

(٢) ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٨).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٥٦٣، ٤٥٦٤).

قال ابنُ القيِّم: هو حسبُ من توكَّل عليه وكافى من لجأ إليه، وهو الذى يؤمِّن خوف الخائف، ويجير المستجير. فمن تولاه واستنصر به وتوكَّل عليه، وانقطع بكُلِّيته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه، أمَّنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع(١).

قوله: (قالها إبراهيمُ ﷺ حين أُلقى فى النار). قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وانصُرُوا آلِهَتَكُم إنْ كُنْتُم فَاعِلينَ * قُلْنا يانَارُ كُونى بَرْداً وسَلاماً على إبْراهِيم * وأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجعلْنَاهُم الأَخْسرِين﴾. [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

قوله: وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إنَّ النَّاس قَدْ جَمَعُوا لكُم فاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إيمَاناً وقَالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيلُ﴾.

وذلك بعد مُنصرف قريش والأحزاب من أُحد: بلغه أنَّ أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكَرَّة عليهم، فخرج النبىُّ ﷺ فى سبعين راكباً حتى انتهى إلى حَمراء الأسد(٢)، فالقى الله الرُّعب فى قلب أبى سفيان. فرجع إلى مكة بمن معه، ومر به ركبٌ من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نُريد المدينة. قال: فهل أنتمُ مبلِّغون محمداً عنى/ رسالة؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنَّا قد [١٢٧/أ] جمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيَتَهم. فمر الرَّكبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذى قال أبو سفيان. فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»(٣).

ففى هاتين القصتين: فضلُ هذه الكلمة العظيمة، وأنها قولُ الخليلين عليهما السلام، فى الشدائد.

وجاء فى الحديث «إذا وقعتم فى الأمر العظيم، فقولوا: حسبُنا الله ونعم الوكيل»(٤).

---

(١) ينظر: ابن القيم «طريق الهجرتين» (٣٣١).

(٢) موضعٌ على ثمانية أميال من المدينة «مُعجم البلدان» لياقوت الحموى (٢/٣٠١).

(٣) أخرجه الطبرى فى «التفسير» رقم (٨٢٤٣) فى سياق طويل، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

(٤) أخرجه ابن مردويه فى «التفسير» كما فى «تفسير ابن كثير» (٢/١٤٨) وقال: هذا حديثٌ غريب من هذا الوجه.

(٣٣)
بــاب
قول الله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكــر الله إلا القــوم الخـاســرون﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: **﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلا القَوْمُ الخاسرون﴾**. [الأعراف: ٩٩].

ش: قصد المصنفُ رحمه الله تعالى بهذه الآية: التنبيهَ على أنَّ الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه يُنافى كمال التوحيد، كما أنَّ القنوط من رحمة الله كذلك. وذلك يُرشد إلى أنَّ المؤمن يسيرُ إلى الله بين الخوف والرجاء؛ كما دلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنة، وأرشد إليه السلف والأئمة.

ومعنى الآية: أنَّ الله تبارك وتعالى لَمَّا ذكر حالَ أهل القُرى المُكذِّبين للرسل، بيَّن أنَّ الذى حملهم على ذلك، هو الأمنُ من مكر الله، وعدمُ الخوف منه؛ كما قال تعالى: **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُم بأْسُنَا بَيَاتاً وَهُم نَائِمُون * أو أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنا ضُحىً وهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكرَ الله فلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلا القوْمُ الخَاسِرُون﴾**. [الأعراف: ٩٦ - ٩٨] أى: الهالكون.

وذلك أنَّهم أمنوا مكر الله؛ لما استدرجهم بالسراء والنَّعيم، فاستبعدوا أنْ يكون ذلك مكراً.

قال الحسن: من وسَّع الله عليه، فلم ير أنَّه يمكر به، فلا رأى له!.

وقال قتادة: بَغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سَلْوتهم وغرَّتهم ونعمتهم. فلا تغتروا بالله[1].

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٥).

وفى الحديث: «إذا رأيت الله يُعطى العبد من الدنيا وهو مُقيمٌ على معاصيه ما يُحبّ، فإنما هو استدراج». رواه أحمد، وابن جرير، وابن أبى حاتم(١).

وقال إسماعيلُ بن رافع(٢): من الأمن من مكر الله: إقامةُ العبد على الذنب، يتمنَّى على الله المغفرة. رواه ابنُ أبى حاتم(٣).

وهذا هو تفسيرُ المكر فى قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويُملى لهم، ثم يأخذهم أخذَ عزيز مُقتدر. وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك. ذكره ابنُ جرير بمعناه(٤).

[١٢٧/ب] قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه:/ ﴿ومَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ ربِّه إلا الضالُّون﴾. [الحجر: ٥٦].

ش: [القنوط: استبعادُ الفرج، واليأسُ منه. وهو يقابلُ الأمنَ من مكر الله، وكلاهما ذنبٌ عظيم](٥). وتقدم ما فيه؛ لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنفُ رحمه الله، هذه الآية مع التى قبلها؛ تنبيهاً على أنَّه لا يجوز لمن خاف الله أنْ يقنط من رحمته، بل يكون خائفاً راجياً، يخاف ذنوبهَ، ويعمل بطاعة الله، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء الليل ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخرَةَ ويَرْجُو رَحْمَةَ ربِّه﴾. [الزمر: ٩] وقال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمَنُوا والذين هاجَرُوا وجَاهَدُوا فى سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. [البقرة: ٢١٨].

فالرجاءُ مع المعصية وتركِ الطاعة غرورٌ من الشيطان؛ ليوقع العبدَ فى المخاوف مع ترك الأسباب المُنجية من المهالك. بخلاف حال أهلِ الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله، وهرباً من عقابه، وطمعاً فى المغفرة، والرجاء لثوابه.

---

(١) أحمد فى «المسند» (٤/ ١٤٥) وفى «الزهد» (١٢) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٣٢٤٠، ١٣٢٤١) وابن أبى حاتم فى «التفسير» وهو حديثٌ حسن، كما قال العراقى فى «تخريج الأحياء» (٤/ ١٣٢).

(٢) أبو رافع بن عُويمر الأنصارى المدنى، ضعيف الحفظ. (ت ١٥٠ هـ) «تقريب» (١٠٧).

(٣) ابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٥٠٧).

(٤) «تفسير الطبرى» (١٢/ ٥٧٩).

(٥) ساقطٌ من الأصل.

والمعنى: أنَّ الله تعالى حكى قولَ خليله إبراهيم عليه السلام، لَمَّا بشَّرَته الملائكةُ بابنه إسحاق: ﴿قال أبشرتموني على أنْ مسَّنى الكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُون﴾. [الحجر: ٥٤]؛ لأن العادة أنَّ الرجل إذا كَبِرُ سنّهُ وسنُ زوجته، استَبعد أنْ يولد له منها. والله على كل شيءٍ قدير، فقالت الملائكة: ﴿بشرناك بالحقِّ﴾ الذى لا ريب فيه؛ فإنَّ الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كُن فيكون ﴿فلا تَكُن من القانطين﴾ أى: من الآيسين، فقال عليه السلام: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ من رحْمَةِ ربه إلا الضالُّون﴾ فإنه يعلم من قدرة الله وحكمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم؛ لَكنَه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجُّب.

قوله: ﴿إلا الضالُّون﴾ قال بعضُهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون؛ كقوله: ﴿إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ الله إلا القَوْمُ الكافِرُون﴾. [يوسف: ٨٧].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ سُئِل عن الكبائر؟ فقال: «الشركُ بالله، واليأسُ من رَوْحِ الله، والأمنُ من مكْرِ الله».

ش: هذا الحديثُ رواه البزَّار، وابن أبى حاتم[١]، من طريق شَبيب بن بشر[٢]، عن عكرمة، عن ابن عباس. ورجالُه ثقاتٌ، إلا شبيب بن بشر. فقال ابنُ معين: ثقة. وليَّنه أبو حاتم[٣]. وقال ابنُ كثير: فى إسناده نظر، والأشبهُ أنْ يكون موقوفاً[٤].

قوله: «الشركُ بالله»/ هو أكبرُ الكبائر. قال ابنُ القيِّم رحمه الله: الشرك بالله [١٢٨/أ] هضمٌ للربوبية، وتنقُّص للإلهية، وسوءُ ظن برب العالمين. انتهى.

ولقد صدق ونصح؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ الذين كفرُوا بِربِهم يَعْدِلُون﴾. [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿إنَّ الشرك لظُلْمٌ عظيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

---

(١) البزار فى «المسند» رقم (١٠٦)، وابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (١٤٧/٢) وقال: إسنادهُ حسن.

(٢) أبو بشر البَجَلى الكوفى، صدوق يخطىء. «تقريب» (٢٦٣).

(٣) ينظر: ابن حجر، «تهذيب التهذيب» (٣٠٦/٤).

(٤) ابن كثير، «التفسير» (٢٤٣/٢).

قوله: «واليأسُ من رَوْح الله» أي: قطعُ الرجاء والأمل من الله، فيما يخافُه ويرجوه؛ وذلك إساءةُ ظنّ بالله، وجهلٌ به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «والأمنُ من مكر الله» أي: من استدراجه للعبد، وسلبه ما أعطاه من الإيمانَ، نعوذُ بالله من ذلك. وذلك جهلٌ بالله وبقدرته، وثقةٌ بالنفس وعُجب بها.

واعلم أنّ هذا الحديث لم يُرد به حَصْر الكبائر في الثلاث، بل الكبائرُ كثيرة. وهذه الثلاثُ من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسُّنّة، وضابطها:

ماقاله المحققون من العلماء: كلُّ ذنب ختمه الله بنارٍ أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخُ الإِسلام ابن تيمية: أو نفيِ الإِيمان[1].

قلتُ: ومن برىء منه رسولُ الله ﷺ، أو قال: ليس منّا من فعل كذا وكذا.

وعن ابن عباس: هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غيرَ أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار[2].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن مسعود، قال: أكبرُ الكبائر: الإِشراكُ بالله، والأمنُ من مكرِ الله والقنوط من رحمة الله، واليأسُ من رَوْح الله. رواه عبدُ الرزاق[3].

ش: ورواه ابنُ جرير، بأسانيد صِحاح، عن ابن مسعود[4]

قوله: (أكبر الكبائر: الإِشراكُ بالله). أي: في ربوبيته أو عبادته. وهذا بالإِجماع.

قوله: (والقنوطُ من رحمة الله). قال أبو السعادات: هو أشدُّ اليأس[5].

وفيه: التنبيهُ على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله.

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٥٢).

(٢) أخرجه اللالكائى فى «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٩١٩).

(٣) عبد الرزاق فى «المصنف» (١٠/ ٤٥٩).

(٤) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٩١٩٠، ٩١٩٣، ٩١٩٦).

(٥) ابن الأثير، . «النهاية» (٤/ ١١٣).

وكان السلفُ يستحبُّون أنْ يقوى فى الصحة الخوفُ، وفى المرض الرجاء، وهذه طريقةُ أبى سُليمان الدّارانى[1] وغيرُه.

قال: وينبغى للقلب أنْ يكون الغالبُ عليه الخوف، فإذا غلب الرجاءُ الخوف فسد القلب[2].

قال تعالى: ﴿إنَّ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهُم بالغَيْب لهم مَغْفرَةٌ وأجْرٌ كَبيرٌ﴾. [الملك: ١٢] وقال: ﴿يخافون يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ والأبْصَارُ﴾. [النور: ٣٧] وقال: ﴿والذين يُؤْتُون/ ما آتوا وقُلُوبُهُم وجِلَةٌ أنَّهُم إلى ربِّهِم راجعُون * أُولئك [١٢٨/ب] يُسارعُون فى الخَيْرات وهم لها سابقُون﴾. [المؤمنون: ٦٠ - ٦١] وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يَحذَرُ الآخرَة ويَرْجُو رَحْمةَ ربِّه﴾. [الآية الزُمر: ٩] وقدَّم الحذَر على الرجاء فى هذه الآية.

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدّارانى العنسى، من كبار الصوفية. قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى «الاستقامة» (٢/ ٩٥): من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن أتبعهم للشريعة. (ت ٢١٥هـ) «تاريخ بغداد» (١٠/ ٢٤٨).

(٢) سليمان بن عبد الله، «تيسير العزيز الحميد» (٥١١).

(٣٤)

بـــاب

من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الإيمان بالله: الصبرُ على أقدار الله.

ش: قال الإمامُ أحمد رحمه الله: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه[١]. وفي الحديث الصحيح «الصبرُ ضياء». رواه أحمدُ، ومُسلم[٢].

وللبخاري، ومسلم، مرفوعاً «ما أُعْطِي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»[٣].

وقال عُمر: وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر. رواه البخاري[٤].

قال علي: إنَّ الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد. ثم رفع صوته، فقال: ألا إنَّه لا إيمان لمن لا صبر له[٥].

واشتقاقُه: من صَبَر: إذا حَبس ومنع. والصبرُ حبس النفس عن الجزع، وحبسُ اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشقِّ الجيوب، ونحوهما. ذكره ابنُ القيِّم[٦].

واعلم أنَّ الصبر ثلاثةُ أقسام: صبرٌ على ما أمر الله به، وصبرٌ عمَّا نهى عنه، وصبرٌ على ما قدَّره الله من المصائب.

---

(١) نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢).

(٢) أحمد في «المسند» (٥/ ٣٤٣و ٣٤٤) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٣) البخاري في «الصحيح» رقم (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد.

(٤) البخاري في «الصحيح» تعليقا (١١/ ٣٠٣) ووصله أحمد في كتاب «الزهد» (٢/ ٢٧) بسند صحيح كما قال ابنُ حجر في «الفتح» (١١/ ٣٠٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب الإيمان» رقم (١٣٠) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٥٦٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» رقم (١٠).

(٦) ابن القيم «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ والله بِكُلِ شىء عَلِيمٌ﴾. [التغابن: ١١].

ش: وأوَّلُ الآية: ﴿ما أَصَابَ من مُصيبة إلا بإِذْنِ الله﴾ [قال ابنُ عباس: بأمر الله. يعنى عن قَدَره ومشيئته.][١] [٢] أى: بمشيئته وإرادته وحكمته؛ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ما أَصابَ من مُصيبةٍ فى الأرْضِ ولا فى أَنْفُسِكُم إلا فى كتابٍ من قَبْلِ أنْ نَبْرَأَها إنَّ ذلك على الله يَسير﴾. [الحديد: ٢٢] وقال: ﴿وبَشِّرِ الصابرينَ * الذين إذا أَصَابَتْهُم مُصيبَةٌ قَالُوا إنَّا لله وإنَّا إليْه رَاجِعُونَ * أُولَئِك عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ من رَبِهِّم ورَحْمَةٌ وأُولَئِكَ هُمْ المُهْتَدُون﴾. [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قوله: ﴿وَمَنْ يُؤمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى: مَن أصابته مصيبةٌ فعلم أنها بقضاء الله وقَدَره[٣] فصبر واحتسب، جازاه الله بهدايته قلبه التى هى أصلُ كلِّ سعادة، وخير فى الدنيا والآخرة وقد يخلفُ الله عليه فى الدنيا ما كان أخذه، أو خيراً منه[٤].

قوله: ﴿والله بِكُلِ شىء عَلِيمٌ﴾ تنبيهٌ على أنَّ ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمِّن لحكمته. وذلك يوجب الصبرَ والرضا.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال عَلْقمةُ: هو الرجلُ تُصيبه المصيبةُ فيعلمُ أنَّها من عند الله، فيرضى ويُسلِّم./ [١٢٩/أ]

ش: هذا الأثر، رواه ابنُ جرير، وابن أبى حاتم[٥].

وعلقمة: هو ابنُ قيس بن عبد الله النخعى الكوفى. وُلد فى حياة النبى ﷺ، وسمع من أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وسعد، وابن مسعود، وعائشة، وغيرهم وهو من كبار التابعين، وعلمائهم وثقاتهم. مات بعد الستين[٦].

---

(١) ما بينهما معلَّق فى هامش الأصل، وعليه كلمة صح، وفى (ض) و(هـ) و(ط) أُقحم فى غير موضعه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٣).

(٣) (هـ) (ط): بقدر الله.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٣).

(٥) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٨/ ١٢٣) وابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٣).

(٦) ابن حجر، «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٧٦).

قوله: (هو الرجلُ تُصيبه المصيبة). إلى آخره. هذا الأثرُ رواه الأعمشُ، عن أبي ظبيان، قال: كُنَّا عند علقمة، فقُرِىء عليه هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤمن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فقال: هو الرجل تُصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. هذا سياقُ ابن جرير.

وفي هذا دليلٌ: على أنَّ الأعمال من مُسمَّى الإيمان.

قال سعيدُ بن جُبير ﴿وَمَنْ يُؤمن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني يسترجع، يقول: إنَّا لله وإنا إليه راجعون[1].

وفي الآية: بيانُ أنَّ الصبر سببٌ لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابر.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي (صحيح مسلم)، عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هُما بهم كفرٌ: الطعنُ في النَّسَب، والنِّياحةُ على الميت»[2].

ش: أي: هما بالناس كفرٌ؛ حيث كانتا من أعمال الجاهلية. وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلَّمه الله، ورزقه علماً وإيماناً يستضيء به.

لكن ليس من قام به شعبةٌ من شُعب الكفر، يصير كافراً الكفر المطلق. كما أنَّه ليس من قام به شُعبة من شعب الإيمان، يصير مؤمناً الإيمان المطلق.

وفرقٌ بين الكفر المعرَّف باللام؛ كما في قوله: «ليس بين العبد وبين الكُفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»[3] وبين كُفرٍ مُنكَّرٍ في الإثبات[4].

قوله: «الطعن في النسب» أي: عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان، مع ثبوت نسبه شرعاً.

قوله: «والنياحةُ على الميت» أي: رفعُ الصوت بالندب، وتعداد فضائله؛ لما فيه من التَّسخط على القدر، المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضُده، واناصِراه، ونحوِ ذلك.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٦٤).

(٢) مسلم في «الصحيح» رقم (٦٧).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٨٢) من حديث جابر.

(٤) ابن تيمية، (اقتضاء الصراط المستقيم) (١/٢٠٨).

وفيه: دليلٌ على أنَّ الصبر واجب، وأنَّ من الكفر ما لا ينقُل عن الملة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولهما عن ابن مسعود، مرفوعاً: «ليس منَّا من ضرب الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعْوى الجاهلية»[1].

ش: هذا من نصوص الوعيد. وقد جاء عن سفيان الثورى، وأحمد: كراهة تأويلها؛ ليكون أوقع فى النفوس، وأبلغ فى الزجر، وهو يدلُّ على أنَّ ذلك يُنافى كمال الإيمان الواجب.

قوله: «منَ ضربَ الخدود» قال الحافظ: خُصَّ الخدُّ لكونه الغالب، وإلا فضربُ بقيَّة الوجه مثلُه[2].

[١٢٩/ب] قوله: «وشقَّ الجيوب» هو الذى يُدخل فيه الرأسُ من الثوب/ وذلك من عادة أهل الجاهلية؛ حُزْناً على الميت.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» قال شيخُ الإسلام: هو ندبُ الميت[3]. وقال غيرهُ: هو الدعاءُ بالويل والثبور. وقال ابن القيِّم: الدعاءُ بدعوى الجاهلية، كالدعاء بالقبائل والعصبية، ومثلُه التعصُّب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضٍ على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالى عليه ويُعادى. فكلٌّ هذا من دعوى الجاهلية[4].

وعند ابن ماجه ـ وصححه ابنُ حبان ـ عن أبى أُمامة: أنَّ رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاَّقَّة جيبها، والداعية بالويل والثبور[5].

وهذا يدلُّ على أنَّ هذه الأمور من الكبائر، وقد يُعفى عن الشيء اليسير من

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٢٩٤، ١٢٩٧، ٣٥١٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٠٣).

(٢) ابن حجر، «فتح البارى» (٣/ ١٦٤).

(٣) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٠٤).

(٤) وقد انتشر مثل هذا أو أكثر فى عصرنا، وفرح أقوامٌ بما عندهم من العلم. فنسوا الجامعة الدينية والاخوة الاسلامية، واستنفذوا قواهم: فى التمويه والتزوير ونبش الأخطاء، والانتصار للأهواء وزرع الضغينة والأحقاد، وترويج الأكاذيب والرمي بالظنون والتخرصات والحط على الدعاة، واستعداء الحكام وشق عصا المسلمين. فلم يستبقوا خيراً، ولا حفظِوا ذماماً. فالله حسيبهم، وهو الموعد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٥) ابن ماجه فى «السنن» رقم (١٥٨٤) وابن حبان فى «الصحيح» (٥/ ٦٢)، وقال البوصيرى فى «مصباح الزجاجة» (١/ ٥٢١): هذا إسنادٌ صحيح.

ذلك إذا كان صدْقاً، وليس على وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمدُ رحمه الله[1]؛ لِما وقعَ لأبى بكر[2] وفاطمة رضى الله عنهما[3]، لَمَّا تُوفى رسولُ الله ﷺ[4].

وليس فى هذه الأحاديث ما يدلُّ على النهى عن البكاء؛ لما فى الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم، قال: «تدمعُ العينُ ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضى الرب، وإنا بك يا إبراهيمُ لمحزونون»[5].

وفى (الصحيحين)، عن أُسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبىٌّ فى الموت، فرُفع إليه ونفْسُه تَقعْقَع كأنها شَنٌّ. ففاضت عيناه، فقال سعدٌ: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمةٌ جعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرُّحماء»[6].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبةَ فى الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه، حتى يُوافىِ به يوم القيامة».

ش: هذا الحديثُ: رواه الترمذىُّ، والحاكم وحسنه الترمذى[7]. وأخرجه الطبرانىُّ، والحاكم، عن عبد الله بن مُغفَّل[8]، وأخرجه ابن عدى، عن أبى هريرة[9]، والطبرانىُّ عن عمار بن ياسر[10].

---

(١) نقله الزركشى فى «شرح مختصر الخرقى» (٢/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» (٦/ ٣١) عن عائشة.

(٣) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٤٦٢).

(٤) قال الخطابى فى «غريب الحديث» (١/ ٦٤٩): فأما المراثى التى فيها ثناءٌ على الميت ودعاءٌ له، فغير مكروهة.

(٥) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٣٠٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٣١٥) من حديث أنس، وأسماء بنت يزيد.

(٦) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٢٨٤، ٥٦٥٥، ٦٦٠٢، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٩٢٣).

(٧) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٩٨) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٣٤٠).

(٨) الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٣٤٩، ٤/ ٣٧٦) والطبرانى كما فى «مجمع الزوائد» للهيثمى (١٠/ ١٩١).

(٩) ابن عدى فى «الكامل» (٣/ ١١٩٢).

(١٠) الطبرانى كما فى «مجمع الزوائد» للهيثمى (١٠/ ١٩٢). وقال: إسنادهُ جيد.

قوله: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبةَ في الدنيا» أي: بصبٍّ البلاء والمصائب عليه؛ لِما فرَط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنبٌ يوافي به [١٣٠/أ] يوم القيامة/.

قال شيخُ الإسلام: المصائبُ نعمة؛ لأنها مكفِّرات للذنوبِ، وتدعو إلى الصبر، فيُثاب عليها. وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفسُ البلاء يكفِّر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمةٌ ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أنْ يدخل صاحبُها بسببها في أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه؛ فإنَّ مَن الناس من إذا ابتُلى بفقرٍ أو مرض أو جوع، حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب، أو الكفر الظاهر أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرَّمات ما يوجب له ضرراً في دينه. فهذا كانت العافيةُ خيراً له من جهة ما أورثته المصيبةُ [لا من جهة نفس المصيبة][1] كما أنَّ من أوجبت له المصيبةُ صبراً وطاعة، كانت في حقه نعمةً دينية، فهي بعينها فعلُ الرب عز وجل رحمةٌ للخلق. والله تبارك وتعالى محمودٌ عليها.

فمن ابتلى فرُزق الصبر، كان الصبرُ نعمة عليه في دينه، وحصل له بعدما كفَّر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاةُ ربه عليه، قال جل ذكره: ﴿**أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ وحصل له غُفرانُ السيئات، ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك. انتهى ملخصاً[2].

قوله: «وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه» أي: أخَّر عنه العقوبةَ بذنبه «حتى يُوافي به يوم القيامة» هو بضمّ الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى، مبنياً للفاعل.

قال العَزيزي[3]: أي: لا يُجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر

---

(١) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٢) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٤٨/١٠).

(٣) نور الدين، على بن أحمد بن محمد بن إبراهيم العزيزي، البولاقي، فقيه شافعي، له «السراج المنير» شرح «الجامع الصغير» و«الفوائد». مات سنة ١٠٧٠هـ. ينظر: كحالة «معجم المؤلفين» (٧/ ٢٤).

الذنوب وافيها، فيستوفى ما يستحقه من العقاب[1]. وهذه الجملةُ هى آخرُ الحديث.

فأمَّا قولُه: وقال النبىُّ ﷺ «إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء» إلى آخره، فهو أوَّلُ حديث آخر؛ لكن لمَّا رواهما الترمذىُّ بإسنادٍ واحد، وصحابى واحد جعلهما المصنفُ كحديثٍ واحد.

وفيه: التنبيهُ على حُسن الرجاء، وحُسن الظن بالله فيما يقضيه لك؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وَهُوَ شرٌّ لَكُم والله يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. /[البقرة: ٢١٦]. [١٣٠/ب]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال النبىُّ ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء، وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخِط فله السخط». حسّنه الترمذى[2].

ش: قال الترمذى: حدَّثنا قُتيبة، حدثنا الليث، عن زيد بن أبى حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، وذكر الحديث السابق.

ثم قال: وبهذا الإِسناد، عن النبى ﷺ، قال: «إنَّ عظم الجزاء» الحديث. ثم قال: وهذا حديثٌ حسن غريب من هذا الوجه.

ورواه ابنُ ماجة[3]، ورواه الإِمامُ أحمد، عن محمود بن لَبيد، رفعه «إذا أحبَّ الله قوماً ابتلاهم، فمَن صبر فله الصبر، ومن جَزِع فله الجَزَع»[4] قال المُنذرى: رواتُه ثقات[5].

قوله: «إنَّ عِظَم الجزاء» بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمُّها مع سكون الظاء. أى: من كان ابتلاؤه أعظمُ كيفيَّةً وكمية.

وقد يحتجُّ بهذا الحديث من يقول: إنَّ المصائب يُثاب عليها مع تكفير الخطايا.

---

(١) العزيزى «السراج المنير» (١/ ٨٨).

(٢) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٩٨).

(٣) ابن ماجة فى «السنن» رقم (٤٠٢١).

(٤) أحمد فى «المسند» (٥/ ٤٢٧، ٤٢٩).

(٥) «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٨٣) وبه قال: ابن حجر فى «فتح البارى» (١٠/ ١٠٨).

ورجح ابنُ القيِّم: أنَّ ثوابها تكفيرُ الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعملٍ صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار، فإنَّه حينئذٍ يُثاب على ما تولَّد منه. وعلى هذا، يُقال فى معنى الحديث: إنَّ عظمَ الجزاء معَ عظمِ البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم» ولهذا ورد فى حديث سعد: سُئل النبيٍّ ﷺ: أى الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ، ثم الأمثل فالأمثل؛ يُبتلىَ الرجلُ على حسب دينه، فإنْ كان فى دينه صلابةٌ اشتد بلاؤه، وإنْ كان فى دينه رقَةٌ ابتُلى على قدر دينه، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركَه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة». رواه الدارمىٍّ، وابن ماجة، والترمذى وصححه[1].

وهذا الحديثُ ونحوه: من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبدُ أنَّ الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاءُ فى أنفسهم، الذى هو فى الحقيقة رحمة [ولا يدفعه عنهم إلا الله][2]، عرف أنَّهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكونه لغيرهم أولى وأحرى.

فيحرمُ قصدُهم، والرغبةُ إليهم فى قضاء حاجةٍ أو تفريج كُربة. وفى وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين، من الأسرار والحِكم والمصالح فى العاقبة ما لا يُحصى.

قوله: «فمَن رضى فله الرضا» أى: من الله تعالى. والرضا قد وصف الله به نفسه فى مواضع من كتابه، كقوله: ﴿جَزَاؤُهُم عِنْدَ رَبِهِّم جَنَّاتُ عَدْنٍ / تَجْرِى مِن تَحْتِها الأنْهَارٌ خالِدِين فيها أبَداً رَضِى الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾. [البينة: ٨].

[١٣١/أ]

ومذهبُ السلف وأتباعهم من أهل السُّنة: إثباتُ الصفات التى وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسولُه ﷺ [على ما يليق بجلاله وعظمته][3] إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل. فإذا رضى الله تعالى عنه حصل له كلٌّ خير، وسلم من كلٍّ شر.

---

(١) الدارمى فى «السنن» رقم (٢٧٨٦) وابن ماجة فى «السنن» رقم (٤٠٢٣) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٤٠٠).

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

والرضا: هو أنْ يُسلم العبدُ أمره إلى الله، ويُحسن الظنَّ به، ويرغبَ في ثوابه. وقد يجد لذلك راحةً وانبساطاً؛ محبةً لله وثقة به؛ كما قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: إنَّ الله ـ بقسطه وعدله ـ جعل الرَّوحَ والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحزن في الشك والسخط[1].

قوله: «ومن سخِط» هو بكسر الخاء. قال أبو السعادات: السخطُ: الكراهية للشيء وعدم الرضا به[2]. أي: من سخِط على الله فيما دبَّره، فله السخط من الله، وكفى بذلك عقوبة.

وقد يُستدلُّ به على وجوب الرضا. وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدمَ الوجوب، ورجَّحه شيخُ الإسلام، وابن القيِّم[3].

قال شيخُ الإسلام: ولم يجيء الأمرُ [به كما جاء الأمر][4] بالصبر. وإنما جاء الثناءُ على أصحابه. قال: وأمَّا ما يُروى: من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي، فليتخذ رباً سواي.

فهذا إسرائيلي، لم يصح عن النبي ﷺ[5] [6].

قال شيخُ الإسلام: وأعلى من ذلك ـ أي من الرضا ـ أنْ يشكر الله على المُصيبة، لما يرى من إنعام الله عليه بها. انتهى[7]. والله أعلم.

---

(١) قطعةٌ من أثر: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا» رقم (٩٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٢٠٥).

(٢) ابن الأثير، «النهاية» (٢/ ٣٥٠).

(٣) ابن القيم، «من مدارج السالكين» (٢/ ١٧١، ١٨٤).

(٤) ساقط من الأصل.

(٥) وكذلك ما أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٢٠) و«الصغير» (٢/ ٤٨) وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٢٢٨) والبيهقي في «الشعب» رقم (١٩٦) من حديث أنس، مرفوعاً «من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلهاً غيرَ الله» فقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٧): فيه سُهيل بن أبي حزم. وقال السمعاني في «الأنساب» (٢/ ١١٣): هذا إسنادٌ مُظلم، لا أصل له.

(٦) نقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/ ١٧١).

(٧) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٦٠).

(٣٥)

بـــاب
مـا جـاء في الريـاء

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء في الرِّياء.

ش: أي: من النهي والتحذير. قال الحافظ: هو مشتقٌ من الرؤية، والمرادُ به: إظهارُ العبادة؛ لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبَها[1].

والفرقُ بينه وبين السُّمعة: أنَّ الرِّياء لما يُرى من العمل، كالصلاة. والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر. ويدخل في ذلك التحدُّثُ بما عمله.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهكُم إِلهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾**. [الكهف: ١١٠].

قوله: **﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهكُم إِلهٌ وَاحِدٌ﴾** أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيءٌ، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إلي **﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾** أي: يخافه: **﴿فَلْيَعْمَلْ عَملاً صَالِحاً ولا يُشرِك بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾**.

قوله: **﴿أَحَداً﴾** نكرةٌ في سياق النهي تعُمّ، وهذا العمومُ يتناول الأنبياء والملائكة، والصالحين والأولياء، وغيرهم/. [١٣١/ب]

قال شيخُ الإسلام: أمَّا اللقاء: فقد فسرَّه طائفةٌ من السلف والخلف بما يتضمَّن

(١) ابن حجر، «فتحُ الباري» (١١/ ٣٣٦).

المُعاينة، وقالوا: لقاء الله، يتضمَّن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة. وذكر الأدلة على ذلك[1].

قال ابنُ القيِّم في الآية: أي: كما أنَّه إلهٌ واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أنْ تكون العبادةُ له وحده لا شريك له. فكما تفرَّد بالإلهية، يجب أنْ يُفرد بالعبودية، فالعملُ الصالح: هو الخالص من الرياء، المُقيَّدُ بالسنة. انتهى[2].

وفي الآية: دليلٌ على أنَّ أصل الدين الذي بَعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفرادُ الله تعالى بأنواع العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إليه أَنَّهُ لا إلهَ إلا أَنَا فاعْبُدُونِ﴾. [الأنبياء: ٢٥].

والمخالفُ لهذا الأصل من هذه الأمة أقسامٌ: إمَّا طاغوتٌ يُنازع الله في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوتٌ يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشركٌ يدعو غيرَ الله، ويتقرَّبُ إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاكٌّ في التوحيد: أهو أقرب حق، أم يجوز أن يجعل لله شريكٌ في عبادته؟ أو جاهلٌ يعتقد أنَّ الشرك دينٌ يقرِّب إلى الله تعالى. وهذا هو الغالبُ على أكثر العوام؛ لجهلهم وتقليدهم مَن قَبلهم؛ لمَّا اشتدت غرْبةُ الدين، ونُسي العلمُ بدين المرسلين.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبي هريرة، مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشُّركاء عن الشرك، من عَمِل عملاً أشرك معي فيه غيري تركتُه وشِرْكَه». رواه مسلم[3].

ش: قوله: «من عَمِل عملاً أشرك معي فيه غيري» أي: مَن قصد بعمله غيري من المخلوقين، تركتهُ وشِرْكَه.

ولابن ماجة «فأنا منه بريءٌ وهو للذي أشرك»[4] قال الطيبي: الضَّميرُ المنصوب في قوله: «تركتهُ» يجوز أنْ يرجع إلى العمل.

قال ابنُ رجب: واعلم أنَّ العمل لغير الله أقسام: فتارةً يكون رياءً محضاً كحال

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٦/٤٨٨).

(٢) ابن القيم، «الجواب الكافي» (١٣٦).

(٣) مسلم في «الصحيح» رقم (٢٩٨٥).

(٤) ابن ماجة في «السنن» رقم (٤٢٥٥). وقال البُوصَيري في «مصباح الزجاجة» (٣/٢٩٥): هذا إسنادٌ صحيح.

المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا قَامُوا إلى الصلاة قامُوا كُسَالى يُرَاءون النَّاسَ ولا يَذْكُرُون الله إلا قَليلاً﴾. [النساء: ١٤٢] وهذا الرِّياء المحض، لا يكاد يصدر من مؤمن فى فرض الصلاة والصيام. وقد يصدرُ فى الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرِهما من الأعمال الظاهرة، أو التى يتعدَّى نفعُها؛ فإنَّ الإخلاص فيها عزيز. وهذا العملُ لا يشك مسلمٌ أنه حابط، وأنَّ صاحبه/ يستحق المقتَ من الله [١٣٢/أ] والعقوبة.

وتارةً يكون العملُ لله، ويشاركُه الرِّياءُ. فإنْ شاركه من أصله، فالنصوصُ الصحيحة تدلُّ على بطلانه.

ـ وذكر أحاديثَ تدلُّ على ذلك ـ منها: هذا الحديث، وحديثُ شدَّاد بن أوس، مرفوعاً «مَن صلَّى يُرائى فقد أشرك، ومن صام يُرائى فقد أشرك، ومن تصدَّق يُرائى فقد أشرك، وإنَّ الله عز وجل يقول: أنا خيرُ قسيمٍ لمن أشرك بى، فمَن أشرك بى شيئاً فإنَّ جدَّة عمله وقليلِه وكثيره لشريكه الذى أشرك به. أنا عنه غنى». رواه أحمد[١].

ـ وذكر أحاديثَ فى المعنى ـ ثم قال: فإنْ خالط نيَّةَ الجهاد مثلاً نيَّةٌ غير الرِّياء، مثلُ أخذ أجرةٍ للخدمة، أو أخذ شىءٍ من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجرُ جهادهم، ولم يبطل بالكلية.

قال ابنُ رجب: وقال الإمامُ أحمد: التاجرُ والمستأجر والمُكارى، أجرُهم على قدر ما يخلُص من نيَّاتهم فى غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله، لا يخلِط به غيرَه.

وقال أيضاً ـ فيمن يأخذ جُعلاً على الجهاد ـ: إذا لم يخرج لأجل الدراهم، فلا بأس. كأنه خرج لدينه، فإنْ أُعطى شيئاً أخذه[٢].

ورُوى عن عبد الله بن عمرو، قال: إذا أجمع أحدُكم على الغزو، فعوَّضه الله رزْقاً، فلا بأس بذلك. وأمَّا إنَّ أحدكم إنْ أُعطى دراهم غزا، وإنْ لم يُعط دراهم لم يغز، فلا خير فى ذلك.

(١) أحمد فى «المسند» (٤/ ١٢٥، ٤/ ١٢٦).

(٢) ينظر: أبو داود «المسائل» (٢٥١)، وابن هانىء «المسائل» رقم (١٦٣٥)، ابن قدامة «المغنى» (١٣/ ١٦٣).

وروى عن مُجاهد، أنَّه قال ـ فى حج الجمَّال وحج الأجير، وحج التاجر ـ: هو تامٌّ لا يُنقص من أُجورهم شىء. أى: لأن قصدَهم الأصلى، كان هو الحج دون التكسب.

قال: وأمَّا إنْ كان أصلُ العمل لله، ثم طرأ عليه نيةُ الرِّياء: فإنْ كان خاطراً ثم دفعه، فلا يضرُّه بغير خلاف. وإنْ استرسل معه، فهل يُحبِط عملَه أم لا، ويُجازى على أصل نيته؟ فى ذلك اختلافٌ بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمامُ أحمد، وابن جرير، ورجَّحا أنَّ عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجازى بنيَّته الأولى، وهو مرويٌّ عن الحسن وغيره.

[فأمَّا إذا عمل العملَ لله خالصاً ثم ألقى الله له الثناء الحسن فى قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك][1].

وفى هذا المعنى: جاء حديثُ أبى ذر، عن النبى ﷺ أنَّهُ سُئل عن الرجل، يعمل العمل من الخير يَحمدُه الناسُ / عليه، فقال: «تلك عاجلُ بُشرى المؤمن». [١٣٢/ب] رواه مسلم[2] انتهى مُلخصاً[3].

قلت: وتمامُ هذا المقام يتبيَّن فى شرح حديث أبى سعيد، إنْ شاء الله تعالى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبى سعيد، مرفوعاً: «ألا أُخبرُكم بما هو أخوَفُ عليكم عندى من المسيح الدَّجَّال؟» قالوا: بلى، قال: «الشركُ الخفى: يقوم الرجلُ فيُصلى فيُزيِّنُ صلاتَه؛ لما يرى من نظر رجل». رواه أحمد[4].

ش: وروى ابنُ خُزيمة فى (صحيحه)، عن محمود بن لَبيد، قال: خرج رسولُ الله ﷺ فقال: «أيها الناس، إيَّاكم وشركَ السرائر» قالوا: يارسول الله وما

---

(١) إضافة من «الجامع» و«تيسير العزيز الحميد» يقتضيها السياق.

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٤٢).

(٣) ابن رجب، «جامعُ العلوم والحكم» (١/ ٧٩ ـ ٨٤). ط مؤسسة الرسالة

(٤) أحمد فى «المسند» (٣/ ٣٠)، وأخرجه ابن ماجة فى «السنن» رقم (٤٢٠٤) قال البوصيرى فى «مصباح الزجاجة» (٣/ ٢٩٦): هذا إسنادٌ حسن.

شركُ السرائر؟ قال: «يقوم الرجلُ فيصلى فيزيّن صلاته جاهداً لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر»[1].

قوله: (عن أبى سعيد). هو الخدرى. وتقدَّم.

قوله: «الشركُ الخفى» سمَّاه خفياً؛ لأن صاحبه يُظهر أنَّ عمله لله، وقد قصد غيره، أو شرَّكه فيه بتزيين صلاته لأجله.

وعن شداد بن أوس، قال: كنَّا نعدُّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشركَ الأصغر. رواه ابنُ أبى الدنيا فى (كتاب الإخلاص)، وابنُ جرير فى (التهذيب)، والطبرانىُّ، والحاكم وصححه[2].

وقال ابنُ القيِّم: وأمَّا الشركُ الأصغر[3]، فكيسير الرياء، والتصنُّع للمخلوق والحلف بغير الله، وقولِ الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالى إلا الله وأنت، وأنا متوكِّلٌ على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب حال قائله ومقصده. انتهى[4].

ولا خلاف أنَّ الإخلاص شرطٌ لصحة العمل وقبوله، وكذلك المُتابعة؛ كما قال الفُضيل بن عياض رحمه الله تعالى، فى قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. [الملك: ٢] قال: أخلصُه وأصوبه.

قيل: يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالصُ ما كان لله، والصوابُ ما كان على السُّنة[5].

---

(١) ابن خزيمة فى «الصحيح» رقم (٩٣٧)، بإسناد حسن، كما قال الذهبى فى «المهذب من سنن البيهقى» (٢/ ٢٦١).

(٢) ابن أبى الدنيا فى «كتاب الاخلاص» كما فى «الدر المنثور» (٥/ ٤٧٠) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٧١٦٠) والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) وحدُّه الضابط له: كل وسيلة وذريعة يُتطرَّق منها إلى الشرك الأكبر، من الإرادات والأقوال والأفعال، التى لم تبلغ رُتبة العبادة. «القولُ السديد» (٥٣).

(٤) ابن القيم، «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٤).

(٥) نقله: ابن تيمية، «الاستقامة» (٢/ ٣٠٩)، وابن رجب، «جامع العلوم والحكم» (١/ ٧٢).

وفي الحديث من الفوائد: شفقةُ النبي ﷺ على أمته ونصحُه لهم، وأنَّ الرِّياء [١٣٣/أ] أخوف/ على الصالحين من فتنة المسيح الدجال. فإذا كان النبيُّ ﷺ يخافهُ على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرُهم ممن هو دونَهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك، أصغرِه وأكبره.

(٣٦)

بــاب
من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من الشرك: إرادةُ الإنسان بعمله الدنيا.

ش: فإنْ قيل: فما الفرقُ بين هذه الترجمة، وبين ترجمة الباب قبله؟.

قلتُ: بينهما عمومٌ وخصوص مُطلق، يجتمعان في مادة، وهو إذا أراد الإنسانُ بعمله التزيُّنَ عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياءٌ كما تقدم بيانُه، كحال المنافقين. وهو أيضاً إرادةٌ للدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام.

ويفارقُه الرياءُ، بكونه عَمِل عملاً صالحاً، أراد به عَرَضاً من الدنيا، كمن يُجاهد ليأخذ مالاً؛ كما في الحديث: «تعس عبدُ الدينار»[1] أو يُجاهد للمغنم، أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخُنا[2] عن ابن عباس، وغيره من المُفسرين في معنى ﴿مَن كان يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيا وزِينَتَها﴾[3]. [هود: ١٥].

وأراد المصنفُ رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها: أنَّ العمل لأجل الدنيا، شركٌ يُنافي كمالَ التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال. وهو أعظمُ من الرياء؛ لأن مُريد الدنيا قد تغلب إرادتُه تلك على كثيرٍ من عمله، وأمَّا الرِّياءُ فقد يعرض له في عملٍ دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمنُ يكون حذراً من هذا وهذا.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَها نُوَفِّ إليْهِمْ أعْمالَهُم فيها وَهُمْ فيها لا يُبخسون * أُولَئك الذين ليس لَهُمْ في

(١) قطعةٌ من حديث، سيأتي تخريجه قريبا.

(٢) العَلَّامةُ المُجدِّد، محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى.

(٣) سيأتي نصُّ كلامه بعد قليل.

الآخِرَةِ إلا النَّارُ وحَبِطَ ما صَنَعُوا فيها وباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾. [هود: ١٥ - ١٦].

ش: قال ابنُ عباس: ﴿مَنْ كان يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيَا﴾ أى: ثوابها ﴿وَزِينَتَها﴾ أى: ما لها ﴿نُوَفِّ﴾ نوفِّر لهم ثوابَ أعمالهم، بالصحة والسرور فى المال والأهل والولد ﴿وَهُمْ فيها لا يُبْخَسُون﴾ لا ينقصون. ثم نسختها ﴿مَن كانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فيها ما نشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾. [الإسراء: ١٨] الآية[١] رواه النَّحاسُ فى (ناسخه)[٢].

قوله: ثم نسختها، أى: قيَّدتها، فلم تبق الآيةُ على إطلاقها.

وقال قتادة: يقول: من كانت الدنيا همَّه وطلبته ونيته، جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يُفضى إلى الآخرة وليس له حسنةٌ يُعطى بها جزاءً. وأمَّا المؤمنُ فيُجازى بحسناته فى الدنيا، ويُثاب عليها فى الآخرة. ذكره ابنُ جرير بسنده[٣].

ثم ساق حديثَ أبى هريرة، عن ابن المبارك، عن حيوة بن شُريح، قال: حدَّثنى الوليدُ بن أبى الوليد أبو عثمان، أنَّ عُقبة بن مسلم حدَّثه، أنَّ شُفَىَّ بن ماتِع[٤] الأصبحى حدَّثه: أنَّه دخل المدينةَ، فإذا هو برجلٍ قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة. فدنوتُ منه حتى قعدتُ بين يديه، وهو يُحدِّثُ!. فلمَّا سكت وخلا. قلتُ: أنشُدك بحقٍّ وبحقٍّ لَمَا حدثتنى حديثاً سمعتَه من رسول الله ﷺ، عقَلته وعلِمْته. فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدِّثنّك حديثاً حدثنيه رسولُ الله ﷺ فى هذا البيت، ما فيه أحدٌ غيرى/ وغيره، ثم نَشَغ[٥] أبو هريرة نَشْغَة، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدَّثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت، ما فيه أحدٌ غيرى وغيره، ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغَة أخرى، ثم مال خاراً على وجهه، واشتد به طويلاً! ثم أفاق، فقال: حدَّثنى رسولُ الله ﷺ: «أنَّ الله تبارك وتعالى إذا كان يومُ القيامة، نزل إلى أهل القيامة ليقضى بينهم، وكلُّ أمَّةٍ جاثية.

[١٣٣/ب]

(١) (ط): الآيتين.
(٢) النحاس فى «الناسخ والمنسوخ» (١٧٧).
(٣) «تفسير» ابن جرير الطبرى رقم (١٨٠١٩).
(٤) ثقةٌ من الثالثة، أرسل حديثاً فذكره بعضُهم فى الصحابة خطأ، مات فى خلافة هشام. «تقريب» (٢٦٨).
(٥) شَهَق حتى كاد يُغشى عليه، وإنما يُفعل ذلك تشوقاً أو أسفاً. «القاموس»، (ترتيب) (٤/ ٣٧٥).

فأوَّلُ مَن يدعو به رجلٌ جمع القرآن، ورجلٌ قُتل فى سبيل الله، ورجلٌ كثيرُ المال. فيقول الله للقارئ: ألم أُعلمك ما أنزلتُ على رسولى؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنتُ أقوم آناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكةُ: كَذبت! ويقول الله له: بل أردت أنْ يُقال فلانٌ قارئ، فقد قيل ذلك!.

ويُؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أُوسِّع عليك حتى لم أدَعْك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصلُ الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكةُ: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أنْ يُقال فلانٌ جواد، فقد قيل ذلك!.

ويُؤتى بالذى قُتل فى سبيل الله، فيقال له: فبماذا قُتلت: فيقول: أُمرتُ بالجهاد فى سبيلك، فقاتلتُ حتى قُتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكةُ كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يُقال: فلانٌ جرىء، وقد قيل ذلك!.»

ثم ضرب رسولُ الله ﷺ على رُكبتى، فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثةُ أوَّلُ خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة»[1].

وقد سُئل شيخُنا المصنفُ رحمه الله تعالى، عن هذه الآية؟ فأجاب بما حاصلُه: ذُكر عن السلف فيها أنواعٌ مما يفعلُه الناسُ اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العملُ الصالح، الذى يفعلُه كثيرٌ من الناس ابتغاءَ وجه الله: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وتركِ ظُلم، ونحو ذلك مما يفعلُه الإنسانُ أو يتركه خالصاً لله.

لكنه لا يُريد ثوابَه فى الآخرة، إنما يُريد أن يُجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامةِ النعم عليهم، ولا هِمَّة له فى طلب الجنة والهرب من النارِ. فهذا يُعطى ثواب عَمله فى الدنيا، وليس له فى الآخرة نصيب. وهذا النوعُ، ذكره ابنُ عباس.

---

(١) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٨٠٢٨) وأصله فى «صحيح مسلم» برقم (١٩٠٥).

[١٣٤/أ] النوع الثانى: وهو أكبرُ من الأول،/ وأخوف، وهو الذى ذكره مجاهدُ فى الآية: أنَّها نزلت فيه، وهو أنْ يعمل أعمالاً صالحة[1] ونيّتُه رياءُ الناس، لا طلبَ ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أنْ يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثلَ أنْ يحج لمالٍ يأخذُه لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم. فقد ذُكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية، وكما يتعلَّم الرجلُ لأجل مدرسةِ أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً.

النوع الرابع: أنْ يعمل بطاعة الله، مُخلصاً فى ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عملٍ يُكفِّره كفراً يخرجه عن الإِسلام. مثلُ اليهود والنصارى، إذا عبدوا الله، أو تصدَّقوا أو صاموا ابتغاءَ وجه الله والدارِ الآخرة. ومثل كثير من هذه الأمة، الذين فيهم كفرٌ أو شركٌ أكبر، يخرجهم من الإِسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعةً خالصة يُريدون بها ثوابَ الله فى الدار الآخرة، لكنَّهم على أعمال تُخرجهم من الإِسلام، وتمنع قبولَ أعمالهم.

فهذا النوعُ أيضاً قد ذُكر فى هذه الآية، عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلفُ يخافون منها.

قال بعضُهم: لو أعلم أنَّ الله تقبَّل منى سجدةً واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله يقول: ﴿إنَّما يَتَقَبَّلُ الله من المُتَّقين﴾[2]. [المائدة: ٢٧].

ثم قال: بقى أن يُقال: إذا عمل الرجلُ الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاءَ وجه الله، طالباً ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا، مثلَ أنْ يحج فرضَه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا، كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما.

---

(١) ساقطٌ من الأصل، وهو انتقالُ نظر.

(٢) أخرجه ابن عساكر، كما فى «الدر المنثور» (٣/٥٧) عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وقد قال بعضُهم: القرآنُ كثيراً ما يذكر أهلَ الجنة الخُلَّص وأهل النار الخلَّص، ويسكتُ عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله. انتهى[1].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: في (الصحيح) عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَعِس عبدُ الدينار تَعِس عبدُ الدرهم، تَعِسَ عبدُ الخميصة، تَعِسَ عبدُ الخميلة، إنْ أُعطي رضي، وإنْ لم يُعط سَخِط، تَعِس وانْتكس، وإذا شيك فلا انْتقش. طوبى لعَبْدٍ آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعثَ رأسهُ، مُغْبَرَّةٍ قدماه. إنْ كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في السَّاقة، إنْ استأذن لم يُؤذن له، وإن شفع/ لم يُشفَّع»[2]. [١٣٤/ب]

ش: قوله: (في الصحيح) أي: (صحيح البخاري).

قوله: «تَعِس» هو بكسر العين، ويجوز الفتح، أي: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ. وقال في موضعٍ آخر: وهو ضدُّ سَعِد أي: شقي[3]. وقال أبوالسعادات: يقال تعس يتعس. أي: عَثَر وانكبَّ لوجهه. وهو دعاءٌ عليه بالهلاك[4].

قوله: «عبدُ الدِّينار» هو المعروف من الذهب، كالمثقال في الوزن. زنتُه: درهمٌ وثُمن درهم.

قوله: «تَعِس عبدُ الدرهم» وهو من الفضة، قدَّره الفقهاءُ بالشعير وزناً، وعندنا منه درهمٌ من ضَرْب بني أُمية، وهو زنةُ خمسين حبة شعير وخُمسا حبة.

سمَّاه عبداً له؛ لكونه هو المقصود بعمله. فكلُّ من توجَّه بقصده لغير الله، فقد جعله شريكاً لله في عبوديته، كما هو حالُ الأكثر.

قوله: «تَعِس عبدُ الخميصة» قال أبو السعادات: هي ثوب خَزٍّ أو صوفٍ مُعلم، وقيل: لا تُسمَّى خميصة إلا أنْ تكون سوداء مُعلَّمة؛ وتُجمع على خمائص. والخميلةُ ـ بفتح الخاء المُعجمة ـ قال أبو السعادات: ذات

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، «كتابُ الاستنباط» (١٢٠ - ١٢٣).

(٢) البخاري في «الصحيح» رقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

(٣) ابن حجر، «فتح الباري» (١١/ ٢٥٤، ٦/ ٨٢).

(٤) ابن الأثير، «النهاية» (١/ ١٩٠).

الخَمَل - ثيابٌ لها خَمَل من أى شىء كان[1].

قوله: «تعس وانتكس» قال الحافظ: هو بالمُهملة، أى: عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أى: انقلب على رأسه. وهو دعاءٌ عليه بالخيبة[2].

قال الطيبى: فيه الترقّى بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس، انكبَّ على وجهه. فإذا انتكس، انقلب على رأسه بعد أنْ سقط.

قوله: «وإذا شِيك» أى أصابته شوكة «فلا انتقش» أى: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قاله أبو السعادات[3].

والمرادُ: أنَّ من كانت هذه حالُه [فإنَّه يستحقّ أنْ يُدعى عليه بما يسؤوه فى العواقب، ومن كانت هذه حاله][4] فلا بدَّ أنْ يجد أثرَ هذه الدعوات، من الوقوع فيما يضرّه فى عاجل دُنياه وآجل أخراه.

قال شيخُ الإسلام: فسمَّاه النبىُّ ﷺ عبدَ الدينار والدرهم، وعبد القطيفة وعبد الخميصة. وذكر فيه ما هو دعاءٌ بلفظ الخبر، وهو قوله: «تعس وانتكس وإذا شِيك فلا انتقش» وهذه حالُ من إذا أصابه شرٌّ لم يخرج منه ولم يُفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه.

وهذا حالُ من عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه «إنْ أُعطى رضى، وإن مُنِعَ سَخط»؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ فى الصدقاتِ/ فإنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وإنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنها إذا هُمْ يَسْخَطون﴾. [التوبة: ٥٨]. [١٣٥/أ]

فرضاهم لغير الله، وسخطُهم لغير الله. وهكذا حالُ من كان متعلقاً برياسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه. إنْ حصل له رضى، وإنْ لم يحصل له سخط. فهذا عبدُ ما يهواه من ذلك، وهو رقيقٌ له؛ إذ الرِّقُ والعبودية فى الحقيقة: هو رِقُّ القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلبَ واستعبده فهو عبده.

(١) ابن الأثير، «النهاية» (٢/ ٨١).

(٢) ابن الأثير «المصدر السابق» (٥/ ١١٥).

(٣) ابن الأثير «المصدر السابق» (٥/ ١٠٦).

(٤) إضافةٌ من (هـ) و(ط).

ـ إلى أنْ قال ـ: وهكذا أيضاً طالبُ المال، فإنَّ ذلك يستعبدُه ويسترقُّه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه، ومنكحه ومسكنه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المالُ عنده يستعمله في حاجته: بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطِه الذي يجلس عليه، من غير أنْ يستعبده فيكون هلوعاً!.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أنْ لا يُعلِّق قلبَه بها. فإذا تعلَّق قلبُه بها، صار مُستعبداً لها [وربما صار مستعبداً و][1] معتمداً على غير الله فيها. فلا يبقى معه حقيقةُ العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبةٌ من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله.

وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبدُ الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة» وهذا هو عبدٌ لهذه الأمور، ولو طلبها من الله؛ فإنَّ الله إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط.

وإنما عبدُ الله: مَن يُرضيه ما يُرضي الله، ويُسخطه ما يسخط الله، ويُحبُّ ما أحبَّه الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، ويوالي أولياءَ الله، ويُعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى مُلخصاً[2].

قوله: «طُوبى لعبد» قال أبو السعادات: طُوبى، اسمُ الجنة، وقيل: هي شجرٌ فيها[3].

ويؤيِّد هذا: ما روى ابنُ وهب ـ بسنده ـ عن أبي سعيد، قال رجلٌ: يا رسول الله وما طوبى؟ قال: «شجرةٌ في الجنة مسيرة مائة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرج من أكمامها»[4].

ورواه الإمامُ أحمد: حدّثنا حسن بن موسى، سمعت عبدَ الله بن لَهيعة، حدَّثنا

---

(1) ساقط من الأصل.

(2) ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (10/ 180 - 190).

(3) ابن الأثير، «النهاية» (3/ 141).

(4) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (20395).

[١٣٥/ب] دَرّاج أبو السمح، أنَّ أبا/ الهيثم حدَّثه، عن أبى سعيد الخُدرى، عن رسول الله ﷺ: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، طُوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طُوبى لمن رآنى وآمن بى، ثم طُوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى» قال له رجلٌ: وما طُوبى؟ قال: «شجرةٌ فى الجنة مسيرة مائة عام، ثيابُ أهل الجنة تخرج من أكمامها»(١). وله شواهدُ فى (الصحيحين)(٢) وغيرِها(٣).

وقد روى ابنُ جرير، عن وهب بن مُنبِّه ها هنا أثراً غريباً عجيباً. قال وهبٌ رحمه الله تعالى: إنَّ فى الجنة شجرةً يُقال لها: طُوبى، يسير الراكبُ فى ظلها مائة عام لا يقطعها: زهرُها رياطٌ، وورقُها بُرود، وقضبانها عَنْبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووَحْلها مسك.

يخرج من أصلها أنهارُ الخمر واللبن والعسل، وهى مجلسٌ لأهل الجنة. فبينما هم فى مجلسهم، إذ أتتهم الملائكةُ من ربهم يقودون نُجُلاً مزمومةً بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حُسنها، ووبَرها كخزِّ المِرعزّى من لينه، عليها رحالٌ ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سُندس وإستبرق، فينيخونها، ويقولون: إنَّ ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلِّموا عليه، قال: فيركبونها.

قال: فهى أسرعُ من الطائر، وأوطأ من الفِراش. نُجباً من غير مهنة، يسير الراكبُ إلى جنب أخيه وهو يكلِّمه ويُناجيه، لا تصيب أذنُ راحلةٍ منها أذنَ صاحبتها، ولا تركُ راحلةٍ ترك الأخرى(٤)، حتى إنَّ الشجرة لتنتحى عنْ طريقهم؛ لئلا تُفرِّق بين الرجل وأخيه.

قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم، فيسفرُ لهم عن وجهه الكريمِ حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السَّلام ومنك السلام، وحقٌّ لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك: أنا السلامُ ومنى السلام، وعليكم حقَّت رحمتى ومحبتى، مرحباً بعبادى الذين خشونى بالغيب وأطاعوا أمرى.

---

(١) أحمد فى «المسند» (٣/ ٧١).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٥٥٣) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٨٢٨).

(٣) أحمد فى «المسند» (٥/ ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٦٤) وابن حبان فى «الصحيح» (٩/ ١٧٨) من حديث أبى أمامة، وانظر «مجمع الزوائد» (١٠/ ٦٦).

(٤) ولعل الصواب: ورك، كما نبَّه إليه محقق «تفسير» الطبرى.

قال: فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حقَّ عبادتك، ولم نقدِّرك حق قدرك، فأذن لنا بالسجود قدَّامك. قال: فيقول الله تعالى: إنها ليست بدار نصَبَ ولا عبادة، ولكنها دارُ ملك ونعيم، وإنى قد رفعتُ عنكم نصب العبادة، فسلونى ما شئتم، فإنَّ لكل رجلٍ منكم أمنيته. فيسألونه، حتى إنَّ أقصرهم أمنية/ ليقول: ربى، [١/١٣٦] تنافس أهلُ الدنيا فى دنياهم فتضايقوا، رب فآتنى مثل كلِّ شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أنْ انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قصرَّت بك [اليوم][١] أمنيتُك، ولقد سألت دون منزلتك. هذا لك منى [وسأتحفك بمنزلتى][١]؛ لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قِصر يدٍ[٢].

قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادى ما لم تبلغ أمانيُّهم، ولم يخطر لهم على بال. قال: فيَعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيُّهم التى فى أنفسهم، فيكون فيما يَعرضون عليهم: براذين مُقرَّنة على كلِّ أربعةٍ منها سريرٌ من ياقوته واحدة على كل سرير منها قُبةٌ من ذهب مُفرغة، فى كلِّ قبةٍ منها فرش من فرش الجنة مُظاهرة، فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين. على كلِّ جاريةٍ منهنَّ ثوبان من ثياب الجنة، وليس فى الجنة لونٌ إلا وهو فيهما، ولا ريح طيبٌ إلا قد عبق بهما. ينفُذ ضوءُ وجوههما غلظ القبة، حتى يظن مَن يراهما أنَّهما دونَ القبة. يُرى مخُّهُما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل. ويرى لهما مثل ذلك. ثم يدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه، ويقولان له: والله ما ظننا أنَّ الله يخلقُ مثلك، ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً فى الجنة، حتى ينتهى كلُّ رجل منهم إلى منزلته التى أُعدَّت له[٣].

وقد روى هذا الأثر ابنُ أبى حاتم بسنده، عن وهب بن مُنبِّه، وزاد: فانظروا إلى مواهب ربِّكم الذى وهب لكم، فإذا بقبابٍ فى الرفيق الأعلى، وغُرفٍ مبنية من الدر والمرجان، وأبوابُها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندسٍ وإستبرق، ومنابرها من نور. يفور من

(١) إضافة من «التفسير».

(٢) (هـ) «والتفسير»: تصريد.

(٣) ابن جرير فى «التفسير» (١٣/١٤٨).

أبوابهـا وعراصها نورٌ مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء.

وإذا بقصور شامخةٍ فى أعلى علِّيين، من الياقوت يزهوها نورُها، فلولا أنه مُسخَّر إذا لالتمع الأبصار. فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض، فهو مفروشٌ بالحرير الأبيض. وما كان منها من الياقوت الأخضر، فهو مفروشٌ بالسندس الأخضر/ ، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروشٌ بالارجوان [١٣٦/ب] الأصفر. مُبوَّبةٌ بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء، قوائمُها وأركانها من الجوهر، وشُرَفُها قبابٌ من لؤلؤ، وبروجها غرفٌ من المرجان.

فلمَّا انصرفوا إلى ما أعطاهم ربُّهم، قُرِّبت لهم براذينُ من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تحتها الولدان المخلَّدون، بيد كلٍّ وليدٍ منهم حكَمة برذون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتَّها من فضةٍ بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سررٌ موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق.

فانطلقت بهم تلك البراذين تزفُّ بهم ينظـروا رياض الجنة، فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور؛ ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم. فلما دخلوا قصورَهم وجدوا فيها جميعَ ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا، وإذا على كل باب قصرٍ من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهامتَّان، وفيهما عينان نضَّاختان، فيهما من كل فاكهةٍ زوجان، وحورٌ مقصورات فى الخيام.

فلما تبوَّؤوا منازلهم، واستقروا قرارهم، قال لهم ربُّهم: فَهَل وجَدتُّم ما وعَد ربُّكم حَقاً؟ قالوا: نَعـمْ وربّنـا. قال: هـل رضيتـم ثـواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عنا، قال: فبرضـاى عنكـم أحللتكـم دارى ونظرتم إلى وجهى، فعنـد ذلك قالـوا: **﴿الحَمْدُ لله الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَن إنَّ ربَّنا لغَفُورٌ شكُورٌ * الذى أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ من فَضْلِه لا يَمسُّنا فيها نصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ﴾** (١)

---

(١) ابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٧) قال الحافظُ بن كثير فى «النهاية» (٢/ ٥٢٠): وهذا مرسلٌ ضعيف غريب، وأحسن أحواله أن يكون من كلام بعض السلف، فوهِم بعضُ رواته فجعله مرفوعاً، وليس كذلك، والله أعلم.

[فاطر: ٣٤ - ٣٥]. وهذا سياقٌ غريب، وأثرٌ عجيب، ولبعضه شواهد فى (الصحيحين)[١].

وقال خالدُ بن مَعْدان[٢]: إنَّ فى الجنة شجرةً يُقال لها: طُوبى، ضروعٌ كلُّها، تُرضِعُ صبيانَ أهل الجنة، وإنَّ سِقط المرأة يكون فى نهرٍ من أنهار الجنة يتقلَّبُ فيه حتى تقوم القيامة، فيُبعث ابن أربعين سنة رواه ابنُ أبى حاتم[٣].

قوله: «آخذٍ بعنان فرسه فى سبيل الله» أى: فى جهاد المشركين.

قوله: «أشعثَ» مجرورٌ بالفتحة؛ لأنه اسمٌ لا ينصرف للوصف ووزن الفعل، و«رأسه» مرفوعٌ على الفاعلية، وهو طائرُ الشعر، أشغله الجهادُ / فى سبيل الله، [١٣٧/أ] عن التنعم بالإِدِّهان وتسريح الشعر.

قوله: «مغَّبرةٍ قدماه» هو بالجر، صفة ثانية لعبد.

قوله: «إنْ كان فى الحراسة» هو بكسر الحاء، أى: حماية الجيش عن أنْ يهجم العدوُّ عليهم.

قوله: «كان فى الحراسة» أى: غير مقصرٍ فيها ولا غافل، وهذا اللفظُ يُستعمل فى حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: «وإنْ كان فى السَّاقة كان فى الساقة» أى: فى مؤخَّرة الجيش، أى: يُقلِّب نفسَه فى مصالح الجهاد. فكلُّ مقامٍ يقوم فيه إنْ كان ليلاً أو نهاراً؛ رغبةً فى رضا الله، وطلباً لثوابه ومحبةً لطاعته.

قال ابنُ الجوزى: وهو خاملُ الذِّكر، لا يقصد السموَّ[٤].

وقال الخلخالى: المعنى: ائتمارُه لما أُمر، وإقامتُه حيثُ أُقيم. لا يُفقد من مكانه، وإنَّما ذَكر الحراسةَ والساقة لأنهما أشدُّ مشقة. انتهى. وفيه فضلُ الحراسة فى سبيل الله.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٨٠).

(٢) أبو عبد الله، الكلاعى الحمصى ثقةٌ عابد، يُرسل كثيرا (ت١٠٣هـ) «تقريب» (١٩٠).

(٣) ابن أبى حاتم كما فى «الدر المنثور» (٤/ ٦٤٥).

(٤) ينظر: ابن حجر «فتح البارى» (٦/ ٨٣).

قوله: «إن استأذَن لم يُؤذن له» أى: إذا استأذن على الأُمراء ونحوهم، لم يأذنوا له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طُلابها، وإنما يطلب ما عند الله، لا يقصد بعمله سواه.

قوله: «وإنْ شَفَع» بفتح أوله وثانيه. قوله: «لم يشفَّع» بفتح الفاء مشددة. يعنى: لو ألجأته الحالُ إلى أنْ يشفع فى أمرٍ يحبُّه الله ورسوله، لم تُقبل شفاعتُه عند الأمراء ونحوهم!.

وروى الإمامُ أحمد، ومسلم، عن أبى هريرة، مرفوعاً «رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه»[1].

قال: الحافظ: فيه تركُ حبِّ الرياسة والشهرة، وفضلُ الخمول والتواضع. انتهى[2].

وروى الإمامُ أحمد أيضاً، عن مُصعب بن ثابت[3]، أنَّ[4] عبد الله بن الزبير، قال: قال عثمان - وهو يخطب على منبره -: إنى محدِّثكُم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لم يكن يمنعنى أنْ أُحدِّثكم به إلا الضَّن بكم. سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «حَرَسُ ليلةٍ فى سبيل الله أفضل من ألفِ ليلة يُقام ليلُها ويصام نهارها»[5].

وروى الحافظُ ابن عساكر - فى ترجمة عبد الله بن المبارك - قال عبدُ الله بن محمد، قاضى نَصيبين[6]: حدَّثنى محمد بن إبراهيم بن أبى سُكينة، أنَّه أملى عليه عبدُ الله بن المبارك هذه الأبيات بطَرَسوس[7]، وودعه الخروج وأنفذها[8]

(١) أحمد فى «المسند» (٣/ ١٢٨، ١٦٧، ٢٨٤) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤) واللفظ له.

(٢) ابن حجر، «فتح البارى» (٦/ ٨٣).

(٣) أبو عبد الله، مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوَّام الأسدى، لين الحديث وكان عابدًا (ت ١٥٧هـ) «تقريب» (٥٣٣).

(٤) (ض) (هـ) (ط): ابن. تحريف.

(٥) أحمد فى «المسند» (١/ ٦١، ٦٥) قال ابن حجر فى «الفتح» (٦/ ٨٣) إسنادُه حسن.

(٦) مدينة بين دجلة والفرات فى بلاد العراق، على جادة القوافل المتجهة من الموصل إلى الشام، فُتحت على يد سعد بن أبى وقاص فى عهد عمر سنة ١٧هـ «معجم البلدان» لياقوت الحموى (٥/ ٢٨٨).

(٧) مدينة بثغور الشام بين انطاكيا وحلب وبلاد الروم، وتقع الآن ضمن دولة تركيا. «المصدر السابق» (٤/ ٢٨).

(٨) فى جميع النسخ: وأنشدها والمثبت من «تاريخ دمشق».

معه/ إلى الفُضيل بن عياض، فى سنة سبعٍ وسبعين ومائة. قال: [١٣٧/ب]

ياعابدَ الحرمين لو أبصرتنا	لعلمتَ أنَّك فى العبادة تلعبُ
من كان يخضب خدَّه بدموعه	فنحورُنا بدمائنا تتخضَّب
أو كان يتعب خيلَه فى باطل	فخيولَنا يوم الصبيحة تتعب
ريحُ العبير لكم، ونحن عبيرُنا	رَهَجُ السنابك والغُبارُ الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قولٌ صحيحٌ صادق لا يُكذب
لا يستوى وغبار خيل الله فى	أنف أمرىء ودخان نار تلهَب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيدُ بميِّتٍ لا يكذبُ

قال: فلقيتُ الفُضيلَ بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام، فلما قرأ ذرفت عيناه، فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحنى، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلتُ: نعم، قال لى:

اكتب هذا الحديث، وأملى علىّ الفضيلُ بن عياض: حدَّثنا منصور بن المعتمر، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، علمنى عملاً أنالُ به ثوابَ المجاهدين فى سبيل الله، فقال: «هل تستطيعُ أنْ تُصلّى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟» فقال: يا رسول الله أنا أضعفُ من أنْ أستطيع ذلك، ثم قال النبىُّ ﷺ: «فو الذى نفسى بيده لو طُوِّقتَ ذلك ما بلغت فضلَ المجاهدين فى سبيل الله. أمَا علمت أنَّ فرس المجاهد لَيستَنُّ فى طِوَله[١] فيكتب له بذلك حسنات؟»[٢] [٣].

(١) الطِّوَل: الحبل الطويل الذى يشد فى يد الفرس، حتى لا تذهب «النهاية» (٣/ ١٤٥).

(٢) ابن عساكر «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٥٤)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤١٢).

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٥).



(٣٧)

بــــاب

من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من أطاع العُلماءَ والأمراء فى تحريم ما أحلَّ الله أو تحليلِ ما حرَّم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله.

ش: لقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَابًا من دُون الله والمسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلهاً واحداً لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. [التوبة: ٣١] وتقدَّم تفسيرُ هذا فى أصل المصنف، لما ذكر حديثَ عَدِىِّ بن حاتم رضى الله عنه[١].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال ابنُ عباس: يُوشِكُ أنْ تنزل عليكم حجارةٌ من السماء؛ أقول: قال رسولُ الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟[٢].

ش: قوله: (يُوشك) بضم أوله وكسر الشين المُعجمة، أى: يقرب ويسرع.

وهذا القولُ من ابن عباس/ رضى الله عنهما، جوابٌ لمن قال له: إنَّ أبا بكر [١٣٨/أ] وعمر رضى الله عنهما لايريان التمتعَ بالعمرة إلى الحج، ويريان أنَّ إفراد الحجِّ أفضل، أو ما هو معنى هذا.

---

(١) فى باب: تفسير التوحيد وشهادة أنْ لا إله إلا الله. الباب الخامس.

(٢) أخرجه أحمد فى «المسند» رقم (٣١٢١) وأبو بكر الأثرم فى «السنن» كما فى «المغنى شرح مختصر الخرقى» (٥/ ٩١)، وابن إسحاق كما فى «المطالب العالية» (١/ ٣٦٠) والخطيب فى «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٥) وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (٢/ ١٦٩) والضياء فى «المُختارة» كما فى «الآداب» لابن مفلح (٢/ ٦٦) عن سعيد بن جبير. وله شاهدٌ من طريق عروة، أخرجه الطبرانى فى الأوسط كما فى «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٣٤) بإسناد حسن.

وكان ابنُ عباس يرى أنَّ التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى؛ لحديث سُراقة بن مالك، حين أمرهم النبيُّ ﷺ أنْ يجعلوها عمرة، ويُحلّوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: يارسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟ قال: «بل للأبد» والحديثُ فى (الصحيحين)[1].

وحينئذٍ فلا عُذر لمن استُفتى: أنّ ينظر فى مذاهب العلماء، وما استدلَّ به كلُّ إمام، ويأخذ منْ أقوالهم مادلَّ عليه الدليلُ، إذا كان له مَلَكةٌ يقتدر بها على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فإن تَنَازَعتُم فى شىء فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إن كُنْتُم تُؤمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخرِ ذلك خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأويلاً﴾. [النساء: ٥٩].

وللبخارى، ومسلم، وغيرهما: أنَّ النبى ﷺ قال: «لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أنَّ معى الهدى لأحللت» هذا لفظُ البخارى، فى حديث عائشة[2].

ولفظهُ فى حديث جابر «افعلوا ما أمرتكم، فلولا أنى سُقتُ الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم»[3] فى عدة أحاديث تؤيد قولَ ابن عباس.

وبالجملة: فلهذا قال ابنُ عباس ـ لمَّا عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر ـ: يوشك أنْ تنزل عليكم حجارةٌ من السماء. الحديث.

وقال الإمامُ الشافعى رحمه الله تعالى: أجمع العلماءُ على أنَّ من استبانت له سنَّةُ رسول الله ﷺ، لم يكن له أنْ يدعها لقول أحد[4].

وقال الإمامُ مالك رحمه الله تعالى: ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه، إلا صحاب هذا القبر ﷺ[5]. وكلامُ الأئمة فى هذا المعنى كثير.

ومازال العلماءُ رحمهم الله يجتهدون فى الوقائع: فمَن أصاب منهم فله

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٧٨٥، ٧٢٣٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٢١٦).
(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٧٢٢٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٢١١).
(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦٥١، ١٧٨٥) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٢١٦، ١٢١٨).
(٤) نقله ابن القيم فى «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨٢).
(٥) ينظر ابن عبد البر «الجامع» (٢/ ٣٢).

أجران، ومن أخطأ فله أجر؛ كما في الحديث[1].

لكن إذا استبان لهم الدليلُ، أخذوا به وتركوا اجتهادَهم. وأمَّا إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارضٌ أو مُخصِّص ونحو ذلك. فحينئذٍ، يسوغ للإِمام / أنْ يجتهد. [١٣٨/ب]

وفي عهد الأئمة الأربعة، إنما طلبوا الأحاديثَ ممن هي عنده، باللُّقى والسماع، ويسافر الرجلُ في طلب الحديث إلى الأمصار عدَّة سنين[2].

ثم اعتنى الأئمةُ بالتصانيف، ودوَّنوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، وبيَّنوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاءُ صنَّفوا في كلٍّ مذهب، وذكروا حُجَجَ المجتهدين. فسهل الأمرُ على طالب العلم، وكلٌّ إمام يذكر الحكمَ بدليله عنده.

وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ما يدلُّ على أنَّ من بلغه الدليلُ فلم يأخذ به ـ تقليداً لإِمامه ـ فإنَّه يجب الإِنكارُ عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل.

وقال الإِمامُ أحمد: حدَّثنا أحمد بن عمرو البزَّار، حدَّثنا زياد بن أيوب، حدَّثنا أبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ليس منا أحدٌ إلا يؤخذ من قوله ويدع، غير النبي ﷺ[3].

وعلى هذا: فيجب الإِنكارُ على من ترك الدليل لقول أحدٍ من العلماء، كائناً من كان. ونصوصُ الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يُرجع إليه من كتاب ولا سنة. فهذا هو الذي عناه بعضُ العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد[4].

وأمَّا ما خالف الكتاب والسُّنَّة: فيجب الردُّ عليه؛ كما قال ابنُ عباس، والشافعي، ومالك، وأحمد. وذلك مجمعٌ عليه، كما تقدَّم في كلام الإِمام الشافعي رحمه الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٧٣٥٢) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص.

(٢) ينظر: الخطيب البغداد «الرحلة في طلب الحديث» (٨١، ١٠٩، وما بعدها).

(٣) لم أجده في شيء من كتب أحمد المطبوعة، وأخرج نحوه أبو نُعيم في «الحلية» (٣/ ٣٠٠) والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٦) وابن عبد البر في «الجامع» (٢/ ٩١) عن مجاهد.

(٤) ينظر الكلام حول هذه المسألة في كتاب «إتمام المنَّة والنعمة في ذم اختلاف الأمَّة» لنجل المؤلِّف.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال الإمام أحمد: عجبتُ لقوم عرفوا الإسنادَ وصحَّتَه، يذهبون إلى رأى سُفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيحْذرِ الذين يُخالِفُون عَنْ أَمْرِه أَنْ تُصيبَهُم فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُم عذَابٌ أليمٌ﴾. [النور: ٦٣] أتدرى ما الفتنة؟ الفتنةُ: الشرك. لعلَّه إذا ردَّ بعضَ قوله، أنْ يقع فى قلبه شىءٌ من الزيغ فيهلك.

ش: هذا الكلامُ من الإمام أحمد، رواه عنه الفضلُ بن زياد[(١)]، وأبو طالب[(٢)]. قال الفضل، عن أحمد: نظرتُ فى المُصحف، فوجدتُ طاعةَ الرسول ﷺ فى ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيحْذرِ الذين يُخالِفُون عَنْ أَمْرِه أَنْ تُصيبَهُم فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُم عذَابٌ أليمٌ﴾.

[١٣٩/أ] فذكر من قوله: الفتنةُ: الشرك، إلى قوله: فيهلك. ثم جعل يتلو هذه الآية/ ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتَّى يُحكِّمُوكَ فيما شجرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسلِّمُوا تَسْليماً﴾[(٣)]. [النساء: ٦٥].

وقال أبو طالب ـ عن أحمد ـ وقيل له: إنَّ قوماً يدَّعون الحديث، ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره، [فقال: أعجبُ لقومٍ سمعوا الحديثَ، وعرفوا الإسناد وصحَّته يدَعونه، ،يذهبون إلى رأى سفيان وغيره][(٤)]، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الذين يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِه أن تُصيبَهُم فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُم عذَابٌ أليمٌ﴾ أتدرى ما الفتنة؟ الفتنةُ: الكفر. قال الله تعالى: ﴿والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ﴾. [البقرة: ٢١٧] فيدعون الحديثَ عن رسول الله ﷺ: وتغلبُهم أهواؤهم إلى الرأى. ذكر ذلك عنه شيخُ الإسلام.

قوله: (عرفوا الإسناد). أى: إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسنادُ الحديث، فهو صحيحٌ عند أهل الحديث وغيرِهم من العلماء.

وسفيان: هو الثورى، الإمامُ الزاهد، العَابد الثقة الفقيه، وكان له أصحابٌ

---

(١) أبو العباس القطان، من أصحاب أحمد، وممن أكثروا الرواية عنه «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٦٣).

(٢) أحمد بن حُميد المشكانى، متخصصٌ بصحبة أحمد، وكان يكرمه ويعظمه (ت٢٤٤هـ) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٩).

(٣) أخرجه عبيد الله بن بطة فى «الابانة الكبرى» رقم (٩٧) وينظر «مسائل عبد الله» (٣/ ١٣٥٥).

(٤) ساقط من الأصل. وهو انتقال نظر.

يأخذون عنه. ومذهبُه مشهور، يذكره العلماءُ في الكتب التي يُذكر فيها مذاهب الأئمة، كـ: (التمهيد) لابن عبد البر[1]، و(الاستذكار) له[2]، وكتاب (الإشراف على مذاهب الأشراف) لابن المنذر[3]، و(المحلَّى) لابن حزم[4]، و(المغنى) لأبى محمد، عبد الله بن أحمد بن قُدَامة الحنبلى[5]، وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه الله: (عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته) إلى آخره، إنكارٌ منه لذلك، وأنه يؤول إلى زيغ القلوب، الذى يكون به المرءُ كافراً.

وقد عمَّت البلوى بهذا المُنكر، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم. نصبوا الحبائلَ فى الصَّد عن الأخذ بالكتاب والسُّنة، وصدُّوا الناس عن مُتابعة النبى ﷺ وتعظيم أمره ونهيه.

فمن ذلك قولُهم: لا يَستدلُّ بالكتاب والسُّنة إلا المجتهد، والاجتهادُ قد انقطع. ويقول: هذا الذى قلَّدتُه أعلمُ منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال، التى غايتها تركُ متابعة الرسول ﷺ، الذى لا ينطق عن الهوى، والاعتمادُ على قول من يجوز عليه الخطأ. وغيرُه من الأئمة يخالفه ويمنع قولَه بدليل، فما من إمامٍ إلا والذى معه بعضُ العلم لا كله.

فالواجبُ على كلِّ مكلف، إذا بلغه الدليلُ من كتاب الله وسنة رسوله وفَهِم معنى ذلك: أنْ ينتهى إليه ويعملَ به، وإنْ خالفه من خالفه؛ كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم ولا تَتَّبِعُوا من دُونه أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَا تَذَّكَّرُونَ﴾. / [١٣٩/ب] [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إِنَّ فى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. [العنكبوت: ٥١].

---

(١) طبع كاملا.

(٢) طبع منه مجلدان فقط.

(٣) طبع منه المجلد الرابع.

(٤) مطبوع منذ سنوات، بتحقيق العلامة أحمد شاكر.

(٥) طبع طبعات كثيرة، آخرُها وأجودها بتحقيق الأستاذ الدكتور عبدالله التُركي والدكتور عبد الفتاح الحلو، وقد اكتمل الآن والحمد لله.

وقد تقدَّم حكايةُ الإجماع على ذلك؛ وبيانُ أنَّ المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبو عمر بن عبد البر وغيرُه الإجماعَ على ذلك.

قلتُ: ولا يخالف فى ذلك إلا جُهَّالُ المقلِّدة، لجهلهم بالكتاب والسُّنَّة، ورغبتهم عنهما. وهؤلاء وإنْ ظنوا أنهم اتبعوا الأئمة، فإنهم فى الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غيرَ سبيلهم؛ كما قدَّمنا من قول مالك، والشافعى، وأحمد.

لكن فى كلامِ أحمد رحمه الله إشارةٌ إلى أنَّ التقليد قبل بلوغ الحجة لا يُذم، وإنَّما يُنكر على من بلغته الحجةُ وخالفها، لقول إمامٍ من الأئمة؛ وذلك إنَّما نشأ عن الإِعراض عن تدبرٍّ كتاب الله وسُنة رسوله، والإِقبال على كُتب من تأخر، والاستغناء بها عن الوحيين. وهذا يُشبه ما وقع من أهل الكتاب، الذين قال الله فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ﴾ [التوبة: ٣١] كما سيأتى بيانُ ذلك، فى حديث عَدى بن حاتم.

فيجبُ على من نصح نفسَه: إذا قرأ كُتب العلماء ونظر فيها، وعرف أقوالَهم، فليعرضها على ما فى الكتاب والسُّنَّة؛ فإنَّ كلَّ مجتهدٍ من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه، لابدَّ أنْ يذكر دليلَه.

والحقُّ فى المسألة واحد، والأئمةُ مثابون على اجتهادهم. فالمنصفُ يجعل النظر فى كلامهم وتأمُّلَه، طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً، وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون، ويتعرَّفُ بذلك من هو أسعدُ بالدليل من العلماء فيتَّبعه.

والأدلةُ على هذا الأصل فى كتاب الله أكثر من أنْ تحصر، وفى السُّنَّة كذلك؛ كما أخرج أبو داود بسنده، عن أُناسٍ من أصحاب معاذ: أنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا أراد أنْ يبعث مُعاذاً إلى اليمن، قال: «كيف تقضى إذا عرض لك قضاءٌ» قال: أقضى بكتاب الله، قال: «فإنْ لم تجد فى كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإنْ لم تجد فى سُنة رسولُ الله ﷺ ولا فى كتاب الله؟»/ قال: أجتهدُ رأيى [١٤٠/أ] ولا آلو، فضرب رسولُ الله ﷺ صدره، وقال: «الحمدُ لله الذى وفَّق رسولَ رسول الله لما يُرضى رسول الله» وساق بسنده، عن الحارث بن عمر، عن أُناسٍ

من أصحاب معاذ، عن مُعاذ بن جبل: أنَّ رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن - بمعناه[1].

والأئمة رحمهم الله، لم يُقصِّروا فى البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة؛ لعلمهم أنَّ مِن العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرَهم، وذلك كثير، كما لا يخفى على من نظر فى أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة: إذا جاء الحديثُ عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضى الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجالٌ وهم رجال!.

وقال: إذا قلتُ قولاًوكتابالله يخالفه، فاتركوا قولى لكتاب الله. قيل: إذا كان قول الرسول ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولى لخبر الرسول ﷺ. وقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولى لقول الصحابة[2].

وقال الربيع: سمعتُ الشافعىَّ يقول: إذا وجدتم فى كتابى خلافَ سُنة رسول الله ﷺ، فخذوا سُنةَ رسول الله ﷺ ودعوا ماقلت.

وقال: إذا صح الحديثُ بما يخالف قولى، فاضربوا بقولى الحائط[3]!

وقال مالك: كلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ.

وتقدم له مثلُ ذلك، فلا عذر لمقلِّد بعد هذا. ولو استقصينا كلامَ العلماء فى هذا لخرج بنا عمَّا قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفايةٌ لطالب الهُدى.

قوله: «لعلَّه إذا ردَّ بعضَ قوله ـ أى: قول الرسول ﷺ ـ أنْ يقع فى قلبه شىءٌ من الزيغ فيهلِك».

نبَّه رحمه الله أنَّ رد قول الرسول ﷺ سببٌ لزيغ القلب، وذلك هو الهلاكُ فى الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبهم والله لا يهدى القوم الفاسِقين﴾. [الصف: ٥].

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٥٩٢، ٣٥٩٣). وقال ابنُ حجر فى «التلخيص» (٤/ ١٨٢): إسناده ضعيف، لجهالة أصحاب معاذ.

(٢) ذكرهما الفُلانى فى «إيقاظ همم أولى الأبصار» (٥٠).

(٣) أخرجه البيهقى فى «المناقب» (١/ ٤٧١).

قال شيخُ الإسلام - في معنى قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الذين يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ -: فإذا كان المخالفُ عن أمره قد حُذِّر من الكفر والشرك؛ أو من [١٤٠/ب] العذاب الأليم/، دلَّ على أنَّه قد يكون مُفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم. ومعلومٌ أنَّ إفضاءَه إلى العذاب هو مجرَّدُ فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنَّما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر؛ كما فعل إبليسُ لعنه الله. انتهى.

وقال أبو جعفر بن جرير: عن الضحاك ﴿فَلْيَحْذَرِ الذين يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ﴾ قال: يُطبع على قلبه فلا يؤمَن أنْ يُظهِرَ الكفرَ بلسانه فتُضرب عُنقُه.

قال أبو جعفر: أُدخلت عن؛ لأن معنى الكلام: فلحذر الذى يلوذون عن أمره، ويُدبِرون عنه معرضين(١).

قوله: ﴿أو يُصيبهم﴾ فى عاجل الدنيا عذابٌ من الله مُوجع؛ على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن عَدى بن حاتم: أنه سمع النبيَّ ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذُوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو سُبحانه عما يُشركون﴾. [التوبة: ٣١] فقلت: إنَّا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرم الله فتحلونه»، فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». رواه أحمدُ، والترمذى وحسنه(٢).

ش: هذا الحديثُ قد رُوى من طُرق: فرواه ابنُ سعد، وعبد بن حُميد، وابنُ المنذر، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والطبرانى، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى.

---

(١) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٨/١٧٨).

(٢) الترمذى فى «الجامع رقم (٣٠٩٤) وأصله عند أحمد فى «المسند» (٤/٢٥٧، ٣٧٨) دون هذا اللفظ، وقد سبق تخريجهُ فى أول الكتاب.

قوله: (عن عَدى بن حاتم)، أى: الطائى المشهور، وحاتم هو ابن عبدالله بن سعد بن الحشرج ـ بفتح الحاء المهملة ـ المشهورُ بالسخاء والكرم. قدم عدىٌ على رسول الله ﷺ فى شعبان سنة تسعٍ من الهجرة فأسلم. وعاش مائه وعشرين سنة.

وفى الحديث: دليلٌ على أنَّ طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادةٌ لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلهاً واحداً لا إله إلا هُوَ سُبْحَانَهُ عمَّا يُشرِكُون﴾ ويُظهر ذلك؛ قوله تعالى: ﴿ولا تَأْكُلُوا ممَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ الله عَلَيْه وإِنَّهُ لَفسْقٌ وإنَّ الشياطِين لَيُوحُون إلى أَوْلِيَائِهِم لِيُجَادِلُوكم وإن أَطَعْتُمُوهُم إنَّكُم لمشرِكُون﴾. [الأنعام: ١٢١].

وهذا قد وقع فى كثيرٍ من الناس مع من قلَّدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل/ إذا [١٤١/أ] خالف المقلَّد، وهو من هذا الشرك.

ومنهم من يغلو فى ذلك، واعتقد أنَّ الأخذ بالدليل ـ والحالة هذه ـ يُكره، أو يحرم؛ فعظُمت الفتنة. ويقول: هم أعلمُ منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد. وربما تفوَّهوا بذمٍّ من يعمل بالدليل، ولا ريب أنَّ هذا من غُربةِ الإِسلام، كما قال شيخُنا رحمه الله تعالى فى المسائل:

فتغيَّرت الأحوالُ، وآلت إلى هذه الغاية. فصار عند الأكثر، عبادةُ الرهبان: هى أفضلُ الأعمال، ويسمُّونها ولاية، وعبادةُ الأحبار: هى العلمُ والفقه. ثم تغيَّرت الحالُ إلى أنّ عُبد من ليس من الصالحين، وعُبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين(١).

وأمَّا طاعةُ الأمراء ومتابعتُهم، فيما يُخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمَّت به البلوى قديماً وحديثاً، فى أكثر الولاة بعد الخُلفاء الراشدين وهلُمَّ جرا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُون أَهْوَاءَهُم وَمَنْ أَضَلُّ

---

(١) المسألة الخامسة.

مِمَّن اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيرِ هُدىً مِن الله إنَّ الله لا يَهْدِى القَوْمَ الظالمين﴾. [القصص: ٥٠].

وعن زياد بن حُدير، قال: قال لى عُمر: هل تعرفُ ما يهدمُ الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه زلّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب وحكمُ الأئمة المُضلّين. رواه الدارمى[1].

جعلنا الله وإياكم من الذين يَهدون بالحق، وبه يعدِلون.

(١) الدارمى فى السنن رقم (٢٢٠)، وأخرجه الفريابى فى «صفة المنافق» رقم (٣١) وأبو نعيم فى «الحلية» (١٩٦/٤).

(٣٨)

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريـــــدون أن يتحاكمـــوا إلى الطاغوت﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ من قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوت وقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا به ويُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُم ضَلالاً بَعِيداً * وإذا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ الله وإلى الرَّسُول رَأَيْتَ المُنَافقين يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً * فكَيْفَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم ثُمَّ جَاءوكَ يَحْلِفُونَ بالله إن أَرَدْنَا إلا إحْسَاناً وتَوْفِيقاً﴾. [النساء: ٦٠ - ٦٢].

ش: قال العمادُ ابنُ كثير: والآيةُ ذامَّةٌ لمن عدل عن الكتاب والسُّنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المرادُ بالطاغوت هاهنا(١).

وتقدَّم ما ذكره العلامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله في حدِّه للطاغوت، وأنَّه كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه: من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع.

فكلُّ من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أنْ يكفروا به. فإنَّ التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسُنة رسوله، ومن كان يحكُم بهما. فمن حاكم إلى غيرهما: فقد تجاوز به حدَّه، وخرج عما شرعه الله ورسوله، وأنزله/ منزلةً لا يستحقها. [١٤١/ب]

وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبدَ الطاغوت، فإنْ كان المعبودُ صالحا

(١) ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٠٥).

صارت عبادةُ العابد له راجعةً إلى الشيطان الذى أمره بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ للذين أَشرَكُوا مكَانَكُم أَنْتُم وشركاؤكم فزَيَّلْنَا بَيْنَهُم وقَالَ شركاؤهُم ما كُنْتُم إِيَّانَا تَعْبُدُون * فكفى بالله شَهيداً بَيْنَنَا وبينكم إنْ كُنَّا عن عبادَتِكُم لغافلينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إلى الله مَوْلاهُم الحقِّ وَضَلَّ عَنْهُم ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾. [يونس: ٢٨ - ٣٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ للمَلائكَةِ أَهَؤلاء إِيَّاكُم كانُوا يَعْبُدُون * قالوا سُبْحَانَكَ أنتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤمِنُونَ﴾. [سبأ: ٤٠ - ٤١].

وإنْ كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً، أو غير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصناماً على صُور الصالحين أو الملائكة أو غير ذلك، فهى من الطاغوت الذى أمر الله تعالى عباده أنْ يكفروا بعبادته، ويتبرأوا منه، ومن عبادة كلِّ معبودٍ سوى الله كائناً من كان. وهذا كلُّه من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذى دعا إلى كلِّ باطل وزيَّنه لمن فعله، وهذا يُنافى التوحيدَ الذى هو معنى شهادة أنْ لا إله إلا الله.

فالتوحيدُ: هو الكفر بكلِّ طاغوتٍ عبده العابدون من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُم أُسْوَةٌ حَسنَةٌ فى إبْراهيم والذين مَعَهُ إذْ قَالُوا لقَومهم إنَّا بُرآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُون من دُونِ الله كفَرْنا بكُمْ وبَدَا بيْنَنَا وبَيْنَكُم العَدَاوَةُ والبَغْضَاءُ أَبَداً حتى تُؤمِنُوا بالله وَحْدَهُ﴾. [الممتحنة: ٤]. وكلُّ من عبد غيرَ الله فقد جاوز به حدَّه، وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك: الطاغوت: ما عُبِد من دون الله[١].

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله: فقد ترك ما جاء به الرسولُ ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكا فى الطاعة، وخالف ما جاء به الرسول ﷺ فيما أمره الله تعالى به فى قوله: ﴿وأن احكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ الله ولا تَتَّبِعْ أَهْواءهُم واحْذَرْهُم أَنْ يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ ما أَنْزَلَ الله إليْك﴾. [المائدة: ٤٩] وقوله: ﴿فَلا

(١) أخرجه ابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٢/ ٢٢).

وَربِّكَ لا يُؤمنُونَ حتَّى يُحكِّمُوكَ فيما شَجر بيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْليماً﴾. [النساء: ٦٥].

فمن خالف ما أمر الله به رسولَه ﷺ/ : بأنْ حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، [١٤٢/أ] أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويُريده، فقد خلع ربقةَ الإسلام والإيمان من عُنقه. وإنْ زعم أنه مؤمن.

فإنَّ الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذَبهم في زعمهم الإيمان؛ لما فى ضمن قوله: ﴿يزعُمون﴾ من نفى إيمانهم، فإنَّ ﴿يزعُمون﴾ إنما يُقال غالباً لمن ادَّعى دعوى هو فيها كاذبٌ لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها. يحقق هذا قولُه: ﴿وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا به﴾؛ لأن الكفر بالطاغوت ركنُ التوحيد، كما فى آية البقرة. فإذا لم يحصل هذا الركنُ لم يكن موحِّداً.

والتوحيدُ هو أساسُ الإيمان، الذى تصلح به جميعُ الأعمال وتَفسُد بعدمه. كما أنَّ ذلك بيِّنٌ فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغُوت ويُؤمِن بالله فَقَدْ استَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انفصام لها﴾. [البقرة: ٢٥٦] وذلك أنَّ التحاكم إلى الطاغوت إيمانٌ به.

وقوله: ﴿ويُرِيدُ الشيْطانُ أَن يُضلَّهُم ضَلالاً بَعيداً﴾ يبيِّنُ تعالى فى هذه الآية: أنَّ التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطانُ ويُزيِّنه لمن أطاعه، ويبيِّن أنَّ ذلك مما أضل به الشيطانُ من أضلَّه. وأكَّده بالمصدر، ووصفَه بالبعد، فدلَّ على أنَّ ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهُدى.

ففى هذه الآية أربعةُ أمور. الأوَّل: أنَّه من إرادة الشيطان. الثانى: أنه ضلالٌ. الثالث: تأكيدُه بالمصدر. الرابع: وصفُه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله! ما أعظمَ هذا القرآن وما أبلغه، وما أدلَّه على أنه كلامُ رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلَّغه عبدُه الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليهما أجمعين.

قوله: ﴿وإذَا قيلَ لَهُم تَعَالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ الله وإلى الرَّسُول رَأَيْتَ المُنَافقينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ بيَّن تعالى أنَّ هـذه صفـةُ المنافقـين، وأنَّ

من فعل ذلك أو طلبه، وإنْ زعم أنَّه مؤمنٌ فإنَّه في غاية البُعد من الإيمان.

قال العلامة ابنُ القيِّم: هذا دليلٌ على أنَّ من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسُّنة فأبى، أنَّه من المنافقين.

قوله: ﴿يصدُّون﴾ لازمٌ. وهو بمعنى يُعرضون؛ لأنَّ مصدره، صدوداً. فما [١٤٢/ب] أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصاً ممن / يدَّعي العلم. فإنَّهم صدُّوا عما توجبه الأدلةُ من كتاب الله وسُنة رسوله إلى أقوال من يُخطيء كثيراً، ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة:

في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادِهم على قول من لا يجوز الاعتمادُ على قوله، ويجعلون قولَه المخالف لنص الكتاب والسُّنة وقواعد الشريعة هو المعتمدُ عندهم، الذي لا تصح الفتوى إلا به. فصار المتبعُ للرسول ﷺ بين أولئك غريباً، كما تقدَّم التنبيهُ على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبرَّ هذه الآيات وما بعدها، يتبيَّنُ لك ما وقع فيه غالبُ الناس من الإعراض عن الحق وتركِ العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: **﴿وإذا قيل لَهُم لا تُفْسِدُوا في الأرضِ قَالُوا إنَّما نَحْنَ مُصْلِحُونَ﴾**. [البقرة: ١١].

ش: قال أبو العالية في الآية: يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصية الله: فقد أفسد في الأرض؛ لأنَّ صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله(١).

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام، في قوله تعالى: **﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُها العيرُ إنَّكُمْ لَسارِقُون * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم ماذا تَفْقِدُون * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِك وَلِمَنْ جَاء بِه حِمْلُ بَعِير وَأَنَا بِه زَعِيمٌ * قَالُوا تالله لَقَدْ عَلِمْتُم ما جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾**. [يوسف: ٧٠ - ٧٢] فدلَّت الآيةُ على أنَّ كلَّ معصية فسادٌ في الأرض.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» رقم (١٢١)، وأخرجه الطبري في «التفسير» رقم (٣٤٠) عن الربيع بن أنس.

ومناسبةُ الآية للترجمة: أنَّ التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد في الأرض.

وفي الآية: التنبيهُ على عدم الاغترار [بأقوال أهل الأهواء وإنْ زخرفوها بالدعوى. وفيها: التحذير من الاغترار][1] بالرأي، مالم يقم على صحته دليلٌ من كتاب الله وسُنَّة رسوله. فما أكثر من يُصدِّق بالكذب ويُكذِّب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد في الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمورٌ كثيرة تخرج صاحبها من الحق وتدخله في الباطل. ونسألُ الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

فتدبَّر تجد ذلك في حال الأكثر: إلا من عصمه الله، ومَنَّ عليه بقوَّةِ داعي الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً ناقداً عند ورود الشبهات. وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: ﴿**ولا تُفْسِدُوا في الأرْضِ بَعْدَ إصْلاحِهَا**﴾. [الأعراف: ٥٦].

ش: قال/ أبو بكر بن عيَّاش[2] ـ في الآية ـ: إنَّ الله بعث محمداً ﷺ إلى [١٤٣/أ] أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمَّدٍ ﷺ. فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمدٌ ﷺ فهو من المفسدين في الأرض[3].

وقال ابنُ القيِّم: قال أكثرُ المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاءِ إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيانِ الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله؛ فإنَّ عبادة غيرِ الله والدعوة إلى غيره والشركَ به: أعظمُ فسادٍ في الأرض. بل فسادُ الأرض في الحقيقة إنَّما هو بالشرك به ومخالفة أمره. فالشركُ والدعوة إلى غير الله وإقامةُ معبودٍ غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ: هو أعظمُ الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبودَ

---

(١) ساقط من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٢) ابن سالم الأسدي الكوفي، المقرء مشهور بكُنيته، والأصح أنها اسمه، ثقةٌ عابد، إلا أنه لما كبر ساء حفظُه، وكتابه صحيح (ت١٩٤هـ) «تقريب» (٦٢٤).

(٣) أخرجه أبو الشيخ، كما في «الدر المنثور» (٣/٤٧٦).

المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا. وغيرهُ إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلافِ شريعته فلا سمع له ولا طاعة.

ومن تدبَّر أحوالَ العالم: وجد كلَّ صلاح في الأرض، فسببه توحيدُ الله وعبادتُه وطاعةُ رسوله. وكلَّ شرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقحْط وتسليط عدوٍّ وغيرِ ذلك، فسببُه: مخالفةُ رسوله، والدعوةُ إلى غير الله ورسوله. انتهى[1].

ووجهُ مطابقةِ هذه الآية للترجمة: أنَّ التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يُفسد الأرضَ من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسُنة رسوله، وهو سبيلُ المؤمنين؛ كما قال تعالى: **﴿وَمَنْ يُشاقق الرَّسُولَ من بَعْد ما تبيَّنَ لَهُ الهدى ويتَّبعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُولِّه ما تَوَلَّى ونُصْلِه جهنَّم وساءَتْ مصيراً﴾**. [النساء: ١١٥].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِه: **﴿أَفَحُكْمَ الجاهليَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنُون﴾**. [المائدة: ٥٠].

ش: قال ابنُ كثير: يُنكر تعالى، على من خرج عن حُكم الله تعالى المشتملِ على كلِّ خير، والنهى عن كلِّ شر، وعَدَل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجالُ بلا مُستند من شريعة الله؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون بها من الجهالات والضلالات، كما يحكم بها التتار من السياسات المأخوذة عن جنكز خان[2] الذى وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكامٍ أقيسة من شرائع شتى. وفيها كثيرٌ من الأحكام أخذها عن/ مجرَّد نظره، وصار [١٤٣/ب] فى بَنيه شرعاً يقدِّمونه على الحكم بكتاب الله وسُنة رسوله.

ومن فعل ذلك: فهو كافرٌ يجب قتاله حتى يرجع إلى حُكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه فى قليلٍ ولا كثير[3].

---

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٣/ ١٧).

(٢) سُلطان التتار الهالك، ووالد ملوكهم ومؤسس حُكمهم الجائر. لا يُعرف له نسب، كان باذلاً للمال ومسرفاً فى القتل مشركاً، بالله، ومن ذريته هولاكو السفاح، مات سنة (٦٢٤هـ) «تاريخ ابن كثير» (١٣/ ١١٧).

(٣) ابن كثير فى «التفسير» (٣/ ١٢٣).

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ استفهامُ إنكار، أى: لا حُكم أحسن من حكمه تعالى.

وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشارك، أى: ومن أعدل من الله حكماً لِمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أنَّ الله تعالى: أحكمُ الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليمُ بمصالح عباده القادر على كلِّ شىء، الحكيمُ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره؟.

وفى الآية: التحذيرُ من حكم الجاهلية، واختيارِه على حكم الله ورسوله. فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلى ضدِّه من الباطل.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن عبد الله بن عمرو: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به» قال النووى: حديثٌ صحيح، رُوِّيناه فى كتاب (الحجة) بإسنادٍ صحيح.

ش: هذا الحديث: رواه الشيخ أبو الفتح، نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى[1] فى كتاب (الحُجَّةِ على تارك المحجَّة)، بإسنادٍ صحيح، كما قاله المصنفُ، عن النووى[2].

ورواه الطبرانىُّ، وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نُعيم فى (الأربعين) التى شرط لها أنْ تكون من صحاح الأخبار[3]، وشاهدُه فى القرآن:

قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يحكِّمُوكَ فيما شَجَر بَيْنَهم﴾. الآية [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿وما كانَ لمؤمنٍ ولا مُؤمنَةٍ إذا قضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الخيرةُ من أمْرِهِم﴾. [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿فإنْ لم يَسْتَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُون أَهْوَاءَهُمْ﴾. [القصص: ٥٠] ونحو هذه الآيات.

قوله: «لايؤمن أحدكم»: أى: لايكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذى

---

(١) النابلسى، يعرف بابن أبى حافظ، فقيه محدِّث (ت ٤٩٠هـ) «سير النبلاء» (١٩/ ١٣٦).

(٢) النووى فى «الأربعين» (الحديث الحادى والأربعون).

(٣) الطبرانى كما فى «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٦٨) وابن أبى عاصم فى «السُّنَّة» رقم (١٥) وأبو نعيم فى «الأربعين» كما فى «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٦٨). وقال الحافظ ابن رجب فى «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٦٩): تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه. وذكرها.

وعد الله أهلَه عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجةِ أهل الإِساءة والمعاصي من أهل الإِسلام.

قوله: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به». الهوى: بالقصر، أي: مايهواه وتحبهُ نفسُه وتميل إليه.

فإنْ كان الذي يحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به ﷺ لا يخرج عنه إلى مايخالفه، فهذه صفةُ أهل الإِيمان المطلق.

[١٤٤/أ] وإنْ كان / بخلاف ذلك، أو في بعض أحواله أو أكثرها. انتفى عنه من الإِيمان كمالُه الواجب؛ كما في حديث أبي هريرة «لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن»[(١)] يعني أنهً بالمعصية ينتفي عنه كمالُ الإِيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإِسلام. وينقص إيمانُه، فلاُ يطلق عليه الإِيمانُ إلا بقيد المعصية أو الفسوق، فيقال: مؤمنٌ عاص، أو يقال: مؤمنٌ بإيمانه فاسقُ بمعصيته، فيكون معه مُطلق الإِيمان الذي لايصح إسلامه إلا به؛ كما قال تعالى: ﴿فَتحْرِيرُ رَقَبَة مُؤْمنَة﴾. [النساء: ٩٢].

والأدلَّةُ على ماعليه سَلفُ الأمة وأئمتها ـ أنَّ الإِيمان قولُ وعمل ونيَّة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ـ من كتاب الله وسُنة رسوله أكثرُ من أنْ تُحصر.

فمن ذلك: قولهُ تعالى: ﴿ومَا كانَ الله ليُضيعَ إيمانكُم﴾. [البقرة: ١٤٢] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقولُ النبي ﷺ لوفد عبد القيس «آمركُم بالإِيمان بالله وحده، أتدرون ما الإِيمان بالله وحده؟ شهادة أنْ لا إله إلا الله» الحديث، وهو في (الصحيحين)، و(السنن)[(٢)].

والدليلُ على أنَّ الإِيمان يزيد: قوله تعالى: ﴿ويَزْدَادَ الذين آمَنُوا إيمَاناً﴾. [المدثر: ٣١]، ﴿فَأَمَّا الذين آمَنُوا فزادتْهُم إيمَاناً﴾. [التوبة: ١٢٤] خلافاً لمن قال: إنَّ الايمان هو القول، وهم المُرجئة، ومن قال: إنَّ الإِيمان هو التصديق، كالأشاعرة.

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠) ومسلم في «الصحيح» رقم (٥٧).

(٢) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٣، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٠٧) من حديث ابن عباس.

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً: أنَّ نية الحق تصديقٌ، والعملَ به تصديق، وقول الحق تصديق. فليس مع أهل البدع ماينافى قولَ أهل السُّنة والجماعة. ولله الحمدُ والمنة.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ البرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المشرق والمغْرِب ولَكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتَاب والنَّبِيِّين وآتَى المال علَى حُبِّه ذَوِى القُرْبَى واليتَامى والمساكين وابْنَ السَّبِيل والسائلين وفى الرِّقاب وأقَامَ الصلاة وآتَى الزكاة والموفون بعَهْدهم إذا عاهَدُوا والصابرين فى البأساء والضرَّاء وحين البأسِ أُولَئك الذين صَدَقُوا﴾. [البقرة: ١٧٧] أى: فيما عملوا به فى هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهدُه فى كلام العرب، قولُهم: حملةٌ صادقة.

وقد سمَّى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسولُ ﷺ إلهاً، فقال: ﴿أرَأيْت مَنِ اتخذ إلَهَهُ هواهُ﴾. [الفرقان: ٤٣] قال بعضُ المفسرين: لايهوى شيئاً إلا ركبه[1].

قال ابنُ رجب: أمَّا معنى الحديث: فهو أنَّ الإنسان لايكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبتُه تابعةَ لما جاء به الرسول ﷺ / من الأوامر والنواهى [١٤٤/ب] وغيرها. فيحبُّ ما أمر به، ويكره ما نُهى عنه. وقد ورد القرآنُ بمثل هذا المعنى فى غير موضع، وذمَّ سبحانه من كره ما أحبَّه الله، أو أحبَّ ما كرهه الله؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم اتَّبَعُوا ما أسْخَطَ الله وكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أعْمالَهُم﴾. [محمد: ٢٨].

فالواجبُ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يحبَّ ما أحبه الله، محبةً توجب له الاتيانَ بما أوجب عليه منه. فإنْ زادت المحبةُ حتى أتى ما نُدب إليه منه، كان ذلك فضلاً.

وأنْ يكره ما يكرهه الله كراهةً توجب له الكفَّ عما حرَّم عليه منه، فإنْ زادت الكراهةُ حتى أوجبت الكفَّ عمَّا كرهه تنزيهاً، كان ذلك فضلاً.

فمن أحبَّ الله ورسوله محبةً صادقة من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه: ما يُحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسولُه، فيرضى بما يرضى به الله

---

(١) أخرجه عبد بن حُميد، وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٠) عن قتادة السدوسى.

ورسولُه، ويَسخط ما يُسخط الله ورسولَه، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض. فإنْ عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، بأنْ ارتكب بعضَ ما يكرهه الله ورسوله، وترك ما يحبه الله ورسوله ـ مع وجوبه والقدرة عليه ـ دلَّ ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أنْ يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التى هى ركنُ العبادة إذا كملت. فجميعُ المعاصى تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله.

وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضعَ من كتابه، فقال تعالى: **﴿فإنْ لَمْ يستجيبوا لكَ فاعْلَم أَنَّمَا يَتَّبِعُون أَهْوَاءهُم ومَنْ أَضَلُّ مِمَن اتَّبَع هَوَاهُ بِغَيَر هُدىً من الله﴾**. [القصص: ٥٠].

وكذلك البدعُ إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع؛ ولهذا سُمى أهلها أهل الأهواء. وكذلك المعاصى، إنما تقع من تقديم الهوى على محبةً الله ومحبة ما يحبه الله.

وكذلك حبُّ الأشخاص: الواجبُ فيه أنْ يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبةُ من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصِّديقين والشهداء والصالحين عموماً؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان: أنْ يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله[1]. فتحرمُ موالاةُ أعداء الله/ ومن يكرهه الله عموماً، [١٤٥/أ] وبهذا يكونُ الدين كله لله وحده. ومن أحبَّ لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله: فقد استكمل الإيمان[2]. ومن كان حبُّه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه: كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب. فيجب التوبةُ من ذلك. انتهى ملخصاً[3].

ومناسبةُ الحديث للترجمة: بيانُ الفرقِ بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصى، فى أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال الشَّعبى: كان بين رجلٍ من المنافقين ورجل من اليهود خصومةٌ، فقال اليهودى: نتحاكم إلى محمد؛ عرف أنَّه لا يأخذ

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٦، ٢١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٤٣) من حديث أنس.

(٢) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٨١) من حديث أبى أمامة.

(٣) ابن رجب «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٧٠).

الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أنْ يأتيا كاهناً فى جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين يَزْعُمُون﴾ الآية[1].

وقيل: نزلت فى رجلين اختصما، فقال أحدُهما: نترافع إلى النبى ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدُهما القصة. فقال للذى لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال نعم، فضربه بالسيف فقتله[2].

ش: قوله: (وقال الشعبى). هو عامر بن شَراحيل الكوفى، عالمُ أهل زمانه، وكان حافظاً علامة ذا فنون. كان يقول: ما كتبتُ سوداءَ فى بيضاء. وأدرك خلقاً من الصحابة، وعاش بضعاً وثمانين سنة. قاله الذهبى[3].

وفيما قاله الشَّعبىُّ ما يُبَيِّن أنَّ المنافق يكون أشدَّ كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشدَّ عداوة منهم لأهل الإيمان؛ كما هو الواقع فى هذه الأزمنة وقبلها: من إعانة العدوِّ على المسلمين، وحرصِهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان[4].

ومن تدبَّر ما فى التاريخ وما وقع منهم فى الوقائع عرف أنَّ هذا حالُ المنافقين قديماً وحديثاً، وقد حذَّر الله نبيَّه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضَّه على جهادهم فى مواضع من كتابه؛ قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّبِىُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقِين واغْلُظْ عَلَيْهِم ومأواهم جهنَّمُ وبئسَ المَصير﴾. [التحريم: ٩].

وفى قصة عمر، وقتله المنافق الذى طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى: دليلٌ على قتل من أظهر الكفر والنفاق.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٩٨٩١، ٩٨٩٢، ٩٨٩٣) بإسناد صحيح، كما قال ابن حجر فى «فتح البارى» (٥/ ٣٧).

(٢) أخرجه الثعلبى، كما فى «الدر المنثور» (٢/ ٥٨٢)، والكلبى كما فى «فتح البارى» (٥/ ٣٧) عن ابن عباس، قال ابن حجر: وهذا الإسناد وإن كان ضعيفا لكن تقوى بطريق مجاهد، أخرجه الطبرىُّ فى «التفسير» رقم (٩٩٠١) بإسناد صحيح.

(٣) الذهبى «سير النبلاء» (٤/ ٣٠١).

(٤) وقد استحوذ الرافضةُ والاسماعيلية (الباطنية من القاديانية والمكرمية والنصيرية والبهائية ونحوهم) ومن شايعهم من العلمانيين والحداثيين فى وقتنا من ذلك على النصيب الأوفى. نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

وكان كعبُ بن الأشرف[١] هذا شديدَ العداوة للنبى ﷺ والأذى له، وإظهار عداوته. فانتقض به عهدُه، وحلّ بِهِ قتله. وروى مسلمٌ فى (صحيحه)، عن عمرو: سمعتُ جابراً يقول: قال رسولُ الله ﷺ «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسولَه» قال محمَّدُ بن مَسلمة: يارسول الله، أتحبُّ أنْ أقتله؟ قال: «نعم» قال: ائذن لى فلأقل، قال: «قُل».

فأتاه فقال له، وذكر ما بينهم، وقال: إنّ الرجلَ قد أراد صدقةً، وقد عنَّانا. فلما سمعه، قال: وأيضاً والله لتملُّنَّه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أنْ ندعه حتى ننظر إلى أىِّ شىء يصير أمرُه، قال: وقد/ أردتُ أنْ تُسلفنى سلفاً. قال: فما تَرهَنُنى؟ قال: ما تُريده؟ قال: ترهننى نساءَكم؟ قال: أنت أجملُ العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنونى أولادكم؟ قال: يُسبُّ ابنُ أحدنا، فيقال: رُهن فى وَسْقين من تمر. ولكن نرهنك اللأمة - يعنى السلاح - قال: نعم. وواعده أنْ يأتيه بالحارث، وأبى عبس ابن جبر، وعبَّاد بن بشر. قال: فجاؤوا، فدعوه ليلاً فنزل إليهم، قال سفيان قال غير عمرو: قالت له امرأته: إنى لأسمع صوتاً كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مَسلمة، ورضيعه، وأبو نائلة؛ إنَّ الكريم لو دُعى إلى طعنة ليلاً لأجاب. قال محمد: إنى إذا جاء فسوف أمدُّ يدى إلى رأسه، فإذا استمكنتُ منه فدونكم. قال: فلمَّا نزل، نزل وهو متوشِّحٌ. فقالوا: نجد منك ريحَ الطيب، قال: نعم، تحتى فلانةُ أعطر نساء العرب. قال: فتأذنُ لى أن أشم منه؟ قال: نعم فشُمَّ! فتناوله فشم، ثم قال: أتأذن لى أنْ أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم، قال: فقتلوه[٢].

[١٤٥/ب]

وفى قصة عُمر: بيانُ أنَّ المنافق المغموصَ بالنفاق[٣] إذا أظهر نفاقه قُتل؛ كما فى (الصحيحين)، وغيرهما: أن النبى ﷺ إنما ترك قتْلَ من أظهر نفاقه منهم، تأليفاً للناس؛ فإنه قال: «لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه»[٤] صلواتُ الله وسلامه عليه.

---

(١) قال الحافظ ابن القيِّم رحمه الله تعالى فى «زاد المعاد» (٣/ ١٩١): كان رجلاً من اليهود، وأمَّه من بنى النضير. وفى «فتح البارى» (٧/ ٣٣٧): كان عربياً من بنى نبهان، وهم بطن من طىء. وكان ابوه أصاب دمًا فى الجاهلية، فأتى المدينة فحالف بنى النضير. فشرُف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعبا. ا . هـ.

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٨٠١).

(٣) المتهم به، المطعون عليه. «تاج العروس» (١٨/ ٥٨).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم ٣٥١٨٠، ٤٩٠٥، ٤٩٠٧) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٨٤).

(٣٩)

بـــاب
من جحد شيئا من الأسماء والصفات

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ من جحد شيئاً من الأسماء والصفات، وقولِ الله تعالى: ﴿وهم يكفُرونَ بالرَّحمن﴾. [الرعد: ٣٠].

ش: سببُ نزول الآية معلومٌ مذكور في كُتب التفسير وغيرها، وهو أنَّ مُشركي قريش[١] جحدوا اسم ﴿الرحمن﴾ عنادا[٢].

قال تعالى: ﴿قُل ادْعُوا الله أو ادْعوا الرحمنَ أياً ما تدعوا فله الأسماءُ الحُسنى﴾. [الإسراء: ١١٠] والرحمن: اسمُه وصفته. دلَّ هذا الاسمُ على أنَّ الرحمة وصفُه سُبحانه؛ وهي من صفات الكمال.

فإذا كان المشركون جحدوا اسْماً من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلَّت على كماله سبحانه وبحمده: فجحودُ معنى هذا الاسمِ ونحوهِ من الأسماء يكون كذلك. فإنَّ جَهْم بن صَفْوان[٣] ومن تبعه: يزعُمون أنَّها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى. وتبعهم على ذلك طوائفُ من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ فلهذا كفرَّهم كثيرون من أهل السنة؛ قال ابنُ القيم رحمه الله تعالى/ . [١٤٦/أ]

ولقد تقلَّد كفرَهم خمســون في   عشــر من العُلمـاء فــي البلـدان

---

(١) قبيلة، وقريش هو: النَّضرُ بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معَدّ بن عدنان، من سلالة عابر فيما قيل. وعند عابر تلتقى أنسابُ العرب جميعاً، قحطانيهم وعدنانيهم. والله أعلم. ينظر: الملك الرسولي، «طُرفة الأصحاب» (٥٨). وابن كثير، «التاريخ» (٢/ ١٨٧).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٣/ ١٥٠).

(٣) أبو محرز، مولى بنى راسب، وأصله من بلخ، عاش فى سمرْقند فنسب إليها، كان له نشاطٌ مشبوه فى تشتيت الأمة وإغراقها فى بحر الشبهات، إلى أن هلك فى زمن صغار التابعين. «ميزان الاعتدال» للذهبي (١/ ٤٢٦).

والللالكائيُّ الإمام حكاه عنهم بل حكاه قبله الطبراني

فإنّ هؤلاء الجهميةَ، ومن وافقهم على التعطيل: جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصلٍ باطل أصَّلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفاتُ هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أنْ يكون الله جسما.

هذا منشأُ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين. فشبَّهوا الله في ابتداء رأيهم الفاسد بخلقه، ثم عطَّلوه من صفات كماله، وشبَّهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات.

فشبَّهوا أوَّلاً، وعطلوا ثانيا، وشبَّهوا ثالثا بكل ناقص أو معدوم. فتركوا ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته.

هذا هو الذي عليه سلفُ الأمة وأئمتها؛ فإنَّهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسولُه ﷺ، إثباتا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل؛ فإنَّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات يُحتذى حذوه. فكما أنَّ هؤلاء المعطِّلة يُثبتون لله ذاتا لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تُشْبِه صفات خلقه.

فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولم يتناقضوا. وأولئك المعطِّلةُ: كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، فتناقضوا.

فبطل قولُ المعطِّلين بالعقل والنقل ـ ولله الحمدُ والمنّة ـ وإجماعِ أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنَّف العلماءُ رحمهم الله تعالى في الرَّد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافُت: كالإمام [١٤٦/ب] أحمد رحمه الله تعالى في ردّه المشهور(١)، و(كتاب السنة)/ لابنه عبدالله(٢)،

(١) «الرد على الجهمية والزنادقة»، طُبع مرات، ولدى منه ثلاثُ نسخ خطية جيدة.

(٢) مطبوع مُحقق في مجلّدين (رسالة دكتوراه).

وصاحب (الحَيدة)، عبد العزيز الكناني في ردِّه على بشر المرِّيسي[1]. و(كتاب السنة) لأبي عبدالله المروَزي[2]، وردُّ عثمان بن سعيد على الكافر العنيد وهو بشر المريسي[3]، و(كتاب التوحيد) لإمام الأئمة محمد بن خُزيمة الشافعي[4]، و(كتاب السنة) لأبي بكر الخلال[5]، وأبي عثمان الصابوني الشافعي[6]، وشيخ الإسلام الأنصاري[7]، وأبي عمر بن عبد البر النمري، وخلقٍ كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث.

ومن متأخريهم: أبو محمد، عبدالله بن أحمد بن قُدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأصحابه وغيرهم. فلله الحمدُ والمنّة على بقاء السُّنة وأهلها، مع تفرُّق الأهواء وتشعُّب الآراء، والله أعلم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي (صحيح البخاري)، قال علي: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتُريدون أنْ يُكذَّب الله ورسوله[8].

ش: علي: هو أميرُ المؤمنين أبو الحسن، علي بن أبي طالب، وأحدُ الخلفاء الراشدين. وسبب هذا القول ـ والله أعلم ـ ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرةِ القُصَّاص وأهل الوعظ، فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل. فربما استنكرها بعض الناس وردها، وقد يكون لبعضها أصلٌ أو معنى صحيح، فيقع بعضُ المفاسد لذلك. فأرشدهم أميرُ المؤمنين رضي الله عنه إلى أنَّهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذى كلِّفوا به علما وعملا، دون ما

(١) مطبوع، وانظر كلام الذهبي عنه في «سير النبلاء» (٢٤٨/١٨).

(٢) مطبوع دون عناية تذكر.

(٣) مطبوع في مصر. باشراف الشيخ حامد الفقي رحمه الله تعالى.

(٤) مطبوع مُحقق في مجلدين كبيرين (رسالة دكتوراه).

(٥) طبع منه المجلد الأول محققاً (رسالة دكتوراه).

(٦) إسماعيل بن عبد الرحمن النيسابوري، مفسِّر محدِّث، له كتاب السنة (مطبوع في المنيرية) وغيره. ت ٤٤٩هـ «سير النبلاء» (١٨/ ٤٠).

(٧) أبو اسماعيل، عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، ففيه محدث، له كتاب ذم الكلام ومنازل السائرين وغيرهما. ت٤٨١هـ ابن أبي يعلى «طبقات الحنابلة» (٢٤٧/٢).

(٨) البخاري في «الصحيح» رقم (١٢٧).

يُشغل عن ذلك، مما قد يؤدى إلى رد الحق وعدم قبوله، فيُفضى بهم إلى التكذيب، لا سيما مع اختلاف الناس فى وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخُنا المصنف رحمه الله لا يُحب أنْ يُقرأ على الناس إلا ما ينفعهم فى أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذى لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجوزى: (كالمنعش)، و(المرعش)، و(التبصرة)، لما فى ذلك من الاعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغى اعتقاده، والمعصومُ من عصمه الله.

وقد كان أميرُ المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ينهى القُصَّاص عن القَصَص؛ لما فى قصصهم من الغرائب والتساهل فى النقل وغير ذلك، ويقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور[1].

[١٤٧/أ] وكلٌّ هذا محافظة على لزوم الثبات/ على الصراط المستقيم علما وعملا ونية وقصدا، وترك كلِّ ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثاً عن النبى ﷺ فى الصفات، استنكاراً لذلك!. فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقَّةً عند مُحكَمه، ويَهلكَون عند مُتشابهه. انتهى[2].

ش: قوله: (وروى عبد الرزاق). هو ابن همَّام الصنعانى المحدِّث، مُحدِّث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الروايةَ عن مَعْمر بن راشد صاحب الزهرى. وهو شيخ عبد الرزاق، يروى عنه كثيرا[3].

ومعمر ـ بفتح الميمين وسكون العين ـ أبو عروة بن أبى عمرو، راشد الأزدى الحرَّانى ثم اليمانى، أحدُ الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهرى، يروى عنه كثيرا[4].

---

(١) حديث، أخرجه أحمد فى «المسند» (٦/ ٢٢، ٢٣، ٢٧، ٢٩) من حديث عوف بن مالك.

(٢) عبد الرزاق فى «المصنف» رقم (٢٠٨٩٥).

(٣) ترجمته: «الفهرست» لابن النديم (٢٨٤).

(٤) ترجمته: «الفهرست» لابن النديم (١٠٦).

قوله: (عن ابن طاوس). هو عبدالله بن طاوس اليماني. قال معْمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة[1].

قوله: (عن أبيه). هو طاوس بن كَيْسَان الجَنَدى ـ بفتح الجيم والنون ـ الإمام العَلَم، قيل: اسمُه ذكْوان، قاله ابنُ الجَوزى[2].

قلت: وهو من أئمة التفسير، ومن أوعية العلم. قال فى (تهذيب الكمال): عن الوليد المُوقَّرى[3]، عن الزهرى، قال: قدمتُ على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهرى؟ قال: قلتُ: من مكة، قال: من خلَّفت يسودها وأهلَها؟ قلتُ: عطاء بن أبى رباح، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلتُ: من الموالى؟ قال: فبم سادهم؟ قال، قلتُ: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى؟ قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغى ذلك، قال: فمن يسود مصر؟ قلت: يزيد بن أبى حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلتُ: من الموالى، قال: فمن يسود أهلَ الشام؟ قلتُ: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلتُ: من الموالى، عبدٌ نوبى أعتقه امرأةٌ من هُذيل، قال: فمن يسود أهلَ الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مِهْران، قال: فمن العرب أم من الموالى/؟ [١٤٧/ب] قلتُ: من الموالى، قال: فمن يسود أهل خُراسان؟ قال: قلتُ: الضحاك بن مُزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلتُ: الحسن البصرى، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلتُ: من الموالى، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلتُ: إبراهيم النخعى، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلتُ: من العرب، قال: ويلك يا زهرى، فرَّجت عنى، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا

---

(١) ترجمته: «تقريب التهذيب» (٣٠٨).

(٢) ترجمته: «تقريب التهذيب» (٢٨١).

(٣) أبو بشر، ابن محمد البَلْقاوى، مولى بنى أمية، متروك. (ت١٨٢هـ) «تقريب» (٥٨٣).

البلد، حتى يُخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنَّما هو دين. من حفظه سادَ ومن ضيَّعه سقط[1].

قوله: (عن ابن عباس). قد تقدَّم، وهو حَبرُ الأمة وترَجمان القرآن، ودعا له النبيُّ ﷺ، وقال: «اللهم فقِّهه فى الدين، وعلِّمه التأويل»[2] وروى عنه أصحابهُ أئمةُ التفسير، كمجاهد، وسعيد بن جُبير، وعطاء بن أبى رباح، وطاوس، وغيرهم.

قوله: (ما فَرَقُ هؤلاء). يستفهم من أصحابه، يشير إلى أُناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئا من محكم القرآن ومعناه، حصل معهم فَرَق. أى: خوف، فإذا سمعوا شيئا من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذى أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين.

قال الذهبى: حدَّث وكيعُ ـ عن إسرائيل ـ بحديث: إذا جلس الربُّ على الكرسى. فاقشعر رجلٌ عند وكيع. فغضب وكيع، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يُحدِّثون بهذه الأحاديث ولا يُنكرونها. أخرجه عبدالله فى (كتاب الرَّد على الجهمية)[3].

وربما حصل معهم من عدم تلقِّيه بالقبول تركُ ما وجب من الإيمان به، فتُشبه حالهُم حال من قال الله فيهم: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفُرون ببعض﴾. [البقرة: ٨٥]. فلا يَسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه فى ذلك، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿هو الذي أنْزَل عليك الكتابَ منه آياتٌ محكمات هُنَّ أمُّ الكتابِ وأُخرُ متشابهاتٌ فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلمُ تأويلَه إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به / كلٌّ من عند ربنا وما يذَّكر إلا أُولوا الألباب﴾. [١٤٨/أ] [آل عمران: ٧].

---

(١) المزى «تهذيب الكمال» (٨١/٢٠). وفيه الموقَّرى، وهو متروك، ولا يبعد أن يكون من وضع الشعوبية. والله أعلم
(٢) مضى تخريجه.
(٣) عبدالله بن أحمد بن حنبل فى «كتاب السنة» رقم (٥٨٧).

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حقٌ لا يرتاب فيه مؤمن.

وبعضُهم يفهم منه غيرَ المراد من المعنى الذى أراد الله، فيحملُه على غير معناه؛ كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يتأول بعضَ آيات القرآن على بدعته.

وقد وقع منهم ما وقع، من الابتداع والخروج على الصراط المُستقيم. فإنَّ الواقع من أهل البدع، وتحريفهم لمعنى الآيات يُبيِّن معنى قول ابن عباس.

وسببُ هذه البدع جهلُ أهلها وقصورُهم فى الفهم، وعدمُ أخذ العلوم الشرعية على وجهها وتلقِّيها من أهلها العارفين لمعناها، الذين وفَّقهم الله تعالى: لمعرفة المُراد، والتوفيق بين النصوص، والقطعِ بأنَّ بعضها لا يخالف بعضا، وردِّ المتشابه إلى المُحْكَم. وهذه طريقةُ أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان. فلله الحمدُ لا نُحصى ثناءً عليه.

ذكر ما ورد عن علماء السلف فى المتشابه:

قال فى (الدُّر المنثور): أخرج الحاكمُ ـ وصحّحه ـ عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «كان الكتابُ الأوَّل ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآنُ من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عما نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا»[(١)].

قال: وأخرج عبدُ بن حُميد، عن قتادة فى قوله تعالى: **﴿فأمَّا الذين فى قلوبهم زيغ﴾**، قال: طلب القومُ التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه، فهلكوا بين ذلك.

وأخرج عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس فى قوله: **﴿آياتٌ مُحكَمات﴾** قال: من هنا[(٢)]: **﴿قل تعالوا﴾** [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] إلى

(١) الحاكم فى «المستدرك» (١/٥٥٣)، (٢/٢٨٩)، وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) فى جميع النسخ: منهن. والمثبت من «تفسير الطبرى» «والدر المنثور».

ثلاث آيات، ومن هنا: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٩]. إلى ثلاث آيات بعدها(١).

وأخرج ابن جرير، من طريق أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة/ : المُحكَمات: الناسخاتُ التي [١٤٨/ب] يُعمل بهن. والمُتشابهات: المنسوخات(٢).

وأخرج عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن إسحاق بن سُويد: أنّ يحيى ابن يَعمُر، وأبا فاختة تراجعا هذه الآية: ﴿هن أُمُّ الكتاب﴾ فقال أبو فاختة: هن فواتح السور، منها يُستخرج القرآن ﴿ألم * ذلك الكتاب﴾ منها استُخرجت البقرة، ﴿ألم * الله لا إله إلا هو﴾ منها استُخرجت آلُ عمران. وقال يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائضُ، والأمر والنهي والحلال، والحدود وعمادُ الدين(٣).

وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: ﴿المُحكمات﴾ حُجة الرب وعصمةُ العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريفٌ ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وأُخرُ مُتشابهات﴾ في الصدق، لهن تصريفٌ وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، لا يُصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق(٤).

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيَّان: إنما قال ﴿هُنَّ أمُّ الكتاب﴾ لأنه ليس من أهل دينٍ لا يرضى بهن ﴿وأُخرُ متشابهات﴾ يعني فيما بلغنا ﴿ألم﴾ و﴿المص﴾ و﴿المر﴾(٥).

قلتُ: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يُشعر بأنَّ أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قاله النفاةُ: من أنها من المتشابه، دعوى بلا برهان.

---

(١) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٦٥٧٣).

(٢) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٦٥٧٦).

(٣) ابن جرير الطبري في «التفسير»، في أثرين منفصلين رقم (٦٥٨٩، ٦٥٩١).

(٤) ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (٦٥٨٧).

(٥) السُيوطي، «الدر المنثور» (٢/ ١٤٥).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: الرحمن. أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم **﴿وهم يكفُرونَ بالرَّحمن﴾**. [الرعد: ٣٠].

ش: روى ابنُ جرير، عن قتادة: **﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾** ذُكر لنا أنَّ نبى الله ﷺ زمن الحُديبية حين صالح قُريشا، كتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله». فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك! ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: دعنا يا رسول الله نقاتلهم، فقال: «لا. ولكن اكتبوا كما يُريدون، إنى محمد بن عبدالله». فلما كتب الكاتب **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** قالت قُريش: أمَّا الرحمن فلا نعرفه ـ وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهـم ـ فقال أصحابه: يا رسول الله دعنا نقاتلهم! قال: «لا. ولكن اكتبوا كما يُريدون»[1].

وروى أيضا، عن مجاهد/ قال: قوله: **﴿كذلك أرسلناك فى أُمة قد خلت من قبلها أُمم﴾** الآية [الرعد: ٣٠]. قال: هذا لمَّا[2] كاتب رسول الله ﷺ قريشا فى الحُديبية؛ كتب **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾** قالوا: لا تكتب الرحمن، ما ندرى وما الرحمن؟ ولا تكتب إلا : باسمك اللهم. قال الله: **﴿وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو﴾**[3]. [١٤٩/أ]

وروى أيضا، عن ابن عباس، قال: كان النبى ﷺ يدعو ساجدا: يارحمنُ يارحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيـاً ما تدعوا فله الأسماءُ الحُسنى﴾**[4] [الإسراء: ١١٠].

---

(١) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٢٠٣٩٧).

(٢) جميع النسخ: ما. تحريف.

(٣) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٢٠٣٩٨).

(٤) ابن جرير الطبرى فى «المصدر السابق» (١٥/ ١٨٢).



(٤٠)

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهـــم الكافـــرون﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: **﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾** [النحل: ٨٣] قال مُجاهد ـ ما معناه ـ: هو قول الرجل: هذا مالى، ورِثتهُ عن آبائى. وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا. وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

ش: ذكر المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ما ذكر بعضُ العلماء فى معناها.

وقال ابنُ جرير: فإنَّ أهل التأويل اختلفوا فى المعنىٍّ بالنعمة. فذَكر عن سفيان، عن السدى: **﴿يعرفون نعمةَ الله ثم يُنكرونها﴾** قال: محمد ﷺ. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يعرفون أنَّ ما عدّد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله، وأنَّ الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وأخرج، عن مجاهد: **﴿يعرفون نعمةَ الله ثم يُنكرونها﴾**، قال: هى المساكن والأنعام وما يُرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب. تعرف هذا كفارُ قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورّثونا إياه. وقال آخرون: معنى ذلك أنَّ الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقرّوا بأنَّ الله هو الذى رزقهم، ثم ينكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا[١].

وذكر المصنِّفُ رحمه الله مثل هذا عن ابن قُتيبة. وهو أبو محمد، عبد الله بن

---

(١) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٤/١٥٧).

مُسلم بن قُتيبة الدِّينَوَرى، قاضى مصر، النحوى اللغوى، صاحبُ المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة، اشتغل ببغداد، وسمع الحديث على إسحاق بن راهَوَيْه وطبقته. توفى سنة ستٍ وسبعين ومائتين.

وقال آخرون: ما ذكره المصنِّف، عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهُذلى - أبو عبدالله الكوفى الزاهد. [روى][1]: عن أبيه، وعائشة، وابن عباس. [١٤٩/ب] عنه قتادةُ وأبو الزبير، والزهرى. وثَّقه أحمد، وابنُ معين/ . قال البخارى: مات بعد العشرين ومائة[2] - ﴿يعرفون نعمة الله ثم يُنكرونها﴾ قال: إنكارُهم إياها: أنْ يقول الرجل لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا[3].

واختار ابنُ جرير القول الأول، واختار غيرهُ أنَّ الآية تعم ما ذكره العلماء فى معناها. وهو الصواب، والله أعلم.

قوله: (قال مجاهد). هو شيخ التفسير، الإمامُ الربَّانى، مجاهد بن جَبْر المكى، مولى بنى مخزوم، يقول: عرضتُ القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، أقفه عند كل آية، وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف معناها[4]؟. توفى سنة اثنتين ومائة. وله ثلاثٌ وثمانون سنة.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد، الذى فيه: أنَّ الله تعالى قال: «أصبح من عبادى مؤمنٌ بى وكافر» الحديث. وقد تقدَّم -: وهذا كثيرٌ فى الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يُضيفُ إنعامَه إلى غيره ويُشرك به.

قال بعضُ السلف: هو كقولهم: كانت الريحُ طيِّبةً، والملاحُ حاذقا، ونحوِ ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير.

ش: قوله: (وقال أبو العباس). هو شيخُ الإِسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميَّة، الإمامُ الجليل.

---

(١) إضافةٌ يقتضيها السياق.

(٢) ترجمته فى «تهذيب التهذيب» (٨/ ١٧١).

(٣) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١٤/ ١٥٨).

(٤) أخرجه أبو نُعيم فى «الحلية» (٣/ ٢٧٩).

(بعد حديث زيد بن خالد). قد تقدَّم فى باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء.

قال: (وهذا كثير فى الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبةً؛ والملاح حاذقا. ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير.) انتهى.

وكلامُ شيخ الإِسلام يدل على أنَّ حُكم هذه الآية عامٌّ فيمن نسب النِّعمَ إلى غير الله الذى أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره؛ كما هو مذكورٌ فى كلام المفسِّرين المذكور بعضه هنا.

قال شيخُنا رحمه الله تعالى: وفيه اجتماع الضدين فى القلب، وتسميةُ هذا الكلام إنكارا للنعمة[1].

---

(١) المسألتان: الثالثة والرابعة.

(٤١)

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قولِ الله تعالى: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾**. [البقرة: ٢٢].

ش: الند: المَثل والنظير. وجَعْلُ الندِّ لله: هو صرفُ أنواع العبادة - أو شيءٍ منها - لغير الله، كحال عَبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم.

وهذه الآية في سياق قوله: **﴿يا أيها الناسُ اعبدوا ربَّكم الذى خلَقكم والذين من قبلِكم لعلَّكم تتقون * الذى جعل لكم الأرضَ فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماءِ ماءً فأخرجَ به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾** [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قال العمادُ ابن كثير في (تفسيره): قال أبو العالية: **﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾** أى: عُدلاء شركاء. وهكذا قال الربيعُ بن أنس، وقتادة، والسدى، وأبو مالك، وإسماعيل/ بن أبى خالد[1]. [١٥٠/أ]

وقال ابن عباس: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾** أى: لا تشركوا بالله شيئا من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره. وقد علمتم أنَّ الذى يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذى لا شك فيه. وكذلك قال قتادة.

وعن قتادة، ومجاهد: **﴿لا تجعلوا لله أندادا﴾** قال: أكفاء من الرجال تُطيعونهم فى معصية الله.

(١) الأحْمسى مولاهم، البَجَلى، ثقةٌ ثبت. (ت١٤٦هـ) «تقريب» (١٠٧).

وقال ابنُ زيد: الأنداد: الآلهةُ التى جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له.

وعن عباس ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ قال: أشباها[1].

وقال مُجاهد ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ قال: تعلمون أنَّه إلهٌ واحدٌ فى التوراة والإنجيل.

وذكر حديثاً فى معنى هذه الآية الكريمة: وهو ما فى (مسند الإمام أحمد)، عن الحارث الأشعرى: أنَّ نبى الله ﷺ قال: «إنَّ الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات: أنْ يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد يُبطىء بها. فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أُمرت بخمس كلمات: أن تعمل بهن، وتأمرَ بنى إسرائيل أنْ يعملوا بهن. فإما أنْ تبلِّغهن، وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخى، أنى أخشى إنْ سبقتنى أن أُعذَّب أو يُخسف بى. قال: فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد فقُعد على الشُّرف. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ الله أمرنى بخمس كلمات: أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

أولاهن: أنْ تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فإنَّ مَثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو وَرِق، فجعل يعمل ويؤدى غَلَّته إلى غير سيده، فأيكم يسره أنْ يكون عبده كذلك؟ وإنَّ الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تُشركوا به شيئا.

وأمَركم بالصلاة، فإنَّ الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصيام، فإنَّ مَثل ذلك كمثل رجل معه صرة مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أَسَره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل/ [١٥/ب] يفتدى نفسه بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

(١) أخرج هذه الآثار: ابنُ أبى حاتم فى «التفسير» رقم (٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (١/ ١٦٣).

وأمركم بذكر الله تعالى كثيرا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه، وإن العبد أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله».

قال: وقال: رسولُ الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرنى بهن: الجماعة، والسمع والطاعة والهجرة، والجهاد فى سبيل الله. فإنه من خرج من الجماعة قيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثى جهنم». قالوا: يا رسول الله وإن صلَّى وصام؟ فقال: «وإنْ صلى وصام، وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم. بل بما سمَّاهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين، عبادَ الله»[1].

هذا حديثٌ حسن، والشاهدُ منه فى هذه الآية، قوله: «وإنَّ الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تُشركوا به شيئا».

وهذه الآية دالَّةٌ على توحيد الله تعالى بالعبادة، وحده لا شريك له. وقد استدل بها كثيرٌ من المفسرين على وجود الصانع[2]، وهى دالَّةٌ على ذلك بطريق الأولى. والآياتُ فى القرآن الدالةُ على هذا المقام كثيرةٌ جدا.

وسُئل أبو نواس عن ذلك؟ فأنشد:

تأمل فى نباتِ الأرض، وانظر إلى آثار ما صنع المليكُ
عيونٌ من لُجين فاتراتٌ بأحداقٍ هى الذهب السبيك
على قضُب الزبرجد شاهداتٌ بأن الله ليس له شريك[3]

وقال ابنُ المعتزّ:

فيا عجبا، كيف يُعصى الإلـه، أم كيف يجحدُه الجاحدُ

(١) أحمد فى «المسند» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢، ٣٤٤)، وهو من الأحاديث التى استدركها الدارقطنىُّ على صحيح مسلم كما فى «الالزامات والتتبع» (١٣٠).

(٢) أراد المؤلف رحمه الله تعالى الإخبار عن الفعل فحسب. أما أن يكون اسما لله فلا. قال ابن القيم فى «شفاء العليل» (٢٢٥): وأمَّا لفظ الصانع فلم يرد فى أسماء الرب سبحانه، ولا يمكن ورودُه. فإن الصانع: مَن صنع شيئاً، عدلاً كان أو ظلماً. وما انقسم مسماه إلى مدح وذم، لم يجىء اسمُه المطلق فى الأسماء الحسنى.

(٣) ذكرها ابن كثير فى «التاريخ» (١٠/ ٢٤٥).

وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد[1] [2]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس، في الآية: الأندادُ: هو الشِّركُ، أخفى من دَبيب النمل على صفاةٍ سوداء في ظُلمة الليل. وهو أنْ تقول: والله وحياتِكِ يَا فُلانة، وحياتي، وتقول: لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البَطُّ في الدار لأتانا اللصوص. وقولُ الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانا. هذا كلُّه به شركٌ. رواه ابن أبي حاتم[3].

[١٥١/أ] **ش:** بيَّن ابنُ عباس رضي الله عنهما/ أنَّ هذا كلَّه من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيدَ ولا الشرك.

فتنبَّه لهذه الأمور؛ فإنها من المُنكر العظيم، الذى يجب النَّهيُ عنه والتغليظ فيه؛ لكونه أكبر من الكبائر. وهذا من ابن عباس رضي الله عنهما تنبيهٌ بالأدنى من الشرك على الأعلى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك». رواه الترمذيُّ، وحسنه، وصححه الحاكم[4].

ش: قوله: فقد كفر أو أشرك» يُحتمل أنْ يكون شكًّا من الراوى. ويحتمل أن تكون: أو بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك. ويكون من الكفر الذى هو دون الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثلُ هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقال ابنُ مسعود: لأن أحلفَ بالله كاذباً أحبُّ إليَّ من أنْ أحلف بغيره صادقا[5].

---

(١) نسبها ابن كثير فى «التاريخ» (١٠/ ٢٤٣) لأبى العتاهية، وهى فى ديوانه (١٢٢)، وعند ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» (٧/ ١٣٨) لأبى نواس. والله أعلم.

(٢) ابن كثير فى «التفسير» (١/ ١١٠ - ١١٢).

(٣) ابن أبى حاتم فى «التفسير» رقم (٢٣٠). وسنده حسن.

(٤) الترمذى فى «الجامع» رقم (١٥٣٥) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧) وصححه ووافقه الذهبى.

(٥) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (٨/ ٤٦٩) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٩٠٢) والديلمى فى «مسند» الفردوس» رقم (٧٨٧١)، قال المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٣/ ٦٠٧): رواته رواةُ الصحيح.

ش: ومن المعلوم أنَّ الحلف بالله كاذبا من الكبائر، لكن الشرك أكبرُ من الكبائر وإنْ كان أصغر؛ كما تقدم بيانُ ذلك.

فإذا كان هذا حالُ الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجبِ للخلود فى النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزالِ حوائجه به، كما هو حالُ الأكثر من هذه الأمة فى هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثاناً والبناءِ عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة مَن بُنيت باسمه، وتعظيمه، والإقبالِ عليه بالقلوب والأقوال والأعمال.

وقد عظُمت البلوى بهذا الشرك الأكبرِ الذى لا يغفره الله، وتركوا ما دلَّ عليه القرآن العظيم من النهى عن هذا الشرك وما يُوصل إليه.

قال الله تعالى: ﴿**فمن أظلمُ ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته أُولئك ينالُهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رُسُلنا يتوفونهم قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلُّوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين**﴾. [الأعراف: ٣٧]. كفَّرهم تعالى بدعوتهم مَن كانوا يدعونه من دونه فى الدار الدنيا؛ وقد قال تعالى: ﴿**وأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا**﴾. [الجن: ١٨]. وقال تعالى: ﴿**قُل إنما أدعوا ربى ولا أُشركُ به أحدا * قُل إنى لا أملكُ لكم ضراً ولا رشدا**﴾. [الجن: ٢٠ - ٢١].

وهؤلاء المشركون/ عكسوا الأمر. فخالفوا ما بلَّغ به الأمةَ، وأخبر به عن نفسه [١٥١/ب] ﷺ. فعاملوه بما نهاهم عنه: من الشرك بالله، والتعلُّقِ على غير الله؛ حتى قال قائلهم:

يا أكرمَ الخلق ما لى من ألوذُ به ... سواك عند حُلول الحادث العَمَمِ
إنْ لم تكن فى معادى آخذاً بيدى ... فضلا؛ وإلا فقل: يا زلَّة القدم
فإنَّ من جودك الدنيا وضرَّتَهَا ... ومن علومك علمَ اللوح والقلم!!(١)

فانظر إلى هذا الجهل العظيم، حيثُ اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله.

---

(١) الأبيات من «قصيدة البُردة» لمحمد بن سعيد البُوصيرى (ت٦٩٦).

وانظر إلى هذا الإطراء العظيم، الذى تجاوز الحدَّ فى الإطراء؛ الذى نهى عنه ﷺ بقوله «لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا عبدالله ورسوله» رواه مالك وغيره[1]. وقد قال تعالى: ﴿قُل لا أقول لكم عندى خزائنُ الله ولا أعلمُ الغيب ولا أقول لكم إنى مَلَك﴾. [الأنعام: ٥٠].

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة، والمحادَّة لله ورسوله. وهذا الذى يقوله هذا الشاعر هو الذى فى نفوس كثيرٍ، خصوصا ممن يدَّعى العلم والمعرفة، ورأوا قراءةَ هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمِها من القُربات، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن حُذيفة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان». رواه أبو داود بسند صحيح[2].

ش: وذلك لأنَّ المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه؛ لكونها إنَّما وضعت لُمطلق الجمع فلا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا.

وتسويةُ المخلوق بالخالق شركٌ، إنْ كان فى الأصغر ـ مثل هذا ـ فهو أصغر، وإنْ كان فى الأكبر فهو أكبر؛ كما قال تعالى عنهم فى الدار الآخرة: ﴿تالله إنْ كنَّا لفى ضلال مُبين * إذ نُسوِّيكم برب العالمين﴾. [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]. بخلاف المعطوف بـ: ثم. فإنَّ المعطوف بها يكون مُتراخيا عن المعطوف عليه بمُهلة. فلا محذور؛ لكونه صار تابعا.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن إبراهيم النخعى: أنَّه يكره أنْ يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوِّز أنْ يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فُلان. ولا يقول: لولا الله وفلان[3].

ش: قد تقدَّم الفرقُ بين ما يجوز وبين ما لا يجوز من ذلك. وهذا إنَّما هو فى الحى الحاضر الذى له قدرةٌ وسبب فى الشىء/ ، وهو الذى يجرى فى حقه مثلُ [١٥٢/أ]

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٨٠) قال النووى فى «الأذكار» (٣٠٨): إسنادهُ صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى «كتاب الصمت» رقم (٣٤٧).

ذلك. وأمَّا فى حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرةَ لهم على نفعٍ ولا ضر. فلا يُقال فى حقهم شىءٌ من ذلك؛ فلا يجوز التعلُّقُ عليه بشىءٍ ما، بوجهٍ من الوجوه.

والقرآنُ يبيِّنُ ذلك، ويُنادى بأنه يجعلهم آلهةً إذا سُئلوا شيئاً من ذلك، أو رَغب إليهم أحدٌ بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر. فمن تدبَّر القرآن ورُزق فهمه، صار على بصيرة من دينه، وبالله التوفيق.

والعلمُ لا يُؤخذ قَسْراً، وإنَّما يُؤخذ بأسبابٍ ذُكر بعضُها فى قوله:

أخى، لن تنال العلمَ إلا بستة　　سأنبيك عن تفصيلها ببيانِ
ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبُلغة　　وإرشاد أستاذٍ، وطول زمانِ[1]

وأعظمُ من هذه الستة: من رَزقه الله تعالى الفهمَ والحفظ، وأتعب نفسه فى تحصيله. فهو الموفَّق لمن شاء من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضلُ الله عليك عظيما﴾. [النساء: ١١٣].

ولقد أحسن العلامةُ ابن القيِّم رحمه الله تعالى، حيثُ قال:

والجهلُ داءٌ قاتلٌ وشفاؤه　　أمران فى التركيب مُتفقانِ
نصٌّ من القرآن، أو من سنة　　وطبيبُ ذاك العالمُ الربَّانى
والعلم أقسامٌ ثلاث، ما لها　　من رابع، والحق ذو تبيان
علمٌ بأوصاف الإله وفعله　　وكذلك الأسماءِ للرحمن
والأمرِ والنهى الذى هو دينه　　وجزاؤه يوم المعاد الثانى
والكلُّ فى القرآن والسنن التى　　جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤٌ متحذلقٌ　　بسواهما إلا من الهذيان[2]

(١) من كلام الشافعى رحمه الله تعالى، «الديوان» (٨١).
(٢) ابن القيم، «الكافية الشافية» (١٨٩).

(٤٢)
بـــاب
مــا جــاء فيمن لم يقنــع بالحلـف باللــه

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء فيمن لم يقْنع بالحَلفِ بالله.

عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حَلَف بالله فليصْدُق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله» رواه ابنُ ماجة بسند حسن(١).

ش: قوله: «لا تحلفوا بآبائكم» تقدَّم النهيُ عن الحلفِ بغير الله عموما.

قوله: «من حلف بالله فليصدُق» هذا مما أوجبه الله على عباده، وحضَّهم عليه/ في كتابه؛ قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وكونوا مع الصَّادقين**﴾. [١٥٢/ب] [التوبة: ١١٩]. وقال: ﴿**والصادقين والصادقات**﴾. [الأحزاب: ٣٥]. وقال: ﴿**فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم**﴾. [محمد: ٢١].

وهو حال أهل البر؛ كما قال تعالى: ﴿**ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المالَ على حبِّه ذوى القُربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلين وفى الرقاب وأقامَ الصلاة وآتى الزكاة والموفونَ بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأسآء والضرآء وحين البأسِ أُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتقون**﴾. [البقرة: ١٧٧].

وقوله: «من حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»، أمَّا إذا لم يكن له بُحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحْلَفَه، فلا ريب أنَّه يجب عليه الرضا.

---

(١) ابن ماجة فى «السنن» رقم (٢١٠١) قال ابن حجر فى «فتح البارى» (١١/ ٥٣٥): سندُه حسن.

وأمَّا إذا كان فيما يجرى بين الناس، مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك. فهذا من حق المسلم على المسلم: أنْ يقبل منه إذا حلف له معتذراً، أو متبرئا من تُهمة. ومن حقه عليه: أنْ يُحسن به الظن إذا لم يتبيَّن خلافُه؛ كما فى الأثر عن عمر: ولا تظنُنْ بكلمةٍ خرجت من أخيك شرّاً وأنت تجدُ لها من الخير محْملا[1].

وفيه: من التواضع والأُلفة والمحبة، وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله مالا يخفى على من له فهم؛ وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله. ثم إنه يدخل فى حُسن الخُلق الذى هو أثقل ما يوضع فى ميزان العبد؛ كما فى الحديث[2] وهو من مكارمِ الأخلاق.

فتأمَّل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وتركِ الإنقباض عنهم والترفع عليهم؛ فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال. وبسط هذه الأمور وذكرُ ما ورد فيها مذكورٌ فى كتب الأدب وغيرها. فمن رُزق ذلك، والعمل بما ينبغى العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك: دلَّ على وفور دينه، وكمالِ عقله، والله الموفق والمُعين لعبده الضعيف المسكين، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد فى كتاب «الزهد» كما فى «الدر المنثور» (٧/ ٥٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٧٩٩) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٠٠٣، ٢٠٠٤) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح، من حديث أبو الدرداء.

(٤٣)

بـــاب
قول: ما شاء الله وشئت

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قولِ: ما شاء الله وشئتَ، عن قُتَيلة: أنَّ يهوديا أتى النبيَّ ﷺ، فقال: إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبيُّ ﷺ إذا أرادوا أنْ يحلفوا، أن يقولوا: وربٍّ الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. رواه النسائي وصححه[1].

ش: قوله: (عن قُتيلة). ـ بمُثنَّاة مصغَّرة ـ بنت صيفي الأنصارية، صحابيةٌ / [١٥٣/أ] مهاجرة، لها حديثٌ في (سنن النسائي)، وهو المذكور في الباب. ورواه عنها عبدالله بن يسار الجُعفي.

وفيه: قبولُ الحق ممن جاء به كائناً مـن كان. وفيـه: بيانُ النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيتُ الله التي حجُّها وقصدها بالحج والعمرة فريضة.

وهذا يُبيِّن أنَّ النهي عن الشرك بالله عامٌّ، لا يصلح منه شيء لا لملَك مقرَّب ولا لنبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيتُ الله في أرضه.

وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم، من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أنَّ الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شَرَع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها، وجعلها للأمة قبلة. فالطوافُ بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع.

فَميِّز أيها المكلف بين ما يُشرع وما يمنع، وإن خالفك مَن خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضلٌّ سبيلا.

---

(١) النسائي في «المجتبى» (٦/٧) «وعمل اليوم والليلة» رقم (٩٨٦) قال ابن حجر في «الإصابة» (٣٨٩/٤): حديثٌ صحيح.

قوله: (إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت)، والعبدُ وإن كان له مشيئةٌ فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه؛ كما قال تعالى: ﴿لمن شاء منكم أنْ يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين﴾. [التكوير: ٢٨ - ٢٩]. وقوله: ﴿إنَّ هذه تذكرةٌ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا * وما تشاءون إلا أنْ يشاء الله إنَّ الله كان عليما حكيما﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠].

وفي هذه الآيات والحديث: الردُّ على القدرية والمعتزلة نفاةِ القدر، الذين يُثبتون للعبد مشيئةً تخالف ما أراد الله تعالى من العبد وشاءه.

وسيأتي ما يُبطل قولهم ـ في باب ما جاء في مُنكرى القَدَر ـ إن شاء الله، وأنهم مجوسُ هذه الأمة.

وأمَّا أهلِ السنة والجماعة فتمسكـوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقـدوا أنَّ مشيئة العبـد تابعـةٌ لمشيئـة الله في كـلِ شـيء، مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه: من أفعال العباد وأقوالهم. فالكلُّ بمشيئته وإرادته، فما وافق شرْعَه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد؛ كما قال تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غنيٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفرَ وإنْ تشكروا يرْضَه لكم﴾. [الزمر: ٧]./ [١٥٣/ب]

وفيه: بيانُ أنَّ الحلف بالكعبة شرك؛ فإنَّ النبي ﷺ أقر اليهودي على قوله: إنكم تشركون.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وله أيضا، عـن ابـن عبـاس: أنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ، قال: «أجعلتني لله ندا، بل ما شاء الله وحده»[1].

ش: هذا يُقرِّر ما تقدَّم: من أنَّ هذا شركٌ؛ لوجود التسوية في العطف بالواو.

وقوله: «أجعلتني لله ندا؟» فيه: بيانُ أنَّ من سوَّى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله، شاء أم أبى. خلافا لما يقوله الجاهلون بما يختص بالله

(١) النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٨٨)، وقد مضى تخريجُه في أوَّل الكتاب.

تعالى من عبادته، وما يجب النهيُ عنه من الشرك بنوعيه. ومن يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين(١).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولابن ماجة: عن الطُّفيل ـ أخي عائشة لأمّها ـ قال: رأيتُ كأني أتيتُ على نفر من اليهود، قلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عُزيرٌ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررتُ بنفر من النصارى، فقلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيحُ ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحتُ، أخبرتُ بها من أخبرت. ثم أتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرتَ بها أحدا؟» قلتُ: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أمَّا بعدُ؛ فإنَّ طُفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمةً كان يمنعني كذا وكذا أنْ أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»(٢).

ش: قوله: (عن الطفيل أخي عائشة لأمها). هو الطُّفيل بن عبدالله بن سَخْبرة، أخو عائشة لأمها، صحابيٌّ له حديثٌ عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنِّف في الباب.

وهذه الرُّؤيا حق، أقرَّها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

وهذا الحديث والذي قبله: أمرَهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده؛ ولاريب أنَّ هذا أكملُ في الإخلاص/ وأبعد عن الشرك، من أن يقولوا: ثم شاء فلان، لأن [١٥٤/أ] فيه التصريحَ بالتوحيد، المنافي للتنديد من كل وجه. فالبصيرُ يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

وقوله: «كان يمنعني كذا وكذا أنْ أنهاكم عنها» ورد في بعض الطُّرق: أنه كان

---

(١) قطعة من حديث، أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٣١١٦) ومسلم في «الصحيح» رقم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) ابن ماجة في «السنن» رقم (٢١١٨) قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ١٥١): هذا إسنادٌ صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم.

يمنعه الحياءُ منهم. وبعد هذا الحديث الذى حدَّثه به الطفيلُ عن رؤياه، خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهياً بليغا.

فمازال ﷺ يبلّغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلَّغ البلاغ المبين، صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وفيه معنى قوله ﷺ : «الرُّؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[1].

قلتُ: وإنْ كانت رؤيا منام فهى وحى، يثبت بها ما يثبت بالوحى أمراً ونهيا. والله أعلم[2].

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٩٨٩)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٦٣، ٢٢٦٥)، من حديث أبى سعيد، وأبى هريرة، وابن عمر.

(٢) وذلك لإِقرار النبى ﷺ له، وأمره به.

(٤٤)

بـــاب

من ســب الدهر فقد آذى اللــه

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ من سَبَّ الدهرَ فقد آذى الله.

وقولُ الله تعالى: ﴿**وقالوا ما هى إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر**﴾. [الجاثية: ٢٤]. فى الصحيح: عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «قال الله تعالى: يُؤذينى ابنُ آدم، يَسبُّ الدهر وأنا الدهر، أُقلِّبُ الليل والنهار» وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإنَّ الله هو الدهر».

ش: قال العمادُ ابن كثير فى (تفسيره): يُخبر تعالى عن دَهرية الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿**وقالوا ما هى إلا حياتُنا الدنيا نموتُ ونحيا**﴾ ما ثمَّ إلا هذه الدار، يموت قومٌ ويعيش آخرون، وما ثمَّ معاد ولا قيامة.

وهذا يقولهُ مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم يُنكرون البداءَة والرَّجعة.

وتقوله الفلاسفةُ الدهرية [الدَّورية][1]، المنكرون للصانع[2]، المعتقدون أنَّ فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كلُّ شىء إلى ما كان عليه. وزعموا أنَّ هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول؛ ولهذا قالوا: ﴿**وما يهلكُنا إلا الدهر**﴾ قال سبحانه: ﴿**وما لهم بذلك من علم إنْ هم إلا يظنون**﴾ أى: يتوهَّمون ويتخيَّلون.

---

(١) إضافة من (ط) «والتفسير».

(٢) ينظر: التعليق على هذا، فى الباب السابق.

[١٥٤/ب] فأمَّا الحديثُ الذى أخرجه صاحبا (الصحيح)، وأبو داود، والنسائى، من/ رواية سُفيان بن عيينه، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابنُ آدم يَسُبُّ الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلِّبُ الليل والنهار»(١). وفى رواية: «لا تسبوا الدهر فإنَّ الله هو الدهر»(٢). وفى رواية: «لا يقل ابنُ آدم: يا خيبة الدهر، فإنى أنا الدهر، أُرسل الليل والنهار، فإذا شئتُ قبضتهما»(٣).

قال فى (شرح السنة): حديثٌ متفق على صحته، أخرجاه من طريق مَعْمر، من أوجه عن أبى هريرة. قال: ومعناه أنَّ العرب كانت من شأنها ذم الدهر وسبُّه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارعُ الدهر، وأبادهم الدهر. فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجعُ سبها إلى الله عز وجل؛ إذا هو الفاعل فى الحقيقة للأمور التى يصفونها، فنهُوا عن سب الدهر. انتهى باختصار(٤).

وقد أورده ابنُ جرير بسياق غريب جدا، بهذا الطريق. قال: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكُنا الليل والنهار، وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله فى كتابه: ﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾. ويسبُّون الدهر، فقال الله عز وجل: «يؤذينى ابنُ آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب الليل والنهار»(٥).

وكذا رواه ابنُ أبى حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شرُيح بن النعمان، عن ابن عيينه، مثله.

ثم روى: عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى

---

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨٢٦، ٦١٨١، ٧٤٩١) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٤٦) وأحمد فى «المسند» (٢/ ٣٩٥، ٤٩١، ٤٩٦، ٤٩٩).

(٣) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٤٦) وأحمد فى «المسند» (٢/ ٣١٨)، وأخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦١٨٢) مختصراً.

(٤) البغوى، «شرح السنة» (١٢/ ٣٥٧).

(٥) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٥/ ١٥٢).

هريرة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدى الليل والنهار» وأخرجه صاحبُ الصحيح، والنسائى من حديث يونس بن يزيد، به[1].

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: استقرضتُ عبدى فلم يعطنى، وسبنى عبدى، يقول: وا دهراه، وأنا الدهر»[2].

قال الشافعى، وأبو عبيد، وغيرُهما من الأئمة، فى تفسير قوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» كانت العربُ فى جاهليتها إذا أصابهم شدَّة أو بلاء/ أو [١٥٥/أ] ملامة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله. فكأنهم إنما سبوا الله سبحانه؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة. فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الذى يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسنُ ما قيل فى تفسيره ـ وهو المراد ـ والله أعلم.

وقد غَلِط ابنُ حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية، فى عَدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى؛ أَخذا من هذا الحديث. انتهى[3].

وقد تبين معناه فى الحديث، بقوله: «أُقلب الليل والنهار» وتقليبُه تصرُّفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وفى هذا الحديث زيادةٌ لم يذكرها المصنف رحمه الله، وهى قوله: «بيدى الأمر».

قوله: وفى رواية «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر».

ومعنى هذه الرواية: هو ما صرَّح به فى الحديث، من قوله: «وأنا الدهر، أقلِّبُ الليل والنهار» يعنى: أنَّ ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره بعلمٍ منه تعالى وحكمة، لا يشاركه فى ذلك غيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٥/ ١٥٢). والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤١٨) وصححه ووافقه الذهبى.

(٣) ابن كثير فى «التفسير» (٧/ ٢٥٣) والغلط فيه من وجهين: أحدهما: أن أسماء الله حسنى، والدهر لا معنى له إلا الوقت، وثانيهما: قوله فى الحديث: «أقلب الليل والنهار» وهى الدهر.

فالواجبُ عند ذلك حمدُه في الحالتين، وحُسنُ الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال تعالى: ﴿**وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون**﴾. [الأعراف: ١٦٨]، وقال: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرجعون**﴾. [الأنبياء: ٣٥].

ونسبةُ الفعل إلى الدهر، ومسبته كثيرٌ في أشعار المولَّدين[(١)]، كابن المُعتز[(٢)]، والمتنبي، وغيرهما.

وليس منه وصفُ السنين بالشدة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿**ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ**﴾. [يوسف: ٤٨]. قال بعضُ الشعراء:

إنَّ الليالي من الزمان مهولةٌ   تُطوَى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقصارهُن مع الهموم طويلةٌ   وطوالهن مع السرور قصار

وقولُ أبي تمام:

أعوامُ وصلٍ كاد يُنسي طيبَها   ذكرُ النوى، فكأنها أيامُ
ثم انبرت أيام هجر أعقبت   نحوي أسىً، فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلُها   فكأنها وكأنهم أحلام[(٣)]

---

(١) ينظر: «القاموس المحيط» «وكتاب عيار الشعراء» (١٢).

(٢) أبو العباس، عبد الله بن المُعتزّ بن المتوكّل، تولّى الخلافةَ مدة قصيرة، بعد خلع المُقتدر، مات (٢٩٦هـ) «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٦٣).

(٣) أبو تمام، «الديوان» (٢٨٢).

(٤٥)

بـــاب

التسمـــي بقاضـــي القضـــاة ونحـــوه

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ التسمّي بقاضى القضاة ونحوِه.

ش: ذكر المصنِّفُ رحمه الله هذه الترجمة: إشارة إلى النهى عن التسمِّى بقاضى القضاة، قياسا على ما فى حديث / الباب؛ لكونه يُشبهُه فى المعنى فيُنهى عنه. [١٥٥/ب]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فى الصحيح: عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إنَّ أخنع اسمٍ عند الله رجلٌ تسمَّى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»[١].

قال سُفيان: مثلُ شاهان شاه[٢].

ش: لأن هذا اللفظَ إنما يصدق على الله تعالى. فهو مَلِكُ الأملاك، لا ملك أعظم ولا أكبر منه، ومالك الملك ذو الجلال والإكرام. وكل مُلك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عاريةٌ يُسرع ردها إلى المعير، وهو الله. ينزع الملك من ملكه تارة، وينزع الملك منه تارة فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه.

وأما رب العالمين فملكه دائمٌ كامل لا انتهاء له، بيده القسط يخفضه ويرفعه[٣]، يحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه، وما تكتبه الحفَظَةُ عليهم. فيُجازى كلَّ عامل بعمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر؛ كما ورد فى الحديث «اللهم لك الحمدُ كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشرك كله»[٤].

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٢٠٦) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢١٤٣).

(٢) ينظر: ابنُ رجب فى «التاريخ» (١/ ٨٤).

(٣) قطعةٌ من حديث، أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٦٨٤، ٥٣٥٢، ٦٤٩٦، ٧٤١١) ومسلم فى الصحيح رقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة.

(٤) أخرجه أحمد فى «المسند» (٥/ ٣٩٦) من حديث حذيفة.

قوله: (قال سفيان ـ يعني ابن عيينة ـ مثل شاهان شاه). عند العجم. عبارةٌ عن ملك الأملاك، ولهذا مثَّل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفي رواية: «أغيظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثُه»(1).

قوله: «أخنع» يعني: أوضع.

ش: قوله: «أغيظ» من الغيظ، وهو مثل الغضب والبغض. فيكون بغيضا إلى الله، مغضوبا عليه، والله أعلم.

قوله: «وأخبثه» وهو يدل أيضا على أن هذا خبيثٌ عند الله. فاجتمعت في حقه هذه الأمور؛ لتعاظُمه في نفسه، وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم. فتعظُّمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة. فصار أخبثَ الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه على خلق الله بنعم الله.

قوله: (أخنع، يعني أوضع). هذا هو معنى أخنع، فيُفيد ما ذكرنا في معنى أغيظ، أنه يكون حقيراً بَغيضا عند الله.

وفيه: التحذيرُ من كل ما فيه تعاظم؛ كما أخرج أبو داود، عن أبي مجْلز، قال: خرج معاويةُ على ابن الزبير، وابن عامر. فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أنْ يتمثّل له الرجال/ قياماً فليتبوأ مقعدَه من النار» أخرجه الترمذيُّ أيضا، وقال حسن(2). [١٥٦/أ]

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ متكئاً على

---

(1) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢١٤٣) وأحمد في «المسند» (٢/ ٣١٥).

(2) أبو داود في «السنن» رقم (٥٢٢٩) والترمذي في «الجامع» رقم (٢٧٥٦)، قال ابن القيم في «التهذيب» (٨/ ٨٤): وهذا الإسناد على شرط الصحيح. ينظر: ابن تيمية «فتيا في حكم القيام» (١٢).

عصا، فقُمنا إليه، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضُهم بعضا» رواه أبو داود[1].

وقوله: «أغيظُ رجل» هذا من الصفات التى تُمرُّ كما جاءت، وليس شىءٌ مما ورد فى الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة فى ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تعطيل، كما تقدم. والبابُ كله واحد، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة، من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة.

وهذا التفرُّقُ والاختلاف إنما حدث فى أواخر القرن الثالث وما بعده، كما لا يخفى على من له معرفةٌ بما وقع فى الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان.

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٥٢٣٠). وأخرج المرفوع، مسلم «فى الصحيح» رقم (٤١٣) من حديث جابر. وأصله فى «صحيح البخارى» رقم (٦٨٨) من حديث أم المؤمنين عائشة.

(٤٦)

بـــاب

احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ احترامِ أسماء الله تعالى، وتغيير الإِسم لأجل ذلك.

عن أبى شُريح: أنه كان يُكنى أبا الحكم. فقال له النبىُّ ﷺ: «إنَّ الله هو الحكَم وإليه الحُكم» فقال: إنَّ قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمتُ بينهم، فرضى كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟» قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شُريح. قال: «فأنت أبو شَريح» رواه أبو داود، وغيره[١].

ش: قوله: (عن أبى شريح)، قال فى (خُلاصة التذهيب): هو أبو شُريح الخُزاعى، اسمه خويلد بن عمرو، أسلم يوم الفتح. له عشرون حديثا، واتفقا على حديثين وانفرد البخارىُّ بحديث، وروى عنه: أبو سعيد المقبرُى، ونافع بن جُبير، وطائفة. قال ابنُ سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين. وقال الشارح: اسمُه هانىء بن يزيد الكندى، قاله الحافظ. وقيل: الحـارث الضبابى، قاله المِزّى[٢] [٣].

قوله: (يكنى)، الكنية: ما صُدِّر بأبٍ أو أم ونحو ذلك، واللقَب ما ليس كذلك، كزين العابدين ونحوه.

وقولُ النبى ﷺ: «إنَّ الله هو الحكَم وإليه الحُكم» فهو سبحانه الحكَم فى

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٥٥)، وهو حديث صحيح.

(٢) المِزّي، «تهذيب الكمال» (٣٣/ ٤٠٠).

(٣) الشارح، سليمان بن عبد الله «تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد» (٦١٥).

الدنيا والآخرة؛ يحكم بين خلقه فى الدنيا بوحيه الذى أنزله على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا ولله فيها حكمٌ مما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة.

[١٥٦/ب] وقد يسر الله معرفةَ أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة؛ فإنَّها لا تجتمع على ضلالة[1]، فإنَّ العلماء وإنْ اختلفوا فى بعض الأحكام فلابد أنْ يكون المصيبُ فيهم واحداً.

فمن رزقه الله تعالى قوةَ الفهم، وأعطاه ملكةً يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء، يسرَّ له ذلك بفضله ومنِّه [عليه، وإحسانِه إليه. فما أجَلَّها من عطية، فنسألُ الله من فضله][2].

وقوله: «وإليه الحُكم فى الدنيا والآخرة» كما قال تعالى: ﴿**وما اختلفتُم فيه من شيءٍ فحُكْمهُ إلى الله**﴾. [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**فإن تنازعتم فى شيء فردُّوه إلى الله والرسول إنْ كنتم تُؤمنونَ بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا**﴾. [النساء: ٥٩].

فالحكمُ إلى الله: هو الحُكم إلى كتابه. والحكم إلى رسوله: هوالحكم إليه فى حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن، قال له: «بِمَ تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال بسنة رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهدُ رأيى. فقال: «الحمدُ لله الذى وفَّق رسولَ رسول الله لما يرضى رسول الله»[3].

فمعاذ من أجلِّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة؛ ولهذا ساغ له الاجتهادُ إذا لم يجد للقضية حُكما فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله. بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط فى الأحكام، ممن يجهل حكم الله فى كتابه وفى سنة رسوله، فيظن أنَّ الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة، وهيهات!!.

---

(١) قطعةٌ من حديث، اخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٢٥٣) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٣٤٤٠) وابن أبى عاصم فى «السنة» رقم (٩٢) عن أبى مالك الأشعرى.

(٢) ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٣) مضى تخريجه.

وأمَّا يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله، إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه. وهو الذى لا يخفى عليه خافيةٌ من أعمال خلقه: ﴿**إنَّ الله لا يظلمُ مثقال ذرة وإنْ تك حسنةً يضاعفْها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيما**﴾. [النساء: ٤٠]. والحكمُ يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسَيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات. وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات المظلوم، فطُرح على سيئات الظالم(١)، لا يزيد على هذا مثقال ذرة، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

قوله: فإنَّ قومى إذا اختلفوا فى شىء أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين، فقال: «ما أحسن هذا» فالمعنى ـ والله أعلم ـ أنَّ أبا شريح لما عرف منه قومُه أنه/ صاحبُ إنصاف وتحرٍّ للعدل بينهم، ومعرفةِ ما يُرضيهم من الجانبين، [١٥٧/أ] صار عندهم مرضيا.

وهذا هو الصلح؛ لأن مدارَه على الرضى لا على إلزام، ولا على أحكام الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع الجاهلية: من أحكام كُبرائهم وأسلافهم، التى تخالف حكم الكتاب والسنة. كما قد يقع اليوم كثيرا، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله. وإنما المعتمدُ عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.

وقد يلتحق بهذا بعضُ المقلدة لمن لا يسُغ تقليده، فيعتمدُ على تقليده ويترك ما هو الصواب، الموافق لأصول السنة والكتاب، والله المستعان.

وقوله: «فما لك من الولد؟» قال: شُريح، ومسلم ، وعبد الله، قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح» فيه: تقديمُ الأكبر فى الكنية وغيرها غالبا. وجاء هذا المعنى فى غير ما حديث، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٨١) من حديث أبى هريرة.

(٤٧)
بــاب
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ من هَزَل بشيء فيه ذكرُ الله أو القرآن أو الرسول.

ش: أي: فقد كفر.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: **﴿ولئن سألتَهم ليقولُنَّ إنما كنا نخوضُ ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كُنتم تستهزئون﴾**. [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسْلَم، وقتادة ـ دخل حديثُ بعضهم في بعض ـ أنه قال رجلٌ في غزوة تَبوك: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغبَ بطونا، ولا أكذَبَ ألسُنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابَه القُراء. فقال له عوفُ بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجلُ إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يارسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدثُ حديث الركب؛ نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني انظر إليه متعلِّقاً بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ وإنَّ الحجارة تنكبُ رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسولُ الله ﷺ **﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾**. [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦]. ما يلتفتُ إليه، وما يزيده عليه[1].

ش: قال العِمادُ ابن كثير رحمه الله في (تفسيره): قال أبو مَعْشر المدني، عن

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٦٩١٢، ١٦٩١٦، ١٦٩١١، ١٦٩١٤، ١٦٩١٥) وإسنادُه حسن.

محمد بن كعب القُرظى، وغيره، قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى قُرائنا هؤلاء؟ إلا أرغبَنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال؛ **﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إنْ نعفُ عن طائفةً منكم نعذب طائفةً بأنهم كانوا مجرمين﴾**. [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. وإنَّ رجليه ليسفعان الحجارة، وما يلتفتُ إليه رسول الله ﷺ وهو متعلِّقٌ بنسْعَة ناقة رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رجلٌ فى غزوة تبوك فى مجلس يوما: ما رأينا مثل قرائنا هولاء أرغبَ بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل فى المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ،/ [١٥٧/ب] فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: **﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾**. وقد رواه الليث، عن هشام بن سعد، بنحوٍ من هذا.

قال ابن إسحاق، وقد كان جماعةٌ من المنافقين، منهم: وديعة بن ثابت، أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجلٌ من أشجع، حليفٌ لبنى سلمة، يقال له: مَخْشى ابن حُمَيِّر، يُشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلقٌ إلى تَبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدا مُقرَّنين فى الحبال؛ إرجافاً وترهيبا للمؤمنين. فقال مُخشى بن حُمَيِّر: والله لوددتُ أنى أُقاضى على أن يُضرب كلُّ رجل منا مائة جلدة، وإنا نتفلَّت أن ينزل فينا قرآنٌ لمقالتكم هذه.

وقال رسولُ ﷺ ـ فيما بلغنى ـ لعمَّار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا. فإن أنكروا، فقل: بلى قُلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار، فقال: ذلك لهم. فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعةُ بن ثابت ـ ورسول الله ﷺ واقفٌ على راحلته ـ فجعل يقول وهو آخذ بحقَبها: يا رسول

الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مَخْشي بن حُمَيِّر: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكأن الذي عناه ـ أي: بقوله تعالى: ﴿إنْ نعفُ عن طائفة منكم نعذّب طائفة﴾ ـ في هذه الآية: مخشي بن حمير، فسُمِّي: عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقتل شهيدا لا يُعلم بمكانه. فقُتل يوم اليمامة[1]، فلم يوجد له أثر[2].

وقال عكرمةُ في تفسير هذه الآية: كان رجلٌ ممن ـ إن شاء الله ـ عفا عنه، يقول: اللهم إني أسمع آيةً أنا أُعنَى بها، تقشعر منها الجلود ويجبُ منها القلب. اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسَّلت، أنا كفنت، أنا دفنت، قال: فأُصيب يوم اليمامة، فما أحدٌ من المسلمين إلا وقد وجد غيرهُ[3].

قوله:/ ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم [١٥٨/أ] به ﴿إنْ نعفُ عن طائفة منكم نعذِّب طائفة﴾ أي: لا يُعفَى عن جميعكم، ولابد من عذاب بعضكم ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة، انتهى[4].

قال شيخُ الإسلام رحمه الله: وقد أمره الله أنْ يقول: ﴿قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ وقولَ من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم: لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم؛ فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أُريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يُظهروا للناس إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم مازالوا كذلك، ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين[5].

وقال رحمه الله في موضع آخر: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم، مع قولهم: إنا تكلَّمنا بالكفر من غير اعتقادٍ له، بل إنما كنا نخوض ونلعب.

وبيَّن أنَّ الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدراً بهذا الكلام، ولو كان الإيمانُ في قلبه منعه أنْ يتكلم بهذا الكلام. والقرآنُ يبيِّن أن

---

(١) وكانت وقعةُ اليمامة في سنة إحدى عشرة، «تاريخ ابن كثير» (٣/ ٣٣٠).

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٥٢٤).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» رقم (١٦٩١٣).

(٤) ابن كثير في «التفسير» (٤/ ١١١ - ١١٣).

(٥) ابن تيمية في «كتاب الإيمان» (٢٥٩).

إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه؛ كقوله: **﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولَّى فريقٌ منهم من بعد ذلك وما أُولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريقٌ منهم مُعرضون * وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إليه مُذعنين * أفي قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا أم يخافون أنْ يحيف الله عليهم ورسولُه بل أُولئك هم الظالمون * إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أنْ يقولوا سمعنا وأطعنا وأُولئك هم المفلحون﴾**. [النور: ٤٧ - ٥١] فنفى الإيمان عمَّن تولَّى عن طاعة الرسول، وأخبر أنَّ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبيَّن أنَّ هذا من لوازم الإيمان. انتهى.

وفيه: بيانُ أنَّ الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها، أو عمل يعمل به. وأشدُّها خطرا إرادات القلوب، فهى كالبحر الذى لا ساحل له[1]. ويُفيد الخوفَ من النفاق الأكبر؛ فإنَّ الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابنُ أبى مُليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب/ رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه[2]. نسألُ الله السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة. [١٥٨/ب]

(١) ينظر: ابن القيم، «طريق الهجرتين» (٢٢١).

(٢) أخرجه أبو بكر الخلال فى كتاب «السنة» رقم (١٠٨١)، ومحمد بن نصر المروزى فى «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٦٨٨) والبخارى فى «الصحيح» (١/١٠٩) تعليقاً.

(٤٨)

باب

قول الله تعالى:

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قولِ الله تعالى: ﴿**ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضرَّاء مسَّتهُ ليقولَنِ هذا لي وما أظنُّ السَاعةَ قائمةً ولئن رُجعت إلى ربى إنَّ لي عنده للحُسنى فلننبئنَّ الذين كفروا بما عَمِلوا ولنذيقنَّهم من عذابٍ غليظ**﴾. [فصلت: ٥٠].

ش: ذكر المصنِّفُ رحمه الله تعالى عن ابن عباس، وغيره من المفسرين - في معنى هذه الآية وما بعدها - ما يكفى فى المعنى ويشفى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: قال مُجاهد: هذا بعملى، وأنا محقوقٌ به. وقال ابن عباس: يُريد من عندى. وقوله: ﴿**قال إنما أُوتيتُه على علم عندي**﴾ [القصص: ٧٨]. قال قتادة: على علم منى بوجوه المكاسب[٢]. وقال آخرون: على علم من الله أنى له أهل [٣]. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف[٤].

ش: وليس فيما ذكروه اختلاف، وإنما هى أفرادُ المعنى.

قال العمادُ ابن كثير رحمه الله - فى معنى قول الله تعالى: ﴿**ثم إذا خَوَّلناه نعمةً منا قال إنما أُوتيته على علم بل هى فتنة**﴾. [الزمر: ٤٩]. يُخبر أنَّ الإِنسان فى حال الضرِّ يَضرع إلى الله عز وجل، ويُنيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوَّله نعمةً منه

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٥/ ٣).

(٢) أخرجه عبد بن حُميد، وابن المنذر وابن أبى حاتم، كما فى «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٠).

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن السُّدى، كما فى «المصدر السابق».

(٤) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٤/ ١٢) والفريابى وعبد بن حُميد وابن المنذر، كما فى «الدر المنثور» (٧/ ٢٣٤).

طغى وبغى و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أى: لما يعلم الله استحقاقى له، ولولا أنى عند الله خصيصٌ لما خولَّنى هذا.

قال الله عز وجل: ﴿بل هى فتنة﴾ أى: ليس الأمرُ كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بل هى فتنة﴾ أى: اختبار ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أى: هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادَّعى هذه الدعوى كثيرٌ ممن سلف من الأمم ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أى: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعُهم وما كانوا يكسبون؛ كما قال تعالى مُخبراً عن قارون: ﴿إذ قال له قومُه لا تفرح إنَّ الله لا يُحبُّ الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إنَّ الله لا يُحب المفسدين * قال إنما أُوتيته على علم عندى أولم يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جمعا ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾. [القصص: ٧٦ - ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وقالوا نحن أكثرُ أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾. [سبأ: ٣٥]. انتهى(١).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن أبى هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثةً من بنى إسرائيل: أبرصَ وأقرعَ، وأعمى. فأراد الله أن يبتليَهم، فبعث إليهم مَلَكا. فأتى الأبرص، فقال: أىُّ شىء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عنى/ الذى قد قذرنى الناس به. قال: فمسحه فذهب عنه قذرُه، فأُعطى لونا حسنا وجلدا حسنا. قال: أى المال أحبُّ إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق - فأُعطى ناقةً عُشرَاء، فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع، فقال: أىُّ شىء أحبُّ إليك؟ قال: شعرٌ حسن، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس به. فمسحه، فذهب عنه، وأُعطى شعرا حسنا. قال: أى المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأُعطى بقرة حاملا. فقال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أى شىء أحبُّ إليك؟ قال: أنْ يردَّ الله علىَّ بصرى، فأُبصر به الناس. فمسحه، فردَّ الله إليه بصره، قال: فأى المال أحب إليك؟ قال: الغنم.

[١٥٩/أ]

(١) ابن كثير فى «التفسير» (٧/ ٩٦).

فأُعطى شاة والدا، فأَنْتجَ هذان، ووَلَّد هذا. فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. قال: ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابنُ سبيل، قد انقطعت بى الحِبالُ فى سفرى هذا، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألُك بالذى أعطاك اللونَ الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلَّغ به فى سفرى، فقال: الحقوقُ كثيرة!، فقال له: كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذَرُك الناس، فقيرا، فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثتُ هذا المال كابرا عن كابر، قال: إن كنت كاذبا فصيرَّك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقرع فى صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيَّرك الله إلى ما كنت، قال: فأتى الأعمى فى صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل. قد انقطعت بى الحبال فى سفرى. فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذى ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلَّغُ بها فى سفرى، فقال: قد كنتُ أعمى فردَّ الله علىَّ بصرى، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهَدُك اليوم بشىء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضى الله عنك، وسخط على صاحبيك». أخرجاه[1].

ش: (أخرجاه). أى: البخارى، ومسلم.

والناقةُ العُشراء - بضم العين وفتح الشين وبالمد - هى الحامل.

قوله: «أُنتج» وفى رواية «فنتَّج» معناه: تولَّى نتاجها، والناتجُ للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: «ولَّد هذا» هو بتشديد اللام، أى: تولَّى ولادتهـا، وهو بمعنى «أُنتج» فى الناقة. فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره.

وقوله: «انقطعت بى الحبال» هو بالحاء المهملة والباء الموحَّدة، أى: الأسباب.

وقوله: «لا أجهَدُك» معناه: لا أشق عليك فى رد شىء تأخذه، أو تطلبه من مالى، ذكره النووى[2] [3].

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٦٤، ٦٦٥٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٩٦٤).

(٢) كتب فى هامش الأصل ما نصه: صح أصل المصنف.

(٣) النووى فى «المنهاج» (١٨/ ٩٨).

وهذا حديثٌ عظيم، وفيه مُعتبر: فإنَّ الأولَّين جحدا نعمة الله، فما أقرَّا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المُنعم بها، ولا أديا حق الله فيها بنعمه، فحلَّ عليهما السخط.

وأمَّا الأعمى: فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدَّى حق الله فيها. فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة، لمَّا أتى بأركان الشكر/ [١٥٩/ب] الثلاثة التي لا يقوم الشكرُ إلا بها، وهي: الإقرارُ بالنعمة، ونسبتُها إلى المُنعم، وبذلُها فيما يحب.

قال العلامة ابن القيم: أصلُ الشكر: هو الاعترافُ بإنعام المُنعم، على وجه الخضوع له والذل والمحبة. فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها، لم يشكرها. ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها، لم يشكرها أيضا. ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكرُ لنعمة المنعم عليه بها، فقد كفرها. ومن عرف النعمة والمنعم، وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه، لم يشكرها أيضا.

ومن عرفها وعرف المنعم وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضى به وعنه، واستعملها فى محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها. فلابد فى الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميلُ إلى المنعم ومحبته والخضوع له[1].

قوله: «قد قذرنى الناس» بكراهة رؤيته وقربه منهم.

---

(١) ينظر: ابن القيم، «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٢).

(٤٩)

باب

قول الله تعالى:

﴿فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: **﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يُشركون﴾**. [الأعراف: ١٩٠].

ش: قال الإمام أحمد رحمه الله - في معنى هذه الآية ـ : حدَّثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة، عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حوَّاءُ طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سَمِّيه عبدَ الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش. فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار، بُندار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، به.

ورواه الترمذي - في تفسير هذه الآية - عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد، به، وقال: هذا حديثٌ حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم. ورواه بعضُهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

ورواه الحاكم في (مستدركه)، من حديث عبد الصمد، مرفوعا، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في

(تفسيره)، عن أبى زُرعة الرازى، عن هلال بن فيّاض، عن عمر بن إبراهيم، به مرفوعا[1].

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن ﴿جعلا له شركاءَ فيما آتاهما﴾ قال: كان هذا فى بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم[2].

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى/، رزقهم الله أولادا فهوّدوا ونَصرّوا[3]. وهذا إسنادٌ صحيح عن الحسن رحمه الله[4]. [١٦٠/أ]

قال العِمَادُ ابن كثير فى (تفسيره): وأمَّا الآثار: فقال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحَصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادا فتُعبِّدهم لله، وتُسمّيه: عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت؛ فأتاها إبليس وآدمَ فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذى تسميانه به لعاش، فولدت له رجلاً فسمَّاه عبد الحارث، ففيه أنزل الله ﴿هو الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى آخر الآية[5] [الأعراف: ١٨٩].

وقال العَوفى، عن ابن عباس: فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون: أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه غويٌّ مبين. وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويا، ومات كما مات الأول. فسمَّيا ولدَهما عبد الحارث، فذلك

---

(١) أحمد فى «المسند» (٥/ ١١) وابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٥٥١٣)، والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٠٧٩) والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبى وابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٣) قال ابنُ كثير فى «التاريخ» (١/ ٨٩): رواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. فهذه علة قادحة فى الحديث، والمظنون بل المقطوع به أنَّ رفعه إلى النبى ـ ﷺ ـ خطأ، والصواب وقفه. والله أعلم. وقال فى «التفسير» (٣/ ٥٣٩): هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وذكرها.

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٥٥٢٦).

(٣) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٥٥٢٨).

(٤) ابن كثير، «التفسير» (٣/ ٥٣٠).

(٥) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٥٥١٦).

قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون﴾[1].

وذكر مثله: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم.

وقد تلقَّى هذا الأثر عن ابن عباس جماعةٌ من أصحابه: كمجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدى، وجماعةٌ من الخلف. ومن المفسرين ومن المتأخرين، جماعاتٌ لا يحصون كثرة.

قال العماد ابن كثير: وكأنه أصله - والله أعلم - مأخوذٌ من أهل الكتاب[2].

قلتُ: وهذا بعيدٌ جدا[3].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال ابنُ حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم مُعبِّدٍ لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك. حاشى عبدَ المطلب[4].

ش: ابن حزم: هو عالمُ الأندلس، أبو محمد، على بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبى الظاهرى. صاحب التصانيف، توفى سنة ستٍّ وخمسين وأربعمائة. وله اثنتان وسبعون سنة.

وعبد المطلب هذا: هو جدُّ رسول الله ﷺ، وهو ابنُ هاشم بن عبد مناف بن قُصى بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعدّ بن عدنان/ ، وما [١٦٠/ب] فوق عدنان مختلفٌ فيه. ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام[5].

---

(١) اخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٥٥١٧).

(٢) ابن كثير فى «التفسير» (٣/ ٥٣١).

(٣) قال سُليمان بن عبد الله فى «تيسير العزيز الحميد» (٦٣٠): وإذا تأمّلت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف تبيّن قطعاً أنّ ذلك فى آدم وحواء عليهما السلام. والعجيب ممن يكذب بهذه القصة وينسى ما جرى أول مرة!

وقال ابن كثير فى «التفسير» (٣/ ٥٣١): وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحوّاء.

(٤) ابن حزم «مراتب الاجماع» (١٥٤).

(٥) قال ابن كثير فى «التاريخ» (٢/ ١٨١): لا خلاف فى أن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، واختلفوا فى عدة ما بينهما، وكره بعض السلف الاشتغال بها، وأما الأنساب إلى عدنان فمحفوظة شهيرة جداً.

حكى رحمه الله: اتفاق العُلماء على تحريم كلٍّ ما عُبِّد لغير الله؛ لأنه شركٌ في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم مُلكٌ لله وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيدِه في ربوبيته وإلهيته: فمنهم من عبد الله وحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقرَّ له بربوبيته وأسمائه وصفاته. وأحكامُه القدرية جاريةٌ عليهم ولا بُدَّ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾. [مريم: ٩٣] فهذه هي العبودية العامة. وأمَّا العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْس الله بِكاف عَبْدَهُ﴾. [الزُّمر: ٣٦]. ونحوها.

قوله: (حاشى عبد المطلب)، هذا استثناءٌ من العموم المستفاد من كل. وذلك أنَّ تسميته بهذا الاسم لا محذور فيه؛ لأن أصله من عبودية الرق[1].

وذلك أنَّ المُطَّلب أخا هاشم قدم المدينة، وكان ابنُ أخيه شيبةُ هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج، لأن هاشماً تزوَّج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن.

فلما شبَّ في أخواله وبلغ سنَّ التمييز، سافر به عمُّه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته. فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهلُ مكة وقد تغيَّر لونُه بالسفر، فحسبوه عبداً للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب. فعَلِق به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يُدعى إلا به، فلم يبق للأصل معنى مقصود. وقد قال النبي ﷺ «أنا ابنُ عبد المطلب»[2].

وقد صار معظماً في قريش والعرب، فهو سيِّدُ قريش وأشرفُهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم وصارت له وفي ذريته من بعده.

وعبدُ الله: والدُ رسول الله ﷺ أحدُ بني عبد المطلب، وتوفي في حياة أبيه؛ قال الحافظ صلاح الدين العُلائي في كتابه (الدرة السنية في مولد خير البرية): كان

---

(١) وقال ابن معمرّ، كما في «الدرر السنية» (٣/ ٤١٥) سبب الاستثناء، لظاهر ما صح عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة حنين، لما انهزم عنه أصحابه إلا قليلاً «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» ويأتي.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٢٨٦٤، ٢٨٧٤، ٢٩٣٠، ٣٠٤٢، ٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧)، ومسلم في «الصحيح» رقم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

سنُّ أبيه عبد الله حين حملت منه آمنةُ برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عامًا، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمراً لأهله، فمات بها عند أخواله بنى النجَّار، والنبى ﷺ / حملٌ على الصحيح. انتهى. [١٦١/أ]

قلتُ: وصار النبى ﷺ لمَّا وضعته أمُّه فى كفالة جده عبد المطلب.

قال الحافظُ الذهبى: وتوفى أبوه عبد الله وللنبى ﷺ ثمانيةٌ وعشرون شهراً، وقيل: أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل. توفى بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار بها تمراً، وقيل: قد مرَّ بها راجعاً من الشام، وعاش خمساً وعشرين سنة. قال الواقدى: وذلك أثبتُ الأقاويل فى سِنّه ووفاته.

وتُوفيت أُمُّه آمنة بالأبواء[١]، وهى راجعةٌ به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بنى عَدى بن النجار، وهو يومئذٍ ابنُ ست سنين ومائة يوم. وقيل: ابنُ أربع سنين.

فلما ماتت أُمُّه حملته أمُّ أَيْمن مولاتُه إلى جَدِّه، فكان فى كفالته إلى أنْ تُوفى جدُّه، وللنبى ﷺ ثماني سنين، فأوصى به إلى عمِّه أبى طالب. انتهى كلامُ الحافظ[٢].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن ابن عباس فى الآية، قال: لما تَغشَّاها آدمُ حملت، فأتاهما إبليسُ. فقال: إنى صاحبُكما الذى أخرجتكما من الجنة، لَتُطيعُنَنى أو لأجعلنَّ له قَرْنى أَيِّلٍ، فيخرج من بطنك فيشقّه. ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ، يخوِّفهما. سمِّياه عبد الحارث. فأبيا أن يُطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت، فأتاهما. فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما. فأدركهما حُبُّ الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قولُه: ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ رواه ابنُ أبى حاتم[٣].

ش: قد قدَّمنا نظيرَه عن ابن عباس فى المعنى.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وله بسندٍ صحيح، عن قتادة، قال: شُركاء فى

---

(١) قريةٌ من أعمال المدينة، بينها وبين الجُحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. «معجم البلدان» (١/ ٧٩).

(٢) الذهبى فى «تاريخ الإسلام» السيرة (٤٩).

(٣) ابن أبى حاتم فى «التفسير»، وأخرجه سعيد بن منصور، وابن المنذر، كما فى «الدر المنثور» (٣/ ٦٢٤).

طاعته، ولم يكن فى عبادته[1]. وله بسند صحيح، عن مجاهد ـ فى قوله ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ قال: اشفقا أنْ لا يكون إنساناً. وذُكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما[2].

قال شيخُنا رحمه الله: إنَّ هذا الشرك فى مجرَّد تسميةٍ، لم تُقصد حقيقتها[3].

وهو محملٌ حسن، يُبيِّن أنَّ ما وقع من الأبوين، من تسميتهما ابنهما عبد الحارث: إنما هو مجرَّد تسميةٍ، لم يقصدا تعبيدَه لغير الله. وهذا معنى قول قتادة: شُركاء فى طاعته، ولم يكن فى عبادته.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٥٥٢١).

(٢) ابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٣/٦٢١).

(٣) المسألةُ الثالثة.

(٥٠)

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: **﴿ولله الأسْماءُ الحُسنى فادْعُوهُ بها وذروا الذين يُلْحدُونَ فى أَسْمَائه سيُجزون ماكانوا يعملُون﴾**. [الأعراف: ١٨٠]. ذكر ابنُ أَبى حاتم، عن ابن عباس: **﴿يُلحدون فى أسمائه﴾** يُشركون. وعنه: سمُّوا اللات من الإله، والعُزّى من العزيز. وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها(١).

ش: عن أبى هريرة رضى الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، وهو وترٌ يُحب الوتر» أخرجاه فى (الصحيحين)، من حديث سُفيان بن عُيينة(٢). ورواه البخاريُّ، عن أبى اليمان، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عنه(٣).

وأخرجه [الترمذى عن](٤) الجوزجانى، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شُعيب بسنده، مثله.

وزاد بعد قوله: «يُحب الوتر: هو الله الذى لا إله إلا هو، الرحمنُ، الرحيم، الملكُ، القدوس، السلام، المؤمنُ، المهيمن، العزيز، الجبار،/ المتكبر، الخالق، [١٦١/أ] البارىء، المصور، الغفار، القهارُ، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسطُ، الخافض، الرافع، المعزُّ، المذل، السميع، البصير، الحكَم، العدل،

---

(١) ابن أبى حاتم فى «التفسير» كما فى «الدر المنثور» (٣/٦١٦).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٤١٠) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٧٧)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (٢/٤٥٨، ٤٩٩).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢).

(٤) ساقطٌ فى جميع النسخ، والإضافة من «تفسير ابن كثير».

اللطيف، الخبير، الحليم، العظيمُ، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المُجيب، الواسعُ، الحكيم. الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولىّ، الحميد، المحصى، المبدىء، المُعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفردُ، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المُتعالى، البَر، التواب، المنتقم، العفوُّ، الرؤوف، مالكُ الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المعطى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور».

ثم قال الترمذى: هذا حديثٌ غريب، وقد رُوى من غير وجه عن أبى هريرة، ولا نعلمُ فى كثير من الروايات ذكرَ الأسماء إلا فى هذا الحديث[1].

[والذى عوَّل عليه جماعةٌ من الحفاظ: أنَّ سرد الأسماء فى هذا الحديث][2] مُدرجٌ فيه.

وإنَّما ذلك كما رواه الوليدُ بن مسلم، وعبد الملك الصنعانى، عن زُهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنَّهم قالوا ذلك. أى: إنهم جمعوها من القرآن؛ كما رُوى عن جعفر بن محمد، وسفيان، وأبى زيد اللغوى، والله أعلم[3]

هذا ما ذكره العمادُ ابن كثير فى (تفسيره). ثم قال: ثم ليعلم أنَّ الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى تسعة وتسعين؛ بدليل ما رواه أحمد، عن يزيد بن هارون، عن فُضيل بن مرزوق، عن أبى سلمة الجُهنى، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أصاب

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٠٢)، وأخرجه ابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٨٦١) بسياق آخر. قال البوصيرى فى «مصباح الزجاجة» (٣/٢٠٨): إسنادُ طريق ابن ماجة ضعيف.

(٢) ما بينهما ساقطٌ من الأصل، وهو انتقال نظر.

(٣) قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فى «مجموع الفتاوى» (٢٢/٤٨٢): وحفَّاظُ أهل الحديث يقولون: هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم، عن شيوخه من أهل الحديث. وقال ابن القيم فى «مدارج السالكين» (٣/٤١٥): والصحيح أنه ليس من كلام النبى - ﷺ -.

أحداً قط هَمٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدُك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك/ أو علمته أحداً من خلقك أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم [١٦٢/أ] الغيب عندك: أنْ تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى. إلا أذهب الله همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً» فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى. ينبغى لمن سمعها أنْ يتعلمها»، وقد أخرجه أبو حاتم ابن حبان فى (صحيحه)(١).

وقال العَوفى، عن ابن عباس ـ فى قوله تعالى: ﴿وذَروا الذين يلحِدون فى أسمائه﴾ ـ قال: إلحادُ الملحدين: أن دعوا اللات فى أسماء الله(٢).

وقال ابنُ جُريج، عن مجاهد ﴿وَذروا الذين يُلحِدون فى أسمائِه﴾ قال: اشتقوا اللاَّت من الله، واشتقوا العُزَّى من العزيز(٣).

وقال قتادة: يُلحدون: يُشركون(٤). وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الإِلحاد: التكذيب(٥).

وأصل الإِلحاد فى كلام العرب: العدل عن القصد، والميلُ والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر؛ لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر(٦).

قال ابنُ القيِّم رحمه الله :

وحقيقــة الإِلحــاد فيها الميــلُ بالــ ... إشــراك والتعطيــل والنكــران

وأسماءُ الرب تعالى كلُّها أسماءٌ وأوصاف تعرَّف بها تعالى إلى عباده، ودلَّت على كماله جل وعلا.

---

(١) أحمد فى «المسند» (١/ ٣٩١ و٤٥٢) وابن حبان فى «الصحيح» (٢/ ١٦٠) وصححه ابن القيم فى «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٦) و«شفاء العليل» (٤٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (١٥٤٥٣).

(٣) «المصدر السابق» رقم (١٥٤٥٤).

(٤) «المصدر السابق» رقم (١٥٤٥٦).

(٥) «المصدر السابق» رقم (١٥٤٥٥).

(٦) ابن كثير فى «التفسير» (٣/ ٥١٦).

وقال رحمه الله تعالى: فالإلحاد: إمَّا بجحدها وإنكارها، وإمَّا بجحد معانيها وتعطيلها، وإمَّا بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات.

وإمَّا بجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد؛ فإنَّهم جعلوها أسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها. حتى قال زعيمُهم: هو المسمَّى بمعنى كلٍّ اسم ممدوح عقلاً وشرعاً وعرفاً. وبكل اسمٍ مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. انتهى[1].

قلتُ: والذى عليه أهل السُّنة والجماعة قاطبة ـ متقدمهم ومتأخرهم ـ: إثباتُ الصفات التى وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ كما قال: **﴿لَيس كَمثله شىءٌ وهو السميعُ البصيرُ﴾**. [الشورى: ١١].

وأنَّ الكلام فى الصفات فرعٌ عن الكلام فى الذات، يحتذى حذوه ومثاله. [١٦٢/ب] وكما أنه يجب العلمُ بأن لله ذاتاً حقيقة لا تُشبه شيئا/ من ذوات المخلوقين.

فله صفاتٌ حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوَّله على غير ما ظهر من معناه: فهو جهميٌّ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: **﴿ومَن يُشاقق الرَّسُول من بَعد ما تبيَّنَ لَهُ الهُدى ويتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين نُولِّه ما تولَّى ونُصله جهنَّم وساءت مصيراً﴾**. [النساء: ١١٥].

وقال العلامة أيضاً: فائدةٌ جليلة: ما يجرى صفةً أو خبراً على الرب تبارك وتعالى، أقسام:

أحدُها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود. الثانى: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولابدَّ من تضمُّنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال فى العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

---

(١) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩).

الخامس ـ ولم يذكره أكثر الناس ـ: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دالٌّ على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد؛ فإنَّ المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظة يدلُّ على هذا. فإنَّه موضوعٌ للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استَمْجدَ المَرْخُ والعَفارُ[1]، وأمجد الناقة: علفها، ومنه: ﴿ذو العَرشِ المجيدُ﴾ صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمَّل كيف جاء بهذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علَّمَناه ﷺ: بأنه فى مقام طلب المزيد والتعرُّض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى فى هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجعٌ إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبِّها إليه، ومنه الحديثُ الذى فى (المسند) والترمذى «أَلِظُّوا[2] بياذا الجلال والإكرام»[3] ومنه «اللهم إنى أسألُك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنانُ، بديعُ السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام»[4].

فهذا سؤالٌ له وتوسل إليه بحمده، وأنه: لا إله هو المنان. فهو توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وما أحقَّ ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المسؤول. وهذا بابٌ عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفةٌ تحصل من اقتران أحد الإسمين والوصفين بالآخر/ ، وذلك [١٦٣/أ] قدْرٌ زائد على مفرديهما، نحو: الغنى الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامةُ الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن؛ فإنَّ الغِنى صفةُ

(١) المَرْخ: شجرٌ سريع الاشتعال. والعفارُ: شجرٌ يتخذ منه الزناد، ومعنى قولهم. استمجد المَرْخ والعفار: استكثرا من النار. «القاموس المحيط» مادة مجد.

(٢) ألظَّ بالشئ: إذا لزمه وثابر عليه. ابن الأثير «النهاية» (٤/ ٢٥٢).

(٣) أحمد فى «المسند» (٤/ ١٧٧) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٢٢) وقال: وهذا حديثٌ غريب والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤٩٩) وصححه ووافقه الذهبى من حديث انس، وربيعة بن عامر.

(٤) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٤٩٥) والنسائى فى «المجتبى» (٣/ ٥٢)، وصححه ابن القيم فى «شفاء العليل» (٤٥٨) من حديث أنس.

كمال، والحمد كذلك، واجتماعُ الغنى مع الحمد كمال آخر. فله ثناءٌ من غناه، وثناءٌ من حمده، وثناءٌ من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. فتأمله، فإنه من أشرف المعارف[1].

(٥) ابن القيم فى «بدائع الفوائد» (١/ ١٥٩).

(٥١)

بــاب

لا يقال: السلام على الله

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابٌ لا يُقال: السلامُ على الله.

في الصحيح، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا كُنَّا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلامُ على الله من عباده، السلامُ على فلان، فقال النبيُّ ﷺ «لا تقولوا: السلامُ على الله؛ فإنَّ الله هو السلام».

ش: هذا الحديثُ: رواه البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، من حديث شَقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كنا إذا جلسنا مع النبي ﷺ في الصلاة، قُلنا: السلامُ على الله قبل عباده، والسلام على فلان وفلان. الحديث[١]، وفي آخره ذِكْرُ التشهد الأخير.

ورواه الترمذي، من حديث الأسود بن يزيد، عن ابن مسعود[٢]، وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك؛ بقوله: «فإنَّ الله هو السلام ومنه السلام».

وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثاً، وقال «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإِكرام»[٣].

وفي الحديث: إنَّ هذا هو تحيةُ أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى،[٤].

---

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٨٣٥)، ومسلم في «الصحيح» رقم (٤٠٢) وأبو داود في «السنن» رقم (٩٦٨) والنسائي في «المجتبى» (٢/ ٢٤٠) وابن ماجة في «السنن» رقم (٨٩٩).

(٢) الترمذي في «الجامع» رقم (٢٨٤٩).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٥٩١) وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٥، ٢٧٩) من حديث ثوبان.

(٤) ورد ذلك في حديث مُرسل، مضى تخريجُه في الباب السادس والثلاثين. وفي «مسند أحمد» (٤/ ٣٨١) من حديث عبد الله بن أبي أوفى «السلام تحية أهل الجنة».

[وفى التنزيل: ما يدلُّ على أنَّ الرب تبارك وتعالى يُسلِّم عليهم فى الجنة؛ كما قال تعالى]: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَبٍّ رَحِيمٍ﴾. [يس: ٥٨].

ومعنى قوله: «إنَّ الله هو السلام»: أنه تعالى سالمٌ من كل نقص، ومن كل تمثيل. فهو الموصوفُ بكل كمال، المنزَّهُ عن كل عيب ونقص.

قال فى (البدائع): السلامُ اسمُ مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمّن [الإنشاء والإخبار. فجهةُ الخبرية فيه لا تُناقض الجهة](١) الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران:

الأول: أنَّ الله عز وجل وهو السلام، ومعنى الكلام: نزلت بركتُه عليكم، ونحو هذا؛ فاختير فى هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثانى: أن السلام مصدرٌ بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية. ومن حُجة أصحاب هذا/ القول: أنَّه يأتى مُنكّرًا، فيقول المُسلِّم: [١٦٣/ب] سلامٌ عليكم، ولو كان اسمًا من أسماء الله لم يُستعمل كذلك، ومن حجتهم: أنه ليس المقصودُ من السلام هذا المعنى، وإنما المقصودُ منه: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

قال العلامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله: وفصلُ الخطاب، أنْ يُقال: الحقُّ فى مجموع القولين، فكلٌّ منهما بعضُ الحق، والصواب فى مجموعهما.

وإنما يتبين ذلك بقاعدة، وهى: أنَّ حق من دعا الله بأسمائه الحُسنى أنْ يَسأل فى كلِّ مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب، المناسب لحصوله. حتى إنَّ الداعى متشفعٌ إلى الله تعالى، متوسلٌ إليه به.

فإذا قال: ربّ اغفر لى وتُب عليَّ إنك أنت التوابُ الغفور، فقد سأله أمرين وتوسَّل إليه باسمين من أسمائه مُقتضيين لحصول مطلوبه.

وقال ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه، وقد سأله ما يدعو به «قل: اللهم

(١) ما بينهما ساقطٌ من الأصل، وهو انتقالُ نظر.

إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[1].

فالمقامُ لَمَّا كان مقام طلب السلامة التي هي أهمُّ عند الرجل، أتى بلفظها بصيغة اسمٍ من أسماء الله وهو السلام، الذي تُطلب منه السلامة. فتضمَّن لفظُ السلام معنيين: أحدُهما: ذكر الله، والثاني: طلبُ السلامة، وهو مقصود المسلم.

وقد تضمَّن سلامٌ عليكم: اسمًا من أسماء الله تعالى، وطلب السلامة منه. فتأمَّل هذه الفائدة[2]!.

وحقيقتُه: البراءة والخلاص، والنجاة من الشرور والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولك: سلَّمك الله، ومنه دعاءُ المؤمنين على الصراط: رب سلِّم سلم[3].

ومنه سَلِم الشيءُ لفلان، أي: خلص له وحده؛ قال تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مثلاً رجُلاً فيه شرَكاءُ متشاكسون ورَجُلاً سَلَمًا لرَجُلٍ﴾. [الزمر: ٢٩].

أي: خالصاً له وحده، لا يملكه معه غيره. منه السِّلْم ضد الحرب؛ لأن كلَّ واحد من المتحاربين يخلص ويسلَم من أذى الآخر، ولهذا بُني فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثلُ المشاركة. ومنه: القلبُ السليم، وهو النقيُّ من الدَّغَل والعيب.

وحقيقتُه: الذي قد سلَّم لله وحده، فخلص من دَغَل الشرك وغِلِّه، ودغل الذنوب والمخالفات، بل هو المستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته/ [١٦٤/أ]. وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه، والفوز بكرامته.

ومنه أخذ الإسلام، فإنَّه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلامُ والانقياد لله والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له. كالعبد الذي سلَّم لمولاه، ليس فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به[4].

---

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» رقم (٨٣٨٧، ٧٣٨٨) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢٧٠٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٢/ ١٣٧ - ١٤٢).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (١٨٣) من حديث أبي سعيد.

(٤) ابن القيم «بدائع الفوائد» (٢/ ١٣٣).

(٥٢)
بـــاب
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابُ قولِ: اللهم اغفر لى إنْ شئت.

ش: يعنى: أنَّ ذلك لايجوز، لورود النهى عنه فى حديث الباب.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: فى الصحيح، عن أبى هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدُكم: اللهم اغفر لى إنْ شئت، اللهم ارحمنى إنْ شئت، ليَعزِم المسألة؛ فإنَّ الله لا مُكْرِه له»[١].

ولمسلم: «وليُعْظِّم الرَّغبة، فإنَّ الله لا يتعاظَمُه شيءٌ أعطاه»[٢].

ش: بخلاف العبد؛ فإنَّه قد يعطى السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه منه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره.

فاللائقُ بالسائل للمخلوق أنْ يُعلِّق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يُعطيه وهو كاره. بخلاف ربِّ العالمين تعالى، فإنه لا يليق به ذلك؛ لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمالِ جوده وكرمه، وكلُّهم فقير إليه، مُحتاج لا يستغنى عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام.

وفى الحديث: «يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحَّاء[٣] الليل والنهار؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما فى يمينه، وفى يده الأخرى القِسط يخفضُه ويرفعه»[٤] يُعطى تعالى لحكمة، ويمنعُ لحكمة، وهو الحكيمُ الخبير.

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٣٣٩، ٧٤٧٧) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٧٩).

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٧٩).

(٣) سحَّاء: أى: دائمة الصب بالعطاء.

(٤) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٦٨٤) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة.

فاللائقُ بمن سأل الله أنْ يعزم المسألة، فإن الله تعالى لا يُعطى عبده شيئاً عن كراهة، ولا عن عِظم مسألة[1].

وقد قال بعضُ الشُّعراء فيمن يمدحُه:

ويعظُم فى عين الصغير صغارُهـا ... ويصغر فى عين العظيم العظائمُ[2]

وأمَّا هذا: بالنسبة إلى ما فى نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإنَّ العبد يُعطى تارةً ويمنع أكثر، ويُعطى كرهاً والبخل عليه أغلب؛ وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم.

وأما ما يعطيه الله عباده فهو دائمٌ مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال. من حين وضِعت النطفةُ فى الرحم؛ فنعمُه على الجنين فى بطن أُمه دارَّه، يربيّه أحسن تربيةِ، فإذا وضعت أُمُّه عطَفَ عليه والديه، وربَّاه بنعمه حتى يبلغ أشده. يتقلَّب فى نعم الله مدة حياته، فإذا كانت حياتُه على الإيمان والتقوى: ازدادت نعمُ الله تعالى عليه/ إذا توفَّاه، أضعاف أضعاف ما كان عليه فى الدنيا من النعم التى لا يقدِّر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين. [١٦٤/ب]

وكلُّ ما يناله العبدُ فى الدنيا من النعم، وإنْ كان بعضُها على يد مخلوق، فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده.

فإن الله تعالى هو المحمود على النعم كلِّها، فهو الذى شاءها وقدَّرها، وأجراها عن كرمه وجوده وفضله. فله النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن؛ قال تعالى: ﴿وما بِكم من نعِمَةٍ فَمِن الله ثُمَّ إذا مَسَّكُم الضرُّ فإليه تجأرون﴾ [النحل: ٥٣].

وقد يمنع تعالى عبده إذا سأله؛ لحكمة وعلم بما يُصلح عبده من العطاء والمنع. وقد يؤخِّر ما سأله عبده لوقته المقدَّر، أو ليُعطيه أكثر، فتبارك الله ربُّ العالمين.

---

(١) وهكذا: من سأل الله لغيره، فليس له أن يدعو ويستثنى فى دعائه. وقد انتشر هذا النوع من الدعوات وظهر حتى بين المنتسبين إلى العلم فى هذا الزمان، دون تنبهٍ إلى ما ينطوى عليه من محذور. فالله المستعان.

(٢) بيتٌ من قصيدة طويلة لأبى الطيب المتنبى فى سيف الدولة، وأولها:

على قدر أهل العزم تأتى العزائمُ ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

الديوان (٢٩٠).

قوله: ولمسلم: «وليُعظِّم الرَّغبة» أى: فى سؤاله لربه حاجته؛ فإنَّه يُعطى العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا.

«فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»، أى: ليس شيءٌ عنده يعظم، وإنْ عظُم فى نفس المخلوق؛ [لأن سائل المخلوق][1] لا يسأله إلا ما يهون عليه بذلُه، بخلاف رب العالمين، فإنَّ عطاءه كلامٌ: ﴿إنَّما أَمْرُهُ إذا أراد شيئاً أنْ يَقُول لَهُ كُنْ فيكُون﴾. [يس: ٨٢] فسبحان من لا يقدِّر الخلقُ قدْرَه، لا إله غيرُه، ولا رب سواه.

(١) ساقطٌ من الأصل.

(٥٣)
بـــاب
لا يقول: عبدي وأمتـــي

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابٌ لا يقول: عبدى وأمَتى.

في الصحيح، عن أبى هُريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: أطعِمْ ربَّك، وضِّىء ربَّك، وليقل: سيِّدى ومولاى، ولا يقل أحدُكم: عبدى وأمتى، وليقل: فتاى وفتاتى وغُلامى»[١].

ش: قوله: (بابٌ لا يقول: عبدى وأمتى). ذَكَر الحديث الذى فى الصحيح، عن أبى هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدكم: أطعم ربك وضىء ربك، وليقل: سيدى ومولاى. ولا يقل أحدكم: عبدى وأمتى، وليقل: فتاى وفتاتى وغلامى».

هذه الألفاظ المنهىُّ عنها: وإنْ كانت تطلق لغةً، فالنبىُّ ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد، [وسداً لذرائع الشرك][٢]؛ لما فيها من التشريك فى اللفظ، لأنَّ الله تعالى هو ربُّ العباد جميعهم.

فإذا أُطلق على غيره شاركه فى هذا الاسم، فينُهى عنه لذلك؛ وإنْ لم يقصد بذلك التشريك فى الربوبية التى هى وصف الله تعالى، وإنما المعنى أنَّ هذا مالكٌ له؛ فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهىُ عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقا للتوحيد وبُعداً عن الشرك حتى فى اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة؛ لما فيه من تعظيم الرب/ تعالى، وبُعده عن مشابهة المخلوقين. فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله: [١٦٥/أ]

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٥٥٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٢٤٩).

(٢) إضافة من (هـ) و(ط).

سيدى ومولاى[1]. وكذلك قوله: «ولا يقل أحدُكم: عبدى وأمتى» لأن العبيد عبيد الله والإماء إماءُ الله؛ قال تعالى: ﴿**إنْ كُلُّ مَنْ فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبْداً**﴾. [مريم: ٩٣] ففى إطلاق هاتين الكلمتين على غيَر الله تشريكٌ فى اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى، وأدبًا وابعادًا عن الشرك، وتحقيقًا للتوحيد، وأرشده إلى أن يقول: «فتاى وفتاتى وغلامى».

وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد، فقد بلَّغ ﷺ أُمَّته كلَّ ما فيه نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقصٌ فى الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا فى تحقيق التوحيد، ولا شرَّ إلا حذرهم عنه صلوات الله وسلامه عليه، خصوصًا ما يُقرِّب من الشرك لفظًا وإنْ لم يُقصد، وبالله التوفيق.

(١) ينظر: ابن حجر، «فتح البارى» (٥/ ١٨٠) وسيأتى له مزيد بيان فى الباب الخامس والستين.

(٥٤)

بـــاب

لا يـــرد مـــن ســـأل بـــالله

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابٌ لا يُردُّ من سأل بالله.

عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه». رواه أبو داود، والنسائى بسند صحيح[١].

ش: ظاهرُ الحديث النهىُّ عن ردِّ السائل إذا سأل بالله. لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل، بحسب ما ورد فى الكتاب والسُّنة. فيجب إذا سأل السائلُ ماله فيه حقٌّ كبيت المال [أنْ يُجاب][٢]، فيُعطى منه على قدر حاجته [وما يستحقه][٣]، وكذلك إذا سأل[٤] المحتاج مَن فى ماله فضلٌ فيجب أن يُعطيه ما يدفع، على [حسب حاله ومسألته وأما إذا سأل[٤] من لا فضل عنده، فيُستحب أنْ يُعطيه على][٥] قدر حال المسؤول ما لا يضره ولا يضر عائلته، وإنْ كان مضطراً وجب أنْ يعطيه ما يدفع ضرورته[٦].

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (١٦٧٢) والنسائى فى «المجتبى» (٥/ ٨٢)، قال النووى فى «رياض الصالحين» (٦٥٣): حديثٌ صحيح.

(٢) إضافةٌ من (ط).

(٣) إضافةٌ من (ض) و(هـ) و(ط).

(٤) ما بينهما ساقطٌ من (ط).

(٥) ما بينهما ساقطٌ من الأصل.

(٦) قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى فى «مدارج السالكين» (٢/ ٢٣٢): والمسألةُ فى الأصل حرام. وإنما أُبيحت للحاجة والضرورة؛ لأنها ظلمٌ فى حق الربوبية، وظلمٌ فى حق المسئول، وظلمٌ فى حق السائل. اهـ.

ومقامُ الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوتُ الناس فيه بحسب ماجبلوا عليه من الكرم والجود، وضدُّهما من البخل والشح. فالأوَّلُ محمودٌ فى الكتاب والسُّنة، والثانى مذمومٌ فيهما.

وقد حثَّ الله تعالى عباده على الإنفاق؛ لعظم نفعه وتعدِّيه، وكثرة ثوابه، قال تعالى: ﴿يا أَيُّها الذين آمَنُوا أَنفِقُوا من طيبات ما كَسَبْتُم ومِمَّا أَخْرَجْنَا لَكم من الأرض ولا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ منْهُ تُنفِقُون ولَسْتُمْ بآخذيه إلا أن تُغْمضُوا فيه واعْلَمُوا أنَّ الله غَنِيٌّ حَميدٌ * الشَّيْطانُ يَعدُكُم الفقْرَ ويَأْمُرُكُم بالفَحْشاء والله يَعدُكُم مَغْفرَةً منْهُ وَفَضْلاً والله وَاسعٌ عَليمٌ﴾. [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفقُوا ممَّا جَعَلَكُمْ مُسْتخْلَفينَ فيه﴾. [الحديد: ٧]. وذلك الإنفاق/ [١٦٥/ب] فى خصال البر المذكورة فى قوله: ﴿لَيْسَ البرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبلَ المشرق والمغرب ولكن البر مَن آمَن بالله واليوم الآخرِ والملائكة والكتابِ والنبيين وآتى المَال على حُبِّه ذوى القُرْبى واليتامى والمساكين وابنَ السبيل والسائلين وفى الرِّقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاةَ والمُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضرَّاء وحين البأس أولئك الذين صدَقوا وأولئك هم المتَّقون﴾. [البقرة: ١٧٧].

فذكره بعد ذكر أصول الإيمان، وقبل ذكر الصلاة. وذلك ـ والله أعلم ـ لتعدى نفعه. وذكره تعالى فى الأعمال التى أمر بها عباده، وتعبَّدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم؛ قال تعالى: ﴿إنَّ المُسلمين والمُسلمات والمؤمنينَ والمؤمنات والقانتين والقانتات والصَّادقين والصَّادقات والصابرينَ والصابرات والخاشعين والخاشعات والمُتَصدِّقين والمُتصدقات والصائمينَ والصائمات والحافظين فُرُوجَهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدَّ الله لهُم مَغْفرَةً وأَجْراً عظيماً﴾. [الأحزاب: ٣٥].

وكان النبىُّ ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء(١)؛ نُصحاً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً.

وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤثرُون

---

(١) أخرجه البخاري فى «الصحيح» رقم (٩٧٨) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٨٨٤) عن جابر.

على أَنفُسِهِم ولَوْ كان بِهِم خصاصةٌ ومن يُوق شُح نفسه فأُولَئك هُمُ المُفْلحُون﴾. [الحشر: ٩]، والإيثارُ من أفضل خصال المؤمن كما تُفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُون الطعام على حبِّه مُسكينًا ويَتيمًا وأسيراً * إنَّما نُطْعِمُكُم لِوَجْه الله لا نُريدُ منكُم جزاءً ولا شُكُوراً﴾. [الإنسان: ٨ - ٩].

والآياتُ والأحاديث في فضل الصدقة كثيرةٌ جدّاً، ومن كان سعيهُ للدار الآخرة رغب في هذا ورغَّب، وبالله التوفيق[1].

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه» هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض: إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الأُلفة والمحبة بين المسلمين.

قوله: «ومن صنع/ إليكم معروفاً فكافئوه» ندبهم ﷺ على المكافأة على المعروف، (٢فإنَّ المكافأة على المعروف٢) من المروءة التي يحبها الله تعالى ورسوله، كما دلَّ عليه هذا الحديث، ولا يُهمل المكافأةَ على المعروف إلا اللئيم من الناس، وبعض اللئام يكافىء على الإحسان بالاساءة، كما يقع ذلك كثيراً من بعضهم. نسألُ الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة. [١٦٦/أ]

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنَّهم يدفعون بالحسنة السيئةَ؛ طاعةً لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه؛ كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بالتي هي أَحْسَنُ السيئةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بمَا يَصفُونَ * وقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ من همزات الشياطين * وأَعُوذُ بك رَبِّ أَنْ يَحضُرُون﴾. [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] وقال تعالى: ﴿ادْفَع بالتي هي أَحْسَنُ فإذا الذي بيْنَك وبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كأَنَّهُ وليٌّ حَمِيمٌ * وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَرُوا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عَظِيمٍ﴾. [فصلت: ٣٤ - ٣٥] وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة.

قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له» أرشدهم ﷺ إلى أنَّ الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأةٌ للمعروف، فيدعو له بحسب معروفه.

قوله: «حتى تُروا ـ بضم التاء، أي: تظنوا ـ أنكم قد كافأتموه» ويُحتمل أنَّها

---

(١) ينظر: ابن رجب الحنبلي، «فضل صدقة السر».

(٢) ما بينهما ساقط من (ط).

مفتوحة بمعنى: تعلموا؛ ويؤيده ما فى (سُنن أبى داود)، فى حديث ابن عمر «حتى تعلموا» فتعين الثانى للتصريح به.

وفيه «ومن سألكم بالله فأجيبوه» أى: إلى ما سأل. فيكون بمعنى: أعطوه! وعند أبى داود - فى رواية أبى نَهيك - عن ابن عباس «من سألكم بوجه الله فأعطوه»[1] وفى رواية عُبيد الله القواريرى لهذا الحديث «ومن سألكم بالله» كما فى حديث ابن عمر[2].

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٥١٠٨).

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٥١٠٩).

(٥٥)

بــاب
لا يســأل بوجـــه الله إلا الجنــة

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابٌ لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة.

عن جابر، قال: قال رسولُ ﷺ «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة». رواه أبو داود(١).

ش: قوله: (بابٌ لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة).

ذكر فيه حديث جابر ـ رواه أبو داود، عن جابر ـ قال: قال رسول الله ﷺ «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة».

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد فى دعاء النبى ﷺ عند مُنصرفه من الطائف، حين كذَّبه أهلُ الطائف ومن فى الطائف من أهل مكة، فدعا ﷺ بالدعاء المأثور «اللهم إليك أشكو ضعف/ قوتى، وقلَّةَ حيلتى، وهوانى على الناس. أنت ربُّ [١٦٦/ب] المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تَكلُنى؟ إلى بعيد يتجهمُنى، أو إلى عدو ملَّكته أمرى؟ إنْ لم يك بك غضبٌ علىَّ فلا أُبالى، غير أنَّ عافيتك هى أوسعُ لى» وفى آخره «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلماتُ، وصلُح عليه أمرُ الدنيا والآخرة: أن يَحُلَّ علىَّ غضبُك، أو ينزل بى سخطك. لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(٢)، والحديث المروى فى

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (١٦٧١)، وله شاهد من حديث أبى موسى الأشعرى، أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» رقم (٢١١٢) بإسناد حسن، وذكره الألبانى فى «صحيحته» رقم (٢٢٩٠).

(٢) أخرجه الطبرانى فى كتاب «الدعاء» رقم (١٠٣٦) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٥): رواه الطبرانى، وفيه ابن اسحاق وهو مدلس ثقة، وبقيَّةُ رجاله ثقات. والطبرى فى «التاريخ» (٢/ ٣٤٥) من حديث عبد الله بن جعفر. وأصله فى «صحيح البخارى» رقم (٣٢٣١)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٧٩٥) من حديث عائشة.

الأذكار «اللهم أنت أحقُّ من ذُكر، وأحق من عُبد ـ وفى آخره ـ أعوذُ بنور وجهك الذى أشرقت له السموات والأرض»[1].

وفى حديث آخر «أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة، من شر السَّامة واللامة، ومن شر ما خلقت أى ربِّ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ومن شر الدنيا والآخرة»[2] وأمثالِ ذلك فى الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

فالجواب: أنَّ ما ورد من ذلك فهو فى سؤال ما يُقرِّب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التى تمنع من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يُقرِّبُ إلى الجنة؛ كما فى الحديث الصحيح «اللهم إنى أسألك الجنة وما يقرب إليها من قولٍ أو عمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل»[3].

بخلاف ما يختصُّ بالدنيا، كسؤاله المال والرزق والسعة فى المعيشة رغبةً فى الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أنَّ الحديث يدلُّ على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله.

وعلى هذا: فلا تعارض بين الأحاديث، كما لا يخفى، والله أعلم.

وحديثُ الباب: من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسُّنة على إثبات الوجه لله تعالى؛ فإنَّه صفةُ كمال، وسلبُه غايةُ النقص والتَّشبيه بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها. فوقعوا فى أعظم مما فرُّوا منه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وطريقةُ أهل السُّنة والجماعة سلفاً وخلفاً: الإيمانُ بما وصف الله به نفسه فى

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٠٢٧) من حديث أبى أمامة، قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١٠/١١٧): وفيه فضال بن جبير، وهو ضعيف مجمعٌ على ضعفه.

(٢) أخرجه بنحوه: البيهقى فى «الأسماء والصفات» (٣٨٩) من حديث ابن مسعود، وعلى بن أبى طالب، وقال: وهو إسنادٌ صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجة فى «السنن» رقم (٣٨٩١) قال البوصيرى فى «مصباح الزجاجة» (٣/ ٢٠١): هذا إسناد فيه مقال، أم كلثوم هذه لم أر من تكلَّم فيها وباقى رجال الإسناد ثقات. وليس فى هذا ما يوهن الحديث؛ فإنَّ أم كلثوم ممن خرَّج لها مسلم، وقال ابنُ حجر فى «التقريب» (٨٥٨) ثقة.

كتابه، ووصفه به رسول ﷺ في سُنَّته، على ما يليق بجلال الله وعظمته. فيثبتون ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق؛ فكما أنَّ ذات الرب تعالى لا تُشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

(٥٦)
باب
ما جاء في اللو

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ ما جاء فى اللَّو.

ش: أى: من النهى عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر؛ لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على مافات، مما لا يمكن استدراكه.

فالواجب التسليم للقدر، والقيامُ بالعبودية الواجبة، وهو/ الصبرُ على ما [١٦٧/أ] أصاب العبد مما يكره. والإيمانُ بالقدر، أصلٌ من أصول الإيمان الستة.

وأدخل المصنفُ رحمه الله أداة التعريف على لوٍّ - وهذه فى هذا المقام لا تُفيد تعريفًا كنظائرها ـ لأن المراد هذا اللفظ، كما قال الشاعر:

رأيتُ الوليد بن اليزيد مباركًا   شديدًا بأعباء الخلافة كاهلُه[١]

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: ﴿**يَقُولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتِلْنا ههُنا**﴾. [آل عمران: ١٥٤].

ش: قاله بعضُ المنافقين يوم أُحد؛ لخوفهم وجزعهم وخَورهم.

قال ابنُ اسحاق: فحدَّثنى يحيى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، قال: قال الزبير: لقد رأيتُنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوفُ علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجلٍ إلا ذقنه فى صدره، قال: فوالله إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير[٢]، ما أسمعه إلا كالحُلم: لو كان لنا من

(١) من كلام ابن ميّادة، الرمَّاح بن أبرد بن ثوبان، يمدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك. «خزانة الأدب» للبغدادى (٢/ ٢٢٦).

(٢) ينظر: ابن حجر، «الاصابة فى تمييز الصحابة» (٣/ ٤٤٣).

الأمر شيء ما قُتلنا ههنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿**يَقولون لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا ههُنا**﴾ لقول مُعتِّب. رواه ابن أبي حاتم[1].

قال الله: ﴿**قُلْ لَوْ كُنتُم في بيُوتِكُم لبرز الذين كُتبَ علَيْهِمُ القَتْلُ إلى مَضاجعِهم**﴾ أي: هذا قدرٌ مقدَّر من الله عز وجل، وحُكمٌ حتم لازم. لا محيد عنه ولا مناص منه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقوله: ﴿**الذين قَالُوا لإِخْوانِهِم وقعَدُوا لو أَطَاعُونَا ما قُتلُوا**﴾. [آل عمران: ١٦٨].

ش: قال العمادُ ابنُ كثير: ﴿**الذين قالوا لإخْوانهم وقعَدُوا لو أَطَاعُونَا ما قُتلُوا**﴾ أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج، ما قُتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ فادْرءوا عنْ أَنْفُسكُمْ المَوْت إنْ كُنْتُمْ صادقين**﴾ أي: إذا كان القعودُ يَسلمُ به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أنْ لا تموتوا، والموتُ لابد آتٍ إليكم ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كُنتم صادقين.

قال مُجاهد؛ عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآيةُ في عبد الله ابن أُبي[2]، يعني: أنه هو الذي قال ذلك.

وأخرج البيهقي، عن أنس: أنَّ أبا طلحة قال: غشينا النعاسُ ونحن في مصافنا يوم أُحد، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه. قال: والطائفةُ الأخرى ـ المنافقون ـ ليس لها هَمٌّ إلا أنفسهم، أجبنُ قوم، وأرعبُه، وأخذلُه للحق: ﴿**يَظُنُّونَ بالله غَيْرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهلية**﴾. [آل عمران: ١٥٤] إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل[3].

---

(١) ابن أبي حاتم في «التفسير» رقم (١٦٩٧)، وابن إسحاق كما في «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٢٦)، وإسناده حسن.

(٢) ابن كثير في «التفسير» (٢/ ١٣٩).

(٣) البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٧٤)، وأخرجه البخاري في «الصحيح» من وجه آخر رقم (٤٠٦٨) وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٩).

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعنى: لا يغشاهم النعاسُ من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ﴾.

قال شيخُ الإِسلام رحمه الله: لَمّا ذكر ما/ وقع من عبد الله بن أُبى فى غزوة [١٦٧/ب] أُحد، قال: فلما انخزل يوم أُحد، وقال: يَدَعُ رأيى ورأيه، ويأخذ برأى الصبيان؟ ـ أو كما قال ـ انخزل معه خلقٌ كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمانٌ هو الضوء الذى ضرب الله به المثل. فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق ماتوا على الإِسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتُحنوا فثبتوا، ولا من المنافقين حقًّا الذين ارتدوا على الإِيمان بالمحنة.

وهذا حالُ كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم، إذا ابتُلوا بالمحنة التى يتضعضع فيها أهلُ الإِيمان، ينقص إيمانُهم كثيراً، [وينافق كثيرٌ][1] منهم، ومنهم من يُظهر الردة إذا كان العدوُّ غالباً.

وقد رأينا من هذا ـ ورأى غيرنا من هذا ـ ما فيه عبرةٌ. وإذا كانت العافيةُ أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين. وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً، ولكن إيماناً لا يثبت على المحنة. ولهذا يكثر فى هؤلاء تركُ الفرائض وانتهاكُ المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقيل لهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. [الحجرات: ١٤] أى: الإِيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقًّا؛ فإنَّ هذا هو الإِيمان إذا أُطلق فى كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتابُ والسُّنة، فلم يحصل لهم ريبٌ عند المحن التى تقلقل [الإِيمان][2] فى القلوب. انتهى[3].

قوله: وقد رأينا من هذا ـ ورأى غيرنا من هذا ـ ما فيه عبرة.

قلتُ: ونحن كذلك، رأينا من ذلك ما فيه عبرةٌ عند غلبة العدو، من إعانتهم العدوَّ على المسلمين، والطعن فى الدين وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجد فى إطفاء نور الإِسلام وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكرُه، والله المستعان.

---

(١) ساقطٌ من الأصل.

(٢) ساقطٌ من الأصل.

(٣) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٨٠).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: في الصحيح، عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تَعْجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل؛ فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»(١).

ش: قوله: (في الصحيح) أي: صحيح مسلم (عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: احرص) الحديث.

اختصر المصنفُ هذا الحديث، وتمامُه: عن النبي ﷺ، أنه قال: «المؤمنُ القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف/، وفي كلٍّ خير. احرص على ما [١٦٨/أ] ينفعك» أي: في معاشك ومعادك. والمراد: الحرصُ على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دُنياه وأُخراه، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة. ويكون العبدُ في حال فعله السبب مُستعيناً بالله وحده دون كلٍّ ماسواه؛ ليتم له سببُه وينفعه. فيكون اعتمادُه على الله تعالى في ذلك؛ لأنه تعالى هو الذي خلق السَّببَ والمُسبَّب، ولا ينفعه سببٌ إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتمادُه في فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سُنَّةٌ، والتوكلُ على الله توحيد، فإذا جمع بينهما: تم له مرادُه.

قوله: «ولا تعجزن» النون نونُ التأكيد الخفيفة، نهاه ﷺ عن العجز وذمَّه، والعجز مذمومٌ شرعًا وعقلاً.

وفي الحديث «الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»(٢).

فأرشده ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره، فلا يقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قَدَرُ الله وما شاء فعل، أي: هذا قَدرُ الله، والواجبُ التسليمُ للقدر، والرضى به، واحتسابُ الثواب عليه.

قوله: «فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشيطان» أي: لما فيها من التأسف على مافات والتحسُّرِ ولوم القدر، وذلك يُنافي الصبر والرضى. والصبرُ واجب، والإيمان

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» رقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم (٢٤٦١) وقال: هذا حديث حسن، من حديث شداد بن أوس.

بالقدر فرض؛ قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ من مُصيبة فى الأَرْض ولا فى أَنْفسكُم إلا فى كتاب من قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إنَّ ذلكَ على الله يَسيرٌ * لكَيْلا تَأْسَوْا على ما فَاتَكُم ولا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم والله لا يُحبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

قال أميرُ المؤمنين عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه: الصبرُ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد[١].

وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر فى تسعين موضعًا من القرآن[٢].

قال شيخُ الإسلام ـ وذكر حديث الباب بتمامه ـ ثم قال فى معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور. ومن الناس مَن يجمع كلا الشرين؛ فأمر النبىُّ ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله.

والأمرُ يقتضى الوجوب، وإلا فالاستحباب. ونَهى عن العجز، وقال: «إنَّ الله يلومُ على العجز»[٣] والعاجزُ ضدُّ: الذين هُمْ يَنْتَصِرُونَ. فالأمرُ بالصبر والنهى عن/ الجزع مأمورٌ به فى مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمرٌ أُمِر [١٦٨/ب] بفعله فعليه أنْ يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولا يعجز. وأمرٌ أُصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه.

ولهذا قال بعضُ العُقلاء ـ ابن المقفَّع أو غيره ـ الأمور أمران: أمرٌ فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمرٌ لا حيلة فيه فلا تجزع منه.

وهذا فى جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذى فيه حيلةٌ هو ما أمر الله به، وأحبه له؛ فإنَّ الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد أمره بكلِّ خيرٍ له فيه حيلة. وما لا حيلة فيه هو ما أُصيب به من غير فعله. واسمُ الحسنات والسيئات يتناول قسمين:

فالأفعالُ: مثلُ قوله تعالى: ﴿مَنْ جاء بالحسنة فَلَهُ عَشرُ أَمْثَالها وَمَنْ جاء بالسيئة فلا يُجْزى إلا مثْلَها﴾. [الأنعام: ١٦٠]، ومثل قولَه تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى كتاب «الإيمان» رقم (١٣٠) واللالكائى فى «شرح أصول الاعتقاد» رقم (١٥٦٩).

(٢) نقله ابن القيم فى «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٢).

(٣) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٣٦٢٧) وأحمد فى «المسند» (٦/ ٢٥) من حديث عوف بن مالك.

﴿إن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنفُسِكُمْ وإنْ أسَأْتُمْ فلها﴾. [الإسراء: ٧]، ومثل قوله: ﴿وَجَزاء سيئة سيئةٌ مثْلُها﴾. [الشورى: ٤٠] ومثلُ قوله تعالى: ﴿بَلى مَنْ كَسَبَ سيئةً وأَحاطَتْ به خَطيئَتُه﴾. [البقرة: ٨١]، إلى آياتٍ كثيرة من هذا الجنس[١].

والقسمُ الثاني، ما يجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب؛ كما قال تعالى: ﴿ما أَصابَكَ من حسنة فمنَ الله وما أصابك من سيئة فمن نَفْسِكَ﴾. [النساء: ٧٩]، والآية قبلها. فالحَسَنةُ في هاتين الآيتين: النعم. والسيِّئةُ: المصَائب، وهذا هو الثاني من القسمين.

وأظنُّ شيخُ الإسلام ذكره في هذا الموضع، ولعل الناسخ أسقطه، والله أعلم.

ثم قال رحمه الله تعالى: فإنَّ الإنسان ليس مأموراً أنْ ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال، ولكن عند ما يجرى عليه من المصائب التى لا حيلة له فى دفعها. فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه، وارض وسلِّم؛ قال تعالى: ﴿ما أصاب من مُصيبة إلا بإذن الله ومَنْ يؤمن بالله يَهْد قَلْبَهُ﴾. [التغابن: ١١]، ولهذا قال آدمُ لموسى: «أتلومنى على أمر قدَّرَهُ الله علىَّ قبل أنْ أُخلق بأربعين سنة؟ فحج آدمُ موسى» لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»[٢] فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذَنْبًا.

وأمَّا كونُه لأجل الذنب ـ كما يظنه طوائفُ من الناس ـ فليس مراداً بالحديث؛ فإنَّ آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لومُ التائب باتفاق الناس. انتهى/[٣]. [١٦٩/أ]

---

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (١٦/٣٨).

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٤٠٩، ٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٧٥١٥) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٥٢) من حديث أبى هريرة.

(٣) ابن تيمية «رسالة شرح كلمات من فتوح الغيب» (جامع الرسائل) (٢/ ١٣٤).

قال العلامةُ ابن القيِّم رحمه الله تعالى: فتضمَّن هذا الحديث الشريف، أصولاً عظيمة من أصول الإيمان، أحدُها: أنَّ الله سبحانه موصوفٌ بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يُحب مُقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوىُّ ويحب المؤمنَ القوى، وهو وترٌ يحب الوتر، وجميلٌ يحب الجمال، وعليمٌ يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابرٌ يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: أنَّ محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحبُّ بعضَهم أكثرَ من بعض.

ومنها: أنَّ سعادة الإنسان فى حرصه على ما ينفعه فى معاشه ومعاده، والحرص: هو بذلُ الجهد واستفراغ الوسع. فإذا صادف ما ينتفع به الحريصُ كان حِرصُه محموداً، وكماله كلُّه فى مجموع هذين الأمرين: أنْ يكون حريصاً، وأن يكون حرصُه على ما ينتفع به. فإنْ حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص: فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخيرُ كلُّه فى الحرص على ما ينفع.

ولمَّا كان حرصُ الإنسان وفعلُه إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أنْ يستعين بالله ليجتمع له مقامُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنَّ حرصه على ما ينفعه عبادةٌ لله تعالى، ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبده وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله، ضدُّ العاجز. فهذا إرشادٌ له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرصُ عليه مع الاستعانة بمن أَزِمَّةُ الأمور بيده، ومصدرها منه، وموردها إليه.

فإنْ فاته مالم يُقدَّر له، فله حالتان: عجزٌ، وهو مفتاحُ عمل الشيطان؛ فيُلقيه العجزُ إلى لو. ولا فائدة فى لو ها هنا، بل هى مفتاحُ اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كلُّه من عمل الشيطان. فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهى: النظرُ إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قُدِّر، لم يفته ولم يغلبه عليه أحد. فلم يبق له ها هنا أنفعُ من شهود/ القدر، ومشيئة [١٦٩/ب]

الرب النافذة التى توجب وجود المقدور، وإنْ انتفت امتنع وجوده؛ ولهذا قال: «فإنْ غلبك أمرٌ فلا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل» فأرشده إلى ما ينفعه فى الحالتين: حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته. فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبدُ أبدًا، بل هو أشد ضرورة إليه، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطناً فى حالة حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق. انتهى/[1].

(١) ابن القيم، «شفاء العليل» (٣٣).

(٥٧)

بــاب
النهــي عــن ســـب الريـــح

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابُ النهى عن سبِّ الريح.

عن أُبىٍّ بـن كعـب، أنَّ رسـول الله ﷺ قـال: «لا تسبُّوا الريـح. فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنَّا نسألـك مـن خيـر هـذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمِرتْ به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشرِّ ما أُمرت به». صححه الترمذى[1].

ش: لأنها: إنما تهبُ عن إيجاد الله تعالى، وخلقه لها وأمره، لأنه هو الذى أوجدها وأمرها. فمسبَّتها مسبةٌ للفاعل، وهو الله سبحانه؛ كما تقدم فى النهى عن سب الدهر. وهذا يُشبهُه، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه، وبما شرعه لعباده.

فنهى ﷺ أهل الإِيمان عما يقوله أهلُ الجهل والجفاء، وأرشدهم إلى ما يُحب أنْ يُقال عند هبوب الرياح، فقال: «إذا رأيتم ماتكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به» يعنى: إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبَّت، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد، وقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أمرت به. ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشرِّ ما أُمرت به».

ففى هذا عبوديةٌ لله، وطاعةٌ له ولرسوله، واستدفاعٌ للشرور به، وتعرُّض لفضله ونعمته. وهذه حال أهل التوحيد والإِيمان، خلافاً لحال أهل الفسوق والعصيان، الذى حُرموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الإِيمان.

---

(١) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢٢٥٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥٨)

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابُ قول الله تعالى: ﴿يَظنُّون بالله غَيْرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية يَقُولُون هل لنا من الأمر من شيء قُلْ إنَّ الأمر كُلَّهُ لله يُخْفُون في أنفُسهم مالا يبدُون لك يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لنا من الأمْرِ شيءٌ ما قُتلْنَا هَهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُم في بيُوتكُم لبرز الذين كُتبَ عَلَيْهم القَتْلُ إلى مضاجعهم وليبْتَلي الله ما في صدُورِكم وليُمحِّصَ ما في قُلُوبِكُم والله عَليمٌ بذات الصدُورِ﴾. [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الظانين بالله ظَنَّ السَّوء عَلَيْهم دائرَةُ السوء وغضبَ الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنَّمَ وساءت مصيراً﴾. [الفتح: ٦].

قال ابنُ القيِّم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا يَنْصرُ رسولَه، وأنَّ أمره سيضمحلُّ، وفُسِّر بأنَّ ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أنْ يتم أمرُ رسوله، وأن يُظهره الله على الدين كله.

وهذا هو ظنُّ السوء الذى ظن المنافقون والمشركون فى سورة الفتح، وإنما كان هذا ظنَّ السوء؛ لأنه ظنَّ غير ما يليقُ به سبحانه، وما يليقُ بحكمته وحمده ووعده الصادق. فمن ظن أنه يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغةٍ يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئةٍ مجرَّدة. فذلك ظنُّ الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

وأكثرُ الناس يظنون بالله ظنَّ السَّوء فيما يختصٌّ بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عَرَفَ الله وأسماءه وصفاته، وموجِب حكمته وحمده. فلْيَعْتَن اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا، وليَتُبْ إلى الله وليَسْتَغفِره من ظنه بربه ظنَّ السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتاً على القدر وملامةً له، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا. فمستقلٌّ ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟!

فإن تَنْـجُ منها تَنْجُ من ذى عظيمـة وإلا فإنـى لا إخالُـك ناجيـا[(1)]

ش: قوله: بابُ قولِ الله تعالى: ﴿يَظُنُّون بالله غَيْرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية يقُولُون هَلْ لنا من الأمْرِ من شىء قل إن الأمر كلَّه لله﴾. الآية:

هذه الآية ذكرها الله تعالى فى سياق قوله تعالى فى ذكر وقعة أُحد: **﴿ثُمَّ أنْزَل عليكم من بَعْد الغَمِّ أمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طائفةً منْكُم﴾** يعنى: أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأنَّ الله تعالى ينصر رسوله ﷺ، وينجز له مأموله، ولهذا قال: **﴿وطَائفَةٌ قَدْ أهَمَّتْهُمْ أنْفُسُهُمْ﴾** يعنى: لا يغشاهم النعاس، من القلق والجزع والخوف **﴿يَظُنُّون بالله غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهليَّة﴾** كما قال تعالى: **﴿بل ظَنَنْتُمْ أنْ لَنْ يَنْقلبَ الرَّسُولُ والمؤمنُون إلى أهْليهم أبداً وَزُيِّنَ ذلكَ فى قُلُوبكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوء وكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾**. [الفتح: ١٢].

وهكذا هؤلاء: اعتقدوا أنَّ المشركين لمّا ظهروا تلك الساعة، ظنوا أنها الفيصَلة، وأنَّ الإسلام قد باد وأهلُه. وهذا شأنُ أهلِ الرِّيب والشك، إذا حصل أمرٌ من الأمور[(2)] الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور[(2)] الشنيعة.

[١٧٠/ب] عن ابن جُريج، قال: قيل: لعبد الله بن أُبى: قُتل بنو الخزرج/ اليوم؟ قال: وهل لنا من الأمر من شىء[(3)].

قال العلامةُ ابن القيِّم رحمه الله تعالى فى الكلام على ما تضمَّنته وقعة أُحد: وقد فُسِّر هذا الظن الذى لا يليق بالله سبحانه: بأنه لا ينصر رسوله، وأنَّ أمره

(١) ابن القيم، «زاد المعاد» (٣/٢٢٨) والبيت من كلام الفرزدق.
(٢) ما بينهما ساقط من (ط).
(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٨٠٩٣).

سيضمحل، [وأنَّه يُسلمهُ للقتل][1]. وفُسِّر بظنهم أنَّ ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، ولا حكمة له فيه. ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وانكار أنْ يتم أمر رسوله ﷺ، ويظهره على الدين كله.

هذا هو الظن السوء [الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح، حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ المُنافقينَ والمُنَافقَات والمُشْركين والمُشْركَات الظَّانين بالله ظَنَّ السوء][2] عليهم دائرَةُ السوء وغَضِبَ الله عَلَيْهِم ولَعَنَهُم وأَعَدَّ لَهم جَهَنَّم وساءت مصيراً﴾. [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظنَّ السوء، وظن الجاهلية ـ وهو المنسوب إلى أهل الجهل ـ وظنَّ غير الحق؛ لأنه ظنٌّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وذاته المبرّأة من كل عيب وسوءٍ، وخلافُ ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذى لا يُخلفه، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظنَّ به أنه لا ينصر رسوله ولا يُتم أمرَه، ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، [والباطل على الحق][3] إدالةً مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً: فقد ظن به السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته؛ فإنَّ حمده وعزته [وحكمته][3] وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يُذلَّ حزبه وجنده، وأنْ تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه، المشركين به العادلين به.

فمن ظنَّ به ذلك: [فما عرفه، ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أنّ يكون ذلك بقضائه وقدره][3]، فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أنْ يكون قَدَّر ما قدّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغايةٍ محمودة يستحق الحمد عليها، وأنَّ ذلك إنما صدر عن مشيئة مجرَّدة

---

(١) اضافة من (ط) و«زاد المعاد».

(٢) ما بينهما ليس فى الأصل، وهو انتقالُ نظر.

(٣) إضافةٌ من (ط) «وزاد المعاد.

عن حكمة، وغاية مطلوبة هى أحب إليه من فواتها، وأنَّ تلك الأسباب المكروهة المُقتضية لها لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يُحبّ وإنْ كانت مكروهةً له. فما قدَّرها سُدىً ولا شاءها عبثاً، ولا خلقها باطلاً: ﴿ذلِك ظَنُّ الذين كفَرُوا فَوَيْلٌ للذين كفروا من النَّارِ﴾. [ص: ٢٧].

[١٧١/أ] وأكثرُ الناس يظنون بالله غير الحق، ظنَّ السوء: فيما يختص بهم، وفيما / يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، و[عرف][1] موجِب حكمته وحمده.

فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه: فقد ظن به ظنَّ السوء. ومن جَوَّز عليه أنْ يُعَذِّب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوى بينهم وبين أعدائه: فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يترك خلقه سُدى مُعطَّلين عن الأمر والنهى، ولا يرسل إليهم رسله ولا ينزل إليهم كتبه، بل يتركهم هملاً كالأنعام: [فقد ظن به ظنَّ السوء][2].

ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب، فى دار يجازى المحسن فيها بإحسانه والمسىءَ بإساءته، ويُبيِّنُ لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلِّهم صدقه وصدق رسله، وأنَّ أعداءه كانوا هم الكاذبين: فقد ظنَّ به ظن السوء. ومن ظن أنه يُضيِّع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه لما لا صُنع له فيه ولا اختيار له ولا قُدرة ولا إرادة له فى حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمُعجزات، التى يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم يُضلُّون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شىء حتى يُعذِّبَ من أفنى عمره فى طاعته، فيخلِّده فى الجحيم فى أسفل سافلين، ويُنعِّم من استنفد عمره فى عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين فى الحسن سواء عنده، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقلُ لا يقضى بقبح أحدهما وحُسن الآخر: فقد ظن به ظن السوء.

---

(١) إضافةٌ من (ط) وزاد المعاد.

(٢) ساقط من الأصل و(ض).

ومن ظن أنَّه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهرهُ باطلٌ وتشبيه وتمثيل، وترك الحقَّ لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلغِزٍ لم يصرّح به، وصرَّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم فى تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ الاحتمالات المُستكرهة، والتأويلات [التى هى بالألغاز][1] والأحاجى أشبه منها بالكشف/ والبيان، وأحالهم فى معرفة أسمائه [١٧١/ب] وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه. بل أراد منهم أنْ لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولُغتهم، مع قُدرته على أنْ يصرِّح لهم بالحق الذى ينبغى التصريحُ به، ويُريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان: فقد ظن به ظنَّ السوء؛ فإنه إنْ قال: إنه غيرُ قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح، الذى عبَّر به هو وسلفُه: فقد ظن بقدرته العجز، وإنْ قال: إنه قادر ولم يُبيِّن، وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يُوهم، بل يوقع فى الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد: فقد ظن بحكمته ورحمته ظنَّ السوء.

ومن ظن أنه وسلفَه عبَّروا عن الحق بصريحه، دون الله ورسوله، وأنَّ الهدى والحق فى كلامهم وعباراتهم، وأمَّا كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المُتهوِّكين الحيارى هو الهدى، والحق: فهذا من أسوأ الظن بالله.

فكلٌّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أنه يكون فى مُلكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنَّه كان مُعطَّلاً من الأزل إلى الأبد عن أنْ يفعل، ولا يوصف حينئذٍ بالقُدرة على الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أنْ لم يكن قادراً: فقد ظن به ظنَّ السوء.

(١) ساقط من الأصل و(ض) و(هـ).

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات ولا النجوم، ولا بنى آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات فى الأعيان: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، ولا كلامَ يقوم به(١)، وأنه لا يكلم أحداً من الخلق ولا يتكلم أبداً، ولا قال، ولا يقول، ولا له أمرٌ ولا نهى يقوم به: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق(٢) سمواته، على عرشه بائنا من خلق، وأنَّ نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التى يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربى الأسفل، كان كمن قال: سبحان ربى الأعلى: فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

[١٧٢/أ] ومن ظن أنه يُحب/ الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد، كما يحب الإِيمان والبر والطاعة والإِصلاح: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالى ولا يعادى، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحدٌ، وأنَّ ذوات الشياطين فى القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المُفلحين: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يُسوِّى بين المتضادين، أو يُفرِّق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرةٍ واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات فى الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويُحبط بها جميع طاعاته ويُخلِّده فى العذاب، كما يُخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عُمره فى مساخِطه ومعاداة رسله ودينه: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنَّ له ولداً أو شريكاً، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أنَّ بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه

---

(١) «زاد المعاد»: يقول به.

(٢) «زاد المعاد» (ط) الرسالة: أنه فوق. تحريف، فيُستدرك من هنا.

يتقربون بهم إليه، ويتوسَّلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم: فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه يُنالُ ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يُنال بطاعته والتقرب إليه: فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئا لأجله لم يُعوِّضه خيراً منه: أو من فعل شيئاً لأجله لم يعطه أفضل منه: فقد ظنَّ به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جُرمٍ ولا سبب من العبد، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صَدَقَه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه وسأله: واستعان به وتوكَّل عليه أنَّه يُخيِّبه ولا يعطيه ما سأله: فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن به أنه يُثيبه إذا عصاه، كما يثيبه إذا أطاعه وسأله ذلك في دعائه: فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمتُه وحمده، وخلاف ما هو أهلُه وما لا يفعله.

ومن ظن به/ أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع[1] في معاصيه، ثم اتخذ من [١٧٢/ب] دونه أولياء، ودعا من دونه ملكاً أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أنْ ينفعه عند ربه، ويخلِّصه من عذابه: [فقد ظن به ظنَّ السوء][2].

فأكثرُ الخلق، بل كلُّهم ـ إلا من شاء الله ـ يظنون بالله غير الحقِّ وظن السوء؛ فإنَّ غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوسُ الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما شاء الله [وأعطاه][3]، ولسانُ حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسُه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به.

ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة طواياها: رأى ذلك فيها كامناً كمون النار في الزِّناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شرارهُ عما في زناده. ولو فتشت من

(١) أوضع الراكب: إذا أسرع. «غريب الخطابي» (٢/ ٤٩٩).

(٢) ساقطةٌ من الأصل.

(٣) إضافة من (ط).

فتشت لرأيت عنده تعنُّتاً[1] على القدر وملامة له، واقتراحاً له خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا، فمستقلٌ ومستكثر. وفتش نفسك: هل أنت سالم.

فإنْ تنجُ منها تنج من ذى عظيمةٍ   وإلا فإنى لا إخالُــك ناجيــاً

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليَتُبْ إلى الله ويستغفره فى كل وقت، من ظنِّه بربه ظن السوء.

وليظن السَّوءَ بنفسه التى هى مأوى كلِّ سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم. فهى أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنىِّ الحميد. الذى له الغنى التامُ، والحمدُ التام، والحكمة التامة، المنزَّهُ عن كل سوء فى ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه. فذاتُه لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلُّها حكمةٌ ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تَظنُـن بربـك ظـنَّ سـوء   فـإنَّ الله أولـى بالجـميـلِ
ولا تظـنن بنفسـك قَـطُّ خيراً   فكيـف بظالـم جـانٍ جهـول
وقل: يانفسُ مأوى كـلِّ سـوءٍ   أترجو الخير من ميْت بخيـل؟
وظُـنّ بنفسـك السُّوآى تجدها   كـذاك، وخيرُهـا كالمستحيـل
ومـا بـك من تُقىً فيهـا وخيرٍ   فتلك مواهـبُ الـربِّ الجليـل
وليس لهـا ولا منهـا، ولكـن   من الرحمـن، فاشكر للدليل[2]

[١٧٣/أ] / قوله: ﴿الظانين بالله ظن السوء﴾ قال ابنُ جرير فى (تفسيره): ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ والْمُنَافِقَاتِ والْمُشْرِكِينَ والْمُشْرِكَاتِ الظانِّين بالله ظَنَّ السوء﴾ الظانين بالله أنه لَن ينصرك وأهلَ الإيمان بك علَى أعدائك، ولن يُظهر كلمته، فيجعلها العُليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع.

(١) «زاد المعاد»: تعتُّباً (ط): تعنتا وتعتبا.

(٢) ابن القيم، «زاد المعاد» (٣/٢٢٨ - ٢٣٦).

يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن: دائرةُ السوء. يعني: دائرةُ العذاب تدور عليهم به.

واختلفت القُرَّاءُ في قراءة ذلك، فقرأته عامةُ قراء الكوفة: ﴿دائرَةُ السَّوء﴾ بفتح السين. وقرأ بعضُ قراء البصرة ﴿دَائرَةُ السُّوْءَ﴾ بضم السين. وكان الفرَّاءُ يقول: الفتح أفشى في السين. وقلَّ ما تقولَ العرب ﴿دَائِرةُ السُّوْءِ﴾ بضم السين.

قوله: ﴿وَغَضبَ الله عَلَيْهم﴾ يقول: ونالهم بغضب منه ﴿ولعنهم﴾. يقول: وأبعدهم، فأقصاهم من رحمته [﴿وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول][1] وأعدَّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿وساءت مصيراً﴾ يقول: وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات[2].

وقال العماد ابن كثير: ﴿وَيُعَذِّبَ المُنَافقينَ والمنَافقَات والمشركين والمُشْركَات الظَّانين بالله ظَـنَّ السَّوء﴾: أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أنْ يُقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهم دَائِرةُ السوء﴾[3]. وذكر في معنى الآية الأخرى، نحواً مما ذكره ابنُ جرير رحمهما الله تعالى.

قوله: (قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى). الذى ذكره المصنفُ فى المتن قدَّمتُه؛ لاندراجه فى كلامه الذى سقته من أوَّله إلى آخره.

---

(١) إضافةٌ من (ط) و«التفسير».

(٢) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٦/ ٧٣).

(٣) ابن كثير فى «التفسير» (٧/ ٣١١).

(٥٩)
بـــاب
مـا جـــاء في منكري القدر

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابُ ما جاء فى مُنكرى القَدَر.

ش: أى: من الوعيد الشديد، ونحو ذلك.

أخرج أبو داود، عن عبد العزيز بن أبى حازم، عن أبيه، عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «القدريةُ مجوسُ هذه الأمة، إنْ مرِضوا فلا تعودوهم، وإنْ ماتوا فلا تشهدوهم»[١].

وعن عمر مولى غُفْرة[٢]، عن رجلٍ من الأنصار، عن حُذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضى الله عنهما، قال: قال/ رسول الله ﷺ: «لكل أُمَّة مجوس، ومجوسُ [١٧٣/ب] هذه الأمة الذين يقولون: لا قَدَر. من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعةُ الدجال، وحقٌّ على الله أن يُلحقهم بالدجال»[٣].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: قال ابنُ عمر: والذى نفسُ ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثلُ أُحدٍ ذهباً، ثم أنفقه فى سبيل الله ما قَبلَه الله منه، حتى يُؤمنَ بالقدر. ثم استدل بقول النبى ﷺ: «الإيمانُ أنْ تؤمِنَ بالله وملائكته، وكُتُبه ورُسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خَيْرِه وشرِّه». رواه مسلم.

ش: حديثُ ابن عمر هذا: أخرجه مُسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة، عن يحيى بن يَعْمَر، قال: كان أوَّلَ من تكلَّم فى القدر بالبصرة معبدٌ الجُهنى، فانطلقتُ أنا وحُميد بن عبد الرحمن الحِميرى حاجَّين، أو مُعتمرين،

---

(١) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٩١)، قال الذهبيُّ فى كتاب «الكبائر» (١١٤): رواته ثقات، لكنه منقطع.

(٢) أبو حفص، ابن عبد الله المدنى، ضعيفٌ، وكان كثيرُ الارسال (ت ١٤٦هـ) «تقريب» (٤١٤).

(٣) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٩٢)، وأحمد فى «المسند» (٥/٤٠٦، ٤٠٧) وهو حديث حسن.

فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوَفَّق الله لنا عبدَ الله بن عمر داخلاً المسجد، فاكتنفْتُه أنا وصاحبى، فظننتُ أنَّ صاحبى سيكِل الكلام إلىَّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا أناسٌ يقرؤون القرآن، ويتقفَّرون[1] العلم، يزعمون أنْ لا قَدَر والأمر أُنف[2]. فقال: فإذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أنِّى برىءٌ منهم، وأنهم بُرآء منى، والذى يحلفُ به عبد الله بن عمر، لو أنَّ لأحدهم مثلَ أُحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه، حتى يُؤمن بالقدر.

ثم قال: حدَّثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فخذيه. وقال: يامحمد، أخبرنى عن الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «الإسلامُ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وتُقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إنْ استطعت إليه سبيلاً» قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويُصدِّقُه، قال: فأخبرنى عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره» قال: صدقت، قال: فأخبرنى عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك» قال: فأخبرنى عن الساعة، قال: «ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائل»/ قال: فأخبرنى عن أماراتها، قال: «أن تَلد الأمَةُ ربَّتها، وأنْ ترى الحُفاة العُراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون فى البُنيان». قال: فانطلق. فلبثتُ ثلاثاً - وفى رواية مسلم: ملياً - ثم قال: «يا عمر، أتدرى من السائل؟». قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّه جبريلُ أتاكم يُعَلِّمُكم دينَكم»[3]. [١٧٤/أ]

ففى هذا الحديث: أنَّ الإيمان بالقدر، من أصول الإيمان الستة المذكورة. فمن لم يُؤمن بالقدر خيره وشره، فقد ترك أصلاً من أصول الدين وجحده، فيُشبه

(١) يتقفرون العلم: يتطلبونه، ويتبعون أثره. ابن الأثير «النهاية» (٤/ ٩٠).

(٢) الأمرُ أُنفٌ: أى مُستانف، لم يسبق به قدر. «غريب الحديث» للخطابى (٢/ ٣٩٤).

(٣) مسلم فى «الصحيح» رقم (٨) وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٩٥) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٦١٣) والنسائى فى «المجتبى» (٨/ ٩٧) وابن ماجة فى «السنن» رقم (٦٣).

من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُـونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. [البقرة: ٨٥].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن عُبادة بن الصامت، أنه قال لابنه: يا بُنى، إنك لن تجد طَعْمَ الإيمان، حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن لِيُخْطِئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أولَ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربِّ وماذا أكتبُ؟ قال: اكتبْ مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة». يا بُنَىَّ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس منى».

وفى رواية لأحمد: «إنَّ أوَّل ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى فى تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة».

وفى رواية لابن وهب، قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يُؤمن بالقدر خَيرِه وشره: أحرقه الله بالنار»(١).

ش: قوله: (وعن عبادة)، قد تقدَّم ذكرُه فى باب فضل التَّوحيد. وحديثُه هذا، رواه أبو داود(٢).

ورواه الإمامُ أحمد بكماله، قال: حدَّثنا الحسن بن سوار، حدثنا ليث، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثنى عُبادة بن الوليد بن عبادة، حدثنى أبى، قال: دخلتُ على عُبادة وهو مريضٌ أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصنى واجتهد لى، فقال: أجلسونى. قال: يابنى إنَّك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله، حتى تُؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يابنى إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى فى تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة». يابنى، إن مت ولست على ذلك دخلت النار.

---

(١) أخرج هذه الرواية ابن وهب فى «القدر» رقم (٢٦) وابنُ أبى عاصم فى كتاب «السنة» رقم (١١١) والآجرى فى «الشريعة» (١٨٦).

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٧٠٠).

ورواه الترمذي، بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، وقال: حسنٌ صحيح غريب(١).

وفي هذا الحديث ونحوه: بيانُ شمول علم الله تعالى، وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿**الله الذي خَلَق سَبْعَ سَموات وَمِنَ الأرْض مثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَ لتَعْلَمُوا أَنَّ الله على كُلِّ شيء قَديرٌ وأَنَّ الله قَدْ أَحَاط بِكُلِّ شيء علماً**﴾. [الطلاق: ١٢].

وقد قال الإمامُ أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ لما سُئل عن القدر؛ قال: القدرُ قدرةُ الرحمن(٢). واستحسن هذا ابنُ عقيل، من أحمد رحمه الله تعالى(٣).

والمعنى: أنه لا يمتنع عن قُدرة الله شيءٌ. ونفاةُ القدر قد جحدوا كمال قُدرة الله تعالى، فضلُّوا عن سواء السبيل.

[١٧٤/ب] وقد قال بعض السلف: ناظروهم/ بالعلم، فإنْ أقرّوا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا(٤).

قال شيخُ الإِسلام رحمه الله تعالى: والناسُ في باب خلْق الربِّ وأمره، ولِمَ فعل ذلك، على طرفين ووسط:

فالقدريةُ من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب تعالى؛ بتنزيهه عما ظنوه قُبحاً من الأفعال وظلما. فأنكروا عموم قُدرته ومشيئته، ولم يجعلوه خالقاً لشيء، ولا أنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. بل قالوا: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشأ. ثم إنَّهم وضعوا لربهم شريعةً فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم، وتكلَّموا في التقدير والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبَّهوا فيه الخالق بالمخلوق، فضلُّوا وأضلّوا!!.

---

(١) أحمد في «المسند» (٣١٧/٥) والترمذي في الجامع رقم (٢١٥٦، ٣٣١٦)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٩٨/٧): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفي أحدهما: عثمان بن أبي العاتكة، وهو ضعيف. وقد وثّقه دُحيم وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم كلام.

(٢) أخرجه ابن هانيء في «المسائل» رقم (١٨٦٨).

(٣) نقله ابن القيم في «طريق الهجرتين» (١١٤).

(٤) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٧٥) عن عمر بن عبد العزيز.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفى (المسند)، و(السنن)، عن ابن الديلمى، قال: أتيتُ أُبَىَّ بن كعب، فقلت: فى نفسى شىء من القدر، فحدثنى بشىء لعل الله يُذهبه من قلبى، فقال: لو أنفقت مثل أُحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى ﷺ. حديثٌ صحيح، رواه الحاكم فى (صحيحه)[1].

ش: قوله: (وفى المسند، وسنن أبى داود، عن ابن الديلمى) وهو أبو بُسر، بالسين المُهملة، وبالباء المضمومة. ويقال: أبو بشر، بالشين المعجمة وكسر الباء، وبعضُهم صحح الأول. واسمه عبد الله بن فيروز[2].

ولفظُ أبى داود، قال: لو أنَّ الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم، لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. ولو أنفقت مثل أُحدٍ ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئكَ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مُتَّ على غير هذا، لكنت من أهل النار. قال: فأتيتُ عبد الله بن مسعود، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيت حُذيفة بن اليمان، فقال مثل ذلك. قال: ثم أتيتُ زيد بن ثابت، قال: فحدَّثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك. وأخرجه ابنُ ماجة.

وقال العِمادُ ابن كثير: عن سُفيان، عن منصور، عن ربعى بن خِراش، عن رجل، عن على بن أبى طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسولُ الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره». وكذا رواه الترمذىُّ، عن النضْر بن شُميل، عن شُعبة، عن منصور، به. ورواه من حديث أبى داود الطيالسى، عن شُعبة، عن ربعى، عن على، فذكره[3].

---

(١) أحمد فى «المسند» (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩)، وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٩٩) وابن ماجة فى «السنن» رقم (٧٧) ولم أقف عليه فى «المستدرك» من حديث أبى بن كعب، وزيد بن ثابت.

(٢) ثقة، من كبار التابعين ومنهم من ذكره فى الصحابة. «تقريب» (٣١٧).

(٣) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢١٤٦) وقال: حديثُ أبى داود، عن شُعبة عندى أصح من حديث النضْر.

وقد ثبت فى (صحيح مسلم)، من رواية عبد الله بن وهب، وغيره، عن أبى هانىء الخولانى، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ـ زاد ابنُ وهب ـ وكان عرشه على الماء»[1] ورواه الترمذىُّ، وقال: حديثٌ حسن غريب[2] [3].

وكلُّ هذه الأحاديث، وما فى معناها: فيها الوعيدُ الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهى الحجةُ على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم: تخليدُ أهلِ المعاصى فى النار. وهذا الذى اعتقدوه من أكبر الكبائر، وأعظمِ المعاصى.

وفى الحقيقة: إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسُّنة من إثبات القدر، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود فى النار إنْ لم يتوبوا. وهذا لازمٌ لهم على مذهبهم هذا،/ وقد خالفوا ما تواترت به أدلةُ الكتاب والسُّنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهلِ الكبائر من الموحِّدين فى النار[4]. [١٧٥/أ]

---

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٥٣)، وأخرجه أحمد فى «المسند» (٢/ ١٦٩).

(٢) الترمذى فى «الجامع» رقم (٢١٥٧).

(٣) ابن كثير فى «التفسير» (٧/ ٤٦٠).

(٤) إلى هنا ينتهى أصل هذا الشرح، وهو كتاب «تيسير العزيز الحميد» لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٦٠)

بـــاب

ما جــاء في المصورين

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالى: بابُ ما جاء في المصوِّرين.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومَن أظلمُ ممن ذهب يخلقُ كخلقي، فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبةً، أو ليخلقوا شَعيرة». أخرجاه[١].

ولهما، عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُضاهئون بخلق الله»[٢].

ولهما، عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصوِّر في النار، يُجعل له بكل صورةٍ صوَّرها نفسٌ يعذب بها في جهنم»[٣].

ولهما، عنه مرفوعاً «من صوَّر صورةً في الدنيا كُلِّف أنْ ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»[٤].

ش: قوله: (بابُ ما جاء في المصوِّرين).

أي: من عظم عقوبة الله لهم، وعذابه. وقد ذكر النبيُّ ﷺ العلَّة: وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأنَّ الله تعالى له الخلـق والأمـر. فهـو ربُّ كلِّ شيء ومليكُه، وهو خالقُ كـل شيء، وهو الذي صوَّر جميـع المخلوقـات، وجعـل فيهـا الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿الذي أَحْسَنَ كُلَّ شيء

---

(١) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٩٥٣، ٧٥٥٩) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١١١).

(٢) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٩٥٤) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١٠٦).

(٣) البخاري في «الصحيح» رقم (٢٢٢٥، ٥٩٦٣، ٧٠٤٢) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١١٠).

(٤) البخاري في «الصحيح» رقم (٥٩٦٣) ومسلم في «الصحيح» رقم (٢١١٠).

خَلَقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثمَّ جَعل نسْلَهُ من سُلالَة من ماء مهين * ثُمَّ سوَّاهُ ونفخ فيه من رُوحه وجعل لكم السَّمْعَ والأَبْصارَ والأفئدَةَ قليلاً ما تَشْكُرُونَ﴾. [السجدة: ٧ - ٩].

فالمصوِّرُ لَمَّا صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان أو بهيمة، صار مضاهياً لخلق الله. فصار ما صوَّره عذاباً له يوم القيامة، وكُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صوَّر صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوَّى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التي خلق الله الخلق ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره، من كلِّ عمل يُحبه الله من العبد ويرضاه؟.

فتسويةُ المخلوق بالخالق، بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس: هو أعظمُ ذنب عُصى الله تعالى به؛ ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لبيان هذا الشرك والنهى عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنجَّى تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد. فما أعظمه من ذنب: **﴿إنَّ الله لا يَغْفرُ أَنْ يُشرك به ويَغْفرُ ما دُون ذلك لمَنْ يَشاءُ﴾**. [النساء: ٤٨، ١١٦]، **﴿ومَنْ يُشرِكْ بالله فكَأَنَّما خَرَّ من السماء فتخطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى به الرِّيحُ فى مكانٍ سَحيق﴾**. [الحج: ٣١].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن أبى الهيَّاج، قال: قال لى علىٌّ: ألا أبعثُك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ «أنْ لا تَدَعَ صورةً إلا طمَستها، ولا قَبْراً مُشرِفاً إلا سوَّيته»[1].

ش: قوله: (ولمسلم، عن أبى الهياج). الأسدىُّ، حيَّان بن حُصين.

(قال: قال لى على). هو أميرُ المؤمنين، على بن أبى طالب رضى الله عنه.

قوله: ألا أبعثُك على ما بعثنى عليه رسول لله ﷺ؟ «أنْ لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سويته».

---

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٦٩).

فيه: التصريحُ بأنَّ النبى ﷺ بعث علياً لذلك. أمَّا الصور: فلمضاهاتها لخلق الله. وأمَّا/ تسويةُ القبور: فلما فى تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من[١٧٥/ب] ذرائع الشرك ووسائله. فصرفُ الهمم إلى هذا وأمثاله، من مصالح الدين ومقاصده وواجباته.

ولَمَّا وقع التساهلُ فى هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطاً لرحال العابدين المعظِّمين لها. فصرفوا لها جُلَّ العبادة: من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كلِّ شركٍ محرَّم محظور.

قال العلامة ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ: ومن جمع بين سُنَّة رسول الله ﷺ فى القبور، وما أمر به وما نهى عنه وما كان عليه أصحابهُ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدَهما مضاداً للآخر، مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أبداً.

فنهى رسولُ الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يُصلُّون عندها وإليها.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمُّونها مشاهد؛ مضاهاة لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السرُّج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى أن تُتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها؛ كما روى مُسلمٌ فى (صحيحه)، عن أبى الهيَّاج الأسدى. ـ فذكر حديثَ الباب ـ، وحديثَ ثُمامة بن شُفَى، وهو عند مسلم أيضاً، قال: كُنَّا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم برُودس[(١)]، فتُوُفى صاحبٌ لنا. فأمر فَضالةُ بقبره فسُوِّى، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[(٢)].

وهؤلاء يُبالغون فى مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها من الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب.

---

(١) رُودس. جزيرةٌ فى البحر الأبيض المتوسط. ما زالت تحمل هذا الاسم إلى اليوم، وغالب أهلها من النصارى.

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٦٨).

ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه؛ كما روى مسلم فى (صحيحه)، عن جابر، قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأنْ يُقعد عليه، وأنْ يُبنى عليه[1].

ونهى عن الكتابة عليها؛ كما روى أبو داود فى (سُننه)، عن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن تجصيص القبور، وأنْ يُكتب عليها. قال الترمذيُّ: حديثٌ حسن صحيح[2]. وهؤلاء يتَّخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره!.

[١٧٦/أ] ونهى أنْ يُزاد/ عليها غيرُ ترابها؛ كما روى أبو داود، عن جابر أيضاً: نهى أنْ يُجصص القبر، أو يُكتب عليه، أو يُزاد عليه[3]. وهؤلاء يزيدون عليه الآجز والأحجار والجَص. قال إبراهيمُ النَّخَعى: كانوا يكرهون الأجُر على قبورهم.

والمقصود: أنَّ هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينَها أعياداً، الموقدين عليها السُّرج، الذين يبنون عليها المساجدَ والقباب: مناقضون لما أمر به رسولُ الله ﷺ، محادُّون لما جاء به. وأعظمُ ذلك اتخاذُها مساجد، وإيقادُ السرج عليها. وهو من الكبائر، وقد صرَّح الفقهاءُ من أصحاب أحمد وغيرهم، بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسى: ولو أُبيح اتخاذُ السرج عليها لم يُلعن من فعله. ولأن فيه إفراطاً فى تعظيم القبور، أشبه تعظيمَ الأصنام.

قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور؛ لهذا الخبر، ولأن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذِّرُ ما صنعوا» متفق عليه[4].

ولأنَّ تخصيص القبور يُشبه تعظيمَ الأصنام بالسجود لها، والتقرب إليها. وقد رُوِّينا أنَّ ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاةِ عندها[5]. انتهى.

---

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٧٠).

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٢٢٦) والترمذى فى «الجامع» رقم (١٠٥٢) قال النووى فى «المجموع شرح المهذب» (٥/٢٤٨) إسنادهُ صحيح.

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٣٢٢٦)، وأخرجه النسائى فى «المجتبى» (٤/٨٦).

(٤) مضى تخريجه.

(٥) مضى تخريجه.

وقد آل الأمرُ بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أنْ شرعوا للقبور حجّاً، ووضعوا لها مناسك، حتى صنَّف بعضُ غلاتهم فى ذلك كتاباً وسمَّاه: (مناسك حج المشاهد)(١)، مضاهاةً منه بالقبور للبيت الحرام.

ولا يخفى أنَّ هذا مفارقةٌ لدين الإسلام، ودخولٌ فى دين عُبَّاد الأصنام.
فانظروا إلى هذا التباين العظيم: بين ما شرعه رسولُ الله ﷺ وقصدَه من النهى عمَّا تقدم ذكرُه فى القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه.

ولا ريب أنَّ فى ذلك من المفاسد ما يُعجَز عن حصره:

فمنها: تعظيمُها الموقِع فى الافتتان بها. ومنها: اتخاذُها أعياداً. ومنها: السفرُ إليها.

ومنها: مُشابهةُ عِبادة الأصنام، بما يفعل عندها: من العُكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليقِ الستور عليها، وسدانتها. وعُبَّادُها يرجِّحون المجاورةَ عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتهَا أفضل من خدمة المساجد، والويلُ لقيِّمها ليلةَ يطفأ القنديلُ المعلَّق عليها!.

ومنها: النذرُ لها، ولسدنتها.

ومنها: اعتقادُ المشركين/ بها أنَّ بها يُكشف البلاء وينصر على الأعداء، [١٧٦/ب] ويستنزل غيثُ السماء، وتفرج الكروب، وتُقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول فى لعنة الله ورسوله، باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السُّرج عليها. ومنها: الشركُ الأكبر، الذى يُفعل عندها.

ومنها: إيذاءُ أصحابها، بما يفعله المشركون بقبورهم. فإنهم يُؤذيهم ما يُفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أنَّ المسيح عليه السلام يكره ما يفعل النصارى عند قبره(٢).

---

(١) هو: ابن النعمان المُفيد، محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام العكبرى، أبو عبد الله، ويُعرف بابن المعلم الرافضى، من شيوخهم وكهنتهم المخذولين ورئيسهم وأستاذهم هلك عام ٤١٣هـ «شذرات الذهب» (١٩٩/٣).

(٢) وهو قبرهم المزعوم فى فلسطين، قال الله تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظنّ وماقتلوه يقيناً* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

وكذلك غيرَه من الأنبياء والأولياء والمشايخ، يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم. ويوم القيامة يتبرؤون منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَومَ يَحْشُرُهُم وما يَعْبُدُون من دُونِ الله فَيَقُولُ: أأَنْتُم أَضْلَلْتُم عِبَادى هؤلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل * قَالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ ينبغى لنا أَنْ نَتَّخِذَ من دُونك مِن أَوْلِيَاء ولَكِنْ مَتَّعْتَهُم وآبَاءهُم حتى نسوا الذِّكر وكانُوا قَوْماً بُوراً﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٨].

قال الله للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بما تَقُولُون﴾ [الفرقان: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وإذْ قال الله يا عيسى ابنَ مَرْيم أأنت قُلْتَ للناس اتخذونى وأُمِّى إلهين من دُون الله قال سُبحانك ما يكون لى أَنْ أَقُولَ ما لَيْس لِى بحق إنْ كنت قُلْتُه فقد علمتَه تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك﴾. الآية [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جميعاً ثُمَّ يَقُول للملائكة أَهَؤلاء إِيَّاكُم كانُوا يَعْبُدُون * قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا من دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُون الجنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤمِنُون﴾. [سبأ: ٤٠ - ٤١].

ومنها: إماتةُ السُّنن، وإحياءُ البدع. ومنها: تفضيلُها على خير البقاع وأحبها إلى الله؛ فإنَّ عُبَّاد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام، والخشوع ورقة القلب والعكوفِ بالهمَّة على الموتى، ما لا يفعلونه فى المساجد، ولا قريباً منه.

ومنها: أنَّ الذى شرعه الرسولُ ﷺ، [عند زيارة القبور][1]: إنَّما هو تذكُّرُ الآخرة، والإحسانُ إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له وسؤالِ العافية، فيكون الزائرُ محسناً إلى نفسه، وإلى الميت.

فقلب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين. وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه/ ونصره لهم علي الأعداء، ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلي أنفسهم، وإلي الميت. [١٧٧/أ]

وكان رسولُ الله ﷺ قد نهى الرجالَ عن زيارة القبور؛ سداً للذريعة. فلما تمكَّن التوحيدُ فى قلوبهم أذن لهم فى زيارتها على الوجه الذى شرعه، ونهاهم أنْ يقولوا هُجراً. ومن أعظم الهُجر: الشركُ عندها، قولاً وفعلاً.

(١) اضافة من (ط) «والاغاثة».

وفى (صحيح مسلم)، عن أبى هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «زوروا القبورَ، فإنها تذكر الموت»[1].

وعن ابن عباس، قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: «السلامُ عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر» رواه أحمد، والترمذى وحسنه[2].

فهذه الزيارةُ التى شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلَّمهم إياها. هل تجد فيها شيئاً مما اعتمده أهلُ الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادةً لما هم عليه من كل وجه؟!.
وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولَّهَا. ولكن كُلَّما ضعف تمسكُ الأمم بعهود أنبيائهم، ونقصَ إيمانهمُ: عوَّضوا عن ذلك، بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرَّد السلفُ الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدُهم إذا سلَّم على النبى ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا.

ونصَّ على ذلك الأئمةُ الأربعة: أنَّه يستقبل القبلة وقت الدعاء، حتى لا يدعو عند القبر؛ فإنَّ الدعاء عبادة. وفى الترمذى، وغيره مرفوعا «الدعاء هو العبادة»[3] فجرَّد السلفُ العبادة لله، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسولُ الله ﷺ: من الدعاء لأصحابها، والاستغفار لهم، والترحمِ عليهم[4].

وأخرج أبو داود، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلُّوا علىَّ فإنَّ صلاتكم تبلغنى حيث كنتم»[5] وإسنادُه جيد، رواته ثقات مشاهير.

وقوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً» أى: لا تعطِّلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور.

---

(١) قطعةٌ من حديث، عند مسلم فى «الصحيح» رقم (٩٧٦).

(٢) أحمد فى «المسند» (٦/ ١١١، ١٨٠، ٢٢١) والترمذى فى «الجامع» رقم (١٠٥٣) واللفظ له.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) ابن القيم فى «إغاثة اللهفان» (١/ ٢١٤ - ٢٢٠).

(٥) أبو داود فى «السنن» رقم (٢٠٤٢) وقد مضى تخريجه.

فأمر بتحرى النافلة فى البيوت، ونهى عن تحرِّى العبادة[1] عند القبور. وهذا [١٧٧/ب] ضدٌّ ما عليه المشركون، من / النصارى وأشباههم.

ثم إنَّ فى تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التى لا يعلمها إلا الله، ما يغضبُ لأجله كلُّ من فى قلبه وقارٌ لله وغيرةٌ على التوحيد، وتهجينٌ وتقبيح للشرك؛ ولكن: ما لجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ[2].

فمن مفاسد اتخاذها أعياداً: الصلاةُ إليها والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفيرُ الخدود على تُرابها، وعبادة أصحابها والاستغاثةُ بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون، وتفريج الكُربات، وإغاثة اللهفات، وغيرُ ذلك من أنواع الطلبات، التى كان عبَّادُ الأوثان يسألونها أوثانَهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً، وقد نزلوا عن الأكوار والدوابِّ إذا رأوها من كل مكان بعيد. فوضعوا لها الجباه، وقبَّلوا الأرض وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتُهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج! ورأوا أنهم قد أربوا فى الربح على الحجيج. فاستغاثوا بمن لا يُبدىء ولا يُعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد.

حتى إذا دنوا منها صلَّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين. فتراهم حول القبر رُكَّعاً وسجَّداً، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملؤوا أكفَّهم خيبةً وخسراناً!.

فلغير الله ـ بل للشيطان ـ ما يُراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوى الفاقات، ومعافاة ذوى العاهات والبليات.

---

(١) (هـ) (ط): النافلة.

(٢) شطرُ بيتٍ من قصيدة طويلة لأبى الطيب المتنبى، أوله : من يهن يسهل الهوان عليه. «الديوان» بشرح العكبرى (٤/ ٩٢).

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذى جعله الله مباركاً وهدى للعالمين. ثم أخذوا في التقبيل والاستلام؛ أرأيت الحجر الأسود وما يَفعل به وفدُ البيت الحرام؟! ثم عفَّروا لديه تلك الجباه والخدود، التى يعلم الله أنها لم تُعفر كذلك بين يديه فى السجود.

ثم كمّلوا مناسك حجِّ القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق.

وقد يُعطى لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقرباتُهم لغير الله رب العالمين. فلو رأيتهم يهنىء بعضُهم بعضاً، ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً!.

فإذا رجعوا، سألهم غلاةُ/ المتخلّفين: أنْ يبيع أحدُهم ثواب حجة القبر، بحج [١٧٨/أ] المتخلِّف إلى البيت الحرام. فيقول: لا، ولا بحجك كلَّ عام!!.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكينا عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هى فوق ما يخطر بالبال، أو يدور فى الخيال. وهذا مبدأ عبادة الأصنام فى قوم نوح؛ كما تقدم.

وكلُّ من شمَّ أدنى رائحة من العلم والفقه، يعلم أنَّ أهمَّ الأمور: سدُّ الذريعة إلى هذا المحظور، وأنَّ صاحب الشرع أعلمُ بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم فى نهيه عنه وتوعُّده عليه، وأنَّ الخير والهُدى فى اتباعه وطاعته والشرَّ والضلال فى معصيته ومخالفته، انتهى كلامُه رحمه الله(١).

---

(١) ابن القيم فى «إغاثة اللهفان» (١/ ٢١٠ - ٢١٣).

(٦١)

بـــاب
ما جـــاء في كثرة الحلف

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابُ ما جاء في كثرة الحَلِف .

ش: أي: من النهي عنه، والوعيد.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وقولِ الله تعالى: ﴿**واحفظُوا أيْمانَكُم**﴾ [المائدة: ٨٩].

ش: قال ابنُ جرير: لا تتركوها بغير تكفير[١]. وذكر غيرهُ من المفسرِّين، عن ابن عباس: يُريد لا تحلفوا. وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحِنْث[٢]، فلا تحنثوا[٣].

والمصنِّفُ، أراد من الآية: المعنى الذى ذكره ابن عباس؛ فإنَّ القولين متلازمان. فيلزم من كثرة الحلف كثرةُ الحِنث، مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما يُنافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: عن أبى هريرة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الحِلفُ منْفَقةٌ للسِّلعة، ممحقةٌ للكسب» أخرجاه.

ش: أي: البخارى، ومسلم. وأخرجه أبو داود، والنسائى[٤].

والمعنى: أنَّه إذا حلف على سلعته أنه أُعطى فيها كذا وكذا أو أنه اشتراها بكذا

---

(١) ابن جرير الطبرى في «التفسير» (١٠/ ٥٦٢).

(٢) الحنث: الإثم، والخُلْفُ فى اليمين. «القاموس المحيط» (١/ ٧٢٢).

(٣) ذكره البغوى فى «التفسير» (٢/ ٦٢).

(٤) البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٠٨٧) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٠٦) وأبو داود فى «السنن» رقم (٣٣٣٥) والنسائى فى «المجتبى» (٧/ ٢٤٦).

وكذا، وقد يظنه المشترى صادقاً فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذَّاب، وحلف طمعاً فى الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة.

فإذا ذهبت بركةُ كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التى دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمنُ تلك السلعة رأساً. وما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، وإنْ تزخرفت الدنيا للعاصى فعاقبتها اضمحلالٌ وذهابٌ وعقاب.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن سلمان، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله ولا يزكِّيهم ولهم عذابٌ أليم/ : أُشَيمِطٌ زانٍ، وعائلٌ مستكبرٌ، ورجلٌ جعل الله بضاعته، لا يشترى إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبرانىُّ بسند صحيح[1]. [١٧٨/ب]

ش: وسلمان: لعلَّه سلمان الفارسى[2]، أبو عبد الله. أسلم مقدم النبى ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه: أبو عثمان النَّهدىُّ، وشرحبيل بن السمط، وغيرهما. قال النبى ﷺ: «سلمانُ منا أهل البيت»[3]، «إنَّ الله يحب من أصحابى أربعة: علىٌّ، وأبو ذر، وسلمانُ، والمقداد». أخرجه الترمذىُّ، وابنُ ماجة[4].

قال الحسن: كان سلمانُ أميراً على ثلاثين ألفاً، يخطب بهم فى عباءة يفترشُ نصفَها ويلبس نصفها[5]. تُوفى فى خلافة عثمان، قال أبو عُبيد: سَنة ست وثلاثين. عن ثلاثمائة وخمسين سنة[6]، ويُحتمل: أنَّه سلمان بن عامر بن أوس الضبِّى.

---

(١) الطبرانى فى «الكبير» رقم (٦١١١) و«الصغير» رقم (٨٢١) و«الأوسط» كما فى «الترغيب والترهيب» للمنذرى (٢/ ٥٨٧) وقال: ورواته محتجٌ بهم فى الصحيح.

(٢) صرَّح به الطبرانىُّ فى «معاجمه» الثلاثة.

(٣) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (٤/ ٨٢، ٧/ ٣١٨)، وابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢١/ ١٣٣)، والطبرانى فى «الكبير» (٦٠٤٠)، والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ٥٩٨) وقال الذهبى: سنده ضعيف.

(٤) الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٧٢٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجة فى «السنن» رقم (١٤٩).

(٥) أخرجه ابن سعد فى «الطبقات» (٤/ ٨٧) وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٩٧).

(٦) قال الذهبىُّ فى «سير النبلاء» (١/ ٥٥٥) وقد فتَّشتُ، فما ظفرت فى سنِّه بشىء سوى قول البحرانى، وذلك منقطع لا إسناد له. ومجموعُ أمره وغزوه وهمَّته وتصرفه وسفِّه للجريد، وأشياء مما تقدم، يُنبِىء بأنه ليس بمعمَّر ولا هرم؛ فقد فارق وطنه وهو حدث، ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل، فلعله عاش بضعاً وسبعين سنة. وما أراه بلغ المئة.

قوله: «ثلاثةٌ لا يُكلِّمُهم الله» نَفْيُ كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة، دليلٌ على أنه يكلِّم من أطاعه، وأنَّ الكلام صفةٌ من صفات كماله. والأدلةُ على ذلك من الكتاب والسُّنة أظهرُ شيءٍ وأبينه، وهو الذى عليه أهلُ السُّنة والجماعة من المحققين: قيامُ الأفعال بالله سبحانه، وأنَّ الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً، ولم يزل متصفاً به.

فهو حادثُ الآحاد، قديمُ النوع؛ كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث، وغيرهم من أصحاب الشافعي، وأحمد، وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. [يس: ٨٢] فأتى بالحروف الدالة على [(١)]الاستقبال، والأفعال الدالة على[(١)] الحال والاستقبال أيضاً. وذلك فى القرآن كثير.

قال المصنِّفُ شيخُ الإسلام: فإذا قالوا لنا ـ يعنى النُّفاة ـ: فهذا يلزم أنْ تكون الحوادثُ قائمةً به؟ قلنا: ومَن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟! ونصوصُ القرآن والسُّنة تتضمن ذلك مع صريح العقل.

ولفظُ الحوادث مُجمل، فقد يُراد به الأمراض والنقائص، والله منزَّه عن ذلك، ولكن يقوم به ما شاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة.

والقولُ الصحيح: قولُ أهلِ العلم، الذين يقولون لم يزل متكلماً إذا شاء؛ كما قال ابنُ المبارك، وأحمد بن حنبل، وغيرُهما من أئمة السُّنة. انتهى[(٢)].

قلتُ: ومعنى قيام الحوادث به/ تعالى: قدرتُه عليها، وإيجادُه لها بمشيئته [١٧٩/أ] وأمره، والله أعلم.

قوله: «ولا يزكِّيهم ولهم عذابٌ أليم» لما عظم ذنبهُم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التى هى أعظمُ العقوبات.

قوله: «أشيمطٌ زان» صغَّره تحقيراً له؛ وذلك لأن داعى المعصية ضَعُفَ فى حقه، فدلَّ على أنَّ الحامل له على الزنا: محبةُ المعصية والفجور، وعدمُ خوفه من الله.

---

(١) ما بينهما ساقط من (ط).

(٢) ينظر: ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٦/ ٩٠).

وضعفُ الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظَ العقوبة عليه، بخلاف الشاب؛ فإنَّ قوة داعى الشهوة منه قد يغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومِها على المعصية، فينتهى ويراجع.

وكذلك العائل المستكبر، ليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأنَّ الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرةُ المال والنِّعم والرياسة. والعائلُ الفقير لا داعى له إلى أنْ يستكبر. فاستكبارهُ مع عدم الداعى إليه، يدلُّ على أنَّ الكبر طبيعةٌ له، كامنٌ فى قلبه. فعظُمت عقوبتُه؛ لعـدم الداعـى إلى هذا الخلـق الذَّميم، الذى هو من أكبر المعاصى.

قوله: «ورجلٌ جعل الله بضاعته» بنصب الاسم الشريف، أى: الحلف به، جعله بضاعته؛ لملازمته له وغلبته عليه.

وهذه أعمالٌ تدل على أنَّ صاحبها إنْ كان موحِّداً فتوحيدُه ضعيف، وأعماله ضعيفة؛ بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة، على قلة الداعى إليها. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كلِّ عمل لا يحبه ربُّنا ولا يرضاه.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفى الصحيح، عن عمرانَ بن حُصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أُمتى قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدرى، أذكرَ بعد قرنه مرَّتين أو ثلاثاً ـ ثم إنَّ بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن»[1].

ش: قوله: (وفى الصحيح) أى: (صحيح مسلم)، وأخرجه أبو داود، والترمذى، ورواه البخاريُّ بلفظ «خيركم»[2].

قوله: «خيرُ أُمتى قرنى» لفضيلة أهلِ ذلك القرن: فى العلم والإيمان، والأعمالِ الصالحة التى يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون. فغلب

---

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٣٥).

(٢) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٦٥٧) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٢٢٢، ٢٢٢٣) والبخارى فى «الصحيح» رقم (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥).

الخيرُ فيها وكثر أهلهُ، وقل الشرُّ فيها وأهله، واعتزَّ فيها الإِسلام والإِيمان، وكثرُ فيه العلم/ والعلماء. [١٧٩/ب]

«ثم الذين يلونهم» فُضِّلُوا على من بعدهم: لظهور الإِسلام فيهم وكثرة الداعى إليه، والراغب فيه والقائم به. وما ظهر فيه من البدع، أُنكر واستعظم وأُزيل، كبدعة الخوارج والقدرية والرَّافضة. فهذه البدعُ وإنْ كانت قد ظهرت، فأهلها فى غاية الذُّل والمقت والهوان والقتل، فيمن عاند منهم ولم يتُب.

قوله: «فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟» هذا شكٌّ من راوى الحديث عمران بن حصين، والمشهور فى الروايات: أنَّ القرون المفضَّلة ثلاثةٌ. الثالثُ دون الأولين فى الفضل؛ لكثرة ظهور البدع فيه، لكنَّ العلماء متوافرون، والإِسلامَ فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم. ثم ذكر ما وقع بعد الثلاثة، من الجفاء فى الدين، وكثرةِ الأهواء.

فقال: «ثم إنَّ بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون» لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحريهم للصدق؛ وذلك لقلة دينهم، وضعف إسلامهم.

قول: «ويخونون ولا يُؤتمنون» يدل على أنَّ الخيانة قد غلبت على كثير منهم، أو أكثرهم.

قوله: «وينذُرون ولا يوفون» أى: لا يؤدُّون ما وجب عليهم. فظهورُ هذه الأعمال الذميمة، يدلُّ على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «ويظهر فيهم السِّمنَ» لرغبتهم فى الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعُّمِ بها وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها.

وفى حديث أنس «لا يأتى زمانٌ إلا والذى بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم» قال أنس: سمعتُه من نبيكم ﷺ(١). فما زال الشرُّ يزيد فى الأمة، حتى ظهر الشركُ والبدع فى كثيرٍ منهم. حتى فيمن ينتسب إلى العلم، ويتصدَّر للتعليم والتصنيف.

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وفيه، عن ابن مسعود: أنَّ النبى ﷺ قال: «خيرُ الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىء قومٌ تسبق

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٧٠٦٨)، وأحمد فى «المسند» (٣/ ١١٧، ١٣٢، ١٧٩).

شهادةُ أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادَته». قال إبراهيمُ: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحنُ صغار[1].

ش: قلتُ: وهذه حالُ من صرف رغبته إلى الدنيا ونسى المعاد، فخففً أمرُ الشهادة واليمين عنده تَحمُّلاً وأداءً؛ لقلَّة خوفه من الله، وعدم مبالاته بذلك.

وهذا هو الغالبُ على الأكثر، والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع فى الصَّدر الأول، ففى ما بعده أكثر بأضعاف. فكُن من الناس على حذر.

قوله: (قال إبراهيم). هو النَّخعى.

[١٨٠/أ] (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد، ونحن صغار)، وذلك/ لكثرة عِلْم التابعين، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامِهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به.

وفى هذا: الرغبةُ فى تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عمَّا يضرهم. وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٣٣).

(٦٢)
بـــاب
ما جـاء في ذمـة اللـه وذمـة رسولـه

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابُ ما جاء فى ذمَّة الله وذمَّة رسوله.

وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ الله إذا عاهَدْتُم ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَان بَعْدَ تَوْكِيدِها وقَدْ جَعَلْتُم الله عَلَيْكُم كَفِيلاً إِنَّ الله يَعْلَمُ ما تَفْعَلُون﴾. [النحل: ٩١].

ش: قال العمادُ ابن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاءُ بالعهود والمواثيق، والمحافظةُ على الإيمان [المؤكدة][1]؛ ولهذا قال: ﴿ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَان بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾ ولا تعارض بين هذا، وقوله: ﴿ولا تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لأَيْمَانِكُم﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله: ﴿ذلكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُم إذا حَلَفْتُم واحفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أى: لا تتركوها بلا تكفير، و[بين قوله ﷺ][2] فى (الصحيحين): «إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرَها خيراً منها إلا أتيتُ الذى هو خير وتحلَّلتها» [ـ وفى رواية ـ «وكفَّرتُ عن يمينى»][3].

لا تعارض بين هذا كلِّه، وبين الآية المذكورة هنا وهى][2] قوله: ﴿ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَان بَعْدَ تَوْكِيدِها﴾ [لأن][2] هذه الأيمان، المراد بها: الداخلةُ فى العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حثٍّ أو منع. ولهذا قال مجاهد، فى الآية: يعنى الحِلْف، أى: حِلْف الجاهلية.

ويؤيِّده: ما رواه الإِمام أحمد، عن جُبير بن مُطعِم، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) إضافة من (ط) و«التفسير».

(٢) ساقطٌ من الأصل و(ض) و(هـ).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٦٧١٨، ٦٧١٩) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٦٤٩) من حديث أبى موسى الأشعرى.

«لا حلف فى الإسلام، وأيَّما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة»[1].

[وكذا رواه مسلم][2]. ومعناه: أنَّ الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف، الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه. فإنَّ فى التمسك بالإسلام، حمايةً وكفاية عمَّا كانوا فيه.

وقوله: ﴿إنَّ الله يَعْلَمُ ما تَفْعَلُون﴾ تهديدٌ ووعيد، [لمن نقض الأيْمان بعد توكيدها][2] [3].

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: وعن بُريدة، قال: كان رسولُ الله ﷺ، إذا أمَّر أميراً على جيش أو سريَّة، أوصاه فى خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً. فقال: «اغزوا بسم الله، فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تَغلُّوا ولا تغدروا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوَّك من المشركين، فادعهم إلى ثَلاث خصال ـ أو خلال ـ فأيَّتهُن ما أجابوك، فاقبل منهم وكفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم: أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحوَّلوا منها، فأخبرهم: أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجرى عليهم حكمُ الله تعالى، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا، فاسألهم الجزية. فإنْ هم أجابوك، فاقبل منهم وكفَّ عنهم. فإن هم أبوا، فاستعن بالله، وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أنْ تجعل لهم ذمَّة نبيه. فلا تجعل لهم ذمَّةَ الله وذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله. فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك. فإنك لا تدرى: أتصيبُ فيهم حُكمَ الله أم لا؟» رواه مسلم[4].

---

(١) أحمد فى «المسند» (٤/ ٨٣).

(٢) ما بينهما إضافة من (ط) و«التفسير». والحديث رواه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٥٣٠).

(٣) ابن كثير فى «التفسير» (٤/ ٥١٦).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (١٧٣١).

ش: قوله: (عن بُريدة)، هوابن الحُصيب الأسلمى، وهذا الحديث من رواية ابنه سُليمان عنه. قاله فى (المفهم).

قوله: (كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه فى خاصَّته بتقوى الله تعالى) فيه من الفقه: تأميرُ الأمراء، ووصيَّتهم.

قال الحربى: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. والجيش: ما كان أكثر من ذلك. وتقوى الله: التحرُّز بطاعته من عقوبته.

قلتُ: وذلك بالعمل بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه.

قوله: (ومن معه من المسلمين خيراً) أى: ووصَّاه بمن معه منهم، أن يفعل معهم خيراً:/ من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفضِ الجناح لهم، وترك[١٨٠/ب] التعاظم عليهم.

وقوله: «اغزوا باسم الله» أى: اشرعوا فى فعل الغزو، مُستعينين بالله مخلصين له. قلتُ: فتكون الباء فى بسم الله هنا، للاستعانة والتوكل على الله.

وقوله: «قاتلوا من كفر بالله» هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر، المحاربين وغيرهم. وقد خُصِّص منهم من له عهدٌ، والرهبان والنسوان، ومن لم يبلغ الحُلم. وقد قال مُتصلاً به: «ولا تقتلوا وليداً» وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالباً، فإنْ كان منهم قتالٌ أو تدبير قُتلوا.

قلتُ: وكذلك الذَّرارى، والأولاد.

قوله: «ولا تَغلُّوا ولا تغدِروا ولا تمثُّلوا» الغُلول: الأخذُ من الغنيمة، من غير قسمتها. والغدر: نقضُ العهد. والتمثيل هنا: التشويهُ بالقتيل، كقطع أنفه وأُذنه والعبث به. ولا خلاف فى تحريم الغُلول والغدر، وفى كراهة المُثلة.

وقوله: «وإذا لقيت عدوَّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، أو خصال» الروايةُ بأو للشك، وهو من بعض الرواة. ومعنى الخِلال والخصال، واحد.

وقوله: «فأيَّتهُنَّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم» قيَّدناه، عمَّن يوثق بعلمه. وتقييدُه بنصب أيتَّهن؛ على أنْ يعمل فيها أجابوك، لا على إسقاط حرف الجر.

وما زائدةٌ. ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهنَّ أجابوك فاقبل منهم. كما تقول: أجبتك إلى كذا أو فى كذا. فيُعدَّى إلى الثانى بحروف الجر.

قلتُ: فيكون فى ناصب «أيتَّهن» وجهان: ذكرَهما الشارح[1]. الأوَّل: منصوب على الاشتغال، والثانى: على نزع الخافض.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإِسلام» كذا وقعت الروايةُ فى جميع نسخ [كتاب][2] مسلم «ثم ادعهم» بزيادة ثم، والصوابُ إسقاطها. كما روى فى غير (كتاب مسلم)، (كمصنف) أبى داود[3]، وكتاب (الأموال) لأبي عُبيد؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال.

وقوله: «ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين» يعنى المدينة، وكان هذا فى أول الأمر، وقت وجوب الهجرة إلى المدينة على كلٍّ من دخل فى الإِسلام. وهذا يدلُّ على أنَّ الهجرة واجبةٌ على كل من آمن من أهل مكة، وغيرها.

قوله: «فإنْ أبوا أنْ يتحولوا» يعنى: أنَّ من أسلم ولـم يُجاهـد ولـم يهاجـر، لا يُعطى من الخُمس ولا من الفىء شيئاً.

[١٨١/أ] وقد أخذ الشافعيُّ بالحديث/ فى الأعراب، فلم ير لهم من الفىء شيئاً. وأنَّ لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم. كما أنَّ أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم فى الصدقة عنده، ومَصرفُ كلِّ مال فى أهله. وسوَّى مالك وأبو حنيفة بين المالين، وجوَّزا صرفَهما للضعيف[4].

وقوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» فيه: حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعى فى أخذ الجزية من كلِّ كافر: عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره.

وذهب أبو حنيفة إلى أنَّها تؤخذُ من الجميع، إلا من مشركى العرب ومجوسهم. وقال الشافعى: لا تُؤخذ إلا من أهل الكتاب: عرباً كانوا أو عجماً. وهو قولُ الإِمام أحمد فى ظاهر مذهبه، وتُؤخذ من المجوس.

---

(١) يعنى: القُرطبى، صاحب كتاب «المُفهم» الذى نقل عنه هنا.

(٢) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٢٦١٣).

(٤) ينظر كتاب «الأموال». لابن زنجويه (١/ ٤٧٧).

قلتُ: لأن النبى ﷺ أخذها منهم، وقال: «سنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»[1].

وقد اختُلف فى القدر المفروض من الجزية، فقال مالك: أربعةُ دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق. وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان. وقال الشافعيُّ: فيه دينارٌ على الغنى والفقير. وقال أبو حنيفة، والكوفيون على الغنى ثمانيةٌ وأربعون درهماً، والوسط أربعةٌ وعشرون درهماً، والفقير اثنا عشر درهماً. وهو قول أحمد بن حنبل[2].

قال يحيى بن يُوسف الصرصرى الحنبلى[3].

وقاتل يهوداً والنصارى وعصبة الـ ... مجوس، فإنْ هم سلَّموا الجزية اصدد

على الأدون اثنى عشر درهماً افرضن ... وأربعــة من بعــد عشـرين زيِّـد

لأوسطهم حالاً، ومن كان موسراً ... ثمانيــة مــع أربعـــين لتنقــد

وتسقط عـن صبيـانهم ونســائهم ... وشيخٍ لهم فـانٍ وأعمــى ومقعد

وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم ... ومن وجبت منهم عليه فيهتدى[4]

وعند مالك، وكافَّة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين العقلاء، دون غيرهم. وإنَّما تُؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره. ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين، أو حربهم[5].

وقوله: «وإذا حاصرت أهل حصن» الكلام إلى آخره، فيه حجةٌ لمن يقول من الفقهاء، وأهل الأصول: إنَّ المصيب فى مسائل الاجتهاد واحد. وهو المعروفُ من مذهب مالك، وغيره.

---

(١) أخرجه مالك فى «الموطأ» كتاب (الزكاة) رقم (٤٣) وعبد الرزاق فى «المصنف» (١٠/ ٣٢٥). قال ابن عبد البر فى «التمهيد» (٢/ ١١٤): هذا حديثٌ منقطع، ولكن معناه متصل من وجوه حسان.

(٢) ينظر ابن قدامة «المغنى» (١٣/ ٢٠٩)، وابن القيم «أحكام أهل الذمة» (١/ ٢٦).

(٣) أبو زكريا، جمال الدين الأنصارى الزُّريرانى الضرير، أديب فقيه (ت٦٥٦هـ) «تاريخ ابن رجب» (٢/ ٢٦٢).

(٤) من كتاب «الدُّرة اليتيمة والمحجة المستقيمة فى نظم مختصر الخرقى». وينظر «المدخل» لابن بدران (٤٢٨).

(٥) ينظر «الأموال» لابن زنجويه (١/ ١١٥) «والتمهيد» لابن عبد البر (٢/ ١٣٠).

ووجه الاستدلال: لأنه ﷺ قد نص على أنَّ لله تعالى حُكماً معيناً فى [١٨١/ب] المجتهدات. ومن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه مخطىء/[١].

قولــه: «وإذا حاصـرت أهـل حصـن فـأرادوك أنْ تجعـل لهـم ذمـة الله» الحديث.

الذِّمة: العهد، وتَخْفِر: تنقض، يقال: أخْفَرتَ الرجل: نقضت عهده، وخَفَرْتَه: أجرته.

ومعناه: أنَّه خاف من نقض من لم يعرف حقَّ الوفاء بالعهد، كجهلة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقضٌ من متعد، كان نقضُ عهد الخلق أهونَ من نقض عهد الله تعالى، والله أعلم.

قوله: وقول نافع، وقد سُئل عن الدعوة قبل القتال[٢].

ذكـر فيـه: أنَّ مذهـب مالك، يجمـع فيه بـين الأحاديـث فى الدعـوة قبـل القتال.

قال: وهو أن مالكاً، قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعوا، ولا تُلتمس غِرَّتهم. إلا أن يكونوا بَلَغتهم الدعوة، فيجوز أن تؤخذ غرَّتهم.

وهذا الذى صار إليه مالك، وهو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدوُّ أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين. فإذا علموا

---

(١) ومما يدل له أيضاً: ما أخرجه البخاريُّ فى «الصحيح» رقم (٧٣٥٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٧١٦)، وأحمد فى «المسند» (٢/١٨٧، ٤/١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥) من حديث عمرو بن العاص، أن النبى - ﷺ - قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم اخطأ فله أجر».

وهذا هو مذهب عامة أهل العلم، ينظر: أبو يعلى الحنبلى «العدة فى أصول الفقه» (٥/ ١٥٤٠) والغزالى «المنخول» (٤٥١) والقرافى «التنقيح» (٤٣٨) وآل تيمية «المسوَّدة» (٤٩٧).

(٢) قاله القُرطبى فى كتاب «المفهم». وأخرج قول نافع أبو داود فى «السنن» رقم (٢٦٣٣) عن ابن عون، قال: كتبتُ إلى نافع أسأله عن دعاء المشركين عند القتال، فكتب إلى: إن ذلك كان فى أول الإسلام، وقد أغار نبيُّ الله ﷺ على بنى المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تُسقى على الماء. فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، وأصاب يؤمئذ جويرية بنت الحارث. حدثنى بذلك عبد الله، وكان فى ذلك الجيش. قال أبو داود: هذا حديثٌ نبيل، رواه ابن عون عن نافع، ولم يشركه فيه أحد.

بذلك، أمكن أن يكون ذلك سبباً مُميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق. بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للممالك وللدنيا، فيزيدون عتواً وبغضا[1]. والله أعلم.

---

(١) والأولى، كما ذكر ابنُ عبد البر في «التمهيد» (٢/ ٢١٦): الدعاءُ قبل القتال؛ لأن رسول الله - ﷺ - كان يأمر سراياه بذلك، وكان يدعو كلَّ من يقاتله. مع اشتهار كلمته، ودينه في جزيرة العرب. والله أعلم.

(٦٣)
بـــاب
مـا جـــاء فى الإقسام على الله

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابُ ما جاء فى الإِقسام على الله[١].

عن جُندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذى يتألَّى عليَّ أنْ لا أغفرَ لفلان؟ إنى قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملَك» رواه مسلم[٢].

وفى حديث أبى هريرة: أنَّ القائل رجلٌ عابد. قال أبو هريرة: تكلَّم بكلمة، أو بقت دنياه وآخرتَه[٣].

ش: قوله: (باب ما جاء فى الإِقسام على الله). ذكر المصنفُ فيه حديث جُندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: من ذا الذى يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، إنى قد غفرت له، وأحبطت عملك». رواه مسلم.

قوله: «يتألَّى» يحلف، والألِيَّة بالتشديد: الحَلِف.

وصحَّ من حديث أبى هريرة: قال البَغوىُّ فى (شرح السُّنة) ـ وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار ـ قال: دخلتُ مسجد المدينة، فنادانى شيخ فقال: يايمامِىُّ، تعـال، ومـا أعرفـه. قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة.

---

(١) فى إحدى نسخ «كتاب التوحيد» الخطية: بابُ ما جاء فى الإِقسام على الله بلا علم.

(٢) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٢١).

(٣) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٠١) وأحمد فى «المسند» (٢/٣٢٣، ٣٦٣) وابن المبارك فى «كتاب الزهد» رقم (٩٠٠). بإسناد حسن.

قلتُ: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبوهريرة. قال، فقلتُ: إنَّ هذه كلمة يقولها أحدُنا لأهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: : «إنَّ رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهدٌ فى العبادة، والآخر؛ كأنه يقول مذنب. فجعل يقول: أقصِر عما أنت فيه. قال، فيقول: خَلِّنى وربي. حتى وجده يومًا على ذنب استعظمه، فقال: أقْصِر، فقال: خَلنى وربى، أبُعثت علىَّ رقيباً. فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً. قال: فبعث/ الله إليهما ملكاً، [١٨٢/أ] فقبض أرواحَهما، فاجتمعا عنده. فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتى، وقال للآخر: أتستطيع أنْ تحظر على عبدى رحمتى؟ قال: لا يارب، قال اذهبوا به إلى النار». قال أبو هريرة: والذى نفسى بيده، لتكلَّم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته[١].

ورواه أبو داود فى (سُننه)، وهذا لفظُه: عن أبى هريرة رضى الله عنه، [٢]قال: سمعتُ رسول الله ﷺ[٢] يقول: «كان رجلان فى بنى إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يُذنب، والآخر مُجتهدٌ فى العبادة. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلنى وربى، أبعُثت علىَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بى عالماً، أو كنت على ما فى يدى قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتى، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»[٣] إلى آخره.

قوله: (فى حديث أبى هريرة أنَّ القائل رجلٌ عابد) يُشير إلى قوله فى هذا الحديث «أحدُهما مجتهدٌ فى العبادة».

وفى هذه الأحاديث: بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرُّزَ من الكلام؛ كما فى حديث معاذ، قلت: يارسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك

(١) البغوى فى «شرح السنة» (١٤/ ٣٨٤) عن ضمضم بن جوس.

(٢) ما بينهما ساقطٌ من (هـ) و(ط).

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٩٠١)، وقد مضى تخريجه.

أُمُّك يا معاذ، وهل يكُبُّ الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائدُ ألسنتهم؟»[1] والله أعلم.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع رقم (٢٦١٩) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح. وابن ماجة في «السنن» رقم (٤٠٢١) وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧)، والطيالسي في «السنن» رقم (٥٦٠) والنسائي في «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٤١٠) وابن أبي الدنيا «كتاب الصمت» رقم (٦) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٢) وصححه وافقه الذهبي.

(٦٤)

بـــاب
لا يستشفع بالله على خلقه

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: بابٌ لا يُستشفع بالله على خلقه.

عن جُبير بن مُطعِم، قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: يارسول الله، نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموالُ، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ «سُبحان الله، سبحان الله!» فما زال يُسبِّح، حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك، أتدرى ما الله؟ إن شأن الله أعظمُ من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد». وذكر الحديث، رواه أبو داود[1].

ش: قوله: (بابٌ لا يُستشفع بالله على خلقه). وذكر الحديث، وسياقُ أبي داود في (سننه) أتم مما ذكره المصنف رحمه الله، ولفظُه: عن جُبير بن محمد بن جبير بن مُطعم، عن أبيه، عن جده، قال: أتى النبيَّ ﷺ أعرابيٌّ، فقال: يارسول الله، جُهِدت الأنفس، وضاعت العيال ونُهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال النبيُّ ﷺ: «ويحك! أتدرى ما تقول؟» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك! إنه لا يُستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدرى ما الله؟ إنَّ عرشه على سمواته لهكذا ـ وقال بأصبعه مثل القبة عليه ـ وأنَّه ليئطُّ به أطيط الرَّحل[2] بالراكب»/ . [١٨٢/ب]

---

(١) أبو داود في «السنن» رقم (٤٧٢٦)، وصححه ابنُ القيم في «تهذيب السنن» (٧/ ٩٥). وابن كثير في «التاريخ» (١/ ٨).

(٢) أطَّ الرَّحل ونحوه، يئِطُّ أطيطاً: صوَّت «القاموس المحيط» (١/ ١٥٦).

قال ابنُ يسار[1] فى حديثه: «إنَّ الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته».

قال الحافظُ الذهبى: رواه أبو داود ـ بإسنادٍ حسن عنده ـ فى (الرد على الجهمية)، من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

قوله: «ويحك إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه» فإنَّه تعالى ربٌّ كلِّ شىء ومليكُه، والخير كلُّه بيده. لا مانع لما أعطى، ولامُعطى لما منع، ولا راد لما قضى وما كان الله ليُعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض، إنه كان عليماً قديراً.

إنما أمرُه إذا أراد شيئا أن يقول له: كُن، فيكون. والخلقُ وما فى أيديهم مُلكُه يتصرف فيه كيف يشاء. وهو الذى يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابى قولَه هذا، وسبح الله كثيراً وعظَّمه؛ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده، إنَّ شأن الله أعظم من ذلك.

وفى هذا الحديث: إثباتُ علوِّ الله على خلقه، وأنَّ عرشه فوق سمواته. وفيه: تفسيرُ الاستواء بالعلو؛ كما فسَّره الصحابةُ والتابعون والأئمة.

خلافاً للمعطلة: من الجهمية، والمعتزلة، ومن أخذ عنهم كالأشاعرة ونحوهم. ممن ألحد فى أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنى الذى وضعت له ودلَّت عليه، من إثبات صفات الله تعالى، التى دلَّت على كماله جل وعلا.

كما عليه السلفُ الصالح والأئمة، ومن تبعهم ممن تمسَّك بالسنة. فإنَّهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلاله وعظمته. إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) ـ بعد كلام سبق فيما يُعرِّفُ العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته ـ قال بعد ذلك :

والثانى: أنْ يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتُفتح له أبوابُ السماء، فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها.

---

(١) (ط): ابن بشار. تحريف، وهو محمد بن اسحاق بن يسار، أبو بكر المطلبى، مولاهم، صدوق يدلس ت (١٥٠هـ)، «تقريب» (٤٦٧).

ثم يُفتح له باب بعد باب، حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن. فينظر سعتَه وعظمته، وجلاله ومجده ورفعته. يرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه، كحلَقة ملقاة بأرض فلاة. ويرى الملائكة حافّين من حول العرش، لهم زَجلٌ بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير.

والأمرُ ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود، التى لا يعلمها إلا ربُّها ومليكها. فينزل الأمرُ بإحياء قومٍ وإماتة آخرين/ ، وإعزاز قومٍ وإذلال آخرين، وإنشاء مُلْك [١٨٣/أ] وسلب ملك. وتحويل نعمة من محل إلى محل.

وقضاء الحاجات، على اختلافها وتباينها وكثرتها: من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضُر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، وردّ آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكفّ لعدوان.

فهى مراسيمُ دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ فى أقطار العوالم، لا يشغله سمع شىء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج، على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها. ولا تبرَّم بإلحاح المُلحّين، ولا تنقص ذرَّةٌ من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فحينئذٍ يقوم القلبُ بين يدى الرحمن مُطرقاً لهيبته، خاشعا لعظمته عان لعزته. فيسجد بين يدى المَلك الحق المُبين، سجدةً لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد. فهذا سَفرُ القلب، وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من [(١)]أعظم آيات الله، وعجائب صنعه. فيا له من سفر ما أبركَه وأروحه،[(١)] وأعظم ثمرته وربحه، وأجل منفعته وأحسن عاقبته. سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب. انتهى كلامه رحمه الله تعالى[(٢)].

وأمَّا الاستشفاعُ بالرسول ﷺ فى حياته، فالمرادُ به: استجلابُ دعائه، وليس خاصاً به ﷺ. بل كلُّ حيٍّ صالحٍ يُرجى أن يُستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه

(١) ما بينهما ساقط من (ط).

(٢) ابن القيم فى «مفتاح دار السعادة» (٢١٧).

أنْ يدعو للسائل بالمطالب الخاصة أو العامة؛ كما قال النبى ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: «لا تنسنا يا أخى من صالح دُعائك»[1].

وأمَّا الميت: فإنما يُشرع فى حقه الدعاء له على جنازته، وعلى قبره وفى غير ذلك. وهذا هو الذى يشرع فى حق الميت، وأمَّا دعاؤه: فلم يشرع، بل قد دلَّ الكتابُ والسُّنة على النهى عنه، والوعيد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿والذين تَدْعُون من دُونه ما يَمْلكُون من قطمير * إنْ تَدْعُوهُم لا يَسْمَعُوا دُعاءكُم ولَوْ سَمعُوا ما استجابوا لكُم ويَوْم القيامَة يَكْفُرُون بشرككم ولا يُنَبّك مثلُ خبير﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤] فبينً تعالى أنَّ دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شركٌ، يكفر به المدعوُّ يوم القيامة.

[١٨٣/ب] أى: يُنكره، ويعادى من فعله؛ كما فى آية الأحقاف: ﴿وإذا حُشر/ الناسُ كانُوا لهم أعْداءً وكانُوا بعبادَتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٦] فكلٌّ ميتٍ أو غائب، لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر.

والصحابة رضى الله عنهم لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم يُنقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم: أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبى ﷺ بعد وفاته، حتى فى أوقات الجدب؛ كما وقع لعمر رضى الله عنه لما خرج ليستسقى بالناس، خرج بالعباس عمَّ النبى ﷺ فأمره أن يستسقى[2]، لأنه حىٌّ حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يُستسقى بأحدٍ بعد وفاته لاستسقى عمر رضى الله عنه فى السابقين الأولين بالنبى ﷺ.

وبهذا يظهر الفرقُ بين الحى والميت؛ لأن المقصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً. فإنهم فى الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب الدعاء ممن يدعوه ويتضرَّع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم.

فمن تعدَّى المشروع إلى ما لا يُشرع، ضل وأضل. فلو كان دعاءُ الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبقَ وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم. فمن تمسَّك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك، وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه أبو داود فى «السنن» رقم (١٤٩٨) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٥٥٧) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (١٠١٠، ٣٧١٠) عن أنس.

(٦٥)
بـــاب
ما جاء في حماية المصطفى ﷺ
حمى التوحيد وسده طرق الشرك

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالى: بابُ ما جاء في حماية المصطفى ﷺ[١] حمِى التوحيد، وسدِّه طُرقَ الشرك.

عن عبد الله بن الشخِّير، قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيِّدُنا. فقال: «السيِّدُ الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجْرِينَّكم الشيطان». رواه أبو داود بسندٍ جيد[٢].

وعن أنس، أنَّ ناساً قالوا: يارسول الله، يا خيَرنا، وابنَ خيرنا، وسيدَنا وابن سيدنا. فقال: «ياأيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجل» رواه النسائي بسندٍ جيد[٣].

ش: قوله: (بابُ ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك) حمايتُه ﷺ حمى التوحيد، عما يشوبُه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص. وهذا كثيرٌ في السُّنة الثابتة عنه ﷺ، كقوله: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله»

---

(١) في بعض النسخ الخطية لكتاب «التوحيد»: حماية النبي ﷺ.

(٢) أبو داود في «السنن» رقم (٤٨٠٦) قال ابن حجر في «فتح الباري» (٥/ ١٧٩): رجاله ثقات، وقد صححه غيرُ واحد.

(٣) النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٢٤٨، ٢٤٩) قال ابن عبد الهادي في «الصارم» (٢٤٦): إسنادهُ صحيح.

وتقدم، وقوله: «إنه لا يُستغاث بى، وإنما يستغاث بالله عز وجل»[1] ونحو ذلك.

ونهى عن التمادح، وشدَّد القولَ فيه؛ كقوله لمن مدح إنسانًا: «ويلك قطعت عُنق صاحبك»[2] والحديثُ أخرجه أبو داود، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه: أنَّ رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله ﷺ، فقال له «قطعت عُنقَ صاحبك - ثلاثًا»[3].

وقال: «إذا لقيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب» أخرجهم مسلم، والترمذى، وابن ماجة، عن المقداد ابن الأسود[4].

وفى هذه الأحاديث: نهى أنْ يقولوا: أنت سيدنا، وقال: «السيدُ الله تبارك وتعالى» ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، وقال: «لا يستجرينَّكم الشيطان».

وكذلك قوله، فى حديث أنس: أنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرَنا وابن خيرنا وسيدنا وابنَ سيدنا فقال/ «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان» كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح، فيُفضى بهم إلى الغلو. [١٨٤/أ]

وأخبر ﷺ أنَّ مواجهة المادح للمدوح بمدحه - ولو بما فيه - من عمل الشيطان؛ لما تفضى محبةُ المدح إليه من تعاظم الممدوح فى نفسه وذلك يُنافى كمال التوحيد.

فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدور إلا عليه، وذلك غايةُ الذل فى غاية المحبة. وكمال الذل يقتضى: الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأنه لا يرى نفسه إلا فى مقام الذم لها، [والمعاتبة لها][5] فى حق ربه. وكذلك الحبُّ لا تحصل غايتُه إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات.

---

(١) مضى تخريجُه.

(٢) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٢٦٦٢، ٦٠٦١، ٦١٦٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (٣٠٠٠) من حديث أبى بكرة.

(٣) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٨٠٥).

(٤) مسلم فى «الصحيح» رقم (٣٠٠٢) والترمذى فى «الجامع» رقم (٢٣٩٥) وابن ماجة رقم (٣٧٤٢).

(٥) إضافة من (ض) و(هـ) و(ط).

ومحبةُ المدح من العبد لنفسه يُخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثما. فمقامُ العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً، والنهى عنه صيانة لهذا المقام. فمتى اخلص الذلَ لله، والمحبة له: خلصت أعمالُه وصحت. فمتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب: دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد.

وإذا أدَّاه المدحُ إلى التعاظم فى نفسه، والاعجاب بها: وقع فى أمر عظيم، ينافى العبودية الخاصة؛ كما فى الحديث: «الكبرياءُ ردائى والعظمة إزارى، فمن نازعنى شيئا منهما عذبته»[1]، وفى الحديث: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذرَّة من كبر»[2].

وهذه الآفة قد تكون محبة المدح سبباً لها، وسلَّما إليها. والعُجْب يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب.

وأمَّا المادح، فقد يُفضى به المدح إلى أن يُنزل الممدوح منزلةً لا يستحقها. كما يوجد كثيراً فى أشعارهم، من الغلو الذى نهى عنه الرسولُ ﷺ وحذر أُمته أن يقع منهم. فقد وقع الكثير منه، حتى صرحوا فيه بالشرك فى الربوبية والإلهية والملك، كما تقدَّمت الإشارةُ إلى شىءٍ من ذلك.

والنبىُّ ﷺ لما أكمل الله له مقامَ العُبودية، صار يكره أن يُمدح؛ صيانةً لهذا المقام. وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نُصحاً لهم، وحمايةً لمقام التوحيد عن أنْ يدخله ما يفسده أو يضعفه، من الشرك ووسائله: ﴿**فبدَّل الذين ظلموا قولا غيرَ الذى قيل لهم**﴾ [البقرة: ٥٩] ورأوا أنَّ فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربةٌ من أفضل القربات، وحسنه من أعظم الحسنات.

وأما تسميةُ العبد بالسيد، فاختلف العلماء فى ذلك:

قال العلاَّمةُ ابنُ القيِّم فى (بدائع الفوائد): اختلف الناسُ فى جواز إطلاق السيد على البشر. فمنعه قومٌ، ونُقل عن مالك/؛ واحتجوا بقول النبى ﷺ لما قيل له: يا سيِّدَنا، قال: «السيد الله»[3].

---

(١) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٦٢٠) وأبو داود فى «السنن» رقم (٤٠٩٠) واللفظ له، من حديث أبى هريرة.

(٢) أخرجه مسلم فى «الصحيح» رقم (٩١) من حديث ابن مسعود.

(٣) سبق تخريجه.

وجوَّزه قومٌ، واحتجوا بقول النبى ﷺ للأنصار «قوموا إلى سيدكم»[1] وهذا أصحُّ من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحدُ ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمى سيِّدُ كندة، ولا يقال: المَلَك سيِّد البشر. قال: وعلى هذا فلا يجوز أنْ يطلق على الله هذا الإِسم.

وفى هذا نظر؛ فإنَّ السَّيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو فى منزلة المالك، والمولَى، والرب، لا بمعنى الذى يُطلق على المخلوق. انتهى[2].

قلتُ: فقد صحَّ عن ابن عباس رضى الله عنهما، أنه قال فى معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رباً﴾ [الأنعام: ١٦٤] أى: إلهاً وسيداً[3]. وقال فى قول الله تعالى: ﴿الله الصمدُ﴾ أنَّه السيد، الذى كمُل فى جميع أنواع السؤدد[4]. وقال أبو وائل[5]: هو السيد الذى انتهى سؤددُه[6].

وأمَّا استدلالهم بقول النبى ﷺ للأنصار «قوموا إلى سيدكم» فالظاهر: أنَّ النبى ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون فى هذا المقام تفصيل. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخارى فى «الصحيح» رقم (٣٠٤٣، ٣٨٠٤، ٤١٢١، ٦٢٦٢) ومسلم فى «الصحيح» رقم (١٧٦٨) من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٢) ابن القيم، «بدائع الفوائد» (٣/ ٢١٣).

(٣) ذكره البغوى فى «التفسير» (٢/ ١٤٧).

(٤) أخرجه ابن جرير فى «التفسير» (٣٠/ ٣٤٦) وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ فى «العظمة» كما فى «الدر المنثور» (٨/ ٦٨٢).

(٥) شقيق بن سلمة الأسدى الكوفى، ثقة مخضرم، مات فى خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة. «تقريب» (٢٦٨).

(٦) أخرجه ابن جرير فى «التفسير» (٣٠/ ٣٤٦) والبخارى فى «الصحيح» (٨/ ٧٣٩) معلقاً، وابن أبى عاصم فى «السنة» (١/ ٢٢٩).

(٦٦)

بـــاب

ما جاء في قول الله تعالــى: ﴿ومــا قــدروا اللـــه حق قدره والأرض جميعـا قبضتـه يــوم القيامـــة﴾

قـال المصنِّفُ رحمـه الله تعالـى: بابُ ما جاء فى قول الله تعالى: **﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قدْره والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسموات مطويات بيمينه سبْحانه وتعالى عمَّا يُشركون﴾**. [الزُّمر: ٦٧].

عن ابن مسعود، قـال: جـاء حَبْرٌ مـن الأحبـار إلى رسـول الله ﷺ، فقـال: يا محمد، إنَّا نجدُ أنَّ الله يجعلُ السموات على إصْبَع، والأرضين على إصبع، والشجرَ على إصبع، والماء على إصبع، والثَّرىَ على إصبع، وسائرَ الخلق على إصبع. فيقول: أنا الملكُ. فضحك النبيُّ ﷺ حتى بدت نواجذُه؛ تصديقاً لقول الحَبْر، ثم قرأ: **﴿وما قَدَرُوا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة﴾**. الآية. متفق عليه.

وفى رواية لمسلم: والجبالَ والشجر على إصبع، ثم يهزهُنَّ، فيقول: أنا الملك، أنا الله.

وفى رواية للبخارى: يجعلُ السمواتِ على إصبع، والماءَ والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. أخرجاه[١].

ش: قوله: بابُ ما جاء فى قولِ الله تعالى: **﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْره والأرْضُ جَميعاً قَبْضتُهُ يَوْمَ القِيامةِ والسمواتُ مَطْويَّاتٌ بِيَمِينه سُبْحَانَهُ وتَعَالى عَمَّا يُشرِكُونَ﴾**.

---

(١) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٦).

أى: من الأحاديث والآثار، فى معنى هذه الآية الكريمة.

قال العمادُ ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ما قَدَر المشركون الله حقَّ قَدْره، حتى عبدوا معه غيره. وهو العظيم الذى لا أعظم منه، القادرُ على كلٍّ شىء، المالكُ لكل شىء، وكلٌّ شىء تحت قهره وقدرته.

قال السُّدى: ما عظَّموه حقَّ عظمته. وقال محمد بن كعب: لو قَدَروه حقَّ قدره، ما كذَّبوه.

وقال علىٌّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هم الكفار، الذين لم يؤمنوا بقُدرة الله عليهم. فمن آمن أنَّ الله على كلٍّ شىء قدير، فقد قَدَر الله حقَّ قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حقَّ قدره(١).

وقد وردت أحاديثُ كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريقُ فيها وفى أمثالها: من مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

ـ وذكر حديث ابن مسعود، كما ذكره المصنف رحمه الله فى هذا الباب ـ قال: ورواه البخارى فى (صحيحه) فى غير موضع، ومسلم، والإمام أحمد،والترمذى، والنسائى. كلُّهم من حديث سُليمان بن مهران هو الأعمش، عن إبراهيم، عن عُبيدة، عن ابن مسعود، بنحوه.

[قال الإمام أحمد: حدّثنا معاوية، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله](٢)، قال: جاء رجلٌ من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، أبَلَغك أنَّ الله يحمل الخلائق على إصْبَع، والسموات على إصبع، والأرضين على/ إصبع، والشجرَ على إصبع، والثَّرَى على إصبع. فضحك رسولُ الله ﷺ حتى بدت نواجذُه، قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿**وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه**﴾ الآية. وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، من طُرق عن الأعمش، به(٣). [١٨٥/أ]

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كُدَينة، عن

(١) أخرج هذه الآثار: ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٤/ ٢٥).

(٢) إضافة من (ط) «والتفسير».

(٣) مضى تخريجه، فى أول الباب.

عطاء، عن أبى الضُّحى، عن ابن عباس، قال : مرَّ يهوديٌّ برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يومَ يَجعل الله السموات على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرضَ على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كلٌّ ذلك يُشير بأصبعه. فأنزل الله عز وجل: ﴿وما قدَرُوا الله حَقَّ قدْرِه﴾ وكذا رواه الترمذى فى (التفسير)، بسنده عن أبى الضُّحى مسلم بن صُبَيح، به. وقال: حسنٌ صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[1].

ثم قال البخارى: حدثنا سعيد بن عُفير، حدثنا الليث، حدثنى عبد الرحمن بن خالد بن مُسافر، عن ابن شهاب، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن: أنَّ أبا هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك، أين مُلوك الأرض؟» تفرَّد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر[2].

وقال البخاريُّ فى موضع آخر: حدَّثنا مُقدَّم بن محمد، حدثنا عمّى القاسم بن يحيى، عن عُبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا المَلكُ» تفرَّد به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر[3].

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر، بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول، فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاقُ بن عبد الله بن أبى طلحة، عن عبيد الله بن مُقسّم، عن ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية يوماً على المنبر ﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه والأرضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يوْمَ القيامة والسموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمينه سُبْحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشركون﴾ ورسولُ الله ﷺ يقولَ هكذا بيده يحركها، ويقبل بها ويدبر «يمجِّدُ الربُّ نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم» فَرَجف برسول الله ﷺ المنبرُ، حتى قلنا: ليخرَّن به[4]. انتهى[5].

---

(١) أحمد فى «المسند» (١/ ٢٥١) والترمذى فى «الجامع» رقم (٣٢٣٨).

(٢) البخارى فى «الصحيح» رقم (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢، ٧٤١٣)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٧).

(٣) البخارى فى «الصحيح» رقم (٧٤١٢)، ومسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٨).

(٤) أحمد فى «المسند» (٢/ ٧٢).

(٥) ابن كثير فى «التفسير» (٧/ ١٠٣ - ١٠٥).

قال المصنِّفُ رحمه الله تعالى: ولمسلم، عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوى الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذُهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي/ الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[1]. [١٨٥/ب]

ورُوى: عن ابن عباس، قال: ما السمواتُ السبع والأرضون السبع فى كَفّ الرحمن إلا كخردلةٍ فى يد أحدكم[2].

وقال ابنُ جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابنُ زيد: حدثنى أبى، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما السمواتُ السبع فى الكرسى، إلا كدراهم سبعةٍ أُلقيت فى تُرْسٍ».

قال: وقال أبو ذر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسىُّ فى العرش إلا كحَلْقة من حديد أُلقيت بين ظَهْرَى فلاةٍ من الأرض»[3].

وعن ابن مسعود، قال: بَين السماء الدنيا والتى تليها خمسُمائة عام، وبين كلِّ سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام، وبين الكرسى والماء خمسمائة عام، والعرشُ فوق الماء. والله فوق العرش، لا يخفى عليه شىءٌ من أعمالكم. أخرجه ابنُ مهدى، عن حمَّاد بن سلمة، عن عاصم، عن زرٍّ، عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودىُّ، عن عاصم، عن أبى وائل، عن عبد الله[4].

قاله الحافظ الذهبى، قال: وله طرق[5].

وعن العباس بن عبد المطلب، قال: قال رسولُ الله ﷺ «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرةُ خمسمائة سنة،

---

(١) مسلم فى «الصحيح» رقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى «التفسير» (٢٤/ ٢٥).

(٣) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» رقم (٥٧٩٤) قال ابن كثير، فى «التاريخ» (١/ ١١): أول الحديث مُرسل، وعن أبى ذر منقطع. وقد روى عنه، من طريق أخرى موصولاً اهـ.

(٤) أخرجه الدارمى فى «الرد على الجهمية» (٢٦) وابن خزيمة فى كتاب «التوحيد» رقم (٥٩٤) والطبرانى فى «الكبير» رقم (٨٩٨٧) وأبو الشيخ فى «العظمة» رقم (٢٠٣، ٢٧٩) قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١/ ٨٦): ورجاله رجالُ الصحيح.

(٥) الذهبى، «العلو للعلى الغفار» (٦٤).

ومن كلِّ سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثِفُ كلِّ سماء مسيرةُ خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر. بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بنى آدم». أخرجه أبو داود وغيره[1].

ش: قوله (ولمسلم عن ابن عمر). الحديث. كذا فى رواية مُسلم. وقال الحُميدى: وهى أتم، وهى عند مسلم من حديث سالم، عن أبيه.

وأخرجه البخارى، من حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: «إنَّ الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه» وأخرجه مسلم، من حديث عبيد الله بن مُقسّم.

قلتُ: وهذه الأحاديث وما فى معناها، تدلُّ على عظمة الله وعظيم قدرته وعِظم مخلوقاته. وقد تعرَّف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته.

وكلها تُعرِّف وتدل على كماله وأنَّه هو المعبود وحده، لا شريك له فى ربوبيته وإلهيته. وتدل على إثبات الصفات على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل. وهذا هو الذى دل عليه نصوصُ الكتاب والسُّنة، وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى آثارهم على الإِسلام والإِيمان.

وتأمَّل ما فى هذه الأحاديث الصحيحة، من تعظيم النبى ﷺ ربَّه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التى تدل على عظمته.

وتأمَّل ما فيها من إثبات علو الله على عرشه، ولم يقل النبىُّ ﷺ فى شىء منها: إنَّ ظاهرها غيرُ مراد، أو أنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه. فلو كان هذا حقاً:بلَّغه أمينُه أمتَّه؛ فإنَّ الله أكمل له الدين وأتمَّ به النعمة، فبلَّغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى أصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وتلقَّى الصحابةُ رضى الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربَّه، من صفات

(1) أبو داود فى «السنن» رقم (٤٧٢٣)، وأخرجه الترمذى فى «الجامع» رقم (٣٣١٧) وقال: هذا حديثٌ حسن غريب.

كماله ونعوت جلاله. فآمنوا به، وآمنوا بكتاب الله وما تضمَّنه من صفات ربهم جل وعلا؛ كما قال تعالى: ﴿والرَّاسِخُون في العِلْم يَقُولُون آمَنَّا به كُلٌّ من عنْدِ ربِّنا﴾ [آل عمران: ٧].

وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمةُ من المحدثين والفقهاء: كلهم وصفوا الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ. ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولا قال أحدٌ منهم: إنَّ ظاهرها غير مراد، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه. بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، وصنَّفوا في ردِّ هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة، الموجودة بأيدي أهل السُّنَّة والجماعة.

[١٨٦/أ] قال شيخُ الإِسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: وهذا/ كتابُ الله من أوله إلى آخره، وسُنَّة رسوله ﷺ، وكلامُ الصحابة والتابعين، وكلامُ سائر الأئمة مملوء بما هو نصٌّ، أو ظاهر: أنَّ الله تعالى فوق كلِّ شيء، وأنه فوق العرش فوق السموات، مستوٍ على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إليه يصعدُ الكَلِمُ الطيِّبُ والعَمَلُ الصالح يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إنِّي مُتوفِّيك ورافعُك إليَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعهُ الله إليْه﴾ [النساء: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿ذي المعارج * تعْرُجُ الملائكَةُ والرُّوحُ إليه﴾. [المعارج: ٣ - ٤].

وقوله تعالى: ﴿يُدبِّرُ الأمْرَ من السماء إلى الأرضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليه﴾ [السجدة: ٥] وقوله تعالى: ﴿يخافُون ربَّهم من فوقهم﴾ [النحل: ٥].

وقوله تعالى: ﴿هُو الذى خلَقَ لكم مافى الأرض جميعاً ثُمَّ استوى إلى السماء فسوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿إنَّ ربَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرضَ فى ستة أيام ثُمَّ استوى على العرش يُغشي الليلَ النهار يَطْلُبُه حثيثاً والشمسَ والقمر والنُّجوم مُسخَّرات بأمْرِه ألا له الخَلْقُ والأمْرُ تبارك الله ربُّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إنَّ ربَّكُم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستَّة أيام ثُمَّ

استوى على العرش يُدبِّرُ الأمر ما مِنْ شَفِيعٍ إلا من بَعْدِ إذْنِه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكَّرون﴾ [يونس: ٣] فذكر التوحيدين فى هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿الله الذى رفع السموات بِغَيرِ عَمَدٍ ترونها ثم استوى على العرش﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأرضَ والسموات العُلى * الرحمنُ على العَرْشِ استوى﴾ [طه: ٤ - ٥].

وقوله تعالى: ﴿وتَوَكَّلْ على الحيِّ الذى لا يَمُوتُ وسبِّحْ بحَمْده وكَفَى به بذُنُوبِ عبَاده خَبيراً * الذى خَلَق السَّموات والأرْضَ وما بَيْنَهُما فى سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ الرَّحْمنُ فاسألْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٨ - ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿الله الذى خلق السموات والأرْضَ وما بَيْنَهُما فى ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ استوى على العَرْشِ ما لَكُم من دُونه من وَلِىٍّ ولا شفيع أفلا تتذكَّرون * يُدَبِّرُ الأمْرَ مِن السماء إلى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليْهِ فى يَوْمٍ كان مِقْدَارُهُ ألف سنة مِمَّا تَعُدُّون﴾ [السجدة: ٤ - ٥].

وقوله: ﴿هُوَ الذى خلقَ السموات والأرْضَ فى ستَّة أَيَّامٍ ثُمَّ استوى على العرش يَعْلَم ما يَلِجُ فى الأرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْها وما يَنْزِلُ مِنَ السَّماء وما يَعْرُجُ فيها وهو مَعَكُم أَيْنَما كُنْتُم والله بما تَعْمَلُون بصير﴾ [الحديد: ٤] فذكر عمومَ علمه وعموم قدرته، وعموم إحاطته وعموم رؤيته.

وقوله: ﴿أأَمِنتُم من فى السَّماء أنْ يَخْسِف بكُمُ الأرْض فإذا هى تُمورُ * أم أَمِنْتُم مَن فى السماء أنْ يُرْسِل عليكُم حَاصِباً فستعلمون كيف نذير﴾ [الملك: ١٦ - ١٧].

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ من حكيم حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ [الجاثية: ٢].

[١٨٦/ب] وقوله تعالى: ﴿وقال فِرْعَوْنُ يا هَامَانُ ابن لى/ صرْحاً لَعَلّى أَبْلُغُ الأسْباب * أَسباب السموات فأَطَّلِعَ إلى إله مُوسى وإنّى لأظُنُّهُ كاذِباً﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧]. انتهى كلامهُ رحمه الله[١].

قلتُ: وقد ذكر الأئمةُ رحمهم الله تعالى ـ فيما صنَّفوه فى الرد على نُفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم ـ أقوالَ الصحابة والتابعين:

فمن ذلك: ما رواه الحافظُ الذهبى فى (كتاب العلو)، وغيره ـ بالأسانيد الصحيحة ـ عن أم سلمة زوج النبى ﷺ، أنها قالت فى قوله تعالى: ﴿الرحمنُ على العَرْش استوى﴾ قلت: الاستواءُ غيرُ مجهول والكيف غير معقول، والاقرار به إيمان، والجحود به كفر. رواه ابنُ المنذر، واللالكائى، وغيرُهما بأسانيد صحاح[٢].

قال: وثبت عن سُفيان بن عيينة، أنه قال: لما سُئل ربيعةُ ابن أبى عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيفُ غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق[٣].

وقال ابنُ وهب: كُنَّا عند مالك، فدخل رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك، وأخذته الرُّحَضاء[٤]، وقال: الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع. وأنت صاحب بدعة، أخرجوه. رواه البيهقى بإسناد صحيح، عن ابن وهب[٥].

ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً، ولفظُه، قال: الاستواء غير مجهول، والكيف

(١) ابن تيمية، «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٢) وما بعدها. ونقله ابن القيم فى «اجتماع الجيوش» (٩٦).

(٢) الذهبى فى كتاب «العلو للعلى الغفار» (٦٥)، واللالكائى فى «شرح أصول الاعتقاد» رقم (٦٦٣)، قال ابنُ تيمية رحمه الله تعالى فى «الفتاوى» (٥/ ٣٦٥): ليس إسناده مما يُعتمد عليه.

(٣) أخرجه البيهقى فى «الأسماء الصفات» (٥١٦) واللالكائى فى «شرح أصول الاعتقاد» رقم (٦٦٥)، قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى فى «الفتاوى» (٥/ ٣٦٥): ثابتٌ عن ربيعة.

(٤) الرُّحضاء: عَرَق المحموم. «غريب الحديث» الخطابى (٢/ ٥٨٢).

(٥) البيهقى فى «الأسماء والصفات» (٥١٦) قال ابن حجر فى «فتح البارى» (١٣/ ٤٠٦): إسنادهُ جيد.

غير معقول، والإِيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1].

قال الذهبي: فانظر إليهم، كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلومٌ لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في (صحيحه): قال مُجاهد ﴿استوى﴾ علا على العرش[2]

وقال إسحاق بن راهويْه: سمعتُ غيرَ واحدٍ من المفسرين، يقول: ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾ أي: ارتفع[3].

وقال محمد بن جرير الطبري، في قوله تعالى: ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾ أي: علا وارتفع[4].

وشواهدُه في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك: قولُ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدتُ بأنَّ وعد الله حقٌّ وأنَّ النار مثوى الكافرينا
وأنَّ العرش فوق الماء طاف وفوقَ العرش ربُّ العالمينا
وتحمله ملائكةٌ شداد ملائكة الإِله مسوَّمينا[5]

وروى الدارميُّ، والحاكم، والبيهقي بأصح إسناد، إلى علي بن الحسن بن شَقيق، قال: سمعتُ ابن المبارك يقول: نعرف ربَّنا بأنه فوق سبع سمواته، على العرش استوى، بائن من خلقه. لا نقول كما قالت الجهمية[6]

قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق/، عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة، على العرش بائنٌ من خلقه[7]. [١٨٧/أ]

(١) البيهقي في «المصدر السابق».

(٢) البخاري في «الصحيح» (١٣/٤٠٣).

(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» رقم (٦٦٢).

(٤) ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٦/١٣٨).

(٥) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٧)، والذهبي في «سير النبلاء» (١/٢٣٨).

(٦) الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٣)، والبخاري في «خلق أفعال العباد» (٨) وصححه ابن تيمية في «الحموية» (٤١).

(٧) الدارمي في «الرد على الجهمية» (٢٣).

وقد تقدم قولُ الأوزاعى: كنَّا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إنَّ الله تعالى ذِكرُه فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السُّنة[1].

وقال أبو عمر الطَّلَمَنْكى[2] فى كتاب (الأصول): أجمع المسلمون من أهل السُّنة، على أنَّ الله استوى على عرشه بذاته.

وقال فى هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السُّنة، على أنَّ الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة، لا على المجاز. ثم ساق بسنده، عن مالك، قوله: الله فى السماء، وعلمُه فى كلٍّ مكان.

ثم قال فى هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السُّنة، أنَّ معنى قوله: ﴿وهو معكُم أيْنَما كُنْتُم﴾ ونحو ذلك من القرآن: أنَّ ذلك علمه، وأنَّ الله فوق السموات بذاته، مستو على عرشه كيف شاء. وهذا لفظُه فى كتابه[3].

وهذا كثيرٌ فى كلام الصحابة، والتابعين والأئمة: أثبتوا ما أثبته الله فى كتابه وعلى لسان رسوله على الحقيقة، على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين. ولم يمثِّلوا ولم يكيِّفوا، على ما ذكرنا ذلك عنهم فى هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبيُّ: وأول وقت سُمعت مقالة من أنكر أنَّ الله تعالى فوق العرش: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات. فقتله خالد بن عبد الله القسرى، وقصته مشهورة[4].

وأخذ عنه هذه المقالة: الجهم بن صفوان، إمامُ الجهمية. فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك فى آخر عصر التابعين. فأنكر مقالته أئمةُ ذلك العصر، مثل الأوزاعى، وأبى حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثورى، وحمَّاد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى.

---

(١) أخرجه البيهقى فى «الأسماء والصفات» (٥١٥) بسند جيد، كما قال ابن حجر فى «فتح البارى» (٤٠٦/١٣).

(٢) أحمد بن محمد بن عبد الله المعافرى الأندلسى، حافظ محدث إمام ت (٤٢٩هـ) «سير النبلاء» (٥٦٦/١٧).

(٣) نقله ابن القيم فى «اجتماع الجيوش الاسلامية» (١٤٢).

(٤) ينظر: «تاريخ ابن كثير» ـ(٢١/١٠).

فقال الأوزاعيُّ، إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهرى بسنده، إلى أبى بكر البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنى محمد بن على الجوهرى ـ ببغداد ـ حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصى، سمعتُ الأوزاعى يقول: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إنَّ الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السُّنة من صفاته. أخرجه البيهقيُّ فى (الصفات)، ورواته أئمة ثقات[1].

وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى: لله أسماءٌ وصفات، لا يسع أحداً ردُّها. ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأمَّا قبل قيام الحجة فإنه يُعذر بالجهل. ونُثبت هذه الصفات/ ، وننفى عنه التشبيه؛ كما نفى عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] انتهى من (فتح البارى)[2]. [١٨٧/ب]

قوله: (وعن العباس بن عبد المطلب)، ساقه المصنِّفُ مختصراً، والذى فى (سنن أبى داود): عن العباس بن عبد المطلب، قال: كنتُ فى البطحاء، فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ. فمرَّت بهم سحابة، فنظر إليها، فقال: «ما تُسمُّون هذه؟» قالوا: السحاب، قال: «والمُزن». قالوا: والمزن، قال: «والعَنَان» قالوا: والعَنَان ـ قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً ـ قال: «هل تدرون ما بُعْدُ ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى، قال: «إنَّ بُعد ما بينهما إمَّا واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدَّد سبع سماوات. «ثم فوق السابعة بحرٌ، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم فوقَ ذلك ثمانيةُ أوعال، بين أظلافهم وركُبهم مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه، كما بين سماء وسماء. ثم الله تبارك وتعالى، فوق ذلك».

وأخرجه الترمذى، وابن ماجة، وقال الترمذى: حسنٌ غريب، وقال الحافظ الذهبى: رواه أبو داود بإسناد حسن[3].

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) ابن حجر فى «فتح البارى» (١٣/٤٠٧).

(٣) مضى تخريجه فى أول الباب.

وروى الترمذيُّ نحوه، من حديث أبي هريرة، وفيه «بُعْدُ ما بين سماءٍ إلى سماء خمسمائة عام» ولا مُنافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام، هو على سير القافلة مثلاً، ونيِّف وسبعون سنة على سير البريد. لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد. وروى شرَيكٌ بعض هذا الحديث، عن سماك فوقفه، هذا آخرُ كلامه.

قلتُ: فيه التصريح بأنُ الله فوق عرشه، كما تقدَّم في الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة، وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

وهذا الحديث له شواهدُ في (الصحيحين) وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعَّفه؛ لكثرة شواهده التي يستحيل دفعُها، وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديثُ كأمثاله: يدلُّ على عظمة الله وكماله، وعظيم مخلوقاته، وأنَّه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ.

وعلى كمال قدرته، وأنه هوالمعبود وحده لا شريك له، دون كلٍّ ما سواه.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلى الله على سيد المُرسلين وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. تم كتابُ (فتح المجيد) بعون الملك الحميد.

الفهارس العامة

١ - فهرس الآيات الكريمة

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة فاطر

سورة يس

سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

وماختلفتم فيه من شىء فحكمه.	١٠	٥١٠
ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.	١١	٥٣٠، ٦٢٣
أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين.	٢١	١٢٧
وجزاء سيئة سيئة مثلها.	٤٠	٥٥٦
لله ملك السموات والأرض.	٤٩	١٩٧
وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم.	٥٢	٢٤١

سورة الزخرف

ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض.	٩	٦٩
وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية.	٢٣	٧٧، ٢٤٣
وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه.	٢٦ - ٢٧	١٢٥
واسأل من أرسلنا من قبلك.	٤٥	٣٩
الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض.	٦٧	٣٩٢
إلا من شهد بالحق وهم يعلمون.	٨٦	٦٥
ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله.	٨٧	٦٩، ١٢٦

سورة الجاثية

تنزيل من الله العزيز الحكيم.	٢	٦١٩
وسخر لكم مافى السموات وما.	١٣	٧٣
ثم جعلناك على شريعة من.	١٨ - ١٩	٣٠٧
وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا.	٢٤	٥٠١، ٥٠٢

سورة الأحقاف

ومن أضل ممن يدعوا من دون.	٥ - ٦	١٣٠، ٢٠٣، ٢١٣، ٦٠٨
إن الذين قالوا ربنا الله ثم.	١٣	٨١
ان لا تعبدوا إلا الله.	٢١	١١٣
فلولا نصرهم الذين اتخذوا.	٢٨	٢٣٤

سورة محمد

فاعلم أنه لا إله إلا الله.	١٩	٦٥، ٦٦
فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم.	٢١	٤٩٥

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة الإنسان

سورة عبس

سورة التكوير

سورة الأعلى

٢ - فهرس الأحاديث المسندة

حــرف التـــاء

حــرف الثـــاء

حــرف الجيـــم

حــرف الحـــاء

حــرف الخـــاء

حــرف الـــدال

حــرف الكــاف

حـرف الـــلام

حرف الميم

حرف النون

حـــرف اليــــاء

٣ - فهرس المسائل الأصولية

٤ - فهرس المسائل الفقهية

الطهارة

الصلاة

الجهـــــاد

المعامـــلات

الجنايـــات والحـــدود

الذبـائـــح

النـــــذور

٥ - فهرس الأبـــواب

